

الضوء المنير على التفسير

المجلّد الرابع

جمعه الفقير الى ربه العلي عبده

علي الحمد المحمّد الصالحي

من كتب الإمام المحدث المفسر الفقيه شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر الزرعي الدمشقي

المعروف بابن قيّم الجوزيّة

الناشر

مؤسّسة النّور للطّباعة والتجليد

بالتّعاون مع

مكتبة دار السّلام

الناشر

مؤسسة النور للطباعة و التجليد

هاتف: ٤١١٨٨٧٤، فاكس: ٤١١٤١٩١

دخنة ـ شارع الشيخ محمد بن إبراهيم

عنيزة-هاتف و فاكس: ٣٦٤١٠٤٠ (٠٦)

بالتعاون مع

مكتبة دارالسلام

الرياض-شارع الضباب-هاتف: ٤٠٣٣٩٦٢، فاكس: ٤٠٢١٦٥٩



بسم الله الرحمن الرحيم

(١)**قوله** في سورة الحجر: ﴿**وَقَالُوا: يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيهِ الذِّكْر إِنَّكَ لَمَجنُون. لو مَا تَأْتِينا بِالمَلائِكَةِ إِن كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ**﴾ [الحجر: ٦، ٧]. قال الله عز وجل: ﴿**مَا نُنَزِّلُ الملائِكَة إِلا بالحق وما كانوا إذاً منظرين**﴾ [الحجر: ٨]. و«الحق» هٰهنا العذاب.

(٢)**قوله** تعالى: ﴿**وَمَايَأتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَستَهزِءُونَ. كَذَلِكَ نَسلُكُهُ فِي قُلُوبِ المُجرِمِينَ. لَا يُؤمِنُونَ بِهِ**﴾. [الحجر: ١١-١٣] وقد وقع هذا المعنى في القرآن في موضعين هذا أحدهما، والثاني في سورة الشعراء في قوله: ﴿**وَلَو نَزَّلنَاه عَلَىٰ بَعضِ الأَعجَمِينَ. فَقَرَأَهُ عَلَيهِم مَّا كَانُوا بِهِ مُؤمِنِينَ كَذَلِك سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ المُجرِمِينَ. لَا يُؤمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوُا العَذَابَ الأَلِيمَ**﴾ [الشعراء: ١٩٨-٢٠١].

قال ابن عباس: سلك الشرك في قلوب المكذبين، كما سلك الخرزة في الخيط. وقال أبوإسحاق: أي كما فعل بالمجرمين الذين استهزءوا بمن تقدم من الرسل، كذلك سلك الضلال في قلوب المجرمين.

واختلفوا في مفسر الضمير في قوله: ﴿**نسلكه**﴾ فقال ابن عباس: سلكنا الشرك وهو قول الحسن.

وقال الزجاج وغيره: هو الضلال، وقال الربيع: يعني الاستهزاء، وقال الفراء: التكذيب، وهذه الأقوال ترجع إلى شيء واحد، والتكذيب والاستهزاء والشرك كل ذلك فعلهم حقيقة، وقد أخبر أنه سبحانه هو الذي سلكه في قلوبهم.

وعندي في هذه الأقوال شيء، فإن الظاهر أن الضمير في قوله ﴿**لا يؤمنون به**﴾ هو الضمير في قوله ﴿**سلكناه**﴾ فلا يصح أن يكون المعنى: لا يؤمنون بالشرك والتكذيب والاستهزاء، فلا تصح تلك الأقوال إلا باختلاف مفسر الضميرين والظاهر اتحاده، فالذين لا يؤمنون به هو الذي سلكه في قلوبهم وهو القرآن.

فإن قيل: فما معنى سلكه في قلوبهم وهم ينكرونه؟

---

(١) ٢٤٥ مدارج جـ١.　(٢) ٦١ شفاء.

قيل: سلكه في قلوبهم بهذه الحال، أي سلكناه غير مؤمنين به، فدخل في قلوبهم مكذَّباً به، كما دخل في قلوب المؤمنين مصدقاً به، وهذا مراد من قال إن الذي سلكه في قلوبهم هو التكذيب والضلال، ولكن فسر الآية بالمعنى فإنه إذا دخل في قلوبهم مكذبين به فقد دخل التكذيب والضلال في قلوبهم.

فإن قيل: فما معنى إدخاله في قلوبهم وهم لا يؤمنون به.

قيل: لتقوم عليهم بذلك حجة الله فدخل في قلوبهم وعلموا أنه حق وكذبوا به؛ فلم يدخل في قلوبهم دخول مصدق به مؤمن به مرضى به، وتكذيبهم به بعد دخوله في قلوبهم أعظم كفراً من تكذيبهم به قبل أن يدخل في قلوبهم، فإن المكذب بالحق بعد معرفته له شر من المكذب به ولم يعرفه. فتأمله فإنه من فقه التفسير والله الموفق للصواب.

(1)**قول** الله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شيءٍ إلا عِندنا خَزَائِنُهُ﴾ [الحجر: ٢١]؛ متضمن لكنز من الكنوز، وهو أن كل شيء لا يطلب إلا ممن عنده خزائنه، ومفاتيح تلك الخزائن بيديه، وأن طلبه من غيره طلب ممن ليس عنده ولا يقدر عليه.

وقوله: ﴿وأَنَّ إلىَ رَبِّكَ المُنتَهىٰ﴾؛ [النجم: ٤٢] متضمن لكنز عظيم؛ وهو أن كل مراد إن لم يرد لأجله ويتصل به، وإلا فهو مضمحل منقطع، فإنه ليس إليه المنتهى، وليس المنتهى إلا إلى الذي انتهت إليه الأمور كلها، فانتهت إلى خلقه ومشيئته وحكمته وعلمه، فهو غاية كل مطلوب. وكل محبوب لا يحب لأجله فمحبته عناء وعذاب، وكل عمل لا يراد لأجله فهو ضائع وباطل.

وكل قلب لا يصل إليه فهو شقي محجوب عن سعادته وفلاحه.

فاجتمع ما يراد منه كله في قوله: ﴿وَإِن من شيَءٍ إلَّا عندَنَا خَزَائِنُهُ﴾ [الحجر: ٢١]. واجتمع ما يراد له كله في قوله: ﴿وَأَنَّ إِلى رَبِّكَ المُنتهىٰ﴾، فليس وراءه ـ سبحانه ـ غاية تطلب، وليس دونه غاية المنتهى.

وتحت هذا سر عظيم من أسرار التوحيد، وهو أن القلب لا يستقر ولا يطمئن ويسكن، إلا بالوصول إليه، وكل ما سواه مما يحب ويراد، فمراد لغيره، وليس المراد المحبوب لذاته إلا واحد إليه المنتهى، ويستحيل أن يكون المنتهىٰ إلى

---

(١) ٢٠١ فوائد.

اثنين كما يستحيل أن يكون ابتداء المخلوقات من اثنين، فمن كان انتهاء محبته ورغبته وإرادته وطاعته إلى غيره، بطل عليه ذلك وزال عنه، وفارقه أحوج ما كان إليه، ومن كان انتهاء محبته ورغبته ورهبته وطلبه هو ـ سبحانه ـ ظفر بنعيمه ولذته، وبهجته وسعادته أبد الآباد.

العبد دائماً متقلب بين أحكام الأوامر وأحكام النوازل، فهو محتاج ـ بل مضطر ـ إلى العون عند الأوامر، وإلى اللطف عند النوازل، وعلى قدر قيامه بالأوامر يحصل له من اللطف عند النوازل، فإن كمل القيام بالأوامر ظاهراً وباطناً، ناله اللطف ظاهراً وباطناً، وإن قام بصورها دون حقائقها وبواطنها، ناله اللطف في الظاهر وقل نصيبه من اللطف في الباطن.

فإن قلت: وما اللطف الباطن؟ [1] فهو ما يحصل للقلب عند النوازل من السكينة والطمأنينة، وزوال القلق والاضطراب والجزع، فيستخذي بين يدي سيده ذليلاً له، مستكيناً ناظراً إليه بقلبه، ساكناً إليه بروحه وسره، قد شغله مشاهدة لطفه به عن شدة ما هو فيه من الألم، وقد غيبه عن شهود ذلك معرفته بحسن اختياره له، وأنه عبد محض يجرى عليه سيده أحكامه رضي أو سخط، فإن رضي نال الرضا، وإن سخط فحظه السخط. فهذا اللطف الباطن ثمرة تلك المعاملة الباطنة، يزيد بزيادتها، وينقص بنقصانها.

[2]**ثم** تأمل هذا الهواء ومافيه من المصالح فإنه حياة هذه الأبدان، والممسك لها من داخل بما تستنشق منه، ومن خارج بما تباشر به من روحه فتتغذى به ظاهراً وباطناً، وفيه تطرد هذه الأصوات فتحملها وتؤديها للقريب والبعيد كالبريد والرسول الذي شأنه حمل الأخبار والرسائل، وهو الحامل لهذه الروائح على اختلافها وينقلها من موضع إلى موضع، فتأتي العبد الرائحة من حيث تهب الريح، وكذلك تأتيه الأصوات.

وهو أيضاً الحامل للحر والبرد اللذين بهما صلاح الحيوان والنبات.

وتأمل منفعة الريح وما يجري له في البر والبحر، وما هيئت له من الرحمة والعذاب. وتأمل كم سخر للسحاب من ريح حتى أمطر، فسخرت له المثيرة أولاً

(١) كذا بالأصل: ولعل الصواب: قيل فهو... (ج). (٢) ٢١٦ مفتاح جـ ١.

فتثيره بين السماء والأرض. ثم سخرت له الحاملة التي تحمله على متنها كالجمل الذي يحمل الراوية. ثم سخرت له المؤلفة فتؤلف بين كسفه وقطعه. ثم يجتمع بعضها إلى بعض، فيصير طبقاً واحداً. ثم سخرت له اللاقحة بمنزلة الذكر الذي يلقح الأنثى فتلقحه بالماء؛ ولولاها لكان جهاماً لا ماء فيه. ثم سخرت له المزجية التي تزجيه وتسوقه إلى حيث أمر فيفرغ ماءه هنالك. ثم سخرت له بعد أعصاره المفرقة التي تبثه وتفرقه في الجو فلا ينزل مجتمعاً؛ ولو نزل جملة لأهلك المساكن والحيوان والنبات بل تفرقه فتجعله قطراً.

وكذلك الرياح التي تلقح الشجر والنبات، ولولاها لكانت عقيماً.

وكذلك الرياح التي تسير السفن ولولاها لوقفت على ظهر البحر.

ومن منافعها أنها تبرد الماء، وتضرم النار التي يراد إضرامها، وتجفف الأشياء التي يحتاج إلى جفافها.

وبالجملة فحياة ما على الأرض من نبات وحيوان بالرياح، فإنه لولا تسخير الله لها لعباده لذوى النبات، ومات الحيوان، وفسدت المطاعم وأنتن العالم، وفسد. ألا ترى إذا ركدت الرياح كيف يحدث الكرب والغم، الذي لو دام لأتلف النفوس، وأسقم الحيوان وأمرض الأصحاء وأنهك المرضى وأفسد الثمار، وأعفن الزرع وأحدث الوباء في الجو.

فسبحان من جعل هبوب الرياح تأتي بروحه ورحمته ولطفه ونعمته كما قال النبي ﷺ في الرياح إنها من روح الله تأتي بالرحمة.

وتنبه للطيفة في هذا الهواء، وهي أن الصوت أثر يحدث عند اصطكاك الأجرام، وليس نفس الاصطكاك كما قال ذلك من قاله، ولكنه موجب الاصطكاك، وقرع الجسم للجسم، أو قلعه عنه فسببه قرع أو قلع، فيحدث الصوت فيحمله الهواء ويؤديه إلى مسامع الناس، فينتفعون به في حوائجهم ومعاملاتهم بالليل والنهار، وتحدث الأصوات العظيمة من حركاتهم فلو كان أثر هذه الحركات والأصوات يبقى في الهواء كما يبقى الكتاب في القرطاس، لامتلأ العالم منه ولعظم الضرر به واشتدت مؤنته واحتاج الناس إلى محوه من الهواء، والاستبدال به أعظم من حاجتهم إلى استبدال الكتاب المملوء كتابة، فإن ما يلقى

من الكلام في الهواء أضعاف ما يودع في القرطاس، فاقتضت حكمة العزيز الحكيم أن جعل هذا الهواء قرطاساً خفيًّا يحمل الكلام بقدر ما يبلغ الحاجة ثم يمحى بإذن ربه فيعود جديداً نقيًّا لا شيء فيه فيحمل ما حمل كل وقت. اهـ.

(١)﴿ثُمَّ (٢)قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُواْ لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ﴾ [الأعراف: ١١].

فإن نفى كونه من الساجدين أخص من نفى السجود عنه لأن نفي الكون يقتضي نفي الأهلية والاستعداد فهو أبلغ في الذم من أن يقال لم يسجد.

(٣)**وقال** عن عدوه إبليس: أنه قال: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ [ص: ٨٢، ٨٣].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِيْنَ﴾ [الحجر: ٤٢]. والغاوي ضدُّ الراشد، والعشق المحرم من أعظم الغيِّ.

ولهذا كان أتباعُ الشعراء وأهل السماع الشعريِّ غاوين. كما سماهم الله تعالى بذلك في قوله: ﴿والشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾ [الشعراء: ٢٤]. فالغاوون يتبعون الشعراء، وأصحاب السماع الشعري الشيطاني، وهؤلاء لا ينفكُّون عن طلب وصال، أو سؤال نَوال. كما قال أبوتمام لرجل: أماتعرفني؟ فقال: ومن أعرف بك مني؟

أنت بين اثنتين تبرز للنا — س وكلتا هما بوجهٍ مُذال

لستَ تنفكُّ طالباً لوصال — من حبيب، أو راجياً لنوال

أيُّ ماء يَبْقَى لوجهك هذا — بين ذُلِّ الهوى وذل السؤال...

(٤)**قال** تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَاناً عَلَى سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ [الحجر: ٤٧]. فأخبر عن تلاقي قلوبهم وتلاقي وجوههم، وفي الصحيحين: **«أخلاقهم عَلَى خَلْق رجل واحد على صورة أبيهم آدم عليه السلام ستون ذراعاً في السماء»** والرواية على خلق بفتح الخاء وسكون اللام، والأخلاق كما تكون جمعاً للخلق بالضم فهي جمع للخلق بالفتح، والمراد تساويهم في الطول والعرض

(١) ٥٧ بدائع جـ٣. (٢) في المطبوعة (وإذ) والصواب ما أثبتناه. (٣) ١٥٠ إغاثة جـ٢.
(٤) ١١٠ حادي الأرواح.

والسن، وإن تفاوتوا في الحسن والجمال، ولهذا فسره بقوله على صورة أبيهم آدم عليه السلام ستون ذراعاً في السماء.

وأما أخلاقهم وقلوبهم؛ ففي الصحيحين: من حديث أبي هريرة: «**أول زمرة تلج الجنة**» الحديث وقد تقدم، وفيه «**لا اختلاف بينهم ولا تباغض، قلوبهم على قلب رجل واحد يسبحون الله بكرة وعشية**».

وكذلك وصف الله سبحانه وتعالى نساءهم بأنهن أتراب، أي: في سن واحدة ليس فيهن العجائز والشواب وفي هذا الطول والعرض والسن من الحكمة ما لايخفى، فإنه أبلغ وأكمل في استيفاء اللذات؛ لأنه أكمل سن القوة مع عظم آلات اللذة، وباجتماع الأمرين يكون كمال اللذة وقوتها؛ بحيث يصل في اليوم الواحد إلى مائة عذراء كما سيأتي إن شاء الله تعالى.

ولا يخفى التناسب الذي بين هذا الطول والعرض؛ فإنه لو زاد أحدهما على الآخر فات الاعتدال، وتناسب الخلقة يصير طولا مع دقة أو غلظاً مع قصر وكلاهما غير مناسب والله أعلم.

(١)**هذا** مرض من أمراض القلب مخالف لسائر الأمراض في ذاته وأسبابه وعلاجه، وإذا تمكن واستحكم عز على الأطباء دواؤه وأعيا العليل داؤه. وإنما حكاه الله سبحانه في كتابه عن طائفتين من الناس من النساء، وعشاق الصبيان المردان. فحكاه عن امرأة العزيز في شأن يوسف. وحكاه عن قوم لوط. فقال تعالى إخباراً عنهم لما جاءت الملائكة لوطاً: ﴿**وَجَآءَ أَهْلُ المدينَةِ يَستَبشِرُونَ قالَ إنَّ هؤُلاءِ ضَيفِي فَلا تَفضَحُونِ وَاتَّقوُا الله وَلاَ تُخزُونِ قَالُوا أَوَلَم نَنهَكَ عَنِ العَالَمِينَ قَالَ هَـٰؤُلاءِ بَنَاتِي إن كُنتُم فَاعِلِينَ لَعَمرُكَ إنَّهم لَفِي سَكْرتِهِم يَعمَهُونَ**﴾ [الحجر: ٦٧-٧٢].

(٢)**والله** سبحانه إنما حكى عشق الصور في القرآن عن المشركين، فحكاه عن امرأة العزيز، وكانت مشركة على دين زوجها، وكانوا مشركين، وحكاه عن اللوطية، وكانوا مشركين، فقال تعالى في قصتهم: ﴿**لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ**﴾ [الحجر: ٧٢]. وأخبر سبحانه أنه يصرفه عن أهل الإخلاص، فقال:

---

(١) ٣١٧ زاد المعاد جـ ٣. (٢) ١٥٠ إغاثة جـ ٢.

﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّه مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤].

(١)**ومن** الآيات التي فيها وقائعه سبحانه التي أوقعها بالأمم المكذبين لرسلهم، المخالفين لأمره، وأبقى آثارهم دالة عليهم كما قال تعالى: ﴿وَعَاداً وَثَمُودَ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَاكِنِهِم﴾ [العنكبوت: ٣٨]. وقال في قوم لوط: ﴿وإنكم لتمرون عليهم مصبحين وبالليل أفلا تعقلون؟﴾ [الصافات: ١٣٧] وقال: ﴿فأخذتهم الصَّيحَةُ مُشرِقِين فَجَعَلنَا عَالِيَها سَافِلَهَا وَأَمطَرنَا عَلَيهم حِجَارةً مِن سِجيلٍ * إنَّ في ذَلِكَ لآيَاتٍ للمتوسِّمِينَ* وَإنها لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ﴾ [الحجر: ٧٣-٧٦]. أي بطريق ثابت لا يزول عن حاله، وقال: ﴿وَإِن كَانَ أَصحَابُ الأيكَةِ لَظَالمين* فَانتَقَمنَا مِنهم وإنَّهُمَا لَبِإمام مُّبِينٍ﴾ [الحجر: ٧٨-٧٩]. أي ديار هاتين الأمتين لبطريق واضح يمر به السالكون. وقال تعالى: ﴿وَسَكنتم في مَسَاكِنِ الَّذينَ ظَلَمُوا أنفُسهمُ وَتَبيَّنَ لَكُم كَيفَ فَعَلنا بِهِم﴾ [إبراهيم: ٤٥]. وقال عن قوم عاد: ﴿فَأَصبَحُواْ لاَ يُرَىٰ إلاَّ مَسَاكِنُهُم﴾[الأحقاف: ٢٥] وقال: ﴿أولم يهد لَهُم كَم أَهلكنا مِن قَبلهم مِّنَ القُرُونِ يَمشُونَ في مَسَاكِنِهِمْ﴾ [السجدة: ٢٦].

فأي دلالة أعظم من رجل يخرج وحده، لا عدة له ولا عدد، ولا مال. فيدعو الأمة العظيمة إلى توحيد الله والإيمان به وطاعته، ويحذرهم من بأسه ونقمته، فتتفق كلمتهم، أو أكثرهم على تكذيبه، ومعاداته. فيذكرهم أنواع العقوبات الخارجة عن قدرة البشر، فيغرق المكذبين كلهم تارة، ويخسف بغيرهم الأرض تارة، ويهلك آخرين بالريح، وآخرين بالصيحة، وآخرين بالمسخ، وآخرين بالصواعق وآخرين بأنواع العقوبات، وينجو داعيهم ومن معه. والهالكون أضعاف أضعافهم عدداً وقوة، ومنعة وأموالاً:

فيالك من آيات حق لو اهتدى ... بهن مريد الحق، كن هواديا
ولكن على تلك القلوب أكنة ... فليست وإن أصغت تجيب المناديا

فهلا امتنعوا - إن كانوا على الحق وهم أكثرهم عدداً، وأقوى شوكة - بقوتهم وعددهم من بأسه وسلطانه، وهلا اعتصموا من عقوبته، كما اعتصم من هو أضعف منهم من أتباع الرسل؟.

(١) ١٨٨ التبيان.

فصل(١)

ومن منازل ﴿إِيَّاكَ نَعبُدُ وَإِيَّاكَ نَستَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]. منزلة الفراسة.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذلِك لآيَات لِّلمتوسِّمِينَ﴾ [الحجر: ٧٥].

قال مجاهد رحمه الله: المتفرسين: وقال ابن عباس رضي الله عنهما: للناظرين. وقال قتادة: للمعتبرين. وقال مقاتل: للمتفكرين.

ولا تنافي بين هذه الأقوال، فإن الناظر متى نظر في آثار ديار المكذبين ومنازلهم، وما آل إليه أمرهم: أورثه فراسة وعبرة وفكرة.

وقال تعالى في حق المنافقين: ﴿وَلَو نَشَآءُ لأَرَيْناكَهُم فَلَعَرفتهُم بِسِيْمَاهُم وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ القَوْلِ﴾ [محمد: ٣٠].

فالأول: فراسة النظر والعين. والثاني: فراسة الأذن والسمع.

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ يقول: علَّق معرفته إياهم بالنظر على المشيئة، ولم يعلق تعريفهم بلحن خطابهم على شرط. بل أخبر به خبراً مؤكداً بالقسم. فقال: ﴿ولَتعرِفَنَّهُم في لَحنِ القول﴾ وهو تعريض الخطاب، وفحوى الكلام ومغزاه. و«اللحن» ضربان: صواب وخطأ. فلحن الصواب نوعان:

أحدهما: الفطنة. ومنه الحديث: **«ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض»**.

والثاني: التعريض والإشارة. وهو قريب من الكناية. ومنه قول الشاعر:

وحديث ألذه. وهو مما		يشتهي السامعون يوزن وزناً
منطق صائب. وتلحن أحيا		ناً وخير الحديث ما كان لحناً

والثالث: فساد المنطق في الإعراب. وحقيقته: تغيير الكلام عن وجهه: إما إلى خطأ، وإما إلى معنى خفي لم يوضع له اللفظ.

والمقصود: أنه سبحانه أقسم على معرفتهم من لحن خطابهم. فإن معرفة المتكلم وما في ضميره من كلامه: أقرب من معرفته بسيماه وما في وجهه. فإن دلالة الكلام على قصد قائله وضميره أظهر من السيماء المرئية. والفراسة تتعلق بالنوعين بالنظر والسماع.

(١) ٤٨٢ مدارج جـ ٢.

وفي الترمذي: من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: عن النبي (ﷺ) قال: «اتقوا فراسة المؤمن. فإنه ينظر بنور الله». ثم تلا قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ [الحجر: ٧٥]».

(١)**البصيرة** تنبت في أرض القلب الفراسة الصادقة. وهي نور يقذفه الله في القلب، يفرق به بين الحق والباطل، والصادق والكاذب. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ [الحجر: ٧٥]. قال مجاهد: للمتفرسين. وفي الترمذي: من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: عن النبي (ﷺ) أنه قال: «اتقوا فراسة المؤمن. فإنه ينظر بنور الله عز وجل» ثم قرأ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ [الحجر: ٧٥].

و«**التوسم**» تفعل من السيما. وهي العلامة. فسمى المتفرس متوسماً. لأنه يستدل بما يشهد على ما غاب. فيستدل بالعيان على الإيمان. ولهذا خَصَّ الله تعالى بالآيات والانتفاع بها هؤلاء. لأنهم يستدلون بما يشاهدون منها على حقيقة ما أخبرت به الرسل، من الأمر والنهي، والثواب والعقاب. وقد ألهم الله ذلك لآدم، وعلمه إياه حين علمه أسماء كل شيء. وبنوه هم نسخته وخلفاؤه. فكل قلب فهو قابل لذلك. وهو فيه بالقوة. وبه تقوم الحجة، وتحصل العبرة، وتصح الدلالة.

وبعث الله رسله مذكِّرين ومنبهين، ومكملين لهذا الاستعداد، بنور الوحي. والإيمان. فينضاف ذلك إلى نور الفراسة والاستعداد. فيصير نوراً على نور. فتقوى البصيرة، ويعظم النور، ويدوم، بزيادة مادته ودوامها. ولايزال في تزايد حتى يُرى على الوجه والجوارح، والكلام والأعمال. ومن لم يقبل هدى الله ولم يرفع به رأساً دخل قلبه في الغلاف والأكِنَّة؛ فأظلم، وعمى عن البصيرة؛ فحجبت عنه حقائق الإيمان؛ فيرى الحق باطلاً، والباطل حقًّا، والرشد غيًّا، والغي رشداً. قال تعالى: ﴿كَلَّا، بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤] و«الرين» و«الران» هو الحجاب الكثيف المانع للقلب من رؤية الحق، والانقياد له.

وعلى حسب قوة البصيرة وضعفها تكن الفراسة. وهي نوعان: فراسة علوية شريفة، مختصة بأهل الإيمان، وفراسة سُفلية دنيئة مشتركة بين المؤمن والكافر.

(١) ١٢٩ مدارج جـ ١.

وهي فراسة أهل الرياضة والجوع والسهر والخلوة، وتجريد البواطن من أنواع الشواغل. فهؤلاء لهم فراسة كشف الصور، والإخبار ببعض المغيبات السفلية التي لا يتضمن كشفها والإخبار بها كمالاً للنفس، ولا زكاة ولا إيماناً ولا معرفة. وهؤلاء لا تتعدى فراستهم هذه السفليات. لأنهم محجوبون عن الحق تعالى. فلا تصعد فراستهم إلى التمييز بين أوليائه وأعدائه، وطريق هؤلاء وهؤلاء.

وأما فراسة الصادقين، العارفين بالله وأمره: فإن همتهم لما تعلقت بمحبة الله ومعرفته وعبوديته، ودعوة الخلق إليه على بصيرة. كانت فراستهم متصلة بالله، متعلقة بنور الوحي مع نور الإيمان. فميزت بين ما يحبه الله وما يبغضه، من الأعيان والأقوال والأعمال. وميزت بين الخبيث والطيب، والمحق والمبطل، والصادق والكاذب. وعرفت مقادير استعداد السالكين إلى الله. فحملت كل إنسان على قدر استعداده، علماً وإرادة وعملاً.

ففراسة هؤلاء دائماً حائمة حول كشف طريق الرسول وتعرفها، وتخليصها من بين سائر الطرق، وبين كشف عيوب النفس، وآفات الأعمال العائقة عن سلوك طريق المرسلين. فهذا أشرف أنواع البصيرة والفراسة. وأنفعها للعبد في معاشه ومعاده.

فصل(١)

والفرق بين الفراسة والظن: أن الظن يخطىء ويصيب، وهو يكون مع ظلمة القلب ونوره وطهارته ونجاسته ولهذا أمر تعالى باجتناب كثير منه وأخبر أن بعضه إثم. وأما الفراسة فأثنى على أهلها ومدحهم في قوله تعالى: ﴿**إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ**﴾ [الحجر: ٧٥]. قال ابن عباس رضي الله عنهما، وغيره: أي للمتفرسين.

وقال تعالى: ﴿**يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ**﴾ [البقرة: ٢٧٣]. وقال تعالى: ﴿**وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ**﴾ [محمد: ٣٠].

---

(١) ٢٩٠ الروح.

فالفراسة الصادقة لقلب قد تطهر وتصفى وتنزه من الأدناس وقرب من الله فهو ينظر بنور الله الذي جعله في قلبه.

وفي الترمذي وغيره: من حديث أبي سعيد قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله**».

وهذه الفراسة نشأت له من قربه من الله؛ فإن القلب إذا قرب من الله انقطعت عنه معارضات السوء المانعة من معرفة الحق وإدراكه وكان تلقيه من مشكاة قريبة من الله بحسب قربه منه وأضاء له النور بقدر قربه فرأى في ذلك النور ما لم يره البعيد والمحجوب. كما ثبت في الصحيح: من حديث أبي هريرة: عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم فيما يروى عن ربه عز وجل، أنه قال: «**ما تقرب إلي عبدي بمثل ما افترضت عليه، ولايزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، فبي يسمع وبي يبصر وبي يبطش وبي يمشي**».

فأخبر سبحانه أن تقرب عبده منه يفيده محبته له، فإذا أحبه قرب من سمعه وبصره ويده ورجله فسمع به وأبصر به وبطش به ومشى به، فصار قلبه كالمرآة الصافية تبدو فيها صور الحقائق على ما هي عليه، فلا تكاد تخطىء له فراسة. فإن العبد إذا أبصر بالله أبصر الأمر على ما هو عليه فإذا سمع بالله سمعه على ما هو عليه(١).

(٢)**قال** تعالى: ﴿**فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾ [الحجر: ٩٢، ٩٣].

قال غير واحد من السلف: هو عن قول: «لا إله إلا الله»، وهذا حق، فإن السؤال كله عنها وعن أحكامها وحقوقها وواجباتها ولوازمها، فلا يسأل أحد قط إلا عنها وعن واجباتها ولوازمها وحقوقها.

قال أبوالعالية: كلمتان يسأل عنهما الأولون والآخرون: ماذا كنتم تعبدون؟ وماذا أجبتم المرسلين؟ فالسؤال عماذا كانوا يعبدون هو السؤال عنها نفسها، والسؤال عماذا أجابوا المرسلين سؤال عن الوسيلة والطريق المؤدية إليها: هل

---

(١) استمر المؤلف في البحث واستشهد على ما ذكره بآثار وحكايات يرجع إليها لمن أراد (ج).

(٢) ٢٩٧ طريق الهجرتين.

سلكـوها وأجابوا الرسل لما دعوهم إليها؟ فعاد الأمر كله إليها. وأمر هذا شأنه حقيق بأن تنعقد[1] عليه الخناصر، ويعض عليه بالنواجذ، ويقبض فيه على الجمر ولا يؤخذ بأطراف الأنامل، ولا يطلب على فضلة، بل يجعل هو المطلب الأعظم وما سواه إنما يطلب على الفضلة. والله الموفق لا إله غيره ولا رب سواه.

[2]**ولما** نزل عليه: ﴿**فـاصدع بما تؤمر**﴾ [الحجر: ٩٤]. فصدع بأمر الله لا تأخـذه فيه لومـة لائم. فدعـا إلى الله الصغـير والكبـير، والحر والعبد، والذكر والأنثى، والأحمر والأسود، والجن والإنس.

ولما صدع بأمر الله وصرح لقومه بالدعوة، وناداهم بسَبِّ آلهتهم، وعيب دينهم: اشتدَّ أذاهم له، ولمن استجاب له من أصحابه، ونالوه، ونالوهم بأنواع الأذى. وهذه سنة الله عز وجل في خلقه، كما قال تعالى: ﴿**مَا يُقَالُ لَكَ إِلاَّ مَا قَد قِيـلَ للرُّسُلِ مِن قَبلِكَ**﴾ [فصلت: ٤٣]. وقال: ﴿**وَكَذَلك جَعَلنَا لِكُلِّ نبيٍّ عَدُوًّا شَيَـاطِـينَ الإِنَسِ وَالجِنِّ**﴾ [الأنعـام: ١١٢]. ﴿**وكَـذَلِك جَعَلنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ المُجرمِينَ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِياً وَنَصِيراً**﴾ [الفرقان: ٣١]. ﴿**كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذينَ مِن قَبلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ قَالوا سَاحِرٍ أَو مجنُون. أَتَوا صَوا بِهِ بَل هُم قَومٌ طَاغُونَ**﴾ [الذاريات: ٥٢، ٥٣]. فعزَّى الله سبحانه نبيه بذلك، وأن له أسوة بمن تقدمه من المـرسلين، وعـزَّى أتبـاعه بقوله: ﴿**أَم حَسِبتُم أَن تَدخُلُواْ الجنَّة وَلَمَّا يَأتِكُم مَّثَلُ الَّذين خَلَوا مِن قَبلكُم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب**﴾ [البقرة: ٢١٤] وقوله: ﴿**أَلم أَحَسِبَ الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ولقد فَتَنَّا الذين من قبلهم فلَيَعلمنَّ الله الـذين صدقـوا وليعلمن الكـاذبـين. أم حسب الـذين يعملون السيئات أن يسبقونا ساء ما يحكمون. من كان يرجو لقاء الله فإن أجل الله لآتٍ وهو السميع العليم. ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه إن الله لغنى عن العالمين والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنُكَفرن عنهم سيئاتهم ولنجزينهم أحسن الذي كانوا يعملون. ووصينا الإنسان بوالديه حُسنًا وإن جاهداك لتشرك بي ماليس لك به علم فلا تطعهما إليَّ مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون. والذين آمنوا**

(١) كذا بالأصل ولعلها تعقد (ج).. (٢) ١٠٨ زاد المعاد جـ٢.

وعملوا الصالحات لَنُدخلنَّهم في الصالحين. ومن الناس من يقول آمنا بالله فإذا أُوذِي في الله جعل فتنة الناس كعذاب الله ولئن جاء نصرٌ من ربك ليقولنَّ إنا كنا معكم أو ليس الله بأعلم بما في صدور العالمين﴾ [العنكبوت: ١ ـ ١٠].

فصـــل(١)

في لزوم ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ لكل عبد إلى الموت.

قال الله تعالى لرسوله: ﴿وَاعبد رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ اليَقينُ﴾ وقال أهل النار: ﴿وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَومِ الدينِ حتى أتَانَا اليقينُ﴾ واليقين ههنا: هو الموت بإجماع أهل التفسير. وفي الصحيح ـ في قصة موت عثمان بن مظعون رضي الله عنه ـ أن النبي (ﷺ) قال: «أما عثمان فقد جاءه اليقين من ربه». أي الموت وما فيه. فلا ينفك العبد من العبودية مادام في دار التكليف.

بل عليه في البرزخ عبودية أخرى لما يسأله الملكان: من كان يعبد؟ وما يقول في رسول الله (ﷺ)؟ ويلتمسان منه الجواب.

وعليه عبودية أخرى يوم القيامة، يوم يدعو الله الخلق كلهم إلى السجود. فيسجد المؤمنون. ويبقى الكفار والمنافقون لا يستطيعون السجود. فإذا دخلوا دار الثواب والعقاب انقطع التكليف هناك، وصارت عبودية أهل الثواب تسبيحاً مقروناً بأنفاسهم لا يجدون له تعباً ولا نصباً.

ومن زعم أنه يصل إلى مقام يسقط عنه فيه التعبد، فهو زنديق كافر بالله وبرسوله. وإنما وصل إلى مقام الكفر بالله، والانسلاخ من دينه. بل كلما تمكن العبد في منازل العبودية كانت عبوديته أعظم، والواجب عليه منها أكبر وأكثر من الواجب على من دونه.

ولهذا كان الواجب على رسول الله (ﷺ)، بل على جميع الرسل ـ أعظم من الواجب على أممهم. والواجب على أولي العزم: أعظم من الواجب على من دونهم. والواجب على أولي العلم: أعظم من الواجب على من دونهم. وكل أحد بحسب مرتبته.

(٢)﴿وَاعبدَ رَبَّكَ حَتى يَأتِيَكَ اليَقينُ﴾ [الحجر: ٩٩] واليقين هنا الموت باتفاق

---

(١) ١٠٣ مدارج جـ١.   (٢) ٢٢٤ طريق الهجرتين.

أهل الإسلام، فجاءه (ﷺ) إذ جاءه وإرادته وقصده ونيته في الذروة العليا ونهاية كمالها وتمامها.

[1]فإن الله عز وجل أمره وأمر سائر رسله بعبادته إلى حين انقضاء آجالهم. فقال: ﴿واعْبُدْ رَبَّك حَتَّى يَأتِيَكَ اليقينُ﴾ [الحجر: ٩٩]. وهو الموت بالإجماع كما قال في الآية الأخرى عن الكفار: ﴿وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوم الدِّينِ. حَتَّى أَتَانَا اليقينُ﴾ وقال (ﷺ): «أما عثمان بن مظعون فقد جاءه اليقين من ربه» قاله لما مات عثمان. وقال المسيح: ﴿إنِّي عَبد الله. آتَاني الكِتَابَ وَجَعَلَني نَبيًّا* وجَعَلَني مُبَاركاً أينما كُنْتُ وَأَوصاني بِالصَّلاَةِ والزَّكَاةِ مَادُمتُ حَيّاً﴾ فهذه وصية الله للمسيح، وكذلك لجميع أنبيائه ورسله وأتباعهم. قال الحسن: لم يجعل الله لعبده المؤمن أجلاً دون الموت.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة الحجر

والحمد لله رب العالميـــن

---

(١) ١٦٦ مدارج جـ ١.



بسم الله الرحمن الرحيم

(١)﴿خَلَقَ الإِنسَانَ مِن نُّطفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ وَالأَنعَامَ خَلَقَهَا لَكُم فِيهَا دِفءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنهَا تَأكُلُونَ﴾ إلى قوله: ﴿أَفَمَن يَخلُقُ كَمَن لَّا يَخلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤-١٧]. وتأمل كيف وحد سبحانه الآية من قوله: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّكُم مِّنهُ شَرَابٌ﴾ إلى آخرها [النحل: ١٠]. وختمها بأصحاب الفكرة فأما توحيد الآية فلأن موضع الدلالة واحد، وهو الماء الذي أنزل من السماء فأخرج به كلما ذكره من الأرض، وهو على اختلاف أنواعه لقاحه واحد وأمه واحدة فهذا نوع واحد من آياته. وأما تخصيصه ذلك بأهل الفكر فلأن هذه المخلوقات التي ذكرها من الماء موضع فكر وهو نظر القلب وتأمله، لا موضع نظر مجرد بالعين، فلا ينتفع الناظر بمجرد رؤية العين حتى ينتقل منه إلى نظر القلب في حكمة ذلك وبديع صنعه والاستدلال به على خالقه وباريه وذلك هو الفكر بعينه. وأما قوله تعالى في الآية التي بعدها: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَومٍ يَعقِلُونَ﴾ [النحل: ١٢]. فجمع الآيات لأنها تضمنت: الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم وهي آيات متعددة مختلفة في أنفسها وخلقها وكيفياتها، فإن إظلام الجو لغروب الشمس ومجيء الليل الذي يلبس العالم كالثوب ويسكنون تحته، آية باهرة ثم ورد جيش الضياء يقدمه بشير الصباح فينهزم عسكر الظلام وينتشر الحيوان وينكشط ذلك اللباس بجملته، آية أخرى، ثم في الشمس التي هي آية النهار آية أخرى، وفي القمر الذي هو آية الليل آية أخرى، وفي النجوم آيات أخر كما قدمناه. هذا مع ما يتبعها من الآيات المقارنة لها من الرياح واختلافها وسائر ما يحدثه الله بسببها آيات أخر فالموضع موضع جمع وخص هذه الآيات بأهل العقل؛ لأنها أعظم مما قبلها وأدل وأبر والأولى كالباب لهذه، فمن استدل بهذه الآيات وأعطاها حقها من الدلالة؛ استحق من الوصف ما يستحقه صاحب الفكر وهو العقل، ولأن منزلة العقل بعد منزلة الفكر، فلما

---

(١) ٢١٢ مفتاح جـ١.

دلهم بالآية الأولى على الفكر نقلهم بالآية الثانية التي هي أعظم منها إلى العقل الذي هو فوق الفكر فتأمله. فأما قوله في الآية الثالثة: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ [النحل:١٣]. فوحد الآية وخصها بأهل التذكر. فأما توحيدها فكتوحيد الأولى سواء فان ما ذرأ في الأرض على اختلافه من الجواهر والنبات والمعادن والحيوان، كله في محل واحد فهو نوع من أنواع آياته وإن تعددت أصنافه وأنواعه. وأما تخصيصه إياها بأهل التذكر، فطريقة القرآن في ذلك أن يجعل آياته للتبصر والتذكر كما قال تعالى في سورة ق: ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ [ق:٧، ٨]. فالتبصرة التعقل والتذكرة التذكر والفكر باب ذلك ومدخله فإذا فكر تبصر وإذا تبصر تذكر، فجاء التذكير في الآية لترتيبه على العقل المرتب على الفكر، فقدم الفكر إذ هو الباب والمدخل، ووسط العقل إذ هو ثمرة الفكر ونتيجته وأخر التذكر إذ هو المطلوب من الفكر، والعقل، فتأمل ذلك حق التأمل. فإن قلت: فما الفرق بين التذكر والتفكر؟ فإذا تبين الفرق ظهرت الفائدة. قلت: التفكر والتذكر أصل الهدى والفلاح، وهما قطبا السعادة؛ ولهذا وسعنا الكلام في التفكر في هذا الوجه لعظم المنفعة وشدة الحاجة إليه.

قال الحسن: مازال أهل العلم يعودون بالتذكر على التفكر وبالتفكر على التذكر، ويناطقون القلوب حتى نطقت فإذالها أسماع وأبصار. فاعلم أن التفكر طلب القلب ما ليس بحاصل من العلوم من أمر هو حاصل منها هذا حقيقته، فإنه لو لم يكن ثم مراد يكون مورداً للفكر استحال الفكر؛ لأن الفكر بغير متعلق متفكر فيه محال، وتلك المواد هي الأمور الحاصلة ولو كان المطلوب بها حاصلاً عنده لم يتفكر فيها.

فإذا ظفر به وتحصل له تذكر به وأبصر مواقع الفعل والترك وما ينبغي إيثاره وما ينبغي اجتنابه، فالتذكر هو مقصود التفكر وثمرته، فإذا تذكر عاد بتذكره على تفكره فاستخرج منه. ما لم يكن حاصلاً عنده فهو لا يزال يكرر بتفكره على تذكره، وبتذكره على تفكره مادام عاقلاً؛ لأن العلم والإرادة لا يقفان على حد؛ بل هو دائماً سائر بين العلم والإرادة.

وإذا عرفت معنى كون آيات الرب تبارك وتعالى تبصرة وذكرى يتبصر بها من عمى القلب ويتذكر بها من غفلته؛ فإن المضاد للعلم إما عمى القلب وزواله بالتبصر، وإما غفلته وزواله بالتذكر.

والمقصود تنبيه القلب من رقدته بالإشارة إلى شيء من بعض آيات الله.

ولو ذهبنا نتتبع ذلك لنفد الزمان ولم نحط بتفصيل واحدة من آياته على التمام، ولكن ما لا يدرك جملة لا يترك جملة، وأحسن ما أنفقت فيه الأنفاس: التفكر في آيات الله، وعجائب صنعه، والانتقال منها إلى تعلق القلب والهمة به دون شيء من مخلوقاته؛ فلذلك عقدنا هذا الكتاب على هذين الأصلين إذ هما أفضل ما يكتسبه العبد في هذه الدار.

فصل(١)

ثم تأمل العبرة في السمك وكيفية خلقته، وأنه خلق غير ذي قوائم؛ لأنه لا يحتاج إلى المشي إذ كان مسكنه الماء، ولم يخلق له رئة؛ لأن منفعة الرئة التنفس، والسمك لم يحتج إليه لأنه ينغمس في الماء، وخلقت له عوض القوائم أجنحة شداد، يقذف بها من جانبيه كما يقذف صاحب المركب بالمقاذيف من جانبي السفينة، وكسى جلده قشوراً متداخلة كتداخل الجوشن؛ ليقيه من الآفات، وأعين بقوة الشم لأن بصره ضعيف والماء يحجبه فصار يشم الطعام من بعد فيقصده.

وقد ذكر في بعض كتب الحيوان أن من فيه إلى صماخه منافذ فهو يصب الماء فيها بفيه، ويرسله من صماخيه فيتروح بذلك كما يأخذ الحيوان النسيم البارد بأنفه، ثم يرسله ليتروح به. فإن الماء للحيوان البحري كالهواء للحيوان البري، فهما بحران أحدهما ألطف من الآخر: بحر هواء يسبح فيه حيوان البر، وبحر ماء يسبح فيه حيوان البحر، فلو فارق كل من الصنفين بحره إلى البحر الآخر مات، فكما يختنق الحيوان البري في الماء يختنق الحيوان البحري في الهواء.

فسبحان من لا يحصي العادون آياته، ولا يحيطون بتفصيل آية منها على الانفراد، بل إن علموا فيها وجهاً جهلوا منها أوجهاً.

---

(١) ٢٥١ مفتاح جـ١.

فتأمل الحكمة البالغة في كون السمك أكثر الحيوان نسلاً. ولهذا ترى في جوف السمكة الواحدة من البيض ما لا يحصى كثرة.

وحكمة ذلك أن يتسع لما يتغذى به من أصناف الحيوان، فإن أكثرها يأكل السمك حتى السباع لأنها في حافات مطموسة جاثمة تعكف على الماء الصافي؛ فإذا تعذر عليها صيد البر رصدت السمك فاختطفته، فلما كانت السباع تأكل السمك والطير تأكله والناس تأكله والسماك الكبار تأكله ودواب البر تأكله وقد جعله الله سبحانه غذاء لهذه الأصناف؛ اقتضت حكمته أن يكون بهذه الكثرة، ولو رأى العبد ما في البحر من ضروب الحيوانات والجواهر والأصناف، التي لا يحصيها إلا الله ولا يعرف الناس منها إلا الشيء القليل، الذي لا نسبة له أصلاً إلى ما غاب عنهم؛ لرأى العجب ولعلم سعة ملك الله وكثرة جنوده التي لا يعلمها إلا هو.

(1)**وتطلق** الروح على القرآن الذي أوحاه تعالى إلى رسوله. قال تعالى: ﴿**وَكَذَلِكَ أَوْحَينَا إِلَيكَ رُوحاً مِنْ أَمرنا**﴾ [الشورى: ٥٢].

وعلى الوحي الذي يوحيه إلى أنبيائه ورسله. قال تعالى: ﴿**يلقي الرُّوحَ مِن أَمرِهِ عَلَى مَن يَشَاءُ مِن عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَومَ التَّلاقِ**﴾ [غافر: ١٥]. وقال تعالى: ﴿**يُنَزِّلُ المَلائِكَةَ بِالرُّوحِ مِن أَمرِهِ عَلَى مَن يَشَاءُ مِن عِبَادِهِ أَن أَنذِرُوا أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ**﴾ [النحل: ٢].

وسمى ذلك روحاً لما يحصل به من الحياة النافعة، فإن الحياة بدونه لا تنفع صاحبها ألبتة؛ بل حياة الحيوان البهيم خير منها وأسلم عاقبة.

وسميت الروح روحاً لأن بها حياة البدن، وكذلك سميت الريح لما يحصل بها من الحياة، وهي من ذوات الواو ولهذا تجمع على أرواح، قال الشاعر:

إذا هبت الأرواح من نحو أرضكم　　وجدت لمسراها على كبدي بردا

ومنها الروح والريحان والاستراحة. فسميت النفس روحاً لحصول الحياة بها، وسميت نفساً إما من الشيء النفيس لنفاستها وشرفها، وإما من تنفس الشيء إذا خرج، فلكثرة خروجها ودخولها في البدن سميت نفساً، ومنه النفس بالتحريك، فإن العبد كلما نام خرجت منه، فإذا استيقظ رجعت إليه، فإذا مات خرجت خروجاً كليًّا، فإذا دفن

(١) ٢٦٤ الروح.

عادت إليه، فإذا سئل خرجت، فإذا بعث رجعت إليه.

فالفرق بين النفس والروح فرق بالصفات لا فرق بالذات، وإنما سمي الدم نفساً لأن خروجه الذي يكون معه الموت يلازم خروج النفس، وإن الحياة لا تتم إلا به كما لا تتم إلا بالنفس فلهذا قال:

تسيل على حد الظباة نفوسنا وليست على غير الظباة تسيل

ويقال: فاضت نفسه وخرجت نفسه وفارقت نفسه. كما يقال: خرجت روحه وفارقت، ولكن الفيض الاندفاع وهلة واحدة ومنه الإفاضة وهي الاندفاع بكثرة وسرعة، لكن أفاض إذا دفع باختياره وإرادته، وفاض إذا اندفع قسراً وقهراً فالله سبحانه هو الذي يفيضها عند الموت فتفيض هي.

(١)**قال** تعالى: **﴿لِيَحمِلُوا أَوزَارَهُم كَامِلَةً يَومَ القِيَامَةِ وَمِن أَوزارِ الَّذينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيرِ عِلْمٍ أَلاَ سَاءَ مَا يَزِرونَ﴾** [النحل: ٢٥]. وقال تعالى: **﴿وَلَيَحْمِلُن أَثقَالَهُمْ وأَثقالاً مَعَ أَثقَالِهِم﴾** [العنكبوت: ١٣]. .

وهذا يدل على أن من دعا الأمة إلى غير سنة رسول الله (ﷺ) فهو عدوه حقًّا لأنه قطع وصول أجر من اهتدى بسنته إليه، وهذا من أعظم معاداته، نعوذ بالله من الخذلان.

(٢)**فإن** الله سبحانه يعاقب على الأسباب المحرمة وعلى ما تولد منها، كما يثيب على الأسباب المأمور بها وعلى ما تولد منها.

ولذا كان من دعا إلى بدعة وضلالة؛ فعليه من الوزر مثل أوزار من اتبعه؛ لأن اتباعهم له تولد من فعله؛ ولذلك كان على ابن آدم القاتل لأخيه كفل من ذنب كل قاتل إلى يوم القيامة.

وقد قال تعالى: **﴿لِيَحمِلُوا أَوزَارَهُم كَامِلَةً يَومَ القِيَامَةِ وَمِن أَوزارِ الَّذينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيرِ عِلْمٍ﴾** [النحل: ٢٥]. وقال تعالى: **﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثقَالَهُمْ وَأَثقَالاً مَعَ أَثقَالِهِم﴾** [العنكبوت: ١٣]. فإن قيل: فكيف التوبة من هذا المتولد وليس من فعله والإنسان إنما يتوب عما يتعلق باختياره؟.

قيل: التوبة منه بالندم عليه وعدم إجابة دواعيه وموجباته وحبس النفس عن

---

(١) ٦٢ مفتاح جـ١. (٢) ٧١ عدة الصابرين.

ذلك. **فإن** كان المتولد متعلقاً بالغير، فتوبته مع ذلك برفعه عن الغير بحسب الإمكان. ولهذا كان من توبة الداعي إلى البدعة: أن يبين أن ماكان يدعو إليه بدعة وضلالة، وأن الهدى في ضده. كما شرط تعالى في توبة أهل الكتاب الذين كان ذنبهم كتمان ما أنزل الله من البينات والهدى؛ ليضلوا الناس بذلك؛ أن يصلحوا العمل في نفوسهم ويبينوا للناس ما كانوا يكتمونهم إياه فقال:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللاَّعِنُونَ إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٥٩-١٦٠].

وهذا كما شرط في توبة المنافقين الذين كان ذنبهم: إفساد قلوب ضعفاء المؤمنين، وتحيزهم، واعتصامهم باليهود والمشركين أعداء الرسول، وإظهارهم الإسلام رياء وسمعة؛ أن يصلحوا بدل إفسادهم، وأن يعتصموا بالله بدل اعتصامهم بالكفار من أهل الكفر والمشركين، وأن يخلصوا دينهم لله بدل إظهارهم له رياء وسمعة فهكذا تفهم شرائط التوبة وحقيقتها والله المستعان.

(١)**وههنا** أمر يجب التنبيه عليه، وهو أن الجنة إنما تُدخل برحمة الله تعالى، وليس عمل العبد مستقلاً بدخولها وإن كان سبباً؛ ولهذا أثبت الله تعالى دخولها بالأعمال في قوله: **﴿بِمَا كُنتُم تَعمَلُونَ﴾** [النحل: ٣٢].

ونفى رسول الله (ﷺ) دخولها بالأعمال بقوله: «**لن يدخل أحد منكم الجنة بعمله**». **ولا** تنافي بين الأمرين لوجهين:

أحدهما: ما ذكره سفيان وغيره قال: كانوا يقولون: النجاة من النار بعفو الله، ودخول الجنة برحمته، واقتسام المنازل والدرجات بالأعمال.

والثاني إن الباء التي نفت الدخول هي باء المعاوضة التي يكون فيها أحد العوضين مقابلاً للآخر، والباء التي أثبتت الدخول هي باء السببية التي تقتضي سببية ما دخلت عليه لغيره وإن لم يكن مستقلاً بحصوله.

وقد جمع النبي (ﷺ) بين الأمرين بقوله: «**سدِّوداً وقاربوا وأبشروا واعلموا أن أحداً منكم لن ينجو بعمله**». قالوا: «ولا أنت يا رسول الله؟ قال: **ولا أنا إلا أن**

(١) ٦٧ حادي الأرواح.

يتغمدني الله برحمته» ومن عرف الله تعالى وشهد مشهد حقه عليه ومشهد تقصيره وذنوبه وأبصر هذين المشهدين بقلبه؛ عرف ذلك وجزم به والله سبحانه وتعالى المستعان.

(١)**قوله** تعالى في سورة النحل: ﴿**وَأَقسَمُوا بالله جَهدَ أَيمانِهِم لاَ يَبعَثُ الله مَن يَمُوتُ بَلَى وَعداً عَلَيهِ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكثَرَ النَّاسِ لاَ يَعلَمُونَ. لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُم كَانُوا كَاذِبِينَ**﴾ [النحل: ٣٨-٣٩]. فذكر تعالى حكمتين بالغتين في بعثه الأموات بعد ما أماتهم:

إحداهما: أن يبين للناس الذي اختلفوا فيه، وهذا بيان عياني تشترك فيه الخلائق كلهم، والذي حصل في الدنيا بيان إيماني اختص به بعضهم.

الحكمة الثانية: علم المبطل بأنه كان كاذباً، وأنه كان على باطل وأن نسبة أهل الحق إلى الباطل من افترائه وكذبه وبهتانه فيخزيه ذلك أعظم خزي!(٢).

(٣)**حَرّم** الله سبحانه الجنة على من في قلبه نجاسة وخبث، ولا يدخلها إلا بعد طِيبه وطهره فإنها دار الطيبين. ولهذا يقال لهم: ﴿**طِبْتُمْ فَادْخُلُوها خَالِدِينَ**﴾ [الزمر:٧٣]. أي: ادخلوها بسبب طيبكم. والبشارة عند الموت لهؤلاء دون غيرهم، كما قال تعالى: ﴿**الَّذِينَ تَتوَفَّاهُمُ المَلاَئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلاَمٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الجَنَّةَ بِمَا كُنتُم تَعمَلُونَ**﴾ [النحل:٣٢]. فالجنة لا يدخلها خبيث، ولا من فيه شيء من الخبث، فمن تطهر في الدنيا ولقي الله طاهراً من نجاساته دخلها بغير معوق، ومن لم يتطهر في الدنيا فإن كانت نجاسته عينية، كالكافر، لم يدخلها بحال. وإن كانت نجاسته كسبية عارضة دخلها بعد ما يتطهر من النار من تلك النجاسة، ثم لا يخرج منها، حتى إن أهل الإيمان إذا جازوا الصراط حُبسوا على قنطرة بين الجنة والنار، فيُهَذَّبون ويُنَقَّون من بقايا بقيت عليهم، قَصَّرت بهم عن الجنة، ولم توجب لهم دخول النار، حتى إذا هُذِّبوا ونُقُّوا أُذِن لهم في دخول الجنة.

والله سبحانه بحكمته جعل الدخول عليه موقوفاً على الطهارة، فلا يدخل المصلي عليه حتى يتطهر، وكذلك جعل الدخول إلى جنته موقوفاً على الطيب

---

(١) ١٦١ بدائع جـ٤. (٢) أصل البحث موصول في سورة البقرة رقم الآية: ٤٠ وكذلك في المائدة على قول الله تعالى: ﴿**لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً**﴾ [المائدة: ٤٨].

(٣) ٥٦ إغاثة جـ١.

والطهارة، فلا يدخلها إلا طيب طاهر فهما طهارتان: طهارة البدن، وطهارة القلب. ولهذا شرع للمتوضىء أن يقول عقيب وضوئه: «**أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، اللهم اجعلني من التَّوَّابين واجعلني من المتطهرين**[١]» فطهارة القلب بالتوبة، وطهارة البدن بالماء. فلما اجتمع له الطهران صلح للدخول على الله تعالى، والوقوف بين يديه ومناجاته.

وسألت شيخ الإسلام[٢] عن معنى دعاء النبي (ﷺ): «**اللهمَّ طهرني من خطاياي بالماء والثلْج والبَرَد**[٣]» كيف يطهر الخطايا بذلك؟ وما فائدة التخصيص بذلك؟ وقوله في لفظ آخر: «**والماء البارد**» والحارُّ أبلغ في الإنقاء؟

فقال: الخطايا توجب للقلب حرارة ونجاسة وضعفاً، فيرتخي القلب وتضطرم فيهِ نار الشهوة وتنجسه، فإن الخطايا والذنوب له بمنزلة الحطب الذي يمد النار ويوقدها، ولهذا كلما كثرت الخطايا اشتدت نار القلب وضعفه، والماء يغسل الخبث ويطفىء النار، فإن كان بارداً أورث الجسم صلابة وقوة، فإن كان معه ثلج وبرد كان أقوى في التبريد وصلابة الجسم وشدته، فكان أذهب لأثر الخطايا. هذا معنى كلامه، وهو محتاج إلى مزيد بيان وشرح.

فاعلم أن ههنا أربعة أمور: أمران حسيان، وأمران معنويان. فالنجاسة التي تزول بالماء هي ومزيلها حسيان، وأثر الخطايا التي تزول بالتوبة والاستغفار هي ومزيلها معنويان، وصلاح القلب وحياته ونعيمه لا يتم إلا بهذا وهذا. فذكر

(١) روى الإمام أحمد ومسلم وأبو داود والترمذي: عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: «**ما منكم من أحد يتوضأ فيسبغ الوضوء ثم يقول: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله إلا فتحت له أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيها شاء**» وزاد الترمذي: «**اللهم اجعلني من التوابين واجعلني من المتطهرين**».

(٢) هو شيخ الإسلام تقي الدين إمام عصره وحجة الله على خلقه القائم لله بالدعوة جاهداً مجاهداً صابراً محتسباً: أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية الحراني المولود سنة ٦٦١هـ والمتوفى بقلعة دمشق محبوساً ظلماً لقوله الحق إرضاء لله، وإغضاباً لأئمة البدعة في سنة ٧٢٣هـ.

(٣) روى الإمام أحمد ومالك في الموطأ والبخاري ومسلم وأصحاب السنن، إلا الترمذي: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «كان رسول الله، صلى الله عليه وسلم، إذا كبر في الصلاة سكت هنيهة، قبل القراءة، فقلت: يا رسول الله، بأبي أنت وأمي، أرأيت سكوتك بين التكبير والقراءة ما تقول؟ قال: «**أقول: اللهم باعد بيني وبين خطاياي كما باعدت بين المشرق والمغرب. اللهم نقني من خطاياي كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس. اللهم اغسلني من خطاياي بالماء والثلج والبرد**».

النبي، صلى الله تعالى عليه وآله وسلم من كل شطر قسماً نَبَّه به على القسم الآخر. فتضمن كلامه الأقسام الأربعة في غاية الاختصار، وحسن البيان. كما في حديث الدعاء بعد الوضوء: «**اللهم اجعلني من التوابين واجعلني مِن المتطهرين**» فإنه يتضمن ذكر الأقسام الأربعة. ومن كمال بيانه صلى الله تعالى عليه وآله وسلم، وتحقيقه لما يخبر به، ويأمر به: تمثيله الأمر المطلوب المعنوي بالأمر المحسوس. وهذا كثير في كلامه، كقوله في حديث علي بن أبي طالب: «**سل الله الهدى والسداد، واذْكر**[1] **بالهدى هدايتك الطريق، وبالسداد سَداد السَّهم**» إذ هذا من أبلغ التعليم. والنصح، حيث أمره أن يذكر إذا سأل الله الهدى إلى طريق رضاه وجنته: كونه مسافراً، وقد ضل عن الطريق، ولا يدري أين يتوجه، فطلع له رجل خبير بالطريق عالم بها، فسأله أن يدله على الطريق، فهكذا شأن طريق الآخرة، تمثيلاً لها بالطريق المحسوس للمسافر. وحاجة المسافر إلى الله سبحانه: إلى أن يهديه تلك الطريق، أعظم من حاجة المسافر إلى بلد إلى من يدله على الطريق الموصل إليها. وكذلك السداد ـ وهو إصابة القصد قولاً وعملاً ـ فمثله مثل رامي السهم، إذا وقع سهمه في نفس الشيء الذي رماه، فقد سدد سهمه وأصاب، ولم يقع باطلاً، فهكذا المصيب للحق في قوله وعمله بمنزلة المصيب في رميه. وكثيراً ما يقرن في القرآن هذا وهذا. فمنه قوله تعالى: ﴿**وتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى**﴾ [البقرة: ١٩٧]. أمر الحاج بأن يتزودوا لسفرهم، ولا يسافروا بغير زاد، ثم نبههم على زاد سفر الآخرة، وهو التقوى. فكما أنه لا يصل المسافر إلى مقصده إلا بزاد يُبلغه إياه، فكذلك المسافر إلى الله تعالى والدار الآخرة لا يصل إلا بزاد من التقوى، فجمع بين الزادين، ومنه قوله تعالى: ﴿**يَابَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشاً وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذٰلِك خيرٌ**﴾ [الأعراف: ٢٦]. فجمع بين الزينتين: زينة البدن باللباس، وزينة القلب بالتقوى، زينة الظاهر والباطن، وكمال الظاهر والباطن، ومنه قوله تعالى: ﴿**فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى**﴾ [طه: ١٢٣]. فنفى عنه الضلال، الذي هو عذاب القلب والروح، والشقاء الذي هو عذاب البدن والروح أيضاً، فهو منعَّم القلب والبدن بالهدى والفلاح، ومنه قول امرأة

(١) في المطبوعة «وافكر» والصواب ماذكرناه كما هو في صحيح مسلم ح رقم (٢٧٢٥) المراجع.

العزيز، عن يوسف عليه السلام، لما أرَتْهُ النسوة اللائمات لها في حبه: ﴿فَذَٰلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ﴾ فأرتهن جماله الظاهر. ثم قالت: ﴿وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ﴾ [يوسف:٣٢]. فأخبرت عن جماله الباطن بعفته، فأخبرتهن بجمال باطنه، وأرتهن جمال ظاهره.

فنبه، صلى الله عليه وآله وسلم، بقوله: «**اللهم طهرني من خطاياي بالماء والثلج والبرد**» على شدة حاجة البدن والقلب إلى ما يطهرهما ويبردهما ويقويهما، وتضمن دعاؤه سؤال هذا وهذا، والله تعالى أعلم.

وقريب من هذا: أنه صلى الله تعالى عليه وآله وسلم: «كان إذا خرج من الخلاء قال: «**غفرانك** » وفي هذا من السر ـ والله أعلم ـ: أن النَّجْوَ يُثقل البدن ويؤذيه باحتباسه، والذنوب تثقل القلب وتؤذيه باحتباسها فيه، فهما مؤذيان مضران بالبدن والقلب، فحمد الله عند خروجه على خلاصه من هذا المؤذي لبدنه. وخفة البدن وراحته، وسأل أن يخلصه من المؤذي الآخر ويريح قلبه منه ويخففه. وأسرار كلماته وأدعيته (ﷺ) فوق ما يخطر بالبال. اهـ

(١)**قال** أبومحمد بن حزم: ومما يبين أن أخبار رسول الله (ﷺ) تفيد العلم أن الله تعالى قال: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل:٤٤]. فصح أنه (ﷺ) مأمور ببيان القرآن للناس وفي القرآن مجمل كثير كالصلاة والزكاة والحج وغير ذلك مما لا يعلم ما ألزمنا الله تعالى فيه بلفظه، لكن بتبيان رسول الله (ﷺ) فإذا كان بيانه لذلك المجمل غير محفوظ ولا مضمون سلامته مما ليس منه؛ فقد بطل الانتفاع بنص القرآن وبطلت أكثر الشرائع المفترضة علينا فيه، فإن لم ندر صحيح مراد الله تعالى منها مما أخطأ فيه المخطىء أو تعمد فيه الكذب الكاذب ـ ومعاذ الله من هذا ـ قال: وأيضاً فنقول لمن قال: إن خبر الواحد العدل عن مثله مبلغاً إلى النبي (ﷺ) لا يوجب العلم وأنه يجوز فيه تعمد الكذب والوهم، وأنه غير مضمون الحفظ: أخبرونا هل يمكن أن يكون عندكم شريعة فرض أو تحريم أتى بها رسول الله (ﷺ) ومات وهي باقية لازمة للمسلمين غير منسوخة فجهلت؛ حتى لا يعلمها على اليقين أحد من أهل الإسلام في العالم أبدا.

(١) ٣٨٠ مختصر الصواعق جـ ٢.

وهل يمكن عندكم أن يكون حكم موضوع بالكذب أو بخطأ بالوهم؛ قد جاز ومضى واختلط بأحكـام الشريعة اختلاطاً لا يجوز أن يميزه أحد من أهل الإسلام في العالم أبداً أم لا يمكن عندكم شيء من هذين الوجهين؟ فإن قالوا: لا يمكنان أبداً بل قد أمنا ذلك؛ صاروا إلى قولنا وقطعوا أن كل خبر رواه الثقة عن الثقة مسنداً إلى رسول الله (ﷺ) في الديانة فإنه حق قد قاله رسول الله (ﷺ) كما هو وأنه يوجب العلم ويقطع بصحته.

ولا يجوز أن يختلط به خبر موضوع أو موهوم فيه لم يقله قط رسول الله (ﷺ) اختلاطاً لا يتميز الباطل فيه من الحق أبداً.

وإن قالوا: بل كل ذلك ممكن كانوا قد حكموا بأن دين الإسلام قد فسد وبطل أكثره، واختلط ما أمر الله تعالى به مع ما لم يأمر به اختلاطاً لا يميزه أحد أبداً، وانهم لا يدرون أبداً ما أمرهم الله به مما لم يأمرهم به، ولا ما وضع الكاذبون والمستخفون بما جاء به رسول الله (ﷺ) إلا بالظن الذي هو أكذب الحديث والذي لا يغني من الحق شيئاً. وهذا انسلاخ من الإسلام وهدم للدين وتشكيك في الشرائع....

(١)... **فإن** قيل: فما وجه خوف الملائكة وهم معصومون من الذنوب التي هي أسباب المخافة، وشدة خوف النبي (ﷺ) مع علمه بأن الله قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وأنه أقرب الخلق إلى الله؟ قيل: عن هذا أربعة أجوبة:

الجواب الأول: أن هذا الخوف على حسب القرب من الله والمنزلة عنده. وكلما كان العبد أقرب إلى الله كان خوفه منه أشد، لأنه يطالب بما لا يطالب به غيره، ويجب عليه من رعاية تلك المنزلة وحقوقها ما لا يجب على غيره.

ونظير هذا في المشاهد أن الماثل بين يدي أحد الملوك المشاهد له أشد خوفاً منـه من البعيد عنـه، بحسب قربه منه ومنزلته عنده ومعرفته به وبحقوقه، وأنه يطالب من حقـوق الخـدمـة وأدائها بما لا يطالب به غيره فهو أحق بالخوف من البعيد. ومن تصور هذا حق تصوره فهم قوله (ﷺ): **«إني أعلمكم بالله وأشدكم له خشية»**...

---

(١) ٢٨٥ طريق الهجرتين.

...[1]**وأما** قوله تعالى: **﴿يَخافُون رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾** [النحل: ٥٠]. هو حجة عليه كما تقدم. ولا يصح تفسير الخوف هنا بالهيبة؛ لوجهين: أحدهما: أنه خروج عن حقيقة اللفظ ووضعه الأصلي بلا موجب، الثاني: أن هذا وصف للملائكة وقد وصفهم سبحانه بخوفه وخشيته، فالخوف في هذه الآية والخشية في قوله تعالى: **﴿يَعْلَمُ ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وما خَلْفَهُمْ وَلا يَشْفَعُونَ إِلاّ لِمَنِ ارْتَضى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾** [الأنبياء: ٢٨]. فوصفهم بالخشية والإشفاق، ووصفهم بخوف العذاب في قوله تعالى: **﴿يَبْتَغُونَ إِلىَ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخافُونَ عَذابَه﴾** [الإسراء: ٥٧]. وهم خواص خلقه. فإياك ورعونات النفس وحماقاتها وجهالاتها، ولا تكن ممن لا يقدر الله حق قدره، وقد قال النبي (ﷺ): «**إن الله لو عذب أهل سماواته وأرضه لعذبهم وهو غير ظالم لهم**» فإذا علم المقرب العارف أن الله لو عذبه لم يظلمه، فمن أحق بالخوف منه؟ قوله: وقال في حق العوام: **﴿يَخافُونَ يَوْماً تَتَقَلَّبُ فيه القُلُوبُ والأَبْصارُ﴾** [التوبة: ٣٧]. هذا من الشطحات القبيحة الباطلة، فإن هذا صفة خواص عباده وعارفيهم، وهم الذين قال فيهم: **﴿رِجالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجارَةٌ ولا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ الله وَإِقامِ الصَّلاةِ وإِيتاءِ الزَّكاةِ يَخافُونَ يَوْماً تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ والأَبْصارُ لِيَجْزِيَهُمُ الله أَحْسَنَ ما عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِه﴾** [النور: ٣٧-٣٨]. فهؤلاء خواص الخلق، وهم أصحاب رسول الله (ﷺ) ومن تبعهم بإحسان، أفلا يستحي من جعل هذا الوصف للعوام؟ ولا ريب أن هذا مصدره: إما جهل مفرط، وإما تقليد لقائل لا يدري لازم قوله. هذا إن أحسن الظن بقائله، وإن كان مصدره غير ذلك فأدهى وأمر. ولولا أن هذه الكلمات ونحوها مهاو ومعاطب في الطريق لكان الإعراض عنها إلى ما هو أهم منها أولى. والله المستعان.

[2]**المثال** الثاني عشر، وقد تقدم ذكره مجملاً فنذكره ههنا مفصلاً: ردّ الجهمية النصوص المتنوعة المحكمة على عُلو الله على خلقه وكونه فوق عباده من ثمانية عشر نوعاً:

أحدها: التصريح بالفوقية مقرونة بأداة (مِنْ) المعينة لفوقية الذات نحو:

---

(١) ٣٤٤ طريق الهجرتين.

(٢) ٢٨١ أعلام جـ ٢.

﴿يَخافُون رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾ [النحل: ٥٠].

الثاني: ذكرها مجردة عن الأداة كقوله: ﴿وَهُو القَاهِرُ فَوقَ عِبَادِهِ﴾

الثالث: التصريح بالعُرُوجِ إليه نحو: ﴿تَعْرُجُ المَلائِكَةُ والرُّوحُ إليه﴾ [المعارج: ٤]. وقول النبي (ﷺ): «**فيعرج الذين باتوا فيكم فيسألهم ربهم**»

الرابع: التصريح بالصعود إليه كقوله: ﴿إليهِ يَصعَدُ الكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾

الخامس: التصريح برفعه بعض المخلوقات إليه كقوله: ﴿بَل رَّفَعَهُ الله إلَيهِ﴾ [النساء: ١٥٨]. وقوله: ﴿إنِي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إليَّ﴾ [آل عمران: ٥٥]. السادس: التصريح بالعلو المطلق الدال على جميع مراتب العلو ذاتاً وقدراً وشرفاً، كقوله: ﴿وَهُوَ العَلِيُّ العَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]. ﴿وَهُوَ العَلِيُّ الكَبِيرُ﴾ [سبأ: ٢٣]. ﴿إنَّه عَلِيٌّ حكيم﴾ [الشورى: ٥١].

السابع: التصريح بتنزيل الكتاب منه كقوله: ﴿تَنزِيلُ الكِتَابِ مِنَ الله العَزيز الحَكِيم﴾ [الزمر: ١]. ﴿تَنزِيلٌ مِّن حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢]. ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ القُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالحَقِّ﴾ [النحل: ١٠٢].

وهذا يدل على شيئين: على أن القرآن ظهر منه لا من غيره، وأنه الذي تكلم به لا غيره. الثاني: على علوه على خلقه وأن كلامه نزل به الروح الأمين من عنده من أعلى مكان إلى رسوله.

الثامن: التصريح باختصاص بعض المخلوقات بأنها عنده، وأن بعضها أقربُ إليه من بعض، كقوله: ﴿إنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾ [الأعراف: ٢٠٦]. وقوله: ﴿وَلَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرضِ وَمَن عِندَهُ لَا يَستَكبِرُونَ عَن عِبَادَتِهِ وَلَا يَستَحسِرُونَ﴾ [الأنبياء: ١٩]. ففرق بين مَنْ له عموماً، ومن عنده من مماليكه وعبيده خصوصاً، وقول النبي (ﷺ) في الكتاب الذي كتبه الرب تعالى على نفسه: «**إنه عنده على العرش**».

التاسع: التصريح بأنه سبحانه في السماء، وهذا عند أهل السنة على أحد وجهين: إما أن تكون في بمعنى على، وإما أن يراد بالسماء العلو، لا يختلفون في ذلك، ولا يجوز حمل النص على غيره.

العاشر: التصريح بالاستواء مقروناً بأداة على مختصاً بالعرش الذي هو أعلى المخلوقات، مصاحباً في الأكثر لأداة «ثم» الدالة على الترتيب والمهلة، وهو بهذا السياق صريح في معناه الذي لا يفهم المخاطبون غيره من العلو والارتفاع، ولا يحتمل غيره ألبتة.

الحادي عشر: التصريح برفع الأيدي إلى الله سبحانه كقوله (ﷺ): «**إن الله يستحي من عبده إذا رفع إليه يديه أن يردهما صِفراً**».

الثاني عشر: التصريح بنزوله كل ليلة إلى السماء الدنيا، والنزول المعقول عند جميع الأمم إنما يكون من علو إلى أسفل.

الثالث عشر: الإشارة إليه حسًّا إلى العلو كما أشار إليه مَنْ هو أعلم به، وما يجب له ويمتنع عليه من أفراخ الجهمية والمعتزلة والفلاسفة في أعظم مجمع على وجه الأرض يرفع أصبعه إلى السماء، ويقول: اللهم اشهد، ليشهد الجميع أن الرب الذي أرسله ودعا إليه واستشهد هو الذي فوق سماواته على عرشه.

الرابع عشر: التصريح بلفظ الأين الذي هو عند الجهمية بمنزلة متى في الاستحالة، ولا فرق بين اللفظين عندهم ألبتة، فالقائل: «**أين الله**» و«متى كان الله» عندهم سواء، كقول أعلم الخلق به، وأنصحهم لأمته، وأعظمهم بياناً عن المعنى الصحيح بلفظ لا يوهم باطلاً بوجه «**أين الله**» في غير موضع.

الخامس عشر: شهادته التي هي أصدق شهادة عند الله وملائكته وجميع المؤمنين لمن قال: «إن ربه في السماء» بالإيمان، وشهد عليه أفراخ جَهْم بالكفر.

وصرّح الشافعي أن هذا الذي وَصَفتْهُ من أن ربها في السماء إيمان.

فقال في كتابه في باب عتق الرقبة المؤمنة، وذكر حديث الأمة السوداء التي سَوَّدت وجوهَ الجهمية وبيضت وجوه المحمدية: فلما وصفت الإيمان قال: «**أعتقها فإنها مؤمنة**» وهي إنما وصَفَتْ كونَ ربها في السماء، وأن محمداً عبده ورسوله؛ فقرنت بينهما في الذكر؛ فجعل الصادقَ المصدوق مجموعهما هو الإيمان.

السادس عشر: إخباره سبحانه عن فرعون أنه رَامَ الصعودَ إلى السماء ليطلع إلى إلـهِ موسى، فيكـذبـه فيما أخـبر به من أنه سبحانه فوق السماوات، فقال:

﴿يَاهَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحاً لَّعَلِّي أَبْلُغُ الأَسبَابَ أَسبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وإِنِّي لأَظُنُّهُ كَاذِباً﴾ [غافر: ٣٦-٣٧]. فكذب فرعون موسى في إخباره إياه بأن ربه فوق السماء. وعند الجهمية لا فرق بين الإخبار بذلك وبين الإخبار بأنه يأكل ويشرب، وعلى زعمهم يكون فرعون قد نزه الرب عما لا يليق به وكذب موسى في إخباره بذلـك؛ إذ مَنْ قال عنـدهم: إن ربه فوق السماوات فهو كاذب، فهم في هذا التكذيب موافقون لفرعون، مخالفون لموسى ولجميع الأنبياء، ولذلك سماهم أئمة السنة «فرعونية».

قالوا: وهم شر من الجهمية؛ فإن الجهمية يقولون: إن الله في كل مكان بذاته، وهؤلاء عطلوه بالكلية، وأوقعوا عليه الوصف المطابق للعدم المحض، فأي طائفة من طوائف بني آدم أثبتت الصانع على أي وجه كان قولهم خيراً من قولهم.

السابع عشر: إخباره (ﷺ) أنه تردَّدَ بين موسى وبين الله ويقول له موسى: «**ارْجِعْ إلى ربك فسَلْه التخفيف**»، فيرجع إليه ثم ينزل إلى موسى فيأمره بالرجوع إليه سبحانه، فيصعد إليه سبحانه ثم ينزل من عنده إلى موسى، عدة مرات.

الثامن عشر: إخباره تعالى عن نفسه وإخبار رسوله عنه: أن المؤمنين يَرَوْنَهُ عِياناً جَهْرَةَ كرؤية الشمس في الظهيرة والقمر ليلة البدر.

والذي تفهمه الأمم على اختلاف لُغاتها وأوهامها من هذه الرؤية؛ رؤية المقابلة والمواجهة التي تكون بين الرائي والمرئي فيها مسافة محدودة غير مُفْرِطة في البعد؛ فتمتنع الرؤية ولا في القرب فلا تمكن الرؤية، لا تَعْقِلُ الأمم غيرَ هذا، فإما أن يروه سبحانه من تحتهم ـ تعالى الله ـ أو من خلفهم أو من أمامهم أو عن أيمانهم أو عن شمائلهم أو من فوقهم.

ولابد من قسم من هذه الأقسام إن كانت الرؤية حقًّا، وكلها باطل سوى رؤيتهم له من فوقهم، كما في حديث جابر الذي في المسند وغيره: «**بَيْنَا أهلُ الجنة في نعيمهم إذ سَطَع لهم نور، فرفعوا رءوسهم، فإذا الجبار قد أشرف عليهم من فوقهم، وقال: يا أهل الجنة سلام عليكم**» ثم قرأ قوله: ﴿سَلاَمٌ قَوْلاً مِن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ [يس: ٥٨]. ثم يتوارى عنهم، وتبقى رحمته وبركته عليهم في ديارهم، ولا يتم إنكار الفوقية إلا بإنكار الرؤية، ولهذا طرد الجهمية أصلهم وصرَّحُوا بذلك،

وركبوا النفيين معاً، وصَدَّقَ أهلُ السنة بالأمرين معاً، وأقروا بهما، وصار مَنْ أثبت الرؤية ونَفَى علو الرب على خلقه واستواءه على عرشِهِ مذبذباً بين ذلك، لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء.

فهذه أنواع من الأدلة السمعية المحكمة، إذا بسطت أفرادها كانت أَلْفَ دليل على علو الرب على خلقه واستوائه على عرشه.

فترك الجهمية ذلك كله، وردوه بالمتشابه من قوله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنتُم﴾ [الحديد: ٤].

وردَّه زعيمهم المتأخر بقوله: ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١١]. وبقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١].

ثم ردوا تلك الأنواع كلها متشابهة، فسلطوا المتشابه على المحكم وردوه به.

ثم ردوا المحكم متشابهاً؛ فتارة يحتجون به على الباطل، وتارة يدفعون به الحق.

ومن له أدنى بصيرة يعلم أنه لا شيء في النصوص أظهر ولا أبين دلالة من مَضْمُون هذه النصوص؛ فإذا كانت متشابهة فالشريعة كلها متشابهة، وليس فيها شيء محكم ألبتة، ولازم هذا القول لزوماً لا مَحِيدَ عنه: أن ترك الناس بدونها خير لهم من إنزالها إليهم، فإنها أَوْهَمَتْهُمْ وأفهمتهم غيرَ المراد، وأوقعتهم في اعتقاد الباطل، ولم يتبين لهم ما هو الحق في نفسه، بل أُحِيلُوا فيه على ما يستخرجونه بعقولهم وأفكارهم ومقاييسهم.

فنسأل الله مثبت القلوب تبارك وتعالى أن يثبت قلوبنا على دينه وما بعث به رسوله من الهدى ودين الحق، وأن لا يزيغ قلوبنا بعد إذ هدانا؛ إنه قريب مجيب.

[1]**ومن** ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللهِ﴾. والإيمان والطاعة من أجل النعم بل هما أجل النعم على الإطلاق، فهما منه سبحانه تعليماً وإرشاداً وإلهاماً وتوفيقاً ومشيئة وخلقاً.

ولا يصح أن يقال: إنها أمراً وبياناً فقط، فإن ذلك حاصل بالنسبة إلى الكفار والعصاة، فتكون نعمته على أكفر الخلق كنعمته على أهل الإيمان والطاعة والبر منهم، إذ نعمة البيان والإرشاد مشتركة وهذا قول القدرية، وقد صرح به كثير منهم ولم يجعلوا

(١) ٥٧ شفاء العليل.

لله على العبد نعمة في مشيئته وخلقه فعله وتوفيقه إياه حين فعله، وهذا من قولهم الذي باينوا به جميع الرسل والكتب وطردوا ذلك حين لم يجعلوا لله على العبد منة في إعطائه الجزاء، بل قالوا: ذلك محض حقه الذي لا منة لله عليه فيه.

واحتجوا بقوله: ﴿لَهم أجرٌ غيرُ ممنونٍ﴾ [فصلت:٨]. قالوا: أي: غير ممنون به عليهم إذ هو جزاء أعمالهم وأجورها.

قالوا: والمنة تكدر النعمة والعطية، ولم يدع هؤلاء للجهل بالله موضعاً وقاسوا منته على منة المخلوق، فإنهم مشبهة في الأفعال معطلة في الصفات.

وليست المنة في الحقيقة إلا لله فهو المان بفضله وأهل سمواته. وأهل أرضه في محض منته عليهم قال تعالى: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيكَ أَنْ أَسلَمُواْ قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيكُم أَن هَدَاكُم لِلإِيمَانِ إِن كُنتُم صَادِقِينَ﴾ [الحجرات:١٧]. وقال تعالى لكليمه موسى: ﴿وَلَقَد مَنَنَّا عَلَيكَ مَرَّةً أُخرَى﴾ [طه:٣٧]. وقال: ﴿وَلَقَد مَنَنَّا على مُوسى وهارُون﴾ [الصافات:١١٤]. وقال: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ استُضعِفُوا فِي الأَرضِ وَنَجعَلَهُم أَئِمَّةً وَنَجعَلَهُمُ الوَارِثِينَ﴾ [القصص:٥]. ولما قال النبي (ﷺ) للأنصار «ألم أجدكم ضلالاً فهداكم الله بي وعالة فأغناكم الله بي» قالوا: الله ورسوله أمن.

وقال الرسل لقومهم: ﴿إِن نَّحنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثلُكُم وَلَكِنَّ الله يَمُنُّ عَلَى مَن يَشَاءُ مِن عِبَادِهِ﴾ [إبراهيم:١١]. فمنه سبحانه محض إحسانه وفضله ورحمته وما طاب عيش أهل الجنة فيها إلا بمنته عليهم، ولهذا قال أهلها ـ وقد أقبل بعضهم على بعض يتساءلون ـ ﴿إنا كنا قبل في أهلنا مشفقين فمن الله علينا ووقانا عذاب السموم﴾ [الطور: ٢٦، ٢٧]. فأجزوا لمعرفتهم بربهم وحقه عليهم: أن نجاهم من عذاب السموم بمحض منته عليهم.

وقد قال أعلم الخلق بالله وأحبهم إليه وأقربهم منه وأطوعهم له:

«لن يدخل أحد منكم الجنة بعمله» قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل».

وقال: «إن الله لو عذب أهل سمواته وأرضه لعذبهم وهو غير ظالم لهم ولو رحمهم لكانت رحمته لهم خيراً من أعمالهم».

والأول في الصحيح، والثاني في المسند والسنن وصححه الحاكم وغيره. فأخبر سيد العالمين والعاملين أنه لا يدخل الجنة بعمله.

وقالت القدرية: إنهم يدخلونها بأعمالهم لئلا يتكدر نعيمهم عليهم بمشيئة الله، بل يكون ذلك النعيم عوضاً.

وما رمى السلف من الصحابة والتابعين ومن بعدهم القدرية عن قوس واحدة؛ إلا لعظم بدعهم ومنافاتها لما بعث الله به أنبياءه ورسله، فلو أتى العباد بكل طاعة وكانت أنفاسهم كلها طاعات لله؛ لكانوا في محض منته وفضله وكانت له المنة عليهم، وكلما عظمت طاعة العبد كانت منة الله عليه أعظم فهو المان بفضله، فمن أنكر منته فقد أنكر إحسانه.

وأما قوله تعالى: ﴿لَهُم أَجرٌ غَيرُ ممنُونٍ﴾ [فصلت:٨]. فلم يختلف أهل العلم بالله ورسوله وكتابه أن معناه غير مقطوع ومنه: ريب المنون، وهو الموت لأنه يقطع العمر.

قاعدة جليلة(١)

قد فكرت في هذا الأمر، فإذا أصله أن تعلم أن النعم كلها من الله وحده، نعم الطاعات ونعم اللذات، فترغب إليه أن يلهمك ذكرها، ويوزعك شكرها.

قال تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعمَةٍ فَمِنَ الله ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيهِ تَجأَرُونَ﴾ [النحل:٥٣].

وقال: ﴿فَاذكُروا آلاء الله لعلكم تُفلحونَ﴾ [الأعراف: ٦٩].

وقال: ﴿وَاشْكُرُوا نِعمَةَ الله إن كُنتُم إِيَّاه تَعبُدُون﴾ [النحل: ١١٤].

وكما أن تلك النعم منه ومن مجرد فضله، فذكرها وشكرها لا ينال إلا بتوفيقه.

والذنوب من خذلانه وتخليه عن عبده، وتخليته بينه وبين نفسه، وإن لم يكشف ذلك عن عبده فلا سبيل له إلى كشفه عن نفسه، فإذا هو مضطر إلى التضرع والابتهال إليه أن يدفع عنه أسبابها حتى لا تصدر منه.

وإذا وقعت بحكم المقادير ومقتضى البشرية، فهو مضطر إلى التضرع والدعاء أن يدفع عنه موجباتها وعقوباتها، فلا ينفك العبد عن ضرورته إلى هذه

---

(١) ٢٠٣ فوائد.

الأصول الثلاثة، ولا فلاح له إلا بها: الشكر، وطلب العافية والتوبة النصوح.

ثم فكرت فإذا مدار ذلك على الرغبة والرهبة، وليسا بيد العبد، بل بيد مقلب القلوب ومصرفها كيف يشاء، فإن وفق عبده أقبل بقلبه إليه وملأه رغبة ورهبة، وإن خذله تركه ونفسه ولم يأخذ بقلبه إليه ولم يسأله ذلك، وما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن.

ثم فكرت، هل للتوفيق والخذلان سبب، أم هما بمجرد المشيئة لا سبب لهما؟ فإذا سببهما أهلية المحل وعدمها، فهو ـ سبحانه ـ خالق المحال متفاوتة في الاستعداد والقبول أعظم تفاوت، فالجمادات لا تقبل ما قبله الحيوان، وكذلك النوعان، كل منهما متفاوت في القبول؛ فالحيوان الناطق يقبل ما لا يقبله البهيم، وهو متفاوت في القبول أعظم تفاوت. وكذلك الحيوان البهيم متفاوت في القبول، لكن ليس بين النوع الواحد من التفاوت كما بين النوع الإنساني.

فإذا كان المحل[1] قابلاً للنعمة بحيث يعرفها ويعرف قدرها وخطرها، ويشكر المنعم بها ويثني عليه بها ويعظمه عليها، ويعلم أنها من محض الجود وعين المنة من غير أن يكون هو مستحقا لها، ولا هي له ولا به، وإنما هي لله وحده وبه وحده، فوحده بنعمته إخلاصاً وصرفها في محبته شكراً، وشهدها من محض جوده منة، وعرف قصوره وتقصيره في شكرها عجزاً وضعفاً وتفريطاً، وعلم أنه إن أدامها عليه فذلك محض صدقته وفضله وإحسانه، وإن سلبه إياها فهو أهل لذلك مستحق له، وكلما زاده من نعمه ازداد ذلاً له وانكساراً، وخضوعاً بين يديه وقياماً بشكره، وخشيته له ـ سبحانه ـ أن يسلبه إياها، لعدم توفيته شكرها، كما سلب نعمته عمن لم يعرفها ولم يرعها حق رعايتها، فإن لم يشكر نعمته وقابلها بضد ما يليق أن يقابل به، سلبه إياها، ولابد. قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعضَهُم بِبَعضٍ لِيَقُولُوا أَهؤُلاءِ مَنَّ الله عَلَيهِم مِن بَينِنَا، أَلَيسَ الله بِأَعلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ [الأنعام: ٥٣]. وهم الذين عرفوا قدر النعمة وقبلوها، وأحبوها وأثنوا على المنعم بها، وأحبوه وقاموا بشكره، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَتهُم آيَةٌ قَالُوا لَن نُّؤمِنَ حَتَّى نُؤتَى مِثلَ ما أُوتِيَ رُسُلُ الله، الله أَعلَمُ حَيثُ يَجعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

---

(١) المحل القابل للنعمة هو الموفق (ج).

فصل

وسبب الخذلان عدم صلاحية المحل وأهليته وقبوله للنعمة بحيث لو وافته النعم لقال: هذا لي، وإنما أوتيته لأني أهله ومستحقه؛ كما قال تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي﴾ [القصص: ٧٨]. أي: على علم علمه الله عندي أستحق به ذلك وأستوجبه وأستأهله.

قال الفراء: أي: على فضل عندي، إني كنت أهله ومستحقًا له إذ أعطيته.

وقال مقاتل: يقول: على خير علمه الله عندي.

وذكر عبدالله بن الحارث بن نوفل سليمان بن داود، فيما أوتي من الملك، ثم قرأ قوله تعالى: ﴿هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي، لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ [النحل: ٤٠]. ولم يقل هذا من كرامتي.

ثم ذكر قارون، وقوله: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي﴾ [القصص: ٧٨] يعني أن سليمان رأى ما أوتيه من فضل الله عليه ومنته، وانه ابتلي به شكره، وقارون رأى ذلك من نفسه واستحقاقه.

وكذلك قوله سبحانه: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِن بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي﴾ [فصلت: ٥٠] أي: أنا أهله، وحقيق به فاختصاصي به كاختصاص المالك بملكه، والمؤمن يرى ذلك ملكاً لربه وفضلاً منه منّ به على عبده من غير استحقاق منه، بل صدقة تصدق بها على عبده، وله أن لا يتصدق بها، فلو منعه إياها، لم يكن قد منعه شيئاً هو له يستحقه عليه، فإذا لم يشهد ذلك، رأى فيه أهلاً ومستحقًا، فأعجبته نفسه وطغت بالنعمة، وعلت بها واستطالت على غيرها، فكان حظها منه الفرح والفخر. كما قال تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا الإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَؤُوسٌ كَفُورٌ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾ [هود: ٩-١٠].

فذمه باليأس والكفر عند الامتحان بالبلاء، وبالفرح والفخر عند الابتلاء بالنعماء، واستبدل بحمد الله وشكره والثناء عليه إذ كشف عنه البلاء ـ قوله: ذهب السيئات عني ـ ولو أنه قال: أذهب الله السيئات عني برحمته، ومنّه، لما ذم على ذلك، بل كان محموداً عليه، ولكنه غفل عن المنعم بكشفها ونسب الذهاب إليها

وفرح وافتخر، فإذا علم الله سبحانه هذا من قلب عبد، فذلك من أعظم أسباب خذلانه وتخليه عنه، فإن محله لا تناسبه النعمة المطلقة التامة؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوابِّ عِندَ الله الصُّمُّ البُكم الَّذِينَ لاَ يَعقِلُونَ وَلَو عَلِمَ الله فِيهِم خَيراً لأَسمَعَهُم وَلَو أَسمَعَهُم لَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعرِضُونَ﴾ [الأنفال: ٢٢-٢٣] فأخبر سبحانه أن محلهم غير قابل لنعمته، ومع عدم القبول ففيهم مانع آخر يمنع وصولها إليهم؛ وهو توليهم وإعراضهم إذا عرفوها وتحققوها.

ومما ينبغي أن يعلم أن أسباب الخذلان من بقاء النفس على ما خلقت عليه في الأصل وإهمالها وتخليتها، فأسباب الخذلان منها وفيها، وأسباب التوفيق من جعل الله ـ سبحانه ـ لها قابلة للنعمة، فأسباب التوفيق منه ومن فضله، وهو الخالق لهذه وهذه، كما خلق أجزاء الأرض: هذه قابلة للنبات، وهذه غير قابلة له، وخلق الشجر: هذه تقبل الثمرة، وهذه لا تقبلها، وخلق النحلة قابلة لأن يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه، والزنبور غير قابل لذلك، وخلق الأرواح الطيبة قابلة لذكره وشكره وحجته(١) وإجلاله وتعظيمه وتوحيده ونصيحة عباده، وخلق الأرواح الخبيثة غير قابلة لذلك، بل لضده؛ وهو الحكيم العليم.

(٢)**قوله**: ﴿وَيَعبُدُونَ مِن دُونِ الله مَا لاَ يَملِكُ لَهُم رِزقاً مِّنَ السَّمَوَاتِ وَالأَرضِ شَيئاً وَلاَ يَستَطِيعُونَ فَلاَ تَضرِبُوا لله الأَمثَالَ﴾ [النحل: ٧٣-٧٤] فنهاهم أَنْ يضربوا له مثلاً من خلقه، ولم ينههم أن يضربوه هو مثلاً لخلقه، فإن هذا لم يقله أحدٌ، ولم يكونوا يفعلونه. فإن الله سبحانه أجل وأعظم وأكبر من كل شيء في فِطَر الناس كلهم. ولكن المشبهون المشركون يَغْلُونَ فيمن يعظمونه فيشبهونهم بالخالق، والله تعالى أجلُّ في صدور جميع الخلق من أن يجعَلُوا غيره أصلاً، ثم يشبهونه سبحانه بغيره.

فالذي يشبهه بغيره، إن قصد تعظيمه، لم يكنْ في هذا تعظيم، لأنه مَثَّل أعظمَ العظماء بما هو دونه، بل بما ليس بينه وبينه نسبة وشبه في العظمة والجلالة، وعاقل لا يفعل هذا.

وإن قصد التنقيص شبهه بالناقصين المذمومين، لا بالكاملين الممدوحين.

(١) كذا بالأصل ولعلها محبته (ج).	(٢) ٢٣٠ إغاثة جـ٢.

ومن هنا يُعْلَمُ أن إثبات صفاتِ الكمال له لا يتضمن التشبيه والتمثيل، لا بالكاملين ولا بالناقصين، وأنَّ نفي تلك الصفات يستلزم تشبيهه بأنقص الناقصين.

فانظر إلى الجهمية وأتباعهم، جاءوا إلى التشبيه المذموم فأعرضوا عنه صفحاً، وجاءوا إلى الكمال والمدح فجعلوه تشبيهاً وتمثيلاً، عكس ما يثبته القرآن، وجاء به من كُلِّ وجه.

(١)**الوجه** الخامس والثلاثون: أنه سبحانه وصف نفسه بأن له المثل الأعلى فقال تعالى: ﴿**لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ مَثَلُ السَّوءِ ولله المَثَلُ الأعلَى وَهُو العَزِيزُ الحَكِيمُ**﴾ [النحل: ٦٠] وقال تعالى: ﴿**وَهُوَ الَّذِي يَبدَؤُ الخَلقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهوَنُ عَلَيهِ وَلَهُ المَثَلُ الأَعلَى فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرضِ وَهُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ**﴾ [الروم: ٢٧] فجعل مثل السوء المتضمن للعيوب والنقائص وسلب الكمال للمشركين، وأخبر أن المثل الأعلى المتضمن لإثبات الكمالات كلها له وحده. وبهذا كان المثل الأعلى، وهو أفعل تفضيل، أي أعلى من غيره. فكيف يكون أعلى وهو عدم محض ونفي صرف، وأي مثل أدنى من هذا؟ تعالى الله عن قول المعطلين علوًّا كبيراً.

فمثل السوء العادم صفات الكمال. ولهذا جعله مثل الجاحدين لتوحيده وكلامه وحكمته، لأنهم فقدوا الصفات التي من اتصف بها كان كاملاً. وهي: الإيمان والعلم والمعرفة، واليقين والإخلاص والعبادة لله، والتوكل عليه والإنابة إليه، والزهد في الدنيا والرغبة في الآخرة، والصبر والرضى والشكر، وغير ذلك من الصفات التي من اتصف بها كان ممن آمن بالآخرة، فلما سلبت تلك الصفات عنهم وهي صفات كمال صار لهم مثل السوء.

فمن سلب صفات الكمال عن الله تعالى وعلوه على خلقه وكلامه وعلمه وقدرته وسائر ما وصف به نفسه؛ فقد جعل لله تعالى مثل السوء ونزهه عن المثل الأعلى، وأن مثل السوء هو العدم وما يستلزمه، وضده المثل الأعلى وهو الكمال المطلق المتضمن للأمور الوجودية والمعاني الثبوتية التي كلما كانت أكثر في الموصوف وأكمل؛ كان أعلى من غيره.

ولما كان الرب سبحانه هو الأعلى ووجهه الأعلى وكلامه الأعلى وسمعه

---

(١) ٢١٣ مختصر الصواعق جـ ١.

الأعلى وسائر صفاته عليا، كان له المثل الأعلى وهو أحق به من كل ما سواه.

بل يستحيل أن يشترك في المثل الأعلى اثنان، لأنهما إن تكافآ لم يكن أحدهما أعلا من الآخر، وإن لم يتكافآ فالموصوف بالمثل الأعلى أحدهما وحده؛ فيستحيل أن يكون لمن له المثل الأعلى مثل أو نظير. وهذا برهان قاطع من إثبات صفات الكمال على استحالة التمثيل والتشبيه، فتأمله فإنه في غاية الظهور والقوة.

ونظير هذا القهر المطلق مع الوحدة فإنهما متلازمان، فلا يكون القهار إلا واحداً إذ لو كان معه كفؤ له، فإن لم يقهره لم يكن قهاراً على الإطلاق، و إن قهره لم يكن له كفؤاً وكان القهار واحداً. فتأمل كيف كان قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١] وقوله: ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الأَعْلَى﴾ [الروم: ٢٧] من أعظم الأدلة على ثبوت صفات كماله سبحانه وتعالى.

فإن قلت فما حقيقة المثل الأعلى؟ قلت: قد أشكل هذا على جماعة من المفسرين واستشكلوا أقوال السلف فيه، فإن ابن عباس وغيره قالوا: مثل السوء العذاب والنار، ولله المثل الأعلى: شهادة (أن لا إله إلا الله) قال قتادة: هو الإخلاص والتوحيد.

وقال الواحدي: هذا قول المفسرين في هذه الآية، ولا أدري لِمَ قيل العذاب مثل السوء والإخلاص المثل الأعلى؟.

قال: وقال قوم: المثل السوء الصفة السوء من احتياجهم للولد وكراهتهم للإناث خوف العيلة والعار، ولله المثل الأعلى الصفة العليا وتنزهه وبراءته من الولد.

قال: وهذا قول صحيح، والمثل كثيراً يرد بمعنى الصفة. وقاله جماعة من المتقدمين. وقال ابن كيسان: مثل السوء ماضرب الله للأصنام وعبدتها من الأمثال، والمثل الأعلى نحو قوله: ﴿اللهُ نُورُ السَّمواتِ وَالأَرْضِ﴾ [النور: ٣٥].

وقال ابن جرير: وله المثل الأعلى، هو الأطيب والأفضل والأحسن والأجمل، وذلك التوحيد والإذعان له بأنه لا إله إلا هو.

قلت: المثل الأعلى يتضمن الصفة العليا، وعلم العالمين بها، ووجودها العلمي، والخبر عنها، وذكرها، وعبادة الرب سبحانه بواسطة العلم والمعرفة القائمة بقلوب عابديه وذاكريه، فها هنا أربعة أمور:

ثبوت الصفات العليا لله سبحانه في نفس الأمر، علمها العباد أو جهلوها. وهذا قول من فسره بالصفة.

الثاني: وجودها في العلم والتصور، وهذا معنى قول من قال من السلف والخلف: إنه ما في قلوب عابديه وذاكريه من معرفته وذكره ومحبته وإجلاله وتعظيمه. وهذا الذي في قلوبهم من المثل الأعلى لا يشترك فيه غيره معه؛ بل يختص به في قلوبهم كما اختص به في ذاته، وهذا معنى قول من قال من المفسرين: أهل السماء يحبونه ويعظمونه. وأهل الأرض يجلونه ويعظمونه، وإن أشرك به من أشرك وعصاه من عصاه وجحد صفاته من جحدها، فكل أهل الأرض معظمون له مجلون له خاضعون لعظمته.

قال تعالى: ﴿وَلَهُ مَنْ فِي السَّموَاتِ وَالأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ﴾ [الروم: ٢٦] فلست تجد أحداً من أوليائه وأعدائه إلا والله أكبر في صدره وأعظم من كل ما سواه.

الثالث: ذكر صفاته والخبر عنها وتنزيهها عن النقائص والعيوب والمثيل.

الرابع: محبة الموصوف بها وتوحيده والإخلاص له والتوكل عليه.

وكلما كان الإيمان بالصفات أكمل؛ كان هذا الحب والإخلاص أقوى.

فعبارة السلف تدور حول هذه المعاني الأربعة لا تتجاوزها. وقد ضرب الله مثل السوء للأصنام بأنها لا تخلق شيئاً وهي مخلوقة، ولا تملك لنفسها ولا لعابديها ضرًّا ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياة ولا نشورًا.

وقال الله تعالى: ﴿ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً عَبْداً مَمْلُوكاً لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقاً حَسَناً فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْراً هَلْ يَسْتَوُونَ؟ الْحَمْدُ لِلَّهِ، بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ. وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّهْهُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [النحل: ٧٥-٧٦].

فهذان مثلان ضربهما الله لنفسه وللأصنام، للأصنام مثل السوء وله المثل الأعلى وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ. إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ. وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ مَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾

فهذا المثل الأعلى الذي له سبحانه، والأول مثل السوء للصنم وعابديه.

وقد ضرب الله سبحانه للمعارضين بين الوحي وعقولهم مثل السوء؛ بالكلب تارة وبالحمر تارة وبالأنعام تارة، وبأهل القبور تارة وبالعمي الصم وغير ذلك من أمثال السوء التي ضربها لهم ولأوثانهم.

وأخبر عن مثله الأعلى بما ذكره من أسمائه وصفاته وأفعاله، وضرب لأوليائه وعابديه أحسن الأمثال. ومن تدبر القرآن فهم المراد بالمثل الأعلى ومثل السوء. ا.هـ

[1]**وقد** أخبرنا سبحانه عن تفاصيل يوم القيامة وما في الجنة والنار، فقامت حقائق ذلك في قلوب أهل الإيمان وشاهدته عقولهم ولم يعرفوا كنهه. فلا يشك المسلمون أن في الجنة أنهاراً من خمر وأنهاراً من عسلٍ وأنهاراً من لبن، ولكن لا يعرفون كنه ذلك ومادته وكيفيته. إذ كانوا لا يعرفون في الدنيا الخمر إلا ما اعتصر من الأعناب، والعسل إلا ما قذفت به النحل في بيوتها، واللبن إلا ما خرج من الضروع، والحرير إلا ما خرج من دود القز، وقد فهموا معاني ذلك في الجنة من غير أن يكون مماثلاً لما في الدنيا.

كما قال ابن عباس: «ليس في الدنيا مما في الآخرة إلا الأسماء والصفات» ولم يمنعهم عدم النظير في الدنيا من فهم ما أخبروا به من ذلك.

فهكذا الأسماء والصفات لم يمنعهم انتفاء نظيرها ومثالها من فهم حقائقها ومعانيها؛ بل قام بقلوبهم معرفة حقائقها وانتفاء التمثيل والتشبيه عنها. وهذا هو المثل الأعلى الذي أثبته الله تعالى لنفسه في ثلاثة مواضع من القرآن:

أحدها: قوله تعالى: **﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الأَعْلَى[2] وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾** [النحل: ٦٠].

الثاني: قوله تعالى: **﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَؤُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الأَعْلَى فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾** [الروم: ٢٧].

الثالث: قوله تعالى: **﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾** [الشورى: ١١]

---

(١) ٨٤ مختصر الصواعق جـ١. (٢) في المطبوعة: زيادة ﴿في السموات والأرض﴾ وهي زيادة غير موجودة في آية النحل ولعله حدث خلط بالآية (٢٧) من سورة الروم. المراجع.

فنفى سبحانه وتعالى المثل عن هذا المثل الأعلى، وهو ما في قلوب أهل سمواته وأرضه من معرفته والإقرار بربوبيته وأسمائه وصفاته وذاته. فهذا المثل الأعلى هو الذي آمن به المؤمنون، وأنس به العارفون وقامت شواهده في قلوبهم بالتعريفات الفطرية المكملة بالكتب الإلهية المضبوطة بالبراهين العقلية، فاتفق على الشهادة بثبوته العقل والسمع والفطرة. فإذا قال المثبت: يا الله، قام بقلبه رب قيوم قائم بنفسه، مستو على عرشه، مكلم، متكلم، سامع، قدير، مريد، فعال لما يريد، يسمع دعاء الداعين، ويقضي حاجات السائلين، ويفرج عن المكروبين، ترضيه الطاعات، وتغضبه المعاصي، تعرج الملائكة بالأمر إليه، وتنزل بالأمر من عنده.

وإذا شئت زيادة تعريف بهذا المثل الأعلى فعد؛ قوى جميع المخلوقات اجتمعت لواحد منهم، ثم كان جميعهم على قوة ذلك الواحد، فإذا نسبت قوتهم إلى قوة الرب تعالى لم تجد نسبة إليها ألبتة، كما لا تجد نسبة بين قوة البعوضة وقوة الأسد، وإذا قدرت علوم الخلائق اجتمعت لواحد ثم قدرت جميعهم بهذه المثابة كانت علومهم بالنسبة إلى علمه تعالى كنقرة عصفور في بحر، وكذا في حكمته وكماله.

وقد نبهنا سبحانه وتعالى على هذا المعنى بقوله: **﴿وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللهِ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾** [لقمان: ٢٧].

فقدر البحر المحيط بالعالم مداداً ووراءه سبعة أبحر تحيط به، كلها مداداً يكتب به كلمات الله، نفدت البحار ونفدت الأقلام التي لو قدرت جميع أشجار الأرض من حين خلقت إلى آخر الدنيا ولم تنفد كلمات الله.

وقد أخبر النبي (ﷺ): «**أن السموات السبع في الكرسي كحلقة ملقاة بأرض فلاة والكرسي في العرش كحلقة ملقاة في أرض فلاة، والعرش لا يقدر قدره إلا الله**» وهو سبحانه فوق عرشه يعلم ويرى ما عباده عليه. فهذا هو الذي قام بقلوب المؤمنين المصدقين العارفين به سبحانه المثل الأعلى، فعرفوه به وعبدوه به وسألوه به، فأحبوه وخافوه ورجوه، وتوكلوا عليه وأنابوا إليه، واطمأنوا بذكره وأنسوا بحبه بواسطة هذا التعريف. فلم يصعب عليهم بعد ذلك معنى استوائه على عرشه وسائر ما وصف به نفسه من صفات كماله. إذ قد أحاط علمهم بأنه لا

نظير لذلك ولا مثل له، ولم يخطر بقلوبهم مماثلة شيء من المخلوقين. وقد أعلمهم الله سبحانه على لسان رسوله **«أنه يقبض سمواته بيده والأرض باليد الأخرى ثم يهزهن»** **«وأن السموات السبع والأرضين السبع في كفه كخردلة في كف أحدكم»** **«وأنه يضع السموات على إصبع، والأرضين على إصبع، والجبال على إصبع، والشجر على إصبع، وسائر المخلوقات على إصبع»** فأي يد للخلق وأي إصبع تشبه هذه اليد وهذه الإصبع حتى يكون إثباتها تشبيهاً وتمثيلاً؟؟

فقاتل الله أصحاب التحريف والتبديل، ماذا حرموه من الحقائق الإيمانية والمعارف الإلهية، وماذا تعوضوا به من زبالة الأذهان، ونخالة الأفكار؟

وما أشبههم بمن كان غذاؤهم المن والسلوى بلا تعب فآثروا عليه الفوم والعدس والبصل. وقد جرت عادة الله سبحانه أن يذل من آثر الأدنى على الأعلى، ويجعله عبرةً للعقلاء.

فأول هذا الصنف إبليس لعنه الله، ترك السجود لآدم كبراً فابتلاه الله تعالى بالقيادة لفساق ذريته. وعباد الأصنام لم يقروا بنبي من البشر ورضوا بآلهة من الحجر. والجهمية نزهوا الله عن عرشه لئلا يحويه مكان ثم قالوا: هو في الآبار والأنجاس وفي كل مكان. وهكذا طوائف الباطل لم يرضوا بنصوص الوحي فابتلوا بزبالة أذهان المتحيرين، وورثة الصابئين وأفراخ الفلاسفة الملحدين.

(١)**قال** الله تعالى: ﴿**وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِّلشَّارِبِينَ**﴾ [النحل: ٦٦]. وقال في الجنة: ﴿**فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ، وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ**﴾ [محمد: ١٥].

وفي السنن مرفوعاً: **«من أطعمه الله طعاماً فليقل: اللهم بارك لنا فيه، وارزقنا خيراً منه. ومن سقاه الله لبناً فليقل: اللهم بارك لنا فيه، وزدنا منه. فإني لا أعلم ما يجزى من الطعام والشراب إلا اللبن»**

اللبن - وإن كان بسيطاً في الحس - إلا أنه مركب في أصل الخلقة تركيباً طبيعيًّا من جواهر ثلاثة: الجبنية، والسمنية، والمائية. فالجبنية: باردة رطبة مغذية للبدن. والسمنية: معتدلة الحرارة والرطوبة، ملائمة للبدن الإنساني الصحيح.

(١) ٤٠٠ زاد المعاد جـ ٣.

كثيرة المنافع. والمائية: حارة رطبة، مطلقة للطبيعة، مرطبة للبدن. واللبن على الإطلاق: أبرد وأرطب من المعتدل، وقيل: قوته عند حَلْبه الحرارة والرطوبة. وقيل: معتدل في الحرارة والبرودة. وأجود ما يكون اللبن: حين يحلب. ثم لا يزال تنقص جودته على ممر الساعات. فيكون حين يحلب أقل برودة، وأكثر رطوبة. والحامض بالعكس. ويختار اللبن بعد الولادة بأربعين يوماً. وأجوده: ما اشتد بياضه، وطاب ريحه، ولذ طعمه، وكان فيه حلاوة يسيرة، ودسومة معتدلة، واعتدل قوامه في الرقة والغلظ، وحلب من حيوان فتى صحيح. معتدل اللحم، محمود المرعى والمشرب. وهو محمود يولد دماً جيداً. ويرطب البدن اليابس. ويغذو غذاء حسناً. وينفع من الوسواس والغم، والأمراض السوداية. . .

فصل(١)

ثم تأمل العبرة التي ذكرها الله عز وجل في الأنعام وما سقانا من بطونها من اللبن الخالص. السائغ الهنيء المريء الخارج من بين الفرث والدم.

فتأمل كيف ينزل الغذاء من أفواهها إلى المعدة فينقلب بعضه دماً بإذن الله، وما يسري في عروقها وأغصانها وشعورها ولحومها، فإذا أرسلته العروق في مجاريها إلى جملة الأجزاء قلبه كل عضو أو عصب وغضروف وشعر وظفر وحافر إلى طبيعته، ثم يبقى الدم في تلك الخزائن التي له إذ به قوام الحيوان، ثم ينصب ثفله إلى الكرش فيصير زبلاً ثم ينقلب باقيه لبناً صافياً أبيض سائغاً للشاربين، فيخرج من بين الفرث والدم حتى إذا أنهكت الشاة أو غيرها حلباً خرج الدم مشوباً بحمرة، فصفى الله سبحانه الألطف من الثفل بالطبخ الأول، فانفصل إلى الكبد وصار دماً وكان مخلوطاً بالأخلاط الأربعة فأذهب الله عز وجل كل خلط منها إلى مقره وخزانته المهيأة له: من المرارة والطحال والكلية وباقي الدم الخالص يدخل في أوردة الكبد: فينصب من تلك العروق إلى الضرع فيقلبه الله تبارك وتعالى من صورة الدم وطبعه وطعمه إلى صورة اللبن وطبعه وطعمه، فاستخرج من الفرث والدم. فسل المعطل الجاحد: من الذي دبر هذا التدبير وقدر هذا التقدير وأتقن هذا الصنع ولطف هذا اللطف سوى اللطيف الخبير؟!.

(١) ٢٥١ مفتاح جـ ١.

فصل[1]

ثم تأمل أحوال النحل وما فيها من العبر والآيات، فانظر إليها وإلى اجتهادها في صنعة العسل، وبنائها البيوت المسدسة التي هي من أتم الأشكال وأحسنها استدارة وأحكمها صنعاً، فإذا انضم بعضها إلى بعض لم يكن بينها فرجة ولا خلل، كل هذا بغير مقياس ولا آلة ولا بيكار، وتلك من أثر صنع الله وإلهامه إياها وإيحائه إليها، كما قال تعالى: ﴿وَأَوحى رَبُّكَ إِلَى النَّحلِ أَنِ اتَّخِذي مِنَ الجِبَالِ بُيُوتاً﴾ إلى قوله: ﴿لآيةً لقومٍ يَتفكَّرُونَ﴾ [النحل: ٦٨-٦٩].

فتأمل كمال طاعتها وحسن ائتمارها لأمر ربها.

اتخذت بيوتها في هذه الأمكنة الثلاثة في الجبال والشقفان وفي الشجر وفي بيوت الناس حيث يعرشون أي يبنون العروش، وهي البيوت فلا يرى للنحل بيت غير هذه الثلاثة ألبتة.

وتأمل كيف أكثر بيوتها في الجبال والشقفان وهو البيت المقدم في الآية، ثم في الأشجار وهي من أكثر بيوتها، وما يعرش الناس وأقل بيوتها بينهم حيث يعرشون وأما في الجبال والشجر فبيوت عظيمة يؤخذ منها من العسل الكثير جدًّا وتأمل كيف أداها حسن الامتثال إلى أن اتخذت البيوت. أولاً فإذا استقر لها بيت خرجت منه فرعت وأكلت من الثمار، ثم آوت إلى بيوتها لأن ربها سبحانه أمرها باتخاذ البيوت أولاً ثم بالأكل بعد ذلك، ثم إذا أكلت سلكت سبل ربها مذللة لا يستوعر عليها شيء ترعى ثم تعود.

ومن عجيب شأنها أن لها أميراً يسمى اليعسوب لا يتم لها رواح ولا إياب ولا عمل ولا مرعى إلا به، فهي مؤتمرة لأمره سامعة له مطيعة، وله عليها تكليف وأمر ونهي وهي رعية له منقادة لأمره متبعة لرأيه يدبرها كما يدبر الملك أمر رعيته، حتى إنها إذا أوت إلى بيوتها وقف على باب البيت فلا يدع واحدة تزاحم الأخرى ولا تتقدم عليها في العبور؛ بل تعبر بيوتها واحدة بعد واحدة بغير تزاحم ولا تصادم ولا تراكم، كما يفعل الأمير إذا انتهى بعسكره إلى معبر ضيق لا يجوزه إلا واحد واحد.

---

(١) ٢٤٨ مفتاح جـ ١.

ومن تدبر أحوالها وسياساتها وهدايتها واجتماع شملها وانتظام أمرها وتدبير ملكها وتفويض كل عمل إلى واحد منها يتعجب منها كل العجب، ويعلم أن هذا ليس في مقدورها ولا هو من ذاتها، فإن هذه أعمال محكمة متقنة في غاية الإحكام والإتقان، فإذا نظرت إلى العامل؛ رأيته من أضعف خلق الله وأجهله بنفسه وبحاله وأعجزه عن القيام بمصلحته فضلاً عما يصدر عنه من الأمور العجيبة.

ومن عجيب أمرها أن فيها أميرين لا يجتمعان في بيت واحد ولا يتأمران على جمع واحد، بل إذا اجتمع منها جندان وأميران قتلوا أحد الأميرين وقطعوه واتفقوا على الأمير الواحد من غير معاداة بينهم، ولا أذى من بعضهم لبعض، بل يصيرون يداً واحدة وجنداً واحداً.

فصل

ومن أعجب ما لا يهتدي له أكثر الناس ولا يعرفونه، وهو النتاج الذي يكون لها: هل هو على وجه الولادة والتوالد أو الاستحالة، فقل من يعرف ذلك أو يفطن له وليس نتاجها على واحد من هذين الوجهين.

وإنما نتاجها بأمر من أعجب العجيب؛ فإنها إذا ذهبت إلى المرعى أخذت تلك الأجزاء الصافية التي على الورق من الورد والزهر والحشيش وغيره وهي الطل فتمصها، وذلك مادة العسل ثم إنها تكبس الأجزاء المنعقدة على وجه الورقة وتعقدها على رجلها كالعدسة، فتملأ بها المسدسات الفارغة من العسل، ثم يقوم يعسو بها على بيته مبتدئاً منه فينفخ فيه، ثم يطوف على تلك البيوت بيتاً بيتاً وينفخ فيها كلها، فتدب فيها الحياة بإذن الله عز وجل فتتحرك وتخرج طيوراً بإذن الله، وتلك إحدى الآيات والعجائب التي قل من يتفطن بها، وهذا كله من ثمرة ذلك الوحي الإلهي، أفادها وأكسبها هذا التدبير والسفر والمعاش والبناء والنتاج.

فسل المعطل الضال من الذي أوحى إليها أمرها وجعل ماجعل في طباعها؟ ومن الذي سهل لها سبله ذللاً منقادة لا تستعصي عليها ولا تستوعرها، ولا تضل عنها على بعدها؟ ومن الذي هداها لشأنها، ومن الذي أنزل لها من الطل ما إذا جنته ردته عسلاً صافياً مختلفاً ألوانه في غاية الحلاوة واللذاذة والمنفعة من بين أبيض

يرى فيه الوجه أعظم من رؤيته في المرآة وسمه لي من جاء به وقال: هذا أفخر ما يعرف الناس من العسل وأصفاه وأطيبه، فإذا طعمه ألذ شيء يكون من الحلوى، ومن بين أحمر وأخضر ومورد وأسود وأشقر وغير ذلك من الألوان والطعوم المختلفة فيه بحسب مراعيه ومادتها؟.

وإذا تأملت ما فيه من المنافع والشفاء ودخوله في غالب الأدوية، حتى كان المتقدمون لا يعرفون السكر. ولا هو مذكور في كتبهم أصلاً وإنما كان الذي يستعملونه في الأدوية هو العسل! وهو المذكور في كتب القوم، ولعمر الله إنه لأنفع من السكر وأجدى وأجلى للأخلاط وأقمع لها وأذهب لضررها وأقوى للمعدة وأشد تفريحاً للنفس وتقوية للأرواح، وتنفيذاً للدواء وإعانة له على استخراج الداء من أعماق البدن؛ ولهذا لم يجيء في شيء من الحديث قط ذكر السكر، ولا كانوا يعرفونه أصلاً ولو عدم من العالم لما احتاج إليه، ولو عدم العسل لاشتدت الحاجة إليه وإنما غلب على بعض المدن استعمال السكر حتى هجروا العسل واستطابوه عليه ورأوه أقل حدة وحرارة منه، ولم يعلموا أن من منافع العسل ما فيه من الحدة والحرارة، فإذا لم يوافق من يستعمله؛ كسرها بمقابلها فيصير أنفع له من السكر، وسنفرد إن شاء الله مقالة نبين فيها فضل العسل على السكر من طرق عديدة لا تمنع وبراهين كثيرة لا تدفع، ومتى رأيت السكر يجلو بلغماً ويذيب خلطاً أو يشفي من داء، وإنما غايته بعض التنفيذ للدواء إلى العروق للطافته وحلاوته، وأما الشفاء الحاصل من العسل فقد حرمه الله كثيراً من الناس حتى صاروا يذمونه ويخشون غائلته من حرارته وحدته.

ولا ريب أن كونه شفاء وكون القرآن شفاء والصلاة شفاء؛ وذكر الله والإقبال عليه شفاء؛ أمر لا يعم الطبائع والأنفس، فهذا كتاب الله هو الشفاء النافع وهو أعظم الشفاء، وما أقل المستشفين به بل لا يزيد الطبائع الرديئة إلا رداءة، ولا يزيد الظالمين إلا خساراً، وكذلك ذكر الله والإقبال عليه والإنابة إليه والفزع إلى الصلاة كم قد شفي به من عليل! وكم قد عوفي به من مريض! وكم قام مقام كثير من الأدوية التي لا تبلغ قريباً من مبلغه في الشفاء!.

وأنت ترى كثيراً من الناس بل أكثرهم لا نصيب لهم من الشفاء بذلك أصلاً.

ولقد رأيت في بعض كتب الأطبـاء المسلمين في ذكر الأدوية المفردة ذكر الصلاة، ذكرها في باب الصاد وذكر من منافعها في البدن التي توجب الشفاء وجوهاً عديدة، ومن منافعها في الروح والقلب.

وسمعت شيخنا أبا العباس ابن تيمية رحمه الله يقول وقد عرض له بعض الألم فقال له الطبيب: أضر ما عليك الكلام في العلم، والفكر فيه والتوجه والذكر فقال: ألستم تزعمون أن النفس إذا قويت وفرحت أوجب فرحها لها قوة تعين بها الطبيعة على دفع العارض فإنه عدوها، فإذا قويت عليه قهرته؟ فقال له الطبيب: بلى فقال: له: أنا إذا اشتغلت نفسي بالتوجه والذكر والكلام في العلم وظهرت بها يشكل عليها منه فرحت به وقويت؛ فأوجب ذلك دفع العارض. هذا أو نحوه من الكلام.

والمقصود أن ترك كثير من الناس الاستشفاء بالعسل لا يخرجه عن كونه شفاء، كما أن ترك أكثرهم الاستشفاء بالقرآن من أمراض القلوب لا يخرجه عن كونه شفاء لها وهو شفاء لما في الصدور، وإن لم يستشف به أكثر المرضى كما قال تعالى: **﴿يَا أَيُّها النَّاسُ قَدْ جَاءَتكُم مَّوعِظَةٌ مِّن رَّبِّكم وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدى وَرَحمَةٌ لِلمُؤمِنِينَ﴾** [يونس: ٥٧].

فعم بالموعظة والشفاء وخص بالهدى والمعرفة، فهو نفسه شفاء استشفي به أو لم يستشف به.

ولم يصف الله في كتابه بالشفاء إلا القرآن والعسل فهما الشفاء ان: هذا شفـاء القلوب من أمـراض غيها وضلالها وأدواء شبهاتها وشهواتها، وهذا شفاء للأبدان من كثير من أسقامها وأخلاطها وآفاتها.

ولقد أصابني أيام مقامي بمكة أسقام مختلفة ولا طبيب هناك ولا أدوية كما في غيرها من المدن، فكنت أستشفي بالعسل وماء زمزم ورأيت فيهما من الشفاء أمراً عجيباً.

وتأمل إخباره سبحانه وتعالى عن القرآن بأنه نفسه شفاء وقال عن العسل: **﴿فِيهِ شِفاءٌ لِلنَّاسِ﴾** [النحل: ٦٩]. وما كان نفسه شفاء أبلغ مما جعل فيه شفاء وليس هذا موضع استقصاء فوائد العسل ومنافعه.

فصل(١)

وقد اختلف الناس في قوله تعالى: ﴿يَخرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُختلفٌ أَلوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ﴾ [النحل: ٦٩]. هل الضمير في «فيه» راجع إلى الشراب أو راجع إلى القرآن؟ على قولين، والصحيح: رجوعه إلى الشراب. وهو قول ابن مسعود وابن عباس والحسن وقتادة والأكثرين. فإنه هو المذكور، والكلام سِيقَ لأجله ولا ذكر للقرآن في الآية. وهذا الحديث الصحيح وهو قوله «صدق الله» كالصريح فيه. والله تعالى أعلم.

(٢)**وقوله** تعالى: ﴿كُلي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ [النحل: ٦٩]. ولم يقل: من الثمرات كلها ففيها الحكمة في الآية قبلها ومزيد فائدة وهو أنه تقدمها في النظم قوله تعالى: ﴿وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخيلِ وَالأَعنَابِ﴾ [النحل: ٦٧]. فلو قال بعدها: كلي من الثمرات كلها لذهب الوهم إلى أنه يريد الثمرات المذكورة قبل هذا، أعني ثمرات النخيل والأعناب؛ لأن اللام إنما تنصرف إلى المعهود فكان الابتداء بكل أحصن للمعنى وأجمع للجنس وأرفع للبس وأبدع في النظم فتأمله.

فصل(٣)

قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ الله مَثَلاً عَبْداً مَملُوكاً لَّا يَقْدِرُ عَلَى شَيءٍ وَمَن رَّزَقنَاهُ مِنَّا رِزقاً حَسَناً فَهُوَ يُنفِقُ مِنهُ سِرّاً وَجَهراً هَل يَستَوُونَ الحَمدُ لِلَّهِ، بَل أَكثَرُهُم لاَ يَعلَمُونَ وَضَرَبَ الله مَثَلاً رَّجُلَينِ أَحَدُهُمَا أَبكَمُ لاَ يَقدِرُ عَلَى شَيءٍ، وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَولاَهُ أَينَمَا يُوَجِههُّ لاَ يَأتِ بِخَيرٍ هَل يَستَوِي هُوَ وَمَن يَأمُرُ بِالعدلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُستَقِيمٍ﴾ [النحل: ٧٥، ٧٦].

هذان مثلان متضمنان قياسين من قياس العكس، وهو نَفْيُ الحكم لنفي علته وموجبه. ، فإن القياس نوعان:

قياس طرد يقتضي إثباتَ الحكمِ في الفرع لثبوت علة الأصل فيه.

وقياس عكس يقتضي نفيَ الحكم عن الفرع لنفي علة الحكم فيه؛ فالمثل الأول ما ضَرَبَه الله سبحانه لنفسه وللأوثان، فالله سبحانه هو المالك لكل شيء

---

(١) ١٥٨ زاد المعاد جـ ٣. (٢) ٢١٣ بدائع جـ ١. (٣) ١٦٠ أعلام جـ ١.

ينفق كيف يشاء على عبيده سرًّا وجهراً وليلاً ونهاراً يمينه مَلْأى لا يغيضها نفقة سحَّاء الليل والنهار، والأوثان مملوكة عاجزة لا تقدر على شيء، فكيف يجعلونها شركاء لي ويعبدونها من دوني مع هذا التفاوت العظيم والفرق المبين؟ هذا قول مجاهد وغيره.

وقال ابن عباس: هو مَثَلٌ ضربه الله للمؤمن والكافر، ومثل المؤمن في الخير الذي عنده ثم رزقه منه رزقاً حسناً فهو يُنفق منه على نفسه وعلى غيره سرًّا وجهراً، والكافر بمنزلة عبد مملوك عاجز لا يقدر على شيء لأنه لا خير عنده، فهل يستوي الرجلان عند أحد من العقلاء؟ والقولُ الأول أشْبَه بالمراد، فإنه أظْهَرُ في بطلان الشرك، وأوْضَحُ عند المخاطَب، وأعظم في إقامة الحجة، وأقرب نسباً بقوله: **﴿وَيَعبُدُونَ مِن دُونِ الله مَا لَا يَملِكُ لَهُم رِزقاً مِّنَ السَّماوَاتِ وَالأرضِ شَيئاً وَلَا يَستَطِيعُونَ، فَلَا تَضرِبُوا لِلَّهِ الأمثَالَ إِنَّ الله يَعلَمُ وَأَنتُم لَا تَعلَمُونَ﴾** [النحل: ٧٣-٧٤]. ثم قال: **﴿ضَرَبَ الله مَثَلاً عَبْداً مَّملُوكاً لَّا يَقْدِرُ عَلَى شيءٍ﴾** [النحل: ٧٥]. ومن لوازم هذا المثل وأحكامه أن يكون المؤمن الموحِّدُ كمن رزقه منه رزقاً حسناً، والكافر المشرك كالعبد المملوك الذي لا يقدر على شيء، فهذا مما نبه عليه المثل وأرشد إليه، فذكره ابن عباس منبهاً على إرادته لا أن الآية اخْتَصَّتْ به، فتأمله فإنك تجده كثيراً في كلام ابن عباس وغيره من السلف في فَهْم القرآن، فيظنُّ أن ذلك هو معنى الآية التي لا معنى لها غيره فيحكيه قوله.

وأما المثل الثاني فهو مثل ضربه الله سبحانه وتعالى لنفسه ولما يعبد من دونه أيضاً؛ فالصنم الذي يُعْبَدُ من دونه بمنزلة رجل أبكم لا يعقل ولا ينطق، بل هو أبكم القلب واللسان، قد عدم النطق القلبي واللساني، ومع هذا فهو عاجز لا يقدر على شيء ألبتة، ومع هذا فأينما أرسَلْته لا يأتيك بخير، ولا يقضي لك حاجة، والله سبحانه حي قادر متكلم، يأمر بالعدل، وهو على صراط مستقيم، وهذا وصف له بغاية الكمال والحمد، فإن أمره بالعدل ـ وهو الحق ـ يتضمن أنه سبحانه عالم به، معلم له، راضٍ به، آمر لعباده به، محب لأهله، لا يأمر بسِواه، بل تنزه عن ضده الذي هو الجور والظلم والسفه والباطل، بل أمره وشَرْعُه عَدْل كله، وأهل العدل هم أولياؤه، وهم المجاورون له عن يمينه على منابر من نور.

وأمره بالعدل يتناول الأَمْرَ الشرعي الديني والأَمْرَ القدري الكوني، وكلاهما عَدْل لا جَوْر فيه بوجه ما، كما في الحديث الصحيح: «**اللهم إني عَبْدُك ابنُ عبدك ابنُ أَمَتِكَ، ناصيتي بيدك، ماض فِيّ حكمك، عَدْل فِيَّ قضاؤك**».

فقضاؤه هو أمره الكَوْني، فإنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون، فلا يأمر إلا بحق وعَدْل، وقضاؤه القائم به حق وعدل، وإن كان في المقضيِّ المقدَّر ما هو جور وظلم فالقضاء غير المقضي، والقدر غير المقدر.

ثم أخبر سبحانه أنه على صراط مستقيم، وهذا نظير قول رسوله شعيب: ﴿**إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ**﴾ [هود: ٥٦].

فقوله: ﴿**مَّا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا**﴾ نظير قوله «**ناصيتي بيدك**».

وقوله: ﴿ **إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ** ﴾ نظير قوله: «**عدل فِيَّ قضاؤك**» فالأول ملكه، والثاني حَمْده، وهو سبحانه له الملك وله الحمد، وكونه سبحانه على صراط مستقيم يقتضي أنه لا يقول إلا الحق، ولا يأمر إلا بالعدل، ولا يفعل إلا ما هو مصلحة ورحمة وحكمة وعدل؛ فهو على الحق في أقواله وأفعاله، فلا يَقْضِي على العبد بما يكون ظالماً له به، ولا يأخذه بغير ذنبه، ولا ينقصه من حَسَنَاته شيئاً، ولا يحمل عليه من سيئات غيره التي لم يعملها ولم يتسبب إليها شيئاً، ولا يؤاخذ أحَداً بذنْب غيره، ولا يفعل قط ما لا يحمد عليه، ويثنى به عليه، ويكون له فيه العواقب الحميدة، والغايات المطلوبة، فإن كونه على صراط مستقيم يأبى ذلك كله.

قال محمد بن جرير الطبري: وقوله: ﴿**إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ**﴾ يقول: إن ربي على طريق الحق، يجازي المحسن من خلقه بإحسانه، والمسيء بإساءته، لا يظلم أحداً منهم شيئاً، ولا يقبل منهم إلا الإسلام له، والإيمان به، ثم حكى عن مجاهد من طريق شبل بن أبي نجيح عنه ﴿**إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ**﴾ قال: الحق، وكذلك رواه ابن جُرَيج عنه.

وقالت فرقة: هي مثل قوله: ﴿**إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ**﴾ [الفجر: ١٤]. وهذا اختلافُ عبارة، فإن كونه بالمِرْصَاد هو مُجَازاة المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته.

وقالت فرقة: في الكلام حذف، تقديره: إن ربي يحثكم على صراط

مستقيم ويحضكم عليه؛ وهؤلاء إن أرادوا أن هذا معنى الآية التي أريد بها فليس كما زعموا، ولا دليل على هذا المقدر، وقد فرق سبحانه بين كونه آمراً بالعدل وبين كونه على صراط مستقيم؛ وإن أرادوا أن حَثّه على الصراط المستقيم من جملة كونه على صراط مستقيم فقد أصابوا.

وقالت فرقة أخرى: معنى كونه على صراط مستقيم أن مَرَدَّ العباد والأمور كلها إلى الله لا يفوته شيء منها، وهؤلاء إن أرادوا أن هذا معنى الآية فليس كذلك، وإن أرادوا أن هذا من لوازم كونه على صراط مستقيم ومن مقتضاه ومُوجبه فهو حق

وقالت فرقة أخرى: معناه كل شيء تحت قدرته وقَهْره وفي مِلْكه وقَبْضته، وهذا وإن كان حقًّا فليس هو معنى الآية، وقد فرق بين قوله: ﴿مَا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذُ بنَاصيتها﴾ وبين قوله: ﴿إنَّ ربِّي على صرَاط مُستقيم﴾ فهما معنيان مستقلان

فالقولُ قول مجاهد، وهو قول أئمة التفسير، ولا تحتمل العربية غيرَهُ إلا على استكراه؛ وقال جرير يمدح عمر بن عبد العزيز:

أمير المؤمنين على صِرَاطٍ إذا اعْوَجَ الموارد مُسْتَقيم

وقد قال تعالى: ﴿مَن يَشَأِ الله يُضلِلْهُ، وَمَن يَشَأ يجعلَهُ عَلى صِرَاطٍ مُستَقِيم﴾ [الأنعام: ٣٩]. وإذا كان سبحانه هو الذي جعل رُسُله وأتباعَهم على الصراطِ المستقيم في أقوالهم وأفعالهم فهو سبحانه أحق بأن يكون على صراط مستقيم في قوله وفعله، وإن كان صراط الرسل وأتباعهم هو موافقةُ أمره؛ فصراطه الذي هو سبحانه عليه هو ما يقتضيه حَمْدُه وكماله ومَجْدُه وكماله ومَجْدُه من قول الحق وفعله، وبالله التوفيق.

فصل

وفي الآية قول ثان مثل الآية الأولى سواء، أنه مثلٌ ضَرَبه الله للمؤمن والكافر، وقد تقدم ما في هذا القول(١)، وبالله التوفيق.

(٢)**الوجه** الرابع والثمانون: أن الله سبحانه في القرآن يعدد على عباده من نعمه عليهم أن أعطاهم آلات العلم فيذكر الفؤاد والسمع والأبصار، ومرة يذكر اللسان الذي يترجم به عن القلب.

---

(١) طرق المؤلف هذا البحث على هذه الآية وعلى آية هود ووسع الكلام في ذلك في تفسير سورة الفاتحة وسورة هود (ج)

(٢) ١٠٦ مفتاح جـ١.

فقال تعالى في سورة النعم وهي سورة النحل، التي ذكر فيها أصول النعم وفروعها ومتمماتها ومكملاتها، فعدد نعمه فيها على عباده وتعرف بها إليهم واقتضاهم شكرها، وأخبر أنه يتمها عليهم ليعرفوها ويذكروها ويشكروها فأولها في أصول النعم وآخرها في مكملاتها. قال تعالى: ﴿**والله أَخرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَـاتِكُم لاَ تَعلَمُونَ شَيئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمعَ وَالأَبصَارَ وَالأَفئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشكُرُونَ**﴾ [النحل: ٧٨]. فذكر سبحانه نعمته عليهم بأن أخرجهم لا علم لهم ثم أعطاهم الأسماع والأبصار والأفئدة التي نالوا بها من العلم ما نالوه وانه فعل بهم ذلك ليشكروه. . .

فصل[1]

ثم تأمل حال من عدم البصر وما يناله من الخلل في أموره. ، فإنه لا يعرف موضع قدمه ولا يبصر ما بين يديه، ولا يفرق بين الألوان والمناظر الحسنة من القبيحة، ولا يتمكن من استفادة علم من كتاب يقرؤه، ولا يتهيأ له الاعتبار والنظر في عجائب ملك الله.

هذا مع أنه لا يشعر بكثير من مصالحه ومضاره، فلا يشعر بحفرة يهوي فيها ولا بحيوان يقصده كالسبع فيتحرز منه ، ولا بعدو يهوي نحوه ليقتله، ولا يتمكن من هرب إن طلب، بل هو ملق السلم لمن رامه بأذى، ولولا حفظ خاص من الله له قريب من حفظ الوليد وكلاءته لكان عطبه أقرب من سلامته، فإنه بمنزلة لحم على وضم، ولذلك جعل الله ثوابه إذا صبر واحتسب الجنة.

ومن كمال لطفه أن عكس نور بصره إلى بصيرته فهو أقوى الناس بصيرة وحدساً، وجمع عليه همه فقلبه مجموع عليه غير مشتت؛ ليهنأ له العيش وتتم مصلحته، ولا يظن أنه مغموم حزين متأسف. هذا حكم من ولد أعمى.

فأما من أصيب بعينيه بعد البصر فهو بمنزلة سائر أهل البلاء المنتقلين من العافية إلى البلية، فالمحنة عليه شديدة، لأنه قد حيل بينه وبين ما ألفه من المرائي والصور ووجوه الانتفاع ببصره، فهذا له حكم آخر.

---

(١) ٢٦٥ مفتاح جـ ١.

وكذلك من عدم السمع فإنه يفقد روح المخاطبة والمحاورة ويعدم لذة المذاكرة ونغمة الأصوات الشجية، وتعظم المؤنة على الناس في خطابه، ويتبرمون به، ولا يسمع شيئاً من أخبار الناس وأحاديثهم، فهو بينهم شاهد كغائب وحي كميت وقريب كبعيد. وقد اختلف النظار في أيهما أقرب إلى الكمال وأقل اختلالاً لأموره، الضرير أم الأطرش؟

وذكروا في ذلك وجوهاً، وهذا مبني على أصل آخر وهو أي الصفتين أكمل صفة السمع أو صفة البصر؟ وقد ذكرنا الخلاف فيهما فيما تقدم من هذا الكتاب. وذكرنا أقوال الناس وأدلتهم والتحقيق في ذلك فأي الصفتين كانت أكمل فالضرر بعدمها أقوى.

والذي يليق بهذا الموضع أن يقال: عادم البصر أشدهما ضرراً وأسلمهما ديناً وأحمدهما عاقبة، وعادم السمع أقلهما ضرراً في دنياه وأجهلهما بدينه وأسوأ عاقبة، فإنه إذا عدم السمع عدم المواعظ والنصائح، وانسدت عليه أبواب العلوم النافعة، وانفتحت له طرق الشهوات التي يدركها البصر ولا يناله من العلم ما يكفه عنها فضرره في دينه أكثر وضرر الأعمى في دنياه أكثر، ولهذا لم يكن في الصحابة أطرش، وكان فيهم جماعة أضراء، وقل أن يبتلي الله أولياءه بالطرش ويبتلي كثيراً منهم بالعمى. فهذا فصل الخطاب في هذه المسألة، فمضرة الطرش في الدين ومضرة العمى في الدنيا، والمعافى من عافاه الله منهما ومتعه بسمعه وبصره وجعلهما الوارثين منه.

[1]**اعلم** أن الله عز وجل جعل للقلوب نوعين من الغذاء: نوعاً من الطعام والشراب الحسي. وللقلب منه خلاصته وصفوه، ولكل عضو منه بحسب استعداده وقبوله.

والثاني: غذاء روحاني معنوي، خارج عن الطعام والشراب: من السرور والفرح، والابتهاج واللذة. والعلوم والمعارف. وبهذا الغذاء كان سماويًا علويًا. وبالغذاء المشترك كان أرضيا سفليا. وقوامه بهذين الغذاءين. وله ارتباط بكل واحدة من الحواس الخمس، وغذاء يصل إليه منها.

(١) ٤٠٨ مدارج جـ ٢.

فله ارتباط بحاسة اللمس. ويصل إليه منها غذاء. وكذلك حاسة الشم. وكذلك حاسة الذوق. وكذلك ارتباطه بحاستي السمع والبصر: أشد من ارتباطه بغيرهما. ووصول الغذاء منهما إليه أكمل، وأقوى من سائر الحواس. وانفعاله عنهما أشد من انفعاله عن غيرهما. ولهذا تجد في القرآن اقترانه بهما أكثر من اقترانه بغيرهما. بل لا يكاد يقرن إلا بهما، أو بأحدهما.

قال الله تعالى: ﴿والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون﴾ [النحل: ٧٨]. وقال تعالى: ﴿ولقد مكناهم فيما إن مكناكم فيه. وجعلنا لهم سمعاً وأبصاراً وأفئدة. فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم، ولا أفئدتهم من شيء. إذ كانوا يجحدون بآيات الله وحاق بهم ما كانوا به يستهزءون﴾ [الأحقاف: ٢٦]. وقال تعالى: ﴿ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها. ولهم أعين لا يبصرون بها. ولهم آذان لا يسمعون بها. أولئك كالأنعام، بل هم أضل. أولئك هم الغافلون﴾ [الأعراف: ١٧٩].

وقال تعالى في صفة الكفار: ﴿صم بكم عمي فهم لا يعقلون﴾ [البقرة: ١٧١]. وقال تعالى: ﴿أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور﴾ [الحج: ٤٦]. وهذا كثير جدًّا في القرآن.

لأن تأثره بما يراه ويسمعه: أعظم من تأثره بما يلمسه ويذوقه ويشمه. ولأن هذه الثلاثة: هي طرق العلم. وهي: السمع والبصر والعقل.

وتعلق القلب بالسمع وارتباطه به: أشد من تعلقه بالبصر وارتباطه به. ولهذا يتأثر بما يسمعه من الملذوذات أعظم مما يتأثر بما يراه من المستحسنات. وكذلك في المكروهات سماعاً ورؤية. ولهذا كان الصحيح من القولين: أن حاسة «السمع» أفضل من حاسة «البصر» لشدة تعلقها بالقلب، وعظم حاجته إليها. وتوقف كماله عليها. ووصول العلوم إليه بها، وتوقف الهدى على سلامتها.

ورجحت طائفة حاسة «البصر» لكمال مدركها. وامتناع الكذب فيه.

وزوال الريب والشك به. ولأنه عين اليقين. وغاية مدرك حاسة «السمع» علم اليقين. وعين اليقين أفضل، وأكمل من علم اليقين. ولأن متعلقها رؤية وجه الرب عز وجل في دار النعيم. ولا شيء أعلى وأجل من هذا التعلق.

وحكم شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - بين الطائفتين حكماً حسناً. فقال: المدرك بحاسة «السمع» أعم وأشمل. والمدرك بحاسة البصر: أتم وأكمل. فللسمع العموم والشمول، والإحاطة بالموجود والمعدوم، والحاضر والغائب، والحسي والمعنوي، وللبصر التمام والكمال.....

فصل(١)

وتستفاد الإباحة من لفظ الإحلال ورفع الجناح والإذن والعفو، وإن شئت فافعل، وإن شئت فلا تفعل.

ومن الامتنان بما في الأعيان من المنافع وما يتعلق بها من الأفعال نحو: ﴿**مِن أَصْوَافِها وَأَوبَارِهَا وَأَشعَارِهَا أَثَاثاً**﴾ [النحل: ٨٠]. ونحو ﴿**وَبِالنَّجم هُم يَهتَدُونَ**﴾ [النحل: ١٦]. ومن السكوت عن التحريم. ومن الإقرار على الفعل في زمن الوحي وهو نوعان: إقرار الرب تبارك وتعالى وإقرار رسوله إذا علم الفعل.

فمن إقرار الرب تعالى قول جابر: «كنا نعزل والقرآن ينزل».

ومن إقرار رسوله قول حسان لعمر: كنت أنشد وفيه من هو خير منك.

فصل(٢)

النوع العاشر إخباره عن الحكم والغايات التي جعلها في خلقه وأمره كقوله: ﴿**الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرضَ فِرَاشاً وَالسَّماءَ بِنَاء وَأَنزَلَ مِنَ السَّماءِ مَاءً فَأَخرَج بِهِ مِنَ الثَمَرات رِزقاً لَّكُم**﴾ [البقرة: ٢٢]. وقوله: ﴿**أَلَم نَجعَلِ الأَرضَ مِهاداً وَالجِبَالَ أَوتَاداً وَخَلَقنَاكُم أَزوَاجاً وَجَعَلنَا نَومَكُم سُبَاتاً وَجَعَلنَا اللَّيلَ لِبَاساً وَجَعَلنَا النَّهارَ مَعَاشاً**﴾ إلى قوله: ﴿**وَأَنزَلنَا مِنَ المُعصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجاً لِّنخرج بِهِ حَبَّاً وَنَبَاتاً وَجَنَّاتٍ أَلفَافاً**﴾ [النبأ: ٦-١٦]. وقوله: ﴿**أَلَم نَجعَلِ الأَرضَ كِفَاتاً أَحيَاءً وَأَموَاتاً وَجَعَلنَا فِيهَا رَوَاسِي شَامِخَاتٍ وَأَسقَينَاكُم مَّاءً فُرَاتاً**﴾ [المرسلات: ٢٥-٢٧]. وقوله: ﴿**وَاللهُ جَعَلَ لَكُم مِن**

---

(١) ٦ بدائع جـ٤　　(٢) ١٩٧ شفاء العليل.

بُيوتِكُم سَكَناً وَجَعَلَ لَكُم مِن جُلُودِ الأَنعَامِ بُيُوتاً تَستَخِفُّونَهَا يَومَ ظَعنِكُم وَيَومَ إِقَامَتِكُم وَمِن أَصوَافِهَا وَأَوبارِهَا وَأَشعَارِهَا أَثَاثاً وَمَتَاعاً إِلَى حِينٍ وَاللهُ جَعَلَ لَكُم مِمَّا خَلَقَ ظِلَالاً وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الجِبَالِ أَكنَاناً وَجَعَلَ لَكُم سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُم﴾ [النحل: ٨٠-٨١]. وقوله: ﴿فَليَنظُرِ الإِنسَانُ إِلَى طَعَامِهِ﴾ إلى قوله: ﴿مَتاعاً لَّكُمْ وَلأَنعَامِكُم﴾ [عبس: ٢٤-٣٢]. وقوله: ﴿وَمِن آيَاتِهِ أَن خَلَقَ لَكُم مِّن أَنفُسِكُم أَزوَاجاً لِتَسكُنُوا إِلَيهَا﴾ [الروم: ٢١]. وقوله: ﴿اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزقاً لَّكُم وَسَخَّرَ لَكُمُ الفُلكَ لِتَجرِيَ فِي البَحرِ بِأَمرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنهَارَ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمسَ وَالقَمَرَ دَائِبَينِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيلَ وَالنَّهَارَ﴾ [إبراهيم: ٣٢-٣٣]. وقوله: ﴿اللهُ الَّذِي سَخَّرَ البَحرَ لِتَجرِيَ الفُلْكُ فِيهِ بِأَمرِهِ وَلِتَبتَغُوا مِن فَضلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشكُرُونَ﴾ [الجاثية: ٢٢]. إلى أضعاف أضعاف ذلك في القرآن، مما يفيد من له أدنى تأمل، القطع بأنه سبحانه فعل ذلك للحكم والمصالح التي ذكرها وغيرها مما لم يذكره.

وقوله: ﴿وَأَوحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الجِبَالِ بُيُوتاً وَمِنَ الشَّجرِ وَمِمَّا يَعرِشُونَ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً يَخرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُختَلِفٌ أَلوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِقَومٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٦٨-٦٩]. وقوله: ﴿وَالأَنعَامَ خَلَقَهَا لَكُم فِيهَا دِفءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنهَا تَأكُلُونَ وَلَكُم فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسرَحُونَ وَتَحمِلُ أَثقَالَكُم إِلَى بَلَدٍ لَّم تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُم لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ وَالخَيلَ وَالبِغَالَ وَالحَمِيرَ لِتَركَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخلُقُ مَا لَا تَعلَمُونَ﴾ [النحل: ٥-٨]. فهل يستقيم ذلك ويصح فيمن لا يفعل لحكمة ولا لمصلحة ولا لغاية هي مقصودة بالفعل. ومعلوم بالضرورة أن هذا الإثبات وهذا النفي متقابلان أعظم التقابل.

فصل[1]

النوع الثامن عشر إخباره بإنعامه على خلقه وإحسانه إليهم وأنه خلق لهم ما في السموات وما في الأرض وأعطاهم الأسماع والأبصار والأفئدة ليتم نعمته عليهم. ومعلوم أن المنعم المحسن لا يكون كذلك ولا يستحق هذا الاسم حتى

(١) ٢٠٢ شفاء العليل.

يقصد الأنعام على غيره والإحسان إليه، فلو لم يفعل سبحانه لغرض الإنعام والإحسان؛ لم يكن منعماً في الحقيقة ولا محسناً إذ يستحيل أن يكون كذلك من لم يقصد الإنعام والإحسان وهذا غني عن التقرير.

ويوضحه أنه سبحانه حيث ذكر إنعامه وإحسانه فإنما يذكره مقروناً بالحكم والمصالح والمنافع التي خلق الخلق وشرع الشرائع لأجلها كقوله في آخر سورة النحل: **﴿والله جعل لكم مما خلق ظلالاً وجعل لكم من الجبال أكناناً وجعل لكم سرابيل تقيكم الحر وسرابيل تقيكم بأسكم كذلك يتم نعمته عليكم لعلكم تسلمون﴾** [النحل: ٨١]. فهذا في الخلق.

وقال في الشرع في أمره باستقبال الكعبة: **﴿وَمِن حَيثُ خَرَجتَ فَوَلِّ وَجهَكَ شَطرَ المَسجِدِ الحَرَامِ وَحَيثُ مَا كُنتُم فَوَلُّوا وُجُوهَكُم شَطرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيكُم حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنهُم فَلَا تَخشَوهُم وَاخشَونِي وَلِأُتِمَّ نِعمَتِي عَلَيكُم وَلَعَلَّكُم تَهتَدُونَ﴾** [البقرة: ١٥٠].

وقال في أمره بالوضوء والتيمم: **﴿ما يريدُ اللّهُ ليجعلَ عليكم من حَرَجٍ ولكنْ يُريدُ ليطهركم وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون﴾** [المائدة: ٦]. فجعل تمام نعمته في أن خلق ما خلق للإحسان وأمر بما أمر لذلك.

[1]**وهو** سبحانه يذكر عباده بنعمه عليهم ويدعوهم بها إلى معرفته ومحبته وتصديق رسله والإيمان بلقائه، كما تضمنته سورة النعم وهي سورة النحل، من قوله: **﴿خلق الإنسان من نطفة﴾** إلى قوله: **﴿وَاللهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَالاً وَجَعَلَ لَكُم مِنَ الجِبَالِ أَكنَاناً وَجَعَلَ لَكُم سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُم كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعمَتَهُ عَلَيكُم لَعَلَّكُم تُسلِمُونَ﴾** [النحل: ٨١].

فذكرهم بأصول النعم وفروعها وعددها عليهم نعمة نعمة، وأخبر أنه أنعم بذلك عليهم ليسلموا له فتكمل نعمه عليهم بالإسلام الذي هو رأس النعم.

ثم أخبر عمن كفره ولم يشكر نعمه بقوله: **﴿يعرِفُونَ نِعمَةَ الله ثُمَّ يُنكِرُونَها﴾** [النحل: ٨٣].

وقال مجاهد: المساكن والأنعام وسرابيل الثياب والحديد يعرفه كفار قريش

---

(١) ٣٦ شفاء العليل.

ثم ينكرونه بأن يقولوا: هذا كان لآبائنا ورثناه عنهم.

وقال عون بن عبد الله يقولون: لولا فلان لكان كذا وكذا.

وقال الفراء وابن قتيبة: يعرفون أن النعم من الله ولكن يقولون هذه بشفاعة آلهتنا. **وقالت** طائفة: النعمة ههنا محمد (ﷺ) وإنكارها جحدهم نبوته. وهذا يروى عن مجاهد والسدّي وهذا أقرب إلى حقيقة الإنكار فإنه إنكار لما هو أجل النعم أن تكون نعمة.

وأما على القول الأول والثاني والثالث فإنهم لما أضافوا النعمة إلى غير الله فقد أنكروا نعمة الله بنسبتها إلى غيره...

[1]**الطبقة** السادسة عشرة رؤساء الكفر وأئمته، ودعاته الذين كفروا وصدوا عباد الله عن الإيمان وعن الدخول في دينه رغبة ورهبة، فهؤلاء عذابهم مضاعف، ولهم عذابان: عذاب بالكفر، وعذاب بصد الناس عن الدخول في الإيمان. قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ زِدْنَاهُمْ عَذاباً فَوْقَ الْعَذَابِ﴾ [النحل:٨٨]. فأحد العذابين بكفرهم، والعذاب الآخر بصدهم عن سبيل الله.

وقد استقرت حكمة الله وعدله أن يجعل على الداعي إلى الضلال مثل آثام من اتبعه واستجاب له.

ولا ريب أن عذاب هذا يتضاعف ويتزايد بحسب من اتبعه وضل به. وهذا النوع في الأشقياء مقابل دعاة الهدى في السعداء، فأولئك يتضاعف ثوابهم وتعلو درجاتهم بحسب من اتبعهم واهتدى بهم، وهؤلاء عكسهم، ولهذا كان فرعون وقومه في أشد العذاب، قال تعالى في حقهم: ﴿النَّارُ يُعرضُونَ عَلَيْها غُدُوًّا وَعَشِيّاً وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلوا آلَ فِرْعَونَ أَشَدَّ الْعَذابِ﴾ [غافر:٤٦].

وهذا تنبيه على أن فرعون نفسه في الأشد من ذلك، لأنهم إنما دخلوا أشد العذاب تبعاً له، فإنه هو الذي استخفهم فأطاعوه، وغرهم فاتبعوه. ولهذا يكون يوم القيامة أمامهم وفرطهم في هذا الورد، قال تعالى: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارِ﴾ [هود:٩٨].

---

(١) ٤٠٩ طريق الهجرتين.

والمقصود: أنهم استحقوا أشد العذاب لغلظ كفرهم، وصدهم عن سبيل الله، وعقوبتهم من آمن بالله. فليس عذاب الرؤساء في النار كعذاب أتباعهم.

ولهذا كان في كتاب النبي (ﷺ) لهرقل: «**فإن توليت فإن عليك إثم** الأريسيين». والصحيح في اللفظ أنهم الأتباع. ولهذا كان عدو الله إبليس أشد أهل النار عذابًا. وهو أول من يكسى حلة من النار؛ لأنه إمام كل كفر وشرك وشر. فما عصي الله إلا على يديه وبسببه. ثم الأمثل فالأمثل من نوابه في الأرض ودعاته.

ولا ريب أن الكفر يتفاوت، فكفر أغلظ من كفر. كما أن الإيمان يتفاوت، فإيمان أفضل من إيمان. فكما أن المؤمنين ليسوا في درجة واحدة بل هم درجات عند الله، فكذلك الكفار ليسوا في طبقة واحدة ودرك واحد بل النار دركات كما أن الجنة درجات. ولا يظلم الله من خلقه أحداً. وهو الغني الحميد.

فصل

وغلظ الكفر الموجب لغلظ العذاب يكون من ثلاثة أوجه:

أحدها: من حيث العقيدة الكافرة في نفسها، كمن جحد رب العالمين بالكلية وعطل العالم عن الرب الخالق المدبر له، فلم يؤمن بالله وملائكته ولا كتبه ولا رسله ولا اليوم الآخر. ولهذا لا يقَرُّ أرباب هذا الكفر بالجزية عند كثير من العلماء، ولا تؤكل ذبائحهم. ولا تنكح نساؤهم اتفاقاً لتغلظ كفرهم.

وهؤلاء هم المعطلة والدهرية وكثير من الفلاسفة وأهل الوحدة القائلين؛ بأنه لا وجود للرب سبحانه وتعالى غير وجود هذا العالم.

الجهة الثانية: تغلظه بالعناد والضلال عمداً على بصيرة. ككفر من شهد قلبه أن الرسول حق لما رآه من آيات صدقه، وكفر عناداً وبغياً. كقوم ثمود، وقوم فرعون، واليهود الذين عرفوا الرسول كما عرفوا أبناءهم، وكفر أبي جهل، وأمية بن أبي الصلت وأمثال هؤلاء.

الجهة الثالثة: السعي في إطفاء نور الله وصد عباده عن دينه بما تصل إليه قدرتهم، فهؤلاء أشد الكفار عذاباً بحسب تغلظ كفرهم.

ومنهم من يجتمع في حقه الجهات الثلاث.

ومنهم من يكون فيه جهتان منها أو واحدة. فليس عذاب هؤلاء كعذاب من هو دونهم في الكفر ممن هو ملبوس عليه لجهله، والمؤمنون من أذاه في سلامة لا ينالهم منه أذى، ولم يتغلظ كفره كتغلظ هؤلاء، بل هو مقر بالله ووحدانيته وملائكته وجنس الكتب والرسل واليوم الآخر. وإن شارك أولئك في كفرهم بالرسول فقد زادوا عليه أنواعاً من الكفر. وهل يستوي في النار عذاب أبي طالب وأبي لهب وأبي جهل وعقبة بن أبي معيط وأبي بن خلف وأضرابهم؟

والمقصود أن هذه الطبقة، وهي طبقة الرؤساء الدعاة الصادين عن دين الله ليست كطبقة من دونهم. وقد ثبت عن النبي (ﷺ) أنه قال: «**أهون أهل النار عذاباً أبو طالب**» ومعلوم أن كفر أبي طالب لم يكن مثل كفر أبي جهل وأمثاله.

(١)**قوله** تعالى: ﴿**إِنَّ الله يَأْمُر بِالعَدلِ وَالإِحسَانِ، وَإِيتَاءِ ذِي القُربَى. وَيَنهَىٰ عَنِ الفَحشَاءِ وَالمُنكَرِ وَالبَغيِ**﴾ [النحل: ٩٠].

وهؤلاء يزعمون: أن الظلم في حق عباده هو المحرم والمنهي عنه، لا أن هناك في نفس الأمر ظلماً نهى عنه. وكذلك الظلم الذي نزه نفسه عنه هو الممتنع المستحيل. لا أن هناك أمراً ممكناً مقدوراً لو فعله لكان ظلماً. فليس في نفس الأمر عندهم ظلم منهي عنه ولا منزه عنه. إنما هو المحرم في حقه. والمستحيل في حقه، فالظلم المنزه عنه عندهم: هو الجمع بين النقيضين، وجعل الجسم الواحد في مكانين في آن واحد، ونحو ذلك.

والقرآن صريح في إبطال هذا المذهب أيضاً. قال الله تعالى: ﴿**قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطغَيتُهُ. وَلَكِن كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ * قَالَ لَا تَختَصِمُوا لَدَيَّ وَقَد قَدَّمتُ إِلَيكُم بِالْوَعِيدِ * مَا يُبَدَّلُ القَولُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلعَبِيدِ**﴾ [ق: ٢٧-٢٩]. أي لا أؤاخذ عبداً بغير ذنب، ولا أمنعه من أجر ما عمله من صالح. ولهذا قال قبله ﴿**وَقَد قَدَّمتُ إِلَيكُم بِالْوَعِيدِ**﴾ المتضمن لإقامة الحجة، وبلوغ الأمر والنهي. وإذا آخذتكم بعد التقدم فلست بظالم، بخلاف من يؤاخذ العبد قبل التقدم إليه بأمره ونهيه. فذلك الظلم الذي تنزه الله سبحانه وتعالى عنه.

وقال تعالى: ﴿**وَمَن يعمل مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤمِنٌ فَلا يَخَافُ ظُلماً وَلا**

(١) ٢٣٦ مدارج جـ ١.

هَضْماً﴾ [طه: ١١٢]. يعني لا يُحمل عليه من سيئات ما لم يعمله، ولا ينقص من حسنات ما عمل. ولو كان الظلم هو المستحيل الذي لا يمكن وجوده: لم يكن لعدم الخوف منه معنى، ولا للأمن من وقوعه فائدة.

وقال تعالى: **﴿مَن عَمِلَ صَالِحاً فَلِنفسِهِ. وَمَن أَسَاءَ فَعَلَيها. وَمَا رَبُّكَ بِظَلامٍ لِّلعبيدِ﴾** [فصلت:٤٦]. أي لا يحمل المسيء عقاب ما لم يعمله. ولا يمنع المحسن من ثواب عمله.

وقال تعالى: **﴿وَمَا كَانَ رَبُّك لِيُهلك القُرَىٰ بِظُلمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾** [هود:١١٧]. فدل على أنه لو أهلكهم مع إصلاحهم لكان ظالماً. وعندهم يجوز ذلك. وليس بظلم لو فعل. ويؤولون الآية على أنه سبحانه أخبر أنه لا يهلكهم مع إصلاحهم، وعلم أنه لا يفعل ذلك. وخلاف خبره ومعلومه مستحيل. وذلك حقيقة الظلم. ومعلوم أن الآية لم يقصد بها هذا قطعاً. ولا أريد بها. ولا تحتمله بوجه، إذ يؤول معناها إلى أنه ما كان ليهلك القرى بظلم بسبب اجتماع النقيضين وهم مصلحون. وكلامه تعالى يتنزه عن هذا ويتعالى عنه.

وكذلك عند هؤلاء أيضاً: العبث والسُّدَى والباطل، كلها هي المستحيلات الممتنعة التي لا تدخل تحت المقدور. والله سبحانه قد نَزَّه نفسه عنها. إذ نسبه إليها أعداؤه المكذبون بوعده ووعيده. المنكرون لأمره ونهيه. فأخبر أن ذلك يستلزم كون الخلق عبثاً وباطلاً. وحكمته وعزته تأبى ذلك. قال تعالى: **﴿أَفَحَسِبتُم أَنَّما خَلَقنَاكُم عَبَثاً وَأَنَّكُم إِلينَا لاَ تُرجَعُونَ؟﴾** [المؤمنون: ١١٥]. أي: لغير شيء، لا تؤمرون ولا تنهون. ولا تثابون ولا تعاقبون. والعبث قبيح. فدل على أن قبح هذا مستقر في الفطر والعقول. ولذلك أنكره عليهم إنكار مُنَبِّه لهم على الرجوع إلى عقولهم وفطرهم. وأنهم لو فكروا وأبصروا لعلموا أنه لا يليق به، ولا يحسن منه أن يخلق خلقه عبثاً، لا لأمر ولا لنهي، ولا لثواب ولا لعقاب. وهذا يدل على أن حسن الأمر والنهي والجزاء مستقر في العقول والفطر. وأن من جَوَّز على الله الإخلال به فقد نسبه إلى ما لا يليق به، وإلى ما تأباه أسماؤه الحسنى وصفاته العليا.

وكذلك قوله تعالى: **﴿أَيَحسَبُ الإنسَانُ أَن يُترك سُدىً؟﴾** [القيامة: ٣٦]. قال الشافعي: مهملاً لا يؤمر ولا ينهى. وقال غيره: لا يثاب ولا يعاقب. وهما

متلازمان. فأنكر على من يحسب ذلك، فدل على أنه قبيح تأباه حكمته وعزته، وأنه لا يليق به. ولهذا استدل على أنه لا يتركه سدىً بقوله: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾ إلى آخر السورة [القيامة: ٣٧-٤٠].

فصل [1]

وأما «الفحشاء والمنكر» فالفحشاء صفة لموصوف قد حذف تجريداً لقصد الصفة. وهي الفعلة الفحشاء، والخصلة الفحشاء. وهي ما ظهر قبحها لكل أحد. واستفحشه كل ذي عقل سليم. ولهذا فسرت بالزنا واللواط، وسماها الله «فاحشة» لتناهي قبحها. وكذلك القبيح من القول يسمى فحشاً. وهو ما ظهر قبحه جدًّا من السَّبِّ القبيح، والقذف ونحوه.

وأما «المنكر» فصفة لموصوف محذوف أيضاً. أي الفعل المنكر. وهو الذي تستنكره العقول والفطر. ونسبته إليها كنسبة الرائحة القبيحة إلى حاسة الشم. والمنظر القبيح إلى العين. والطعم المستكره إلى الذوق. والصوت المستنكر إلى الأذن. فما اشتد إنكار العقول والفطر له فهو فاحشة. كما فَحُش إنكار الحواس له من هذه المدركات.

فالمنكر لها: ما لم تعرفه ولم تألفه. والقبيح المستكره لها: الذي تشتد نفرتها عنه هو الفاحشة. ولذلك قال ابن عباس: «الفاحشة الزنا، والمنكر ما لم يعرف في شريعة ولا سنة».

فتأمل تفريقه بين ما لم يعرف حُسْنه ولم يؤلف، وبين ما استقر قبحه في الفطر والعقول. . . . . . .

[2]**قال** تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ [النحل:٩٧]. وطيب الحياة جنة الدنيا، قال تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ اللهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً﴾ [الأنعام: ١٢٥].

فأي نعيم أطيب من شرح الصدر؟!، وأي عذاب أشد من ضيق الصدر؟!.

---

(١) ٣٧١ مدارج جـ ١.
(٢) ٢٦٧ الجواب الكافي.

وقال تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [يونس: ٦٢-٦٤].

فالمؤمن المخلص لله من أطيب الناس عيشاً وأنعمهم بالاً وأشرحهم صدراً وأسرهم قلباً، وهذه جنة عاجلة قبل الجنة الآجلة. قال النبي (ﷺ): «**إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا**» قالوا: وما رياض الجنة؟ قال: «**حلق الذكر**».

ومن هذا قوله (ﷺ): «**ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة**».

ومن هذا قوله، وقد سألوه عن وصاله في الصوم وقال: «**إني لست كهيئتكم إني أظل عند ربي يطعمني ويسقيني**».

فأخبر (ﷺ) أن ما يحصل له من الغذاء عند ربه يقوم مقام الطعام والشراب الحسي، وأن ما يحصل له من ذلك أمر مختص به لا يشركه فيه غيره، فإذا أمسك عن الطعام والشراب فله عوض عنه يقوم مقامه وينوب منابه ويغني عنه. . . .

(1)**وكلما** كان وجود الشيء أنفع للعبد وهو إليه أحوج كان تألمه بفقده أشد.

وكلما كان عدمه أنفع كان تألمه بوجوده أشد، ولا شيء على الإطلاق أنفع للعبد من إقباله على الله، واشتغاله بذكره، وتنعمه بحبه، وإيثاره لمرضاته. بل لا حياة له ولا نعيم ولا سرور ولا بهجة إلا بذلك. فعدمه آلم شيء له وأشد عذاباً عليه.

وإنما تغيب الروح عن شهود هذا الألم والعذاب؛ لاشتغالها بغيره واستغراقها في ذلك الغير فتغيب به عن شهود ما هي فيه من ألم العقوبة بفراق أحب شيء إليها وأنفعه لها، وهذا بمنزلة السكران المستغرق في سكره الذي احترقت داره وأمواله وأهله وأولاده، وهو لاستغراقه في السكر لا يشعر بألم ذلك الفوات وحسرته، حتى إذا صحا وكشف عنه غطاء السكر وانتبه من رقدة الخمر فهو أعلم بحاله حينئذ، وهكذا الحال سواء عند كشف الغطاء ومعاينة طلائع الآخرة والإشراف على مفارقة الدنيا والانتقال منها إلى الله، بل الألم والحسرة والعذاب هناك أشد بأضعاف أضعاف ذلك، لأن المصاب في الدنيا يرجو جبر مصيبته في الدنيا بالعوض، ويعلم أنه قد أصيب بشيء زائل لا بقاء له، فكيف بمن مصيبته

---

(1) ٢٦٨ الجواب الكافي.

بما لا عوض عنه ولا بدل منه ولا نسبة بينه وبين الدنيا جميعاً، فلو قضى الله سبحانه بالموت من هذه الحسرة والألم لكان العبد جديراً به وإن الموت ليعد أكبر أمنيته وأكبر حسراته، هذا لو كان الألم على مجرد الفوات، كيف وهناك من العذاب على الروح والبدن أمور أخرى وجودية مما لا يقدر قدره؟ فتبارك من حمل هذا الخلق الضعيف هذين الألمين العظيمين اللذين لا تحملهما الجبال الرواسي.

فاعرض على نفسك الآن أعظم محبوب لك في الدنيا، بحيث لا تطيب لك الحياة إلا معه فأصبحت وقد أخذ منك وحيل بينك وبينه أحوج ما كنت إليه، كيف يكون حالك، هذا ومنه كل عوض؟ فكيف بمن لا عوض عنه؟ كما قيل:

من كل شيء إذا ضيعته عوض   وما من الله إن ضيعته عوض

وفي الأثر الإلهي: «**ابن آدم خلقتك لعبادتي فلا تلعب وتكفلت برزقك فلا تتعب. ابن آدم اطلبني تجدني فإن وجدتني وجدت كل شيء وإن فتك فاتك كل شيء، وأنا أحب إليك من كل شيء**».

[1]**وقد** جعل الله الحياة الطيبة لأهل معرفته ومحبته وعبادته. فقال تعالى: **﴿مَن عَمِلَ صَالِحاً مِّن ذَكَرٍ أَو أُنثَى وَهُوَ مُؤمِنٌ فَلَنُحيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجزِيَنَّهُم أَجرَهُم بِأَحسَنِ مَا كَانُوا يَعمَلُونَ﴾** [النحل:٩٧].

وقد فسرت «الحياة الطيبة» بالقناعة والرضى، والرزق الحسن وغير ذلك.

والصواب: أنها حياة القلب ونعيمه، وبهجته وسروره بالإيمان ومعرفة الله، ومحبته، والإنابة إليه، والتوكل عليه. فإنه لا حياة أطيب من حياة صاحبها. ولا نعيم فوق نعيمه، إلا نعيم الجنة.

كما كان بعض العارفين يقول: إنه لَتَمُرُّ بي أوقات أقول فيها، إن كان أهل الجنة في مثل هذا إنهم لفي عيش طيب.

وقال غيره: إنه ليمر بالقلب أوقات يرقُص فيها طَربا.

وإذا كانت حياة القلب حياة طيبة تبعته حياة الجوارح. فإنه ملكها. ولهذا جعل الله المعيشة الضَّنْك لمن أعرض عن ذكره. وهي عكس الحياة الطيبة.

وهذه الحياة الطيبة تكون في الدور الثلاث. أعني: دار الدنيا، ودار

---

(١) ٢٥٩ مدارج جـ ٣.

البَرْزخ. ودار القرار. والمعيشة الضنك أيضاً تكون في الدور الثلاث. فالأبرار في النعيم هنا وهنالك. والفجار في الجحيم هنا وهنالك. قال الله تعالى: ﴿**لِلذِينَ أَحسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيرٌ**﴾ [النحل: ٣٠].

وقال تعالى: ﴿**وَأَنِ استَغفِرُوا رَبَّكُم ثُمَّ تُوبُوا إِلَيهِ يُمَتِّعكُم مَتَاعاً حَسَناً إِلَى أَجَلٍ مُّسَمّى وَيُؤتِ كُلَّ ذِي فَضلٍ فَضلَهُ**﴾ [هود: ٣].

فذكرُ الله سبحانه وتعالى، ومحبته وطاعته، والإقبالُ عليه: ضامن لأطيب الحياة في الدنيا والآخرة. والإعراض عنه والغفلة ومعصيته: كفيل بالحياة المنغصة، والمعيشة الضنك في الدنيا والآخرة اهـ.

(1)**وقد** ضمن الله سبحانه لكل من عمل صالحًا أن يحييه حياة طيبة. فهو صادق الوعد الذي لا يخلف وعده. وأي حياة أطيب من حياة من اجتمعت همومه كلها وصارت واحدة في مرضات الله ولم يتشعب قلبه بل أقبل على الله، واجتمعت إرادته وأفكاره التي كانت منقسمة، بكل واد منها شعبة، على الله؟!. فصار ذكره محبوبه الأعلى وحبه والشوق إلى لقائه والأنس بقربه هو المتولي عليه، وعليه تدور همومه وإرادته وتصوره، بل وخطرات قلبه. فإن سكت سكت بالله، وإن نطق نطق بالله، وإن سمع فبه يسمع وإن أبصر فبه يبصر، وبه يبطش وبه يمشي وبه يتحرك وبه يسكن وبه يحيى وبه يموت وبه يبعث، كما في صحيح البخاري عنه(ﷺ) فيما يروي عن ربه تبارك وتعالى أنه قال: «**ما تقرب إلي عبدي بمثل أداء ما افترضت عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته؛ كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها. فبي يسمع وبي يبصر وبي يبطش وبي يمشي، ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذ بي لأعيذنه، وما ترددت في شيء أنا فاعله ترددي عن قبضي روح عبدي المؤمن، يكره الموت وأكره مساءته. ولابد له منه**» فتضمن هذا الحديث الشريف الإلهي، الذي حرام على غليظ الطبع كثيف القلب فهم معناه، والمراد به حصر أسباب محبته في أمرين: أداء فرائضه، والتقرب إليه بالنوافل، وأخبر سبحانه أن أداء فرائضه أحب ما تقرب إليه المتقربون ثم بعدها النوافل،

(١) ٢٤٨ الجواب الكافي.

وأن المحب لا يزال يكثر من النوافل حتى يصير محبوباً لله فإذا صار محبوباً لله، أوجبت محبة الله له محبة منه أخرى فوق المحبة الأولى، فشغلت هذه المحبة قلبه عن الفكرة والاهتمام بغير محبوبه وملكت عليه روحه ولم يبق فيه سعة لغير محبوبه ألبتة، فصار ذكر محبوبه وحبه مثله الأعلى مالكاً لزمام قلبه مستولياً على روحه استيلاء المحبوب على محبه الصادق في محبته التي قد اجتمعت قوى حبه كلها له.

(1)**ولهذا** جعل سبحانه وحيه الذي يلقيه إلى الأنبياء روحاً، كما قال تعالى: ﴿يُلقِي الرُّوح مِن أَمره عَلَى مَن يَشَاءُ مِن عِبَادِه﴾ [غافر: ١٥]. في موضعين من كتابه(2)، وقال: ﴿وكذلكَ أَوْحَيْنا إليكَ رُوحاً مِنْ أَمرِنا﴾ [الشورى: ٥٢]. لأن حياة الأرواح والقلوب به، وهذه الحياة الطيبة هي التي خص بها سبحانه من قَبِلَ وحيه، وعمل به، فقال: ﴿مَن عَمِلَ صَالِحاً مِّن ذَكَرٍ أَو أُنثَى وَهُوَ مُؤمِنٌ فَلَنُحيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيبةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧]. فخصهم سبحانه وتعالى بالحياة الطيبة في الدارين. ومثله قوله تعالى: ﴿وَأَنِ اسْتَغفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعاً حَسَناً إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَيُؤتِ كُلَّ ذي فَضلٍ فَضْلَهُ﴾ [هود: ٣]. ومثله قوله تعالى: ﴿لِلذينَ أَحسَنُوا في هَذِهِ الدُّنيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيرٌ ولنعم دار المتقين﴾ [النحل: ٣٠]. ومثله قوله تعالى: ﴿لِلذينَ أَحسَنُوا في هَذِهِ الدُّنيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ الله وَاسِعَةٌ﴾ [الزمر: ١٠]. فبين سبحانه أنه يُسعد المحسن بإحسانه في الدنيا وفي الآخرة، كما أخبر أنه يُشقي المسيء بإساءته في الدنيا والآخرة. قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فإنَّ لهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعمَى﴾ [طه: ١٢٤]. وقال تعالى، وقد جمع بين النوعين: ﴿فَمَن يُردِ الله أَن يَهدِيَهُ يَشرَح صَدرَهُ للإِسلَامِ وَمَن يُرد أَن يُضِلَّهُ يَجعَل صَدرَهُ ضَيقاً حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّماءِ كَذَلِكَ يَجعَلُ الله الرِّجْسَ عَلَى الذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٥]. فأهل الهدى والإيمان لهم شرح الصدر واتساعه وانفساحه، وأهل الضلال لهم ضيق الصدر والحرج.

وقال تعالى: ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ الله صَدْرَهُ لِلإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ﴾

---

(1) ٢٣ إغاثة جـ ١.

(2) والموضع الثاني في سورة النحل: ﴿ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده﴾ [النحل: ٢١].

[الزمر: ٢٢]. فأهل الإيمان في النور وانشراح الصدر، وأهل الضلال في الظلمة وضيق الصدر. وسيأتي في باب طهارة القلب مزيد تقرير لهذا إن شاء الله تعالى.

والمقصود: أن حياة القلب وإضاءته مادة كل خير فيه، وموته وظلمته مادة كل شرّ فيه.

(1)**قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ . إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ. إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾** [النحل: ٩٨-١٠٠].

ومعنى «استعذ بالله» امتنع به واعتصم به وألجأ إليه، ومصدره الْعَوْذ، والْعِيَاذ، والْمَعَاذ، وغالب استعماله في المستعاذ به، ومنه قوله، صلى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**لقد عذتِ بمعَاذ**» وأصل اللفظة: من الَّلجَأ إلى الشيء والاقتراب منه، ومن كلام العرب «أطيب اللحم عُوذه» أي الذي قد عاذ بالعظم واتصل به. وناقة عائذ: يعوذ بها ولدها، وجمعها «عُوذ» كحُمرْ. ومنه في حديث الحُدَيبية: «معهم العُوذ المطافيل» والمطافيل: [جمع] مُطْفِلٍ، وهي الناقة التي معها فصيلها.

قالت طائفة ـ منهم صاحب جامع الأصول ـ: استعار ذلك للنساء، أي معهم النساء وأطفالهم. ولا حاجة إلى ذلك، بل اللفظ على حقيقته، أي قد خرجوا إليك بدوابهم ومراكبهم حتى أخرجوا معهم النوق التي معها أولادها، فأمر سبحانه بالاستعاذة به من الشيطان عند قراءة القرآن. وفي ذلك وجوه:

منها: أن القرآن شفاء لما في الصدور مُذْهِب لما يلقيه الشيطان فيها من الوساوس والشهوات والإرادة الفاسدة، فهو دواء لما أمَرَه(2) فيها الشيطان، فأمر أن يطرد مادة الداء ويُخلى منه القلب ليصادف الدواء محلاً خالياً، فيتمكّن منه، ويؤثر فيه، كما قيل.

أتاني هواها قبل أن أعرف الهوى ... فصادف قلباً خالياً فتمكنا

فيجيء هذا الدواء الشافي إلى القلب قد خلا من مزاحم ومُضادٍ له فينجع فيه.

ومنها: أن القرآن مادة الهدى والعلم والخير في القلب، كما أن الماء مادة

---

(1) ٩١ إغاثة جـ ١.

(2) كذا بالأصل ولعله: أقره. (ج).

النبات، والشيطان نار يحرق النبات أولاً فأولاً، فكلما أحس بنبات الخير من القلب سعي في إفساده وإحراقه، فأمر أن يستعيذ بالله عز وجل منه لئلا يفسد عليه ما يحصل له بالقرآن.

والفرق بين هذا الوجه والوجه الذي قبله؛ أن الاستعاذة في الوجه الأول لأجل حصول فائدة القرآن، وفي الوجه الثاني لأجل بقائها وحفظها وثباتها.

وكأن من قال: إن الاستعاذة بعد القراءة لَاحَظَ هذا المعنى، وهو لعمر الله مَلْحَظ جيد، إلا أن السنة وآثار الصحابة إنما جاءت بالاستعاذة قبل الشروع في القرءاة، وهو قول جمهور الأمة من السلف والخلف، وهو محصّل للأمرين.

ومنها: أن الملائكة تدنو من قارىء القرآن وتستمع لقراءته، كما في حديث أُسَيد بن حُضَير لما كان يقرأ ورأى مثلَ الظُّلَّة فيها مثل المصابيح، فقال، عليه الصلاة والسلام: «**تلك الملائكة**» والشيطان ضد المَلك وعدوُّه. فأمر القارىء أن يطلب من الله تعالى مباعدة عدوه عنه حتى يحضره خاص ملائكته، فهذه منزلة لا يجتمع فيها الملائكة والشياطين.

ومنها: أن الشيطان يُجْلِب على القارىء بخيله ورَجْله، حتى يشغله عن المقصود بالقرآن. وهو تدبره وتفهمه ومعرفة ما أراد به المتكلم به سبحانه، فيحرص بجهده على أن يحول بين قلبه وبين مقصود القرآن؛ فلا يكمل انتفاع القارىء به، فأمر عند الشروع أن يستعيذ بالله عز وجل منه.

ومنها: أن القارىء يناجي الله تعالى بكلامه، والله تعالى أشد أَذَناً للقارىء الحسن الصوت بالقرآن من صاحب الْقَيْنَة إلى قينته، والشيطان إنما قراءته الشعر والغناء، فأمر القارىء أن يطرده بالاستعاذة عند مناجاة الله تعالى واستماع الرب قراءته.

ومنها: أن الله سبحانه أخبر أنه ما أرسل من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أُمنيته، والسلف كلهم على أن المعنى: إذا تلا ألقى الشيطان في تلاوته. قال الشاعر في عثمان.

تمنى كتاب الله أول ليلِهِ وآخره لاقى حمام المقادر

فإذا كان هذا فعله مع الرسل عليهم السلام فكيف بغيرهم؟ ولهذا يغلّط القارىء تارة ويخلط عليه القراءة، ويشوشها عليه، فيخبط عليه لسانه، أو يشوش

عليه ذهنه وقلبه، فإذا حضر عند القراءة لم يعدم منه القارئ هذا، أو هذا؛ وربما جمعها له، فكان من أهم الأمور: الاستعاذة بالله تعالى منه.

ومنها: أن الشيطان أحرص ما يكون على الإنسان عندما يهُمُّ بالخير، أو يدخل فيه. فهو يشتد عليه حينئذ ليقطعه عنه.

وفي الصحيح عن النبي (ﷺ): «**إن شيطاناً تَفَلَّتَ عليّ البارحة، فأراد أن يقطع عليّ صلاتي...**» الحديث.

وكلما كان الفعل أنفع للعبد وأحب إلى الله تعالى؛ كان اعتراض الشيطان له أكثر.

وفي مسند الإمام أحمد: من حديث سَبْرة بن أبي الفاكِه أنه سمع النبي (ﷺ) يقول: «**إن الشيطان قعد لابن آدم بأطرقه، فقعد له بطريق الإسلام، فقال: أتُسْلِم وتَذَر دينك ودين آبائك وآباء آبائك، فعصاه فأسلم، ثم قعد له بطريق الهجرة، فقال: أتهاجر وتَذَر أرضك وسماءك؟ وإنما مثل المهاجر كالفَرَس في الطِّوَل، فعصاه وهاجر، ثم قعد له بطريق الجهاد ـ وهو جهاد النفس والمال ـ فقال: تقاتل فتُقتل، فتنكحَ المرأة ويُقْسم المال؟ قال: فعصاه فجاهد**».

فالشيطان بالرصيد للإنسان على طريق كل خير.

وقال منصور: عن مجاهد رحمه الله: «ما من رفقة تخرج إلى مكة إلا جهز معهم إبليس مثل عِدَّتِهم» رواه ابن أبي حاتم في تفسيره.

فهو بالرصد، ولا سيما عند قراءة القرآن، فأمر سبحانه العبد أن يحارب عدوه الذي يقطع عليه الطريق ويستعيذ بالله تعالى منه أولاً، ثم يأخذ في السير، كما أن المسافر إذا عرض له قاطع طريق اشتغل بدفعه، ثم اندفع في سيره.

ومنها: أن الاستعاذة قبل القراءة عنوان وإعلام بأن المأتي به بعدها القرآن، ولهذا لم تشرع الاستعاذة بين يدي كلام غيره، بل الاستعاذة مقدمة وتنبيه للسامع أن الذي يأتي بعدها هو التلاوة، فإذا سمع السامع الاستعاذة استعد لاستماع كلام الله تعالى، ثم شرع ذلك للقارئ، وإن كان وحده، لما ذكرنا من الحِكَم وغيرها.

فهذه بعض فوائد الاستعاذة.

وقد قال أحمد في رواية حنبل: «لا يقرأ في صلاة ولا غير صلاة، إلا استعاذ؛ لقوله عز وجل: ﴿**فَإِذا قَرَأْتَ الْقُرآن فَاسْتَعِذْ بِالله مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ**﴾

[النحل: ٩٨]». **وقال** في رواية ابن مشيش: «كلما قرأ يستعيذ».

وقال عبدالله بن أحمد: «سمعت أبي إذا قرأ استعاذ، يقول: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، إن الله هو السميع العليم».

وفي المسند والترمذي: من حديث أبي سعيد الخدري قال: «كان النبي (ﷺ) إذا قام إلى الصلاة استفتح ثم يقول: **أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم: من هَمْزِهِ وَنَفْخِهِ وَنَفْثِهِ**».

وقال ابن المنذر: جاء عن النبي (ﷺ) أنه كان يقول قبل القراءة: «**أعوذ بالله من الشيطان الرجيم**»، واختار الشافعي وأبو حنيفة والقاضي في الجامع أنه كان يقول: «**أعوذ بالله من الشيطان الرجيم**» وهو رواية عن أحمد؛ لظاهر الآية، وحديث ابن المنذر. وعن أحمد، من رواية عبدالله: «**أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم**» لحديث أبي سعيد، وهو مذهب الحسن وابن سيرين، ويدل عليه ما رواه أبو داود في قصة الإِفْكِ: أن النبي (ﷺ) جلس وكشف عن وجهه وقال: «**أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم**».

وعن أحمد رواية أخرى أنه يقول: «**أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، إن الله هو السميع العليم**» وبه قال سفيان الثوري ومسلم بن يَسار، واختاره القاضي في المجرد وابن عقيل، لأن قوله: ﴿**فَاسْتَعِذْ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ**﴾ [النحل: ٩٨]. ظاهره أنه يستعيذ بقوله «**أعوذ بالله من الشيطان الرجيم**» وقوله في الآية الأخرى: ﴿**فَاسْتَعِذْ بِاللهِ إِنَّهُ هُوَ السمِيعُ الْعَلِيمُ**﴾ [فصلت: ٣٦]. يقتضي أن يلحق بالاستعاذة وصفه بأنه هو السميع العليم في جملة مستقلة بنفسها مؤكدة بحرف «إن» لأنه سبحانه هكذا ذكر. وقال إسحاق: الذي أختاره ما ذكر عن النبي (ﷺ): «**اللهم إني أعوذ بك من الشيطان الرجيم من هَمْزه ونفخه ونَفْثِه**». **وقد جاء في الحديث تفسير ذلك**، قال: «وهمزه المُؤتَةُ، ونفخه: الكِبْر ونفثه: الشعر».

(١)**وأما قوله تعالى**: ﴿**فَإِذا قَرَأْتَ الْقُرآن فَاسْتَعِذْ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ**﴾ **فعلى ماذكرنا من التعبير عن إرادة الفعل بالفعل هذا هو المشهور**.

---

(١) ١٩٦ بدائع جـ ١.

وفيه وجه ألطف من هذا، وهو أن العرب تعبر بالفعل عن ابتداء الشروع فيه تارة، وتعبر عن انتهائه تارة فيقولون: فعلت عند الشروع، وفعلت عند الفراغ، وهذا استعمال حقيقي.

وعلى هذا فيكون معنى ﴿قرأت﴾ في الآية ابتداء الفعل أي: إذا شرعت وأخذت في القراءة فاستعذ. فالاستعاذة مرتبة على الشروع الذي هو مبادىء الفعل ومقدمته وطليعته.

فصل(١)

فالقرآن أرشد إلى دفع هذين العدوّين بأسهل الطرق بالاستعاذة والإعراض عن الجاهلين ودفع إساءتهم بالإحسان. وأخبر عن عظم حظ من لَقَّاه ذلك فإنه ينال بذلك كفّ شر عدوه وانقلابه صديقاً، ومحبة الناس له، وثناءهم عليه، وقهر هواه، وسلامة قلبه من الغِلّ والحقد وطمأنينة الناس ـ حتى عدوه ـ إليه. هذا غير ما يناله من كرامة الله وحسن ثوابه ورضاه عنه؛ وهذا غاية الحظ عاجلاً وآجلاً، ولما كان ذلك لا يُنال إلا بالصبر قال: ﴿**وما يُلَقَّاها إلا الذين صبروا**﴾ [فصلت: ٣٥]. فإن النَّزِق الطائِش لا يصبر على المقابلة.

ولما كان الغضب مركب الشيطان، فتتعاون النفس الغضبية والشيطان على النفس المطمئنة التي تأمر بدفع الإساءة بالإحسان ـ أمر أن يعاونها بالاستعاذة منه، فتُمِدّ الاستعاذة النفس المطمئنة فتقوى على مقاومة جيش النفس الغضبية، ويأتي مدد الصبر الذي يكون النصر معه، وجاء مدد الإيمان والتوكل، فأبطل سلطان الشيطان، فـ﴿**إنه لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ**﴾ [النحل: ٩٩]. قال مجاهد وعكرمة والمفسرون: ليس له حجة.

والصواب: أن يقال: ليس له طريق يتسلط به عليهم: لا من جهة الحجة، ولا من جهة القدرة. والقدرة داخلة في مسمى السلطان، وإنما سميت الحجة سلطاناً، لأن صاحبها يتسلط بها تسلط صاحب القدرة بيده، وقد أخبر سبحانه أنه لا سلطان لعدوه على عباده المخلصين المتوكلين، فقال في سورة الحجر: ﴿**قالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ. إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ**

(١) ٩٨ إغاثة جـ ١.

الْمُخْلَصِين. قالَ هذا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ. إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ [الحجر: ٣٩-٤٢].

وقال في سورة النحل: **﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ. إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾** [النحل: ٩٩-١٠٠]. فتضمن ذلك أمرين: أحدهما نفى سلطانه وإبطاله على أهل التوحيد والإخلاص. والثاني إثبات سلطانه على أهل الشرك وعلى من تَوَلَّاه.

ولما علم عدو الله أن الله لا يُسَلِّطه على أهل التوحيد والإخلاص قال: **﴿فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ. إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾** [ص: ٨٢-٨٣].

فعلم عدوّ الله أن من اعتصم بالله، عز وجل، وأخلص له وتوكل عليه لا يقدر على إغوائه وإضلاله، وإنما يكون له السلطان على من تولّاه وأشرك مع الله، فهؤلاء، رَعِيَّته فهو وليهم وسلطانهم ومتبوعهم.

فإن قيل: فقد أثبت له السلطان على أوليائه في هذا الموضع، فكيف ينفيه في قوله: **﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقاً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * وَمَا كانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُؤْمِنُ بِالآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ﴾**؟ [سبأ: ٢٠-٢١]. قيل: إن كان الضمير في قوله: **﴿وَمَا كانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ﴾** عائداً على المؤمنين فالسؤال ساقط، ويكون الاستثناء منقطعاً: أي لكن امتحنّاهم بإبليس، لنعلم من يؤمن بالآخرة ممن هو منها في شك، وإن كان عائداً على ما عاد عليه في قوله: **﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ﴾** وهو الظاهر، ليصح الاستثناء المنقطع بوقوعه بعد النفي، ويكون المعنى: وما سلَّطناه عليهم إلا لنعلم من يؤمن بالآخرة. قال ابن قُتيبة: «إن إبليس لما سأل الله تعالى النظْرَة فَأَنْظَره قال: **﴿لأُغْوِيَنَّهُمْ﴾** [ص: ٨٢]. **﴿وَلأُضِلَّنَّهم. وَلآمرنَّهم﴾** بكذا [النساء: ١١٩]. **﴿لأتخذنَّ من عبادك نصيباً مفروضاً﴾** [النساء: ١١٨]. وليس هو في وقت هذه المقالة مستيقناً أن ما قدّره فيه يتمّ، وإنما قال ظانًّا، فلما اتَّبعوه وأطاعوه صَدّق عليهم ما ظنه فيهم، فقال تعالى: وما كان تسليطنا إياه إلا لنعلم المؤمنين من الشاكين، يعني نعلمهم موجودين ظاهرين فيحق القول ويقع الجزاء».

وعلى هذا فيكون السلطان ههنا على من لم يؤمن بالآخرة وشكَّ فيها، وهم الذين تولوه وأشركوا به فيكون السلطان ثابتًا لا منفيًا، فتتفق هذه الآية مع سائر الآيات.

فإن قيل: فما تصنع بالتي في سورة إبراهيم حيث يقول لأهل النار: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عليكم مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾ [إبراهيم: ٢٢]. وهذا وإن كان قَوْلَه فالله سبحانه أخبر به عنه مُقَرِّراً له، لا منكراً، فدَلّ على أنه كذلك.

قيل: هذا سؤال جيد. وجوابه: أن السلطان المنفي في هذا الموضع: هو الحجة والبرهان، أي ما كان لي عليكم من حجة وبرهان أحتج به عليكم، كما قال ابن عباس: «ما كان لي من حجة أحتج بها عليكم» أي: ما أظهرت لكم حجة إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي، وصدّقتم مقالتي، واتبعتموني بلا برهان ولا حجة.

وأما السلطان الذي أثبته في قوله: ﴿إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ﴾ فهو تَسلُّطه عليهم بالإغواء والإضلال، وتمكنه منهم، بحيث يؤزُّهم إلى الكفر والشرك ويُزْعجهم إليه، ولا يَدَعُهم يتركونه كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾ [مريم: ٨٣]. قال ابن عباس: «تُغريهم إغراء» وفي رواية: «تُشليهم إشلاء» وفي لفظ: «تحرضهم تحريضاً» وفي آخر: «تزعجهم إلى المعاصي إزعاجاً» وفي آخر: «توقدهم» أي: تحركهم كما يحرك الماء بالإيقاد تحته، قال الأخفش: «توهجهم».

وحقيقة ذلك: أن «الأزّ» هو التحريك والتهييج، ومنه يقال لغليان القدر: الأزيز؛ لأن الماء يتحرّك عند الغليان. ومنه الحديث: «**لجوفه أزيز كأزيز المرْجَل من البكاء**». قال أبو عبيدة: «الأزيز» الالتهاب والحركة، كالتهاب النار في الحطب، يقال: اِزّ قِدْرَك، أي: أَلْهِب تحتها بالنار؛ وأيزت القدر إذا اشتد غليانها، فقد حصل للأَزّ معنيان: أحدهما: التحريك، والثاني: الإيقاد والإلهاب، وهما متقاربان، فإنه تحريك خاص بإزعاج وإلهاب.

فهذا من السلطان الذي له على أوليائه وأهل الشرك، ولكن ليس له على ذلك سلطان حجة وبرهان، وإنما استجابوا له بمجرد دعوته إياهم، لما وافقت أهواءهم وأغراضهم، فهم الذين أعانوا على أنفسهم ومكّنوا عدوهم من سلطانه

عليهم، بموافقته ومتابعته فلما أعطوا بأيديهم، واستأسروا له، سُلِّط عليهم، عقوبةً لهم. وبهذا يظهر معنى قوله سبحانه: ﴿وَلَن يَجْعَلَ اللهُ لِلكَافِرِينَ على المؤمِنِين سَبيلاً﴾ [النساء: ١٤١].[1]

[2]**وقد** أخبر تعالى أن تسليط الشيطان إنما هو على الذين يتولونه والذين هم به مشركون. فلما تولوه دون الله وأشركوه معه عوقبوا على ذلك بتسليطه عليهم. وكانت هذه الأولوية والإشراك عقوبة خلو القلب وفراغه من الإخلاص والإنابة العاصمة من ضدها. فقد بين أن إخلاص الدين يمنع من سلطان الشيطان لأن فعل السيئات التي توجب العذاب. فإخلاص القلب لله مانع له من فعل ما يضاده، وإلهامه البر والتقوى ثمرة هذا الإخلاص ونتيجته. وإلهام الفجور عقوبة خلوه من الإخلاص.

فإن قلت: هذا الترك إن كان أمراً وجوديًا عاد السؤال، وإن كان أمراً عدميًا فكيف يعاقب على العدم؟ وقلت: ليس هنا ترك هو كف النفس ومنعها عما تريده وتحبه؛ فهذا قد يقال: إنه أمر وجودي، وإنما هنا عدم وخلو عن أسباب الخير، وهذا العدم ليس بكف للنفس ومنع لها عما تريده وتحبه، بل هو محض خلوها مما هو أنفع شيء لها. والعقوبة على الأمر العدمي هي بفعل السيئات لا بالعقوبات التي تناله بعد إقامة الحجة عليه بالرسل. فلله سبحانه عقوبتان:

إحداهما: جعله خاطئاً مذنباً لا يحس بألمها ومضرتها لموافقتها شهوته، وإرادته وهي في الحقيقة من أعظم العقوبات.

والثانية: العقوبات المؤلمة بعد فعله للسيئات.

وقد قرن الله تعالى بين هاتين العقوبتين في قوله: ﴿فَلَمَّا نَسوا مَا ذُكِرُوا بِهِ فَتحْنا عَلَيْهم أَبْوَابَ كُلِّ شيَءٍ﴾ [الأنعام: ٤٤] فهذه العقوبة الأولى. ثم قال: ﴿حَتَّى إذَا فَرِحُوا بِما أُوتوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً﴾ [الأنعام: ٤٤] فهذه العقوبة الثانية.

وأعط هذا الموضع حقه من التأمل، وانظر كيف ترتبت هاتان العقوبتان

---

(١) بقية البحث على هذه الآية في سورة النساء، ويأتي في سورة سبأ نقلها عن الجواب الكافي (ج).

(٢) ٣٢٧ مختصر الصواعق جـ ١.

إحداهما على الأخرى، لكن العقوبة الأولى عقوبة موافقة لهواه وإرادته، والثانية مخالفة لما يحبه ويتلذذ به.

وتأمل عدل الرب تعالى في هذه وهذه، وأنه سبحانه إنما وضع العقوبة في محلها الأولى بها الذي لا يليق بها غيره. وهذا أمر لو لم تشهده القلوب وتعرفه لما جاز أن ينسب إلى الله تعالى سواه ولا يظن به غيره، فإنه من ظن السوء بمن يتعالى ويتقدس عن كل سوء وعيب.

فإن قلت: هل كان يمكنهم أن يأتوا بالإخلاص والإنابة والمحبة له وحده، من غير أن يخلق ذلك في قلوبهم ويجعلهم مخلصين له، أم ذلك محض جعله في قلوبهم؟.

قلت: لا، بل هو محض منته وفعله وهو من أعظم الخير الذي هو في يده، فالخير كله في يديه، ولا يقدر أحدنا يأخذ من الخير إلا ما أعطاه ولا يتقي من الشر إلا ما وقاه.

فإن قلت: فإذا لم يخلق ذلك في قلوبهم ولم يوفقوا له ولا سبيل لهم إليه بأنفسهم عاد السؤال، وكان منعهم منه ظلماً، ولزمك القول بأن العدل هو تصرف المالك في ملكه؟.

قيل: لا يكون بمنعه سبحانه لهم من ذلك ظالماً، وإنما يكون المانع ظالماً إذا منع غيره حقًّا لذلك الغير عليه، وهذا هو الذي حرَّمه الرب على نفسه، وأما إذا منع غيره ماليس حقًّا له، بل محض فضله ومنته عليه لم يكن ظالمًا بمنعه.

(1)**فتأمل** حسن الاعتراض وجزالته في قول الرب تعالى: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ والله أَعلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنت مُفترٍ﴾ [النحل: ١٠١]

فقوله: ﴿والله أَعلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ﴾ اعتراض بين الشرط وجوابه أفاد أموراً:

منها: الجواب عن سؤال سائل: ما حكمة هذا التبديل وما فائدته؟.

ومنها: أن الذي بدل وأتى بغيره منزل محكم نزوله قبل الإخبار بقولهم.

ومنها: أن مصدر الأمرين عن علمه تبارك وتعالى. وأن كلًّا منهما منزل؛ فيجب التسليم والإيمان بالأول والثاني.

---

(١) ١٤٠ التبيان.

فصل[1]

المخرج الثالث: أن يكون مُكْرَهاً على الطلاق أو الحلف به عند جمهور الأمة: من الصحابة والتابعين ومَنْ بعدهم، وهو قول أحمد ومالك الشافعي وجميع أصحابهم، على اختلاف بينهم في حقيقة الإكراه وشروطه.

قال الإمام أحمد في رواية أبي طالب: يمين المستكره إذا ضُرِب، ابن عمر وابن الزبير لم يَرَيَاه شيئاً.

وقال في رواية أبي الحارث: إذا طلق المكره لم يلزمه الطلاق، فإذا فعل به كما فعل بثابت بن الأحنف فهو مكره؛ لأن ثابتاً عَصَرُوا رجله حتى طلق، فأتى ابن عمر وابن الزبير فلم يَرَيا ذلك شيئاً، وكذلك قال الله تعالى: ﴿**إلا مَنْ أُكْرِهَ وقلبه مُطْمئن بالإيمان**﴾ [النحل: ١٠٦].

وقال الشافعي رضي الله عنه: قال عز وجل: ﴿**إلا مَنْ أُكْرِهَ وقلبه مُطْمئن بالإيمان**﴾ وللكفر أحكام، فلما وضعها الله تعالى عنه سَقطت أحكام الإكراه عن القول كله؛ لأن الأعظم إذا سقط عن الناس سقط ما هو أصغر منه.

وفي سنن ابن ماجه وسنن البيهقي: من حديث بشر بن بكر، عن الأوزاعي، عن عطاء، عن عبيد بن عمير، عن ابن عباس، عن النبي (ﷺ): «**إن الله وَضَعَ عن أمتي**» وقال البيهقي: «**تجاوز لي عن أمتي: الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه**».

[2]**الوجه** الحادي والعشرون: قوله: وكذلك أيضاً حذف المضاف مجاز، وقد كثر حتى إن في القرآن الذي هو أفصح الكلام منه أكثر من ثلاثمائة موضع. جوابه من وجهين:

أحدهما أن أكثر المواضع التي ادعى فيها ﴿**وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا**﴾ [الأعراف: ٤] ﴿**وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ**﴾ [الطلاق: ٨] إلى الحذف في القرآن لا يلزم فيها الحذف ولا دليل على صحة دعواه كقوله إلى أمثال ذلك فادعى أهل المجاز أن ذلك كله من مجاز الحذف وأن التقدير في ذلك كله: أهل

---

(١) ٥١ أعلام جـ ٤.

(٢) ٩٨ مختصر الصواعق جـ٢.

القرية وهذا غير لازم؛ فإن القرية اسم للقوم المجتمعين في مكان واحد فإذا نسب إلى القرية فعل أو حكم عليها بحكم أو أُخبر عنها بخبر، كان في الكلام ما يدل على إرادة المتكلم من نسبة ذلك إلى الساكن أو المسكن، أو هو حقيقة في هذا وهذا وليس ذلك من باب الاشتراك اللفظي؛ بل القرية موضوعة للجماعة الساكنين بمكان واحد، فإذا أطلقت تناولت الساكن والمسكن وإذا قيدت بتركيب خاص واستعمال خاص كانت حقيقة فيما قيدت به فقوله تعالى: ﴿ضَرَبَ الله مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنةً مُطْمَئِنَّةً﴾ [النحل:١١٢] حقيقة في الساكن وكذلك لفظة القرية في عامة القرآن؛ إنما يراد بها الساكن فتأمله، وقد يراد بها المسكن خاصة فيكون في السياق ما يعينه كقوله تعالى: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلىٰ عُرُوشِهَا﴾ [البقرة:٢٥٩] أي: ساقطة على سقوفها وهذا التركيب يعطي المراد. فدعوى أن هذا حقيقة القرية وأن قوله: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ﴾ [الطلاق:٨] ونحوه تحكم بارد لا معنى له، وهو بالضد أولى إذ قد اطرد استعمال القرية إلى الساكن، وحقيقة الأمر أن اللفظة موضوعة للساكن باعتبار المسكن، ثم قد يقصد هذا دون هذا، وقد يرادان معا فلا مجاز ههنا ولا حذف، وتخلصت بهذا من ادعاء الحذف فيما شاء الله من المواضيع التي زعم أنها تزيد على ثلاثمائة.

الوجه الثاني: أن هذا الحذف الذي يزعمه هؤلاء ليس بحذف في الحقيقة؛ فإن قوة الكلام تعطيه، ولو صرح المتكلم بذكره كان عياً وتطويلاً مخلاً بالفصاحة كقوله: ﴿مَا أَفَاءَ الله عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرى﴾ [الحشر:٧] قالوا: هذا مجاز تقديرهما: أفاء الله من أموال أهل القرى، وهذا غلط وليس بمجاز ولا يحتاج إلى هذا التقدير، والمعنى مفهوم بدون هذا التقدير فالقائل: اتصل إلي من فلان ألف يصح كلامه لفظاً ومعنى بدون تقدير. فإن من للابتداء في الغاية. فابتداء الحصول من المجرور بمن. وكذلك في الآية اهـ.

(١)**وقد** حرم الله سبحانه القول عليه بغير علم في الفتيا والقضاء، وجعله من أعظم المحرمات، بل جعله في المرتبة العليا منها، فقال تعالى: ﴿قل إنما حَرَّمَ رَبِّيَ الفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنها وَمَا بَطَن، وَالإِثمَ وَالبغيَ بِغير الحقِّ، وَأَن تُشرِكُوا بِالله مَا

(١) ٣٨ أعلام جـ ١.

لَم يُنـزِّلُ بِهِ سلطَانـاً، وَأَن تقُـولُوا عَلَى الله مَا لَا تَعلمونَ﴾ [الأعراف: ٣٢]. فرتَّبَ المحرماتِ أربعَ مراتبَ، وبدأ بأسهلها وهو الفواحش، ثم ثنى بما هو أشد تحريماً منه وهو الإثم والظلم، ثم ثلَّث بما هو أعظم تحريماً منهما وهو الشرك به سبحانه، ثم ربع بما هو أشد تحريماً من ذلك كله وهو القول عليه بلا علم، وهذا يعم القول عليه سبحانه بلا علم في أسمائه وصفاته وأفعاله وفي دينه وشرعه. وقال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلسِنَتُكُمُ الكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفتَرُوا عَلَى الله الكَـذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفتَرُونَ عَلَى الله الكَذِبَ لَا يُفلِحُونَ مَتاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُم عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النحل: ١١٦-١١٧] فتقـدم إليهم سبحـانـه بالـوعيد على الكذب عليه في أحكامه، وقولهم لما لم يحرمه: هذا حرام، ولما لم يحله: هذا حلال، وهذا بيان منه سبحـانـه أنه لا يجوز للعبد أن يقول هذا حلال وهذا حرام إلا بما علم أن الله سبحانه أحلّه وحرمه.

(١)**وقوله** تعالى: ﴿إِنَّ إبراهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لِلَّهِ حَنِيفاً وَلَم يَكُ مِنَ المُشرِكِينَ شَاكِراً لِأَنعُمِهِ اجتَبَاهُ﴾ [النحل: ١٢٠-١٢١].

فهذه أربع أنواع من الثناء افتتحها بأنه أمة والأمة هو القدوة الذي يؤتم به.

قال ابن مسعـود: والأمة المعلم للخير وهي فعلة من الائتمام كقدوة وهو الذي يقتدي به.

والفرق بين الأمة والإمام من وجهين: أحدهما: أن الإمام كل ما يؤتم به سواء كان بقصده وشعوره أو لا، ومنه سمي الطريق إماماً كقوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ أَصحَابُ الأَيكَةِ لَظَالِمِين فَانتَقَمْنا مِنهُم وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [الحجر: ٧٨-٧٩] أي: بطريق واضح لا يخفى على السالك ولا يسمى الطريق أمة.

الثاني: أن الأمة فيه زيادة معنى وهو الذي جمع صفات الكمال من العلم والعمل؛ بحيث بقي فيها فرداً وحده فهو الجامع لخصال تفرقت في غيره، فكأنه باين غيره باجتماعها فيه وتفرقها أو عدمها في غيره، ولفظ الأمة يشعر بهذا المعنى لما فيه من الميم المضعفة الدالة على الضم بمخرجها وتكريرها، وكذلك ضم أوله فإن الضمة من الواو ومخرجها ينضم عند النطق بها، وأتى بالتاء الدالة على الوحدة

---

(١) ١٧٤ مفتاح جـ ١.

كالغرفة واللقمة. ومنه الحديث: «**إن زيد بن عمرو بن نفيل يبعث يوم القيامة أمة وحده**» فالضم والاجتماع لازم لمعنى الأمة.

ومنه سميت الأمة التي هي آحاد الأمم؛ لأنهم الناس المجتمعون على دين واحد أو في عصر واحد.

الثاني: قوله: ﴿**قانتاً لله**﴾ قال ابن مسعود: القانت المطيع. والقنوت يفسر بأشياء كلها ترجع إلى دوام الطاعة.

الثالث: قوله ﴿**حنيفاً**﴾ والحنيف المقبل على الله، ويلزم هذا المعنى ميله عما سواه، فالميل لازم معنى الحنيف لا أنه موضوعه لغة.

الرابع: قوله: ﴿**شاكراً لأنعمه**﴾ والشكر للنعم مبني على ثلاثة أركان: الإقرار بالنعمة، وإضافتها إلى المنعم بها، وصرفها في مرضاته، والعمل فيها بما يجب، فلا يكون العبد شاكراً إلا بهذه الأشياء الثلاثة.

والمقصود أنه مدح خليله بأربع صفات كلها ترجع إلى العلم والعمل بموجبه وتعليمه ونشره، فعاد الكمال كله إلى العلم والعمل بموجبه ودعوة الخلق إليه.

[1]**والعظة** يراد بها أمران: الأمر والنهي المقرونان بالرغبة والرهبة، ونفس الرغبة والرهبة. فالمنيب المتذكر: شديد الحاجة إلى الأمر والنهي، والمعرض الغافل شديد الحاجة إلى الترغيب والترهيب. والمعارض المتكبر: شديد الحاجة إلى المجادلة.

فجاءت هذه الثلاثة في حق هؤلاء الثلاثة في قوله: ﴿**ادْعُ إِلى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالحِكْمَةِ، وَالموعِظَةِ الحَسَنَةِ. وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هي أَحْسَنُ**﴾ [النحل: ١٢٥] أطلق الحكمة، ولم يقيدها بوصف الحسنة. إذ كلها حسنة، ووصف الحسن لها ذاتي.

وأما الموعظة فقيدها بوصف الإحسان. إذ ليس كل موعظة حسنة.

وكذلك الجدال قد يكون بالتي هي أحسن. وقد يكون بغير ذلك. وهذا يحتمل أن يرجع إلى حال المجادل وغلظته، ولينه وحدته ورفقه. فيكون مأموراً بمجادلتهم بالحال التي هي أحسن.

ويحتمل أن يكون صفة لما يجادل به، من الحجج والبراهين، والكلمات

---

(١) ٤٤٥ مدارج جـ١.

التي هي أحسن شيء وأبينـه، وأدلـه على المقصـود. وأوصله إلى المطلوب. والتحقيق: أن الآية تتناول النوعين.

[(١)] **الله** سبحانه يجْزِي العبد على ما عمل من خير في الدنيا ولابد، ثم في الآخـرة يوفيه أجـره، كما قال تعـالى: ﴿وَإِنـما تُوَفَّـوْنَ أُجُـورَكُم يَوْمَ القِيَامةِ﴾ [آل عمران: ١٨٥] فما يحصل في الدنيا من الجزاء على الأعمال الصالحة ليس جزاء توفية، وإن كان نوعاً آخر كما قال تعالى عن إبراهيم: ﴿وَآتيناهُ أَجْرَهُ في الدُّنيا، وإنَّه في الآخرةِ لَمِنَ الصَّالحين﴾ [العنكبوت: ٢٧] وهذا نظير قوله تعالى: ﴿وَآتيناهُ في الدُّنيا حَسَنة، وإنَّه في الآخرة لَمِنَ الصَّالِحِين﴾ [النحل: ١٢٢] فأخبر سبحانه أنه أتى خليله أَجْرَهُ في الدنيا من النعم التي أنعم بها عليه في نفسه وقلبه وولده وماله وحياته الطيبة، ولكن ليس ذلك أجر توفية، وقد دل القرآن في غير موضع على أن لكل من عمل خيرًا أجر[ين][(٢)] عمله في الدنيا ويكمل له أجره في الآخرة كقوله تعالى: ﴿لِّلذينَ أَحسَنُـوا في هَذِهِ الدُّنيَا حَسَنَةٌ ولَدَارُ الآخرة خَيرٌ وَلَنِعمَ دَارُ الْمتقينَ﴾ [النحل: ٣٠] وفي الآيةَ الأخرى: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا في الله مِن بَعدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبوئَنَّهم في الدُّنيَا حَسَنَةً وَلَأجرُ الآخرةِ أَكبرُ لو كَانُوا يَعلَمُونَ﴾ [النحل: ٤١] وقال في هذه السـورة: ﴿مَن عَمِلَ صَالِحاً مِّن ذَكَرٍ أو أُنثى وَهُوَ مُؤمِنٌ فَلَنُحيِيَنَّهُ حَياةً طَيبةً، وَلَنَجزيَنَّهُم أَجرَهُم بِأَحسَنِ مَا كَانُوا يَعمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧]. وقال فيها عن خليله: ﴿وآتَينَاهُ فِي الدُّنيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [النحل: ١٢٢] فقد تكرر هذا المعنى في هذه السورة دون غيرها في أربعة مواضع لسر بديع، فإنها سورة النعم التي عدد الله سبحانه فيها أصول النعم وفروعها، فعرف عباده أن لهم عنده في الآخرة من النعم أضعاف هذه مما لا يدرك تفاوته، وأن هذه من بعض نعمه العاجلة عليهم، وأنهم إن أطاعوه زادهم إلى هذه النعم نعماً أخرى، ثم في الآخرة يوفيهم أجور أعمالهم تمام التوفية، وقال تعالى: ﴿وَأَنِ استَغفِرُوا رَبَّكُم ثُمَّ تُوبُوا إِلَيهِ يُمَتِّعكُم مَتاعاً حَسَناً إِلَى أَجَلٍ مُّسَمّى وَيُؤتِ كُلَّ ذِي فَضلٍ فَضلَهُ﴾ [هود: ٣].

[(٣)] **وأثنى** سبحانه على خليله إبراهيم بشكر نعمه فقال: ﴿إن إبراهيم كان أمة

---

(١) ١٦٤ أعلام جـ ٢.

(٢) كذا في الأصل ولعل الصحة حذف مابين المعكوفين (ج) (٣) ١٢٤ عدة الصابرين.

قانِتاً لله حَنيفاً وَلَم يكُ مِنَ المشركين شاكراً لأنعُمه اجتباه وَهَدَاه إلى صِراطٍ مستقيم﴾ [النحل: ١٢٠] فأخبر عنه سبحانه أنه أمة أي قدوة يؤتم به في الخير وأنه قانتًا لله والقانت هو المطيع المقيم على طاعته، والحنيف هو المقبل على الله المعرض عما سواه.

ثم ختم له بهذه الصفات بأنه شاكر لأنعمه فجعل الشكر غاية خليله.

وأخبر سبحانه أن الشكر هو الغاية من خلقه وأمره؛ بل هو الغاية التي خلق عبيده لأجلها **﴿والله أَخرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُم لاَ تَعلَمُونَ شَيئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمعَ وَالأَبصَارَ وَالأَفئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشكُرُونَ﴾** [النحل: ٧٨]. فهذه غاية الخلق وغاية الأمر فقال: **﴿ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة فاتقوا الله لعلكم تشكرون﴾** [آل عمران: ١٢٣] ويجوز أن يكون قوله: **﴿لعلكم تشكرون﴾** تعليلاً لقضائه لهم بالنصر ولأمره لهم بالتقوى ولهما معاً وهو الظاهر، فالشكر غاية الخلق والأمر.

وقد صرح سبحانه بأنه غاية أمره وإرساله الرسول في قوله تعالى: **﴿كَمَا أَرسَلنَا فِيكُم رَسُولاً مِنكُم يَتلُوا عَلَيكُم آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُم وَيُعَلِّمُكُمُ الكِتَابَ وَالحِكمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَم تَكُونُوا تَعلَمُونَ فَاذكُرُونِي أَذكُرْكُم واشكُرُوا لِي وَلَا تَكفُرُونِ﴾** [البقرة: ١٥١]. قالوا: فالشكر مراد لنفسه والصبر مراد لغيره، والصبر إنما حمد لإفضائه وإيصاله إلى الشكر فهو خادم الشكر.

وقد ثبت في الصحيحين: عن النبي (ﷺ) أنه قام حتى تفطرت قدماه فقيل له: أتفعل هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر قال: «**أفلا أكون عبداً شكوراً**». وثبت في المسند والترمذي: أن النبي (ﷺ) قال لمعاذ: «**والله إني لأحبك فلا تنس أن تقول في دبر كل صلاة، اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك**».

وقال ابن أبي الدنيا: حدثنا إسحاق بن إسماعيل، حدثنا أبو معاوية وجعفر بن عون، عن هشام بن عروة قال: كان من دعاء النبي (ﷺ): «**اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك**».

[1]**قوله** تعالى: **﴿وَاصبر وَمَا صَبرُكَ إلا بِالله﴾** [النحل: ١٢٧]. وقول شعيب:

---

(١) ٦٣ شفاء العليل.

﴿وما توفيقي إلا بالله﴾ [هود: ٨٨]. ومعلوم أن الصبر والتوفيق فعل اختياري للعبد وقد أخبر أنه به لا بالعبد، وهذا لا ينبغي أن يكون فعلاً للعبد حقيقة ولهذا أمر به، وهو لا يأمر عبده بفعل نفسه سبحانه وإنما يؤمر العبد بفعله هو، ومع هذا فليس فعله واقعًا به وإنما هو بالخالق لكل شيء، الذي ما شاء كان ومالم يشأ لم يكن.

فالتصبير منه سبحانه وهو فعله، والصبر هو القائم بالعبد وهو فعل العبد؛ ولهذا أثنى على من يسأله أن يصبره فقال تعالى: ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللهِ﴾ [البقرة: ٢٥٠-٢٥١]. ففي الآية أربعة أدلة:

أحدها: قولهم: ﴿أفرغ علينا صبراً﴾ والصبر فعلهم الاختياري فسألوه ممن هو بيده ومشيئته وإذنه إن شاء أعطاهموه وإن شاء منعهموه.

الثاني: قولهم: ﴿وثبت أقدامنا﴾ وثبات الأقدام فعل اختياري، ولكن التثبيت فعله والثبات فعلهم، ولا سبيل إلى فعلهم إلا بعد فعله.

الثالث: قولهم: ﴿وانصرنا على القوم الكافرين﴾ فسألوه النصر وذلك بأن يقوي عزائمهم ويشجعهم ويصبرهم ويثبتهم ويلقي في قلوب أعدائهم الخور والخوف والرعب؛ فيحصل النصر.

وأيضاً فإن كون الإنسان منصوراً على غيره؛ إما أن يكون بأفعال الجوارح وهو واقع بقدرة العبد واختياره، وإما أن يكون بالحجة والبيان والعلم وذلك أيضاً بفعل العبد، وقد أخبر سبحانه أن النصر بجملته من عنده وأثنى على من طلبه منه.

وعند القدرية لا يدخل تحت مقدور الرب.

والرابع: قوله: ﴿فهزموهم بإذن الله﴾ وإذنه ها هنا هو الإذن الكوني القدري أي: بمشيئته وقضائه وقدره ليس هو الإذن الشرعي الذي بمعنى الأمر؛ فإن ذلك لا يستلزم الهزيمة بخلاف إذنه الكوني وأمره الكوني، فإن المأمور المكون لا يتخلف عنه ألبتة.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة النحل
والحمد لله رب العالميـن



بسم الله الرحمن الرحيم

(١)فائـدة

كانت كرامة رسول الله ﷺ بالإسراء مفاجأة من غير ميعاد ليحمل عنه ألم الانتظار ويفاجأ بالكرامة بغتة، وكرامة موسى بعد انتظار أربعين ليلة.

(٢)**تسخير** البراق لحمل رسول الله، ﷺ في ليلة واحدة مسيرة شهرين ذهابًا وإيابًا أعظم من تسخير الريح لسليمان مسيرة شهرين في يوم واحد ذهابًا وإيابًا؛ فإن الريح سريعة الحركة، طبعها الإسراع بما تحمله، وأما البراق فالآية فيه أعظم.

(٣)**شق** صدر النبي، ﷺ، والاعتناء بتطهير قلبه وحشوه إيمانًا وحكمة دليل على أن محل العقل القلب، وهو متصل بالدماغ. واستدل بعض الفقهاء بغسل قلبه، ﷺ، في الطست من الذهب على جواز تحلية المصاحف بالذهب والمساجد، وهو في غاية البعد؛ فإن ذلك كان قبل النبوة، ولم يكن ذلك من ذهب الدنيا، وكان كرامة أكرم بها، ﷺ، وكان من فعل الملائكة بأمر الله، وهم ليسوا داخلين تحت تكاليف البشر. وأبعد منه احتجاج من احتج به على جواز انتفاع الرجل بالحرير تبعًا لامرأته كالفراش واللحاف والمخدة قال: لأن الملك لا حرج عليه والنبي، ﷺ، انتفع بذلك تبعًا. وقد أبعد هذا القائل النجعة وأتى بغير دليل.

(٤)**قول** الملائكة للنبي، ﷺ، ليلة الإسراء: (مرحبًا به) أصل في استعمال هذه الألفـاظ ومناسبها عند اللقاء نحو: أهلاً وسهلاً، ومرحبًا، وكرامة، وخير مقدم، وأيمن مورد ونحوها. ووقع الاقتصار منها على لفظ مرحبًا وحدها لاقتضاء الحال لها، فإن الترحيب هو السعة، وكان قد أفضى إلى واسع الأماكن. ولم يطلق فيها سهلاً لأن معناه وطئت مكانًا سهلاً، والنبي، ﷺ، كان محمولاً.

. . .(٥)**ثم** أسري بروحه وجسده إلى المسجد الأقصى، ثم عرج به إلى فوق

---

(١) ٢٠٣ البدائع جـ٣. (٢) ٢٠٣ البدائع جـ٣. (٣) ٢٠٤ البدائع جـ٣.

(٤) ٢٠٥ البدائع جـ٣. (٥) ٤٧ الزاد جـ١.

السموات بجسده وروحه إلى الله ـ عز وجل ـ فخاطبه وفرض عليه الصلوات، وكان ذلك مرة واحدة، هذا أصح الأقوال.

وقيل: بل يقال: أسري به، ولا يقال: يقظة ولا منامًا، وقيل: كان الإسراء إلى بيت المقدس يقظة، وإلى السماء منامًا.

وقيل: كان الإسراء مرتين: مرة يقظة، ومرة مناماً.

وقيل: بل أسري به ثلاث مرات، وكان ذلك بعد المبعث بالاتفاق.

(١)**قوله** تعالى: ﴿**أسرى بعبده**﴾ دون بعث بعبده، وأرسل به، ما يفيد مصاحبته له في مسراه، فإن الباء هنا للمصاحبة، كهي في قوله هاجر بأهله وسافر بغلامه، وليست للتعدية؛ فإن أسرى يتعدى بنفسه، يقال: سري به وأسراه، وهذا لأن ذلك السري كان أعظم أسفاره ﷺ، والسفر يعتمد الصاحب؛ ولهذا كان، ﷺ، إذا سافر يقول: «**اللهم أنت الصاحب في السفر**».

فإن قيل: فهذا المعنى يفهم من الفعل الثلاثي لو قيل سرى بعبده، فما فائدة الجمع بين الهمزة والباء؟ ففيه أجوبة (أحدها) أنهما بمعنى، وإن أسري لازم كَسَرَى تقول: سرى زيد وأسرى، بمعنى واحد، هذا قول جماعة.

والثاني إن أسرى متعد ومفعوله محذوف، أي: أسري بعبده البراق. هذا قول السهيلي وغيره.

ويشهد للقول الأول قول الصديق: أسرينا ليلتنا كلها ومن الغد حتى قام قائم الظهيرة.

والجواب الصحيح أن الثلاثي المتعدي بالباء يفهم منه شيئان:

أحدهما: صدور الفعل من فاعله (الثاني) مصاحبته لما دخلت عليه الباء.

فإذا قلت سريت بزيد وسافرت به كنت قد وجد منك السري والسفر مصاحبًا لزيد فيه كما قال: ولقد سريت على الظلام بمعشر. ومنه الحديث: «**أقرع بين نسائه فأيتهن خرج سهمها خرج بها**» وأما المتعدي بالهمزة فيقتضي إيقاع الفعل بالمفعول فقط كقوله تعالى: ﴿**والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئًا**﴾

---

(١) ٢٠٢ البدائع جـ٣.

[سورة النحل: ٧٨]. ﴿وأخرجناهم من جنات وعيون﴾ [سورة الشعراء: ٥٧]. ونظائره فإذا قُرن هذا المتعدى بالهمزة أفاد إيقاع الفعل على المفعول مع المصاحبة المفهومة في الباء. ولو أتى بالثاني فُهم منه معنى المشاركة في مصدره وهو ممتنع فتأمله. أ. هـ.

...[1]**قال** القاضي: نص أحمد على أن الإسراء كان يقظة. وحكى له أن موسى بن عقبة قال: أحاديث الإسراء منام فقال: هذا كلام الجهمية. ونقل حنبل أن الرؤية منام. ونقل الأشرم وغيره أنه رآه ولا يطلق سوى ذلك. وقال أبوبكر النجار: رآه إحدى عشرة مرة بالسنة، تسع مرات ليلة المعراج حين كان يتردد بين موسى وبين ربه ـ عز وجل ـ ومرتين بالكتاب.

...[2]**وقال** ابن المبارك عن شبل عن ابن أبي نجيح عن مجاهد في قوله تعالى: ﴿إنه كان عبدًا شكورًا﴾ [سورة الإسراء، الآية: ٣]. قال: لم يأكل شيئًا إلا حمد الله عليه، ولم يشرب شرابًا قط إلا حمد الله عليه، ولم يمش مشيًا قط إلا حمد الله عليه، ولم يبطش بشيء قط إلا حمد الله عليه فأثنى الله عليه: إنه كان عبداً شكوراً.

وقال محمد بن كعب: كان نوح إذا أكل قال: الحمد لله، وإذا شرب قال: الحمد لله، وإذا لبس قال: الحمد لله، وإذا ركب قال: الحمد لله. فسماه الله عبداً شكورًا.

وقال ابن أبي الدنيا: بلغني عن بعض الحكماء قال: لو لم يعذب الله على معصيته لكان ينبغي أن لا يعصى لشكر نعمته.

...[3]**قوله** تعالى: ﴿وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه ونخرج له يوم القيامة كتابًا يلقاه منشورًا﴾ [سورة الإسراء، الآية: ١٣]. قال ابن جرير: وكل إنسان ألزمناه ما قضى له أنه عامله، وما هو صائر إليه، من شقاء أو سعادة بعمله، في عنقه لا يفارقه. وهذا ما قاله الناس في الآية، وهو ما طار له من الشقاء والسعادة، وما طار عنه من العمل، ثم ذكر عن ابن عباس قال: طائره عمله وما قدر عليه فهو ملازمه أينما كان وزائل معه أينما زال.

وكذلك قال ابن جريج، وقتادة، ومجاهد: هو عملة. زاد مجاهد: وما كتب له. وقال قتادة أيضاً: سعادته وشقاوته بعمله.

---

(١) ٣٩ البدائع جـ٤. (٢) ١٥٤ عدة الصابرين. (٣) ٦١ شفاء.

قال ابن جرير: فإن قال قائل: (فكيف قال: ألزمناه طائره في عنقه إن كان الأمر على ما وصفت ولم يقل في يديه أو رجليه أو غير ذلك من أعضاء الجسد).

قيل: إن العنق هي موضع السمات، وموضع القلائد والأطوقة، وغير ذلك مما يزين أو يشين، فجرى كلام العرب بنسبة الأشياء اللازمة سائر الأبدان إلى الأعناق، كما أضافوا جنايات أعضاء الأبدان إلى اليد، فقالوا: ذلك بما كسبت يداه، وإن كان الذي جره عليه لسانه أو فرجه فكذلك قوله: ﴿**ألزمناه طائره في عنقه**﴾. وقال الفراء: الطائر معناه عندهم العمل.

قال الأزهري: والأصل في هذا أن الله سبحانه لما خلق آدم علم المطيع من ذريته والعاصي، فكتب ما علمه منهم أجمعين، وقضى بسعادة من علمه مطيعاً، وشقاوة من علمه عاصيًا، فطار لكلٍّ ما هو صائر إليه عند خلقه وإنشائه.

وأما قوله (في عنقه) فقال أبوإسحاق: إنما يقال للشيء اللازم: هذا في عنق فلان، أي لزومه له كلزوم القلادة من بين ما يلبس في العنق.

قال أبوعلي: هذا مثل قولهم: طوقتك كذا، وقلدتك كذا، أي صرفته نحوك وألزمتك إياه. ومنه: قلده السلطان كذا، أي صارت الولاية في لزومها له في موضع القلادة ومكان الطوق.

وقيل إنما خص العنق لأن عمله لا يخلو إما أن يكون خيرًا أو شرًا، وذلك مما يزين أو يشين كالحلي والغل، فأضيف إلى الأعناق.

قالت القدرية: إلزامه ذلك وَسْمُه به، وتعليمه بعلامة يعرف الملائكة أنه سعيد أو شقي، والخبر عنه، لا أنه ألزمه العمل فجعله لازمًا له.

قال أهل السنة: هذه طريقة لكم معروفة في تحريف الكلم عن مواضعه، سلكتموها في الجسم والطبع والعقل، وهذا لا يعرفه أهل اللغة، وهو خلاف حقيقة اللفظ وما فسره به أعلم الأمة بالقرآن، ولا يعرف ما قلتموه عن أحد من سلف الأمة البتة، ولا فسر الآية غيركم به، ولا يصح حمل الآية عليه؛ فإن الخبر عنه بذلك والعلامة أعلم بها إنما حصل بعد طائره اللازم له من عمله، فلما لزمه ذلك الطائر، ولم ينفك عنه أخبر عنه بذلك وصارت عليه علامة وسمة. ونحن قد أريناكم أقوال أئمة الهدى وسلف الأمة في الطائر، فأرونا قولكم عن واحد منهم

قالـه قبلكم. وكل طائفة من أهل البدع تجر القرآن إلى بدعها وضلالها وتفسره بمذاهبها وآرائها والقرآن بريء من ذلك وبالله التوفيق.

...[١] **الناس** في هذا المقام أربعة أقسام أحدهم من لا يريد ربه ولا يريد ثوابه فهؤلاء أعداؤه حقًا وهم أهل العذاب الدائم. وعدم إرادتهم لثوابه إما لعدم تصديقهم به، وإما لإيثار العاجل عليه ولو كان فيه سخطه.

والقسم الثاني: من يريده ويريد ثوابه، وهؤلاء خواص خلقه.

قال الله تعالى: **﴿وإن كُنْتُن تُرِدْنَ الله ورسُولَهُ والدَّارَ الآخِرة، فإنَّ الله أعدَّ للمُحْسنَاتِ منكُنَّ أجْرًا عظيمًا﴾** [سورة الإسراء: الآية: ١٩].

فهذا خطابه لخير نساء العالمين، أزواج نبيه، ﷺ. وقال الله تعالى: **﴿ومن أَرَادَ الآخِرَةَ وسعىٰ لها سعيها وهومؤمن فأولئك كان سعيُهُم مشكُورًا﴾** فأخبر أن السعي المشكور: سعي من أراد الآخرة.

وأصرح منها قوله لخواص أوليائه ـ وهم أصحاب نبيه، ﷺ، ورضي عنهم في يوم أحد: **﴿منكم منْ يُريدُ الدُّنيا، ومِنكم منْ يُرِيد الآخرة﴾** [سورة آل عمران: ١٥٢].
فقسمهم إلى هذين القسمين اللذين لا ثالث لهما.

...[٢]**فأعظم** الناس خذلانًا من تعلق بغير الله، فإن ما فاته من مصالحه وسعادته وفلاحه، أعظم مما حصل له ممن تعلق به، وهو معرض للزوال والفوات. ومثل المتعلق بغير الله. كمثل المستظل من الحر والبرد ببيت العنكبوت، أوهن البيوت.

وبالجملة: فأساس الشرك وقاعدته التي بني عليها: التعلق بغير الله. ولصاحبه الذم والخذلان، كما قال تعالى: **﴿لا تَجْعَلْ مع الله إلهًا آخر فتَقْعد مذمومًا مَخْذولاً﴾** [سورة الإسراء: ٢٢]. مذمومًا لا حامد لك، مخذولاً لا ناصر لك. إذ قد يكون بعض الناس مقهورًا محمودًا كالذي قهر بباطل. وقد يكون مذمومًا منصورًا، كالذي قهر وتسلط عليه بباطل. وقد يكون محمودًا منصورًا كالذي تمكن وملك بحق. والمشرك المتعلق بغير الله أردأ الأقسام الأربعة، لا محمود ولا منصور.

---

(١) ٨١ المدارج جـ٢.　　(٢) ٤٥٨ مدارج جـ١.

. . .(١)﴿وقضى ربُّـك ألا تَعْبـدوا إلا إيـاه وبالوالدين إحسـانًا﴾ [سورة الإسراء: ٢٣]. فذكر توحيده وذكر المناهي التي نهاهم عنها والأوامر التي أمرهم بها ثم ختم الآيات بقوله: ﴿كل ذلك كان سيئه عند ربِّكَ مَكْروهًا﴾ [سورة الإسراء: ٣٨] أي أنه سيء في نفس الأمر عند الله، حتى لو لم يرد به تكليف لكان سيئه في نفسه عند الله مكروهًا له، وكراهته سبحانه له لما هو عليه من الصفة التي اقتضت أن كرهه، ولو كان قبحه إنما هو مجرد النهي لم يكن مكروهًا لله؛ إذ لا معنى للكراهة عندهم إلا كونه منهيًا عنه، فيعود قوله: ﴿كلُّ ذلك كان سيئهُ عنْدَ ربِّك مكروهًا﴾ [سورة الإسراء: ٣٨] إلى معنى كل ذلك نهى عنه عند ربك، ومعلوم أن هذا غير مراد من الآية.

وأيضا فإذا وقع ذلك منهم فهو عند النفاة للحسن والقبح محبوب لله مرضي له، لأنه إنما وقع بإرادته، والإرادة عندهم هي المحبة لا فرق بينهما، والقرآن صريح في أن هذا كله قبيح عند الله، مكروه مبغوض له، وقع أو لم يقع، وجعل سبحانه هذا البغض والقبح سببًا للنهي عنه؛ ولهذا جعله علة وحكمة للأمر؛ فتأمله والعلة غير المغلول.

...(٢)**قال** تعالى عقيب ذكر ما حرمه من المحرمات من عند قوله: ﴿وقَضَى ربُّك أن لا تَعْبُدوا إلَّا إيَّاهُ﴾ إلى قوله: ﴿فلا تَقُل لهما أفٍّ ولا تنهرهما﴾ إلى قوله: ﴿ولا تَقْتلوا أولادكم خشية إملاقٍ﴾ إلى قوله: ﴿ولا تقربُوا الزِّنا﴾ إلى قوله: ﴿ولا تقتلوا النفس التي حرَّم الله إلا بالحق﴾ إلى قوله: ﴿ولا تقربوا مالَ اليتيم﴾ إلى قولـه: ﴿ولا تَقْفُ ما ليسَ لكَ به عِلْم﴾ [سورة الإسراء: الآيات: ٢٣ - ٣٨] إلى آخر الآيات، ثم قال: ﴿كلُّ ذلك كان سيِّئُه عند ربك مكروها﴾ وفي الصحيح «إن الله عز وجل كَرِهَ لكم قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال».

فالسلف كانـوا يستعملون الكـراهـة في معنـاها الذي استعملت فيه في كلام الله ورسـولـه، ولكن المتأخرون اصطلحوا على تخصيص الكراهة بما ليس بمحـرم، وتـركُـهُ أرْجَحُ من فعله، ثم حمل من حمل منهم كلام الأئمـة على الاصطلاح الحادث، فغَلِطَ في ذلك، وأقبح غلطًا منه من حمل لفظ الكراهة أو لفظ

---

(١) ٩ مفتاح جـ٢١. (٢) ٤٣ الإعلام جـ١.

«لا ينبغي» في كلام الله ورسوله على المعنى الاصطلاحي الحادث.

وقد اطَّرد في كلام الله ورسوله استعمالُ «لا ينبغي» في المحظور شرعًا أو قدرًا، وفي المستحيل الممتنع كقوله تعالى: ﴿**وما ينبغي للرحمن أن يَتَّخِذَ وَلَدًا**﴾ [سورة مريم: الآية: ٩٢]. وقوله: ﴿**وما عَلَّمْنَاه الشِّعْرَ وما ينبغي له**﴾ [سورة يس: ٦٩] وقوله: ﴿**وما تنزَّلَتْ به الشياطينُ وما ينبغي لهم**﴾ وقوله على لسان نبيه: «**كذَّبَني ابنُ آدَمَ وما ينبغي له، وشتمني ابن آدم وما ينبغي له**» وقوله ﷺ: «**إن الله لا يَنَامُ ولا ينبغي له أن ينام**» وقوله ﷺ في لباس الحرير: «**لا ينبغي هذا للمتقين**» وأمثال ذلك.

والمقصود أن الله سبحانه حَرَّمَ القولَ عليه بلا علم في أسمائه وصفاته وأفعاله وأحكامه، والمفتي يخبر عن الله ـ عز وجل ـ وعن دينه، فإن لم يكن خبره مطابقًا لما شَرَعَه كان قائلاً عليه بلا علم، ولكن إذا اجتهدَ واستفرغ وسْعَه في معرفة الحق وأخطأ لم يلحقه الوعيد، وعفي له عما أخطأ به، وأثيب على اجتهاده، ولكن لا يجوز أن يقول لما أداه إليه اجتهاده ولم يظفر فيه بنص عن الله ورسوله أن الله حرم كذا، وأوجب كذا، وأباح كذا، وأن هذا هو حكم الله....

...[1]**فهمت** الأمة من قوله تعالى: ﴿**إن الذين يأكلون أموالَ اليتامى ظلمًا**﴾ [سورة النساء: الآية: ١٠] جميع وجوه الانتفاع من اللبس والركوب والمسكن وغيرها.

وفهمت من قوله تعالى: ﴿**فلا تقل لهما أف**﴾ [سورة الإسراء: الآية: ٢٣] إرادة النهي عن جميع أنواع الأذى بالقول والفعل، وإن لم ترد نصوص أخرى بالنهي عن عموم الأذى، فلو بَصَقَ رجل في وجْه والديه وضربهما بالنعل وقال: إني لم أقل لهما أف لَعَدَّهُ الناس في غاية السخافة والحماقة والجهل من مجرد تفريقه بين التأفيف المنهي عنه وبين هذا الفعل قبل أن يبغله نهى غيره، ومَنْعُ هذا مكابرةٌ للعقل والفهم والفطرة، فمن عرف مراد المتكلم بدليل من الأدلة وجب اتباع مراده. والألفاظ لم تقصد لذواتها، وإنما هي أدلة يستدل بها على مراد المتكلم، فإذا ظهر مراده ووضَحَ بأيِّ طريق كان: عُمِلَ بمقتضاه، سواء كان بإشارة، أو كتابة، أو بإيماءةٍ أو دلالة عقلية، أو قرينة حالية، أو عادة له مُطردة لا يُخِلُّ بها، أو من مقتضى كماله وكمال

---

(١) ٢١٨ أعلام جـ١.

أسمائه وصفاته، وأنه يمتنع منه إرادة ما هو معلوم الفساد وترك إرادة ما هو متيقن مصلحته، وأنه يستدل على إرادته للنظير بإرادة نظيره ومثله وشبهه، وعلى كراهة الشيء بكراهة مثله ونظيره ومشبهه، فيقطع العارفُ به وبحكمته وأوصافه على أنه يريد هذا ويكره هذا. ويحب هذا ويبغض هذا، وأنت تجد مَنْ له اعتناء شديد بمذهب رجل وأقواله كيف يفهم مراده من تصرفه ومذاهبه؟ ويخبر عنه بأنه يفتي بكذا، ويقوله، وأنه لا يقول بكذا ولا يذهب إليه، لما لا يوجد في كلامه صريحًا، وجميع أتباع الأئمة مع أئمتهم بهذه المَثابة.

وهذا أمر يعم أهل الحق والباطل، لا يمكن دفعه؛ فاللفظ الخاص قد ينتقل إلى معنى العموم بالإرادة، والعامُّ قد ينتقل إلى الخصوص بالإرادة، فإذا دعي إلى غَدَاء فقال: والله لا أتغدى، أو قيل له: «نم» فقال: والله لا أنام، أو «اشرب هذا الماء» فقال: والله لا أشرب، فهذه كلها ألفاظ عامة نقلت إلى معنى الخصوص بإرادة المتكلم التي يَقْطع السامعُ عند سماعها بأنه لم يرد النفيَ العام إلى آخر العمر والألفاظ ليست تعبديه...

...[1]**دين** الله بين الغالي فيه والجافي عنه، وقد قال علي بن أبي طالب ـ كرم الله وجهه ـ خير الناس النمط الأول الذين يرجع إليهم الغالي، ويلحق بهم التالي. ذكره ابن المبارك عن محمد بن طلحة عن علي. وقال ابن عائشة: ما أمر الله عباده بأمر إلا وللشيطان فيه نزغتان، فإما إلى غلو وإما إلى تقصير. وقال بعض السلف: دين الله بين الغالي فيه والجافي عنه.

وقد مدح تعالى أهل التوسط بين الطرفين المنحرفين في غير موضع من كتابه فقال تعالى: ﴿**والذين إذا أنفقوا لم يُسرِفوا ولم يَقْتُروا وكان بين ذلك قواما**﴾ [الفرقان: ٦٧]. وقال تعالى: ﴿**ولا تجعل يدك مغلولةً إلى عنقك ولا تبسُطها كل البسط فتقعد ملومًا محسورًا**﴾ [الإسراء: ٢٩]، وقال: ﴿**وآت ذا القربىٰ حقَّهُ والمسكين وابنَ السَّبيل ولا تبذر تبذيرا**﴾ [الإسراء: ٢٦]. فمنع ذا القربى والمسكين وابن السبيل حقهم انحراف في جانب الإمساك، والتبذير انحراف في جانب البذل، ورضاء

---

(١) ١١٠ الصلاة.

الله فيما بينهما، ولهذا كانت هذه الأمة أوسط، الأمم، وقبلتها أوسط القبل بين القبلتين المنحرفتين. والوسط دائمًا محمي الأطراف، [أما الأطراف] فالخلل إليها أسرع كما قال الشاعر:

كانت هي الوسط المحمي فاكتنفت　　بها الحوادث حتى أصبحت طرافا

فقد اتفق شرع الرب تعالى وقدره على أن خيار الأمور أوساطها.

فصل[1]

والفرق بين الجود والسرف أن الجواد حكيم يضع العطاء مواضعه، والمسرف مبذر، قد يصادف عطاؤه موضعه، وكثيرًا لا يصادفه. وإيضاح ذلك أن الله سبحانه بحكمته جعل في المال حقوقًا، وهي نوعان: حقوق موظفة وحقوق ثانية

فالحقوق الموظفة كالزكاة، والنفقات الواجبة على من تلزمه نفقته.

والثانية: كحق الضيف ومكافأة المهدي، وما وقى به عرضه ونحو ذلك. فالجواد يتوخى بماله أداء هذه الحقوق على وجه الكمال، طيبة بذلك نفسه، راضية مؤملة للخلف في الدنيا والثواب في العقبى، فهو يخرج ذلك بسماحة قلب، وسخاوة نفس، وانشراح صدر، بخلاف المبذر فإنه يبسط يده في ماله بحكم هواه وشهوته، جزافًا لا على تقدير، ولا مراعاة مصلحة وإن اتفقت له. فالأول بمنزلة من بذر حبة في الأرض تنبت، وتوخى ببذره مواضع المغل والإنبات، فهذا لا يعد مبذرًا ولا سفيهًا. والثاني بمنزلة من بذر حبه في سباخ وعزاز من الأرض وإن اتفق بذره في محل النبات، بذر بذرًا متراكمًا بعضه على بعض، فذلك المكان البذر فيه ضائع معطل، وهذا المكان بذر بذرًا متراكمًا بعضه على بعض، فلذلك يحتاج أن يقلع بعض زرعه ليصلح الباقي ولئلا تضعف الأرض عن تربيته.

والله سبحانه هو الجواد على الإطلاق، بل كل جود في العالم العلوي والسفلي بالنسبة إلى جوده أقل من قطرة في بحار الدنيا، وهي من جوده، ومع هذا فإنما ينزل بقدر ما يشاء. وجوده لا يناقض حكمته، ويضع عطاءه مواضعه وإن خفي على أكثر الناس أن تلك مواضعه، فالله يعلم حيث يضع فضله وأي المحال أولى به[2].

---

(١) ٢٨٦ الروح.　(٢) ذكر ابن القيم في آخر كتاب الروح فروقًا كثيرة عن علم وتحقيق يحسن الرجوع إليها(ج).

...[1]**وسأله** ﷺ رجل فقال: إني ذو مال كثير، وذو أهل وولد وحاضرة، فأخبرني كيف أنفق؟ وكيف أمنع؟ فقال: «**تخرج الزكاة من مالك، فإنها طهرَة تطهرك، وتَصِلُ بها رحمك وأقاربك، وتعرف حق السائل والجار والمسكين**». فقال: يارسول الله أقلل في، قال: ﴿**فآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيرًا**﴾ فقال: حسبي، وقال: يارسول الله إذا أديت الزكاة إلى رسولك فقد برئت منها إلى الله ورسوله؟ قال رسول الله ﷺ: «**نعم، إذا أديتها إلى رسولي فقد برئت منها، ولك أجرها، وإثمها على من بَدَّلها**» [ذكره أحمد].

وسئل ﷺ عن الصدقة على أبي رافع مَوْلاه، فقال: «**إنا آلَ محمدٍ لا تحل لنا الصدقة، وإن مولى القوم من أنفسهم**» [ذكره أحمد].

وسأله ﷺ عمر عن أرضه بخيبر، واستفتاهُ ما يصنعَ فيها، وقد أراد أن يتقرب بها إلى الله، فقال: «**إن شئت حبست أصلها وتصدَّقت بها**» ففعل. وتصدق عبدُ الله بن زيد بحائط له، فأتاه أبَوَاه فقالا: يارسول الله إنها كانت قيم وجوهنا، ولم يكن لنا مال غيره، فدعا عبدالله فقال: «**إن الله قد قبل منك صدقتك، ورَدَّها على أبَوَيْكَ**» فتوارثاها بعد ذلك، [ذكره النسائي].

وسئل ﷺ: أي الصدقة أفضل؟ فقال: «**المنيحة، أن يمنح أحدُكم الدرهم أو ظهرَ الدابة أو لبن الشاة أو لبن البقرة**» [ذكره أحمد].

وسئل ﷺ مرة عن هذه المسألة، فقال: «**جُهدُ المُقِل، وابْدَأ بمن تعول**» [ذكره أبوداود].

...[2]**وقد** قال تعالى: ﴿**ولاتَقْرَبوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلاً**﴾ [الإسراء: ٣٢]. فأخبر عن فحشه في نفسه، وهو القبيح الذي قد تناهى قبحه، حتى استقر فحشه في العقول، حتى عند كثير من الحيوانات كما ذكر البخاري في صحيحه عن عمر بن ميمون الأودي قال: رأيت في الجاهلية قردًا زنى بقردة، فاجتمع القرود عليهما فرجموهما حتى ماتا. ثم أخبر عن غايته بأنه ساء سبيلاً، فإنه سبيل هلكة وبوار وافتقار في الدنيا، وسبيل عذاب في الآخرة وخزي ونكال. ولما

---

(١) ٢٩٠ الإعلام جـ٤. (٢) ٢٠٢ الجواب.

كان نكاح أزواج الآباء من أقبحه خصه بمزيد ذم فقال: ﴿**إنه كان فاحشةً ومقتًا وساء سبيلاً**﴾ [النساء: ٣٢] وعلق سبحانه فلاح العبد على حفظ فرجه منه فلا سبيل له إلى الفلاح بدونه فقال ﴿**قد أفلح المؤمنون الذينَ هُم في صلاتِهم خاشعون ـ إلى قوله ـ فَمَن ابتَغَىٰ وراء ذلك فأولئك هم العادُونَ**﴾ [المؤمنون: ١ ـ ٧] وهذا يتضمن ثلاثة أمور: من لم يحفظ فرجه لم يكن من المفلحين، وأنه من الملومين، ومن العادين. ففاته الفلاح، واستحق اسم العدوان، ووقع في اللوم، فمقاساة ألم الشهوة ومعاناتها أيسر من بعض ذلك.

(١)ارتكاب سبيلي الحرام وما يفضي إليه من المفاسد والآلام

حقيق بكل عاقلٍ أن لا يسلك سبيلاً حتى يعلم سلامتها وأمانها وما توصل إليه تلك الطُريق من سلامةٍ أو عطب، وهذان السبيلان هلاك الأوَّلين والآخرين بهما، وفيهما من المعاطب والمهالك ما فيهما، ويُفضيان بصاحبهما إلى أقبح الغايات وشر موارد الهلكات، ولهذا جعل الله سبحانه وتعالى سبيل الزنى شرَّ سبيل فقال تعالى: ﴿**ولا تقربوا الزنى إنه كان فاحشةً وساء سبيلاً**﴾ [الإسراء: ٣٢].

فإذا كانت هذه سبيل الزنى فكيف سبيل اللواط التي تَعْدِل الفَعْلة منه في الإثم والعقوبة أضعافها وأضعاف أضعافها من الزنى؟ كما ستقف عليه إن شاء الله تعالى.

فأما سبيل الزنى فأسوأ سبيل، ومقيل أهلها في الجحيم شرُّ مَقيل، ومستقرُّ أرواحهم في البرزخ في تنور من نار يأتيهم لهبها من تحتهم: فإذا أتاهم اللهب ضجوا وارتفعوا، ثم يعودون إلى موضعهم، فهم هكذا إلى يوم القيامة كما رآهم النبي ﷺ في منامه ورؤيا الأنبياء [وحيٌّ] لا شك فيها...

...(٢)**وقال** أبونعيم الفضل بن دُكين: حدثنا عبدالسلام بن شداد، عن غزوان بن جرير، عن أبيه أنهم تذاكروا عند علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ الفواحش فقال لهم: هل تدرون أي الزنى أعظم؟ قالوا: يا أمير المؤمنين كله عظيم قال: ولكن سأُخبركم بأعظم الزنى عند الله، هو أن يزني الرجل بزوجة الرجل

---

(١) ٣٧٧ الروضة. (٢) ٣٨٢ الروضة.

المسلم فيصير زانيًا، وقد أفسد على الرجل زوجته. ثم قال عند ذلك: إن الناس يُرْسَل عليهم يوم القيامة ريحٌ منتنةٌ حتى يتأذى منها كلُّ بر وفاجرٍ، حتى إذا بلغت منهم كل مبلغ وأَلَمَّت أن تمسك بأنفاس الأمم كلهم ناداهم منادٍ يُسمعهم الصوت ويقول لهم: هل تدرون ما هذه الريحُ التي قد آذتكم؟ فيقولون لا ندري والله إلا أنها قد بلغت منّا كل مبلغٍ، فيقال: ألا إنها ريح فروج الزُّناة الذين لقوا الله بزناهم ولم يتوبوا منه، ثم يصرف بهم، فلم يذكر عند الصرف [بهم] جنةً ولا نارًا.

وقال الخرائطي: حدثنا علي بن داود القنطري، حدَّثنا سعيد بن عفير، حدثني مسلم بن علي الخُشَني، عن أبي عبدالرحمن، عن الأعمش، عن شقيق، عن حُذَيفـة ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «**يامعشر المسلمين إياكم والزنى فإن فيه ستَّ خِصالٍ: ثلاثٌ في الدُّنيا وثلاثٌ في الآخرةِ، فأما اللواتي في الدُّنيا فذهاب البهاء، ودوام الفقر، وقصر العمر. وأما اللواتي في الآخرة [فسخطُ الله، وسوءُ الحساب]، ودُخُول النَّار**».

ويُذكر عن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال: المُقيم على الزنى كعابد وثنٍ، ورفعه بعضهم. وهذا أولى أن يُشَبَّه بعابد الوثن من مُدْمِن الخمر، وفي المسند وغيره مرفوعًا: «**مُدْمِنُ الخَمْرِ كعَابِدِ وثَنٍ**». فإن الزنى أعظمُ من شرب الخمر.

قال الإمام أحمد بن حنبل ـ رحمه الله تعالى ـ: ليس بعد قتل النفس أعظم من الزنى.

وفي الصحيحين من حديث أبي وائل عن عبدالله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: قلت يارسول الله أيُّ الذنب أعظمُ عند الله؟ قال: «**أن تَجْعَلَ لله ندًّا وهو خَلَقَكَ**» قال: قلت: ثُم أي؟ قال: «**أن تَقْتُلَ وَلَدَك مَخَافَةَ أنْ يَطْعَمَ مَعَكَ**»: قال: قلت: ثم أي؟ قال: «**أن تَزْني بحليلة جارك**» فأنزل الله تصديق ذلك في كتابه ﴿**والذين لا يَدْعُون مع الله إلـهًا آخرَ ولا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ التي حرَّمَ الله إلاَّ بالحَقِّ ولا يزْنُونَ ومَنْ يفعَل ذلك يلق أثامًا**﴾ [الفرقان: ٦٨].

وقال قتيبة بن سعيد: حدثنا ابن لهيعة عن ابن أنعمٍ عن رجل عن عبدالله ابن عمـرو ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**الزَّاني بحليلة جاره لا

ينظر الله إليه يوم القيامة ولا يزكيه ويقول له: ادخل النار مع الداخلين»[١].

وذكر سفيان بنُ عُيينة، عن جامع بن شداد، عن أبي وائل، عن عبدالله قال: إذا بُخس المكيال حبس القطر، وإذا ظهر الزنى وقع الطاعون، وإذا كثر الكذب كثر الهرج. وفي الصحيحين[٢] من حديث الأعمش، عن أبي حازم، عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**ثلاثةٌ لا يُكَلِّمُهُمْ الله يومَ القيامَةِ ولا ينظُرُ إليهم ولا يزكيهم ولهم عذابٌ أليمٌ: شيخٌ زان، وملكٌ كَذَّابٌ، وعائلٌ مستكبرٌ**» وذكر سفيان الثوري، عن منصور، عن رِبْعي بن حِرَاش، عن أبي ذَرٍّ ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ، قال: «**إن الله يُبغضُ ثلاثةً: الشيخُ الزَّاني، والمُقِل المُخْتَال، والبَخيل المَنَّان**»[٣]. وذكر الأعمش، عن خيْثَمَة، عن أبي عبدالرحمن، عن عبدالله بن عمرو ـ رضي الله عنهما ـ عن النبي ﷺ، قال: «**مثل الذي يجلس على فراشِ المغيبة مثلُ الذي ينهشُهُ الأسَاودُ يوم القيامة**»[٤]. المغيبة هي التي قد سافر زوجها في جهادٍ أو حجٍ أو غيرهما.

وفي النسائي وغيره من حديث بريدة عن النبي ﷺ قال: «**حرمة نساء المجاهدين على القاعدين كأمهاتهم، وما من رجل من القاعدين يخلُف رجلاً من المجاهدين في أهله إلا نُصِبَ له يوم القيامة فقال: يافلان هذا فلانٌ فخذ من حسناته ما شئت**» ثم التفت النبي ﷺ، إلى أصحابه فقال: «**ما ترون يدع له من حسناته شيئًا؟**» وفي لفظ: «**وإذا خلفه في أهله فخانه قيل له يوم القيامة هذا خانك في أهلك فخذ من حسناته ما شئت فما ظنكم؟**».

ويكفي في قبح الزنى أن الله سبحانه [وتعالى] مع كمال رحمته شرع فيه أفحش القتلات وأصعبها وأفضحها، وأمر أن يشهد عبادُه المؤمنون تعذيب فاعله. ومن قبحه أن الله سبحانه فطر عليه بعض الحيوان البهم الذي لا عقل له كما ذكر

---

(١) قال السيوطي: رواه الخرائطي في مساويء الأخلاق والديلمي في مسند الفردوس.

(٢) فتشت عن هذه الحديث في صحيح البخاري فلم أجده فرجعت إلى الجامع الصغير فوجدته لم يشر فيه إلى رواية البخاري بل قال: رواه مسلم والنسائي.

(٣) قال السيوطي: رواه أحمد وابن حبان والضياء المقدسي.

(٤) قال السيوطي: رواه الطبراني في الكبير والخرائطي في مساويء الأخلاق.

البخاري في صحيحه عن عمرو بن ميمون الأودي قال: رأيت في الجاهلية قردًا زنى بقردة فاجتمع عليهما القرود فرجموهما حتى ماتا وكنت فيمن رجمهما.

فصل

والزنى يجمع خلال الشر كلها: من قلة الدين، وذهاب الورع، وفساد المروءة، وقلة الغيرة، فلا تجد زانيًا معه ورعٌ، ولا وفاءٌ بعهدٍ، ولا صدقٌ في حديث، ولا محافظةٌ على صديق، ولا غيرةٌ تامة على أهله. فالغدرُ، والكذب، والخيانة، وقلةُ الحياء، وعدمُ المراقبة، وعدم الأنفة للحرم، وذهاب الغيرة من القلب، من شعَبه وموجباته. ومن موجباته غضبُ الرب بإفساد حرمه وعياله، ولو تعرّض رجلٌ إلى ملكٍ من الملوك بذلك لقابله أسوءَ مقابلة.

ومنها سوادُ الوجه وظلمته ومايعلوه من الكآبة والمقْت الذي يبدو عليه للناظرين.

ومنها ظلمة القلب وطمس نوره، وهو الذي أوجب طمس نور الوجه وغشيان الظلمة له.

ومنها الفقرُ اللازم. وفي أثر يقول الله تعالى: «**أنا الله مُهْلِكُ الطُّغاة، ومفقر الزُّناة**».

ومنها أنه يذهب حرمة فاعله، ويسقطه من عين ربه ومن أعين عباده.

ومنها أنه يسلُبه أحسن الأسماء وهو اسم العفة والبر والعدالة، ويعطيه أضدادها كاسم الفاجر والفاسق والزاني والخائن.

ومنها أنه يسلبه اسم المؤمن كما في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: «**لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن**» فسلبه اسم الإيمان المطلق، وإن لم يسلُب عنه مطلقَ الإيمان.

وسئل جعفر بن محمد عن هذا الحديث فخطّ دائرة في الأرض وقال: هذه دائرة الإيمان، ثم خط دائرة أخرى [خارجة عنها] وقال: هذه [دائرة] الإسلام، فإذا زني العبد خرج من هذه ولم يخرج من هذه. ولا يلزم من ثبوت جزء ما من الإيمان له أن يسمى مؤمنًا، كما أن الرجل يكون معه جزءٌ من العلم والفقه ولا يسمى به عالمًا فقيهًا، ومعه جزءٌ من الشجاعة والجود ولا يسمى بذلك شجاعًا ولا جوادًا، وكذلك يكون معه شيءٌ من التقوى ولا يسمى مُتَّقِيًا. ونظائره. فالصواب إجراء الحديث على ظاهره ولا يُتأوَّل بما يخالف ظاهره والله أعلم.

ومنها أن يعرّض نفسه لسكنى التنور الذي رأى النبيُّ ﷺ، فيه الزُّناة والزواني.

ومنها أنه يفارقه الطيب الذي وصف الله به أهل العفاف، ويستبدل به الخبيث الذي وصف الله به الزناة كما قال [الله] تعالى: ﴿**الخبيثات للخبيثين والخبيثون للخبيثات والطيبات للطيبين والطيبون للطيبات**﴾ [النور: ٢٦].

وقد حرم الله [الجنة] على كل خبيث، بل جعلها مأوى الطيبين ولا يدخلها إلا طيب قال الله تعالى: ﴿**الذين تتوفَّاهم الملائكة طيبين يقُولُون سلامٌ عليكم ادخلُوا الجنة بما كنتم تعملون**﴾ [النحل: ٣٢]. وقال تعالى: ﴿**وقال لهم خزنتها سلامٌ عليكم طبتم فادخلوها خالدين**﴾ [الزمر: ٧٣].

فإنما استحقوا سلامَ الملائكة ودخولَ الجنة بطيبهم، والزُّناة من أخبث الخلق، وقد جعل الله سبحانه جهنم دار الخبيث وأهله، فإذا كان يوم القيامة ميّز الخبيث من الطيب، وجعل الخبيث بعضه على بعضٍ ثم ألقاه وألقى أهله في جهنم [فلا يدخل النار] طيبٌ، ولا يدخل الجنة خبيث.

ومنها الوحشة التي يضعها الله سبحانه وتعالى في قلب الزاني، وهي نظير الوحشة التي تعلو وجهه، فالعفيف على وجهه حلاوةٌ وفي قلبه أنس، ومن جالسه استأنس به، والزاني تعلو وجهه الوحشة ومن جالسه استوحش منه[1]. . . .

...[2]**أما** بعد: فإن الله سبحانه لم يخلق خلقه سدًى هملاً، بل جعلهم موردًا للتكليف، ومحلاً للأمر والنهي، وألزمهم فهم ما أرشدهم إليه مجملاً ومفصلاً، وقسمهم إلى شقي وسعيد، وجعل لكل واحد من الفريقين منزلاً، وأعطاهم مواد العلم والعمل: من القلب، والسمع، والبصر، والجوارح، نعمة منه وتفضيلاً.

فمن استعمل ذلك في طاعته، وسلك به طريق معرفته على ما أرشد إليه ولم يبغ عنه عدولاً، فقد قام بشكر ما أوتيه من ذلك، وسلك به إلى مرضاة الله سبيلاً.

ومن استعمله في إرادته وشهواته، ولم يرع حق خالقه فيه يخسر إذا سئل عن ذلك، ويحزن حزنًا طويلاً. فإنه لابد من الحساب على حق هذه الأعضاء لقوله تعالى: ﴿**إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولاً**﴾ [الإسراء: ٣٦].

ولما كان القلب لهذه الأعضاء كالملك المتصرف في الجنود، الذي تصدر كلها

---

(١) استطرد المؤلف ـ رحمه الله ـ في ذكر مضار الزنى وعرج على مفاسد اللواط في عدة صحائف.

(٢) ٥ الإغاثة جـ١.

عن أمره، ويستعملها فيما شاء، فكلها تحت عبوديته وقهره، وتكتسب منه الاستقامة والزيغ، وتتبعه فيما يعقده من العزم أو يحله، قال النبي ﷺ: «**ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله**»(١)، فهو ملكها، وهي المنفذة لما يأمرها به، القابلة لما يأتيها من هديته، ولا يستقيم لها شيء من أعمالها حتى تصدر عن قصده ونيته. وهو المسئول عنها كلها، لأن كل راع مسئول عن رعيته: كان الاهتمام بتصحيحه وتسديده أولى ما اعتمد عليه السالكون. والنظر في أمراضه وعلاجها أهم ما تنسك به الناسكون.

ولما علم عدو الله إبليس أن المدار على القلب والاعتماد عليه، أجلب عليه بالوساوس، وأقبل بوجوه الشهوات إليه، وزين له من الأحوال والأعمال ما يصده به عن الطريق، وأمدّه من أسباب الغي بما يقطعه عن أسباب التوفيق، ونصب له من المصايد والحبائل ما إن سلم من الوقوع فيها لم يسلم من أن يحصل له بها التعويق.

فلا نجاة من مصايده ومكايده إلا بدوام الاستعانة بالله تعالى، والتعرض لأسباب مرضاته، والتجاء القلب إليه وإقباله عليه في حركاته وسكناته، والتحقق بذل العبودية الذي هو أولى ما تلبس به الإنسان ليحصل له الدخول في ضمان: ﴿**إن عبادي ليس لك عليهم سلطان**﴾ [الإسراء: ٦٥].

فهذه الإضافة هي القاطعة بين العبد وبين الشياطين، وحصولها سبب تحقيق مقام العبودية لرب العالمين، وإشعار القلب إخلاص العمل ودوام اليقين. فإذا أشرب القلب العبودية والإخلاص صار عند الله من المقربين وشمله استثناء ﴿**إلا عبادك منهمُ المخلصين**﴾ [ص: ٨٣].

...(٢)**وقال** تعالى: ﴿**قل لو كان معه آلهةٌ كما يقولون إذًا لابتغوا إلى ذي العرش سبيلا**﴾ [الإسراء: ٤٢]. قيل المعنى: لابتغوا السبيل إليه بالمغالبة والقهر، كما يفعل الملوك بعضهم مع بعض: ويدل عليه قوله في الآية الأخرى: ﴿**ولعلاَ بعضهم على بعض**﴾ قال شيخنا ـ رضي الله عنه ـ: والصحيح أن المعنى لابتغوا إليه سبيلاً بالتقرب إليه وطاعته. فكيف تعبدونهم من دونه؟ وهم لو كانوا آلهة كما يقولون

(١) رواه البخاري ومسلم عن النعمان بن بشير ـ رضي الله عنه في حديث «الحلال بين الحرام بين وبينهما أمور مشتبهات ـ الحديث».

(٢) ٢٧٥ الجواب الكافي.

لكانوا عبيدًا له. قال: ويدل على هذا وجوه: منها قوله تعالى: ﴿**أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه**﴾ [الإسراء: ٥٧]. أي هؤلاء الذين تعبدونهم من دوني هم عبادي كما أنتم عبادي، ويرجون رحمتي ويخافون عذابي، فلماذا تعبدونهم من دوني؟ الثاني أنه سبحانه لم يقل لابتغوا عليه سبيلا بل قال: ﴿**لابتغوا إليه سبيلاً**﴾.

وهذا اللفظ إنما يستعمل في القرب كقوله تعالى: ﴿**اتَّقُوا الله وابتَغُوا إليه الوسيلة**﴾ [المائدة: ٣٥]. وأما في المغالبة فإنما يستعمل بعلى كقوله: ﴿**فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا**﴾ [النساء: ٣٤].

الثالث أنهم لم يقولوا إن آلهتهم تغالبه وتطلب العلو عليه وهو سبحانه قال: ﴿**قُلْ لو كان معه آلهة كما يقولون**﴾ [الإسراء: ٤٢] وهم إنما كانوا يقولون إن آلهتهم تبتغي التقرب إليه وتقربهم زلفى إليه قال: لو كان الأمر كما تقولون لكانت تلك الآلهة عبيدًا له فلماذا تعبدون عبيده من دونه.

[(١)] **وكذلك** قوله سبحانه مقررًا برهان التوحيد أحسن التقرير وأبلغه وأوجزه ﴿**لوكان معه آلهةٌ كما يقولون إذًا لابتغوا إلى ذي العرش سبيلاً**﴾ [الإسراء: ٤٢]. فإن الآلهة التي كانوا يثبتونها معه كانوا يعترفون بأنها عبيده ومماليكه ومحتاجة إليه. فلو كانوا آلهة كما يقولون لعبدوه وتقربوا إليه وحده دون غيره، فكيف يعبدونهم دونه؟ وقد أفصح سبحانه بهذا بعينه في قوله تعالى: ﴿**أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيُّهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه**﴾ أي هؤلاء الذين تعبدونهم من دوني هم عبيدي كما أنتم عبيدي، يرجون رحمتي ويخافون عذابي، فلماذا تعبدونهم من دوني؟

[(٢)] (**الأمر** الثامن) أنه غير ممتنع أن ترد الروح إلى المصلوب والغريق والمحرق ونحن لا نشعر بها؛ لأن ذلك الرد نوع آخر غير المعهود فهذا المغمى عليه والمسكوت والمبهوت أحياء وأرواحهم معهم ولا نشعر بحياتهم، ومن تفرقت أجزاؤه لا يمتنع على من هو على كل شيء قدير أن يجعل للروح اتصالاً بتلك الأجزاء على تباعد ما بينها وقربه

---

(١) ٩٥ الصواعق جـ١. (٢) ٨٨ الروح.

ويكون في تلك الأجزاء شعور بنوع من الألم واللذة. وإذا كان الله سبحانه وتعالى قد جعل في الجمادات شعورًا وإدراكًا تسبح ربها به، وتسقط الحجارة من خشيته، وتسجد له الجبال والشجر، وتسبحه الحصى والمياه والنبات قال تعالى: ﴿**وإن من شيء ألا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم**﴾ [الإسراء: ٤٤].

ولو كان التسبيح هو مجرد دلالتها على صانعها لم يقل: ﴿**ولكن لا تفقهون تسبيحهم**﴾ [الإسراء: ٤٤]. فإن كل عاقل يفقه دلالتها على صانعها.

وقال تعالى: ﴿**إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشي والإشراق**﴾ [ص: ١٨]. والدلالة على الصانع لا تختص بهذين الوقتين.

وكذلك قوله تعالى: ﴿**يا جبالُ أوبي معه**﴾ [سبأ: ١٠]. والدلالة لا تختص معيته وحده. وكذب على الله من قال: التأويب رجع الصدى؛ فإن هذا يكون لكل مصوت.

وقال تعالى: ﴿**ألم تر أن الله يسجد له من في السموات ومن في الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدَّواب وكثير من الناس**﴾ [الحج: ١٨] والدلالة على الصانع لا تختص بكثير من الناس.

وقد قال تعالى: ﴿**ألم تر أن الله يسبح له من في السموات والأرض والطير صافات كلٌّ قد علم صلاته وتسبيحه**﴾ [النور: ٤١]. فهذه صلاة وتسبيح حقيقة يعلمها الله وإن جحدها الجاهلون المكذبون.

وقد أخبر تعالى عن الحجارة أن بعضها يزول عن مكانه ويسقط من خشيته.

وقد أخبر عن الأرض والسماء أنهما يأذنان له، وقولهما ذلك أي يستمعان كلامه وأنه خاطبهما فسمعا خطابه وأحسنا جوابه، فقال لهما: ﴿**ائتيا طوعًا أو كرها قالتا أتينا طائعين**﴾ [فصلت: ١١]. وقد كان الصحابة يسمعون تسبيح الطعام وهو يؤكل، وسمعوا حنين الجذع اليابس في المسجد، فإذا كانت هذه الأجسام فيها الإحساس والشعور، فالأجسام التي كانت فيها الروح والحياة أولى بذلك، وقد أشهد الله سبحانه عباده في هذه الدار إعادة حياة كاملة إلى بدن قد فارقته الروح فتكلم ومشى وأكل وشرب وتزوج وولد له. كـ ﴿**الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوفٌ حذر الموت فقال لهم الله موتُوا ثم أحياهم**﴾ [البقرة: ٢٤٣]. ﴿**أو كالذي مر**

على قرية وهي خاوية على عروشها قال أنى يحيى هذه الله بعد موتها فأماته الله مائة عامٍ ثم بعثه قال: كم لبثت قال لبثت يومًا أو بعض يوم﴾ [البقرة: ٢٥٥]. وكقتيل بني إسرائيل، أو كالـذين قالـوا لموسى: **﴿لن نُؤْمن لك حتى نرى الله جهرة﴾** [البقرة: ٥٥]. فأماتهم الله ثم بعثهم من بعد موتهم، وكأصحاب الكهف، وكقصة إبراهيم في الطيور الأربعة، فإذا أعاد الحياة التامة إلى هذه الأجساد بعدما بردت بالموت فكيف يمتنع على قدرته الباهرة أن يعيد إليها بعد موتها حياة ما غير مستقرة يقضي بها أمره فيها ويستنطقها بها ويعذبها أو ينعمها بأعمالها، وهل إنكار ذلك إلا مجرد تكذيب وعناد وجحود وبالله التوفيق.

(١)**وقوله: ﴿وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجابًا مستورًا﴾** [الإسراء: ٤٥]. على أصح القولين والمعنى جعلنا بين القرآن إذا قرأتـه وبينهم حجـابًـا يحول بينهم وبـين فهمه وتدبره والإيمان به، ويبينه قوله: **﴿وجعلنا على قلوبهم أكنَّة أن يفقهوه وفي آذانهم وقرًا﴾** [الإسراء: ٤٦].

وهذه الثلاثة هي الثلاثة المذكورة في قوله: **﴿وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه وفي آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب﴾** [فصلت: ٦٥].

فأخبر سبحانه أن ذلك جعله، فالحجاب يمنع رؤية الحق، والأكنة تمنع من فهمه، والوقر يمنع من سماعه.

وقـال الكلبي: الحجـاب ههنا مانع يمنعهم من الوصول إلى رسول الله بالأذى من الرعب ونحوه مما يصدهم عن الإقدام عليه، ووصفه بكونه مستورًا فقيل بمعنى ساتر، وقيل على النسب أي ذو ستر.

والصحيح أنه على بابه أي مستورًا عن الأبصار فلا يرى. ومجيء مفعول بمعنى فاعل لا يثبت، والنسب في مفعول لم يشتق من فعله كمكان مهول أي ذي هول ورجل مرطوب أي ذي رطوبة. فأما مفعول فهو جار على فعله فهو الذي وقع عليه الفعل كمضروب ومجروح ومستور.

(٢)**قال** تعالى، حاكيًا عن اليهود: **﴿وقالوا قلوبنا غُلف﴾** [البقرة: ٨٨] وهو

---

(١) ٩٤ شفاء.　　(٢) ١٣ الإغاثة جـ١.

جمع أغلف، وهو الداخل في غلافه، كقُلْف وأقلف، وهذه الغشاوة هي الأكنة التي ضربها الله على قلوبهم، عقوبة لهم على رد الحق والتكبر عن قبوله. فهي أكنة على القلوب ووقْرٌ في الأسماع، وعمىً في الأبصار، وهي الحجاب المستور عن العيون في قوله تعالى: ﴿**وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجابًا مستورًا**﴾ ﴿**وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقرًا**﴾ [الإسراء: ٤٥، ٤٦]. فإذا ذكر لهذه القلوب تجريد التوحيد وتجريد المتابعة ولّى أصحابها على أدبارهم نفورًا.

وأشار بالقلب المنكوس ـ وهو المكبوب ـ إلى قلب المنافق، كما قال تعالى: ﴿**فما لكم في المنافقين فئتين والله أركسهم بما كسبوا**﴾ [النساء: ٨٨]. أي نكسهم وردهم في الباطل الذي كانوا فيه، بسبب كسبهم وأعمالهم الباطلة. وهذا شر القلوب وأخبثها، فإنه يعتقد الباطل حقًّا ويوالي أصحابه، والحق باطلاً ويعادي أهله، فالله المستعان.

وأشار بالقلب الذي له مادتان إلى القلب الذي لم يتمكن فيه الإيمان ولم يزهر فيه سراجه، حيث لم يتجرد للحق المحض الذي بعث الله به رسوله، بل فيه مادة منه ومادة من خلافه، فتارة يكون للكفر أقرب منه للإيمان، وتارة يكون للإيمان أقرب منه للكفر. والحكم للغالب وإليه يرجع.

...[1]**الصواب** هو الجواب الثالث وهو جواب صاحب الكشاف وغيره أن المسحور على بابه وهو من سحر حتى جن فقالوا: مسحور مثل مجنون زائل العقل لا يعقل ما يقول، فإن المسحور الذي لا يتبع هو الذي فسد عقله بحيث لا يدري ما يقول، فهو كالمجنون ولهذا قالوا فيه: ﴿**مُعلَّمٌ مجنون**﴾ [الدخان: ١٤] فأما من أصيب في بدنه بمرض من الأمراض يصاب به الناس فإنه لا يمنع ذلك من اتباعه، وأعداء الرسل لم يقذفوهم بأمراض الأبدان وإنما قذفوهم بما يحذرون به سفهاءهم من اتباعهم، وهو أنهم قد سحروا حتى صاروا لا يعلمون ما يقولون بمنزلة المجانين ولهذا قال تعالى: ﴿**انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا**

---

(١) ٢٢٥ البدائع جـ٢.

يستطيعون سبيلاً﴾ [الفرقان: ٩] مثلوك بالشاعر مرة والساحر أخرى، والمجنون مرة، والمسحور أخرى فضلوا في جميع ذلك ضلال من يطلب في تيهه وتحيره طريقًا يسلكه فلا يقدر عليه، فإنه أي طريق أخذها فهي طريق ضلال وحيرة فهو متحير في أمره لا يهتدي سبيلاً ولا يقدر على سلوكها.

فهكذا حال أعداء رسول الله ﷺ، معه حتى ضربوا له أمثالاً برأه الله منها وهو أبعد خلق الله منها، وقد علم كل عاقل أنها كذب وافتراء وبهتان.

وأما قولكم: إن سحر الأنبياء ينافي حماية الله لهم فإنه سبحانه كما يحميهم ويصونهم ويحفظهم ويتولاهم فيبتليهم بما شاء من أذى الكفار لهم ليستوجبوا كمال كرامته وليتسلى بهم من بعدهم من أممهم وخلفائهم إذا أوذوا من الناس فرأوا ما جرى على الرسل والأنبياء صبروا ورضوا وتأسوا بهم، ولتمتلىء صاع الكفار فيستوجبون ما أعد لهم من النكال العاجل والعقوبة الآجلة، فيمحقهم بسبب بغيهم وعداوتهم فيعجل تطهير الأرض منهم، فهذا من بعض حكمته تعالى في ابتلاء أنبيائه ورسله بإيذاء قومهم وله الحكمة البالغة والنعمة السابغة لا إله غيره ولا رب سواه.[1]

[2]**قوله** تعالى: ﴿**قل كونوا حجارة أو حديدًا أو خلقًا مما يكبر في صدوركم**﴾ أي إن كنتم كما تزعمون لا تبعثون بعد الموت خلقًا جديدًا، فكونوا خلقًا لا يفنى ولا يبلى، إما من حجارة أو من حديد أو أكبر من ذلك. ووجه الملازمة ما تقدم ذكره، وهو إما أن تقروا بأن لكم ربًا متصرفًا فيكم، ومالكًا لكم، تنفذ فيكم مشيئته وقدرته، يميتكم إذا شاء ويحييكم إذا شاء. فكيف تنكرون قدرته على إعادتكم خلقًا جديدًا بعدما أماتكم، وإما أن تنكروا أن يكون لكم رب قادر قاهر مالك، نافذ المشيئة فيكم، والقدرة فيكم. فكونوا خلقًا لا يقبل الفناء والموت، فإذا لم تستطيعوا أن تكونوا كذلك فما تنكرون من قدرة من جعلكم خلقًا يموت ويحيا، أن يحييكم بعدما أماتكم؟ فهذا استدلال بعجزهم من كونهم خلقًا لا يموت، والذي في الواقعة استدلال بعجزهم عن رد الروح إلى مكانها إذا قاربت الموت،

---

(١) هذا نهاية بحث مطول في تفسير المعوذتين حول السحر وفي وصف السحر الذي حصل للنبي ﷺ وغيره. (ج).

(٢) ١٥٠ التبيان.

وليس بعد هذا الاستدلال إلا الإذعان والانقياد أو الكفر والعناد.

[1]**قوله** تعالى: ﴿**أإذا كنا عظامًا ورفاتًا أإنا لمبعوثون خلقًا جديدًا. قل كونوا حجارة أو حديدًا أو خلقًا مما يكبر في صدوركم فسيقولون من يعيدنا قل الذي فطركم أول مرة فسينغضون إليك رءوسهم ويقولون متى هو قل عسى أن يكون قريبا. يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده وتظنون إن لبثتم إلا قليلاً**﴾ [الإسراء: ٤٩ - ٥٢]. فتأمل ما أجيبوا به عن كل سؤال على التفصيل فإنهم قالوا: ﴿**أإذا كنا عظامًا ورفاقًا أإنَّا لمبعثون خلقًا جديدًا**﴾ فقيل لهم في جواب هذا السؤال: إن كنتم تزعمون أن لا خالق لكم ولا رب، فهلا كنتم خلقًا لا يصيبه التعب كالحجارة والحديد، وما هو أكبر في صدوركم من ذلك، فإن قلتم: لنا رب خالق خلقنا على هذه الصفة وأنشأنا هذه النشأة التي لا تقبل البقاء ولم يجعلنا حجارة ولا حديدًا فقد قامت عليكم الحجة بإقراركم، فما الذي يحول بين خالقكم ومنشئكم وإعادتكم خلقًا جديدًا.

وللحجة تقرير آخر وهو، أنكم لو كنتم من حجارة أو حديد أو خلق أكبر منها لكان قادرًا على أن يفنيكم ويحيل ذواتكم وينقلها من حال إلى حال، ومن قدر على التصرف في هذه الأجسام مع صلابتها وشدتها بالإفناء والإحالة، فما يعجزه عن التصرف فيما هو دونها بافنائه وإحالته ونقله من حال إلى حال؟ فأخبر سبحانه أنهم يسألون سؤالاً آخر بقولهم من يعيدنا إذا استحالت أجسامنا وفنيت؟ فأجابهم بقوله: ﴿**قل الذي فطركم أول مرة**﴾ [الإسراء: ٥١] وهذا الجواب نظير جواب قول السائل: ﴿**من يحيى العظام وهي رميم**﴾ [يسٓ: ٧٨] فلما أخذتهم الحجة ولزمهم حكمها انتقلوا إلى سؤال آخر يتعللون به كما يتعلق المقطوع بالحجاج بذلك وهو قولهم: ﴿**متى هو؟**﴾ فأجيبوا بقوله: ﴿**عسى أن يكون قريبًا. يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده وتظنون إن لبثتم إلا قليلاً**﴾ [الإسراء: ٥١، ٥٢].

[2]**قوله** تعالى: ﴿**وقالوا: أإذا كنا عظامًا ورفاتًا أئنا لمبعوثون خلقًا جديدًا**﴾ فردَّ عليهم سبحانه ردًا يتضمن الدليل القاطع على قدرته على إعادتهم خلقًا جديدًا فقال: ﴿**قل كونوا حجارةً أو حديدًا. أو خلقًا مما يكبُرُ في صدوركم فسيقولون**

---

(١) ١٠٢ الصواعق جـ١. (٢) ١٤٣ الإعلام جـ١.

مَنْ يُعيدنا قُل الذي فطركم أول مرة﴾ [الإسراء: ٥٠، ٥١]. فلما استبعدوا أن يعيدهم الله خلقًا جديدًا بعد أن صاروا عظامًا ورفاتًا قيل لهم: كونوا حجارة أو حديدًا أو خلقًا مما يكبر في صدوركم، سواء كان الموت أو السماء أو الأرض أو أي خلق استعظمتموه وكبر في صدوركم؛ ومضمُون الدليل أنكم مربوبون مخلوقون مقهورون على ما يشاء خالقكم، وأنتم لا تقدرون على تغيير أحوالكم من خلقَة إلى خِلْقة لا تقبل الاضمحلال كالحجارة والحديد، ومع ذلك فلو كنتم على هذه الخلقة من القوة والشدة لنفذت أحكامي فيكم وقدرتي ومشيئتي، ولم تسبقوني ولم تفوتوني، كما يقول القائل لمن هو في قَبْضته: اصْعَدْ إلى السماء فإني لاحِقكَ، أي لو صعدت إلى السماء لحقتك، وعلى هذا فمعنى الآية لو كنتم حجارة أو حديدًا أو أعظم خلقًا من ذلك لما أعجزتموني ولما فتُّموني.

وقيل: المعنى كونوا حجارة أو حديدًا عند أنفسكم، أي صَوِّرُوا أنفسكم وقَدرُوها خلقًا لا يضمحلُّ ولا ينحل، فإنا سنميتكم ثم نحييكم ونعيدكم خلقًا جديدًا.

وبين المعنيين فرق لطيف، فإن المعنى الأول يقتضي أنكم لو قَدَرْتُم على نَقْل خلقتكم من حالة إلى حالة هي أشد منها وأقوى لنفذت مشيئتنا وقدرتنا فيكم ولم تعجزونا، فكيف وأنتم عاجزون عن ذلك؟.

والمعنى الثاني يقتضي أنكم صوروا أنفسكم وأنزلوها هذه المنزلة، ثم انظروا أتفوتونا وتعجزونا أم قدرتُنَا ومشيئتُنَا مُحيطة بكم ولو كنتم كذلك؟.

وهذا من أبلغ البراهين القاطعة التي لا تعرض فيها شبهة البتة، بل لا تَجِدُ العقولُ السليمة عن الإذعان والانقياد لها بُدًّا، فلما علم القوم صحة هذا البرهان وأنه ضروري انتقلوا إلى المطالبة بمن يعيدهم فقالوا: مَنْ يعيدنا؟ وهذا سواء كان سؤالًا منهم عن تعيين المعيد أو إنكارًا منهم له فهو من أقبح التعنت وأبينه، ولهذا كان جوابه: ﴿قل الذي فطركم أول مرة﴾ ولما علم القوم أن هذا جوابٌ قاطع انتقلوا إلى باب آخر من التعنت، وهو السؤال عن وقت هذه الإعادة، فأنْغَضُوا إليه رءوسهم[1]. وقالوا: متى هو؟ فقال تعالى: ﴿قل عسى أن يكون قريبًا﴾ [الإسراء: ٥١].

---

(١) يقال نغض رأسه، من باب نصر وضرب، أي تحرك، وأنغضه هو، أي حركه كالمتعجب من الشيء، ومنه قوله تعالى: ﴿فسينغضون إليك رءوسهم﴾.

فليتأمل اللبيبُ لُطْفَ موقع هذا الدليل، واستلزامه لمدلوله استلزامًا لا محيد عنه، وما تضمنه من السؤالات والجواب عنها أبلغ جواب وأصحه وأوضحه، فلله ما يفوت المعْرضين عن تدبُّر القرآن المتعوضين عنه بزبالة الأذهان ونُخَالة الأفكار.

(١)**قال الله تعالى: ﴿أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيُّهم أقرب ويرجون رحمَتَهُ ويخافُون عذابه﴾** [الإسراء: ٥٧]. فابتغاء الوسيلة إليه: طلب القرب منه بالعبودية والمحبة. فذكر مقامات الإيمان الثلاثة التي عليها بناؤه: الحب، والخوف، والرجاء. قال تعالى: **﴿من كان يَرجو لقاء الله فإن أجل الله لآتٍ﴾** [العنكبوت: ٥]. وقال: **﴿فمن كان يَرجُو لقاءَ ربه فليعمل عملاً صالحًا، ولا يشرك بعبادة ربه أحدًا﴾** [الكهف: ١١٠]. وقال تعالى: **﴿أولئك يرجون رحمة الله، والله غفور رحيم﴾** [البقرة: ٢١٨].

وفي صحيح مسلم عن جابر ـ رضي الله عنه ـ قال: سمعت رسول الله ﷺ، يقول: ـ قبل موته بثلاث ـ «**لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بربه**».

وفي الصحيح عنه ﷺ: «**يقول الله ـ عز وجل ـ: أنا عند ظن عبدي بي فليظن بي ما شاء**».

«**الرجاء**» حادٍ يحدو القلوب إلى بلاد المحبوب، وهو الله والدار الآخرة. ويطيِّب لها السير.

وقيل: هو الاستبشار بجود وفضل الرب تبارك وتعالى. والارتياح لمطالعة كرمه سبحانه. **وقيل:** هو الثقة بجود الرب تعالى.

والفرق بينه وبين «التمني» أن «التمني» يكون مع الكسل، ولا يسلك بصاحبه طريق الجد والاجتهاد. و«الرجاء» يكون مع بذل الجهد وحسن التوكل.

فالأول: كحال من يتمنى أن يكون له أرض يبذرها ويأخذ زرعها.

والثاني: كحال من يشق أرضه ويفلحها ويبذرها. ويرجو طلوع الزرع.

ولهذا أجمع العارفون على أن «الرجاء» لا يصح إلا مع العمل. . .

(٢)**قوله** «الرجاء» أضعف منازل المريدين.

---

(١) ٣٥ المدارج جـ٢.

(٢) ٤١ المدارج جـ٢.

فليس كذلك، بل هو من أجل منازلهم، وأعلاها وأشرفها. وعليه وعلى الحب والخوف مدار السير إلى الله، وقد مدح الله تعالى أهله، وأثنى عليهم. فقال: ﴿**لقد كان لكم في رسول الله أسْوة حسنة لمن كان يرجُو الله واليومَ الآخِرَ وذكر الله كثيراً**﴾ [الأحزاب: ٢١].

وفي الحديث الصحيح الإلهي عن النبي ﷺ، فيما يروي عن ربه عز وجل: «**يـاابن آدم، إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان منك ولا أبالي**» وروى الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ، قال: «**يقول الله عز وجل: أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه، إذا ذكرني في نفسه، ذكرته في نفسي. وإن ذكرني في ملأ، ذكرته في ملأ خير منهم. وإن اقترب إليَّ شبراً، اقتربت إلَيّ ذراعًا. وإن اقترب إليَّ ذراعًا اقتربت إليه باعًا. وإن أتاني يمشي أتيتـه هرولة**» [رواه مسلم].

وقـد أخبر تعالى عن خواص عباده الذين كان المشركون يزعمون أنهم يتقربون بهم إلى الله تعالى: أنهم كانوا راجين له خائفين منه. فقال تعالى: ﴿**قُل ادعوا الذين زعمتْم من دونه فلا يملكون كشفَ الضرِّ عنكم ولا تحويلاً. أولئك الذين يدعُون يبتغونَ إلى ربِّهم الوسيلة أيُّهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه إن عذاب ربِّكَ كان محذورًا**﴾ [الإسراء: ٥٦، ٥٧].

يقـول تعـالى: هؤلاء الـذين تدعونهم من دوني هم عبادي يتقربون إلي بطاعتي ويرجـون رحمتي ويخـافـون عذابي فلماذا تدعونهم من دوني فأثنى عليهم بأفضل أحوالهم ومقاماتهم من الحب والخوف والرجاء.

(١)**والكلام** على ما ذكره من وجوه(٢):

(أحدها) أن الخوف أحد أركان الإيمان والإحسان الثلاثة التي عليها مدار مقامات السالكين جميعها وهي: الخوف، والرجاء، والمحبة. وقد ذكره سبحانه في قوله: ﴿**قل ادْعُوا الذين زعمتْم من دونه، فلا يملكون كشفَ الضرِّ عنكم ولا تحويلاً. أولئك الذين يدعُون يبتغونَ إلى ربِّهم الوسيلة أيُّهم أقرب ويرجون رحمته**

---

(١) ٢٨٢ المجرتين.		(٢) هذا رد على أبي العباس.

ويخافون عذابه. إن عذاب ربِّكَ كان محذورًا﴾ [الإسراء: ٥٦، ٥٧].

فجمع بين المقامات الثلاثة، فإن ابتغاء الوسيلة إليه هو التقرب إليه بحبه وفعل مايحبه. ثم يقول: **﴿ويَرْجُونَ رحمَتَهُ ويخافونَ عذابه﴾** فذكر الحب والخوف والرجاء.

والمعنى أن الذين تدعونهم من دون الله من الملائكة والأنبياء والصالحين يتقربون إلى ربهم ويخافونه ويرجونه، فهم عبيده كما أنكم عبيده، فلماذا تعبدونهم من دونه وأنتم وهم عبيد له؟ وقد أمر سبحانه بالخوف منه في قوله: **﴿فلا تخافوهم وخافونِ إن كنتُمْ مؤْمِنين﴾** [آل عمران: ١٧٥]. فجعل الخوف منه شرطًا في تحقق الإيمان، وإن كان الشرط داخلاً في الصيغة على الإيمان فهو المشروط في المعنى، والخوف شرط في حصوله وتحققه، وذلك لأن الإيمان سبب الخوف الحاصل عليه، وحصول المسبب شرط في تحقق السبب كما أن حصول السبب موجب لحصول مسببه.

فانتفاء الإيمان عند انتفاء الخوف انتفاء للمشروط عند انتفاء شرطه.

وانتفاء الخوف عند انتفاء الإيمان انتفاء للمعلول عند انتفاء علته. فتدبره.

والمعنى: إن كنتم مؤمنين فخافوني، والجزاء محذوف مدلول عليه بالأول عند سيبويه وأصحابه، أو هو المتقدم نفسه، وهو جزاء وإن تقدم كما هو مذهب الكوفيين. وعلى التقديرين فأداة الشرط قد دخلت على السبب المقتضي للخوف وهو الإيمان. وكل منهما مستلزم للآخر. لكن الاستلزام مختلف، وكل منهما منتف عند انتفاء الآخر، لكن جهة الانتفاء مختلفة كما تقدم.

والمقصود: أن الخوف من لوازم الإيمان وموجباته فلا يتخلف عنه. وقال تعالى: **﴿فلا تخشوا الناس واخشَونِ﴾** [المائدة: ٤٤]. وقد أثنى سبحانه على أقرب عباده إليه بالخوف منه، فقال عن أنبيائه بعد أن أثنى عليهم ومدحهم: **﴿إنهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغبًا ورهبًا﴾** [الأنبياء: ٦٠] فالرغب: الرجاء والرغبة والرهب الخوف والخشية. . .

الباب الثامن عشر[1]
في ذكر أعلى درجاتهم واسم تلك الدرجة

روى مسلم في صحيحه من حديث عمرو بن العاص أنه سمع النبي ﷺ يقول: «**إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول ثم صلوا علي فإنه من صلى علي صلاة واحدة صلى الله عليه عشرًا، ثم سلوا لي الوسيلة فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله وأرجو أن أكون أنا هو، فمن سأل الله لي الوسيلة حلت عليه شفاعتي**».

وقال أحمد: أنبأنا عبدالرزاق أنبأنا سفيان عن ليث عن كعب عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «**إذا صليتم فسلوا الله لي الوسيلة قيل يارسول الله وما الوسيلة؟ قال أعلى درجة في الجنة لا ينالها إلا رجل واحد وأرجو أن أكون أنا هو**» هكذا الرواية: «**أن أكون أنا هو**» ووجهها أن تكون الجملة خبرًا عن اسم كان المستتر فيها ولا يكون «أنا» فصلاً ولاتوكيدًا بل مبتدأ.

وفي الصحيحين من حديث جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «**من قال حين يسمع النداء اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمدًا الوسيلة والفضيلة والدرجة الرفيعة وابعثه مقامًا محمودًا الذي وعدته إلا حلت له الشفاعة يوم القيامة**».

هكذا لفظ الحديث«مقامًا» بالتنكير ليوافق لفظ الآية، ولأنه لما تعين وانحصر نوعه في شخصه جرى مجرى المعرفة فوصف بما توصف به المعارف. وهذا ألطف من جعل الذي وعدته بدلاً فتأمله.

وفي المسند من حديث عمارة بن غزية عن موسى بن وردان عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «**الوسيلة درجة عند الله عز وجل ليس فوقها درجة فسلوا الله لي الوسيلة**» وذكره ابن أبي الدنيا وقال فيه: «**درجة في الجنة ليس في الجنة درجة أعلى منها فسلوا الله أن يؤتنيها على رؤوس الخلائق**».

وقال أبونعيم أنبأنا سليمان بن أحمد حدثنا أحمد بن عمرو بن مسلم الخلال حدثنا عبدالله بن عمران العابدي حدثنا فضيل بن عياض عن منصور عن إبراهيم عن الأسود عن عائشة قالت: «**جاء رجل إلى النبي ﷺ، فقال يارسول الله والله**

---

(١) ٦٢ حادي الأرواح.

إنك لأحب إلي من نفسي وإنك لأحب إلي من أهلي وأحب إلي من ولدي وإني لأكون في البيت فأذكرك فما أصبر حتى آتيك فأنظر إليك، وإذا ذكرت موتي وموتك عرفت أنك إذا دخلت الجنة رفعت مع النبيين، وإني إذا دخلت الجنة خشيت أن لا أراك، فلم يرد عليه النبي ﷺ، حتى نزل جبريل بهذه الآية: ﴿وَمَنْ يُطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصدِّيقين والشهداء والصالحين وحَسُنَ أولئك رفيقًا﴾ [النساء: ٦٩].

قال الحافظ أبوعبدالله المقدسي لا أعلم بإسناد هذا الحديث بأسًا.

وسميت درجة النبي (ﷺ) الوسيلة لأنها أقرب الدرجات إلى عرش الرحمن وهي أقرب الدرجات إلى الله، وأصل اشتقاق لفظ الوسيلة من القرب وهي فعيلة من وسل إليه إذا تقرب إليه.

قال لبيد: بلى كل ذي رأي إلى الله واسل.

ومعنى الوسيلة من الوصلة، ولهذا كانت أفضل الجنة وأشرفها، وأعظمها نورًا.

وقال صالح بن عبدالكريم: قال لنا فضيل بن عياض أتدرون لِمَ حسنت الجنة؟ لأن عرش رب العالمين سقفها.

وقال الحكم بن أبان عن عكرمة عن ابن عباس: «نور سقف مساكنكم نور عرشه».

وقال بكر: عن أشعث عن الحسن: «إنما سميت عدن لأن فوقها العرش، ومنها تفجر أنهار الجنة وللحور العدنية الفضل على سائر الحور والقربى والزلفى واحد، وإن كان في الوسيلة معنى التقرب إليه بأنواع الوسائل».

وقال الكلبي: «اطلبوا إليه القربة بالأعمال الصالحة» وقد كشف سبحانه عن هذا المعنى كل الكشف بقوله: ﴿أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب﴾. فقوله أيهم أقرب هو تفسير للوسيلة التي يبتغيها هؤلاء الذين يدعوهم المشركون من دون الله فيتنافسون في القرب منه.

ولما كان رسول الله (ﷺ) أعظم الخلق عبودية لربه وأعلمهم به وأشدهم له خشية وأعظمهم له محبة كانت منزلته أقرب المنازل إلى الله وهي أعلى درجة في الجنة وأمر النبي (ﷺ) أمته أن يسألوها له لينالوا بهذا الدعاء زلفى من الله وزيادة الإيمان

وأيضاً فإن الله سبحانه قدرها له بأسباب (منها) دعاء أمته له بها بما نالوه على

يده من الإيمان والهدى صلوات الله وسلامه عليه. وقوله: «حلت عليه يروى عليه» و«له» فمن رواه بالام فمعناه حصلت له ومن رواه بعلى فمعناه وقعت عليه شفاعتي والله أعلم.

(١) وباب هذه المعرفة والتعبد هو معرفة إحاطة الرب سبحانه بالعالم وعظمته. وأن العوالم كلها في قبضته، وأن السموات السبع والأرضين في يده كخردلة في يد العبد.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ﴾ [الإسراء: ٦٠].

وقال: ﴿والله مِنْ وَرائِهِمْ مُحِيط﴾ [البروج: ٢٠] ولهذا يقرن سبحانه بين هذين الاسمين الدالين على هذين المعنيين: اسم العلو الدال على أنه الظاهر وأنه لا شيء فوقه. واسم العظمة الدال على الإحاطة وأنه لا شيء دونه، كما قال تعالى: ﴿وهُوَ العليُّ العَظيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]. وقال تعالى: ﴿وهُو العليّ الكبيرُ﴾ [سبأ: ٢٣] وقال: ﴿ولله المَشْرِقُ والمغربُ فأينما تُولُّوا فثمَّ وجهُ الله إن الله واسعٌ عليم﴾ [البقرة: ١١٥] وهو تبارك وتعالى كما أنه العالي على خلقه بذاته فليس فوقه شيء، فهو الباطن بذاته فليس دونه شيء، بل ظهر على كل شيء فكان فوقه، وبطن فكان أقرب إلى كل شيء من نفسه، وهو محيط به حيث لا يحيط الشيء بنفسه، وكل شيء في قبضته وليس شيء في قبضة نفسه، فهذا قرب الإحاطة العامة.

وأما القرب المذكور في القرآن والسنة فقرب خاص من عابديه وسائليه وداعيه، وهو من ثمرة التعبد باسمه الباطن، قال تعالى: ﴿وإذا سَأَلَكَ عبادي عَنِّي فإنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوةَ الدَّاعِ إذا دَعانِ﴾ [البقرة: ١٨٦].

فهذا قربه من داعيه، وقال تعالى: ﴿إنَّ رحمَةَ الله قريبٌ من المُحسنين﴾ [الأعراف: ٥٦] فذكر الخبر وهو قريب عن لفظ الرحمة وهي مؤنثة إيذاناً بقربه تعالى من المحسنين، فكأنه قال: إن الله برحمته قريب من المحسنين.

وفي الصحيح عن النبي (ﷺ) قال: «أقربُ ما يَكُونُ العبدُ مِنْ ربِّه وهُو ساجِد» و «أقربُ ما يَكُونُ الرَّبُّ من عبده في جوفِ اللَّيل» فهذا قرب خاص غير قرب الإحاطة وقرب البطون. وفي الصحيح من حديث أبي موسى أنهم كانوا مع النبي (ﷺ) في سفر، فارتفعت أصواتهم بالتكبير فقال: «أيُّها النَّاس أربعوا على

---

(١) ٢٢ الهجرتين.

أنفُسِكُمْ فإنَّكم لا تدعونَ أصمَّ ولا غائباً، إنَّ الذي تدعونهُ سَميعٌ قريبٌ، أقربُ إلى أحدكُم من عُنُقِ راحلته» فهذا قربه من داعيه وذاكره، يعني فأي حاجة بكم إلى رفع الأصوات وهو لقربه يسمعها وإن خفضت، كما يسمعها إذا رفعت، فإنه سميع قريب. وهذا القرب هو من لوازم المحبة، فكلما كان الحب أعظم كان القرب أكثر.

(١)**فأخبر** سبحانه أن القرآن بصائر لجميع الناس. والبصائر جمع بصيرة، وهي فعيلة بمعنى مُفعِلة، أي مبصرة لمن تبصَّر. ومنه قوله تعالى: **﴿وَآتينا ثَمُودَ النَّاقَةَ مبصرةً﴾** [الإسراء: ٥٩]

أي مبينـة موجبة للتبصر. وفعل الإبصار يستعمل لازماً ومتعدياً. يقال: أبصرته، بمعنى أريته، أبصرته، بمعنى رأيته. فمبصرَة في الآية: بمعنى مرئية، لا بمعنى رائية، والذين ظنوها بمعنى رائية غَلِطوا في الآية، وتحيَّروا في معناها.

فإنه يقال: بَصُر به، وأبصره، فيعدى بالباء تارة، والهمزة تارة. ثم يقال: أبصرته كذا، أي أريته إياه، كما يقال: بَصَّرته به. وبَصُر هو به.

فهاهنا بَصيرة، وتَبْصِرةَ، ومُبصِرة. فالبَصيرة: المبينة التي تُبْصر، والتَّبصرةُ مصدرٌ، مثل التَّذكرة، وسُمَّي بها ما يُوجب التَّبصرة، فيقال: هذه الآية تَبصرةٌ، لكونها آلة التبصر، ومُوجبه.

فالقرآن بصـيرة وتبصرة، وهُدًى وشفاء، ورحمة، بمعنى عام، وبمعنى خاص، ولهذا يذكرُ الله سبحانه هذا وهذا، فهو هدى للعالمين، وموعظةٌ للمتقين، وهـدى للمتقين، وشفاء للعالمين، وشفاء للمؤمنين، وموعظة للعالمين، وموعظة للمتقين فهو في نفسه هدى ورحمةٌ، وشفاء وموعظة.

فمن اهتدى به واتعظ واشتفى، كان بمنزلة من استعمل الدواء الذي يحصل به الشفاء، فهو دواءٌ له بالفعل. وإن لم يستعمله، فهو دواء له بالقوة، وكذلك الهدى.

فالقرآن هدى بالفعل لمن اهتدى به، وبالقوة لمن لم يهتد به، فإنما يُهتدى به ويُرْحَم، ويتعظ المتقون الموقنون. **والهدى** في الأصل: مصدرُ هدى يهدي هُدًى.

فمن لم يعمل بعلمه لم يكن مهتديًا، كما في الأثر: «من ازداد علمًا ولم يزدد هُدى لم يزدد من الله تعالى إلا بعدًا» ولكن يسمَّى هُدًى، لأن مِنْ شأنه أن يهدىَ.

---

(١) ١٦٩ إغاثة جـ٢.

وهذا أحسن من قول من قال: إنه هُدًى، بمعنى هادٍ، فهو مَصْدَرٌ بمعنى الفاعل، كعدل بمعنى العادل، وزور بمعنى الزائر، ورجُل صومٌ أي بمعنى صائم، فإن الله سبحانه قد أخبر أنه يَهْدِي به.

فالله الهادي، وكتابه الهُدَى الذي يهْدي به على لسان رسوله ﷺ . . .

...[1]**فلما** تم خلق آدم عليه السلام في أحسن تقويم، وأكمل صورة وأجملها، وكمُلت محاسنه الباطنة، بالعلم[2] والحلم والوقار، وتولى ربه سبحانه خلقه بيده، فجاء في أحسن خلق، وأتم صورة، طوله في السماء ستون ذراعًا، قد ألبس رداء الجمال والحسن، والمهابة والبهاء، فرأت الملائكة منظرًا لم يشاهدوا أحسن منه ولا أجمل، فوقعوا كلهم سجودًا له، بأمر ربهم تبارك وتعالى، فشَقَّ الحسود قميصه من دُبُرٍ، واشتعلت في قلبه نيران الحسد المتين، فعارض النص بالمعقول بزعمه، كفعل أوليائه من المبطلين. وقال: **﴿أنا خيرٌ منه خلقتني من نار وخلقته من طين﴾** [الأعراف: ١٢]. فأعرض عن النص الصريح، وقابله بالرأي الفاسد القبيح. ثم أردف ذلك بالاعتراض على العليم الحكيم، الذي لا تجد العقول إلى الاعتراض على حكمته سبيلاً، فقال: **﴿أرأيتك هذا الذي كرمت علي لئن أخرتن إلى يوم القيامة لأحتنكن ذريته إلا قليلاً﴾** [الإسراء: ٦٢].

وتحت هذا الكلام من الاعتراض معنى: أخبرني، لم كرمته عليَّ؟ وغَوْرُ هذا الاعتراض: أن الذي فعلته ليس بحكمة ولا صواب، وأن الحكمة كانت تقتضي أن يسجد هو لي؛ لأن المفضول يخضع للفاضل، فلم خالفت الحكمة؟

ثم أردف ذلك بتفضيل نفسه عليه، وإزرائه به، فقال: **﴿أنا خيرٌ منهُ﴾** [الأعراف: ١٢].

ثم قرر ذلك بحجته الداحضة، في تفضيل مادته وأصله على مادة آدم عليه السلام وأصله. فأنتجت له هذه المقدمات إباءه وامتناعه من السجود، ومعصيته الرب المعبود. فجمع بين الجهل والظلم، والكِبْرِ والحسد والمعصية، ومعارضة النص بالرأي والعقل، فأهان نفسه كل الإهانة من حيث أراد تعظيمها، ووضعها

---

(١) ٢٠١ الإغاثة جـ٢.

(٢) تقدم أول البحث في سورة الأعراف. (ج).

من حيث أراد رفعتها، وأذلها من حيث أراد عزتها، وآلمها كل الألم من حيث أراد لذتها، ففعل بنفسه ما لو اجتهد أعظم أعدائه في مَضَرَّته لم يبلغ منه ذلك المبلغ. ومن كان هذا غِشُّه لنفسه، فكيف يسمع منه العاقل ويقبل، ويواليه؟ قال تعالى: ﴿وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدمَ فسجدوا إلا إبليس كان من الجن. . الآية﴾

...(١)**قوله** تعالى لأبليس: ﴿اذهب فمن تبِعَك مِنْهُم فإنَّ جهنمَ جزاؤكم جزاءً موفورًا﴾ [الإسراء: ٦٣]. أعاد الضمير بلفظ الخطاب وإن كان (من تبعك) يقتضي الغيبة؛ لأنه اجتمع مخاطب وغائب فغلب المخاطب وجعل الغائب تبعًا له، كما كان تبعًا له في المعصية والعقوبة، فحسن أن يجعل تبعًا له في اللفظ. وهذا من حسن ارتباط اللفظ بالمعنى واتصاله به. وانتصب (جزاء موفورًا) عند ابن مالك على المصدر، وعامله عنده المصدر الأول. قال: والمصدر يعمل في المصدر، تقول: عجبت من قيامك قيامًا، ويعمل فيه الفعل نحو: قام قيامًا، واسم الفاعل كقوله:

فأصبحت لا أقرب الغانيا　　　ت مزدجرًا عن هواها ازدجارًا

واسم المفعول هو مطلوب طلبًا. وبعد ففي نصب جزاء قولان آخران:

أحدهما أنه منصوب بما في معنى فإن جهنم جزاؤكم من الفعل؛ فإنه متضمن لتجازون وهو الناصب جزاء.

والثاني إنه حال وساغ وقوع المصدر حالاً ههنا لأنه موصوف. ذكر الزمخشري هذين القولين. وهذا كما تقول خذ عطاءك عطاء موفورًا.

والذي يظهر في الآية أن جزاء ليس بمصدر، وإنما هو اسم للحظ والنصيب فليس مصدر جزيته جزاء، بل هو كالعطاء والنصيب؛ ولهذا وصفه بأنه موفور أي تام لا نقص فيه. وعلى هذا فنصبه على الاختصاص، وهو يشبه نصب الصفات المقطوعة، وهذا كما قال الزمخشري وغيره في قوله تعالى: ﴿للرِّجال نصيبٌ مما تَرَكَ الوالدان والأقربُون وللنِّساءِ نصيبٌ﴾ إلى قوله: ﴿نصيبًا مفرُوضًا﴾ [النساء: ٧] قال نصبه على الاختصاص أي أعني نصيبًا مفروضًا، ويجوز أن ينتصب انتصاب المصدر المؤكد كقوله تعالى: ﴿فريضةً من الله﴾ [النساء: ١١].

---

(١) ١٨٥ البدائع جـ٤.

...[1]**وأما** المشي الواجب فالمشي إلى الجمعات والجماعات في أصح القولين لبضعة وعشرين دليلاً، مذكورة في غير هذا الموضع. والمشي حول البيت للطواف الواجب، والمشي بين الصفا والمروة بنفسه أو بمركوبه، والمشي إلى حكم الله ورسوله إذا دُعي إليه، والمشي إلى صلة رحمه، وبر والديه، والمشي إلى مجالس العلم الواجب طلبه وتعلمه، والمشي إلى الحج إذا قربت المسافة ولم يكن عليه فيه ضرر.

والحرام: المشي إلى معصية الله، وهو من رَجْلِ الشيطان. قال تعالى: **﴿وأجلب عليهم بخيلِكَ ورجلك﴾** [الإسراء: ٦٤] قال مقاتل: استعن عليهم بركبان جندك ومُشاتهم. فكل راكب وماش في معصية الله فهو من جند إبليس.

وكذلك تتعلق هذه الأحكام الخمس بالركوب أيضًا.

فواجبه: في الركوب في الغزو، والجهاد، والحج الواجب.

ومستحبه: في الركوب المستحب من ذلك، ولطلب العلم، وصلة الرحم، وبر الوالدين. وفي الوقوف بعرفة نزاع: هل الركوب فيه أفضل، أم على الأرض؟ والتحقيق: أن الركوب أفضل إذا تضمن مصلحة: من تعليم للمناسك، واقتداء به، وكان أعون على الدعاء. ولم يكن فيه ضرر على الدابة.

وحرامه: الركوب في معصية الله عز وجل.

ومكروهه: الركوب للهو واللعب، وكل ما تركُه خير من فعله.

ومباحه الركوب لما لم يتضمن فوت أجر، ولا تحصيل وزر.

فهذه خمسون مرتبة على عشرة أشياء: القلب، واللسان، والسمع، والبصر، والأنف، والفم، واليد، والرجل، والفرج، والاستواء على ظهر الدابة[2].

...[3]**الله** سبحانه خلق عباده المؤمنين وخلق كل شيء من أجلهم كما قال تعالى: **﴿ألم تروا أن الله سخر لكم ما في السموات وما في الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة﴾** [لقمان: ٢٠]. وكرمهم وفضلهم على كثير ممن خلق فقال: **﴿ولقد كرَّمنا بني آدم وحملناهم في البرِّ والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلّناهم على كثير ممَّن خلقنا تفضيلاً﴾** [الإسراء: ٧٠].

---

(١) ١٢١ المدارج جـ١. (٢) تقدم أصل هذا البحث في آخر تفسير الفاتحة(ج). (٣) ٢٤٠ الهجرتين.

[وقال] لصالحيهم وصفوتهم: ﴿إن الله اصطَفَى آدَمَ ونوحًا وآلَ إبراهيمَ وآل عمرانَ عَلَى العالَمِين﴾ [آل عمران: ٣٣]. وقال لموسى: ﴿واصطنعتُكَ لنفسي﴾ [طه: ٤١].

واتخذ منهم الخليلين، والخلة أعلى درجات المحبة.

وقد جاء في بعض الآثار: يقول تعالى: «**ابن آدم خلقتك لنفسي، وخلقت كل شيء لك، فبحقي عليك لا تشتغل بما خلقته لك عما خلقتك له**».

وفي أثر آخر يقول تعالى: «**ابن آدم خلقتك لنفسي فلا تلعب، وتكفلت برزقك فلا تتعب. ابن آدم اطلبني تجدني، فإن وجدتني وجدت كل شيء، وإن فتك فاتك كل شيء، وأنا أحب إليك من كل شيء**».

فالله سبحانه خلق عباده له، ولهذا اشترى منهم أنفسهم، وهذا عقد لم يعقده مع خلق غيرهم فيما أخبر به على لسان رسوله ﷺ، ليسلموا إليه النفوس التي خلقها له.

وهذا الشراء دليل على أنها محبوبة له، مصطفاة عنده، مرضية لديه. وقدر السلعة يعرف بجلالة قدر مشتريها وبمقدار ثمنها، هذا إذا جهل قدرها في نفسها، فإذا عرف قدر السلعة وعرف مشتريها، وعرف الثمن المبذول فيها، علم شأنها ومرتبتها في الوجود.

فالسلعة أنت، والله المشتري، والثمن جنته والنظر إلى وجهه وسماع كلامه في دار الأمن والسلام. والله لا يصطفي لنفسه إلا أعز الأشياء وأشرفها وأعظمها قيمة. وإذا كان قداختار العبد لنفسه، وارتضاه لمعرفته ومحبته، وبنى له دارًا في جواره وقربه، وجعل ملائكته خدَمه يسعون في مصالحه في يقظته ومنامه وحياته وموته.

ثم إن العبد أبق عن سيده ومالكه، معرضًا عن رضاه، ثم لم يكفه ذلك حتى خامر عليه وصالح عدوه، ووالاه من دونه وصار من جنده، مؤثرًا لمرضاته على مرضاة وليه ومالكه، فقد باع نفسه ـ التي اشتراها منه إلهه ومالكه وجعل ثمنها جنته والنظر إلى وجهه ـ من عدوه وأبغض خلقه إليه، واستبدل غضبه برضاه، ولعنته برحمته ومحبته. فأي مقت خلى هذا المخدوع عن نفسه لم يتعرض له من ربه؟.

. . . (١)**قال** الله تعالى: ﴿**ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطَّيباتِ وفَضَّلْناهم**﴾ **الآية** [الإسراء: ٧٠].

فسبحان من ألبسه خلع الكرامة كلها من العقل، والعلم، والبيان، والنطق، والشكل، والصورة الحسنة، والهيئة الشريفة، والقد المعتدل، واكتساب العلوم بالاستدلال والفكر، واقتناص الأخلاق الشريفة الفاضلة من البر والطاعة والانقياد.

فكم بين حاله وهو نطفه في داخل الرحم مستودع هناك وبين حاله والملك يدخل عليه في جنات عدن ﴿**فتَبَارَكَ الله أَحْسَنُ الخالقِينَ**﴾ [المؤمنون: ١٤].

فالدنيا قرية والمؤمن رئيسها، والكل مشغول به ساع في مصالحه، والكل قد أقيم في خدمته وحوائجه.

فالملائكة الذين هم حملة عرش الرحمن ومن حوله يستغفرون له، والملائكة الموكلون به يحفظونه، والموكلون بالقطر والنبات يسعون في رزقه ويعملون فيه.

والأفلاك مسخرة منقادة دائرة فيما فيه مصالحه، والشمس والقمر والنجوم مسخرات جاريات بحساب أزمنته وأوقاته وإصلاح رواتب أقواته.

والعالم الجوي مسخر له برياحه وهوائه وسحابه وطيره وما أودع فيه.

والعالم السفلي كله مسخر له مخلوق لمصالحه أرضه وجباله، وبحاره وأنهاره، وأشجاره وثماره، ونباته وحيوانه، وكل ما فيه. **كما** قال تعالى: ﴿**الله الذي سخَّر لكم البحرَ لتجري الفلك فيه بأمره**﴾ إلى قوله: ﴿**يتفكرون**﴾. [الجاثية: ١٢، ١٣].

وقال تعالى: ﴿**الله الذي خلقَ السموات والأرض وأنزل من السماء ماءً فأخرج به من الثمرات رزقًا لكم**﴾ [إبراهيم: ٣٢] إلى قوله ﴿**كفَّار**﴾.

فالسائر في معرفة آلاء الله وتأمل حكمته وبديع صفاته أطول باعًا وأملأ صواعًا من اللصيق بمكانه المقيم في بلد عادته وطبعه راضيًا بعيش بني جنسه، لا يرضى لنفسه إلا أن يكون واحدًا منهم يقول: لي أسوة بهم وهل أنا إلا من ربيعة أو مضر. وليست نفائس البضائع إلا لمن امتطى غارب الاغتراب، وطوف في الآفاق حتى رضي من الغنيمة بالإياب، فاستلان ما استوعره البطالون، وأنس بما استوحش منه الجاهلون.

---

(١) ٢٦٣ المفتاح جـ١.

(١) **قوله** سبحانه لنبيه محمد ﷺ: ﴿**ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئًا قليلاً**﴾ [الإسراء: ٧٤].

فالتثبيت فعله، والثبات فعل رسوله، فهو سبحانه المثبت، وعبده الثابت.

ومثله قوله: ﴿**يُثَبِّتُ الله الذين آمنوا بالقولِ الثابتِ في الحياةِ الدُّنيا وفي الآخرةِ ويُضلُّ الله الظالمينَ ويفعلُ الله ما يشاءُ**﴾ [إبراهيم: ٢٧].

فأخبر سبحانه أن تثبيت المؤمنين وإضلال الظالمين فعله فإنه يفعل ما يشاء.

وأما الثبات والضلال فمحض أفعالهم.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿**فبما نَقْضِهم ميثَاقَهم لعنَّاهُم وجَعَلنا قُلُوبَهُم قاسية يُحرِفُونَ الكلِمَ عن مواضِعِه**﴾ [المائدة: ١٣].

فأخبر أنه هو الذي قسى قلوبهم حتى صارت قاسية. فالقساوة وصفها وفعلها، وهي أثر فعله، وهو جعلها قاسية وذلك أثر معاصيهم ونقضهم ميثاقهم وتركهم بعض ما ذكروا به. فالآية مبطلة لقول القدرية والجبرية.

...(٢) **فأكمل** الخلق أكملهم عبودية، وأعظمهم شهودًا لفقره وضرورته وحاجته إلى ربه وعدم استغنائه عنه طرفة عين.

ولهذا كان من دعائه ﷺ «أصلح لي شأني كله، ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين، ولا إلى أحد من خلقك» وكان يدعو «يامقلب القلوب ثبت قلبي على دينك»، يعلم ﷺ أن قلبه بيد الرحمن عز وجل لا يملك منه شيئًا، وأن الله سبحانه يصرفه كما يشاء، كيف وهو يتلو قوله تعالى: ﴿**وَلَوْلا أَنْ ثَبَّتنَاكَ لَقَدْ كِدْت تَرْكَنُ إليهم شيئًا قليلاً**﴾ [الإسراء: ٧٤] فضرورته ﷺ إلى ربه وفاقته إليه بحسب معرفته به، وحسب قربه منه ومنزلته عنده.

وهذا أمر إنما بدا منه لمن بعده ما يرشح من ظاهر الوعاء، ولهذا كان أقربَ الخلق إلى الله وسيلة، وأعظمهم عنده جاهًا، وأرفعهم عنده منزلة، لتكميله مقام العبودية والفقر إلى ربه.

وكان يقول لهم: «**أيها الناس، ماأحِبُّ أن تَرفعوني فوق منزلتي إنما أنا عبد**».

---

(١) ٥٩ شفاء. (٢) ١٠ الهجرتين.

وكان يقول «**لا تطروني كما أطرت النصارى المسيح ابن مريم إنما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله**».

وذكره الله سبحانه بسمة العبودية في أشرف مقاماته، مقام الإسراء ومقام الدعوة ومقام التحدي فقال: ﴿**سبحان الذي أسْرَى بعبده ليلا**﴾ [الإسراء: ١]. وقال: ﴿**وأنه لما قام عبدُ الله يدعُوه**﴾ [الجن: ١٩]. وقال: ﴿**وإن كنتُم في رَيَبٍ مما نزلنا على عَبْدِنا**﴾ [البقرة: ٢٣]. وفي حديث الشفاعة: «**أن المسيح يقولُ لهم اذهبوا إلى محمد عبد غفر الله له ما تقدَّم من ذنبه وما تأخَّرَ**»، فنال ذلك المقام بكمال عبوديته وبكمال مغفرة الله له.

(١)**فإن** قيل: قد ذكرتم: أن المحب يسامح بما لا يسامح به غيره. ويعفي للولي عما لا يعفي لسواه. وكذلك العالم أيضًا، يغفر له ما لا يغفر للجاهل. كما روى الطبراني بإسناد جيد ـ مرفوعًا إلى النبي ﷺ ـ: «**إن الله ـ سبحانه ـ إذاجمع النـاس يوم القيـامة في صعيد واحد قال للعلماء: إني كنت أعبد بفتواكم، وقد علمت أنكم كنتم تخلطون كما يخلط الناس، وإني لم أضع علمي فيكم وأنا أريد أن أعذبكم، اذهبوا فقد غفرت لكم**» هذا معنى الحديث. وقد روي مسندًا ومرسلاً.

فهذا الذي ذكرتم صحيح. وهو مقتضى الحكمة والجود والإحسان، ولكن ماذا تصنعون بالعقوبة المضاعفة التي ورد التهديد بها في حق أولئك إن وقع منهم ما يكره؟ كقوله تعالى: ﴿**يا نساء النبي من يأت منكن بفاحشة مبينة يضاعَفْ لها العذابُ ضِعْفين**﴾ [الأحزاب: ٣٠] وقوله تعالى: ﴿**ولولا أن ثبتناك لقد كِدْت تركن إليهم شيئًا قليلاً * إذًا لأذقناك ضِعْف الحياة وضعف المَمات. ثم لا تجد لك علينا نصيراً**﴾ [الإسراء: ٧٤، ٧٥]. أي لولا تثبيتنـا لك لقـد كدت تركن إليهم بعض الشيء. ولـو فعلت لأذقنـاك ضعف عذاب الحياة وضعف عذاب المـمات، أي ضاعفنا لك العذاب في الدنيا والآخرة. . . .

...(٢)**قال** تعالى: ﴿**أقم الصلاة لدلوك الشَّمسِ**﴾ فليست اللام بمعنى «في» قطعًا بل قيل: إنها لام التعليل، أي لأجل دلوك الشمس.

---

(١) ٣٣٣ المدارج جـ١

(٢) يراجع فيه الشيخ علي

وقيل : إنها بمعنى «بعد» فإنه ليس المراد إقامتها وقت الدلوك. سواء فسر بالزوال أوالغروب. وإنما يؤمر بالصلاة بعد الدلوك.

(١)**قوله** تعالى: **﴿وقُرْآن الفجرِ إن قرآن الفجر كان مشهُودًا﴾** [الإسراء: ٧٨] قيل: يشهده الله ـ عز وجل ـ وملائكته. وقيل: يشهده ملائكة الليل وملائكة النهار، فيتفق نزول هؤلاء البدل عند صعود أولئك فيجتمعون في صلاة الفجر، وذلك لأنها هي أول ديوان النهار وآخر ديوان الليل فيشهدها ملائكة الليل والنهار.

واحتج لهذا القول بما في الصحيح من حديث الزهري عن أبي سلمة عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**فضل صلاة الجميع على صلاة الواحد خمس وعشرون درجة**» ويجتمع ملائكة الليل وملائكة النهار في صلاة الفجر لقول أبي هريرة: واقرأوا إن شئتم: **﴿وقُرْآن الفَجْرِ إنَّ قُرْآن الفَجْرِ كان مَشْهُودا﴾** [رواه البخاري في الصحيح].

قال أصحاب القول الأول: وهذا لا ينافي قولنا وهو أن يكون الله سبحانه وملائكة الليل والنهار يشهدون قرآن الفجر، وليس المراد الشهادة العامة فإن الله على كل شيء شهيد، بل المراد شهادة خاصة وهي شهادة حضور ودنوّ متصل بدنو الرب ونزوله إلى سماءالدنيا في الشطر الأخير من الليل.

وقد روى الليث بن سعد حدثني زيادة بن محمد بن كعب القرظي عن فضالة بن عبيد الأنصاري عن أبي الدرداء عن رسول الله ﷺ قال: «**إن الله ـ عز وجل ـ ينزل في ثلاث ساعات يبقين من الليل، فيفتح الذكر في الساعة الأولى الذي لم يره غيره فيمحو الله ما يشاء ويثبت، ثم ينزل في الساعة الثانية إلى جنة عدن وهي داره التي لم ترها عين ولم تخطر على قلب بشر وهي مسكنه لا يسكنها معه من بني آدم غير ثلاث وهم النبيون والصديقون والشهداء، ثم يقول: طوبى لمن دخلك. ثم ينزل في الساعة الثالثة إلى سماء الدنيا بروحه وملائكته فتنتفض فيقول: قومي بعزتي. ثم يطلع إلى عباده فيقول: هل من مستغفر فاغفر له؟ ألا من سائل يسألني فأعطيه؟ ألا داع يدعوني فأجيبه؟ حتى تكون صلاة الفجر**»

---

(١) ٢١٢ المجرتين.

ولـذلك يقول الله ـ عز وجل ـ: ﴿وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهودًا﴾ يشهده الله ـ عز وجل ـ وملائكته ملائكة الليل والنهار(١).

ففي هذا الحديث أن النزول يدوم إلى صلاة الفجر.

وعلى هذا فيكون شهود الله سبحانه لقرآن الفجر مع شهود ملائكة الليل والنهار له.

وهذه خاصة بصلاة الصبح ليست لغيرها من الصلاة، وهذا لا ينافي دوام النزول في سائر الأحاديث إلى طلوع الفجر ولاسيما وهومعلق في بعضها على انفجار الصبح، وهو اتساع ضوئه.

وفي لفظ: «حتى يضيء الفجر» وفي لفظ: «حتى يسطع الفجر»، وذلك هو وقت قراءة الفجر، وهذا دليل على استحباب تقديمها مع مواظبة النبي ﷺ، وخلفائه الراشدين على تقديمها في أول وقتها، فكان النبي ﷺ يقرأ فيها بالستين إلى المائة، ويطيل ركوعها وسجودها، وينصرف منها والنساء لا يعرفن من الغلس، وهذا لا يكون إلا مع شدة التقديم في أول الوقت لتقع القراءة في وقت النزول فيحصل الشهود المخصوص.

مع أنه قد جاء في بعض الأحاديث مصرحًا به دوام ذلك إلى الانصراف من صلاة الصبح رواه الدارقطني في «كتاب نزول الرب كل ليلة إلى سماء الدنيا» من حديث محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ، قال: **«ينزل الله ـ عز وجل ـ إلى سماء الدنيا لنصف الليل الآخر أو الثلث الآخر يقول: من ذا الـذي يدعوني فأستجيب له؟ من ذا الذي يسألني فأعطيه؟ من ذا الذي يستغفرني فأغفر له؟ حتى يطلع الفجر أو ينصرف القاريء من صلاة الصبح»** رواه عن محمد جماعة: منهم سليمان بن بلال، وإسماعيل بن جعفر، والدراوردي، وحفص بن غياث، ويزيد بن هارون، وعبدالوهاب بن عطاء، ومحمد بن جعفر، والنضر بن شميل كلهم قال: **«أو ينصرف القاريء من صلاة الفجر»**. **فإن كانت هذه اللفظة محفوظة عن النبي ﷺ، فهي صريحة في المعنى كاشفة للمراد.**

---

(١) يأتي قريبًا بحث مكمل لهذا. (ج)

وإن لم تكن محفوظة وكانت من شك الراوي هل قال هذا أو هذا فقد قدمنا أنه لا منافاة بين اللفظين، وأن حديث الليث بن سعد عن محمد بن زياد يدل على دوام النزول إلى وقت صلاة الفجر، وأن تعليقه بالطلوع لكونه أول الوقت الذي يكون فيه الصعود، كما رواه يونس بن أبي إسحق عن أبيه عن الأغر أبي مسلم قال: شهدت على أبي هريرة وأبي سعيد الخدري أنهما شهدا على النبي ﷺ، أنه قال: «**إن الله عز وجل يمهل، حتى إذا كان ثلث الليل هبط إلى هذه السماء ثم أمر بأبواب السماءففتحت ثم قال: هل من سائل فأعطيه؟ هل من داع فأجيبه؟ هل من مستغفر فأغفر له؟ هل من مستغيث أغيثه؟ هل من مضطر أكشف عنه؟ فلا يزال ذلك مكانه حتى يطلع الفجر في كل ليلة من الدنيا، ثم يصعد إلى السماء**» قال الدارقطني: فزاد فيه يونس بن أبي إسحق زيادة حسنة. والمقصود ذكر القرب من الإمام في صلاة الفجر وتقديمها في أول وقتها. والله أعلم.

فصل(١)

وكان ﷺ لا يعين في الصلاة سورة بعينها لا يقرأ إلا بها، إلا في الجمعة والعيدين، وأما في سائر الصلوات فقد ذكر أبوداود من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أنه قال: «**ما من المفصل سورة صغيرة ولا كبيرة إلا وقد سمعت** رسول الله ﷺ **يؤم الناس بها في الصلاة المكتوبة**».

وكان من هديه قراءة السورة كاملة، وربما قرأها في الركعتين، وربما قرأ أول السورة.

وأما قراءة أواخر السور وأوساطها: فلم يحفظ عنه.

وأما قراءة السورتين في ركعة: فكان يفعله في النافلة. وأما في الفرض فلم يحفظ عنه.

وأما حديث ابن مسعود رضي الله عنه: «إني لأعرف النظائر التي كان رسول الله ﷺ يقرن بينهن السورتين في الركعة: الرحمن والنجم في ركعة، واقتربت والحاقة في ركعة، والطور والذاريات في ركعة، وإذا وقعت ون في ركعة ـ الحديث» فهذا

---

(١) ١١١ الزاد جـ١.

حكاية فعل لم يعين محله: هل كان في الفرض أو في النفل؟ وهو محتمل.

وأما قراءة سورة واحدة في ركعتين معًا فقلما كان يفعله. وقد ذكر أبوداود عن رجل من جهينة «أنه سمع رسول الله ﷺ يقرأ في الصبح ﴿إذا زلزلت﴾ في الركعتين كلتيهما، قال: فلا أدري أنسي رسول الله ﷺ، أم قرأ ذلك عمدًا؟».

فصل

وكان ﷺ يطيل الركعة الأولى على الثانية من صلاة الصبح ومن كل صلاة. وربما كان يطيلها حتى لا يسمع وقع قدم. وكان يطيل صلاة الصبح أكثر من سائر الصلوات.

وهذا لأن قرآن الفجر مشهود، يشهده الله تعالى وملائكته.

وقيل: يشهده ملائكة الليل والنهار. والقولان مبنيان على أن النزول الإلهي هل يدوم إلى انقضاء صلاة الصبح، أو إلى طلوع الفجر؟ وقد ورد فيه هذا وهذا.

وأيضا فإنها لما نقص عدد ركعاتها جعل تطويلها عوضًا عما نقصته من العدد.

وأيضا فإنها تكون عقيب النوم والناس مستريحون.

وأيضا فإنهم لم يأخذوا بعد في استقبال المعاش وأسباب الدنيا.

وأيضا فإنها تكون في وقت تواطأ فيه السمع واللسان والقلب لفراغه. وعدم تمكن الاشتغال فيه، فيفهم القرآن ويتدبره.

وأيضا فإنها أساس العمل وأوله فأعطيت فضلاً في الاهتمام بها وتطويلها. وهذه أسرار إنما يعرفها من له التفات إلى أسرار الشريعة ومقاصدها وحكمها. والله المستعان.

...[1]**وفي** اضطجاعه على شقه الأيمن سر، وهو أن القلب معلق في الجانب الأيسر، فإذا نام الرجل على الجانب الأيسر استثقل نومًا لأنه يكون في دعة واستراحة فيثقل نومه، فإذا نام على شقه الأيمن فإنه يقلق ولا يستغرق في النوم؛ لقلق القلب وطلبه مستقره وميله إليه، ولهذا استحب الأطباء النوم على الجانب الأيسر لكمال الراحة وطيب المنام، وصاحب الشرع يستحب النوم على الجانب الأيمن، لئلا يثقل نومه، فينام عن قيام الليل، فالنوم على الجانب الأيمن: أنفع للقلب، وعلى الجانب الأيسر أنفع للبدن. والله أعلم.

---

(١) ١٧٢ الزاد جـ١.

فصـــل

في هديه ﷺ في قيام الليل

قد اختلف السلف والخلف في أنه: هل كان فرضًا عليه أم لا؟ والطائفتان احتجوا بقوله تعالى: ﴿**ومن الليل فتَهَجد به نافلة لك**﴾ [الإسراء: ٧٩]. قالوا: فهذا صريح في عدم الوجوب.

قال الآخرون: أمره بالتهجد، كما أمره في قوله تعالى: ﴿**ياأيها المزمل قم الليل إلا قليلا**﴾ [المزمل: ١، ٢] ولم يجيء ما ينسخه عنه.

وأما قوله تعالى: ﴿**نافلة لك**﴾ فلو كان المراد به التطوع: لم يخصه بكونه نافلة له، وإنما المراد بالنافلة: الزيادة، ومطلق الزيادة لا يدل على التطوع، قال تعالى: ﴿**ووهبنا له إسحاق ويعقوب نافلة**﴾ [الأنبياء: ٧٢] أي: زيادة على الولد.

وكذلك النافلة في تهجد النبي ﷺ: زيادة في درجاته، وفي أجره. ولهذا خصه بها، فإن قيام الليل في حق غيره مباح ومكفر للسيئات، وأما النبي ﷺ: فقد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر فهو يعمل في زيادة الدرجات، وعلو المراتب، وغيره يعمل في التكفير.

قال مجاهد بن جبر: إنما كان نافلة للنبي ﷺ، لأنه قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فكانت طاعته نافلة، أي زيادة في الثواب، ولغيره كفارة لذنوبه.

قال ابن المنذر في تفسيره: حدثنا يعلى بن أبي عبيد حدثنا الحجاج بن محمد المصيصي عن ابن جريج عن عبدالله بن كثير عن مجاهد قال: «ما سوى المكتوبة فهو نافلة، من أجل أنه لا يعمل في كفارة الذنوب، وليست للناس نوافل، وإنما هي للنبي ﷺ، خاصة، والناس جميعًا يعملون ما سوى المكتوبة لذنوبهم في كفارتها.

حدثنا محمد حدثنا نصر حدثنا عبدالله حدثنا عمرو عن سعيد وقبيصة عن سفيان عن أبي عثمان عن الحسن في قوله تعالى: ﴿**ومن الليل فتهجد به نافلة لك**﴾ قال: «لا يكون نافلة إلا للنبي ﷺ».

وذكر عن الضحاك قال: نافلة للنبي ﷺ، خاصة.

...[1]**قال** ابن عباس: «كان رسول الله ﷺ، بمكة، فأمر بالهجرة، وأنزل عليه ﴿**وقل رب أدخلْني مُدْخَلَ صِدْقٍ، وأخرجني مُخْرَجَ صِدْقٍ، واجعل لي من لَدُنْكَ سلطانًا نصيراً**﴾ [الإسراء: ٨٠].

قال قتادة: أخرجه الله من مكة إلى المدينة مخرج صدق، ونبي الله يعلم أنه لا طاقة له بهذا الأمر إلا بسلطان، فسأل الله سلطانًا نصيرًا. وأراه عز وجل دار الهجرة، وهو بمكة، فقال: «**أريت دار هجرتكم: بسبخة ذات نخل بين لابَتين**».

وذكره الحاكم في صحيحه عن علي بن أبي طالب: أن النبي ﷺ قال لجبرائيل: «**من يهاجر معي؟ قال: أبوبكر الصديق**»...

...[2]**وقد** أمر الله تعالى رسوله: أن يسأله أن يجعل مَدْخَلَه ومَخْرَجه على الصِّدق. فقال: ﴿**وقل ربِّ أدخلني مُدْخَلَ صِدق، وأخرجني مُخْرَج صدق. واجعل لي من لَدُنْكَ سلطانًا نصيرا**﴾ [الإسراء: ٨٠].

وأخبر عن خليله إبراهيم، ﷺ، أنه سأله أن يهب له لسان صدق في الآخرين، فقال: ﴿**واجعل لي لسان صدق في الآخرين**﴾ [الشعراء: ٨٤].

وبشر عباده بأن لهم عنده قَدَمَ صدق، ومقعد صدق. فقال تعالى: ﴿**وبشر الذين آمنوا أن لهم قَدَمَ صدق عند ربهم**﴾ [يونس: ٢] وقال: ﴿**إن المتقين في جنات ونهر. في مقعد صدق عند مليك مقتدر**﴾ [القمر: ٥٤، ٥٥].

فهذه خمسة أشياء: مَدْخل الصدق، ومخرج الصدق. ولسان الصدق، وقدم الصدق، ومقعد الصدق.

وحقيقة الصدق في هذه الأشياء: هو الحق الثابت، المتصل بالله، الموصل إلى الله. وهو ما كان به وله، من الأقوال والأعمال. وجزاء ذلك في الدنيا والآخرة.

فمدخل الصدق، ومخرج الصدق: أن يكون دخوله وخروجه حقًّا ثابتًا بالله، وفي مرضاته، بالظَّفَر بالبغية، وحصول المطلوب، ضد مخرج الكذب ومدخله الذي لا غاية له يوصل إليها، ولا له ساق ثابتة يقوم عليها، كمخرج أعدائه يوم بدر. ومخرج الصدق كمخرجه ﷺ هو وأصحابه في تلك الغزوة.

---

(١) ١٤٤ الزاد جـ٢.

(٢) ٢٧٠ الزاد جـ٢.

وكـذلك مدخله ﷺ المـدينـة: كان مدخـل صدق بالله، ولله، وابتغـاء مرضاة الله. فاتصل به التأييد، والظفر والنصر، وإدراك ماطلبه في الدنيا والآخرة.

بخلاف مدخـل الكـذب الـذي رام أعـداؤه أن يدخلوا به المـدينة يوم الأحزاب؛ فإنه لم يكن بالله، ولا لله، بل كان محادة لله ورسوله، فلم يتصل به إلا الخذلان والبوار.

وكذلك مدخل من دخل من اليهود المحاربين لرسول الله ﷺ حِصْن بني قُريظة. فإنه لما كان مدخل كذب: أصابه معهم ما أصابهم.

فكل مدخـل معهم ومخرج كان بالله ولله فصاحبه ضامن على الله. فهو مدخل صدق، ومخرج صدق.

وكان بعض السلف إذا خرج من داره: رفع رأسه إلى السماء، وقال: اللهم إني أعوذ بك أن أخرج مخرجًا لا أكون فيه ضامنًا عليك.

يريد: أن لا يكـون المخـرج مخرج صدق. ولـذلك فُسِّر مدخل الصدق ومخـرجه: بخروجه ﷺ من مكة، ودخوله المدينة. ولا ريب أن هذا على سبيل التمثيل. فإن هذا المدخل والمخرج من أجل مداخله ومخارجه ﷺ. وإلا فمداخله كلها مداخل صدق، ومخارجه مخارج صدق. إذ هي لله وبالله وبأمره، ولابتغاء مرضاته.

وما خرج أحـد من بيتـه ودخل سوقه ـ أو مدخلاً آخر ـ إلا بصدق أو بكذب، فمخرج كل واحد ومدخله: لا يعدو الصدق والكذب. والله المستعان.

...[1]**والعلم** «اللدني» ما يحصل للعبد من غير واسطة، بل بإلهام من الله، وتعريف منه لعبده، كما حصل للخضر عليه السلام بغير واسطة موسى[2] قال الله تعالى: ﴿آتيناه رحمة من عندنا وعلَّمْنَاهُ من لدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف: ٦٥].

وفرق بين الرحمة والعلم، وجعلهما «من عنده» و«من لدنه» إذ لم ينلهما على

---

(١) ٤٧٥ المدارج جـ٢.

(٢) كان الخضر عبدًا رسولاً في ناحية وموسى عبدًا رسولاً في ناحية أخرى. وكان في موسى بقية من حدة مما تربى عليه في بيت فرعون. فقام خطيبًا، فسأله سائل: «من أعلم الناس؟ فقال: أنا. ولم يرد العلم إلى الله» فعتب الله عليه. وأمره أن يذهب ليتعلم من نبيه الخضر الذي أوحى إليه ربه بأن يعطيه الدروس المناسبة. لتسرعه الذي ظهر بوكز المصري وكزة قضت عليه. كما ورد ذلك في صحيح البخاري.

يد بشر، وكان «من لدنه» أخص وأقرب من «عنده» ولهذا قال تعالى: ﴿**وقل رب أدخلني مُدْخَـل صدق. وأخرجني مُخْرَج صدق. واجعل لي من لدنك سلطاناً نصيراً**﴾ فـ«السلطان النصير» الذي من لدنه سبحانه: أخص وأقرب مما عنده. ولهـذا قال تعالى: ﴿**واجعَل لي من لدُنْكَ سُلطانًا نصيراً**﴾ وهو الذي أيده به. والـذي من عنـده: نصره بالمؤمنـين، كما قال تعـالى: ﴿**هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين**﴾ [الأنفال: ٦٢].

«**والعلم** اللدني» ثمرة العبودية والمتابعة، والصدق مع الله، والإخلاص له، وبذل الجهد في تلقي العلم من مشكاة رسوله، وكمال الانقياد له. فيفتح له من فهم الكتاب والسنة بأمر يخصه به، كما قال علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - وقد سئل «هل خصكم رسول الله ﷺ، بشيء دون الناس؟ - فقال: لا، والذي فَلَقَ الحبة، وبرأ النَّسَمَة، إلا فَهْمًا يؤتيه الله عبدًا في كتابه» فهذا هو العلم اللدني الحقيقي.

وأما علم من أعـرض عن الكتاب والسنة، ولم يتقيد بهما: فهو من لدن النفس والهوى، والشيطان، فهو لدني. لكن من لدن مَنْ؟ وإنما يعرف كون العلم لدنيًّا رحمانيًّا: بموافقته لما جاء به الرسول ﷺ، عن ربه عز وجل. فالعلم اللدني نوعان: لدني رحماني، ولدني شيطاني بطناوي. والمَحَكُّ: هو الوحي. ولا وحي بعد رسول الله ﷺ.

وأما قصة موسى مع الخضر عليهما السلام: فالتعلق بها في تجويز الاستغناء عن الوحي بالعلم اللدني إلحاد، وكفر مخرج عن الإسلام، موجب لإراقة الدم.

والفرق: أن موسى لم يكن مبعـوثـا إلى الخضر، ولم يكن الخضر مأمورًا بمتابعته، ولو كان مأمورًا بها لوجب عيه أن يهاجر إلى موسى ويكون معه[١]. ولهذا قال له «أنت موسى نبي بني إسرائيل؟ قال: نعم» ومحمد ﷺ مبعوث إلى جميع الثقلين، فرسـالتـه عامة للجن والإنس، في كل زمان. ولو كان موسى وعيسى عليهما السلام حيين لكانا من أتباعه. وإذا نزل عيسى ابن مريم عليهما السلام فإنما يحكم بشريعة محمد ﷺ.

---

(١) قد حقق العلماء المحققون - كالحافظ ابن حجر، وغيره من علماء السلف - أن الخضر كان رسولاً كموسى عليهما السلام. والقرآن يشير إلى ذلك بقوله: ﴿وما فعلته عن أمري﴾.

فمن ادعى أنه مع محمد ﷺ كالخضر مع موسى، أو جوز ذلك لأحد من الأمة: فليجدد إسلامه، وليتشهد شهادة الحق؛ فإنه بذلك مفارق لدين الإسلام بالكلية، فضلاً عن أن يكون من خاصة أولياء الله، وإنما هو من أولياء الشيطان وخلفائه ونوابه وهذا الموضع مقطع ومفرق بين زنادقة القوم، وبين أهل الاستقامة منهم، فحرِّك تَرَهْ.

...(١)**الاسم** الرابع: الباطل.

والباطل: ضد الحق، يراد به المعدوم الذي لا وجود له، والموجود الذي مَضرَّةُ وجوده أكثرُ من منفعته.

فمن الأول: قول الموحّد: كلُّ إلـه سوى الله باطلٌ، ومن الثاني قوله: السحْر باطلٌ. والكفر باطل، قال تعالى: ﴿**وقل جاء الحقُّ وزهقَ الباطلُ، إن الباطِلَ كان زَهُوقًا**﴾ [الإسراء: ٨١].

فالباطل إما معدوم لا وجود له، وإما موجود لا نفع له. فالكفر، والفسوق، والعصيان والسحر، والغناء، واستماع الملاهي: كله من النوع الثاني.

قال ابن وَهْب: أخبرني سليمان بن بلال عن كثير بن زيد: أنه سمع عبيدالله يقول للقاسم بن محمد: «كيف ترى في الغناء؟ فقال له القاسم: هو باطل. فقال: قد عرفتُ أنه باطل، فكيف ترى فيه؟ فقال القاسم: أرأيتَ الباطل، أين هو؟ قال: في النار، قال: فهو ذاك».

وقال رجل لابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: «ما تقول في الغناء، أحلال هو، أم حرام، فقال: , لا أقول حرامًا إلا ما في كتاب الله. فقال: أفحلالٌ هو؟ فقال: ولا أقول ذلك. ثم قال له: أرأيت الحقَّ والباطل، إذا جاءا يوم القيامة، فأين يكون الغناء؟ فقال الرجل: يكون مع الباطل، فقال له ابن عباس: اذهب فقد أفتيتَ نفسك».

فهذا جواب ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ عن غناء الأعراب، الذي ليس فيه مدح الخمر والزنا واللواط، والتَّشبيب بالأجنبيات، وأصوات المعازف،

---

(١) ٢٤٣ الإغاثة جـ١.

والآلات المطربات، فإن غناء القوم لم يكن فيه شيء من ذلك، ولو شاهدوا هذا الغناء لقالوا فيه أعظمَ قول؛ فإنه مضرّته وفتنته فوق مضرة شرب الخمر بكثير، وأعظم من فتنته.

فمن أبطل الباطل أن تأتي شريعةٌ بإباحته، فمن قاسَ هذا على غناء القوم فقياسه من جنس قياس الرِّبا على البيع، والميتة على المذكَّاة، والتحليلِ الملعونُ فاعله على النكاح الذي هو سُنة رسول الله ﷺ. وهو أفضلُ من التخلِّي لنوافِل العبـادة، فلو كان نكاحُ التحليل جائزًا في الشرع لكان أفضلَ من قيام الليل، وصيام التطوع، فضلاً أن يُلعنَ فاعلُه.

...[1]**قال** الله تعالى: ﴿**وَنُنَزِّلُ من القُرآن ما هُوَ شفاء ورحمة للمؤْمنين**﴾ [الإسراء: ٨٢]. والصحيح: أن «من» ههنا لبيان الجنس لا للتبعيض.

وقـال تعالى: ﴿**ياأيُّها الناس قد جاءَتكُم موعظةٌ من ربِّكُم وشِفَاءٌ لما في الصدور**﴾ [يونس: ٥٧].

فالقـرآن هو الشفاء التام من جميع الأدواء القلبية والبدنية، وأدواء الدنيا والآخرة. وما كل أحد يؤهل ولا يوفق للاستشفاء به. وإذا أحسن العليل التداوي به، ووضعـه على دائـه بصـدق وإيمان، وقبـول تام، واعتقـاد جازم، واستيفاء لشروطه: لم يقاومه الداء أبدًا.

وكيف تقاوم الأدواء كلام رب الأرض والسماء، الذي لو نزل على الجبال لصدعها، أو على الأرض لقطعها؟

فما من مرض من أمراض القلوب والأبدان: إلا وفي القرآن سبيل الدلالة على دوائه، وسببه والحمية منه، لمن رزقه الله فهمًا في كتابه.

وقد تقدم في أول الكلام على الطب بيان إرشاد القرآن العظيم إلى أصوله ومجامعه التي هي: حفظ الصحة والحمية، واستفراغ المؤذي، والاستدلال بذلك على سائر أفراد الأنواع.

وأمـا الأدوية القلبية: فإنـه يذكـرهـا مفصلة، ويذكـر أسبـاب أدوائهـا

---

(١) ٣٧٧ الزاد جـ١.

وعلاجها. قال: ﴿أولَمْ يَكْفِهم أنا أنزلنا عليكَ الكِتَابَ يُتلَى عليهم؟﴾ [العنكبوت: ٥١]. فمن لم يَشْفِه القرآن فلا شفاه الله، ومن لم يكفه فلا كفاه الله.

...[1]**ولا ينكر** عدم انتفاع كثير من المرضى بطب النبوة، فإنه إنما ينتفع به من تلقاه بالقبول، واعتقاد الشفاء به، وكمال التلقي له بالإيمان والإذعان؛ فهذا القرآن الذي هو شفاء لما في الصدور إن لم يتلق هذا التلقي لم يحصل به شفاء الصدور من أدوائها بل لا يزيد المنافقين إلا رجسًا إلى رجسهم، ومرضًا إلى مرضهم. وأين يقع طب الأبدان منه؟

فطب النبوة لا يناسب إلا الأبدان الطيبة، كما أن شفاء القرآن لا يناسب إلا الأرواح الطيبة، والقلوب الحية. فإعراض الناس عن طب النبوة كإعراضهم عن الاستشفاء بالقرآن الذي هو الشفاء النافع. وليس ذلك لقصور في الدواء، ولكن لخبث الطبيعة، وفساد المحلِّ، وعدم قبوله. والله الموفق[2].

. . .[3]**وفي** مسند الإمام من أحمد حديث أسامة بن شريك عن النبي ﷺ، قال: **«إن الله لم ينزل داء إلا أنزل له شفاء، علمه من علمه وجهله من جهله»**. وفي لفظ: **«إن الله لم يضع داء إلا وضع له شفاء. أو دواء. إلا داءً واحدًا»** قالوا: يارسول الله ما هو؟ قال: **«الهرم»** قال الترمذي: هذا حديث صحيح. وهذا يعم أدواء القلب والروح والبدن وأدويتها.

وقد جعل النبي ﷺ، الجهل داء، وجعل دواءه سؤال العلماء.

فروى أبوداود في سننه من حديث جابر بن عبدالله قال: خرجنا في سفر فأصاب رجلًا منا حجر فشجه في رأسه ثم احتلم فسأل أصحابه فقال: هل تجدون لي رخصة في التيمم؟ قالوا: ما نجد لك رخصة وأنت تقدر على الماء. فاغتسل فمات فلما قدمنا على النبي ﷺ، أخبر بذلك. فقال: **«قتلوه قتلهم الله ألا سألوا إذ لم يعلموا. فإنما شفاء العي السؤال. إنما كان يكفيه أن يتيمم ويعصر أو يعصب على جرحه خرقة ثم يمسح عليها ويغسل سائر جسده»** فأخبر أن الجهل داء وأن شفاءه السؤال.

---

(١) ١٥٧ الزاد جـ٣. (٢) تقدم في سورة يونس ماله علاقة بهذا البحث. (ج). (٣) ٣ الجواب.

وقد أخبر سبحانه عن القرآن أنه شفاء فقال تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعجميًّا لَقَالُوا لَوْلا فُصِّلَت آياتُهُ ءَأَعجَميٌّ وعَرَبيٌّ قُلْ هُوَ للذِينَ آمَنُوا هُدىً وشِفاءٌ﴾ [فصلت: ٤٤]. وقال: ﴿ونُنزِّلُ من القرآن ما هُوَ شِفَاءٌ ورحمةٌ للمؤْمِنينَ﴾ [الإسراء: ٨٢].

ومن هنا لبيان الجنس لا للتبعيض فإن القرآن كله شفاء كما قال في الآية المتقدمة. فهو شفاء للقلوب من داء الجهل والشك والريب فلم ينزل الله سبحانه من السماء شفاء قط أعم ولا أنفع ولا أعظم ولا أنجع في إزالة الداء من القرآن.

...[1]**قال** تعالى: ﴿قُل كلٌّ يَعْمَلُ عل شَاكِلتِه﴾ [الإسراء: ٨٤] أي على ما يشاكله ويناسبه ويليق به. كما يقول الناس: «كل إناء بالذي فيه ينضح» فمن أرادت من الأرواح الخبيثة السفلية أن تكون مجاورة للأرواح الطيبة العلوية في مقام الصدق بين الملأ الأعلى فقد أرادت ما تأباه حكمة أحكم الحاكمين.

ولو أن ملكًا من ملوك الدنيا جعل خاصته وحاشيته سفلة الناس وسقطهم وغرتهم الذين تتناسب أقوالهم وأعمالهم وأخلاقهم في القبح والرداءة والدناءة لقدح الناس في ملكه وقالوا: لا يصلح للملك.

فما الظن بمجاوري الملك الأعظم مالك الملوك في داره، وتمتعهم برؤية وجهه وسماع كلامه، ومرافقتهم للملأ الأعلى الذين هم أطيب خلقه وأزكاهم وأشرفهم، أفيليق بذلك الرفيق الأعلى والمحل الأسني والدرجات العلى روح سفلية أرضية قد أخلدت إلى الأرض، وعكفت على ما تقضيه طبائعها مما تشارك فيه بل قد تزيد على الحيوان البهيم، وقصرت همتها عليه، وأقبلت بكليتها عليه، لا ترى نعيمًا ولا لذة ولا سرورًا إلا ما وافق طباعها من كل مأكل ومشرب ومنكح من أين كان وكيف اتفق، فالفرق بينها وبين الحمير والكلاب والبقر بانتصاب القامة ونطق اللسان والأكل باليد، وإلا فالقلب والطبع على [شاكلة] قلوب هذه الحيوانات وطباعها، وربما كانت طباع الحيوانات خيراً من طباع هؤلاء وأسلم وأقبل للخير. ولهذا جعلهم الله سبحانه شر الدواب فقال تعالى: ﴿إن شر الدواب عند الله

---

(١) ١٠٣ المجرتين.

الصمُّ البكم الذين لا يعقلون، ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون﴾ [الأنفال: ٢٢، ٢٣]، فهل يليق بحكمة العزيز الحكيم أن يجمع بين خير البرية وأزكى الخلق وبين شر البرية وشر الدواب في دار واحدة يكونون فيها على حال واحدة من النعيم أو العذاب؟ قال الله تعالى: **﴿أفنجعل المسلمين كالمجرمين مالكم كيف تحكمون﴾** [القلم: ٣٥-٣٦].

...[1]**قال** شفيق بن إبراهيم: أغلق باب التوفيق عن الخلق من ستة أشياء: اشتغالهم بالنعمة عن شكرها، ورغبتهم في العلم وتركهم العمل، والمسارعة إلى الذنب وتأخير التوبة، والاغترار بصحبة الصالحين وترك الاقتداء بفعالهم، وإدبار الدنيا عنهم وهم يتبعونها، وإقبال الآخرة عليهم وهم معرضون عنها.

[**قلت**] وأصل ذلك: عدم الرغبة والرهبة، وأصله ضعف اليقين، وأصله ضعف البصيرة، وأصله مهانة النفس ودناءتها، واستبدال الذي هو أدنى بالذي هو خير، وإلا فلو كانت النفس شريفة كبيرة لم ترض بالدون.

فأصل الخير كله بتوفيق الله ومشيئته، وشرف النفس ونبلها وكبرها.

وأصل الشر خستها ودناءتها وصغرها قال تعالى: **﴿قَدْ أَفلَحَ مَنْ زَكَّاهَا وقَدْ خَابَ من دَسَّاهَا﴾** [الشمس: ٩، ١٠]؛ أي: أفلح من كبرها وكثرها ونماها بطاعة الله، وخاب من صغرها وحقرها بمعاصي الله، فالنفوس الشريفة لا ترضى من الأشياء إلا بأعلاها وأفضلها وأحمدها عاقبة، والنفوس الدنيئة تحوم حول الدناءات وتقع عليها كما يقع الذباب على الأقذار. فالنفس الشريفة العلية لا ترضى بالظلم ولا بالفواحش، ولا بالسرقة والخيانة؛ لأنها أكبر من ذلك وأجل، والنفس المهينة الحقيرة الخسيسة بالضد من ذلك، فكل نفس تميل إلى ما يناسبها ويشاكلها، وهذا معنى قوله تعالى: **﴿قُلْ كُلٌّ يعملُ على شاكِلتِهِ﴾** أي: على ما يشاكله ويناسبه، فهو يعمل على طريقته التي تناسب أخلاقه وطبيعته، وكل إنسان يجري على طريقته ومذهبه وعادته التي ألفها وجبل عليها.

فالفاجر يعمل بما يشبه طريقته من مقابلة النعم بالمعاصي والإعراض عن المنعم.

---

(١) ١٧٦ الفوائد.

والمؤمن يعمل بما يشاكله من شكر المنعم ومحبته، والثناء عليه والتودد إليه، والحياء منه والمراقبة له، وتعظيمه وإجلاله.

...[1]**فإن** قيل فما تقولون في قوله تعالى: ﴿**ونفخت فيه من روحي**﴾ [الحجر: ٢٩] فأضاف النفخ إلى نفسه وهذا يقتضي المباشرة منه تعالى كما في قوله: ﴿**خلقت بيدي**﴾ [ص: ٧٥]. ولهذا فرق بينهما في الذكر في الحديث الصحيح في قوله ﷺ: «**فيأتون آدم فيقولون: أنت آدم أبوالبشر، خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه، وأسجد لك ملائكته، وعلمك أسماء كل شيء.**» فذكروا لآدم أربع خصائص اختص بها عن غيره، ولو كانت الروح التي فيه إنما هي من نفخة الملك لم يكن له خصيصة بذلك، وكان بمنزلة المسيح بل وسائر أولاده، فإن الروح حصلت فيهم من نفخة الملك وقد قال الله تعالى: ﴿**فإذا سَوَّيْتُه ونَفَختُ فيه من روحي**﴾ [الحجر: ٢٩] فهو الذي سواه بيده وهو الذي نفخ فيه من روحه؟.

قيل هذا الموضع هو الذي أوجب لهذه الطائفة أن قالت بقدم الروح، وتوقف فيها آخرون ولم يفهموا مراد القرآن. فأما الروح المضافة إلى الرب فهي روح مخلوقة أضافها إلى نفسه إضافة تخصيص وتشريف كما بينا. وأما النفخ فقد قال تعالى في مريم: ﴿**التي أَحصَنَت فَرْجَها فَنفَخْنَا فيهِ من روحِنا**﴾ [الأنبياء: ٩١] وقد أخبر في موضع آخر أنه أرسل إليها الملك فنفخ في فرجها وكان النفخ مضافًا إلى الله أمرًا وإذنًا وإلى الرسول مباشرة.

يبقى ههنا أمران (أحدهما) أن يقال فإذا كان النفخ حصل في مريم من جهة الملك وهو الذي ينفخ الأرواح في سائر البشر فما وجه تسمية المسيح روح الله؟ وإذا كان سائر الناس تحدث أرواحهم من هذه الروح فما خاصية المسيح؟

الثاني أن يقال فهل تعلق الروح بآدم كانت بواسطة نفخ هذا الروح هو الذي نفخها فيه بإذن الله كما نفخها في مريم أم الرب تعالى هو الذي نفخها بنفسه كما خلقه بيده. **قيل** لعمر الله إنهما سؤالان مهمان:

فأما الأول فالجواب عنه أن الروح الذي نفخ في مريم هو الروح المضاف

---

(١) ١٩١ الروح.

إلى الله الذي اختصه لنفسه وأضافه إليه، وهو روح خاص من بين سائر الأرواح، وليس بالملك الموكل بالنفخ في بطون الحوامل من المؤمنين والكفار؛ فإن الله سبحانه وكل بالرحم ملكًا ينفخ الروح في الجنين فيكتب رزق المولود، وأجله، وعمله، وشقاوته، وسعادته. وأما هذا الروح المرسل إلى مريم فهو روح الله الذي اصطفاه من الأرواح لنفسه، فكان لمريم بمنزلة الأب لسائر النوع؛ فإن نفخته لما دخلت في فرجها كان ذلك بمنزلة لقاح الذكر للأنثى من غير أن يكون هناك وطء. وأما ما اختص به آدم فإنه لم يخلق كخلقة المسيح من أم، ولا كخلقة سائر النوع من أب وأم، ولا كان الروح الذي نفخ الله فيه منه هو الملك الذي ينفخ الروح في سائر أولاده، ولو كان كذلك لم يكن لآدم به اختصاص، وإنما ذكر في الحديث ما اختص به على غيره وهو أربعة أشياء: خلق الله له بيده، ونفخه فيه من روحه، وإسجاد ملائكته له، وتعليمه أسماء كل شيء. فنفخه فيه من روحه يستلزم نافخًا ونفخًا ومنفوخًا منه، فالمنفوخ منه هو الروح المضافة إلى الله، فمنها سرت النفخة في طينة آدم، والله تعالى هو الذي نفخ في طينته من تلك الروح، هذا هو الذي دل عليه النص. وأما كون النفخة بمباشرة منه سبحانه كما خلقه بيده، أو أنها حصلت بأمره كما حصلت في مريم عليها السلام فهذا يحتاج إلى دليل. والفرق بين خلق الله له بيده ونفخه فيه من روحه أن اليد غير مخلوقة والروح مخلوقة، والخلق فعل من أفعال الرب، وأما النفخ فهل هو من أفعاله القائمة به أو هو مفعول من مفعولاته القائمة بغيره المنفصلة عنه؟ وهذا مما لا يحتاج إلى دليل. وهذا بخلاف النفخ في فرج مريم فإنه مفعول من مفعولاته، وأضافه إليه لأنه بإذنه وأمره. فنفخه في آدم هل هو فعل له أو مفعول وعلى كل تقدير فالروح التي نفخ منها في آدم روح مخلوقة غير قديمة، وهي مادة روح آدم فروحه أولى أن تكون حادثة مخلوقة وهو المراد.

فصل

(وأما المسألة الثامنة عشر وهي تقدم خلق الأرواح على الأجساد أو تأخر خلقها عنها).

فهذه المسألة للناس فيها قولان معروفان حكاهما شيخ الإسلام وغيره،

ومن ذهب إلى تقدم خلقها محمد بن نصر المروزي، وأبومحمد بن حزم، وحكاه ابن حزم إجماعًا، ونحن نذكر حجج الفريقين وما هو الأولى منها بالصواب(١).

فصـــل(٢)

وأما ما احتجت به هذه الطائفة فأما ما أتوا به من اتباع متشابه القرآن والعدول عن محكمه فهذا شأن كل ضال ومبتدع، فمحكم القرآن من أوله إلى آخره يدل على أن الله تعالى خالق الأرواح ومبدعها. وأما قوله تعالى: **﴿قُلِ الرُّوح من أمر ربي﴾** [الإسراء: ٨٥] فمعلوم قطعًا أنه ليس المراد هاهنا بالأمر الطلب الذي هو أحد أنواع الكلام فيكون المراد أن الروح كلامه الذي يأمر به، وإنما المراد بالأمر هاهنا المأمور، وهو عرف مستعمل في لغة العرب، وفي القرآن منه كثير، كقوله تعالى: **﴿أتى أمر الله﴾** أي مأموره الذي قدره وقضاه وقال له كن فيكون، وكذلك قوله تعالى: **﴿فما أغنَتْ عنهم آلهتُهُم التي يَدْعُونَ من دون الله من شيءٍ لما جاءَ أمرُ ربك﴾** [هود: ١٠١] أي مأموره الذي أمر به من إهلاكهم. وكذلك قوله تعالى: **﴿وما أمر الساعة إلا كلمح البصر﴾** [النحل: ٧٧].

وكذلك الخلق يستعمل بمعنى المخلوق، كقوله تعالى للجنة: «أنت رحمتي» فليس في قوله تعالى: **﴿قل الرُّوح من أمر ربي﴾** ما يدل على أنها قديمة غير مخلوقة بوجه ما.

وقد قال السلف في تفسيرها جرى بأمر الله في أجساد الخلق وبقدرته استقر.

وهذا بناء على أن المراد بالروح في الآية روح الإنسان. وفي ذلك خلاف بين السلف والخلف.

وأكثر السلف بل كلهم على أن الروح المسئول عنها في الآية ليست أرواح بني آدم، بل هو الروح الذي أخبر الله عنه في كتابه أنه يقوم يوم القيامة مع الملائكة وهو ملك عظيم.

وقد ثبت في الصحيح من حديث الأعمش عن إبراهيم عن علقمة عن

---

(١) ذكر المؤلف البحث من كل جوانبه فمن أراده فليرجع إليه. (ج). (٢) ١٨٥ الروح.

عبدالله قال: بينا أنا أمشي مع رسول الله ﷺ، في حرة المدينة وهو متكيء على عسيب فمررنا على نفر من اليهود فقال بعضهم لبعض سلوه عن الروح، وقال بعضهم لا تسألوه عسى أن يخبر فيه بشيء تكرهونه، وقال بعضهم نسأله، فقام رجل فقال: ياأبا القاسم ماالروح؟ فسكت عنه رسول الله ﷺ، فعلمت أنه يوحى إليه فقمت فلما تجلى عنه قال: ﴿**ويسألونك عن الرُّوحِ قل الرُّوح من أمر ربي وما أُوتيتم من العلم إلا قليلاً**﴾ [الإسراء: ٨٥].

ومعلوم أنهم إنما سألوه عن أمر لا يعرف إلا بالوحي، وذلك هو الروح الذي عند الله لا يعلمها الناس، وأما أرواح بني آدم فليست من الغيب.

وقد تكلم فيها طوائف الناس من أهل الملل وغيرهم فلم يكن الجواب عنها من أعلام النبوة.

فإن قيل فقد قال أبوالشيخ ثنا الحسين بن محمد بن إبراهيم أنا إبراهيم بن الحكم عن أبيه عن السدي عن أبي مالك عن ابن عباس قال: بعثت قريش عقبة بن أبي معيط وعبدالله بن أبي أمية بن المغيرة إلى يهود المدينة يسألونهم عن النبي ﷺ، فقالوا لهم: إنه قد خرج فينا رجل يزعم أنه نبي وليس على ديننا ولا على دينكم، قالوا: فمن تبعه؟ قالوا: سفلتنا والضعفاء والعبيد ومن لا خير فيه، وأما أشراف قومه فلم يتبعوه، فقالوا: إنه قد أظل زمان نبي يخرج وهو على ما تصفون من أمر هذا الرجل، فائتوه فاسألوه عن ثلاث خصال نأمركم بهن، فإن أخبركم بهن فهو نبي صادق، وإن لم يخبركم بهن فهو كذاب، سلوه عن الروح التي نفخ الله تعالى في آدم، فإن قال لكم: هي من الله فقولوا: كيف يعذب الله في النار شيئاً هو منه فسأل جبريل عنها فأنزل الله عز وجل: ﴿**وَيسأَلُونَك عَنِ الرُّوح قُلِ الرُّوحُ من أمر ربي**﴾ يقول هو خلق من خلق الله ليس هو من الله ـ ثم ذكر باقي الحديث.

قيل مثل هذا الإسناد لا يحتج به فإنه من تفسير السدي عن أبي مالك، وفيه أشياء، منكرة وسياق هذه القصة في السؤال من الصحاح والمسانيد كلها تخالف سياق السدي.

وقد رواها الأعمش والمغيرة بن مقسم عن إبراهيم عن علقمة عن عبدالله قال: مر النبي ﷺ على ملأ من اليهود وأنا أمشي معه فسألوه عن الروح. قال:

فسكت فظننت أنه يوحي إليه فنزلت: ﴿ويسألونك عن الرُّوح﴾ يعني اليهود ﴿قل الروح من أمر ربي وما أوتوا[١] من العلم إلا قليلا﴾ وكذلك هي في قراءة عبدالله فقالوا: كذلك نجد مثله في التوراة أن الروح من أمر الله عز وجل رواه جرير بن عبدالحميد وغيره عن المغيرة.

وروى يحيى بن زكريا بن أبي زائدة عن داود بن أبي هند عن عكرمة عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال أتت اليهود إلى النبي ﷺ، فسألوه عن الروح فلم يجبهم النبي ﷺ، بشيء فأنزل الله عز وجل: ﴿ويسألونك عن الروح قل الرُّوحُ من أمر ربي وما أُوتيتم من العلم إلا قليلاً﴾ فهذا يدل على ضعف حديث السدي وأن السؤال كان بمكة؛ فإن هذا الحديث وحديث ابن مسعود صريح في أن السؤال كان بالمدينة مباشرة من اليهود، ولو كان قد تقدم السؤال والجواب بمكة لم يسكت النبي ﷺ، ولبادر إلى جوابهم بما تقدم من إعلام الله له وما أنزله عليه.

وقد اضطربت الروايات عن ابن عباس في تفسير هذه الآية أعظم اضطراب، فإما أن تكون من قبل الرواة، أو تكون أقواله قد اضطربت فيها. ونحن نذكر ذلك، فقد ذكرنا رواية السدي عن أبي مالك عنه، ورواية داود بن أبي هند عن عكرمة عنه تخالفها، وفي رواية داود بن أبي هند هذه اضطراب فقال مسروق بن المرزبان وإبراهيم بن أبي طالب عن يحيى بن زكريا عنه أن اليهود أتت النبي ﷺ ـ الحديث.

وقال محمد بن نصر المروزي ثنا إسحاق أنا يحيى بن زكريا عن داود بن أبي هند عن عكرمة عن ابن عباس قال: قالت قريش لليهود أعطونا شيئًا نسأل عنه هذا الرجل فقالوا: سلوه عن الروح فنزلت: ﴿ويسألونك عن الروح﴾ الآية. وهذا يخالف الرواية الأخرى عنه وحديث ابن مسعود.

وعن ابن عباس رواية ثالثة قال هشيم ثنا أبوبشر عن مجاهد عن ابن عباس قال الروح أمر من أمر الله عز وجل، وخلق من خلق الله، وصور مثل صور بني آدم، وما نزل من السماء ملك إلا ومعه واحد من الروح. وهذا يدل على أنها غير الروح التي في ابن آدم.

---

(١) هكذا قرأها عبدالله كما في كتب التفسير ـ وكان في الأصل، وما أوتيتم، على القراءة المشهورة.

وعنه رواية رابعة قال ابن منده روى عبدالسلام بن حرب عن خصيف عن مجاهد عن ابن عباس: ﴿**ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي**﴾ قد نزل من القرآن بمنزل كن نقول كما قال الله: ﴿**ويسألونك عن الرُّوح قل الرُّوحُ من أمر ربي**﴾ ثم ساق من طريق خصيف عن عكرمة عن ابن عباس أنه كان لا يفسر أربعة أشياء: الرقيم والغسلين والروح وقوله تعالى: ﴿**وسخَّر لكم ما في السَّموات وما في الأرض جميعًا منه**﴾ [الجاثية: ١٣].

وعنه رواية خامسة رواها جويبر عن الضحاك عنه أن اليهود سألوا رسول الله ﷺ، عن الروح فقال: قال الله تعالى: ﴿**قلِ الرُّوح من أمر ربي**﴾ يعني خلقًا من خلقي ﴿**وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً**﴾ يعني لو سئلتم عن خلق أنفسكم وعن مدخل الطعام والشراب ومخرجها ما وصفتم ذلك حق صفته وما اهتديتم لصفتها.

وعنه رواية سادسة روى عبدالغني بن سعيد ثنا موسى بن عبدالرحمن عن ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس، وعن مقاتل عن الضحاك عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿**ويسألونك عن الرُّوح**﴾ وذلك أن قريشًا اجتمعت فقال بعضهم لبعض: والله ما كان محمد يكذب، ولقد نشأ فينا بالصدق والأمانة، فأرسلوا جماعة إلى اليهود فاسألوهم عنه وكانوا مستبشرين به ويكثرون ذكره ويدعون نبوته ويرجون نصرته موقنين بأنه سيهاجر إليهم ويكونون له أنصارًا، فسألوهم عنه فقالت لهم اليهود: سلوه عن ثلاث، سلوه عن الروح، وذلك أنه ليس في التوراة قصته ولا تفسيره إلا ذكر اسم الروح فأنزل الله تعالى: ﴿**ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي**﴾ يريد من خلق ربي عز وجل.

والروح في القرآن على عدة أوجه:

(أحدها) الوحي كقوله تعالى: ﴿**وكذلك أوحينا إليك روحًا من أمرنا**﴾ [الشورى: ٥٢]. وقوله تعالى: ﴿**يُلقي الرُّوح من أمره على من يشاءُ من عباده**﴾ [غافر: ١٥]. وسمي الوحي روحًا لما يحصل به من حياة القلوب والأرواح.

(الثاني) القوة والثبات والنصرة التي يؤيد بها من شاء من عباده المؤمنين كما قال: ﴿**أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروحٍ منه**﴾.

(الثالث) جبريل كقوله تعالى: ﴿نزلَ به الروحُ الأمين على قَلْبكَ﴾ [الشعراء:١٩٣]. وقال تعالى: ﴿من كان عدوًّا لجبريلَ فإنه نزَّلَهُ على قلبِك بإذن الله﴾ [البقرة:٩٧]. وهو روح القدس. قال تعالى: ﴿قل نزَّله رُوح القدس﴾ [النحل:١٠٢].

(الرابع) الروح التي سأل عنها اليهود فأجيبوا بأنها من أمر الله.

وقد قيل إنها الروح المذكورة في قوله تعالى: ﴿يومَ يَقُومُ الروحُ والملائكةُ صفًّا لا يتكلمون﴾ [النبأ: ٣٨] وأنها الروح المذكورة في قوله: ﴿تنزل الملائكة والروحُ فيها بإذن ربِّهم﴾ [القدر: ٤].

(الخامس) المسيح بن مريم قال تعالى: ﴿إنما المسيحُ عيسى ابنُ مريم رسول الله وكلمتُه ألقاها إلى مريمَ ورُوحٌ منهُ﴾ [النساء: ١٧١].

وأما أرواح بني آدم فلم تقع تسميتها في القرآن إلا بالنفس قال تعالى: ﴿ياأيَّتُها النفس المطمئنة﴾ [الفجر: ٢٧]. وقال تعالى: ﴿ولا أقسم بالنفس اللَّوامَة﴾ [القيامة: ٢]. وقال تعالى: ﴿إن النَّفس لأمَّارةٌ بالسُّوء﴾ [يوسف: ٥٣]. وقال تعالى: ﴿أخرِجُوا أنفسَكم﴾ [الأنعام: ٩٣]. وقال تعالى: ﴿ونفسٍ وما سَوَّاها فألهمها فجورها وتقواها﴾ [الشمس:٧،٨] وقال تعالى: ﴿كل نفسٍ ذائقةُ الموْتِ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

وأما في السنة فجاءت بلفظ النفس والروح. والمقصود أن كونها من أمر الله لا يدل على قدمها وأنها غير مخلوقة.

فصل

وأما استدلالهم بإضافتها إليه سبحانه بقوله تعالى: ﴿ونفخت فيه من روحي﴾ [الحجر: ٢٩]. فينبغي أن يعلم أن المضاف إلى الله سبحانه نوعان: صفات لا تقوم بأنفسها، كالعلم والقدرة والكلام والسمع والبصر، فهذه إضافة صفة إلى الموصوف بها، فعلمه وكلامه وإرادته وقدرته وحياته صفات له غير مخلوقة، وكذلك وجهه ويده سبحانه.

والثاني إضافة أعيان منفصلة عنه كالبيت والناقة والعبد والرسول والروح، فهذه إضافة مخلوق إلى خالقه، ومصنوع إلى صانعه، لكنها إضافة تقتضي تخصيصًا وتشريفًا يتميز به المضاف عن غيره، كبيت الله، وإن كانت البيوت كلها ملكًا له،

وكذلك ناقة الله، والنوق كلها ملكه وخلقه، لكن هذه إضافة إلى إلهيته تقتضي محبته لها وتكريمه وتشريفه، بخلاف الإضافة العامة إلى ربوبيته حيث تقتضي خلقه وإيجاده. فالإضافة العامة تقتضي الإيجاد، والخاصة تقتضي الاختيار، والله يخلق ما يشاء ويختار مما خلقه كما قال تعالى: ﴿وربُّك يخلقُ ما يشاءُ ويختارُ﴾ [القصص: ٦٨].

وإضافة الروح إليه من هذه الإضافة الخاصة لا من العامة ولا من باب إضافة الصفات، فتأمل هذا الموضع فإنه يخلصك من ضلالات كثيرة وقع فيها من شاء الله من الناس. . .

...[1]**احتجاجه** سبحانه على نبوة رسوله ﷺ، وصحة ما جاء به من الكتاب وأنه من عنده وكلامه الذي تكلم به وأنه ليس من صنع البشر بقوله تعالى: ﴿وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا﴾ فأمر من ارتاب في هذا القرآن الذي أنزله على عبده وأنه كلام الله أن يأتي بسورة واحدة مثله، وهذا يتناول أقصر سورة من سوره، ثم فسح له إن عجز عن ذلك أن يستعين بمن أمكنه الاستعانة به من المخلوقين. وقال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افتراهُ قُلْ فأتوا بسورةٍ مثلهِ وادْعُوا من استطعتُم من دُون الله إن كنتُمْ صادقينَ﴾ [يونس: ٣٨] وقال تعالى: ﴿أم يقُولُون افتراهُ قُلْ فأْتُوا بِعَشْرِ سورٍ مثلِهِ مُفْتَرَياتٍ ـ الآية﴾ [هود: ١٣] وقال تعالى: ﴿أم يَقُولُون تَقَوَّلَهُ بل لا يُؤْمِنُونَ فليأْتُوا بحديثٍ مِثلِهِ إن كانوا صادِقِين﴾ [الطور: ٣٣، ٣٤]. ثم سجل عليهم تسجيلاً عامًا في كل مكان وزمان بعجزهم ولو تظاهر عليه الثقلان فقال تعالى: ﴿قُلْ لئِنِ اجتَمَعَت الإِنْسُ والجنُّ على أنْ يأْتُوا بمثلِ هذَا القرْآنِ لا يأْتُونَ بمِثْلِهِ ولو كان بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾ [الإسراء: ٨٨].

فانظر إلى أي موقع يقع من الأسماع والقلوب هذا الحجاج الجليل القاطع الواضح الذي لا يجد طالب الحق ومؤثره ومريده عنه محيدًا، ولا فوقه مزيدًا، ولا وراءه غاية، ولا أظهر منه آية، ولا أوضح منه برهانًا، ولا أبلغ منه بيانًا.

. .[2]**يصف** سبحانه أهل الجهل بالعمى والصم والبكم وذلك صفة قلوبهم حيث فقدت العلم النافع فبقيت على عماها وصمها وبكمها. قال تعالى:

---

(١) ٩٧ الصواعق جـ١.
(٢) ١١١ المفتاح جـ١.

﴿ومن كان في هذه أعمىٰ فهو في الآخِرةِ أعمىٰ وأضلُّ سبيلاً﴾ والمراد عمى القلب في الدنيا.

وقال تعالى: ﴿ونَحْشُرُهُمْ يومَ القيَامةِ عَلى وجُوهِهِم عُميًا وبُكمًا وصمًّا مأوَاهُم جَهنَّم﴾ لأنهم هكذا كانوا في الدنيا والعبد يبعث على ما مات عليه. واختلف في هذا العمى في الآخرة.

فقيل هو عمى البصيرة؛ بدليل إخباره تعالى عن رؤية الكفار ما في القيامة ورؤية الملائكة ورؤية النار.

وقيل هو عمى البصر، ورجح هذا بأن الإطلاق ينصرف إليه وبقوله: ﴿قالَ ربِّ لم حَشرْتَني أَعمىٰ وقَد كُنتُ بصيراً﴾ وهذا عمى العين فإن الكافر لم يكن بصيرًا بحجته.

وأجاب هؤلاء عن رؤية الكفار في القيامة بأن الله يخرجهم من قبورهم إلى موقف القيامة بصراء ويحشرون من الموقف إلى النار عميًا قاله الفراء وغيره.

...[1] **قال** تعالى: ﴿ومن يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد لهم أولياء من دونه ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عميًا وبكمًا وصمًّا﴾ . وقد قيل في هذه الآية أيضًا أنهم عمى وبكم وصم عن الهدى، كما قيل في قوله: ﴿ونَحْشُرُه يَوْمَ القِيَامَةِ أعْمَى﴾ [طه: ١٢٤]. قالوا: لأنهم يتكلمون يومئذ ويسمعون ويبصرون، ومن نصر انه العمى والبكم والصمم المضاد للبصر والسمع والنطق قال بعضهم: هو عمى وصمم وبكم مقيد لا مطلق، فهم عمى عن رؤية ما يسرهم وسماعه. ولهذا قد روى عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: لا يرون شيئًا يسرهم. وقال آخرون: هذا الحشر حين تتوفاهم الملائكة يخرجون من الدنيا كذلك، فإذا قاموا من قبورهم إلى الموقف قاموا كذلك، ثم إنهم يسمعون ويبصرون فيما بعد، وهذا مروي عن الحسن. وقال آخرون: هذا إنما يكون إذا دخلوا النار واستقروا فيها سلبوا الأسماع والأبصار والنطق حين يقول لهم الرب تبارك وتعالى: ﴿اخسؤا فيها ولا تُكَلِّمُون﴾ [المؤمنون: ١٠٨] فحينئذ ينقطع الرجاء وتبكم عقولهم، فيصيرون بأجمعهم عميًا بكمًا صمًّا، لا يبصرون ولا يسمعون ولا ينطقون، ولا يسمع منهم

---

(١) ٤٥ المفتاح جـ١.

إلا الزفير والشهيق. وهذا منقول عن مقاتل. والذين قالوا المراد به العمى عن الحجة إنما مرادهم أنهم لا حجة لهم، ولم يريدوا أن لهم حجة هم عمى عنها، بل هم عمى عن الهدى كما كانوا في الدنيا، فإن العبد يموت على ما عاش عليه، ويبعث على ما مات عليه. وبهذا يظهر أن الصواب هو القول الآخر وأنه عمى البصر فإن الكافر يعلم الحق يوم القيامة عيانًا، ويقر بما كان يجحده في الدنيا، فليس هو أعمى من الحق يومئذ ﴿**وَفَصلَ الخِطَابِ**﴾ [ص: ٢٠]إن الحشر هو الضم والجمع، ويراد به تارة الحشر إلى موقف القيامة كقول النبي ﷺ: «**إنكم محشورون إلى الله حفاة عراة غرلاً**» وكقوله تعالى: ﴿**وإذَا الوحُوشِ حُشِرَت**﴾ [التكوير: ٥]. وكقوله تعالى: ﴿**وحَشرنَاهم فلم نُغَادِر مِنْهُم أحدًا**﴾ [الكهف: ٤٧] ويراد به الضم والجمع إلى دار المستقر، فحشر المتقين جمعهم وضمهم إلى الجنة، وحشر الكافرين جمعهم وضمهم إلى النار[1].

...[2]**قوله** سبحانه ردًا على الذين قالوا: ﴿**أإذا كُنَّا عِظَامًا ورُفاتًا أإنَّا لَمبعُوثُونَ خَلقًا جديدًا**﴾ ﴿**أولم يَرَوا أنَّ الله الذي خَلَق السَّموَاتِ والأرْضَ قادرٌ على أن يخلقَ مثلَهُم**﴾ [الإسراء: ٩٨، ٩٩]. أي مثل هؤلاء المكذبين، والمراد به النشأة الثانية، وهي الخلق الجديد، وهي المثل المذكور في غير موضع، وهم هم بأعيانهم، فلا تنافي في شيء من ذلك، بل هو الحق الذي دل عليه العقل والسمع، ومَنْ لم يفهم ذلك حَقَّ فهمِه تخبَّطَ عليه أمرُ المعاد، وبقى منه في أمر مَرِيج.

والمقصود أنه دَلَّهم سبحانه بخلق السموات والأرض على الإعادة والبَعْث، وأكد هذا القياس بضرب من الأولى، وهو أن خَلْق السموات والأرض أكبرُ من خلق الناس، فالقادر على خلق ما هو أكبر وأعظم منكم أَقْدَرُ على خلقكم، وليس أول الخلق بأَهْوَنَ عليه من إعادته، فليس مع المكذبين بالقيامة إلا مجردُ تكذيبِ الله ورُسُلِه، وتعجيز قدرته، ونسبة علمه إلى القُصُور، والقَدْح في حكمته.

ولهذا يخبر الله سبحانه عَمَّن أنكر ذلك بأنه كافر بربه، جاحد له، لم يُقِرَّ بربِّ العالمين فاطر السموات والأرض كما قال تعالى: ﴿**وإن تعجب فَعَجَبٌ قَولُهُم**

---

(١) يأتي بقية البحث في سورة طه إن شاء الله. (ج).

(٢) ١٤٧ الإعلام جـ١.

أئِذَا كُنَّا تُرابًا أإنَّا لفي خَلْقٍ جديد أولئك الذين كَفروا برَبِّهم﴾ [الرعد: ٥]، وقال المؤمن للكافر الذي قال: ﴿وما أظُنُّ الساعةَ قائمةً، ولئِن رُدِدْتُ إلى ربي لأجدَنَّ خيْرًا منها مُنْقلَبًا﴾ [الكهف: ٣٦، ٣٧]. فمنكر المعاد كافر برب العالمين وإن زعم أنه مُقِر به.

...[1]**وقال** تعالى حاكيًا عن موسى أنه قال لفرعون: ﴿لقَدْ علِمتَ ما أنْزل هؤلاءِ إلاَّ رب السمَـواتِ والأرضِ بَصَائِر وإني لأظُنُّكَ يافِرعون مثبورًا﴾ أي هالكًا، على قراءة من فتح التاء، وهي قراءة الجمهور، وضمها الكسائي وحده، وقـراءة الجمهـور أحسن وأوضـح وأفخم معنى، وبها تقوم الدلالة ويتم الإلزام بتحقيق كفر فرعون وعناده.

ويشهد لها قوله تعالى: ﴿فلما جاءتهم آياتنا مبصرة قالوا هذا سحرٌ مبين وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم﴾. [النمل: ١٣، ١٤].

...[2]**الوجه** السادس عشر أنه سبحانه سلى نبيه بإيمان أهل العلم به، وأمره أن لا يعبـأ بالجاهلين شيئًا. فقال تعالى: ﴿وقرآنًا فرقناه لتقرأه على الناس على مكثٍ ونزلناه تنْزيلاً قل آمنوا به أو لا تؤمنوا إن الذين أوتُوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرّون للأذقان سُجَّدًا ويقولون سبحان ربِّنا إن كان وعد ربنا لمفعولاً﴾ [الإسراء: ١٠٨].

وهذا شرف عظيم لأهل العلم وتحته أن أهله العالمون قد عرفوه وآمنوا به وصدقوا فسواء آمن به غيرهم أو لا.

...[3]**قوله** سبحانه: ﴿قل آمنوا به أو لا تؤمنوا إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجدًا ويقولون سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولاً، ويخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعًا﴾ [الإسراء: ١٠٩]. قال إمـام التفسـير مجاهد: هم قوم من أهل الكتاب لما سمعوا القرآن خروا سجدًا وقالوا: ﴿سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولا﴾ كان الله عز وجل وعد على ألسنة أنبيائه ورسله أن يبعث في آخر الزمان نبيًا عظيم الشأن يظهر دينه على الدين كله،

---

(١) ٩٠ مفتاح جـ١. (٢) ٥٠ المفتاح جـ١. (٣) ٤٤ هداية الحيارى.

وتنتشر دعـوته في أقطار الأرض، وعلى رأس أمته تقوم الساعة، وأهل الكتابين مجمعـون على أن الله وعـدهم بهذا النبي، فالسعداء منهم عرفوا الحق فآمنوا به واتبعوه، والأشقياء قالوا نحن ننتظره ولم يبعث بعد رسولاً، فالسعداء لما سمعوا القرآن من الرسول عرفوا أنه النبي الموعود به فخروا سجدًا لله إيمانًا به وبرسوله، وتصديقًا بوعده الذي أنجزه فرأوه عيانًا فقالوا: **﴿سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولا﴾**.

...[1]**﴿قـل ادْعُوا الله أو ادْعُوا الرحمن أيًّاما تَدعوا فله الأسماء الحسنى﴾** [الإسراء: ١١٠] فأي اسم دعـوتمـوه به فإنما دعوتم المسمى بذلك الاسم، فأخبر سبحانه أنه إله واحد وإن تعددت أسماؤه الحسنى المشتقة من صفاته. ولهذا كانت حسنى، وإلا فلو كانت كما يقول الجاحدون لكماله أسماء محضة فارغة من المعاني ليس لها حقـائق لم تكن حسنى، ولكـانت أسماء الموصوفين بالصفات والأفعال أحسن منها: فدلت الآية على توحيد الذات وكثرة النعوت والصفات.

...[2]**قوله** تعالى: **﴿قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيًّاما تدعوا فله الأسماء الحسنى﴾** فهذا الدعاء المشهور وأنه دعاء المسئلة وهو سبب النزول قالوا: كان النبي ﷺ يدعـو ربـه فيقـول مرة: ياالله، ومرة: يا رحمن، فظن الجاهلون من المشركـين أنه يدعو إلهين، فأنزل الله تعالى هذه الآية. قال ابن عباس: سمع المشركون النبي ﷺ يدعو في سجوده يارحمن يارحيم فقالوا: هذا يزعم أنه يدعو واحدًا وهو يدعـو مثنى مثنى فأنزل الله هذه الآية: **﴿قُل ادْعُوا الله أو ادْعُوا الرحمن﴾**.

وقيل: إن الدعاء ههنا بمعنى التسمية، كقولهم: دعوت ولدي سعيدًا، وأدعه بعبدالله ونحوه. والمعنى سموا الله أو سموا الرحمن، فالدعاء ههنا بمعنى التسمية، وهـذا قول الزمخشري. والذي حمله على هذا قوله: **(أيًّاما تدعوا فله الأسماء الحسنى)**، فإن المراد بتعدده معنى أي، وعمومها ههنا تعدد الأسماء ليس إلا.

والمعنى أي اسم سميتموه به من أسماء الله تعالى إما الله وإما الرحمن فله الأسماء الحسنى، أي فللمسمى سبحانه الأسماء الحسنى، والضمير في له يعود إلى المسمى. فهذا الذي أوجب له أن يحمل الدعاء في هذه الآية على التسمية، وهذا

---

(١) ١٧٤ الصواعق جـ١. (٢) ٥ البدائع جـ٢.

الذي قاله هو من لوازم المعنى المراد بالدعاء في الآية، وليس هو عين المراد، بل المراد بالدعاء معناه المعهود المطرد في القرآن، وهو دعاء السؤال ودعاء الثناء، ولكنه متضمن معنى التسمية. فليس المراد مجرد التسمية الخالية عن العبادة والطلب، بل التسمية الواقعة في دعاء الثناء والطلب. فعلى هذا المعنى يصح أن يكون في (تدعوا) معنى تسموا فتأمله، والمعنى: أيًّاما تسموا في ثنائكم ودعائكم وسؤالكم والله أعلم.

...[1] **والمثال** الثاني مما ادعوا أنه مجاز اسمه سبحانه الرحمن، وقالوا: وصفه بالرحمة مجاز، قالوا: لأن الرأفة والرحمة هي رقة تعتري القلب، وهي من الكيفيات النفسية، والله منزه عنها. وهذا باطل من وجوه (أحدها) أنهم جحدوا حقيقة الرحمة فقالوا إن نسبتها إلى الله تعالى محال، وأنه ليس برحيم بعباده على الحقيقة.وقد سبقهم إلى هذا النفي مشركو العرب الذين قال الله فيهم: **﴿وإذا قيل لهم اسجُدُوا للرحمن قالوا وما الرحمن﴾** [الفرقان: ٦٠] فأنكروا حقيقة اسمه الرحمن وأن يسمى بذلك، ولم يكونوا ينكرون ذاته وربوبيته، ولا ما يجعله المعطلة معنى اسم الرحمن من الإحسان؛ فإن أحدًا لم ينكر إحسان الله إلى خلقه، فإن قيل: فلو كان هذا كما ذكرتم لأنكروا اسم الرحيم لأن المعنى واحد (قيل) إنما لم ينكروا الرحيم لأن ورود الرحمن في أسمائه أكثر من ورود الرحيم ولهذا قال: **﴿الرحمن على العرش استوى﴾** [طه: ٥] **﴿ثم استوى على العرش الرحمن﴾** [الفرقان: ٥٩] **﴿إني أخافُ أَن يمسَّك عذاب من الرحمن﴾** [مريم: ٤٥] **﴿رب السموات والأرض وما بينهما الرحمن﴾** [النبأ: ٣٧] **﴿الرحمن علم القرآن﴾** [الرحمن: ١، ٢]. وإنما جاء الرحيم مقيدًا كقوله: **﴿وكان بالمؤمنين رحيمًا﴾** [الأحزاب: ٤٣]. وقوله: **﴿إنه بهم رءوف رحيم﴾** [التوبة: ١١٧]. ومقرونًا باسم الرحمن كما في الفاتحة أو باسم آخر نحو **﴿العزيز الرحيم﴾** [الشعراء: مرارًا]، وأيضًا فالرحمن جاء على بناء فعلان الدال على الصفة الثابتة اللازمة الكاملة كما يشعر به هذا البناء نحو: غضبان وندمان وحيران، فالرحمن من صفته الرحمة، والرحيم من يرحم بالفعل، وأيضًا فلا يخلو إنكارهم لهذا الاسم إما أن تكون دلالته على حقيقة الرحمة أولا، فإن كان الأول

(١) ١٠٩ الصواعق جـ٢.

فمن أنكر أن يكون حقيقة فقد وافقهم، وإن لم يكن كذلك فمن المعلوم أن موضوع الاسم وحقيقته صفة الرحمة القائمة بموصوفها، فلو كانت حقيقة الاسم منتفية في نفس الأمر لكان طعنهم أقوى، وكان ذلك بمنزلة وصفه بالأكل والشرب والنوم والجور ونحوها مما لا يليق به. وبالجملة فالذي أنكر أن يكون الله رحمانًا على الحقيقة هو (جهم بن صفوان) وشيعته، قال الله تعالى: ﴿**ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين يلحدون في أسمائه**﴾ [الأعراف: ١٨٠] ومن أعظم الإلحاد في أسمائه إنكار حقائقها ومعانيها والتصريح بأنها مجازات (وهو) أنواع هذا أحدها (الثاني) جحدها وإنكارها بالكلية (الثالث) تشبيهه فيها بصفات المخلوقين ومعاني أسمائه وأن الثابت له منها مماثل للثابت لخلقه وهذا يذكره المتكلمون في كتبهم، ويجعلونها مقالة لبعض الناس. وهذه كتب المقالات بين أظهرنا لا نعلم ذلك مقالة لطائفة من بعض الطوائف البتة، وإنما المعطلة الجهمية يسمون كل من أثبت صفات الكمال لله تعالى مشبهًا وممثلاً، ويجعلون التشبيه لازم قولهم، ويجعلون لازم المذهب مذهبًا، ويسرعون في الرد عليهم وتكفيرهم . . .

...[1]**قال** تعالى: ﴿**وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولدًا ولم يَكنْ له شريك في الملك ولم يكن له وليٌّ من الذلِّ وكبِّرهُ تكبيراً**﴾ [الإسراء: ١١١]. فلم ينف الولى نفيًا عامًّا مطلقًا. بل نفى أن يكون له ولي من الذلِّ، وأثبت في موضع آخر أن له أولياء بقوله: ﴿**ألا إنَّ أولياء الله لا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون**﴾ [يونس: ٦٢] وقوله: ﴿**الله ولي الذين آمنوا**﴾ [البقرة: ٢٥٧] فهذا موالاة رحمة وإحسان وجبر، والموالاة المنفية موالاة حاجة وذل.

...[2]**وموالاته** لأوليائه سلامٌ من أن تكون عن ذل كما يوالي المخلوق المخلوق، بل هي موالاة رحمة وخير وإحسان وبر كما قال تعالى: ﴿**وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولدًا ولم يكن له شريكٌ في الملك ولم يكن له وليٌّ من الذل**﴾[سورة الإسراء: ١١١] فلم ينف أن يكون له ولي مطلقًا، بل نفى أن يكون له ولي من الذل.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة الإسراء

والحمد لله رب العالمين

---

(١) ١٦٢ المفتاح جـ١.

(٢) ١٣٦ بدائع جـ٢.



بسم الله الرحمن الرحيم

(١)**قال** ـ تعالى ـ: ﴿**إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوهُم أَيُّهُم أَحْسَنُ عَمَلاً**﴾[الكهف:٧]. فأخبر ـ سبحانه ـ أنه زين الأرض بما عليها من المال وغيره للابتلاء والامتحان. كما أخبر أنه خلق الموت والحياة لذلك. وخلق السموات والأرض لهذا الابتلاء أيضاً.(٢) فهذه ثلاثة مواضع في القرآن يخبر فيها ـ سبحانه ـ أنه خلق العالم العلوي والسفلي وما بينهما، وأجل العالم وأجل أهله، وأسباب معائشهم التي جعلها زينة للأرض من الذهب والفضة والمساكن والملابس والمراكب والزروع والثمار والحيوان والنساء والبنين وغير ذلك، كل ذلك خلقه للابتلاء والامتحان ليختبر خلقه أيهم أطوع له وأرضى؛ فهو الأحسن عملاً.

وهذا هو الحق الذي خلق به وله السموات والأرض وما بينهما، وغايته الثواب والعقاب، وفواته وتعطيله هو العبث الذي نزه نفسه عنه، وأخبر أنه يتعالى عنه، وأن ملكه الحق وتفرده بالإلهية وحده وبربوبية كل شيء ينفى هذا الظن الباطل والحسبان الكاذب، كما قال ـ تعالى ـ: ﴿**أَفَحَسِبْتُم أَنَّما خَلَقْنَاكم عَبَثاً وأَنَّكم إلَيْنَا لا تُرجَعُون * فَتَعَالى اللهُ المَلِكُ الحَقُّ لا إلهَ إلا هُوَ رَبُّ العَرْشِ الكَرِيمِ**﴾ [المؤمنون: ١١٥، ١١٦]. فنزه ـ سبحانه ـ نفسه عن ذلك، كما نزهها عن الشريك والولد والصاحبة، وسائر العيوب والنقائص من السنة والنوم، واللغوب والحاجة، واكتراثه بحفظ السموات والأرض، وتقدم الشفعاء بين يديه بدون إذنه، كما يظنه أعداؤه المشركون، يخرجون عن علمه جزئيات العالم أو شيئاً منها. فكما أن كماله المقدس وكمال أسمائه وصفاته يأبى ذلك ويمنع منه، فكذلك يُبطل خلقَه لعباده عبثاً وتركهم سدى لا يأمرهم ولا ينهاهم ولا يردهم إليه فيثيب محسنهم بإحسانه ومسيئهم بإساءته، ويعرف المبطلون منهم أنه كانوا كاذبين، ويشهدهم أن رسله وأتباعهم كانوا أولى بالصدق والحق منهم. فمن أنكر ذلك فقد أنكر إلهيته وربوبيته

---

(١) ١٧٠ عدة الصابرين.

(٢) يعني آية سورة هود وآية سورة الملك (ج).

وملكه الحق، وذلك عين الجحود والكفر به ـ سبحانه ـ كما قال المؤمن لصاحبه الذي حاوره في المعاد وأنكره: ﴿أَكَفَرتَ بالذي خَلَقَكَ من تُرابٍ ثم مِن نُطفة ثم سَوَّاكَ رَجُلاً﴾ [الكهف:٣٧] فأخبر أن إنكاره للمعاد كفر بذات الرب ـ سبحانه ـ.

...[1]**الفتوة:** هذه المنزلة حقيقتها هي منزلة الإحسان إلى الناس، وكف الأذى عنهم، واحتمال أذاهم. فهي استعمال حسن الخلق معهم. فهي في الحقيقة نتيجة حسن الخلق واستعماله.

والفرق بينها وبين المروءة: أن المروءة أعم منها؛ فالفتوة نوع من أنواع المروءة. فإن المروءة استعمال ما يجمل ويزين مما هو مختص بالعبد، أو متعد إلى غيره. وترك ما يدنس ويشين مما هو مختص أيضاً به، أو متعلق بغيره. و«الفتوة» إنما هي استعمال الأخلاق الكريمة مع الخلق. فهي ثلاثة منازل: منزلة التخلق وحسن الخلق. ومنزلة الفتوة. ومنزلة المروءة. وقد تقدمت منزلة الخلق.

وهذه منزلة شريفة، لم تعبر عنها الشريعة باسم «الفتوة» بل عبرت عنها باسم «مكارم الأخلاق» كما في حديث يوسف بن محمد بن المنكدر عن أبيه عن جابر ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ: «**إن الله بعثني لأتمم مكارم الأخلاق، ومحاسن الأفعال**».

وأصل «الفتوة» من «الفتى» وهو الشاب الحديث السن. قال الله ـ تعالى ـ عن أهل الكهف: ﴿إِنَّهُم فِتْيَةٌ آمَنوا بِرَبِّهِم وَزِدْنَاهم هُدًى﴾ [الكهف: ١٣]. وقال عن قوم إبراهيم إنهم قالوا: ﴿سَمِعنا فَتًى يَذكُرهم يُقال له إبراهِيم﴾ [الأنبياء: ٦٠]. وقال تعالى عن يوسف: ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجنَ فَتَيَانِ﴾[يوسف:٣٦]. وقال تعالى: ﴿وَقَالَ لِفتيَانِه اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُم في رِحَالِهِم﴾ [يوسف:٦٢].

فاسم «الفتى» لا يشعر بمدح ولا ذم، كاسم الشاب والحدَث. ولذلك لم يجيء اسم «الفتوة» في القرآن ولا في السنة ولا في لسان السلف، وإنما استعمله مَنْ بعدهم في مكارم الأخلاق. وأصلها عندهم: أن يكون العبد أبداً في أمر غيره.

...[2]**قوله** ـ تعالى ـ في أصحاب الكهف: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَى قُلوبِهم إذا قَامُوا فقالوا رَبُّنا رَبُّ السَّمواتِ والأرضِ لن نَدْعُوَ مَن دُونه إلهاً لَقد قُلنَا إذًا شَطَطاً﴾

(١) ٣٤٠ مدارج جـ٢. (٢) ٦٧ مدارج جـ٣.

[الكهف: ١٤]. وهذا من أحسن الاستدلال والاستشهاد، فإن هؤلاء كانوا بين قومهم الكفـار في خدمة ملكهم الكافر. فما هو إلا أن وجدوا حقيقة الإيمان والتوفيق، وذاقـوا حلاوتـه، وبـاشر قلوبهم. فقـامـوا من بين قومهم، وقالوا: ﴿رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ والأرضِ﴾ الآية.

والربط على قلوبهم: يتضمن الشد عليها بالصبر والتثبيت، وتقويتها وتأييدها بنور الإيمان، حتى صبروا على هجران دار قومهم، ومفارقة ما كانوا فيه من خفض العيش. وفروا بدينهم إلى الكهف.

والربط على القلب عكس الخذلان. فالخذلان حَلُّه من رباط التوفيق؛ فيغفل عن ذكر ربه ويتبع هواه. ويصير أمره فرطًا والربط على القلب شده برباط التوفيق، فيتصل بذكر ربه ويتبع مرضاته ويجتمع عليه شمله.

...(١)**استنبط** أبـوالقاسم السهيلي: أن عدة أصحاب الكهف سبعة، قال: لأن الله ـ تعـالى ـ حكى قول من قال: ثلاثة، وخمسة، ولم يذكر الواو في قوله: **(رابعهم)** **(سـادسهم)**. وحكى قول من قال: إنهم سبعة، ثم قال: **(وثامنهم كلبهم)** [الكهف: ٢٢] قال: لأن الـواو عاطفـة على كلام مضمـر، تقديره: نعم، **﴿وثامنهم كلبهم﴾**.

(٢)**المخرج** الرابع: أن يستثنى في يمينه أو طلاقه. وهذا موضع اختلف فيه الفقهـاء. فقال الشافعي وأبوحنيفة: يصح الاستثناء في الإيقاع والحلف، فإذا قال: «أنت طالق إن شاء الله» أو «أنت حرة إن شاء الله» أو «إن كلمت فلاناً فأنت طالق إن شاء الله» أو «الـطلاق يلزمني لأفعلن كذا إن شاء الله» أو «أنت علي حرام، أو الحرام يلزمني إن شاء الله» نَفَعَهُ الاستثناء، ولم يقع به طلاق في ذلك كله.

ثم اختلفا في الموضع [الذي] يعتبر فيه الاستثناء، فاشترط أصحاب أبي حنيفة اتصالَه بالكلام فقط، سواء نَواه من أوله أو قَبْل الفراغ من كلامه أو بعده.

وقال أصحاب الشافعي: إن عَقَد اليمين ثم عنَّ له الاستثناء لم يصح. وإن عنَّ له الاستثناء في أثناء اليمين فوجهان؛ أحدهما: يصح، والثاني: لا يصح. وإن نوى الاستثناء مع عَقْد اليمين صح وجهاً واحداً.

---

(١) ٧٥ تهذيب السنن جـ٨.　(٢) ٥٤ أعلام جـ٤.

وقد ثبت بالسنة الصحيحة أن سليمان بن داود ـ عليهما الصلاة والسلام ـ قال: «**لأطوفَنَّ الليلةَ على كذا وكذا امرأة، تحمل كل امرأة منهم غلاماً يقاتل في سبيل الله، فقال له المَلَك الموكل به: قل إن شاء الله، فلم يقل**»، فقال النبي: «**والذي نَفْسِي بيده لو قالها لقاتلُوا في سبيل الله فرساناً أجمعون**». وهذا صريحٌ في نَفْع الاستثناء المقصود بعد عقد اليمين.

وثبت في السنن عنه ﷺ أنه قال: «**والله لأغْزُوَنَّ قريشاً، والله لأغزُونَّ قُريشاً، والله لأغزُوَنَّ قُريشاً**»، ثم سكت قليلاً ثم قال: «**إن شاء الله**» ثم لم يَغْزُهم، رواه أبوداود. وفي جامع الترمذي من حديث ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ حلف على يمين فقال: إن شاء الله فلا حِنْثَ عليه**». وقد قال ـ تعالى ـ: ﴿**وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إني فاعلٌ ذَلك غَدًا * إلا أن يَشَاءَ الله واذكُر رَبَّكَ إذا نَسِيتَ**﴾ [الكهف: ٢٣، ٢٤].

فهذه النصوص الصحيحة لم يشترط في شيء منها [البتة] في صحة الاستثناء ونَفْعِه أن ينويه مع الشروع في اليمين ولا قبلها، بل حديث سليمان صريح في خلافه، وكذلك حديث «**لأغزونَّ قُريشاً**»، وحديث ابن عمر متناول لكل من قال إن شاء الله بعد يمينه، سواء نوى الاستثناء قبل الفراغ أو لم ينوه، والآية دالة على نفع الاستثناء مع النسيان أظْهَرَ دلالة. ومَنْ شرط النية قبل الفراغ لم يكن لذكر الاستثناء بعد النسيان عنده تأثير.

وأيضا فالكلام بآخِره، وهو كلام واحد متصل بعضه ببعض، ولا معنى لاشتراط النية في أجزائه وأبعاضه. وأيضاً فإن الرجل قد يستحضر بعد فراغه من الجملة ما يرفع بعضها، ولا يذكر ذلك في حال تكلمه بها، فيقول: لزيد عندي ألف درهم، ثم في الحال يذكر أنه قَضَاه منها مائة فيقول: إلا مائة، فلو اشترط نية الاستثناء قبل الفراغ لتعذَّر عليه استدراك ذلك وألجيء إلى الإقرار بما لا يلزمه والكذب فيه. وإذا كان هذا في الإخبار فمثله في الإنشاء سواء؛ فإن الحالف قد يَبْدُو له فيعلق اليمين بمشيئة الله، وقد يذهل في أول كلامه عن قصد الاستثناء، أو يشغله شاغل عن نيته، فلو لم ينفعه الاستثناء حتى يكون ناوياً له من أول يمينه

لفات مقصودُ الاستثناء، وحصل الحَرَجُ الذي رفعه الله ـ تعالى ـ عن الأمة به، ولما قال لرسوله إذا نسيه: ﴿واذْكُرْ رَبَّكَ إذا نَسِيتَ﴾ وهذا متناول لذكره إذا نسي الاستثناء قطعاً، فإنه سببُ النزول، ولا يجوز إخراجه وتخصيصه لأنه مُرَاد قطعاً، وأيضاً فإن صاحب هذا القول إن طَرَدَه لزمه ألا يصح مخصِّص من صفة أو بدل أو غاية أو استثناء بإلا ونحوها حتى ينويه المتكلم من أول كلامه. . . .

[1]... **فالتحقيق** في المسألة أن المستثنِيَ إما أن يَقْصِد بقوله: «إن شاء الله» التحقيقَ أو التعليقَ؛ فإن قصد به التحقيقَ والتأكيد وقع الطلاق، وإن قصد به التعليقَ وعدم الوقوع في الحال لم تطلق، هذا هو الصواب في المسألة، وهو اختيار شيخنا وغيره من الأصحاب.

وقال أبوعبدالله بن حمدان في رعايته: قلت: إن قصد التأكيد والتبرك وقع، وإن قصد التعليق وجهل استحالة العلم بالمشيئة فلا. وهذا قول آخر غير الأقوال الأربعة المحكية في المسألة، وهو أنه إنما ينفعه الاستثناء إذا قصد التعليق وكان جاهلاً باستحالة العلم بمشيئة الله ـ تعالى ـ فلو علم استحالة العلم بمشيئته ـ تعالى ـ لم ينعقد الاستثناء. والفرق بين علمه بالاستحالة وجهله بها أنه إذا جهل استحالة العلم بالمشيئة فقد عَلَّق الطلاق بما هو ممكن في ظنه فيصح تعليقه، وإذا لم يجهل استحالة العلم بالمشيئة فقد علقه على محال يعلم استحالته فلا يصح التعليق، وهذا أحد الأقوال في تعليقه بالمحال.

قلت: وقولهم: «إن العلم بمشيئة الرب محال» خطأ محض، فإن مشيئة الرب تُعْلَم بوقوع الأسباب التي تقتضي مسبباتها؛ فإن مشيئة المسبب مشيئة لحكمه، فإذا أوقع عليها بعد ذلك طلاقاً علمنا أن الله قد شاء طلاقها. فهذا تقرير الاحتجاج من الجانبين ولا يخفى ما تضمنه من رجحان أحد القولين والله أعلم.

وقد قدمنا اختلاف الفقهاء في اشتراط نية الاستثناء وزمنها، وأن أضيق الأقوال قول مَنْ يشترط النية من أول الكلام، وأوسع منه قول مَنْ يشترطها قبل فراغه، وأوسع منه قول مَنْ يجوز إنشاءها بعد الفراغ من الكلام، كما يقوله أصحاب أحمد

---

(١) ٧٧ أعلام جـ٤.

وغيرهم، وأوسع منه قول مَنْ يجوزه بالقرب، ولا يشترط اتصاله بالكلام، كما نص عليه أحمد في رواية المروزي فقال: حديث ابن عباس أن النبي ﷺ قال: **«إن شاء الله»** إذ هو استثناء بالقرب، ولم يخلط كلامه بغيره، وقال إسماعيل بن سعيد الشالنجي: سألت أحمد بن حنبل عن الاستثناء في اليمين، فقال: من استثنى بعد اليمين فهو جائز، على مثل فعل النبي ﷺ إذ قال: **«والله لأغزون قريشاً»** ثم سكت ثم قال: **«إن شاء الله»** ولم يبطل ذلك، قال: ولا أقول فيه بقول هؤلاء، يعني من لم يَرَ ذلك إلا متصلاً، هذا لفظ الشالنجي في مسائله.

وأوسَعُ من ذلك قولُ من قال: ينفعه الاستثناء، ويصح ما دام في المجلس، نص عليه الإمام أحمد في إحدى الروايات عنه، وهو قول الأوزاعي كما سنذكره.

وأوسع منه من وجه قول من لا يشترط النية بحال، كما صرح به أصحاب أبي حنيفة. وقال صاحب الذخيرة في كتاب «الطلاق» في الفصل السادس عشر منه: ولو قال لها: «أنت طالق إن شاء الله» ولا يدري أي شيء شاء الله لا يقع الطلاق؛ لأن الطلاق مع الاستثناء ليس بإيقاع، فعلمه وجهله يكون سواء، ولو قال لها: «أنت طالق» فجرى على لسانه من غير قَصْدٍ «إن شاء الله». وكان قصده إيقاع الطلاق لا يقع الطلاق لأن الاستثناء قد وجد حقيقة، والكلام مع الاستثناء لا يكون إيقاعاً. . . .

...[1]**وتفسير** الآية، عند جماعة المفسرين: أنك لا تقل لشيء: أفعل كذا وكذا، حتى تقول: إن شاء الله. فإذا نسيت أن تقولها، فقلها متى ذكرتها. وهذا هو الاستثناء المتراخي، الذي جوزه ابن عباس. وتأول عليه الآية، وهو الصواب. .

....**والذي** أجمع عليه المفسرون: أن أهل مكة سألوا النبي ﷺ عن الروح، وعن أصحاب الكهف، وعن ذي القَرْنين، فقال: **«أخبركم غداً»** ولم يقل: «إن شاء الله» فَتَلَبَّث الوحي أياماً. ثم نزلت هذه الآية، قال ابن عباس، ومجاهد، والحسن وغيرهم: معناه إذا نسيت الاستثناء. ثم ذكرت فاستثن. قال: ابن عباس - رضي الله عنهما -: ويجوز الاستثناء إلى سنة.[2]. وقال: عكرمة -

---

(١) ٤٣١ مدارج جـ٢.

(٢) تقدم قريبًا توجيه كلام ابن عباس - رضي الله عنهما - (ج).

رحمه الله ـ: واذكر ربك إذا غضبت. وقال الضحاك والسدى: هذا في الصلاة. أي إذا نسيت الصلاة فصلِّها متى ذكرتها.

(١)**وأما** قولكم: «إن الاستثناء بابه الأيمان» إن أردتم به اختصاص الأيمان به فلم تذكروا على ذلك دليلاً، وقوله ﷺ: «**مَنْ حلف فقال: إن شاء الله فقد استثنى**». وفي لفظ آخر: «**مَنْ حلف فقال: إن شاء الله فهو بالخيار؛ فإن شاء فعل، وإن شاء لم يفعل**» فحديث حسن، ولكن لا يوجب اختصاص الاستثناء بالمشيئة باليمين، وقد قال الله ـ تعالى ـ: ﴿**وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا * إِلا أَنْ يَشَاءَ اللهُ**﴾ [الكهف: ٢٣، ٢٤] . وهذا ليس بيمين، ويشرع الاستثناء في الوعد والوعيد والخبر عن المستقبل، كقوله: غداً أفعل إن شاء الله، وقد عتب الله على رسوله ﷺ حيث قال لمن سأله من أهل الكتاب عن أشياء: «**غداً أخبركم**» ولم يقل إن شاء الله، فاحتبس الوَحْيُ عنه شهراً، ثم نزل عليه: ﴿**وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَداً * إلا أن يَشَاء الله واذكُر رَبَّك إذا نَسِيتَ**﴾ أي إذا نسيت ذلك الاستثناء عقيب كلامك فاذكره به إذا ذكرت، هذا معنى الآية، وهو الذي أراده ابن عباس بصحة الاستثناء المتراخي. ولم يقل ابن عباس قط ولا مَنْ هو دونه: إن الرجل إذا قال لامرأته: «أنت طالق» أو لعبده: «أنت حر» ثم قال بعد سنة «إن شاء الله» إنها لا تطلق ولا يعتق العبد، وأخطأ مَنْ نقل ذلك عن ابن عباس. أو عن أحد من أهل العلم البتة، ولم يفهموا مُراد ابن عباس، والمقصود أن الاستثناء لا يختص باليمين لا شرعاً ولا عرفاً ولا لغةً، وإن أردتم بكون بابه الأيمان كثرتَهُ فيها؛ فهذا لا ينفي دخوله في غيرها . . . .

(٢)**وإن** قال بلسانه: «لا أوري ولا أكني» والتورية والكناية في قلبه، كما لو قال: «لا أستثني» بلسانه وفي نيته الاستثناء ثم استثنى فإنه ينفعه، حتى لو لم ينو الاستثناء ثم عزم عليه واستثنى نفعه ذلك بالسنة الصحيحة الصريحة التي لا معارض لها بوجه في غير حديث، كقول المَلَكِ لسليمان: قل إن شاء الله، وقول النبي ﷺ: «**إلا الإذْخِرَ**» بعد أن ذَكَّره به العباس. وقوله: «**إن شاء الله**» بعد أن

---

(١) ٧٥ أعلام جـ٤.   (٢) ٣٥٦ أعلام جـ٣.

قال: «**لأغْزُوَنَّ قريشًا**» ثلاث مرات ثم قال بعد الثالثة وسكوته: «**إن شاء الله**» والقرآن صريح في نفع الاستثناء إذا نسيه ولم ينوه في أول كلامه ولا أثناءه في قوله تعالى: ﴿**ولاَ تَقُولن لِشَيْءٍ إِنِّي فاعِلٌ ذَلِكَ غداً * إلا أن يشاء الله واذكر ربَّك إِذَا نَسِيتَ**﴾، وهذا إما أن يختصَّ بالاستثناء إذا نسيه كما فسره به جمهور المفسرين، أو يعمه ويعم غيره وهو الصواب.

فأما أن يخرج منه الاستثناء الذي سِيقَ الكلامُ لأجله ويرد إلى غيره فلا يجوز، ولأن الكلام الواحد لا يعتبر في صحته نية كل جملة من جُمله وبعض من أبعاضه؛ فالنص والقياس يقتضي نفع الاستثناء، وإن خطر له بعد انقضاء الكلام، وهذا هو الصواب المقطوع به.

(1) **والإلحاد** في أسمائه هو العدول بها وبحقائقها ومعانيها عن الحق الثابت لها، وهو مأخوذ من الميل كما يدل عليه مادته [ل. ح د.] فمنه اللحد وهو الشق في جانب القبر الذي قد مال عن الوسط. ومنه الملحد في الدين: المائل عن الحق إلى الباطل. قال ابن السكيت: الملحد المائل عن الحق المدخل فيه ما ليس منه. ومنه الملتحد وهو مفتعل من ذلك. وقوله تعالى: ﴿**وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِه مُلْتَحَداً**﴾ [الكهف: ٢٧]. أي من تعدل إليه، وتهرب إليه، وتلتجيء إليه، وتبتهل إليه، فتميل إليه عن غيره. تقول العرب: التحد فلان إلى فلان إذا عدل إليه.

(2) **الوجه** السادس: قوله: «الصبر حبس النفس على مكروه، وعقل اللسان عن الشكوى، ومكابدة الغصص في تحمله، وانتظار الفرج عند عاقبته» فيقال: هذا أحد أقسام الصبر، وهو الصبر على البلاء. وأما الصبر على الطاعة فقد يعرض فيه ذلك أو بعضه، وقد لا يعرض فيه، بل يتحلى بها ويأتي بها محبة ورضى، ومع هذا فالصبر واقع عليها، فإنه حبس النفس على مداومتها والقيام بها. قال الله تعالى: ﴿**وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ**﴾ [الكهف: ٢٨].

وأما الصبر عن المعصية فقد يعرض فيه ذلك أو بعضه، وقد لا يعرض فيه، لتمكن الصابر من قهر داعيها وغلبته، وإذا كان ما ذكر من الأمور الأربعة إنما

---

(١) ١٦٩ بدائع جـ١.
(٢) ٢٦٦ طريق الهجرتين.

يعرض في الصبر على البلية فقوله: «إنه في طريق الخاصة تجلد ومناوأة وجرأة ومنازعة»، ليس كذلك، وإنما فيه التجلد، فأين المناوأة والجرأة والمنازعة؟ وأما لوازم الطبيعة من وجود ألم البلوى فلا تنقلب ولا تعدم فلا يصح أن يقال: إن وجود التألم والتجلد عليه، وحبس النفس عن التسخط واللسان عن الشكوى، جرأة ومنازعة، بل هو محض العبودية والاستكانة وامتثال الأمر، وهو من عبودية الله المفروضة على عبده في البلاء، فالقيام بها عين كمال العبد، ولوازم الطبيعة لابد منها.

ومن رام أن لا يجد البرد والحر والجوع والعطش والألم عند تمام أسبابها وعللها فقد رام الممتنع. وهل يكون الأجر إلا على وجود تلك الآلام والمشاق والصبر عليها؟ وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: **«أشد الناس بلاء الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل»** وقيل له في مرضه: إنك لتوعك وعكاً شديداً، قال: **«أجل إن لي أجر رجلين منكم»** يعني في وعكه. ولاريب أن ذلك الوعك مؤلم له ﷺ، وأيضاً في مرض موته قال: **«وارأساه»** وهذا إنما هو من وجود ألم الصداع. وكان يقول في غمرات الموت: **«اللهم أعني على سكرات الموت»** وهذا كله لتكميل أجره وزيادة رفعة درجاته ﷺ. وهل كان ذلك إلا محض العبودية وعين الكمال؟ وهل الجرأة والمناوأة والمنازعة إلا في ترك الصبر، وفي التسخط والشكوى؟

(١)**قوله** تعالى: **﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾** [الكهف: ٢٨]. وفي الآية رد ظاهر على الطائفتين وإبطال لقولهما، فإنه ـ سبحانه ـ أغفل قلب العبد عن ذكره فغفل هو، فالإغفال فعل الله، والغفلة فعل العبد.

ثم أخبر عن اتباعه هواه، وذلك فعل العبد حقيقة. والقدرية تحرف هذا النص وأمثاله بالتسمية والعلم، فيقولون: معنى أغفلنا قلبه سميناه غافلاً، أو وجدناه غافلاً، أي علمناه كذلك، وهذا من تحريفهم، بل أغفلته مثل أقمته وأقعدته وأغنيته وأفقرته، أي جعلته كذلك. وأما أفعلته أو أوجدته كذلك كأحمدته وأجبنته وأبخلته وأعجزته فلا يقع في أفعال الله البتة، إنما يقع في أفعال العاجز أن يجعل جبانًا وبخيلاً وعاجزاً فيكون معناه صادفته كذلك. وهل يخطر بقلب الداعي:

---

(١) ٦٤ شفاء.

اللهم أقدرني أو أوزعني وألهمني أي: سمني واعلمني كذلك؟ وهل هذا إلا كذب عليه وعلى المدعو سبحانه. والعقلاء يعلمون علماً ضروريًا أن الداعي إنما سأل الله أن يخلق له ذلك، ويشاءه له، ويقدره عليه. حتى القدري إذا غابت عنه بدعته وما تقلده عن أشياخه وأسلافه وبقي وفطرته لم يخطر بقلبه سوى ذلك. وأيضاً فلا يمكن أن يكون العبد هو المغفِّلُ لنفسه عن الشيء، فإن إغفاله لنفسه عنه مشروط بشعوره به، وذلك مضاد لغفلته عنه، بخلاف إغفال الرب تعالى له فإنه لا يضاد علمه بما يغفل عنه العبد، وبخلاف غفلة العبد فإنها لا تكون إلا مع عدم شعوره بالمغفول عنه؛ وهذا ظاهر جدًّا. فثبت أن الإغفال فعل الله بعبده، والغفلة فعل العبد.

(١) **وقال** قتادة في قوله ـ تعالى ـ: ﴿**وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا**﴾: أضاع نفسه وغبن مع ذلك، تراه حافظاً لماله مضيعاً لدينه. وقال الحسن: «إن العبد لايزال بخير ما كان له واعظ من نفسه، وكانت المحاسبة من همته».

(٢) **قال** تعالى: ﴿**وَلَا تُطِعْ من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتَّبع هواه وكان أمره فرطًا**﴾ [الكهف: ٢٨] وينبغي أن يعلم أن الهوى وحده لا يستقل بفساد السيئات إلا مع الجهل، وإلا فصاحب الهوى لو جزم بأن ارتكاب هواه يضره ولا بد ضررًا راجحًا لانصرفت نفسه عن طاعته له بالطبع، فإن الله ـ سبحانه ـ جعل في النفس حبًّا لما ينفعها وبغضًا لما يضرها، فلا تفعل مع حضور عقلها ما تجزم بأنه يضرها ضررًا راجحاً، ولها يوصف تارك ذلك بالعقل والحجى واللب. فالبلاء مركب من تزيين الشيطان وجهل النفس، فإنه يزين لها السيئات ويريها أنها في صور المنافع واللذات والطيبات، ويغفلها عن مطالعتها لمضرتها، فتولد من بين هذا التزيين وهذا الإغفال والإنساء لها إرادة وشهوة، ثم يمدها بأنواع التزيين فلا يزال يقوى حتى يصير عزمًا جازمًا يقترن به الفعل، كما زين للأبوين الأكل من الشجرة وأغفلهما عن مطالعة مضرة المعصية.

فالتزيين هو سبب إيثار الخير والشر، كما قال ـ تعالى ـ: ﴿**وَزَيَّنَ لهم الشَّيطَانُ مَا كَانُوا يعملونَ**﴾ [الأنعام: ٤٣] وقال: ﴿**أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآه حَسَنًا**﴾

---

(١) ٧٨ إغاثة جـ١.　　(٢) ١٧١ شفاء.

[فاطر: ٨] وقال في تزيين الخير: ﴿وَلَكِن الله حَبَّبَ إليكمُ الإيمانَ وَزَيَّنَه في قُلوبِكُم﴾ [الحجرات: ٧] وقال في تزيين النوعين: ﴿كَذلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلهم ثم إلى رَبِّهِم مَرجِعُهم فينبئُهُم بِمَا كَانُوا يعملونَ﴾ [الأنعام: ١٠٨].

وتزيين الخير والهدى بواسطة الملائكة والمؤمنين، وتزيين الشر والضلال بواسطة الشياطين من الجن والإنس، كما قال ـ تعالى ـ: ﴿وكَذلِك زَيَّن لِكَثيرٍ مِن المشركين قَتْـلَ أولادِهم شركـاؤهم﴾ [الأنعام: ١٣٧]. وحقيقة الأمر أن التزيين إنما يغتر به الجاهل؛ لأنه يلبس له الباطل والضار المؤذي صورة الحق والنافع الملائم. فأصل البلاء كله من الجهل وعدم العلم، ولهذا قال الصحابة: كل من عصى الله فهو جاهل، وقال تعالى: ﴿إنَّما التَّوبة على الله لِلَّذين يعملون السُّوء بِجَهالةٍ ثم يتُوبون من قريب﴾ [النساء: ١٧] وقال: ﴿وإذَا جَاءكَ الَّذين يؤمنون بآياتنا فقُل سلامٌ عَليكم كَتَب ربُّكم على نفسه الرحمة أنه من عَمِل منكم سوأً بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فأنه غفورٌ رحيم﴾ [الأنعام: ٥٤].

(١)**فصل** وأما الإغفال، فقال ـ تعالى ـ ﴿وَلاَ تُطعْ من أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنا واتَّبَعَ هَوَاه وَكَانَ أمرُهُ فُرُطًا﴾ سئل أبوالعباس ثعلب عن قوله: ﴿أغفلنا قلبه عن ذِكرنا﴾ فقال: جعلناه غافلاً، قال: ويكون في الكلام، أغفلته سميته: غافلاً، ووجدته غافلاً. قلت: الغُفل: الشيء الفارغ، والأرض الغُفل التي لا علامة بها، والكتاب الغفل الذي لا شكل عليه، فأغفلناه تركناه غفلاً عن الذكر فارغاً منه، فهو إبقاء له على العدم الأصلي، لأنه ـ سبحانه ـ لم يشأ له الذكر فبقي غافلاً. فالغفلة وصفه، والإغفال فعل الله فيه بمشيئته، وعدم مشيئته لتذكره، فكل منهما مقتض لغفلته فإذا لم يشأ له التذكر لم يتذكر، وإذا شاء غفلته امتنع منه الذكر، فإن قيل فهل تضاف الغفلة والكفر والإعراض ونحوها إلى عدم مشيئة الرب أضدادها أم إلى مشيئته لوقوعها. قيل القرآن قد نطق بهذا وبهذا، قال ـ تعالى ـ: ﴿أولئك الَّذينَ لم يُرِدِ الله أَن يطهِّر قُلُوبَهم﴾ [المائدة: ٤١]. وقال: ﴿وَمَن يُرِدِ الله فِتنَتَهُ فلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ الله شيئًا﴾ [المائدة: ٤١] ﴿وَمَنْ يُرد أَنْ يُضله﴾. فإن قيل: فكيف يكون

---

(١) ٩٨ شفاء

عدم السبب المقتضي موجبًا للأثر؛ قيل: الأثر إن كان وجوديًا فلابد له من مؤثر وجودي، وأما العدم فيكفي فيه عدم سببه وموجبه فيبقى على العدم الأصلي، فإذا أضيف إليه كان من باب إضافة الشيء إلى دليله، فعدم السبب دليل علي عدم المسبب، وإذا سمي موجباً ومقتضياً بهذا الاعتبار فلا مشاحة في ذلك، وأما أن يكون العدم أثراً ومؤثراً فلا. وهذا الإغفال ترتب عليه اتباع هواه وتفريطه في أمره.

قال مجاهد: كان أمره فرطاً أي ضياعاً، وقال قتادة: أضاع أكبر الضيعة، وقال السدى: هلاكاً، وقال أبوالهيثم: أمر فرط أي متهاون به مضيع، والتفريط تقديم العجز، قال أبوإسحاق: من قدم العجز في أمر أضاعه وأهلكه. قال الليث: الفرط الأمر الذي يفرط فيه يقول كل أمر فلان فرط. قال الفراء: فرطًا متروكاً يفرط فيها لا ينبغي التفريط فيه، واتبع ما لا ينبغي اتباعه، وغفل عما لا يحسن الغفلة عنه.

(1)**قال** تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحسَنَ عَمَلاً * أُولَئِكَ لَهُم جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأنهارُ يُحَلَّونَ فِيهَا مِن أَساوِرَ مِن ذَهَبٍ ويَلْبَسونَ ثِيابًا خُضراً مِنْ سُنْدُسٍ وإسْتَبرقٍ مُتَّكِئِينَ فِيها عَلَى الأرائِكِ﴾ [الكهف: ٣٠، ٣١].

قال جماعة من المفسرين: السندس ما رَقَّ من الديباج، والإستبرق ما غلظ منه. وقالت طائفة: ليس المراد به الغليظ ولكن المراد به الصفيق. وقال الزجاج: هما نوعان من الحرير، وأحسن الألوان الأخضر، وألين اللباس الحرير فجمع لهم بين حسن منظر اللباس، والتذاذ العين به وبين نعومته والتذاذ الجسم به. وقال تعالى: ﴿وَلِبَاسُهُم فِيها حَرِيرٌ﴾ [الحج:٢٣]. وههنا مسألة وهذا موضع ذكرها، وهي أن الله ـ سبحانه ـ وتعالى أخبر أن لباس أهل الجنة حرير، وصح عن النبي ﷺ أنه قال: «من لبس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة» متفق على صحته من حديث عمر بن الخطاب وأنس بن مالك. وقد اختلف في المراد بهذا الحديث، فقالت طائفة من السلف والخلف: أنه لا يلبس الحرير في الجنة ويلبس غيره من الملابس. قالوا: وأما قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَلِبَاسُهُم فيها حَرِيرٌ﴾. [فاطر:٣٣]. فمن العام المخصوص.

---

(١) ١٤١ حادي الأرواح.

وقال الجمهور: وهذا من الوعيد الذي له حكم أمثاله من نصوص الوعيد التي تدل على أن الفعل مقتض لهذا الحكم، وقد يتخلف عنه لمانع. وقد دل النص والإجماع على أن التوبة مانعة من لحوق الوعيد، ويمنع من لحوقه أيضاً الحسنات الماحية، والمصائب المكفرة، ودعاء المسلمين، وشفاعة من يأذن الله له في الشفاعة فيه، وشفاعة أرحم الراحمين إلى نفسه. فهذا الحديث نظير الحديث الآخر: «**من شرب الخمر في الدنيا لم يشربها في الآخرة**». وقال تعالى: ﴿**وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحريراً**﴾ [الإنسان: ١٢].

(١)**فصل** في هديه ﷺ فيما يقول من رأى ما يعجبه من أهله وماله. يذكر عن أنس عنه أنه قال: «**ما أنعم الله على عبد نعمة في أهل ولا مال أو ولد، فيقول: ما شاء الله، لا قوة إلا بالله، فيرى فيه آفة دون الموت، وقد قال تعالى: ﴿وَلَولَا إِذ دَخَلت جَنَّتك قُلتَ ماشاء الله لَا قُوة إلا بالله﴾**» [الكهف: ٣٩].

(٢)**قال** تعالى: ﴿**وَإِذْ قُلنا للمَلَائِكة اسجُدوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إلا إبليسَ كَانَ مِنَ الجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْر ربِّه أَفَتَتَّخِذُونَه وَذريَّته أولياءَ مِن دوني وهُم لكم عَدُوٌّ بِئْسَ للظَّالِمِينَ بَدَلاً**﴾ [الكهف: ٥٠]. يقول ـ سبحانه ـ لعباده أنا أكرمت آباكم، ورفعت قدره، وفضلته على غيره، فأمرت ملائكتي كلهم أن يسجدوا له تكريماً وتشريفاً فأطاعوني، وأبىٰ عدوي وعدوه فعصى أمري وخرج عن طاعتي، فكيف يحسن بكم بعد هذا أن تتخذوه وذريته أولياء من دوني؟ فتطيعونه في معصيتي، وتوالونه في خلاف مرضاتي، وهم أعدا عدو لكم؟ فواليتم عدوي وقد أمرتكم بمعاداته. ومن والى أعـداء الملك كان هو وأعـداؤه عنده سواء؛ فإن المحبة والطاعة لا تتم إلا بمعاداة أعداء المطاع وموالاة أوليائه، وأما أن توالي أعداء الملك ثم تدعي أنك موال له فهذا محال. هذا لو لم يكن عدو الملك عدوًّا لكم فكيف إذا كان عدوكم على الحقيقة، والعداوة التي بينكم وبينه أعظم من العداوة التي بين الشاة وبين الذئب؟ فكيف يليق بالعاقل أن يوالي عدوه وعدو وليه ومولاه الذي لا مولى له سواه؟ ونبه ـ سبحانه ـ على قبح هذه الموالاة بقوله: ﴿**وَهُم لكُم عَدُوٌّ**﴾ كما نبه على

---

(١) ٩١ زاد المعاد جـ٢.

(٢) ١٠٩ الجواب الكافي.

قبحها بقوله ـ تعالى ـ: ﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾[1] فتبين أن عداوته لربه وعداوته لنا كل منهما سبب يدعو إلى معاداته، فما هذه الموالاة وما هذا الاستبدال؟ بئس للظالمين بدلاً. ويشبه أن يكون تحت هذا الخطاب نوع من العتاب لطيف عجيب، وهو: إني عاديت إبليس إذ لم يسجد لأبيكم آدم مع ملائكتي فكانت معاداته لأجلكم ثم كان عاقبة هذه المعاداة أن عقدتم بينكم وبينه عقد المصالحة.

[2]﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لآدم فَسَجَدُوا إلا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتتخِذُونَه وَذُرِّيَتَهُ أَوْلِياء مِنْ دُونِي وهُم لَكُم عَدُوٌّ بِئْسَ للظَّالِمِينَ بَدَلا﴾ [الكهف: ٥٠]. فتحت هذا الخطاب: إني عاديت إبليس وطردته من سمائي وباعدته من قربي إذ لم يسجد لأبيكم آدم، ثم أنتم يا بنيه توالونه وذريته من دوني وهم أعداء لكم.

فليتأمل اللبيب مواقع هذا الخطاب وشدة لصوقه بالقلوب والتباسه بالأرواح. وأكثر القرآن جاء على هذا النمط من خطابه لعباده بالتودد والتحنن واللطف والنصيحة البالغة، وأعلم عباده أنه لا يرضى لهم إلا أكرم الوسائل وأفضل المنازل وأجل العلوم والمعارف، قال ـ تعالى ـ: ﴿إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ الله غَنِيٌّ عَنْكُم وَلَا يَرْضَى لِعِبادِهِ الْكُفْرَ وإِنْ تَشْكُرُوا يَرضَهُ لكُم﴾ [الزمر: ٧].

[3]**فتأمل** ما تحت هذه المعاتبة وما في طي هذا الخطاب من سوء هذا العبد وما تعرض له من المقت والخزي والهوان، ومن استعطاف ربه واستعتابه ودعائه إياه إلى العود إلى وليه ومولاه الحق الذي هو أولى به، فإذا عاد إليه وتاب إليه فهو بمثابة من أسر له العدو محبوباً له، واستولوا عليه وحالوا بينه وبينه، فهرب منهم ذلك المحبوب وجاء إلى محبه اختياراً وطوعاً حتى توسد عتبة بابه، فخرج المحب من بيته فوجد محبوبه متوسداً عتبة بابه واضعاً خده وذقنه عليها، فكيف يكون فرحه به؟ ولله المثل الأعلى. ويكفي في هذا المثل الذي ضربه رسول الله ﷺ لمن فتح الله عين قلبه فأبصر ما في طيه وما في ضمنه، وعلم أنه ليس كلام مجاز ولا مبالغة ولا تخييل، بل كلام معصوم في منطقه وعلمه وقصده وعمله، كل كلمة منه في موضعها

---

(١) يأتي تقسيم الفسق في سورة الحجرات، كما يأتي إن شاء الله في تفسير هذه الآية مايحسن الإحالة عليه في تفسيره للمعوذتين (ج). (٢) ١٣٤ طريق الهجرتين. (٣) ٢٤٢ طريق الهجرتين.

ومنزلتها ومقرها لا يتعدى بها عنه ولا يقصر بها. والذي يزيد هذا المعنى تقريراً أن محبة الرب لعبده سبقت محبة العبد له ـ سبحانه ـ فإنه لولا محبة الله له لما جعل محبته في قلبه، فإنه ألهمه حبه وآثره به، فلما أحبه العبد جازاه على تلك المحبة محبة أعظم منها، فإنه من تقرب إليه شبراً تقرب إليه ذراعاً، ومن تقرب إليه ذراعاً تقرب إليه باعاً، ومن أتاه مشياً أتاه هرولة، وهذا دليل على أن محبة الله لعبده الذي يحبه فوق محبة العبد له. وإذا تعرض هذا المحبوب لمساخط حبيبه فهو بمنزلة المحبوب الذي فر من محبه وآثر غيره عليه، فإذا عاوده وأقبل إليه وتخلى عن غيره، فكيف لا يفرح به محبه أعظم فرح وأكمله. والشاهد أقوى شاهد تؤيده الفطرة والعقل، فلو لم يخبر الصادق المصدوق بما أخبر به من هذا الأمر العظيم لكان في الفطرة والعقل ما يشهد به، فإذا انضافت الشرعة المنزلة إلى العقل المنور فذلك الذي لا غاية له بعده، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

[1]**ذمّ** الله تعالى في كتابه مَنْ نسيَ ما تُقَدِّمَ يداه. فقال: ﴿**وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بآياتِ رَبِّه فأعْرِضَ عنها وَنَسِيَ ما قَدَّمَتْ يَدَاه**﴾ [الكهف:٥٧]. فإذا طالع جنايته شَمَّر لاستدراك الفارط بالعلم والعمل، وتخلص مِنْ رِقِّ الجناية بالاستغفار والندم، وطلب التمحيص، وهو تخليص إيمانه ومعرفته من خَبَث الجناية، كتمحيص الذهب والفضة، وهو تخليصهما من خبثهما. ولا يمكن دخوله الجنة إلا بعد هذا التمحيص. فإنها طيبة لا يدخلها إلا طيب. ولهذا تقول لهم الملائكة: ﴿**سَلامٌ عَلَيكم طِبْتُم فادْخُلُوها خَالِدينَ**﴾ [الزمر:٧٣] وقال تعالى: ﴿**الَّذين تَتَوفَّاهُمُ الملائِكةُ طيِّبين يَقُولون سلامٌ عليكُمُ ادخُلُوا الجَنَّةَ**﴾ [النحل:٣٢]. فليس في الجنة ذَرَّة خبث.

وهذا التمحيص يكون في دار الدنيا بأربعة أشياء: بالتوبة، والاستغفار، وعمل الحسنات الماحية، والمصائب المكفرة. فإن محصته هذه الأربعة وخلصته: كان من الذين تتوفاهم الملائكة طيبين، يبشرونهم بالجنة، وكان من الذين ﴿**تَتَنَزَّل عَلَيْهم المَلائِكَةُ**﴾ عند الموت ﴿**أن لا تَخافُوا وَلاَ تَحزَنُوا وأبْشِرُوا بالجنَّةِ الَّتِي كُنتُم توعَدُونَ * نَحْنُ أولياؤكُم في الحَياةِ الدُّنيا وفي الآخرة ولَكُم فيها ما تَشْتَهِي أنفُسُكم**

---

(١) ١٤١ مدارج جـ١.

ولَكُم فِيها ما تَدَّعُونَ * نُزُلاً مِنْ غفورٍ رَحيمٍ﴾ [فصلت: ٣٠-٣٢].

وإن لم تَفِ هذه الأربعة بتمحيصه وتخليصه، فلم تكن التوبة نصوحاً ـ وهي العامة الشاملة الصادقة ـ ولم يكن الاستغفار كاملاً تامًّا ـ وهو المصحوب بمفارقة الذنب، والندم عليه ـ وهذا هو الاستغفار النافع، لا استغفار من في يده قدح السكر، وهو يقول: أستغفر الله، ثم يرفعه إلى فيه. ولم تكن الحسنات في كميتها وكيفيتها وافية بالتكفير، ولا المصائب. وهذا إما لعظم الجناية، وإما لضعف المحص، وإما لهما: مُحِّص في البرزخ بثلاثة أشياء.

أحدها: صلاة أهل الإيمان الجنازة عليه، واستغفارهم له، وشفاعتهم فيه.

الثاني: تمحيصه بفتنة القبر، وروعة الفتان، والعَصْرة والانتهار، وتوابع ذلك.

الثالث: ما يُهدي إخوانه المسلمون إليه من هدايا الأعمال، من الصدقة عنه، والحج، والصيام عنه، وقراءة القرآن عنه، والصلاة، وجعل ثواب ذلك له.

وقد أجمع الناس على وصول الصدقة والدعاء. قال الإمام أحمد: لا يختلفون في ذلك. وما عداهما فيه اختلاف. والأكثرون يقولون بوصول الحج. وأبوحنيفة يقول: إنما يصل إليه ثواب الإنفاق، وأحمد ومن وافقه: مذهبُهم في ذلك أوسع المذاهب. يقولون: يصل إليه ثواب جميع القرب، بَدَنِيِّها وماليها، والجامع للأمرين. واحتجوا بأن النبي ﷺ قال لمن سأله: «يارسول الله، هل بقي من بر أبوى شيء أبرهما به بعد مماتهما؟ قال: «نعم» فذكر الحديث. وقد قال ﷺ: **«من مات وعليه صيام صام عنه وليه»**.

فإن لم تف هذه بالتمحيص، مُحِّص بين يدي ربه في الموقف بأربعة أشياء: أهوال القيامة. وشدة الموقف. وشفاعة الشفعاء. وعفو الله عز وجل.

فإن لم تف هذه الثلاثة بتمحيصه فلابد له من دخول الكِير، رحمة في حقه ليتخلص ويتمحص، ويتطهر في النار. فتكون النار طُهرة له وتَمحيصاً لخبثه. ويكون مكثه فيها على حسب كثرة الخبث وقلته، وشدته وضعفه وتراكمه. فإذا خرج خبثه وصُفِّي ذهبه، وصار خالصاً طيباً، أخرج من النار، وأدخل الجنة.

(١)**الوجه** الثالث والثلاثون بعد المائة ما رواه ابن حبان في صحيحه من حديث

---

(١) ١٥٩ مفتاح جـ١.

أبي هريرة يرفعه إلى النبي ﷺ قال: «سأل موسى ربه عن ست خصال كان يظن أنها له خالصة، والسابعة لم يكن موسى يحبها. قال: يارب أي عبادك أتقى؟ قال: الذي يذكر ولا ينسى، قال: فأي عبادك أهدى؟ قال: الذي يتبع الهدى، قال: فأي عبادك أحكم؟ قال: الذي يحكم لنفسه، قال: أي عبادك أعلم؟ قال: عالم لا يشبع من العلم يجمع علم الناس إلى علمه، قال: فأي عبادك أعز؟ قال: الذي إذا قدر عفا، قال: فأي عبادك أغنى؟ قال: الذي يرضى بما أوتي، قال: فأي عبادك أفقر؟ قال: صاحب منقوص»، فأخبر في هذا الحديث أن أعلم عباده الذي لا يشبع من العلم، فهو يجمع علم الناس إلى علمه لنهمته في العلم وحرصه عليه.

ولا ريب أن كون العبد أعظم عباد الله من أعظم أوصاف كماله، وهذا هو الذي حمل موسى على الرحلة إلى عالم الأرض ليعلمه مما علمه الله. هذا وهو كليم الرحمن وأكرم الخلق على الله في زمانه، وأعلم الخلق، فحمله حرصه ونهمته في العلم على الرحلة إلى العالم الذي وصف له، فلولا أن العلم أشرف ما بذلت فيه المهج وأنفقت فيه الأنفاس لاشتغل موسى عن الرحلة إلى الخضر بما هو بصدده من أمر الأمة، وعن مقاساة النصب والتعب في رحلته وتلطفه للخضر في قوله: ﴿**هَل أَتَّبِعُك على أن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشداً**﴾ [الكهف: ٦٦] فلم ير أتباعه حتى استأذنه في ذلك وأخبره أنه جاء متعلماً مستفيداً، فهذا النبي الكريم كان عالماً بقدر العلم وأهله صلوات الله وسلامه عليه.

[1]**الوجه** الرابع والثلاثون أن الله سبحانه أخبرنا عن صفيه وكليمه الذي كتب له التوراة بيده، وكلمه منه إليه أنه رحل إلى رجل عالم يتعلم منه ويزداد علماً إلى علمه، فقال: ﴿**وإذْ قال مُوسى لِفَتَاهُ لا أَبرَحُ حتَّى أبلغَ مَجْمَعَ البحْرَيْن أو أمضِيَ حُقُباً**﴾ [الكهف: ٦٠] حرصاً منه على لقاء هذا العالم وعلى التعلم منه. فلما لقيه سلك معه مسلك المتعلم مع معلمه وقال له: ﴿**هَلْ أَتَّبِعُكَ على أنْ تُعلِّمَن مما عُلِّمْتَ رُشداً**﴾ فبدأه بعد السلام بالاستئذان على متابعته وأنه لا يتبعه إلا بإذنه، وقال: ﴿**على أن تعلمن مما علمت رشداً**﴾ فلم يجيء ممتحناً ولا متعنتاً، وإنما جاء متعلماً

---

(١) ٥٥ مفتاح جـ١.

مستزيداً علماً إلى علمه. وكفى بهذا فضلاً وشرفاً للعلم، فإن نبي الله وكليمه سافر ورحل حتى لقي النصب من سفره في تعلم ثلاث مسائل من رجل عالم، ولما سمع به لم يقر له قرار حتى لقيه وطلب منه متابعته وتعليمه، وفي قصتهما عبر وآيات وحكم ليس هذا موضع ذكرها.

(١)**الوجه** السابع والثلاثون أنه ـ سبحانه ـ ذكر فضله ومنته على أنبيائه ورسله وأوليائه وعباده بما آتاهم من العلم فذكر نعمته على خاتم أنبيائه ورسله بقوله: ﴿وَأَنـزَلَ الله عَلَيْـكَ الكِتَابَ وَالحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ ما لَم تَكُنْ تَعْلم وكَان فَضلُ الله عَلَيكَ عَظِيماً﴾ [النساء:١١٣] وقد تقدمت هذه الآية. وقال في يوسف: ﴿وَلَمَّا بَلَغ أَشُدَّه آتيناه حُكماً وَعِلماً وَكَذَلِكَ نَجْزي المُحْسِنِين﴾ [يوسف:٢٢]. وقال في كليمه موسى: ﴿وَلَمَّا بلَغَ أَشُدَّه واسْتَوى آتيناه حُكْماً وعِلماً وَكَذَلِكَ نَجزي المُحْسِنِينَ﴾ [القصص: ١٤]. ولما كان الذي آتاه موسى من ذلك أمراً عظيماً خصه به على غيره، ولا يثبت له إلا الأقوياء: أولو العزم هيأه له بعد أن بلغ أشده واستوى، يعني تم وكملت قوته. وقال في حق المسيح: ﴿يا عِيسَى ابنَ مَرْيَمَ اذْكُر نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلى والـدتِـكَ إذْ أَيَّـدتُكَ بِرُوحِ القُدُسِ تُكلِّمُ النَّاسَ في المهدِ وَكَهلاً وإذْ عَلَّمتُكَ الكِتَابَ والحِكمَةَ والتوراةَ والإِنْجيلَ﴾ [المائدة:١١٠]. وقال في حقه ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل، فجعل تعليمه مما بشر به أمه وأقر عينها به. وقال في حق داود: ﴿وَآتَيْنَـاهُ الحِكْمَةَ وَفَصْلَ الخِطَاب﴾ [ص:٢٠]. وقال في حق الخضر صاحب موسى وفتاه: ﴿فَوَجَدَا عبداً من عِبَادِنا آتيناه رحمَةً من عِندِنَا وَعَلَّمناه مِنْ لَدُنَّا علماً﴾ [الكهف: ٦٥] فذكر من نعمه عليه تعليمه وما آتاه من رحمته.

(٢)**لما** سافر موسى إلى الخضر وجد فى طريقه مس الجوع والنصب، فقال لفتاه: ﴿آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَد لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذا نَصَباً﴾ [الكهف:٦٢]؛ فإنه سفر إلى مخلوق. ولما واعده ربه ثلاثين ليلة وأتمها بعشر فلم يأكل فيها لم يجد مس الجوع ولا النصب؛ فإنه سفر إلى ربه تعالى. وهكذا سفر القلب وسيره إلى ربه لا يجد فيه من الشقاء والنصب ما يجده في سفره إلى بعض المخلوقين.

---

(١) ٥٧ مفتاح جـ١. (٢) ٢٠٣ بدائع جـ٣.

(١)**قال الله تعالى: ﴿آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لَدُنَّا عِلْماً﴾**. وفرق بين الرحمة والعلم. وجعلهما «من عنده» و«من لدنه» إذ لم ينلهما على يد بشر، وكان «من لدنه» أخص وأقرب من «عنده» ولهذا قال ـ تعالى ـ: **﴿وقُل ربِّ أدخلني مُدْخَلَ صِدْقٍ وأخرجْني مُخْرَجَ صِدْقٍ واجعَل لي مِن لَدُنكَ سُلْطَاناً نَصِيراً﴾** [الإسراء: ٨٠]. فـ«السلطان النَصير» الذي من لدنه سبحانه: أخص وأقرب مما عنده. ولهذا قال ـ تعالى ـ: **﴿واجْعَل لي مِن لَدُنْكَ سُلطاناً نَصِيراً﴾** وهو الذي أيده به. والذي من عنده: نصره بالمؤمنين، كما قال ـ تعالى ـ: **﴿هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وبِالْمُؤْمِنِينَ﴾** [الأنفال: ٦٢]. و«العلم اللدني» ثمرة العبودية والمتابعة، والصدق مع الله، والإخلاص له، وبذل الجهد في تلقي العلم من مشكاة رسوله، وكمال الانقياد له. فيفتح له من فهم الكتاب والسنة بأمر يخصه به، كما قال علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ وقد سئل «هل خصكم رسول الله ﷺ بشيء دون الناس؟ فقال: لا والذي فلق الحبة وبرأ النسمة إلا فهمًا يؤتيه الله عبداً في كتابه: فهذا هو العلم اللدني.

(٢)**قال** تعالى عن موسى وفَتاه: **﴿فَوَجَدَا عَبْداً مِنْ عِبادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْماً﴾** [الكهف: ٦٥] فجمع له بين الرحمة والعلم، وذلك نظيرُ قولِ أصحابِ الكَهْفِ: **﴿رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّء لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَداً﴾** [الكهف: ١٠] فإن الرَّشد هو العلم بما ينفع، والعمل به. والرشَد والهُدى إذا أفرد كلٌّ منهما تضمَّن الآخر. وإذا قُرِنَ أحدهما بالآخر، فالهدى هو العلم بالحقِّ، والرَّشد هو العمل به. وضدهما الغيُّ واتباع الهوى.

وقد يقابل الرَّشد بالضرِّ والشر. قال تعالى: **﴿قُلْ إِنِّي لاَ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلاَ رَشَداً﴾** [الجن: ٢١]. وقال مؤمنو الجنِّ: **﴿وَأَنَّا لا نَدرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِم رَبُّهُم رَشَداً﴾** [الجن: ١٠].

فالرشد يقابل الغيَّ، كما في قوله: **﴿وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لاَ يَتَّخِذوه سَبِيلاً وإِن يَرَوا سَبِيلَ الْغَي يتَّخذوه سَبِيلاً﴾** [الأعراف: ١٤٦]. ويقابل الضُّرَّ والشر، كما تقدم، وذلك لأن الغي سببٌ لحصول الشرِّ والضُّرِّ ووقوعهما بصاحبه.

---

(١) ٤٧٥ مدارج جـ٢.

(٢) ١٦٨ إغاثة جـ٢.

فالضرر والشر غاية الغَي وثمرته، كما أن الرحمة والفلاح غاية الهدى وثمرته.

فلهذا يُقابَل كل منهما بنقيضه وسبب نقيضه، فيقابل الهدى بالضلال، كقوله: ﴿يُضِلُّ مَن يَشاء وَيهدي مَنْ يَشاء﴾ [النحل:٩٣] وقوله: ﴿إن تَحرص عَلى هُداهم فإنَّ الله لا يهدي مَنْ يُضِلُّ﴾ [النحل:٣٧] وهو كثير.

ويقابل بالضلال والعذاب. كقوله: ﴿فَمن اتَّبع هُدايَ فَلاَ يَضِلُّ وَلاَ يَشقَى﴾ [طه:١٢٣] فقابل الهدى بالضلال والشقاء.

وجمع ـ سبحانه ـ بين الهدى والفلاح، والهدى والرحمة، كما يجمع بين الضلال والشقاء، والضلال والعذاب، كقوله: ﴿إنَّ المُجْرِمِينَ في ضَلَالٍ وَسُعُرٍ﴾ [القمر:٤٧] فالضلال ضدُّ الهدى، والسعر العذاب، وهو ضدُّ الرحمة.

(١)**وأما** قوله عن الغلام أنه طبع يوم طبع كافراً، فالمراد به أنه كتب كذلك وقدر وختم، فهو من طبع الكتاب. ولفظ الطبع لما صار يستعمله كثير من الناس في الطبيعة التي هي بمعنى الخلقة والجبلة ظن الظان أن هذا مراد الحديث. وهذا الغلام الذي قتله الخضر ليس في القرآن ما يبين أنه كان غير بالغ ولا مكلف، بل قراءة ابن عباس تدل على أنه كان كافراً في الحال، وتسميته غلاماً لا يمنع أن يكون مكلفاً قريب العهد بالصغر. ويدل عليه أن موسى لم ينكر قتله لصغره بل لكونه زاكياً ولم يقتل نفساً. لكن يقال: في الحديث الصحيح ما يدل على أنه كان غير بالغ من وجهين، أحدهما: أنه قال: فمر بصبي يلعب مع الصبيان. الثاني: أنه قال: ولو أدرك لأرهق أبويه طغيانًا وكفراً. وهذا دليل على كونه لم يدرك بعد، فيقال: الكلام على الآية على التقديرين، فإن كان بالغاً وقد كفر فقد قتل على كفره الواقع بعد البلوغ ولا إشكال. وإن كان غير بالغ فلعل تلك الشريعة كان فيها التكليف قبل الاحتلام عند قوة عقل الصبي وكمال تمييزه، وإن لم يكن التكليف قبل البلوغ بالشرائع واقعاً فلا يمتنع وقوعه بالتوحيد ومعرفة الله كما قاله طوائف من أهل الكلام والفقه من أصحاب أبي حنيفة وأحمد وغيرهم. وعلى هذا فيمكن أن يكون مكلَّفاً بالإيمان قبل البلوغ، وإن لم يكن مكلفاً بشرائعه. وكفر الصبي المميز عند أكثر العلماء مؤاخذ به، فإذا ارتد صار مرتداً لكن لا يقتل حتى يبلغ.

---

(١) ٢٩٥ شفاء.

فالغلام الذي قتله الخضر إما أن يكون كافراً بعد البلوغ فلا إشكال، وإما أن يكون غير بالغ وهو مكلف في تلك الشريعة فلا إشكال أيضًا. وأما أن يكون مكلفًا بالتوحيد والمعرفة غير مكلف بالشرائع فيجوز قتله في تلك الشريعة.

وإما أن لا يكون مكلفًا فقتل لئلا يفتتن أبويه عن دينهما، كما يقتل الصبي الكافر في ديننا إذا لم يندفع ضرره عن المسلمين إلا بالقتل.

وأما قتل صبي لم يكفر بعد بين أبوين مؤمنين للعلم بأنه إذا بلغ كفر وفتن أبويه، فقد يقال: ليس في القرآن ولا في السنة ما يدل عليه. وأيضًا فإن الله لم يأمر أن يعاقب أحد بما يعلم أنه يكون منه قبل أن يكونه منه، ولا هو سبحانه يعاقب العباد على ما يعلم أنهم سيفعلونه حتى يفعلونه.

وقائل هذا القول يقول: إنه ليس في قصة الخضر شيء من الإطلاع على الغيب الذي لا يعلمه عموم الناس، وإنما فيها علمه بأسباب لم يكن علم بها موسى، مثل علمه بأن السفينة لمساكين يعملون وراءهم ملك ظالم، وهذا أمر يعلمه غيره. وكذلك كون الجدار كان لغلامين يتيمين وأن أباهما كان رجلاً صالحًا، وأن تحته كنزًا لهما، مما يمكن أن يعلمه كثير من الناس، وكذلك كفر الصبي مما يمكن أنه كان يعلمه كثير من الناس حتى أبوايه، لكن لحبهما له لا ينكران عليه أو لا يقبل منهما. فإن كان الأمر على ذلك فليس في الآية حجة على قولهم أصلاً، وأن ذلك الغلام لم يكفر بعد، ولكن سبق في العلم أنه إذا بلغ كفر، فمن يقول هذا يقول إن قتله دفعًا لشره، كما قال نوح: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا * إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ [نوح: ٢٦، ٢٧].

وعلى هذا فلم يكن قبل قيام الكفر به كافرًا. وقراءة ابن عباس، وأما الغلام فكان كافرًا وكان أبواه مؤمنين، ظاهرة أنه كان حينئذ كافرًا، فإن قيل: فهذا الغلام كان أبواه مؤمنين، فلو كان مولودًا على فطرة الإسلام وهو بين أبوين مسلمين لكان مسلمًا تبعًا لهما وبحكم الفطرة، فكيف يقتل والحالة هذه. قيل: إن كان بالغًا فلا إشكال، وإن كان مميزًا وقد كفر فيصح كفره وردته عند كثير من العلماء، وأن لا يقتل حتى يبلغ عندهم فلعل في تلك الشريعة يجوز قتل المميز الكافر. وإن كان صغيراً غير مميز فيكون قتله خاصًا به لأن الله أطلع الخضر على أنه لو بلغ لاختار

غير دين الأبوين. وعلى هذا يدل قول ابن عباس لنجدة وقد سأله عن قتل صبيان الكفار فقال: لئن علمت فيهم ما علمه الخضر من الغلام فأقتلهم. فإن قيل: إذا كان مولودًا على الفطرة وأبواه مؤمنين فمن أين جاء الكفر؟ قيل: إنما قال النبي ﷺ ذلك في الغالب، وإلا فالكفر قد يأتيه من قبل غير أبويه. فهذا الغلام إن كان كافرًا في الحال فقد جاء الكفر من غير جهة أبويه. وإن كان المراد أنه إذا بلغ سيكفر باختياره فلا إشكال. . .

[1]**قال** ـ تعالى ـ عن ذي القرنين: ﴿**وآتيناه من كل شيء سببًا**﴾ [الكهف: ٨٤]. قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: علمًا، قال قتادة وابن زيد وابن جريج والضحاك: علمًا تسبب به إلى ما يريد، وكذلك قال إسحاق: علمًا يوصله إلى حيث يريد، وقال المبرد: وكل ما وصل شيء بشيء فهو سبب. وقال كثير من المفسرين: آتيناه من كل ما بالخلق إليه حاجة علمًا ومعونة له. وقد سمى الله ـ سبحانه ـ الطريق سببًا في قوله: ﴿**فَأَتْبَعَ سَبَبًا**﴾ [الكهف: ٨٥]. قال مجاهد: طريقًا. وقيل: السبب الثاني هو الأول، أي اتبع سببًا من تلك الأسباب التي أوتيها مما يوصله إلى مقصوده. وسمّى ـ سبحانه ـ أبواب السماء أسبابًا إذ منها يدخل إلى السماء، قال ـ تعالى ـ عن فرعون: ﴿**لَعَلِّي أَبْلُغُ الأسبَابَ * أَسْبَابَ السَّموَاتِ**﴾ [غافر: ٣٦، ٣٧]. أي أبوابها التي أدخل منها إليها وقال زهير:

ومن هاب أسباب المنايا ينلنه ولو رام أسباب السماء بسلم

وسمّي الحبل سببًا لإيصاله إلى المقصود. قال تعالى: ﴿**فليَمْدُد بسبب إلى السماء**﴾ [الحج: ١٥]. قال بعض أهل اللغة: السبب من الحبال: القوي الطويل، قال: ولا يدعى الحبل سببًا حتى يصعد به وينزل، ثم قيل لكل شيء وصلت به إلى موضع أو حاجة تريدها سبب، يقال: ما بيني وبين فلان سبب أي آصرة رحم، أو عاطفة مودة.

وقد سمّىٰ ـ تعالى ـ وصل الناس بينهم أسبابًا وهي التي يتسببون بها إلى قضاء حوائجهم بعضهم من بعض، قال ـ تعالى ـ: ﴿**إِذْ تَبَرَّأَ الذين اتُّبِعوا من الذين اتَّبعوا ورأوا العذابَ وَتقَطَّعت بِهم الأسبابُ**﴾ [البقرة: ١٦٦]. يعني الواصلات التي كانت بينهم في الدنيا، وقال ابن عباس وأصحابه: يعني أسباب المودة الواصلات

(١) ١٨٩ شفاء.

التي كانت بينهم في الدنيا، وقال ابن زيد: هي الأعمال التي كانوا يؤملون أن يصلوا بها إلى ثواب الله. وقيل: هي الأرحام التي كانوا يتعاطفون بها. وبالجملة فسمى الله ـ سبحانه ـ ذلك كله أسبابًا لأنها كانت يتوصل بها إلى مسبباتها، وهذا كله عند نفاة الأسباب مجاز لا حقيقة له، وبالله التوفيق.

(١)**قال** تعالى: ﴿**وَعَرَضْنَا جهنم يومئِذٍ للكَافِرين عرْضًا * الذين كانت أعينهم في غطاءٍ عن ذِكري وكَانوا لا يستطيعُون سَمْعًا**﴾ [الكهف: ١٠٠، ١٠١]. وهذا يتضمن معنيين أحدهما: أن أعينهم في غطاء عما تضمنه الذكر من آيات الله وأدلة توحيده وعجائب قدرته، والثاني: أن أعين قلوبهم في غطاء عن فهم القرآن وتدبره والاهتداء به، وهذا الغطاء للقلب أولاً ثم يسري منه إلى العين.

(٢)**قال** تعالى في وصف المغترين: ﴿**قل هل نُنبئُكُم بالأخسرِينَ أعْمالاً * الذين ضَلَّ سَعْيُهم في الحَياة الدُّنيا وهم يحسبونَ أنَّهم يُحسنُون صُنْعًا**﴾ [الكهف: ١٠٣، ١٠٤]. وهؤلاء إذا انكشف الغطاء وثبتت حقائق الأمور علموا أنهم لم يكونوا على شيء ﴿**وَبَدَا لَهُم مِن الله مَا لَم يَكُونُوا يَحتَسِبُونَ**﴾ [الزمر: ٤٧]. وفي أثر معروف: إذا رأيت الله ـ سبحانه ـ يزيدك من نعمه وأنت مقيم على معصيته فاحذره فإنما هو استدراج يستدرجك به. وشاهد هذا في القرآن في قوله ـ تعالى ـ: ﴿**فلَمَّا نَسُوا ما ذُكِّروا به فتَحْنَا عَليهم أبوَاب كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أخَذْنَاهم بَغْتَةً فإذَا هُم مُبْلسون**﴾ [الأنعام: ٤٤].

وهذا من أعظم الغرة أن تراه يتابع عليك نعمه، وأنت مقيم على ما يكره، فالشيطان موكل بالغرور، وطبع النفس الأمارة الاغترار، فإذا اجتمع الرأي والبغي والرأي المحتاج، والشيطان الغرور والنفس المغترة لم يقع هناك خلاف. فالشياطين غروا المغترين بالله وأطمعوهم مع إقامتهم على ما يسخط الله ويغضبه في عفوه وتجاوزه، وحدثوهم بالتوبة لتسكن قلوبهم ثم دافعوهم بالتسويف حتى هجم الأجل فأُخذوا على أسوأ أحوالهم وقال ـ تعالى ـ: ﴿**وَغَرَّتكُم الأماني حَتَّى جَاءَ أمْرُ اللهِ وَغرَّكُم بالله الغَرُورُ**﴾ [الحديد: ١٤] وقال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إنَّ وَعد الله حقٌّ فَلَا تَغرنَّكُم الحياةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم باللهِ الغَرُورُ**﴾ [فاطر: ٥].

---

(١) ٩٣ شفاء. (٢) ٢٩٨ الروح.

وأعظم الناس غرورًا بربه من إذا مسّه الله برحمة منه وفضل ﴿قَالَ هَذَا لِي﴾ أي: أنا أهله وجدير به ومستحق له، ثم قال: ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعة قَائِمَةً﴾ فظن أنه أهل لما أولاه من النعم مع كفره بالله ثم زاد في غروره فقال: ﴿وَلَئِن رُّجِعتُ إلى رَبِّي إنَّ لي عِنده لَلحُسنَى﴾ [فصلت: ٥٠]. يعني الجنة والكرامة، فهكذا تكون الغرة بالله، فالمغتر بالشيطان مغتر بوعوده وأمانيه، وقد ساعده اغتراره بدنياه ونفسه، فلا يزال كذلك حتى يتردى في آبار الهلاك.

(١)**وسئل** ﷺ عن الأخسَرين أعمالاً يوم القيامة، فقال: «**هم الأكثرون أموالاً إلا من قال هكذا وهكذا وهكذا إلى من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله وقليل ماهم**»

(٢)﴿**قل لو كانَ البَحْرُ مِدادًا لِكَلِمات رَبِّي لَنَفِدَ البحرُ قبلَ أن تَنفدَ كلماتُ ربي ولو جِئْنَا بِمِثْلِه مَدَدًا**﴾ [الكهف:١٠٩]. وقال تعالى: ﴿**وَلَو أن ما في الأرضِ من شجرة أقلامٌ والبَحرُ يَمُدُّه مِن بعده سبعةُ أبحُرٍ ما نَفِدَت كلِماتُ اللهِ إنَّ اللهَ عزيزٌ حَكيمٌ**﴾ [لقمان: ٢٧].

ومعنى هذا: أنه لو فُرِض البحرُ مِداداً(٣)، وبعده سبعة أبحر تُمده كلُّها مِدادًا، وجميع أشجار الأرض أقلامًا، وهو ما قام منها على ساقٍ من النبات، والأشجار المثمرة وغير المثمرة، وتَستمد بذلك المِداد، لَفنِيتْ البحارُ والأقلامُ، وكلماتُ الرَّب لا تفنَى ولا تَنْفَد. فسبحان الله وبحمده عدد خَلْقِه، ورِضا نَفْسِه، وزِنَةَ عَرْشِه، ومِداد كلماته.

فأين هذا مِن وصف من يصفه بأنه ما تكلَّم ولا يتكلَّم، ولا يقوم به كلامٌ أصلًا؟ وَقَولِ من وصَفَ كلامَه بأنه معنى واحد، لا ينقضي ولا يتجزَّأ، ولا له بعضٌ ولا كُلٌّ ولا هو سور وآيات ولا حروف وكلمات.

(٤)**قال** تعالى: ﴿**قُل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي**﴾ [الكهف: ١١٠]. أي كما أنه إله واحد لا إله سواه فكذلك ينبغي أن تكون العبادة له وحده، فكما تفرد بالإلهية يجب أن يفرد بالعبودية. فالعمل الصالح هو الخالي من الرياء، المقيد بالسنة. وكان من دعاء عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «اللهم اجعل عملي كله صالحًا. واجعله

---

(١) ٣٩٩ اعلام جـ٤.
(٢) ٣٧ المنار المنيف.
(٣) أي حبرًا يكتب به.
(٤) ١٧٦ الجواب الكافي.

لوجهك خالصًا. ولا تجعل لأحد فيه شيئًا».

وهذا الشرك في العبادة يبطل ثواب العمل، وقد يعاقب عليه إذا كان العمل واجبًا، فإنه ينزله منزلة من لم يعمله فيعاقب على ترك الأمر، فإن الله ـ سبحانه ـ إنما أمر بعبادته خالصة قال ـ تعالى ـ: ﴿**وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ**﴾ [البينة: ٥]. فمن لم يخلص لله في عبادته لم يفعل ما أمر به، بل الذي أتى به شيء غير المأمور به فلا يصح ولا يقبل منه، ويقول الله ـ تعالى ـ: «**أنا أغنى الشركاء** عن الشرك، فمن عمل عملاً أشرك معي فيه غيري فهو للذي أشرك به، وأنا منه بريء».

وهذا الشرك ينقسم إلى أكبر وأصغر، ومغفور وغير مغفور. والنوع الأول ينقسم إلى كبير وأكبر، وليس شيء منه مغفور، فمنه الشرك بالله في المحبة والتعظيم بأن يحب مخلوقًا كما يحب الله، فهذا من الشرك الذي لا يغفره الله، وهو الشرك الذي قال ـ سبحانه ـ فيه: ﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللهِ أَنْدَادًا**﴾ [البقرة: ١٦٥]. وقال أصحاب هذا الشرك لآلهتهم وقد جمعتهم الجحيم: ﴿**تَاللهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ * إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾ [الشعراء: ٩٧، ٩٨]. ومعلوم أنهم ماسووهم به سبحانه في الخلق والرزق والإماتة والإحياء والملك والقدرة، وإنما سووهم به في الحب والتأله والخضوع.

[(١)] **وقال** ﷺ: «**اتقوا هذا الشرك فإنه أخفى من دبيب النمل**». فقيل له: كيف نتقيه وهو أخفى من دبيب النمل يارسول الله؟ فقال: «**قولوا: اللهم إنا نعوذ بك أن نشرك بك شيئًا نعلمه، ونستغفرك لما لا نعلم**» ذكره أحمد.

وقال ﷺ: «**إن أخوف ما أخاف على أمتي الشرك الأصغر**» قالوا: وما الشرك الأصغر يا رسول الله؟ قال: «**الرياء، يقول الله تعالى يوم القيامة إذا جزى الناس بأعمالهم: اذهبوا إلى الذين كنتم تُراءون في الدنيا، فانظروا هل تجدون عندهم جزاء؟**» ذكره أحمد.

[(٢)] **الوجه** الثالث والسبعون: أن العلم إمام العمل، وقائد له، والعمل تابع له ومؤتم به. فكل عمل لا يكون خلف العلم مقتديًا به فهو غير نافع لصاحبه بل مضرة عليه. كما قال بعض السلف: من عبد الله بغير علم كان ما يفسد أكثر مما يصلح. والأعمال إنما تتفاوت في القبول والرد بحسب موافقتها للعلم ومخالفتها له،

---

(١)

(٢) ٨٢ مفتاح جـ١.

فالعمل الموافق للعلم هو المقبول، والمخالف له هو المردود، فالعلم هو الميزان وهو المحك. قال ـ تعالى ـ: ﴿الَّذي خَلَقَ الموتَ وَالحَياةَ لِيَبْلُوَكُم أيُّكُم أحسَنُ عَملاً وهو العزيزُ الغَفُورُ﴾ [الملك:٢]. قال الفضيل بن عياض: هو أخلص العمل وأصوبه. قالوا: ياأبا علي ما أخلصه وأصوبه؟ قال: إن العمل إذا كان خالصًا ولم يكن صوابًا لم يقبل، وإذا كان صوابًا ولم يكن خالصًا لم يقبل، حتى يكون خالصًا صوابًا، فالخالص أن يكون لله. والصواب أن يكون على السنة. وقد قال ـ تعالى ـ: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرجُو لِقَاءَ رَبِّه فليَعمَلْ عَمَلاً صالِحًا وَلاَ يُشْرِكْ بِعبَادَةِ رَبِّهِ أحدًا﴾ [الكهف: ١١٠]. هذا هو العمل المقبول الذي لا يقبل الله من الأعمال سواه، وهو أن يكون موافقًا لسنة رسول الله ﷺ مرادًا به وجه الله. ولا يتمكن العامل من الإتيان بعمل يجمع هذين الوصفين إلا بالعلم؛ فإنه إن لم يعلم ما جاء به الرسول لم يمكنه قصده. وإن لم يعرف معبوده لم يمكنه إرادته وحده. فلولا العلم لما كان عمله مقبولاً، فالعلم هو الدليل على الإخلاص، وهو الدليل على المتابعة. وقد قال الله ـ تعالى ـ: ﴿إنَّمَا يَتَقبَّلُ اللهُ مِنَ المُتَّقِينَ﴾ [المائدة:٢٧]. وأحسن ما قيل في تفسير الآية أنه: إنما يتقبل الله عمل من اتقاه في ذلك العمل. وتقواه فيه أن يكون لوجهه على موافقة أمره، وهذا إنما يحصل بالعلم. وإذا كان هذا منزلة العلم وموقعه عُلِمَ أنه أشرف شيء وأجله وأفضله، والله أعلم.

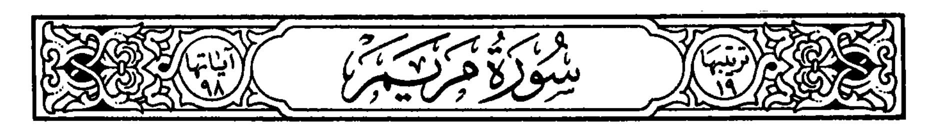
(١)**والأعمال** أربعة: واحد مقبول، وثلاثة مردودة؛ فالمقبول ما كان لله خالصًا وللسنة موافقًا، والمردود ما فقد منه الوصفان أو أحدهما، وذلك أن العمل المقبول هو ما أحبه الله ورضيه، وهو ـ سبحانه ـ إنما يحب ما أَمَرَ به وما عُمِلَ لوجهه، وما عدا ذلك من الأعمال فإنه لا يحبها، بل يمقتها ويمقت أهلها، قال ـ تعالى ـ: ﴿الذِي خَلَقَ المَوتَ والحَيَاةَ لِيَبْلُوكُم أيُّكُم أحْسَنُ عَملاً﴾ [الملك: ٢].

قال الفضيل بن عياض: هو أَخْلَصُ العمل وأَصْوَبه، فسئل عن معنى ذلك، فقال: إن العمل إذا كان خالصًا ولم يكن صوابًا لم يقبل، وإذا كان صوابًا ولم يكن خالصًا لم يقبل، حتى يكون خالصًا صوابًا؛ فالخالص أن يكون لله، والصواب أن يكون على السنة، ثم قرأ قوله: ﴿فَمَن كَانَ يَرجُو لِقَاءَ رَبِّه فَلْيَعْمَل عَملاً صَالِحًا وَلاَ يُشْرِك بِعِبَادَةِ رَبِّه أَحدًا﴾.

فإن قيل: فقد بَانَ بهذا أن العَمل لغير الله مردود غير مقبول، والعمل لله وحده مقبول؛ فبقي قسم آخر وهو أن يعمل العمل لله ولغيره، فلا يكون لله مَحْضًا ولا للناس محضًا، فما حكم هذا القسم؟ هل يبطل العمل كله أم يبطل ما كان لغير الله ويصح ما كان لله؟

قيل: هذا القسم تحته أنواع ثلاثة؛ أحدها: أن يكون الباعث الأول على العمل هو الإخلاص، ثم يعرض له الرياء وإرادة غير الله في أثنائه، فهذا المعول فيه على الباعث الأول ما لم يفسخه بإرادة جازمة لغير الله، فيكون حكمه حكم قطع النية في أثناء العبادة وفسخها، أعني قطع ترك استصحاب حكمها. الثاني: عكس هذا، وهو أن يكون الباعث الأول لغير الله، ثم يعرض له قلب النية لله، فهذا لا يحتسب له بما مَضَى من العمل، ويحتسب له من حين قَلَبَ نيته؛ ثم إن كانت العبادة لا يصح آخرها إلا بصحة أولها وجبت الإعادة، كالصلاة، وإلا لم تجب كمن أحرم لغير الله ثم قلب نيته لله عند الوقوف والطواف. الثالث: أن يبتدئها مُريدًا بها الله والناس، فيريد أداء فَرضه والجزاء والشكور من الناس، وهذا كمن يصلي بالأجرة، فهو لو لم يأخذ الأجرة صلى، ولكنه يصلي لله وللأجرة، وكمن يحج ليسقط الفرض عنه ويقال فلان حج، أو يعطي الزكاة كذلك؛ فهذا لا يقبل منه العمل. وإن كانت النية شرطًا في سقوط الفرض وجبت عليه الإعادة، فإن حقيقة الإخلاص التي هي شرط في صحة العمل والثواب عليه لم توجد، والحكم المعلق بالشرط عَدَمَ عند عَدَمه، فإن الإخلاص هو تجريد القَصْد طَاعةً للمعبود، ولم يؤمر إلا بهذا. وإذا كان هذا هو المأمور به فلم يأت به بقي في عهدة الأمر؛ وقد دلت السنة الصريحة على ذلك كما في قوله ﷺ: «**يقول الله - عز وجل - يوم القيامة: أنا أغْنَى الشركاء عن الشرك، فَمَنْ عَمل عملاً أشْرَكَ فيه غيري فهو كله للذي أشرك به**». وهذا هو معنى قوله - تعالى -: ﴿**فَمَنْ كَانَ يَرجُو لِقَاء ربِّه فَلْيَعْمَل عَمَلاً صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعبَادَةِ رَبِّه أحدًا**﴾ [الكهف: ١١٠].

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة الكهف
والحمد لله رب العالمين



بسم الله الرحمن الرحيم

(١)**قول** زكريا ﴿**وَلم أكُنْ بِدعائِك ربِّ شَقيًّا**﴾ [مريم: ٤]، فقد قيل إنه دعاء المسألة، والمعنى إنك عودتني إجابتك وإسعافك ولم تشقني بالرد والحرمان. فهو توسل إليه تعالى بما سلف من إجابته وإحسانه.

كما حكى أن رجلاً سأل رجلاً وقال: أنا الذي أحسنت إلى وقت كذا وكذا فقال: مرحبًا بمن توسل الينا بنا، وقضى حاجته. وهذا ظاهر ههنا.

ويدل عليه أنه قدم ذلك أمام طلبه الولد، وجعله وسيلة إلى ربه، فطلب منه أن يجاريه على عادته التي عوده من قضاء حوائجه وإجابته إلى ما سأله.

(٢)**قول** زكريا عليه الصلاة والسلام ﴿**وإني خفت الموالى من ورائي وكانت امْرأتي عاقِرًا فهب لي مِن لدُنك وليًا * يَرثُني ويرثُ من آل يَعْقوبَ واجعله ربِّ رَضِيًّا**﴾ [مريم: ٥،٦]. فهذا ميراث العلم والنبوة والدعوة إلى الله، وإلا فلا يظن بنبي كريم أنه يخاف عصبته أن يرثوه ماله فيسأل الله العظيم ولدًا يمنعهم ميراثه ويكون أحق به منهم.

وقد نزه الله أنبياءه ورسله عن هذا وأمثاله، فبعدًا لمن حرف كتاب الله ورد على رسوله كلامه، ونسب الأنبياء إلى ماهم برآء منزهون عنه. والحمد لله على توفيقه وهدايته.

ويذكر عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه مر بالسوق فوجدهم في تجاراتهم وبيوعاتهم فقال: أنتم ههنا فيما أنتم فيه وميراث رسول الله، ﷺ يقسم في مسجده؟ فقاموا سراعًا إلى المسجد لم يجدوا فيه إلا القرآن والذكر ومجالس العلم فقالوا: أين ما قلت ياأباهريرة؟ فقال: هذا ميراث محمد ﷺ يقسم بين ورثته وليس بمواريثكم ودنياكم أو كما قال.

(٣)**فصل** وأما الحنين فقال [في الصحاح]: الحنين الشوق وتوقان النفس، تقول منه: حنَّ إليه يحن حنينًا، فهو حان، والحنان الرحمة، تقول منه: حنَّ عليه يحن

---

(١) ٤ البدائع جـ٢.　(٢) ٦٧ المفتاح جـ١.　(٣) ٤٥ الروضة.

حنانًا، ومنه قوله تعالى ﴿وحنانًا من لدنَّا﴾ [مريم: ١٣]. وتحنن عليه ترحم، والعرب تقول: حنانك يا رب وحنانيك بمعنى واحدٍ أي رحمتك. قال امرؤُ القيس:

ويمنحُها بنو شَمَجى بن جَرْمٍ   معيزهم حنانَك ذا الحنان[1]...

[2]**وأما** السؤال الثالث عشر وهو ما السر في كونه سلم عليهم بلفظ النكرة وشرع لعباده أن يسلموا على رسوله بلفظ المعرفة؟ وكذلك تسليمهم على نفوسهم وعلى عباده الصالحين، فقد تقدم بيان الحكمة في كون السلام ابتداء بلفظ النكرة.

ونزيد هنا فائدة أخرى وهي أنه قد تقدم أن في دخول اللام في السلام أربع فوائد وهذا المقام مستغن عنها؛ لأن المتكلم بالسلام هو الله تعالى فلم يقصد تبركًا بذكر الاسم كما يقصده العبد. فإن التبرك استدعاء البركة واستجلابها، والعبد هو الذي يقصد ذلك، ولا قصد أيضًا تعرضًا وطلبًا على ما يقصده العبد، ولا قصد العموم، وهو أيضًا غير لائق هنا؛ لأن سلامًا منه سبحانه كاف من كل سلام، ومغن عن كل تحيةٍ، ومقرب من كل أمنية، فأدنى سلام منه ـ ولا أدنى ـ هناك يستغرق الوصف، ويتم النعمة ويدفع البؤس، ويطيب الحياة، ويقطع مواد العطب والهلاك. فلم يكن لذكر الألف واللام هناك معنى.

[3]**وقد** بان بهذا الفرق بين سلام الله على رسله وعباده وبين سلام العباد عليهم؛ فإن سلام العباد لما كان متضمنًا لفوائد الألف واللام التي تقدمت من قصد التبرك باسمه السلام، والإشارة إلى طلب السلامِ له وسؤالها من الله باسم السلام، وقصد عموم السلام كان الأحسن في حق المسلِّم على الرسول أن يقول: السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته، وإن كان قد ورد سلام عليك فالمعرفة أكثر وأصح وأتم معنى، فلا ينبغي العدول عنه ويشح في هذا المقام بالألف واللام والله أعلم.

وقد عرفت بهذا جواب السؤال الرابع عشر وهو ما الحكمة في تسليم الله تعالى على يحيى بلفظ النكرة، وتسليم المسيح على نفسه بلفظ المعرفة.

---

(١) قال في اللسان ما خلاصته: يمنحها رواية الأصمعي أي يعطيها ورواه ابن الأعرابي ويمنعها فرواية الأصمعي تشكر وحمد ودعاء لهم، ورواية ابن الأعرابي تسخط وذم.

(٢) ١٦٦ البدائع جـ٢.   (٣) ١٦٧ البدائع جـ٢.

لا ما يقوله مَن لا تحصيل له أن سلام يحيى جرى مجرى ابتداء السلام في الرسالة والمكاتبة فنكر، وسلام المسيح جرى مجرى السلام في آخر المكاتبة فعرف؛ فإن السورة كالقصة الواحدة. ولا يخفى فساد هذا الفرق فإنهما سلامان متغايران من مسَلِّمين. أحدهما سلام الله تعالى على عباده. والثاني سلام العبد على نفسه فكيف يبنى أحدهما على الآخر.

وكذلك قول من قال: إن الثاني عُرِّف لتقدم ذكره في اللفظ فكانت الألف واللام فيه للعهد، وهذا أقرب من الأول؛ لإمكان أن يكون المسيح أشار إلى السلام الذي سلمه الله على يحيى، فأراد أن لي من السلام في مثل هذه المواطن الثلاثة مثل ما حصل له. والله أعلم.

وأما السؤال الخامس عشر وهو ما الحكمة في تقييد السلام في قصتي يحيى والمسيح صلوات الله عليهما بهذه الأوقات الثلاثة؟ فسره والله أعلم أن طلب السلامة يتأكد في المواضع التي هي مظان العطب ومواطن الوحشة. وكلما كان الموضع مظنة ذلك تأكد طلب السلامة وتعلقت بها الهمة، فذكرت هذه المواطن الثلاثة لأن السلامة فيها آكد وطلبها أهم، والنفس عليها أحرص لأن العبد فيها قد انتقل من دار كان مستقرًّا فيها موطن النفس على صحبتها وسكناها إلى دار هو فيها معرض للآفات والمحن والبلاء، فإن الجنين من حين خرج إلى هذه الدار انتصب لبلائها وشدائدها ولأوائها ومحنها وأفكارها كما أفصح الشاعر بهذا المعنى حيث يقول:

تأمل بكاء الطفل عند خروجه		إلى هذه الدنيا إذا هو يولد
تجد تحته سرًّا عجيبًا كأنه		بكل الذي يلقاه منها مهدد
وإلا فما يبكيه منها وإنها		لأوسع مما كان فيه وأرغد

ولهذا من حين خرج ابتدرته طعنة الشيطان في خاصرته فبكى لذلك، ولما حصل له من الوحشة بفراق وطنه الأول، وهو الذي أدركه الأطباء والطبائعيون.

وأما ما أخبر به الرسول ﷺ فليس في صناعتهم ما يدل عليه، كما ليس فيها ما ينفيه، فكان طلب السلامة في هذه المواطن من آكد الأمور.

الموطن الثاني خروجه من هذه الدار إلى دار البرزخ عند الموت. ونسبة الدنيا

إلى تلك الدار كنسبة داره في بطن أمه إلى الدنيا تقريبًا وتمثيلاً، وإلا فالأمر أعظم من ذلك وأكبر. وطلب السلامة أيضًا عند انتقاله إلى تلك الدار من أهم الأمور.

الموطن الثالث موطن يوم القيامة، يوم يبعث الله الأحياء، ولا نسبة لما قبله من الدور إليه، وطلب السلامة فيه آكد من جميع ما قبله؛ فإن عطبه لا يستدرك، وعثرته لا تقال، وسقمه لا يداوي، وفقره لا يُسد. فتأمل كيف خص هذه المواطن بالسلام لشدة الحاجة إلى السلامة فيها، واعرف قدر القرآن وما تضمنه من الأسرار وكنوز العلم والمعارف التي عجزت عقول الخلائق عن إحصاء عشر معشارها.

وتأمل ما في السلام مع الزيادة على السلامة من الأنس وذهاب الوحشة، ثم نزل ذلك على الوحشة الحاصلة للعبد في هذه المواطن الثلاثة عند خروجه إلى عالم الابتلاء، وعند معاينته هول المطلع إذا قدم على الله وحيدًا مجردًا عن كل مؤنس إلا ما قدمه من صالح عمل، وعند موافاته القيامة مع الجمع الأعظم ليصير إلى إحدى الدارين التي خلق لها واستعمل بعمل أهلها، فأي موطن أحق بطلب السلامة من هذه المواطن؟ فنسأل الله السلامة فيها بمنه وكرمه ولطفه وجوده وإحسانه.

(١)**قال** الله تعالى لمريم ﴿**وهُزِّي إليكِ بِجِذْعِ النَّخْلةِ تُساقِطْ عَلَيكِ رُطباً جَنيًّا * فَكُلِي وَاشرَبِي وقَرِّي عَيْنا**﴾ [مريم، ٢٥، ٢٦].

وفي الصحيحين عن عبدالله بن جعفر قال: «رأيت رسول الله ﷺ يأكل القثاء بالرطب».

وفي سنن أبي داود عن أنس قال: «كان رسول الله ﷺ يفطر على رطبات قبل أن يصلي، فإن لم تكن رطبات فتمرات. فإن لم تكن تمرات حسا حَسَوات من ماء».

طبع الرطب: طبع المياه: حار رطب، يقوى المعدة الباردة ويوافقها، ويزيد في الباه ويخصب البدن، ويوافق أصحاب الأمزجة الباردة، ويغذو غذاء كثيرًا. وهو من أعظم الفاكهة موافقة لأهل المدينة وغيرها من البلاد التي هو فاكهتهم فيها، وأنفعها للبدن، وإن كان من لم يعتده يسرع التعفن في جسده، ويتولد عنه دم ليس بمحمود، ويحدث له من إكثاره منه صداع وسوداء، ويؤذي أسنانه. وإصلاحه: بالسكنجبين ونحوه.

---

(١) ٣٤٩ الزاد جـ٣.

وفي فطر النبي ﷺ، من الصوم عليه، أو على التمر، أو الماء: تدبير لطيف جدًا؛ فإن الصوم يخلي المعدة من الغذاء، فلا تجد الكبد فيها ما تجذبه وترسله إلى القوى والأعضاء. والحلو أسرع شيء وصولاً إلى الكبد، وأحبه إليها، ولا سيما إن كان رطبا، فيشتد قبولها له، فتنتفع به هي والقوى. فإن لم يكن فالتمر، لحلاوته وتغذيته. فإن لم يكن فحسوات الماء: تطفىء لهيب المعدة، وحرارة الصوم، فتتنبه بعده للطعام وتأخذه بشهوة.

(١)فائدة عزيزة الوجود

احتج المعتزلة على مخلوقية القرآن بقوله تعالى ﴿خَالِقُ كلِّ شيَءٍ﴾ [الزمر: ٦٢]. ونحو ذلك من الآيات. **فأجاب** الأكثرون بأنه عام مخصوص يخص محل النزاع كسائر الصفات من العلم ونحوه. **قال** ابن عقيل في الإرشاد: ووقع لى أن القرآن لا يتناوله هذا الإخبار ولا يصلح لتناوله.

قال: لأن به حصل عقد الإعلام بكونه خالقًا لكل شيء، وما حصل به عقد الإعلام والإخبار لم يكن داخلاً تحت الخبر. قال: ولو أن شخصًا قال: لا أتكلم اليوم كلامًا إلا كان كذبًا لم يدخل إخباره بذلك تحت ما أخبر به.

(قلت) ثم تدبرت هذا فوجدته مذكورًا في قوله تعالى في قصة مريم: ﴿فَإمَّا تَرينَّ مِنَ البشَرِ أحـدًا فقُـولي إني نَذَرتُ للرَّحمن صَومًا فَلن أُكَلِّم اليومَ إنْسيًّا﴾ [مريم، ٢٦]. وإنما أمرت بذلك لئلا تسأل عن ولدها فقولها ﴿فَلَن أُكلِّم اليوم إنسيًّا﴾ به حصل إخبار بأنها لا تكلم الانس، ولم يكن ما أخبرت به داخلاً تحت الخبر وإلا كان قولها هذا مخالفًا لنذرها.

(٢)**وسئل** ﷺ عن قولـه تعالى: ﴿يَا أُخْتَ هَارُون﴾ [مريم: ٢٨] وبين عيسى وموسى عليهما السلام مابينهما، فقال: «**كانوا يسمون بأنبيائهم، وبالصالحين قبلهم**».

(٣)**قوله** سبحانه عن المسيح أنه قال: ﴿إنِّي عَبدُ الله آتَاني الكِتَابَ وَجَعَلني نَبيًّا

---

(١) ٢١٨ البدائع جـ٤. (٢) ٢٧١ الإعلام جـ٤. (٣) ١٧٤ المفتاح جـ١.

وَجَعلني مبـاركًا أَيْنَما كُنتُ ﴾ [مريم، ٣٠، ٣١]. قال سفيانَ بن عيينة: ﴿وجَعلني مباركًا أينما كنت﴾ قال: معلما للخير.

وهذا يدل على أن تعليم الرجل الخير هو البركة التي جعلها الله فيه؛ فإن البركة حصول الخير ونماؤه ودوامه، وهذا في الحقيقة ليس إلا في العلم الموروث عن الأنبياء وتعليمـه ولهـذا سمى سبحـانه كتابه مباركًا كما قال تعالى: ﴿وَهَذا ذِكرٌ مباركٌ أنزلناه﴾ [الأنبياء، ٥٠]. وقال: ﴿كِتَابٌ أَنْزلناهُ إليك مُبارَكٌ﴾ [ص: ٢٩]. ووصف رسوله بأنه مبارك كما في قول المسيح: ﴿وَجَعَلني مُباركًا أَيْنما كُنْتُ﴾ فبركة كتابه ورسوله هي سبب ما يحصل بهما من العلم والهدى والدعوة إلى الله.

(١)**وقال** المسيح: ﴿وجَعَلني مُباركًا أينما كنتُ﴾. قال غير واحد من السلف: معلمًا للخير أينما كنت. وهذا جزء المعنى؛ فالمبارك كثير الخير في نفسه الذي يحصله لغيره تعليمًا وإقدرًا ونصحًا وإرادة واجتهادًا. ولهذا يكون العبد مباركًا لأن الله بارك فيه وجعله كذلـك. والله تعـالى متبارك لأن البركة كلها منه، فعبده المبارك وهو المتبارك ﴿تبارَكَ الَّذي نَزَّل الفُرقانَ على عَبده ليكونَ لِلعالمين نَذيرًا﴾ [الفرقان: ١]، وقوله: ﴿تَبارَكَ الذي بِيَدهِ الملكُ وهو علَى كُلِّ شيءٍ قَدِير﴾ [الملك: ١]. وسنعود إلى هذا المعنى عن قريب إن شاء الله تعالى.

. . . (٢)**أمر** الله تعالى أكرم خلقه عليه بمخاطبة رئيس القبط بالخطاب اللين، فمخاطبة الرؤساء بالقول اللين أمر مطلوب شرعًا وعقلاً وعرفًا؛ ولذلك تجد الناس كالمفطورين عليه وهكذا كان النبي، ﷺ يخاطب رؤساء العشائر والقبائل: وتأمل امتثال موسى لما أمر به كيف قال لفرعون ﴿هل لك الى أن تزكى * وأهديك إلى ربك فتخشى﴾ [النازعات: ١٨، ١٩] فأخرج الكلام معه مخرج السؤال والعرض. لا مخرج الأمر وقال ﴿إلىٰ أن تَزكَّى﴾ ولم يقل إلى أن أزكيك فنسب الفعل اليه هو وذكر لفظ التـزكي دون غيره لما فيه من الـبركة والخير والنماء ثم قال: ﴿وأَهديَكَ إلىٰ رَبِّـكَ﴾. أكـون كالـدليل بين يديك الذي يسير أمامك، وقال: ﴿إلى ربك﴾ استدعاء لإيمانه بربه الذي خلقه ورزقه ورباه بنعمه صغيرًا ويافعًا وكبيرًا. وكذلك

---

(١) ٩٠ جلاء الأفهام.　　(٢) ١٣٢ البدائع جـ٣.

قول إبراهيم الخليل لأبيه ﴿يَآأبتِ لِمَ تَعبُدُ مالا يَسمَعُ ولاَ يُبصِرُ ولا يُغني عَنكَ شَيْئًا﴾ [مريم: ٤٢]. فابتدأ خطابه بذكر أبوته الدالة على توقيره ولم يسمه باسمه، ثم أخرج الكلام معه مخرج السؤال فقال: ﴿لم تعبد مالا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنـك شيئًا﴾ ولم يقل لا تعبد ثم قال: ﴿يَا أبتِ إني قد جَاءني مِنَ العِلمِ ما لم يَأْتِـكَ﴾ [مريم:٤٣]. فلم يقل له إنك جاهل لا علم عندك، بل عدل عن هذه العبـارة إلى ألـطف عبارة تدل على هذا المعنى فقال: ﴿جَاءَني مِنَ العِلْمِ ما لم يَأتِـكَ﴾. ثم قال: ﴿فَاتَّبِعني أَهدِكَ صِراطًا سَويًا﴾ [مريم:٤٣]. وهذا مثل قول موسى لفرعون: ﴿وأَهديك إلى رَّبك﴾. ثم قال: ﴿يا أَبَتِ إِنِّي أخافُ أن يَّمسَّكَ عذابٌ مِنَ الرَّحْمٰن فَتكونَ للشَّيطان وَلِيًّا﴾ [مريم: ٤٥]. فنسب الخوف إلى نفسه دون أبيه كما يفعل الشفيق الخائف على من يشفق عليه. وقال: ﴿يمسك﴾ فذكر لفظ المس الذي هو ألطف من غيره، ثم نكر العذاب، ثم ذكر الرحمن ولم يقل الجبار ولا القهار. فأي خطاب ألطف وألين من هذا.

ونظير هذا خطاب صاحب يس لقومه حيث قال: ﴿يَاقَومِ اتَّبِعُوا المُرسَلينَ * اتَّبِعُـوا مَن لا يَسـأَلُكُم أَجرًا وَهُمْ مُّهتَدُون * ومَالِيَ لاَ أعبدُ الَّذي فَطَرَني وَإليهِ تُرجَعُـون﴾ [يس: ٢٠-٢٢]. ونظير ذلك قول نوح لقومه: ﴿يا قومِ إنِّي لكم نذيرٌ مبِـين * أنِ اعبُـدُوا الله واتَّقُوهُ وأطيعونِ * يَغفِر لَكم مِن ذُنوبكم وَيُؤَخِّركم إلى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ [نوح:٢-٤]. وكذلك سائر خطاب الأنبياء لأمتهم في القرآن إذا تأملته وجـدته ألين خطاب وألطفه، بل خطاب الله لعباده ألطف خطاب وألينه كقوله تعـالى: ﴿يـا أَيُّهـا النـاسُ اعبـدُوا ربَّكمُ الـذي خَلَقَكُم والَّـذين مِنَ قَبلِكُم﴾ [البقـرة: ٢١]. الآيات. وقوله تعالى: ﴿يَا أيها النَّاسُ ضُرِبَ مثلٌ فاستمعوا له إنَّ الذين تدعُون من دونِ الله لَنْ يخلقُوا ذُبابًا ولو اجتمعُوا له﴾[الحج:٧٣]. وقوله: ﴿يا أَيُّها الناسُ إنَّ وعدَ الله حقٌ فلا تَغرنَّكم الحَياةُ الدُنيا ولا يَغرنَّكم بالله الغَرورُ﴾ [فاطر:٥]. وتأمل ما في قوله تعالى: ﴿وإذ قُلنا للمَلائكة اسجُدوا لآدَم فَسَجَدُوا إلاَّ إبلِيس كانَ مِن الجنِّ فَفَسَق عن أمرِ ربِّه أَفَتَتَّخِذونه وذُريته أولياءَ مِن دُوني وَهُم لَكم عَدُوٌ بئس للظَّالِمِينَ بَدَلاً﴾ [الكهف: ٥٠]. من اللطف الذي سلب العقول. وقوله ﴿أَفَنَضرِبُ عنكُم الذِّكرَ صَفْحاً أن كُنتُم قومًا مُّسرفين﴾ [الزخرف:٥]. على

أحد التأويلين أى نترككم فلا ننصحكم ولا ندعوكم ونعرض عنكم إذا أعرضتم أنتم وأسرفتم. وتأمل لطف خطاب نُذر الجن لقومهم وقولهم **﴿ياقومنا أجيبوا داعِي الله وآمِنوا بِهِ يَغفر لَكم من ذُنوبِكم وَيجِركُم من عَذابٍ أليمٍ﴾** [الأحقاف: ٣١].

...[1]**وأما** لسان الصدق: فهو الثناء الحسن عليه[2] ﷺ من سائر الأمم بالصدق، ليس ثناء بالكذب. كما قال عن إبراهيم وذريته من الأنبياء والرسل عليهم صلوات الله وسلامه **﴿وَجَعَلنا لَهم لسانَ صِدقٍ عَليًّا﴾** [مريم: ٥٠]. والمراد باللسان هٰهنا: الثناء الحسن. فلما كان الصدق باللسان، وهو محله، أطلق الله سبحانه ألسنة العباد بالثناء على الصادق، جزاء وفاقًا، وعبر به عنه.

فإن اللسان يراد به ثلاثة معان: هذا.

واللغة. كقوله تعالى: **﴿وما أَرسَلنا مِن رَّسُولٍ إلاَّ بِلسَانِ قَومِهِ ليبُينَّ لهُم﴾** [إبراهيم: ٤]. وقوله: **﴿واختِلافُ أَلسِنَتِكُم وألوانِكُم﴾** [الروم: ٢٢]. وقوله: **﴿لسان الذي يلحدون إليه أعجمي﴾** [النحل: ١٠٣]. وهذا لسان عربي مبين.

ويراد به الجارحة نفسها. كقوله تعالى: **﴿لاَ تُحرِّكْ بِهِ لِسانَكَ لِتعجَلَ بِهِ﴾** [القيامة: ١٦].

وأما قدم الصدق: ففسر بالجنة. وفسر بمحمد ﷺ. وفسر بالأعمال الصالحة.

وحقيقة «القدم» ما قدموه. وما يقدمون عليه يوم القيامة. وهم قَدَّموا الأعمال والإيمان بمحمد، ﷺ، ويُقْدِمون على الجنة التي هي جزاء ذلك.

فمن فسره بها أراد: ما يَقْدُمون عليه. ومن فسره بالأعمال وبالنبي، ﷺ: فلأنهم قدموها. وقدموا الإيمان به بين أيديهم. فالثلاثة قَدَم صدق.

وأما مقعد الصدق: فهو الجنة عند الرب تبارك وتعالى[3].

ووصف ذلك كله بالصدق مستلزم ثبوته واستقراره، وأنه حق، ودوامه ونفعه، وكمال عائدته؛ فإنه متصل بالحق سبحانه، كائن به وله. فهو صدق غير كذب، وحق غير باطل، ودائم غير زائل، ونافع غير ضار. وماللباطل ومتعلقاته إليه سبيل ولا مدخل.

---

(١) ٢٧٢ المدارج جـ٢. (٢) الضمير يرجع إلى إبراهيم ﷺ بدعوته في سورة الشعراء.

(٣) تقدم في سورة الإسراء بحث موسع حول هذا على قوله تعالى: **﴿وقل رب ادخلني مدخل صدق﴾** الآية.

ومن علامات الصدق: طمأنينة القلب إليه. ومن علامات الكذب: حصول الريبة، كما في الترمذي - مرفوعًا - من حديث الحسن بن علي رضي الله عنهما عن النبي ﷺ، قال: «**الصدق طمأنينة والكذب ريبة**»...

[(١)]**قال** الإمام أحمد حدثنا إسماعيل بن عبدالكريم بن معقل بن منبه حدثنا عبدالصمد قال سمعت وهب بن منبه قال: لما رأى موسى النار انطلق يسير حتى وقف منها قريبًا. فذكر الحديث إلى أن قال: فنودي من الشجرة فقيل له: ياموسى. فأجاب سريعًا ولا يدري من دعاه، وما كان سرعة جوابه إلا استئناسًا بالأنس، فقال: لبيك مرارًا، إني أسمع صوتك وأحس وجْسَك ولا أرى مكانك. فأين أنت؟ قال: أنا فوقك ومعك وأمامك وأقرب إليك منك. فلما سمع موسى هذا علم أنه لا ينبغي ذلك إلا لربه تبارك وتعالى فأيقن به، فقال: كذلك أنت إلهي أسمع أم كلام رسولك فقال: بل أنا الذي أكلمك فادن مني، الحديث قد رواه عبد بن حميد في تفسيره ويعقوب بن سفيان الفسوي.

وفي الصحيحين عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «**إذا أحب الله عبدًا نادى جبرائيل أن الله قد أحب فلانا فأحبه**» الحديث والذي تعقله الأمم من النداء إنما هو الصوت المسموع. كما قال تعالى: ﴿**واستمع يوم ينادي المناد من مكان قريب**﴾[(٢)].

[(٣)]**المثال** العاشر: مما يظن أنه مجاز وليس بمجاز لفظ النداء الإلهي: وقد تكرر في الكتاب والسنة تكرارًا مطردًا في محاله متنوعًا تنوعًا يمنع حمله على المجاز.

فأخبر تعالى أنه نادى الأبوين في الجنة، ونادى كليمه، وأنه ينادي عباده يوم القيامة.

وقد ذكر سبحانه النداء في تسعة مواضع في القرآن أخبر فيها عن ندائه بنفسه.

ولا حاجة إلى أن يقيد النداء بالصوت فإنه بمعناه وحقيقته باتفاق أهل اللغة، فإذا انتفى الصوت انتفى النداء قطعًا ولهذا جاء إيضاحه في الحديث الصحيح[(٤)].

---

(١) ٢٨٤ الصواعق جـ٢.

(٢) تكملة البحث في سورة (ق) حول هذه الآية وغيرها (خ).

(٣) ٢٧٧ الصواعق جـ٢.

(٤) بحث المؤلف فيما يلي بحثًا واسعًا في الموضوع ممتعًا لطالب الحق. فراجعه. (ج).

(١)**وذكر** جرير عن الأعمش عن شمر بن عطية عن هلال بن يساف قال كنا جلوسًا إلى كعب والربيع بن خثيم وخالد بن عرعرة في إناس فجاء ابن عباس فقال: هذا ابن عم نبيكم قال: فأوسع له فجلس فقال: ياكعب كل ما في القرآن قد عرفت غير أربعة أشياء فأخبرني عنهن، ما سجين، وماعليون، وما سدرة المنتهى، وما قول الله لإدريس **﴿وَرَفَعناهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾** [مريم: ٥٧].

قال: أما عليون فالسماء السابعة فيها أرواح المؤمنين. وأما سجين فالأرض السابعة السفلى وأرواح الكفار تحت جند إبليس. وأما قول الله سبحانه لإدريس **﴿وَرَفَعناه مَكَانًا عَلِيًّا﴾**. فأوحى الله إليه إني رافع لك كل يوم مثل أعمال بني آدم، وكلم صديقًا له من الملائكة أن يكلم له ملك الموت فيؤخره حتى يزداد عملاً فحمله بين جناحيه فعرج به حتى إذا كان في السماء الرابعة لقيه ملك الموت فكلمه في حاجته فقال: وأين هو؟ قال هو ذا بين جناحي قال: فالعجب إني أمرت أن أقبض روحه في السماء الرابعة فقبض روحه.

وأما سدرة المنتهى فإنها سدرة على رؤوس حملة العرش ينتهي إليها علم الخلائق، ثم ليس لأحد وراءها علم فلذلك سميت سدرة المنتهى.

(٢)**قوله** سبحانه: **﴿فَخَلَفَ من بَعْدِهِم خَلف أَضَاعُوا الصَّلاةَ واتَّبعُوا الشَّهواتِ فَسوفَ يَلقَونَ غيًّا﴾** [مريم: ٥٩].

قال شعبة بن الحجاج: حدثنا أبو إسحاق عن أبي عبيدة عن عبدالله ـ هو ابن مسعود ـ في هذه الآية قال: هو نهر في جهنم خبيث الطعم بعيد القعر.

قال محمد بن نصر: حدثنا عبيدالله بن سعيد بن إبراهيم حدثنا محمد بن يزيد بن زيان حدثني شرقي بن القطامي قال حدثني لقمان بن عامر الخزاعي قال: جئت أبا أمامة الباهلي فقلت: حدثني حديثًا سمعته من رسول الله، ﷺ، فقال: سمعت من رسول الله ﷺ يقول: **﴿لو أن صخرة قذف بها من شفير جهنم ما بلغت سبعين خريفًا ثم تنتهي إلى غى وأثام﴾** قلت: وما غى وأثام؟ قال: «**بئران في أسفل جهنم يسيل فيهما صديد أهل جهنم**». فهذا الذي ذكره الله في كتابه

---

(١) ١٣٠ الروح.

(٢) ١٧ الصلاة.

﴿فَسوف يَلقَون غيًّا﴾ و ﴿أثاما﴾ قال محمد بن نصر: حدثنا الحسن بن عيسى حدثنا عبدالله بن المبارك أخبرنا إبراهيم بن بشير قال أخبرني زكريا بن أبي مريم الخزاعي قال سمعت أبا أمامة الباهلي يقول: إن ما بين شفير جهنم إلى قعرها مسيرة خمسين خريفًا من حجر يهوي - أو قال صخرة تهوى - عظمها كعشر عشراوات عظام سمان. فقال مولى لعبد الرحمن بن خالد بن الوليد: هل تحت ذلك من شيء يا أبا أمامة؟ قال: نعم، غي وأثام.

وقال أيوب بن بشير عن شفي بن ماتع قال: إن في جهنم واديًا يسمى غيًّا يسيل دمًا وقيحًا فهو لمن خلق له، قال تعالى: ﴿فَسوفَ يَلقَونَ غيًّا﴾. فوجه الدلالة من الآية أن الله سبحانه جعل هذا المكان من النار لمن أضاع الصلاة واتبع الشهوات، ولو كان مع عصاة المسلمين لكانوا في الطبقة العليا من طبقات النار، ولم يكونوا في هذا المكان الذي هو أسفلها؛ فإن هذا ليس من أمكنة أهل الإسلام بل من أمكنة الكفار. ومن الآية دليل آخر وهو قوله تعالى: ﴿فَسوفَ يلقَوْنَ غيًّا * إلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وعَمِلَ صالحًا﴾ فلو كان مضيع الصلاة مؤمنًا لم يشترط في توبته الإيمان فإنه يكون تحصيلاً للحاصل.

(١)**قوله** ﴿رَبُّ السَّماوات والأرضِ وَمَا بَيْنَهُما فَاعْبُدْهُ واصطبِرْ لِعبادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥]. فأخبر أنه لا سمي له عقب قول العارفين به ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أيدِينا وَمَا خَلفَنَا وما بَيْنَ ذلكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسيًّا رَبُّ السَّمَواتِ والأرضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدهُ وَاصْطَبِر لِعبادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٤، ٦٥]. فهذا الرب الذي له هذا الجند العظيم ولا يتنزلون إلا بأمره، وهو المالك ما بين أيديهم وما خلفهم وما بين ذلك، وهو الذي كملت قدرته وسلطانه وملكه، وكمل علمه. فلا ينسى شيئًا أبدًا، وهو القائم بتدبير السماوات والأرض وما بينهما كما هو الخالق لذلك كله؛ وهو ربه ومليكه. فهذا الرب هو الذي لاسمي له لتفرده بكمال هذه الصفات والأفعال. فأما من لا صفة له ولا فعل ولا حقائق لأسمائه، إن هي إلا ألفاظ فارغة من المعاني فالعدم سمي له...

---

(١) ٢١٢ الصواعق جـ١.

(١)**وقال** تعالى: ﴿رَبُّ السَّمٰوات والأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُما فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعبادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥]. قال ابن عباس: «شبهًا ومثلاً، وهو مَنْ يُساميه».

وذلك نفى عن المخلوق أن يكون مشابهًا للخالق، ومماثلاً له، بحيث يستحقُّ العبادة والتعظيم، ولم يقل سبحانه: هل تعلمه سَمِيًا، أو مشبهًا لغيره، فإن هذا لم يقله أحد. بل المشركون المشبهون جعلوا بعضَ المخلوقات مُشابهًا له، مساميًا، ونِدًّا وعَدْلا، فأنكر عليهم هذا التشبيه والتمثيل.

وكذلك قوله: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ الله مَا لَا يَملِكُ لَهُمْ رزقًا مِنَ السَّمٰواتِ والأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُون * فَلا تَضْرِبُوا لله الأَمْثَالَ﴾ [النحل: ٧٣، ٧٤].

فنهاهم أنْ يضربوا له مثلاً من خلقه، ولم ينههم أن يضربوه هو مثلاً لخلقه، فإنّ هذا لم يقله أحد، ولم يكونوا يفعلونه؛ فإن الله سبحانه أجلُّ وأعظم وأكبر من كل شيء في فِطَر الناس كلهم. ولكنِ المشبهون المشركون يَغْلُونَ فيمن يعظمونه، فيشبهونهم بالخالق، والله تعالى أجلُّ في صدور جميع الخلق من أن يجعلوا غيره أصلاً، ثم يشبهونه سبحانه بغيره.

فالذي يشبهه بغيره، إن قصد تعظيمه، لم يكن في هذا تعظيم، لأنه مَثَّل أعظمَ العظماء بما هو دونه، بل بما ليس بينه وبينه نسبة وشَبَه في العظمة والجلالة، وعاقل لايفعل هذا. وإن قصد التنقيص شبهه بالناقصين المذمومين، لا بالكاملين الممدوحين.

ومن هنا يُعْلَمُ أن إثبات صفاتِ الكمال له لا يتضمن التشبيه والتمثيل، لا بالكاملين ولا بالناقصين، وأنَّ نفى تلك الصفات يستلزمُ تشبيهه بأنقص الناقصين.

فانظر إلى الجهمية وأتباعهم، جاءوا إلى التشبيه المذموم فأعرضوا عنه صفحًا، وجاءوا إلى الكمال والمدح فجعلوه تشبيهًا وتمثيلاً، عكس ما يثبته القرآن، وجاء به من كُل وجه.

ومن هذا قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ٤]، هو سلب عن المخلوق مكافأته ومماثلته للخالق سبحانه، ولم يقل: ولم يكن هو كفُوًا لأحد، فينفى عن نفسه مشابهته للمخلوق ومكافأته له، إذ كان ذلك أبين وأظهر من أن يُحتاج إلى نفيه.

---

(١) ٢٣٠ الإغاثة جـ٢.

وسر ذلك: أن المقصود أن المخلوق لا يماثله سبحانه في شيء من صفاته وخصائصه. وأما كونه سبحانه هو لا يماثل المخلوق، ولا يشابهه، ولا هو نِدٌّ له ولا كُفُوٌ، فليس فيه مدح له.

فإنه لو مُدح بعضُ الملوك أو غيرهم بأنه لا يشبه الحيوانات، ولا الحجارة، ولا الخشب، ونحو ذلك، لم يُعَدَّ هذا مدحًا، ولا ثناء عليه، ولا كمالاً له، بخلاف ما إذا قيل: لا تجعل للملك ندًا ولا كفؤا، ولا شبيهًا من رعيته، تعظمه كتعظيمه، وتطيعه كطاعته، فإنه ليس في رعيته من يُساميه، ولا يماثله، ولا يكافؤه: كان هذا غاية المدح.

(١)**قوله** عز وجل: ﴿**ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ من كل شِيعَة أيهم أشدُّ عَلَى الرَّحْمٰنِ عِتيًّا**﴾ [مريم: ٦٩]. فالشيعة الفرقة التي شايع بعضها بعضا أي تابعه، ومنه الأشياع أي الأتباع. فالفرق بين الشيعة والأشياع أن الأشياع هم التبع، والشيعة القوم الذين شايعوا أي تبع بعضهم بعضا، وغالب ما يستعمل في الذم ولعله لم يرد في القرآن إلا كذلك كهذه الآية وكقوله: ﴿**إنَّ الذِينَ فَرَّقُوا دِينَهم وكَانُوا شِيَعًا**﴾ [الأنعام: ١٥٩]، وقوله: ﴿**وَحِيلَ بَينَهم وبينَ ما يَشتَهُونَ كَما فُعِلَ بِأَشْياعِهِمْ مِنْ قَبْلُ**﴾[سباء: ٥٤]. وذلك والله أعلم لما في لفظ الشيعة من الشياع والإشاعة التي هي ضد الائتلاف والاجتماع؛ ولهذا لا يطلق لفظ الشيع إلا على فرق الضلال لتفرقهم واختلافهم. والمعنى لننزعن من كل فرقة أشدهم عتوا على الله وأعظمهم فسادًا فنلقيهم في النار.

وفيه إشارة إلى أن العذاب يتوجه إلى السادات أولاً ثم تكون الأتباع تبعًا لهم فيه كما كانوا تبعا لهم في الدنيا.

(٢)**وقال** أبو هريرة وقد عاد مريضًا فقال له: إن رسول الله ﷺ، قال: «**إن الله عز وجل يقول: هي ناري أسلطها على عبدي المؤمن في الدنيا لتكون حظه من النار في الآخرة**».

وقال مجاهد: الحمى حظ كل مؤمن من النار ثم قرأ ﴿**وإنْ منكُم إلَّا وَارِدُها**

---

(١) ١٥٥ البدائع جـ١.

(٢) ٩٢ عدة الصابرين.

كانَ عَلى رَّبك حَتْمًا مَقضِيًّا﴾ [مريم: ٧١]، وهذا لم يرد به مجاهد تفسير الورود الذي في القرآن، فإن السياق يأبى حمله على الحمى قطعًا، وإنما مراده أن الله سبحانه وعد عباده كلهم بورود النار فالحمى للمؤمن تكفر خطاياه فيسهل عليه الورود يوم القيامة فينجو منها سريعًا والله أعلم.

ويدل عليه حديث أبي ريحانة عن النبي، ﷺ، **«الحمى كير من كير جهنم وهي نصيب المؤمن من النار»**.

(١)**ولما** قال: **«لا يدخل النار أحد بايع تحت الشجرة»** قالت له حفصة: أليس الله تعالى يقول: **﴿وإنْ منْكم إلاَّ واردها﴾** [مريم: ٧١]. قال: **«أولم تسمعي قوله: ﴿ثم نُنَجِّي الذينَ اتَّقوا ونَذَرُ الظالمينَ فيِهَا جِثيًّا﴾** [مريم: ٧٢]. فأشكل عليها الجمع بين النصين، وظنت الورود هو دخولها، كما يقال: ورد المدينة إذا دخلها. فأجابها النبي، ﷺ، بأن ورود المتقين غير ورود الظالمين، فإن المتقين يردونها ورودًا ينجون به من عذابها، والظالمين يردونها ورودًا يصيرون جثيًّا فيها به.

وقال له عمر: ألم تكن تحدثنا أنا نأتي البيت ونطوف به؟ فقال: **«هل قلت إنك تدخله العام؟»** قال: لا. قال: **«فإنك آتيه ومطوف به»** فأشكل على عمر رجوعهم عام الحديبية ولم يدخلوا المسجد الحرام ولا طافوا بالبيت، فبين لهم أن اللفظ مطلق لا دليل فيه على ذلك العام بعينه فتنزيله على ذلك العام غلط، فرجع عمر وعلم أنه قد غلط في فهمه.

(٢)**وذكر** عنه أيضًا: **«حرس ليلة في سبيل الله أفضل من ألف ليلة يقام ليلها، ويصام نهارها»**(٣). وقال: **«حرمت النار على عين دمعت أو بكت من خشية الله، وحرمت النار على عين سهرت في سبيل الله»**(٤)، وذكر أحمد عنه: **«من حرس من وراء المسلمين في سبيل الله متطوعًا لا يأخذه سلطان: لم ير النار بعينيه، إلا تحلة**

---

(١) ٢١٩ الصواعق جـ١.

(٢) ١٥٩ الزاد جـ٢.

(٣) رواه من حديث عثمان بن عفان، وقال المنذري: رواه الحاكم وقال: صحيح الإسناد. قال المنذري: بل في إسناده عمر بن راشد اليماني.

(٤) رواه الطبراني، قال المنذري: ورواته ثقات، إلا أن أبا الحبيب العبقري لا يحضرني حاله.

القسم، فإن الله يقول: ﴿وإن مِّنكُم إلاَّ وارِدُها﴾[1] [مريم: ٧١]، وقال لرجل حرس المسلمين ليلة في سفرهم من أولها إلى الصباح على ظهر فرسه، لم ينزل إلا لصلاة أو قضاء حاجة: «قد أوجبت، فلا عليك أن لا تعمل بعدها»[2]. وقال: «من بلغ بسهم في سبيل الله فله درجة في الجنة» .

[3]**قال** الله تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ الله آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا * كلَّا سَيَكفُرون بعِبَادَتِهِم ويَكُونُون عَلَيهِم ضِدًّا﴾ [مريم: ٨١، ٨٢]. وقال تعالى: ﴿واتَّخَذُوا من دُونِ الله آلهةً لَعلَّهم يُنصرَونَ * لا يَستَطِيعُونَ نَصرَهم وَهُم لهم جُنْدٌ محضَرون﴾ [يس: ٧٤، ٧٥].

فأعظم الناس خذلانًا من تعلق بغير الله؛ فإن ما فاته من مصالحه وسعادته وفلاحه أعظم مما حصل له ممن تعلق به. وهو معرض للزوال والفوات. ومثل المتعلق بغير الله: كمثل المستظل من الحر والبرد ببيت العنكبوت، أوهن البيوت.

وبالجملة: فأساس الشرك وقاعدته التي بنى عليها: التعلق بغير الله، ولصاحبه الذم والخذلان، كما قال تعالى: ﴿لَا تَجعلْ مع الله إلهاً آخرَ فَتَقعُدَ مَذمومًا مَخذولا﴾ [الإسراء: ٢٢]. مذمومًا لا حامد لك. مخذولًا لا ناصر لك. إذ قد يكون بعض الناس مقهورًا محمودًا كالذي قهر بباطل. وقد يكون مذمومًا منصورًا، كالذي قهر وتسلط عليه بباطل. وقد يكون محمودًا منصورًا كالذي تمكن وملك بحق. والمشرك المتعلق بغير الله قسمه أردأ الأقسام الأربعة، لا محمود ولا منصور.

[4]**الوجه** السابع: أن اعتماد العبد على المخلوق وتوكله عليه يوجب له الضرر من جهته هو ولابد، عكس ما أمَّله منه، فلابد أن يخذل من الجهة التي قَدَّر أن ينصر منها، ويذم من حيث قدر أن يحمد، وهذا أيضًا كما أنه ثابت بالقرآن والسنة فهو معلوم بالاستقراء والتجارب، قال تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ الله آلِهَةً لِيَكونُوا

---

(١) قال المنذري في الترغيب: رواه أحمد والطبراني وأبو يعلى من حديث أنس. وإسناده لا بأس به في المتابعات و«تحلة» بفتح التاء وكسر الحاء المهملة وتشديد اللام: تكفير القسم والتحلل منه.

(٢) رواه النسائي وأبو داود ـ واللفظ له ـ من حديث سهل بن الحنظلية في قصة غزوة حنين. والرجل هو أنس بن أبي مرثد الغنوي.

(٣) ٤٥٧ المدارج جـ١.　　(٤) ٤٠ الإغاثة جـ١.

لَهُمْ عِزًّا * كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِم ضِدًّا﴾. وقال تعالى: ﴿واتخذوا مِنْ دُونِ الله آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنْصَرونَ * لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُم لَهُمْ جُنْدٌ مُحْضَرُونَ﴾ [يس: ٧٤، ٧٥]. أي يغضبون لهم ويحاربون، كما يغضب الجند ويحارب عن أصحابه، وهم لا يستطيعون نصرهم، بل هم كَلٌّ عليهم. وقال تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ الله مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ﴾ [هود: ١٠١] أي غير تخسير، وقال تعالى: ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ الله إِلَهاً آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ﴾[الشعراء: ٢١٣]. وقال تعالى: ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ الله إِلَهاً آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَخْذُولًا﴾ [الإسراء: ٢٢]. فإن المشرك يرجو بشركه النصر تارة، والحمد والثناء تارة؛ فأخبر سبحانه أن مقصوده ينعكس عليه، ويحصل له الخذلان والذم.

والمقصود: أن هذين الوجهين في المخلوق ضدهما في الخالق سبحانه. فصلاح القلب وسعادته وفلاحه في عبادة الله والاستعانة به وهلاكه وشقاؤه وضرره العاجل والآجل في عبادة المخلوق والاستعانة به.

(١)**يزيد** ذلك إيضاحًا أن اعتماده على المخلوق وتوكله عليه يوجب له الضرر من جهته، فإنه يخذل من تلك الجهة. وهذا أيضًا معلوم بالاعتبار والاستقراء أنه ما علق العبد رجاءه وتوكله بغير الله إلا خاب من تلك الجهة، ولا استنصر بغيره إلا خذل، قال تعالى: ﴿واتَّخَذُوا مِنْ دُونِ الله آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا * كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِم ضِدًّا﴾ [مريم: ٨١، ٨٢]. ﴿واتَّخَذُوا مِنْ دُونِ الله آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنْصَرُونَ * لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحْضَرُونَ﴾[يس: ٧٤، ٧٥].

(٢)**قال** تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾[مريم: ٨٣]. قال ابن عباس «تُغريهم إغراء» وفي رواية «تُشليهم إشلاء» وفي لفظ «تحرضهم تحريضًا» وفي آخر «تزعجهم إلى المعاصي إزعاجًا» وفي آخر: «توقدهم» أي تحركهم كما يحرك الماء بالإيقاد تحته، قال الأخفش: «توهجهم».

وحقيقة ذلك: أن «الأزّ» هو التحريك والتهييج، ومنه يقال لغليان القدر:

---

(١) ٦١ الهجرتين. (٢) ١٠٠ الإغاثة جـ١.

الأزيز؛ لأن الماء يتحرك عند الغليان. ومنه الحديث: «**لجوفه أزيز كأزيز المرْجَل من البكاء**» قال أبو عبيدة «الأزيز» الالتهاب والحركة، كالتهاب النار في الحطب، يقال: إزّ قِدْرَك، أي ألهِبْ تحتها بالنار؛ وأيزت القدر إذا اشتد غليانها، فقد حصل للأزّ معنيان: أحدهما: التحريك، والثاني: الإيقاد والإلهاب، وهما متقاربان، فإنه تحريك خاص بإزعاج وإلهاب.

فهذا من السلطان الذي له على أوليائه وأهل الشرك، ولكن ليس له على ذلك سلطان حجة وبرهان، وإنما استجابوا له بمجرد دعوته إياهم، لما وافقت أهواءهم وأغراضهم، فهم الذين أعانوا على أنفسهم ومكّنوا عدوهم من سلطانه عليهم، بموافقته ومتابعته، فلما أعطوا بأيديهم واستأسروا له سُلِّط عليهم، عقوبة لهم. وبهذا يظهر معنى قوله سبحانه: ﴿**وَلَنْ يَجعَلَ الله لِلْكَافِرِينَ عَلَى المُؤْمِنِينَ سَبِيلاً**﴾ [النساء: ١٤١]. فالآية على عمومها وظاهرها، وإنما المؤمنون يصدر منهم من المعصية والمخالفة التي تضادُّ الإيمان ما يصير به للكافرين عليهم سبيل بحسب تلك المخالفة، فهم الذين تَسَبّبوا إلى جعل السبيل عليهم، كما تَسبّبوا إليه يوم أُحد بمعصية الرسول ومخالفته ، والله سبحانه لم يجعل للشيطان على العبد سلطانا، حتى جعل له العبد سبيلاً إليه بطاعته والشرك به، فجعل الله حينئذ له عليه تسلّطا وقَهْرًا، **فمن وجد خيراً فليَحْمَد الله تعالى، ومن وجد غير ذلك فلا يَلُومَنّ إلا نفسه**.

فالتوحيد والتوكل والإخلاص يمنع سلطانه، والشرك وفروعه يوجب سلطانه، والجميع بقضاء مَنْ أَزِمَّة الأمور بيده، ومَرَدُّها إليه، وله الحجة البالغة، فلو شاء لجعل الناس أمة واحدة، ولكن أبتْ حِكمته وحمده وملكه إلا ذلك. ﴿**فللَّهِ الحَمْدُ رَبِّ السَّموات وَرَبِّ الأَرْضِ رَبِّ العَالَمِينَ * وَلَهُ الكبرِيَاءُ في السَّمٰوَاتِ والأَرْضِ وَهُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ**﴾ [الجاثية: ٣٦، ٣٧].

فصل(١)

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿**ألم تر أنا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزاً**﴾ [مريم: ٨٣]. فالارسال ها هنا إرسال كوني قدري كإرسال الرياح، وليس بإرسال

---

(١) ٦٢ شفاء.

ديني شرعي، فهو إرسال تسليط. بخلاف قوله في المؤمنين: ﴿إنَّ عِبادي لَيسَ لَكَ عليهم سُلطانٌ﴾ [الحجر:٤٢]. فهـذا السلطان المنفي عنه على المؤمنين هو الذي أرسل به جنده على الكافرين.

قال أبو إسحاق: ومعنى الإرسال ههنا التسليط تقول: قد أرسلت فلانا على فلان إذا سلطته عليه كما قال: ﴿إنَّ عِبادي ليسَ لَكَ عَليهم سُلطانٌ إلَّا مَنِ اتبعك مِنَ الغَاوِين﴾[الحجر:٤٢]. فأعلم أن من اتبعه هو مسلط عليه.

قلت: ويشهد له قوله تعالى: ﴿إنَّما سُلطانُهُ علىَ الذينَ يَتوَلَّونه والَّذينَ هُمْ بِهِ مُشركُـونَ﴾ [النحل:١٠٠]. وقـولـه: ﴿تَـؤُزُّهم أَزًّا﴾. فالأز في اللغـة التحريك والتهييج، ومنه يقال لغليان القدر الأزيز لتحريك الماء عند الغليان، وفي الحديث «كان لصدر رسول الله، ﷺ، أزيز كأزيز المرجل من البكاء».

وعبارات السلف تدور على هذا المعنى قال ابن عباس: تغريهم إغراءً.

وفي رواية أخرى عنه: تسلهم سلًّا، وفي رواية أخرى: تحرضهم تحريضًا.

وفي أخرى: تزعجهم للمعاصي إزعاجًا. وفي أخرى: توقدهم إيقادًا، أى كما يتحرك الماء بالوقد تحته. قال أبو عبيدة: الأزيز الإلهاب والحركة كالتهاب النار في الحطب يقال: إز قدرك أي ألهب تحتها النار. وائتزت القدر إذا اشتد غليانها، وهذا اختيار الأخفش. والتحقيق أن اللفظة تجمع المعنيين جميعًا.

قالت القدرية: معنى ﴿أرسلنا الشياطين على الكافرين﴾ خلينا بينهم وبينها ليس معناه التسليط.

قال أبو على: الإرسال يستعمل بمعنى التخلية بين المرسل وما يريد، فمعنى الآية: خلينا بين الشياطين وبين الكافرين ولم يمنعهم منهم ولم يعدهم، بخلاف المؤمنين الذين قيل فيهم ﴿إن عبادي ليس لك عليهم سلطان﴾، قال الواحدى: وإلى هذا الوجه يذهب القدرية في معنى الآية قال: وليس المعنى على ماذهبوا إليه.

وقال: أبو إسحاق: والمختار أنهم أرسلوا عليهم وقيضوا لهم بكفرهم كما قال تعـالى: ﴿ومن يعش عَن ذِكـر الـرَّحمٰن نُقَيض لَهُ شَيـطانًـا فهـو له قَرِين﴾ [الزخرف:٣٦]. وقال: ﴿وَقَيَّضنا لَهُمْ قُرنَاء فَزيَّنوا لهم مَا بَين أيديهم وما خَلفَهم﴾ [فصلت:٢٥]، وإنما معنى الإرسال التسليط.

قلت: وهـذا هو المفهوم من معنى الإرسال، كما في الحديث: «**إذا أرسلت كلبك المعلم**» أي سلطته، ولو خلى بينه وبين الصيد من غير إرسال منه لم يبح صيده، وكذلك قوله: ﴿**وَفِي عادٍ إِذ أرسَلْنا عَليهِمُ الرِّيحَ العَقيمَ**﴾ [الذاريات: ٤١]، أى سلطناها وسخرناها عليهم، وكذلك قوله: ﴿**وأرسَلَ عَلَيهم طَيراً أبابيلَ**﴾ [الفيل: ٣]. وكذلك قوله: ﴿**إِنَّا أَرْسَلنَا عَلَيهِمْ صَيحَةً وَاحدةً**﴾ [القمر: ٣١]. والتخلية بين المرسل وبين ما أرسل عليه من لوازم هذا المعنى، ولا يتم التسليط إلا به، فإذا أرسـل الشيء الذي من طبعه وشأنه أن يفعل فعلاً ولم تمنعه من فعله فهذا هو التسليط، ثم إن القـدرية تنـاقضوا في هذا القول فإنهم إن جوزوا منعهم منهم وعصمتهم وإعادتهم فقد نقضوا أصلهم. فإن منع المختار من فعله الاختياري مع سلامة النية وصحة بنيته تدل على أن فعله وتركه مقدور للرب، وهذا عين قول أهل السنة، وإن قالوا: لا يقدر على منعهم وعصمهم منهم وإعادتهم فقد جعلوا قدرتهم ومشيئتهم بفعل ما لا يقدر الرب على المنع منه وهذا أبطل الباطل.

ثم قالت القـدرية: ﴿**تؤزهم أزًا**﴾ تأمرهم بالمعاصي أمرًا، وحكوا ذلك عن الضحاك، وهذا لا يلتفت إليه؛ إذ لا يقال لمن أمر غيره بشيء قد أزه، ولا تساعد اللغـة على ذلـك. ولـو كان ذلك صحيحًا لكان يؤز المؤمنين أيضًا فإنه يأمرهم بالمعاصي أكثر من أمر الكافرين، فإن الكافر سريع الطاعة والقبول من الشيطان، فلا يحتاج من أمره ما يحتاج إليه من أمر المؤمنين، بل يأمر الكافر مرة ويأمر المؤمن مرات، فلو كان الأز الأمر لم يكن له اختصاص بالكافرين.

(١)**وتأمل** حكمـة القـرآن وجـلالتـه كيف أوقع الاستعاذة من شر الشيطان الموصوف بأنه الوسواس الخناس الذي يوسوس في صدور الناس ولم يقل من شر وسوسته، لتعم الاستعاذة شره جميعه فإن قوله: ﴿**مِن شَرِّ الوَسْواسِ**﴾ [الناس: ٤]، يعم كل شره ووصفه بأعظم صفاته وأشدها شرًا وأقواها تأثيرًا وأعمها فسادًا وهي الـوسـوسة التي هي مبادى الإرادة، فإن القلب يكون فارغًا من الشر والمعصية فيوسوس إليه ويخطر الذنب بباله فيصوره لنفسه، ويمنيه ويشهيه فيصير شهوة،

---

(١) ٢٥٧ المدارج جـ٢.

ويزينها له ويحسنها ويخيلها له في خيال تميل نفسه إليه فيصير إرادة، ثم لا يزال يمثل ويخيل، ويمنى ويشهى، وينسى علمه بضررها، ويطوى عنه سوء عاقبتها فيحول بينه وبين مطالعته، فلا يرى إلا صورة المعصية والتذاذه بها فقط، وينسى ما وراء ذلك فتصير الإرادة عزيمة جازمة، فيشتد الحرص عليها من القلب، فيبعث الجنود في الطلب، فيبعث الشيطان معهم مددًا لهم وعونًا، فإن فتروا حرّكهم، وإن ونوا أزعجهم كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ ترَأَنَّا أَرسَلنَا الشَّياطينَ على الكافرين تَؤُزُّهم أَزًّا﴾ [مريم:٨٣]. أى تزعجهم إلى المعاصي إزعاجًا كلما فتروا أو ونوا أزعجتهم الشياطين وأزتهم وأثارتهم، فلا تزال بالعبد تقوده إلى الذنب وتنظم شمل الاجتماع بألطف حيلة وأتم مكيدة، قد رضى لنفسه بالقيادة لفجرة بني آدم، وهو الذي استكبر وأبى أن يسجد لأبيهم فلا بتلك النخوة والكبر ولا برضاه(١) أن يصير قوادًا لكل من عصى الله كما قال بعضهم:

عجبت من إبليس في تيهه	وقبح ما أظهر من نخوته
تاه على آدم في سجدة	وصار قوادًا لذريته

فأصل كل معصية وبلاء إنما هو الوسوسة فلهذا وصفه بها لتكون الاستعاذة من شرها أهم من كل مستعاذ منه، وإلا فشره بغير الوسوسة حاصل أيضًا. فمن شره أنه لص سارق لأموال الناس، فكل طعام أو شراب لم يذكر اسم الله عليه فله فيه حظ بالسرقة والخطف.

وكذلك يبيت في البيت إذا لم يذكر فيه اسم الله، فيأكل طعام الانس بغير إذنهم، ويبيت في بيوتهم بغير أمرهم، فيدخل سارقًا ويخرج مغيرًا، ويدل على عوراتهم، فيأمر العبد بالمعصية ثم يلقى في قلوب الناس يقظة ومنامًا أنه فعل كذا وكذا.

ومن هذا أن العبد يفعل الذنب لا يطلع عليه أحد من الناس، فيصبح والناس يتحدثون به، وما ذاك إلا أن الشيطان زينه له وألقاه في قلبه ثم وسوس إلى الناس بما فعل وألقاه إليهم، فأوقعه في الذنب ثم فضحه به. فالرب تعالى يستره والشيطان يجهد في كشف ستره وفضيحته فيغتر العبد ويقول: هذا ذنب لم يره إلا الله، ولم

(١) الظاهر الذي يقتضيه المعنى فلم تمنعه النخوة والكبر أن يصير قواداً لكل من عصى الله اهـ.

يشعر بأن عدوه ساع في إذاعته وفضيحته. وقل من يتفطن من الناس لهذه الدقيقة.

(١)**العبودية** نوعان: عامة، وخاصة. فالعبودية العامة: عبودية أهل السموات والأرض كلهم لله، بَرِّهم وفاجرهم، مؤمنهم وكافرهم. فهذه عبودية القهر والملك.

قال تعالى: ﴿وَقَالُوا اتخَذَ الرحمنُ وَلَدًا * لقَد جِئتم شَيئًا إدًّا * تَكادُ السَّمٰواتُ يَتَفطَّرنَ منه وتَنْشَقُّ الأرضُ وتَخِرُّ الجبالُ هَدًّا. أن دَعَوْا للرَّحمٰنِ وَلَدًا * وما يَنبغي لِلَّرحمٰنِ أن يَتَّخِذ ولدًا * إنْ كلُّ مَن فِي السَّمواتِ والأرضِ إلا آتى الرَّحمنِ عَبدًا﴾ [مريم: ٨٨، ٩٣]. فهذا يدخل فيه مؤمنهم وكافرهم.

وقال تعالى: ﴿وَيومَ يَحشُرهم وما يَعبدونَ من دُون الله فيقول أأنتم أضْلَلتم عِبادِي هؤلاء﴾ [الفرقان: ١٧]. فسماهم عباده مع ضلالهم. لكن تسمية مقيدة بالإشارة.

وأما المطلقة: فلم تجيء إلا لأهل النوع الثاني، كما سيأتي بيانه إن شاء الله.

وقال تعالى: ﴿قُلِ اللهُمَّ فاطِرَ السَّمواتِ والأرض عالمَ الغَيبِ والشهادةِ أنت تَحكُمُ بين عبادِكَ فيما كانوا فيه يَخْتلفُون﴾ [الزمر: ٤٦]. وقال: ﴿وما الله يُريد ظلمًا لِّلعِباد﴾ [غافر: ٣١]. وقال: ﴿إنَّ الله قد حَكَمَ بَينَ العِبادِ﴾ [غافر: ٤٨].

فهذا يتناول العبودية الخاصة والعامة.

وأما النوع الثاني: فعبودية الطاعة والمحبة، واتباع الأوامر. قال تعالى: ﴿ياعِبادِ لا خَوفٌ عَلَيكُمُ اليومَ ولا أَنْتُم تَحزنُونَ﴾ [الزخرف: ٦٨]. وقال تعالى: ﴿وعِبادُ الرَّحمٰنِ الَّذينَ يَمشُون على الأرض هَونًا وإذا خاطَبَهُمُ الجاهلون قَالُوا سَلاما﴾ [الفرقان: ٦٣].

وقال تعالى عن إبليس: ﴿لأُغوِيَنَّهم أجمعين * إلا عبادَكَ مِنهُمُ المخْلَصين﴾ [الحجر: ٣٩، ٤٠]. فقال تعالى عنهم: ﴿إنَّ عِبادِي ليس لَكَ عَليهِمْ سُلطانٌ﴾ [الحجر: ٤٢].

فالخلق كلهم عبيد ربوبيته. وأهل طاعته وولايته: هم عبيد إلهيته(٢).

(٣)**وقال** عبدالرحمن بن زيد بن أسلم قال محمد بن المنكدر لأبي حازم: ياأبا حازم ما أكثر من يلقاني فيدعو لي بالخير ما أعرفهم وما صنعت إليهم خيرًا قط؟ فقال أبو حازم: لا تظن أن ذلك من قبلك ولكن انظر إلى الذي ذلك من قبله فاشكره. وقرأ أبو عبدالرحمن: ﴿إنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالحِاتِ سَيَجْعَلُ لهُمُ الرَّحمٰنُ وُدًّا﴾ [مريم: ٩٦].

---

(١) ١٠٥ المدارج جـ١. (٢) تقدم البحث كاملاً في سورة الفاتحة. (٣) ١٣٨ عدة الصابرين.

(١) **وفي** الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي، ﷺ قال: «**إذا أحب الله العبد نادى جبريل إنَّ الله يحب فلانًا فأحبوه فيحبه أهل السماء ثم يوضع له القبول في الأرض**». وفي لفظ لمسلم: «**إن الله إذا أحب عبدًا دعا جبريل فقال: إني أحب فلانًا فأحبه قال فيحبه جبريل ثم ينادي في السماء فيقول: إن الله يحب فلاناً فأحبوه فيحبه أهل السماء قال ثم يوضع له القبول في الأرض، وإذا أبغض عبدًا دعا جبريل فيقول إني أبغض فلانًا فأبغضه قال فيبغضه جبريل ثم ينادي في السماء إن الله يبغض فلانًا فأبغضوه ثم يوضع له البغضاء في الأرض**». وفي لفظ آخر لمسلم عن سهيل بن أبي صالح قال: كُنَّا بعرفة فمر عمر بن عبدالعزيز وهو على الموسم، فقام الناس ينظرون إليه فقلت لأبي: ياأبتِ إني أرى الله يحب عمر بن عبدالعزيز قال: وما ذاك؟ قلت: لما له من الحب في قلوب الناس فقال: إني سمعت أبا هريرة رضي الله عنه يحدث عن رسول الله، ﷺ، ثم ذكر الحديث. وأخرجه الترمذي ثم زاد في آخره فذلك قول الله تعالى: ﴿**إنَّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودًّا**﴾ [مريم: ٩٦] انتهى، وقال بعض السلف في تفسيرها: يحبهم ويحببهم إلى عباده.

(٢) **وجميع** المعاصى يجتمع فيها هذان الوصفان، وهما العداوة والبغضاء، والصد عن ذكر الله وعن الصلاة، فإن التحاب والتآلف إنما هو بالإيمان والعمل الصالح، كما قال تعالى: ﴿**إنَّ الذين آمنوا وعملوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لهمُ الرَّحْمٰن وُدًّا**﴾ أي يلقي بينهم المحبة، فيحب بعضهم بعضًا، فيتراحمون، ويتعاطفون بما جعل الله لبعضهم في قلوب بعض من المحبة.

وقال ابن عباس: «يحبهم ويحببهم إلى عباده»(٣).

قال هَرم بن حيَّان : «ما أقبل عبدٌ بقلبه إلى الله عز وجل إلا أقبل الله بقلوب المؤمنين إليه حتى يرزقه مودتهم ورحمتهم».

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة مريم

والحمد لله رب العالمين

---

(١) ٤٣٨ الروضة.		(٢) ١٥٤ الإغاثة جـ٢.

(٣) الذي في تفسير ابن كثير (ج ٥ ص ٤٠٦) أن هذا قول سعيد بن جبير ومجاهد والضحاك.



بسم الله الرحمن الرحيم

. . . [١]**قالوا:** والأوقات ثلاثة أنواع :

وقت للقادر المستيقظ الذاكر غير المعذور. فهي خمسة .

ووقت للذاكر المستيقظ المعذور وهي ثلاثة. فإن في حقه: وقت الظهر والعصر واحد. ووقت المغرب والعشاء واحد.

ووقت الفجر واحد. فالأوقات في حق هذا ثلاثة. وإذا أخر الظهر إلى أن فعلها في وقت العصر فإنما صلاها في وقتها.

ووقت في حق غير المكلف بنوم أو نسيان. فهو غير محدود البتة، بل الوقت في حقه عند يقظته وذكره. لا وقت له إلا ذلك.

هذا الذي دلت عليه نصوص الشرع وقواعده. وهذا المفرط المضيع خارج عن هذه الأقسام. وهو قسم رابع. فبأيها تلحقونه؟

قالوا: وقد شرع الله سبحانه قضاء رمضان لمن أفطره لعذر، من حيض أو سفر أو مرض، ولم يشرعه قط لمن أفطره متعمداً من غير عذر، لا بنص ولا بإيماء ولا تنبيه، ولا تقتضيه قواعده. وإنما غاية ما معكم: قياسه على المعذور مع اطراد قواعد الشرع على التفريق بينهما، بل قد أخبر الشارع: أن صيام الدهر لا يقضيه عن يوم يفطره بلا عذر، فضلاً عن يوم مثله.

قالوا: وأما قولكم: «إنه كان يجب عليه أمران: العبادة، وإيقاعها في وقتها، فإذا ترك أحدهما بقي عليه الآخر» فهذا إنما ينفع فيما إذا لم يكن أحد الأمرين مرتبطاً بالآخر ارتباط الشرطية، كمن أمر بالحج والزكاة، فترك أحدهما: لم يسقط عنه الآخر. أما إذا كان أحدهما شرطاً في الآخر، وقد تعذر الإتيان بالشرط الذي لم يؤمر بالمشروط إلا به. فكيف يقال: إنه يؤمر بالآخر بدونه، ويصح منه بدون وصفه وشرطه؟ فأين أمر الله بذلك؟ وهل الكلام إلا فيه؟

---

(١) ٣٨٠ مدارج جـ١ .

قالوا: وإن قلنا: إنما يجب القضاء بأمر جديد، فلا أمر معكم بالقضاء في محل النزاع. وقياسه على مواقع الإجماع: ممتنع كما بيناه.

وإن قلنا: يجب بالأمر الأول، فهذا فيما إذا كان القضاء نافعاً، ومصلحته كمصلحة الأداء، كقضاء المريض والمسافر والحائض للصوم، وقضاء المغمى عليه والنائم والناسي. أما إذا كان القضاء غير مبرىء للذمة، ولا هو معذور بتأخير الواجب عن وقته، فهذا لم يتناوله الأمر الأول، ولا أمر ثان. وإنما هو القياس الذي علم افتراق الأصل والفرع فيه في وصف ظاهر التأثير مانع للإلحاق. . .

. . .[1]**وأما** (المسألة الخامسة) التي هي قوله: هل تقبل صلاة الليل بالنهار وصلاة النهار بالليل أم لا؟

فهذه المسألة لها صورتان: إحداهما يقبل فيها بالنص والإجماع، وهي ما إذا فاتته صلاة النهار بنوم أو نسيان، فصلاها بالليل، وعكسه. كما ثبت في الصحيحين من حديث أنس بن مالك عن النبي، ﷺ، قال: «**من نسى صلاة أو نام عنها فكفارتها أن يصليها إذا ذكرها**» اللفظ لمسلم.

وروى مسلم عنه أيضاً قال: قال رسول الله، ﷺ: «**إذا رقد أحدكم عن الصلاة أو غفل عنها فليصلها إذا ذكرها، فإن الله يقول: ﴿وأقم الصَّلاة لِذِكرِي﴾**».

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله، ﷺ، حين قفل من غزوة خيبر سار ليلة حتى إذا أدركه الكرى عرَّس وقال لبلال: «**اكلألنا الليل**[2] **فصلى بلال ما قدر له، ونام رسول الله، ﷺ، وأصحابه، فلما تقارب الفجر استند بلال إلى راحلته مواجه الفجر، فغلبت بلالا عيناه وهو مستند إلى راحلته، فلم يستيقظ رسول الله، ﷺ، ولا بلال ولا أحد من أصحابه حتى ضربتهم الشمس، فكان رسول الله، ﷺ، أولهم استيقاظاً**» الحديث[3].

. . .[4]**قالوا:** وقد قال رسول الله، ﷺ: «**من ترك صلاة العصر حبط عمله**».

وقال: «**الذي تفوته صلاة العصر فكأنما وتر أهله وماله**» فلو كان يمكنه

---

(١) ٣٣ كتاب الصلاة. (٢) أي احرسنا بقية الليل، وراقب الليل لأجلنا.

(٣) ساق المؤلف تكملة البحث ثم ذكر الصورة الثانية فيمن ترك الصلاة عمدًا فمن أراده فليراجعه. (ج).

(٤) ٣٧ كتاب الصلاة.

استدراكها بالليل لم يحبط عمله، ولم يكن موتورًا من أعماله بمنزلة الموتور من أهله وماله.

قالوا: وقد صح عنه، ﷺ، أنه قال: «**من أدرك ركعة من العصر قبل أن تغرب الشمس فقد أدرك العصر**»، فكذا من أدرك ركعة من الصبح قبل أن تطلع الشمس فقد أدرك الصبح، ولو كان فعلها بعد المغرب وطلوع الشمس صحيحاً مطلقاً لكان مدركاً، سواء أدرك ركعة أو أقل من ركعة أو لم يدرك منها شيئاً، فإنه ﷺ لم يرد: إن أدرك ركعة صحت صلاته بلا إثم، إذ لا خلاف بين الأمة أنه لا يحل له تأخيرها إلى أن يضيق وقتها عن كمال فعلها، وإنما أراد بالإدراك الصحة والإجزاء، وعندكم تصح وتجزي ولو أدرك منها قدر تكبيرة أو لم يدرك منها شيئاً، فلا معنى للحديث عندكم البتة.

قالوا: والله سبحانه قد جعل لكل صلاة وقتاً محدود الأول والآخر، ولم يأذن في فعلها قبل دخول وقتها ولا بعد خروج وقتها، والمفعول قبل الوقت وبعده أمر غير المشروع، فلو كان الوقت ليس شرطاً في صحتها لكان لا فرق في الصحة بين فعلها قبل الوقت وبعده؛ لأن كلا الصلاتين صلاها في غير وقتها، فكيف قبلت من هذا المفرط بالتفويت ولم تقبل من المفرط بالتعجيل؟

قالوا: والصلاة في الوقت واجبة على كل حال حتى أنه يترك جميع الواجبات والشروط لأجل الوقت. فإذا عجز عن الوضوء والاستقبال، أو طهارة الثوب والبدن وستر العورة، أو قراءة الفاتحة، أو القيام، في الوقت وأمكنه أن يصلي بعد الوقت بهذه الأمور فصلاته في الوقت بدونها هي التي شرعها الله وأوجبها، ولم يكن له أن يصلي بعد الوقت مع كمال هذه الشروط والواجبات.

فعلم أن الوقت مقدم عند الله ورسوله على جميع الواجبات، فإذا لم يكن إلا أحد الأمرين وجب أن يصلي في الوقت بدون هذه الشروط والواجبات، ولو كان له سبيل إلى استدراك الصلاة بعد خروج وقتها لكانت صلاته بعد الوقت مع كمال الشروط والواجبات خيراً من صلاته في الوقت بدونها وأحب إلى الله، وهذا باطل بالنص والإجماع.

قالوا: وأيضاً فقد توعد الله سبحانه من فوت الصلاة عن وقتها بوعيد التارك لها.

قال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾

[الماعون: ٤، ٥]. وقد فسر أصحاب رسول الله، السهو عنها بأنه تأخيرها عن وقتها كما ثبت ذلك عن سعد بن أبي وقاص، وفيه حديث مرفوع.

وقال تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِن بعدِهم خَلفٌ أَضَاعُوا الصَّلاةَ وَاتَّبعوا الشهواتِ فسوف يَلقَون غيّاً﴾ [مريم: ٥٩].

وقد فسر الصحابة والتابعون إضاعتها بتفويت وقتها.

والتحقيق أن إضاعتها تتناول تركها، وترك وقتها، وترك واجباتها وأركانها.

وأيضاً فإن مؤخرها عن وقتها عمداً متعد لحدود الله كمقدمها عن وقتها، فما بالها تقبل مع تعدي هذا الحد ولا تقبل مع تعدي الحد الآخر؟

قالوا: وأيضاً فنقول لمن قال إنه يستدركها بالقضاء: أخبرنا عن هذه الصلاة التي تأمر بفعلها، هي التي أمر الله بها، أم هي غيرها؟

فإن قال: هي بعينها، قيل له: فالعامد بتركها حينئذ ليس عاصياً لأنه قد فعل ما أمر الله به بعينه فلا يلحقه الإثم والملامة، وهذا باطل قطعاً.

وإن قال: ليست هي التي أمر الله بها، قيل له: فهذا من أعظم حججنا عليك إذا سلمت أن هذه غير مأمور بها.

ثم نقول أيضاً: ما تقولون فيمن تعمد تفويتها حتى خرج وقتها ثم صلاها، أطاعة صلاته تلك أم معصية؟

فإن قالوا: صلاته طاعة وهو مطيع بها، خالفوا الإجماع والقرآن والسنن الثابتة.

وإن قالوا: هي معصية، قيل: فكيف يتقرب إلى الله بالمعصية، وكيف تنوب المعصية عن الطاعة؟

فإن قلتم: هو مطيع بفعلها عاص بتأخيرها وهو أنه إنما تقرب بالفعل الذي هو طاعة لا بالتفويت الذي هو معصية.

قيل لكم: الطاعة هي موافقة الأمر وامتثاله على الوجه الذي أمر به، فأين أمر الله ورسوله ممن تعمد تفويت الصلاة بفعلها بعد خروج وقتها حتى يكون مطيعاً له بذلك؟ فلو ثبت ذلك لكان فاصلاً للنزاع في المسألة.

قالوا: وأيضاً فغير أوقات العبادة لا تَقبل تلك العبادة بوجه، كما أن الليل لا يقبل الصيام، وغير أشهر الحج لا يقبل الحج، وغير وقت الجمعة لا يقبل الجمعة،

فأي فرق بين من قال: أنا أفطر النهار وأصوم الليل، أو قال: أنا أفطر رمضان في هذا الحر الشديد وأصوم مكانه شهراً في الربيع؟ أو قال: أنا أؤخر الحج من شهره إلى المحرم، أو قال: أنا أصلي الجمعة بعد العشاء الآخرة، أو أصلي العيدين في وسط الشهر، وبين من قال: أنا أؤخر صلاة النهار إلى الليل وصلاة الليل، إلى النهار، فهل يمكن أحداً قط أن يفرق بين ذلك؟

قالوا: وقد جعل الله سبحانه للعبادات أمكنة وأزمنة وصفات، فلا ينوب مكان عن المكان الذي جعله الله مكاناً ميقاتاً لها، كعرفة، ومزدلفة، ومنى، ومواضع الجمار والمبيت، والصفا والمروة، ولا تنوب صفة من صفاتها التي أوجبها الله عليها عن صفة، فكيف ينوب زمان عن زمانها الذي أوجبها الله فيه عنه؟

قالوا: وقد دل النص والإجماع على أن من أخر الصلاة عن وقتها عمداً أنها قد فاتته، كما قال النبي، ﷺ: «**من فاتته صلاة العصر فكأنما وتر أهله وماله**» وما فات فلا سبيل إلى إدراكه البتة. ولو أمكن أن يدرك لما سمى فائتاً، وهذا مما لا شك فيه لغة وعرفاً وكذلك هو في الشرع . . . .

(١)فصل

وأما المسألة الرابعة وهو قوله هل تحبط الأعمال بترك الصلاة أم لا؟ فقد عرف جوابها مما تقدم. وإنا نفرد هذه المسألة بالكلام عليها بخصوصيتها فنقول:

أما تركها بالكلية فإنه لا يقبل معه عمل، كما لا يقبل مع الشرك عمل؛ فإن الصلاة عمود الإسلام ـ كما صح عن النبي، ﷺ ـ وسائر الشرائع كالأطناب والأوتاد ونحوها، وإذا لم يكن للفسطاط عمود لم ينتفع بشيء من أجزائه، فقبول سائر الأعمال موقوف على قبول الصلاة، فإذا ردت عليه ردت سائر الأعمال. وقد تقدم الدليل على ذلك.

(٢)**وأما** تركها أحيانًا فقد روى البخاري في صحيحه من حديث بريدة قال: قال رسول الله، ﷺ: «**بكروا بصلاة العصر، فإن من ترك صلاة العصر فقد حبط عمله**». وقد تكلم قوم في معنى هذا الحديث فأتوا بما لا حاصل له.

---

(١) ٣١ كتاب الصلاة.		(٢) ٣٢ كتاب الصلاة.

قال المهلب: معناه من تركها مضيعاً لها، متهاوناً بفضل وقتها مع قدرته على أدائها، حبط عمله في الصلاة خاصة، أي لا يحصل له أجر المصلي في وقتها، ولا يكون له عمل ترفعه الملائكة، وحاصل هذا القول أن من تركها فاته أجرها.

ولفظ الحديث ومعناه يأبى ذلك، ولا يفيد حبوط عمل قد ثبت وفعل، وهذا حقيقة الحبوط في اللغة والشرع، ولا يقال لمن فاته ثواب عمل من الأعمال أنه قد حبط عمله، وإنما يقال فاته أجر ذلك العمل. وقالت طائفة: يحبط عمل ذلك اليوم لا جميع عمله، فكأنهم استصعبوا حبوط الأعمال الماضية كلها بترك صلاة واحدة، وتركها عندهم ليس بردة تحبط الأعمال، فهذا الذي استشكله هؤلاء هو وارد عليهم بعينه في حبوط عمل ذلك اليوم.

والذي يظهر في الحديث ـ والله أعلم بمراد رسوله ـ أن الترك نوعان:

ترك كلي لا يصليها أبداً فهذا يحبط العمل جميعه.

وترك معين في يوم معين فهذا يحبط عمل ذلك اليوم، فالحبوط العام في مقابلة الترك العام، والحبوط المعين في مقابلة الترك المعين.

فإن قيل: كيف تحبط الأعمال بغير الردة؟

قيل: نعم، قد دل القرآن والسنة والمنقول عن الصحابة أن السيئات تحبط الحسنات، كما أن الحسنات يذهبن السيئات.

قال تعالى: ﴿**يَاأَيُّها الَّذينَ آمنوُا لا تُبطُلوا صَدَقَاتكُم بالمنِّ والأذى**﴾ [البقرة: ٢٦٤].

وقال: ﴿**يَاأَيُّها الَّذين آمنوا لاَ تَرفعوُا أصواتكُم فَوقَ صَوتِ النَّبيِّ وَلا تَجْهَرُوا له بالقولِ كَجَهْرِ بَعضِكُم لِبعضٍ أن تَحْبَطَ أعمالُكم وأنتُم لاتَشعُرون**﴾ [الحجرات: ٢].

وقالت عائشة لأم زيد بن أرقم: أخبري زيداً أنه قد أبطل جهاده مع رسول الله، ﷺ إلا أن يتوب ـ لما باع بالعينة ـ.

وقد نص الإمام أحمد على هذا فقال: ينبغي للعبد في هذا الزمان أن يستدين ويتزوج لئلا ينظر مالا يحل فيحبط عمله. وآيات الموازنة في القرآن تدل على هذا، فكما أن السيئة تذهب بالحسنة أكبر منها، فالحسنة يحبط أجرها بسيئة أكبر منها.

فإن قيل: فأي فائدة في تخصيص صلاة العصر بكونها محبطة دون غيرها من الصلوات؟

قيل: الحديث لم ينف الحبوط بغير العصر إلا بمفهوم لقب، وهو مفهوم ضعيف جداً. وتخصيص العصر بالذكر لشرفها من بين الصلوات، ولهذا كانت هي الصلاة الوسطى بنص رسول الله، ﷺ، الصحيح الصريح، ولهذا خصها بالذكر في الحديث الآخر وهو قوله: «**الذي تفوته صلاة العصر فكأنما وتر أهله وماله**» أي فكأنما سلب أهله وماله فأصبح بلا أهل ولا مال، وهذا تمثيل لحبوط عمله بتركها، كأنه شبه أعماله الصالحة - بانتفاعه وتمتعه بها - بمنزلة أهله وماله، فإذا ترك صلاة العصر فهو كمن له أهل ومال فخرج من بيته لحاجة وفيه أهله وماله فرجع وقد اجتيح الأهل والمال فبقي وتراً دونهم، وموتوراً بفقدهم، فلو بقيت عليه أعماله الصالحة لم يكن التمثيل مطابقاً.

فصل: والحبوط نوعان عام، وخاص.

فالعام: حبوط الحسنات كلها بالردة، والسيئات كلها بالتوبة.

والخاص: حبوط السيئات والحسنات بعضها ببعض، وهذا حبوط مقيد جزئي، وقد تقدم دلالة القرآن والسنة والآثار وأقوال الأئمة عليه.

ولما كان الكفر والإيمان كل منهما يبطل الآخر ويذهبه كانت شعبة واحد منهما لها تأثير في إذهاب بعض شعب الآخر، فإن عظمت الشعبة ذهب في مقابلتها شعب كثيرة. وتأمل قول أم المؤمنين في مستحل العينة: إنه قد أبطل جهاده مع رسول الله، ﷺ، كيف قويت هذه الشعبة التي آذن الله فاعلها بحربه وحرب رسوله على إبطال محاربة الكفار، فأبطل الحراب المكروه الحراب المحبوب، كما تبطل محاربة أعدائه التي يحبها، محاربته التي يبغضها. والله المستعان.

. . .[1]**الله** سبحانه قَدَّر مجيء موسى أحوج ما كان الوقت إليه؛ فإن العرب تقول: جاء فلان على قَدَر. إذا جاء وقت الحاجة إليه. قال جرير:

نال الخلافة إذ كانت على قدر	كما أتى ربه موسى على قدر

وقال مجاهد: على موعد. وهذا فيه نظر. لأنه لم يسبق بين الله سبحانه وبين موسى موعد للمجيء، حتى يقال: إنه أتى على ذلك الموعد.

---

(١) ١٢٧ مدارج جـ٣.

ولكن وجه هذا: أن المعنى «جئت على الموعد الذي وعدنا: أن ننجزه، والقدر الذي قدرنا: أن يكون في وقته» وهذا كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذين أُوْتُوا العلمَ مِن قَبْلِهِ إذا يُتلى عَلَيهم يخرُّون للأذقان سُجَّدًا * وَيَقُولُون سُبحانَ ربِّنا إن كَان وَعدُ رَبِّنا لَمفعولاً﴾ [الإسراء: ١٠٧، ١٠٨]. لأن الله سبحانه وتعالى وعد بإرسال نبي في آخر الزمان يملأ الأرض نوراً وهدى، فلما سمعوا القرآن: علموا أن الله أنجز ذلك الوعد الذي وعد به.

واستشهاده بهذه الآية يدل على محله من العلم؛ لأن الشيء إذا وقع في وقته الذي هو أليق الأوقات بوقوعه فيه: كان أحسن وأنفع وأجدى. كما إذا وقع الغيث في أحوج الأوقات إليه، وكما إذا وقع الفَرَج في وقته الذي يليق به.

ومن تأمل أقدار الرب تعالى وجريانها في الخلق علم أنها واقعة في أليق الأوقات بها.

فبعث الله سبحانه موسى أحوج ما كان الناس إلى بعثته. وبعث عيسى كذلك، وبعث محمد صلى الله عليه وعليهم أجمعين أحوج ما كان أهل الأرض إلى إرساله. فهكذا وقت العبد مع الله يعمره بأنفع الأشياء له أحوج ما كان إلى عمارته..

[1]**و الاصطناع** بمعنى الاصطفاء. قال تعالى لموسى: ﴿واصطَنَعْتُك لِنَفسي﴾ [طه: ٤١]. والاصطناع في الأصل: اتخاذ الصنيعة. وهي الخير تُسديه إلى غيرك. قال الشاعر:

وإذا اصطنعت صنيعة فاقصد بها ... وجه الذي يُولي الصنائع أوْ دَع

قال ابن عباس: اصطنعتك لوحيي ورسالتي.

وقال الكلبي: اخترتُك بالرسالة لنفسي، لكي تحبني وتقوم بأمري.

وقيل: اخترتك بالإحسان إليك لإقامة حجتي، فتكلم عبادي عني.

قال أبو إسحاق: اخترتك بالإحسان إليك لإقامة حجتي، وجعلتك بيني وبين خلقي، حتى صرت في الخطاب والتبليغ عني بالمنزلة التي أكون أنا بها لو خاطبتهم.

---

(١) ٢٩٦ مدارج جـ٣.

وقيل مَثَّل حاله بحال من يراه بعض الملوك ـ لجوامع خصال فيه وخصائص ـ أهلاً لكرامته وتقريبه، فلا يكون أحد أقرب منه منزلة إليه، ولا ألطف محلاً فيصطنعه بالكرامة والأثرة، ويستخلصه لنفسه، بحيث يسمع به، ويبصر به، ويطلع على سره.

. . .[1]**فصل:** وأما الفتون فهو مصدر فَتنه يفتنه فتوناً قال الله تعالى: ﴿وفَتَنَّاكَ فُتُوناً﴾ [طه: ٤٠]. أي امتحنَّاك واختبرناك. والفتنة يقال على ثلاثة معانٍ:

أحدها: الامتحان والاختبار ومنه قوله تعالى: ﴿إنْ هِيَ إلاَّ فِتْنَتُكَ﴾ [الأعراف: ١٥٥]. أي امتحانك واختبارك.

والثاني: الافتتان نفسه، يقال: هذه فتنة فلان أي افتتانُه. ومنه قوله تعالى: ﴿وَاتقُوا فِتنةً لَا تُصيبنَّ الَّذينَ ظَلَمُوا منكُم خَاصةً﴾ [الأنفال: ٢٥]. يقال أصابته الفتنة، وفتنتهُ الدنيا، وفتنته المرأةُ، وأفتنته، قال الأعشى:

لئن فَتَنَتني لَهِيَ بالأمس أُفتنت		سعيداً فأضحى قد قَلى كل مسلم

وأنكر الأصمعي أفتنته.

والثالث: المفتون به نفسه يسمى فتنةً قال الله تعالى: ﴿إنَّما أموالكم وأولادكم فتنةٌ﴾ [التغابن: ١٥].

وأما قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فتنتُهُم إلاَّ أن قَالُوا والله رَبّنَا مَاكُنَّا مُشْرِكين﴾ [الأنعام: ٢٣]. أي لم تكن عاقبة شركهم إلا أن تبرأوا منه وأنكروه.

وأما قوله تعالى: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفتنُون * ذُوقُوا فِتنَتَكُمْ﴾ [الذاريات: ١٣، ١٤] فقيل المعنى يحرقون، ومنه فتنت الذهب إذا أدخلته النار لتنظر ماجودته، ودينارٌ مفتون.

قال الخليل: والفَتن الإحراق قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّار [يُفْتَنُون]﴾ [الذاريات: ١٣]. وورقٌ فتينٌ أي فضةٌ محرقة. وافتتن الرجل وفتن إذا أصابته فتنةٌ فذهب مالُه أو عقلُه. وفَتَنَتْه المرأة إذا ولَّهته. وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّكُمْ وَمَاتَعْبُدُون * مَاأَنتُم عَلَيهِ بفاتنين * إلاَّ منْ هُوَ صَالِ الجحيم﴾ [الصافات: ١٦١-١٦٣] [أي لاتفتنون على عبادته إلا من سبق في علم الله أنه يصلي الجحيم] فذلك الذي يفتتن بفتنتكم إياه.

---

(١) ٤٧ روضة المحبين.

وأما قوله [تعالى]: ﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُون * بأَيِّكُمُ المفتُونُ﴾ [القلم: ٥، ٦]. فقيل الباء زائدة. وقيل المفتون مصدر، كالمعقول والميسور والمحلوف والمعسور.

والصواب أنَّ يُبصر مضمنٌ معنى يشعر ويعلم قال الله تعالى: ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ الله الَّذي خَلَقَ السَّموٰاتِ والأرضَ وَلَمْ يَعْيَ بخلْقهنَّ بقادِرٍ﴾ [الأحقاف: ٣٣]. فعدى فعل الرؤية بالباء، وفي الحديث: «المؤمنُ أخُو المؤمن يَسعُهُمَا الماء والشجرُ ويتعاونان على الفتان» يُروى بفتح الفاء، وهو واحدٌ، وبضمها وهو جمعُ فاتن، كتاجرٍ وتجار، والمقصود أن الحب موضع الفتون فما فُتن من فتن إلا بالمحبة.

. . .[1]**ومن** فوائد هذه المسألة أن يسئل عن المعنى الذي لأجله قال تعالى: ﴿وَلِتُصْنَعَ علي عيني﴾ [طه: ٣٩] بحرف على وقال تعالى: ﴿تجْرى بِأعيننا﴾ [القمر: ١٤] بالباء ﴿واصنَعِ الفُلكَ بأعيُنِنَا﴾ وما الفرق.

فالفرق أن الآية الأولى وردت في إظهار أمر كان خفياً، وإبداء ما كان مكتوماً، فإن الأطفال إذ ذاك كانوا يغذون ويصنعون سرًّا، فلما أراد أن يصنع موسى ويغذى ويربى على حال أمن وظهور لا تحت خوف واستسرار دخلت على في اللفظ تنبيهًا على المعنى؛ لأنها تعطى الاستعلاء، والاستعلاء ظهور وإبداء، فكأنه يقول سبحانه وتعالى: ولتصنع على أمن لا تحت خوف، وذكر العين لتضمنها معنى الرعاية والكلاءة.

وأما قوله تعالى ﴿تجْرى بأعْيننا﴾ [القمر: ١٤] ﴿وَاصنَعِ الفُلكَ بأعيننَا﴾ [هود: ٣٧]. فإنه إنما يريد برعاية منا وحفظ، ولا يريد إبداء شيء ولا إظهاره بعد كتم، فلم يحتج في الكلام إلى معنى على بخلاف ما تقدم هذا كلامه[2]. ولم يتعرض ـ رحمه الله ـ تعالى لوجه الإفراد هناك والجمع هنا، وهو من ألطف معاني الآية.

والفرق بينهما يظهر من الاختصاص الذي خص به موسى في قوله تعالى: ﴿واصْطَنَعْتُك لِنَفْسِي﴾ [طه: ٤١]. فاقتضى هذا الاختصاص الاختصاص الآخر في قوله: ﴿وَلِتُصْنَعَ على عينى﴾ [طه: ٣٩]. فإن هذه الإضافة إضافة تخصيص.

وأما قوله تعالى: ﴿تجرى بأعيننا﴾ ﴿واصنَعِ الفُلك بأعيننا﴾ فليس فيه من الاختصاص ما في صنع موسي على عينه سبحانه وتعالى، واصطناعه إياه لنفسه.

وما يسنده سبحانه إلى نفسه بصيغة ضمير الجمع قد يريد به ملائكته كقوله تعالى:

(١) ٥ بدائع جـ٢.　　(٢) يعني السهيلي حيث إنه فيما تقدم ينقل الشيخ ابن القيم عنه ويناقشه.

﴿فَإذا قَرأناه فاتَّبِع قُرآنه﴾ [القيامة: ١٨] وقوله: ﴿نَحنُ نَقُصُّ عليك﴾ [الكهف: ١٣]. ونظائره فتأمله.

. . .(١)**قوله** تعالى لكليمه موسى وأخيه هارون ﴿اذْهَبَا إلى فرعون إنه طَغَىٰ فقولا له قَولاً لَّيناً لَّعَلَّه يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخشى﴾ [طه: ٤٣، ٤٤]. فأمر تعالى أن يُلِينا القولَ لأعظم أعدائه وأشدهم كفراً وأعتاهم عليه؛ لئلا يكون إغلاظُ القول له ـ مع أنه حقيق به ـ ذريعةً إلى تنفيره وعدم صبره لقيام الحجة، فنهاهما عن الجائز لئلا يترتب عليه ما هو أكره إليه تعالى.

فصل(٢)

وأما السؤال السادس عشر وهو ما الحكمة في تسليم النبي، ﷺ، على من اتبع الهدى في كتابه إلى هرقل بلفظ النكرة وتسليم موسى عليهم بلفظ المعرفة؟ فالجواب عنه أن تسليم النبي، ﷺ، تسليم ابتدائي، ولهذا صدر به الكتاب حيث قال: من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى، ففي تنكيره ما في تنكير سلام من الحكمة وقد تقدم بيانها.

وأما قول موسى ﴿وَالسَّلام على مَنِ اتبَعَ الهدى﴾ [طه: ٤٧] فليس بسلام تحية؛ فإنه لم يبتدىء به فرعون، بل هو خبر محض؛ فإن من اتبع الهدى له السلام المطلق دون من خالفه فإنه قال له: ﴿فَأَرسِل مَعَنا بَني إسرائيلَ ولاَ تُعَذِّبْهم قد جِئناك بآيةٍ من رَّبِّكَ والسَّلامُ عَلى مَن اتَّبع الهدى * إنَّا قد أوحِيَ إلينا أَنَّ العَذابَ عَلى مَن كَذَّبَ وَتَوَلى﴾ [طه: ٤٧، ٤٨] أفلا ترى أن هذا ليس بتحية في ابتداء الكلام ولا خاتمته، وإنما وقع متوسطاً بين الكلامين إخباراً محضاً عن وقوع السلامة وحلولها على من اتبع الهدى، ففيه استدعاء لفرعون وترغيب له مما جبلت النفوس على حبه وإيثاره من السلامة وأنه إن اتبع الهدي الذي جاءه به فهو من أهل السلام. والله أعلم. وتأمل حسن سياق هذه الجمل، وترتيب هذا الخطاب، ولطف هذا القول اللين الذي سلب القلوب حسنه وحلاوته مع جلالته وعظمته، كيف ابتدأ الخطاب بقوله: ﴿إنا رسولا ربك﴾، وفي ضمن ذلك إنا لم نأتك لننازعك ملكك، ولا

(١) ١٥٠ أعلام جـ٣. (٢) ١٦٩ بدائع جـ٢.

لنشركك فيه، بل نحن عبدان مأموران مرسلان من ربك إليك، وفي إضافة اسم الرب إليه هنا دون إضافته إليهما استدعاء لسمعه وطاعته وقبوله، كما يقول الرسول للرجل من عند مولاه: أنا رسول مولاك إليك وأستاذك، وإن كان أستاذهما معاً، ولكن ينبهه بإضافته إليه على السمع والطاعة له.

ثم إنهما طلبا منه أن يرسل معهما بني إسرائيل ويخلي بينهم وبينهما ولا يعذبهم، ومن طلب من غيره ترك العدوان والظلم وتعذيب من لا يستحق العذاب فلم يطلب منه شططاً ولم يرهقه من أمره عسراً، بل طلب منه غاية النصف، ثم أخبره بعد الطلب بثلاث إخبارات.

أحدها: قوله تعالى: ﴿**قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ من رَّبِّكَ**﴾ [طه: ٤٧] فقد برئنا من عهدة نسبتك لنا إلى التقول والافتراء بما جئناك به من البرهان والدلالة الواضحة فقد قامت الحجة.

ثم بعد ذلك للمرسل إليه حالتان:

إما أن يسمع ويطيع فيكون من أهل الهدى والسلام على من اتبع الهدى.

وإما أن يكذب ويتولى فالعذاب على من كذب وتولى.

فجمعت الآية طلب الإنصاف، وإقامة الحجة، وبيان ما يستحقه السامع المطيع، ومايستحقه المكذب المتولي، بألطف خطاب وأليق قول وأبلغ ترغيب وترهيب.

. . . (١)**الاستطراد** أسلوب لطيف جداً في القرآن وهو نوعان:

أحدهما: أن يستطرد من الشيء إلى لازمه، مثل هذا، ومثل قوله: ﴿**وَلَئِن سَأَلْتَهمْ من خلَق السَّموات والأرض لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ العزيزُ العَليمُ**﴾ ثم استطرد من جوابهم إلى قوله: ﴿**الَّـذي جَعَلَ لَكُم الأرضَ مَهداً وَجَعَلَ لَكم فيها سُبُلا لَّعلكُم تَهتَدون * وَالَّذي نَزَّلَ مِنَ السَّماءِ ماءً بقدرٍ فأنشرنا به بلدةً مَّيتًا كَذلك تُخرجُون * والذي خلق الأزواج كُلَّها وجَعَلَ لكُم مِنَ الفُلكِ والأنعامِ ماتَركَبُون * لِتَستَووا عَلى ظُهوره**﴾ [الزخرف: ٩-١٣]. وهذا ليس من جوابهم ولكن تقرير له، وإقامة الحجة عليهم.

ومثله قوله تعالى: ﴿**فمن رَّبُّكما يَامُوسَى * قال رَبُّنا الَّذي أعطىٰ كُلَّ شيء**

---

(١) يراجع فيه الشيخ علي

خَلْقَه ثم هَدَى * قال فما بالُ القُرونِ الأُولى * قال عِلمُها عِند رَبِّي في كتابٍ لَّا يَضلُّ ربي ولَا يَنسى﴾ فهذا جواب موسى.

ثم استطرد سبحانه منه إلى قوله: ﴿الَّذي جَعَلَ لَكُمُ الأرض مَهدا وَسَلَكَ لَكُم فيها سُبُلًا وأنزل من السَّماء مَاء فَأخرجنَا بهِ أَزْواجاً مِن نَّباتٍ شَتَّى * كُلُوا وَارْعَوا أنعامَكُم إنَّ في ذلِكَ لآياتٍ لأولي النُّهي * مِنها خلَقناكُم وَفيهَا نُعيدُكم ومِنها نُخرِجُكم تارةً أخراى﴾ [طه: ٥٣ ـ ٥٥]. ثم عاد إلى الكلام الذي استطرد منه.

والنوع الثاني: أن يستطرد من الشخص إلى النوع كقوله: ﴿وَلَقد خَلَقنا الإنْسانَ مِن سُلالَةٍ مِن طين ثم جَعَلنَاه نُطفَةً في قَرارٍ مَّكِين﴾ [المؤمنون: ١٢، ١٣] إلى آخره فالأول آدم، والثاني بنوه ومثله قوله: ﴿هُوَ الَّذي خَلَقَكُم مِن نَّفسٍ واحدة وَجَعَلَ مِنها زَوجَها لِيَسْكُن إليها فَلَمَّا تغشَّاهَا حَمَلَت حَملًا خَفِيْفًا فَمرَّت به فَلَمَّا أثقلت دَعَوَا الله رَبَّهُما لَئِن آتيتنَا صالحًا لَنكُونَنَّ مِنَ الشَّاكرين * فَلَمَّا آتَاهُما صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُركَاءَ فِيما آتاهُما﴾ [الأعراف: ١٨٩-١٩٠]. إلى آخر الآيات، فاستطرد من ذكر الأبوين إلى ذكر المشركين من أولادهما. والله أعلم.

... [1]**وأما** المسألة السابعة عشرة وهي أن الهداية هنا من أي أنواع الهدايات فاعلم أن أنواع الهداية أربعة:

أحدها: الهداية العامة المشتركة بين الخلق المذكورة في قوله تعالى: ﴿الَّذي أعْطَى كُلَّ شَيءٍ خَلْقَه ثم هَدى﴾ [طه: ٥٠] أي أعطى كل شيء صورته التي لا يشتبه فيها بغيره، وأعطى كل عضو شكله وهيئته، وأعطى كل موجود خلقه المختص به ثم هداه إلى ما خلقه له من الأعمال، وهذه هداية الحيوان المتحرك بإرادته إلى جلب ما ينفعه ودفع ما يضره، وهداية الجماد المسخر لما خلق له فله هداية تليق به، كما أن لكل نوع من الحيوان هداية تليق به وإن اختلفت أنواعها وصورها. وكذلك كل عضو له هداية تليق به، فهدى الرجلين للمشي، واليدين للبطش والعمل، واللسان للكلام، والأذن للاستماع، والعين لكشف المرئيات، وكل عضو لما خلق له، وهدى الزوجين من كل حيوان إلى الازدواج والتناسل وتربية الولد، وهدى الولد إلى التقام الثدي عند

(١) ٣٥ بدائع جـ٢.

وضعه وطلبه، ومراتب هدايته سبحانه لا يحصيها إلا هو فتبارك الله رب العالمين.

وهدي النحل أن تتخذ من الجبال بيوتاً ومن الشجر ومن الأبنية ثم تسلك سبل ربها مذللة لها لا تستعصي عليها، ثم تأوى إلى بيوتها، وهداها إلى طاعة يعسوبها واتباعه والائتمام به أين توجه بها. ثم هداها إلى بناء البيوت العجيبة الصنعة المحكمة البناء.

ومن تأمل بعض هدايته المبثوثة في العالم شهد له بأنه الله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة العزيز الحكيم، وانتقل من معرفة هذه الهداية إلى إثبات النبوة بأيسر نظر وأول وهلة وأحسن طريق وأخصرها وأبعدها من كل شبهة، فإن من لم يهمل هذه الحيوانات سدى ولم يتركها معطلة بل هداها إلى هذه الهداية التي تعجز عقول العقلاء عنها كيف يليق به أن يترك النوع الإنساني ـ الذي هو خلاصة الوجود الذي كرمه وفضله على كثير من خلقه ـ مهملاً وسدى معطلاً لا يهديه إلى أقصى كمالاته وأفضل غاياته بل يتركه معطلاً لا يأمره ولا ينهاه ولا يثيبه ولا يعاقبه، وهل هذا إلا مناف لحكمته ونسبته له مما لا يليق بجلاله، ولهذا أنكر ذلك على من زعمه، ونزه نفسه عنه، وبين أنه يستحيل نسبة ذلك إليه، وأنه يتعالى عنه فقال تعالى: **﴿أَفَحَسِبتم أنما خَلَقناكُم عَبَثًا وَأَنَّكم إلينا لاتُرجعونَ * فتَعَالى الله المَلِكُ الحَقُّ﴾** [المؤمنون: ١١٥، ١١٦]. فنزه نفسه عن هذا الحسبان، فدل على أنه مستقر بطلانه في الفطر السليمة والعقول المستقيمة.

وهذا أحد ما يدل على إثبات المعاد بالعقل، وأنه مما تظاهر عليه العقل والشرع كما هو أصح الطريقين في ذلك.

ومن فهم هذا فهم سر اقتران قوله تعالى: **﴿وَمَا مِن دابةٍ في الأرض وَلاَ طائِرٍ يَطيرُ بجناحيه إلا أُمَمٌ أمثالُكم ما فَرَّطنا في الكتاب من شيءٍ ثُم إلى ربِّهم يُحشرون﴾** [الأنعام: ٣٨]. بقوله: **﴿وَقَالُوا لَولاَ نُزِّلَ عَلَيه آيةٌ من رَبِّه قُل إن الله قادرٌ على أن يُنزِّل آيةً ولكنَّ أكثرهم لا يَعلَمُون﴾** [الأنعام: ٣٧]. وكيف جاء ذلك في معرض جوابهم عن هذا السؤال، والإشارة به إلى إثبات النبوة، وأن من لم يهمل أمر كل دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه بل جعلها أمماً وهداها إلى غاياتها ومصالحها كيف لا يهديكم إلى كمالكم ومصالحكم؟! فهذه أحد أنواع الهداية وأعمها.

النوع الثاني: هداية البيان والدلالة والتعريف لنجدي الخير والشر وطريقي النجاة والهلاك. وهذه الهداية لا تستلزم الهدي التام؛ فإنها سبب وشرط لا موجب، ولهذا ينتفي الهدى معها كقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمودُ فَهَديناهُم فَاستَحَبُّوا العَمى عَلَى الهُدى﴾ [فصلت: ١٧] أي بينا لهم وأرشدناهم ودللناهم فلم يهتدوا.

ومنها قوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهدي إِلى صِراطٍ مستقيمٍ﴾ [الزخرف: ٥٢]

النوع الثالث: هداية التوفيق والإلهام. وهي الهداية المستلزمة للاهتداء فلا يتخلف عنها، وهي المذكورة في قوله: ﴿يُضِلُّ من يَّشاءُ وَيهدي من يَّشاءُ﴾ [فاطر: ٨]. وفي قوله: ﴿إِن تَحرِصْ عَلىٰ هُداهم فإِنَّ الله لايَهدي مَن يُّضِلُّ﴾ [النحل: ٣٧]. وفي قول النبي، ﷺ: «من يهد الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له» وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لا تهدي من أحببتَ﴾ [القصص: ٥٦] فنفى عنه هذه الهداية، وأثبت له هداية الدعوة والبيان في قوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتهدي إِلىٰ صِراطٍ مستقيم﴾ [الشورى: ٥٢].

الرابع: غاية هذه الهداية وهي الهداية إلى الجنة والنار إذا سيق أهلهما إليهما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذين آمنُوا وعملُوا الصَّالِحاتِ يَهديهم رَبُّهم بإِيمَانهم تجرى من تحتِهم الأنهارُ في جَنَّاتِ النعيم﴾ [يونس: ٩] وقال أهل الجنة فيها: ﴿الحمد لله الَّذي هَدَانا لهذا﴾ [الأعراف: ٤٣]. وقال تعالى عن أهل النار: ﴿احشُرُوا الَّذين ظَلَمُوا وأزواجَهُم ومَاكانوا يَعبُدون * مِن دون الله فَاهدُوهُم إِلى صِراطِ الجَحِيم﴾ [الصافات: ٢٢، ٢٣].

إذا عرف هذا فالهداية المسئولة في قوله: ﴿الصراط المستقيم﴾ إنما تتناول المرتبة الثانية والثالثة خاصة، فهي طلب التعريف والبيان والإرشاد والتوفيق والإلهام.

فإن قيل كيف يطلب التعريف والبيان وهو حاصل له، وكذلك الإلهام والتوفيق.

قيل هذه هي المسألة الثامنة عشرة.

وقد أجاب عنها من أجاب بأن المراد التثبيت ودوام الهداية. ولقد أجاب وما أجاب، وذكر فرعاً لا قوام له بدون أصله، وثمرة لا وجود لها بدون حاملها. ونحن نبين بحمد الله أن الأمر فوق ما أجاب به وأعظم من ذلك بحول الله.

فاعلم أن العبد لا يحصل له الهدى التام المطلوب إلا بعد ستة أمور، وهو محتاج إليها حاجة لا غنى له عنها.

الأمر الأول معرفته في جميع ما يأتيه ويذره بكونه محبوباً للرب تعالى مرضياً

له فيؤثره، وكونه مغضوباً له مسخوطاً عليه فيجتنبه، فإن نقص من هذا العلم والمعرفة شيء نقص من الهداية التامة بحسبه.

الأمر الثاني: أن يكون مريدًا لجميع مايحب الله منه أن يفعله عازمًا عليه، ومريداً لترك جميع ما نهى الله عازماً على تركه بعد خطوره بالبال مفصلاً، وعازماً على تركه من حيث الجملة مجملاً، فإن نقص من إرادته لذلك شيء نقص من الهدى التام بحسب ما نقص من الإرادة.

الأمر الثالث: أن يكون قائماً به فعلاً وتركاً، فإن نقص من فعله شيء نقص من هداه بحسبه، فهذه ثلاثة هي أصول في الهداية، ويتبعها ثلاثة هي من تمامها وكمالها.

أحدها أمور هُدىَ إليها جملة ولم يهتد إلى تفاصيلها، فهو محتاج إلى هداية التفصيل فيها.

الثاني أمور هدي إليها من وجه دون وجه، فهو محتاج إلى تمام الهداية فيها لتكمل له هدايتها.

الثالث الأمور التي هدي إليها تفصيلاً من جميع وجوهها، فهو محتاج إلى الاستمرار إلى الهداية والدوام عليها. فهذه ستة أصول تتعلق بما يعزم على فعله وتركه.

ويتعلق بالماضي أمر سابع، وهو أمور وقعت منه على غير جهة الاستقامة، فهو محتاج إلى تداركها بالتوبة منها، وتبديلها بغيرها. وإذا كان كذلك فإنما يقال كيف يسأل الهداية وهي موجودة له، ثم يجاب عن ذلك بأن المراد التثبيت والدوام عليها إذا كانت هذه المراتب الست حاصلة له بالفعل، فحينئذ يكون سؤاله الهداية سؤال تثبيت ودوام. فأما إذا كان ما يجهله أضعاف ما يعلمه، ومالا يريده من رشده أكثر مما يريده، ولا سبيل له إلى فعله إلا بأن يخلق الله فاعلية فيه، فالمسئول هو أصل الهداية على الدوام تعليماً وتوفيقاً وخلقاً للإرادة فيه وإقداراً له، وخلقاً للفاعلية، وتثبيتاً له على ذلك. فعلم أنه ليس أعظم ضرورة منه إلى سؤال الهداية أصلها وتفصيلها، علماً وعملاً، والتثبيت عليها والدوام إلى الممات.

وسر ذلك أن العبد مفتقر إلى الهداية في كل نفس في جميع ما يأتيه ويذره أصلاً وتفصيلاً وتثبيتاً، ومفتقر إلى مزيد العلم بالهدى على الدوام، فليس له أنفع

ولا هو إلى شيء أحوج من سؤال الهداية. فنسأل الله أن يهدينا الصراط المستقيم وأن يثبت قلوبنا على دينه.

. . . (١)**فصل** فلنرجع إلى ما ساقنا إلى هذا الموضع وهو الكلام على الهداية العامة التي هي قرينة الخلق في الدلالة على الرب تبارك وتعالى وأسمائه وصفاته وتوحيده.

قال تعالى إخبارًا عن فرعون أنه قال: ﴿**فمن رَّبُكما ياموسى * قال رَبُّنا الذي أعطى كُلَّ شيءٍ خَلقَه ثم هَدَى**﴾ [طه: ٤٩، ٥٠] قال مجاهد: أعطى كل شيء خلقه، لم يعط الإنسان خلق البهائم، ولا البهائم خلق الإنسان. وأقوال أكثر المفسرين تدور على هذا المعنى. قال عطية ومقاتل: أعطى كل شيء صورته.

وقال الحسن وقتادة: أعطى كل شيء صلاحه، والمعنى أعطاه من الخلق والتصوير ما يصلح به لما خلق له، ثم هداه لما خلق له، وهداه لما يصلحه في معيشته، ومطعمه ومشربه، ومنكحه، وتقلبه وتصرفه. هذا هو القول الصحيح الذي عليه جمهور المفسرين فيكون نظير قوله: ﴿**قَدَّرَ فَهَدَى**﴾ [الأعلى: ٣].

وقال الكلبي والسدّي: أعطى الرجل المرأة والبعير الناقة، والذكر الأنثى من جنسه.

ولفظ السدي: أعطى الذكر الأنثى مثل خلقه، ثم هدى إلى الجماع. وهذا القول اختيار ابن قتيبة والفراء.

قال الفراء أعطى الذكر من الناس امرأة مثله، والشاة شاة، والثور بقرة، ثم ألهم الذكر كيف يأتيها. قال أبو إسحاق: وهذا التفسير جائز؛ لأنا نرى الذكر من الحيوان يأتي الأنثى ولم ير ذكراً قد أتى أنثى قبله، فألهمه الله ذلك وهداه إليه.

قال والقول الأول ينتظم هذا المعنى؛ لأنه إذا هداه لمصلحته فهذا داخل في المصلحة.

قلت: أرباب هذا القول هضموا الآية معناها؛ فإن معناها أجل وأعظم مما ذكروه.

وقوله: ﴿**أعطى كل شيء**﴾ يأبى هذا التفسير؛ فإن حمل كل شيء على ذكور الحيوان وإناثه خاصة ممتنع لا وجه له، وكيف يخرج من هذا اللفظ الملائكة والجن، ومن لم يتزوج من بني آدم، ومن لم يسافد من الحيوان؟ وكيف يسمى الحيوان الذي يأتيه الذكر خلقاً له؟! وأين نظير هذا في القرآن وهو سبحانه لما أراد التعبير عن هذا المعنى الذي ذكروه ذكره بأدل عبارة عليه وأوضحها، فقال ﴿**وأَنَّه خَلَقَ الزَّوجَين**

(١) ٧٨ شفاء.

الـذَّكَـرَ والأنثى﴾ [النجم: ٤٥] فحمل قوله: ﴿أعطى كل شيء خلقه﴾ على هذا المعنى غير صحيح فتأمله.

وفي الآية قول آخر قاله الضحاك قال: أعطى كل شيء خلقه: أعطى اليد البطش، والرجل المشي، واللسان النطق، والعين البصر، والأذن السمع.

ومعنى هذا القول أعطى كل عضو من الأعضاء ما خلق له. والخلق على هذا بمعنى المفعول، أي أعطى كل عضو مخلوقه الذي خلقه له، فإن هذه المعاني كلها مخلوقة لله أودعها الأعضاء.

وهذا المعنى وإن كان صحيحاً في نفسه لكن معنى الآية أعم، والقول هو الأول وأنـه سبحـانه أعطى كل شيء خلقه المختص به، ثم هداه لما خلق له، ولا خالق سواه سبحانه، ولا هادي غيره، فهذا الخلق وهذه الهداية من آيات الربوبية ووحدانيته.

فهذا وجه الاستدلال على عدو الله فرعون، ولهذا لما علم فرعون أن هذه حجة قاطعة لا مطعن فيها بوجه من الوجوه عدل إلى سؤال فاسد عن وارد فقال: ﴿فَمَا بَالُ القُرُونِ الأولىٰ﴾ [طه: ٥١] أي فما للقرون الأولى لم تقر بهذا الرب ولم تعبده بل عبدت الأوثان.

والمعنى لو كان ما تقوله حقًّا لم يخف على القرون الأولى ولم يهملوه، فاحتج عليه بما يشـاهده هو وغيره من آثار ربوبية رب العالمين، فعارضه عدو الله بكفر الكافرين به وشرك المشركين، وهذا شأن كل مبطل. ولهذا صار هذا ميزاناً في ورثته يعـارضـون نصوص الأنبياء بأقوال الزنادقة والملاحدة وأفراخ الفلاسفة والصابئة والسحرة ومبتدعة الأمة وأهل الضلال منهم.

فأجـابه موسى عن معارضته بأحسن جواب فقال: ﴿عِلمُها عندَ رَبِّي﴾ [طه: ٥٢] أي أعمال تلك القرون وكفرهم وشركهم معلوم لربي قد أحصاه وحفظه وأودعه في كتاب، فيجازيهم عليه يوم القيا مة، ولم يودعه في كتاب خشية النسيان والضلال؛ فإنه سبحانه لا يضل ولا ينسى. وعلى هذا فالكتاب هاهنا كتاب الأعمال.

وقال الكلبي: يعني به اللوح المحفوظ. وعلى هذا فهو كتاب القدر السابق.

والمعنى على هذا أنه سبحانه قد علم أعمالهم وكتبها عنده قبل أن يعملوها، فيكون هذا من تمام قوله الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى فتأمله.

فصل وهو سبحانه في القرآن كثيراً ما يجمع بين الخلق والهداية كقوله في أول سورة أنزلها على رسوله ﴿اقرأ باسْم رَبِّك الَّذي خَلَقَ * خَلَقَ الإنسانَ مِن عَلَق * اقرأ وَرَبُّك الأكرم * الَّذي عَلَّمَ بالقَلَم * عَلَّمَ الإنسانَ مَا لَم يعلم﴾ [العلق: ١-٥]. وقوله: ﴿الرَّحمنُ * علَّمَ القُرانَ * خَلَقَ الإنسانَ * عَلَّمهُ البيانَ﴾ [الرحمن: ١-٤] وقوله: ﴿أَلَم نَجعل لَّهُ عَينَين * وَلسانًا وَشَفَتَين * وَهَدَيناهُ النَّجدين * فَلَا اقتَحَمَ العَقَبة﴾ [البلد: ٨-١١]. وقوله: ﴿إنَّا خَلقنَا الإنسانَ من نُّطفة أمشاج نبتَليه فجعلناهُ سَميعًا بصيراً * إنَّا هَديناهُ السَّبيلَ إمَّا شَاكرًا وإما كفورًا﴾ [الإنسان: ٢-٣]. وقوله: ﴿أمَّن خلقَ السمواتِ والأرضَ وأنزلَ لكُم مِنَ السَّماءِ مآءً فأنبتنا به حَدائقَ ذَاتَ بَهجةٍ﴾ [النمل: ٦٠] الآيات ثم قال: ﴿أمَّنْ يَّهْدِيكم في ظُلماتِ البرِّ والبحْرِ﴾ [النمل: ٦٣] فالخلق إعطاء الوجود العيني الخارجي، والهدى إعطاء الوجود العلمي الذهني فهذا خلقه وهذا هداه وتعليمه.

فصل المرتبة الثانية من مراتب الهداية هداية الإرشاد والبيان للمكلفين. وهذه الهداية لا تستلزم حصول التوفيق واتباع الحق، وإن كانت شرطاً فيه، أو جزء سبب، وذلك لا يستلزم حصول المشروط والمسبب، بل قد يتخلف عنه المقتضي إما لعدم كمال السبب أو لوجود مانع، ولهذا قال تعالى: ﴿وَأمَّا ثَمودُ فَهَديناهُم فَاستحبُّوا العَمَى عَلىَ الهُدى﴾ [فصلت: ١٧]

وقال: ﴿وَمَاكان الله ليُضِلَّ قومًا بعد إذ هَداهم حَتَّى يُبيِّنَ لَهم مَّايتَّقُونَ﴾ [التوبة: ١١٥].

فهداهم هدى البيان والدلالة فلم يهتدوا، فأضلهم عقوبة لهم على ترك الاهتداء أولاً بعد أن عرفوا الهدى فأعرضوا عنه فأعماهم عنه بعد أن أراهموه.

وهذا شأنه سبحانه في كل من أنعم عليه بنعمة فكفرها فإنه يسلبه إياها بعد أن كانت نصيبه وحظه كما قال تعالى: ﴿ذلك بأنَّ الله لم يَكُ مُغيِّراً نِّعمةً أنعمها على قومٍ حتى يغيِّروا ما بأنفُسهم﴾ [الأنفال: ٥٣]

وقال تعالى عن قوم فرعون: ﴿وَجَحَدُوا بها واستَيقنتْها أنفُسهم ظُلما وعُلوّاً﴾ [النمل: ١٤] أي جحدوا بآياتنا بعد أن تيقنوا صحتها وقال: ﴿كَيفَ يَهدي الله قوماً كفَرُوا بعدَ إيمانهم وشَهِدُوا أنَّ الرسُولَ حقٌّ وجَآءَهُم البيِّنَاتُ والله لا يهدي القوم الظَّالمين﴾. [آل عمران: ٨٦]. وهذه الهداية هي التي أثبتها لرسوله حيث قال: ﴿وَإنَّك لتهدي إلى صِراط مُّستقيم﴾. [الشورى: ٥٢].

ونفى عنه ملك الهداية الموجبة، وهي هداية التوفيق والإلهام بقوله: ﴿إِنَّك لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْت﴾.

ولهذا قال ﷺ: «بعثت داعياً ومبلغاً وليس إليّ من الهداية شيء، وبعث إبليس مزيناً ومغوياً وليس إليه من الضلالة شيء».

قال تعالى: ﴿والله يَدعُو إلى دارِ السَّلامِ وَيَهدي مَن يَّشاءُ إلىٰ صِراطٍ مستقيمٍ﴾ [يونس: ٢٥] فجمع سبحانه بين الهدايتين العامة والخاصة فعم بالدعوة حجة مشيئة وعدلاً، وخص بالهداية نعمة مشيئة وفضلاً.

وهذه المرتبة أخص من التي قبلها؛ فإنها هداية تخص المكلفين، وهي حجة الله على خلقه التي لا يعذب أحداً إلا بعد إقامتها عليه، قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعذِّبين حتَّى نبعَثَ رَسُولاً﴾ [الإسراء: ١٥] وقال: ﴿رُسُلاً مُّبشِّرينَ وَمنذرينَ لِئَلَّا يكونَ لِلنَّاس على الله حُجَّة بعد الرُّسُل﴾ [النساء: ١٦٥]

وقال: ﴿أن تَقولَ نَفسٌ ياحسرتا عَلى ما فَرَّطتُ في جَنب الله وَإن كُنتُ لمنَ السَّاخرين * أو تَقولَ لو أنَّ الله هَدَاني لَكُنتُ من المُتقين﴾ [الزمر: ٥٦، ٦٧].

وقال: ﴿كُلَّما ألقي فيها فوجٌ سَألهم خزَنَتها ألم يأتِكُم نَذيرٌ * قَالوا بَلى قد جاءنا نَذيرٌ فَكذَّبنا وَقُلنا ما نَزَّلَ الله من شَيءٍ إن أنتم إلَّا في ضَلالٍ كَبير﴾ [الملك: ٨، ٩]

فإن قيل كيف تقوم حجته عليهم وقد منعهم من الهدى وحال بينهم وبينه.

قيل: حجته قائمة عليهم بتخليته بينهم وبين الهدى، وبيان الرسل لهم، وإراءتهم الصراط المستقيم حتى كأنهم يشاهدونه عياناً، وأقام لهم أسباب الهداية ظاهراً وباطناً، ولم يحل بينهم وبين تلك الأسباب. ومن حال بينه وبينها منهم بزوال عقل أو صغر لا تمييز معه، أو كونه بناحية من الأرض لم تبلغه دعوة رسله فإنه لا يعذبه حتى يقيم عليه حجته، فلم يمنعهم من هذا الهدى ولم يحل بينهم وبينه.

نعم قطع عنهم توفيقه، ولم يرد من نفسه إعانتهم والإقبال بقلوبهم إليه، فلم يحل بينهم وبين ما هو مقدور لهم، وإن حال بينهم وبين ما لا يقدرون عليه، وهو فعله ومشيئته وتوفيقه، فهذا غير مقدور لهم، وهو الذي منعوه وحيل بينهم وبينه.

فتأمل هذا الموضع واعرف قدره والله المستعان.

فصل

المرتبة الثالثة من مراتب الهداية: هداية التوفيق والإلهام، وخلق المشيئة المستلزمة للفعل. وهذه المرتبة أخص من التي قبلها، وهي التي ضل جهال القدرية بإنكارها، وصاح عليهم سلف الأمة وأهل السنة منهم من نواحي الأرض عصراً بعد عصر إلى وقتنا هذا، ولكن الجبرية ظلمتهم ولم تنصفهم، كما ظلموا أنفسهم بإنكار الأسباب والقوى، وإنكار فعل العبد وقدرته، وأن يكون له تأثير في الفعل البتة، فلم يهتدوا لقول هؤلاء، بل زادهم ضلالاً على ضلالهم وتمسكاً بما هم عليه، وهذا شأن المبطل إذا دعا مبطلاً آخر إلى ترك مذهبه لقوله ومذهبه الباطل، كالنصراني إذا دعا اليهودي إلى التثليث وعبادة الصليب، وأن المسيح إلـه تام غير مخلوق، إلى أمثال ذلك من الباطل الذي هو عليه. وهذه المرتبة تستلزم أمرين أحدهما فعل الرب تعالى وهو الهدى.

والثاني فعل العبد وهو الاهتداء، وهو أثر فعله سبحانه، فهو الهادي والعبد المهتدى.

قال تعالى: ﴿وَمَن يَهدِ الله فهو المهتد﴾ [الإسراء: ٩٧] ولا سبيل إلى وجود الأثر إلا بمؤثره التام، فإن لم يحصل فعله لم يحصل فعل العبد، ولهذا قال تعالى: ﴿إن تحرص على هُداهُم فإنَّ الله لا يَهدي مَن يُضلُّ﴾ [النحل: ٣٧]

وهذا صريح في أن هذا الهدى ليس له ﷺ ولو حرص عليه، ولا إلى أحد غير الله، وأن الله سبحانه إذا أضل عبداً لم يكن لأحد سبيل إلى هدايته كما قال تعالى: ﴿مَن يُضلِلِ الله فلاَ هَادي لَهُ﴾ [الأعراف: ١٨٦].

وقال تعالى: ﴿مَن يَشأ الله يُضْلِلهُ وَمَن يَشأ يجعله عَلى صِراط مُستقيم﴾ [الأنعام: ٣٩]

وقال تعالى: ﴿أفمن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عمله فرآهُ حَسَناً فإنَّ الله يُضلُّ من يشاءُ ويَهدي مَن يَّشاءُ فلا تذهب نَفسكَ عَلَيهم حَسَراتٍ﴾ [فاطر: ٨]

وقال تعالى: ﴿أفرأيتَ مَن اتخذَ إلهه هَواهُ وأضَلَّهُ الله عَلى عِلم وَخَتَمَ عَلى سَمعِهِ وَقَلبِهِ وَجَعَلَ على بَصرِهِ غشَاوَةً فمنَ يَّهديه مِن بعد الله أفَلاَ تَذَكَّرونَ﴾ [الجاثية: ٢٣].

وقال تعالى: ﴿لَيسَ عَليك هُداهمْ وَلكنَّ الله يَهدي مَن يَشاءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢].

وقال: ﴿وَلو شِئنَا لآتينا كُلَّ نَفسٍ هُداها﴾ [السجدة: ١٣]

وقال: ﴿أفلم ييأس الذين آمنوا أن لو يَشَاءُ الله لهَدَىَ الناس جميعاً﴾ [الرعد: ٣١]

وقال: ﴿فمن يُرد الله أن يَّهديه يَشرح صَدرَه للإسلام ومن يُرد أن يُّضلَّه يجعل صَدرهَ ضَيِّقاً حَرَجاً كأنَّما يَصَّعد في السَّماءِ﴾ [الأنعام: ١٢٥]

وقال أهل الجنة: ﴿الحمدُ لله الَّذي هَدانا لهَذا وَمَا كُنَّا لِنَهتدي لَولاَ أن هَدَانا الله﴾ [الأعراف: ٤٣]. **ولم** يريدوا أن بعض الهدى منه وبعضه منهم بل الهدى كله منه، ولولا هدايته لهم لما اهتدوا.

وقال تعالى: ﴿أليس الله بِكافٍ عَبدَه ويُخوِّفونَك بالَّذينَ مِن دُونه وَمَن يُضلِلِ الله فَما لَهُ مِن هَادٍ * ومن يَهدِ الله فَما لهُ مِن مُّضِلٍّ أليس الله بعزيز ذي انتقام﴾ [الزمر: ٣٦، ٣٧].

وقال: ﴿وَمَا أرسَلنا من رَّسُولٍ إلا بلسانِ قومِهِ لِيُبيِّنَ لَهُم فَيُضِلُّ الله مَن يَّشاءُ ويهدي مَن يَّشاءُ وَهُوَ العزيزُ الحكيم﴾ [إبراهيم: ٤]

وقال: ﴿وَلَقد بَعثنا في كلِّ أمَّة رسولاً أنِ اعبُدُوا الله وَاجتنبُوا الطَّاغوت فَمنهم مَن هَدىَ الله ومنهُم مَن حَقَّت عَليه الضَّلاَلَةُ﴾ [النحل: ٣٦]

وقال تعالى: ﴿يُثبتُ الله الذين آمنُوا بِالقولِ الثَّابتِ في الحيَاةِ الدُّنيا وَفي الآخِرةِ وَيُضِلُّ الله الظَّالمينَ وَيفعلُ الله مَا يشاءُ﴾ [إبراهيم: ٢٧]

وقال تعالى: ﴿كذلِك يُضلُّ الله من يشاءُ ويهدي مَن يَّشاءُ وما يَعلم جنودَ ربِّك إلا هُوَ﴾ [المدثر: ٣١].

وقال: ﴿يُضِلُّ بِهِ كثيراً ويَّهدي بِهِ كثيراً وَمَا يُضلُّ بِهِ إلا الفَاسِقِين﴾ [البقرة: ٢٦].

وقال: ﴿يهدِي بِهِ الله مَن اتَّبَعَ رضوانَه سُبُل السَّلام وَيخرجُهم من الظلماتِ إلى النور بإذنه وَيهديهم إلى صِراطٍ مُّستقيم﴾ [المائدة: ١٦].

وأمر سبحانه عباده كلهم أن يسألوه هدايتهم الصراط المستقيم كل يوم وليلة في الصلوات الخمس، وذلك يتضمن الهداية إلى الصراط والهداية فيه.

كما أن الضلال نوعان ضلال عن الصراط فلا يهتدي إليه وضلال فيه، فالأول ضلال عن معرفته، والثاني ضلال عن تفاصيله أو بعضها.

قال شيخنا: ولما كان العبد في كل حال مفتقراً إلى هذه الهداية في جميع ما يأتيه ويذره من أمور قد أتاها على غير الهداية فهو محتاج إلى التوبة منها.

وأمور هدى إلى أصلها دون تفصيلها أو هدى إليها من وجه دون وجه فهو محتاج إلى

تمام الهداية فيها ليزداد هدى.

وأمور هو محتاج إلى أن يحصل له من الهداية فيها في المستقبل مثل ما حصل له في الماضي.

وأمور هو خال عن اعتقاد فيها فهو محتاج إلى الهداية.

وأمور لم يفعلها فهو محتاج إلى فعلها على وجه الهداية إلى غير ذلك من أنواع الهدايات فرض الله عليه أن يسأله هذه الهداية في أفضل أحواله وهي الصلاة مرات متعددة في اليوم والليلة انتهى كلامه...

(١)فصل

المرتبة الرابعة: من مراتب الهداية: الهداية إلى الجنة والنار يوم القيامة.

قال تعالى: ﴿**احشروا الذينَ ظلمُوا وَأزواجَهُم وَمَا كانُوا يَعبدُونَ * من دُون الله فَاهدُوهُم إلى صِراط الجحيم**﴾ [الصافات: ٢٢، ٢٣].

وقال تعالى: ﴿**وَالَّذين قُتلوا في سَبيلِ الله فلن يُضِلَّ أعمالَهُم * سيهديهم وَيُصلحُ بالَهم**﴾ [محمد: ٤،٥] فهذه هداية بعد قتلهم فقيل المعنى سيهديهم إلى طريق الجنة، ويصلح حالهم في الآخرة بإرضاء خصومهم وقبول أعمالهم.

وقال ابن عباس: سيهديهم إلى أرشد الأمور ويعصمهم أيام حياتهم في الدنيا.

واستشكل هذا القول لأنه أخبر عن المقتولين في سبيله بأنهم(٢) سيهديهم واختاره الزجاج، وقال: يصلح بالهم في المعاش وأحكام الدنيا قال: وأراد به يجمع لهم خير الدنيا والآخرة. وعلى هذا القول فلابد من حمل قوله: ﴿**قتلوا في سبيل الله**﴾ على معنى يصح معه إثبات الهداية وإصلاح البال.

(٣)**قوله** تعالى: ﴿**وَعَجِلتُ إليكَ رَبِّ لِتَرضَى**﴾ [طه: ٨٤].

ظاهر الآية: أن الحامل لموسى على العجلة هو طلب رضى ربه، وأن رضاه في المبادرة إلى أوامره، والعجلة إليها. ولهذا احتج السلف بهذه الآية على أن الصلاة في أول الوقت أفضل.

سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية يذكر ذلك. قال: إن رضى الرب في العجلة إلى أوامره.

---

(١) ٨٤ شفاء.	(٢) كذا بالأصل ولعله: بأنه (ج).	(٣) ٥٩ مدارج جـ٣.

ومن تلاعبه بهم[1]

عبادتهم العجل من دون الله تعالى، وقد شاهدوا ما حلَّ بالمشركين من العقوبة، والأخذة الرَّابيةِ، ونبيُّهم حيٌّ لم يمت.

هذا. وقد شاهدوا صانعه يصنعه ويصوغه، ويصليه النار، ويدقُّه بالمطرقة، ويسطو عليه بالمبرد، ويقلبه بيديه ظهراً لبطن.

ومن عجيب أمرهم: أنهم لم يكتفوا بكونه إلههم، حتى جعلوه إله موسى. فنسبوا موسى عليه السلام إلى الشرك وعبادة غير الله تعالى، بل عبادة أبلد الحيوانات، وأقلها دفعاً عن نفسه، بحيث يضربُ به المثلُ في البلادة والذُّل. فجعلوه إله كليم الرحمن.

ثم لم يكتفوا بذلك حتى جعلوا موسى عليه السلام ضالاًّ مخطئًا، فقالوا: ﴿فنَسِيَ﴾ [طه:٨٨. قال ابن عباس: «أي ضَلَّ وأخطأ الطريق».

وفي رواية عنه «أي إن موسى ذهب يطلب ربه فَضَلَّ، ولم يعلم مكانه».

وعنه أيضاً «نسى أن يذكر لكم أن هذا إلهه وإلهكم».

وقال السُّدي: «أي ترك موسى إلهه ههنا، وذهب يطلبه».

وقال قتادة «أي إن موسى إنما يطلب هذا، ولكنه نسيه وخالفه في طريق آخر».

هذا هو القول المشهور: أن قوله «فنسى» من كلام السامريِّ وعُبَّاد العجل معه.

وعن ابن عباس رواية أخرى «أن هذا من إخبار الله تعالى عن السامري: أنه نسى، أي ترك ما كان عليه من الإيمان».

والصحيح: القول الأول، والسياق يدل عليه، ولم يذكر البخاري في التفسير غيره، فقال: [فنسى موساهم[2]] يقولونه: أخطأ الربُّ».

فإنه لما جعله إله موسى استحضر سؤالاً من بني إسرائيل يوردونه عليه، فيقولون له: إذا كان هذه إله موسى، فلأيِّ شيء ذهب عنه لموعد إلهه؟ فأجاب عن هذا السؤال قبل إيراده عليه بقوله «فنسى».

وهذا من أقبح تلاعب الشيطان بهم.

فانظر إلى هؤلاء، كيف اتخذوا إلهاً مصنوعاً: مصنوعاً من جوهر أرضي، إنما

---

(١) ٣٠٠ إغاثة جـ٢. (٢) زيادة من صحيح البخاري، وانظر شرحه في الفتح (ج ٦ ص ٢٧٠).

يكون تحت التراب، محتاجاً إلى سبك بالنار، وتصفية وتخليص لخبثه منه، مدقوقاً بمطارق الحديد، مقلباً في النار مرة بعد مرَّة، قد نحت بالمبارد، وأحدث الصانع صورته وشكله على صورة الحيوان المعروف بالبلادة والذل والضَّيْم، وجعلوه إله موسى، ونسبوه إلى الضلال، حيث ذهب يطلب إلهاً غيره.

قال محمد بن جرير: وكان سببَ اتخاذهم العجل ما حدثني به عبدالكريم بن الهيثم قال حدثني إبراهيم بن بشار الرَّمادي حدثنا سفيان بن عيينة حدثنا أبوسعيد عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: «لما هجم فرعون على البحر، هو وأصحابه، وكان فرعون على فرس أدهم [ذنوب[1]] فلما هجم فرعون على البحر هاب الحصانُ أن يقتحم في البحر، فمثَّلَ له جبريل على فرس أنثى [وَدِيق[2]] فلما رآها الحصان تَقَحَّم خَلْفَها، قال: وعرف السامريُّ جبريلَ [لأن أمه حين خافت أن يُذبح خلَّفته في غارٍ وأطبقت عليه. وكان جبريل يأتيه فيغذوه بأصابعه، فيجد في بعض أصابعه لبناً، وفي الأخرى عسلاً، وفي الأخرى سمناً، فلم يزل يغذوه حتى نشأ، فلما عاينه في البحر عرفه][3]. فقبض قبضة من أثر فرسه. قال: أخذ قبضة من تحت الحافر.

قال سفيان: وكان ابن مسعود يقرؤها «فَقَبَضْتُ قَبْضةً من أثرِ فرَسِ الرسول».

قال أبو سعيد قال عكرمة عن ابن عباس: «وأُلقي في روع السامري: إنك لا تلقيها على شيء، فتقول: كُن كذا وكذا إلا كان، فلم تزل القبضة معه في يده، حتى جاوز البحر، فلما جاوز موسى وبنو إسرائيل البحر، وأغرق الله آل فرعون، قال موسى لأخيه هارون: اخْلُفني في قَوْمي وأصلحْ، ومضى موسى لموعد ربه. قال: وكان مع بني إسرائيل حُليٌّ من حلي آل فرعون، قد استعاروه، فكأنهم تأثَّموا منه، فأخرجوه لتنزل النارُ فتأكله. فلما جمعوه قال السامري بالقبضةِ التي كانت في يده هكذا. [وأومأ ابن إسحاق بيده هكذا][4]، فقذفها فيه وقال: كن عجلاً جَسَداً له خُوارٌ، فصار عجلاً جسداً له خوار، فكان يدخل الريح من دُبُره ويخرج

---

(١) -(٢) زيادة من تفسير ابن جرير (ج١ ص٣٢٢) والذنوب: الفرس الوافر الذيل. واستودقت الفرس أرادت الفحل وطلبته. فهي وديق وودوق. (٣) و(٤) زيادة من ابن جرير.

من فيه، يُسمع له صوت: ﴿فقالوا هذا إلهُكم وإلهُ مُوسى﴾ [طه: ٨٨] فعكفوا على العجل يعبدونه، فقال هارون: ﴿يَاقَومِ إنَّما فُتنتمْ بِهِ وإنَّ رَبَّكُمُ الرَّحمَنُ فَاتَّبعوني وَأطيعوا أمري * قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيهِ عَاكِفين حتَّى يرجعَ إلينَا موسَى﴾ [طه: ٩٠، ٩١].

وقال السُّدِّي «لما أمر الله موسى أن يخرجَ ببني إسرائيل من أرض مصر أمر موسى بني إسرائيل أن يخرجوا، وأمرهم أن يستعيروا الحُليَّ من القبط. فلما نجى الله موسى ومن معه من بني إسرائيل من البحر، وأغرق آل فرعون، أتى جبريل إلى موسى ليذهب به إلى الله، فأقبل على فرس، فرآه السامريُّ، فأنكره. ويقال: إنه فرس ا لحياة[1]. فقال حين رآه: إن لهذا لشأناً، فأخذ من تربة حافر الفرس. فانطلق موسى عليه السلام، واستخلف هارون على بني إسرائيل، وواعدهم ثلاثين ليلة، فأتمها الله تعالى بعشر. فقال لهم هارون: يابني إسرائيل، إن ا لغنيمة لا تحلُّ لكم، وإن حُليَّ القبط إنما هو غنيمة، فاجمعوها جميعاً واحفروا لها حُفرة فادفنوها، فإن جاء موسى فأحلها أخذتموها [وإلا كان شيئاً لم تأكلوه][2] فجمعوا ذلك الحلي في تلك الحفرة، وجاء السامريُّ بتلك القبضة، فقذفها، فأخرج الله من الحلي عجلاً جسداً له خوار [وعَدَّت بنو إسرائيل مَوعد موسى. فعدوا الليلة يوماً واليوم يوماً. فلما كان تمام العشرين أخرج لهم العجل][3] فلما رأوه قال لهم السامري: ﴿هـذا إلهُكم وإلـهُ موسى فَنسى﴾ [طه: ٨٨] يقول: ترك موسى إلهه ههنا، وذهب يطلبه. فعكفوا عليه يعبدونه، وكان يخور ويمشي، فقال لهم هارون: يابني إسرائيل، ﴿إنَّما فُتنتمْ بهِ﴾، يقول: إنما ابتليتم بالعجل ﴿وَإنَّ رَبَّكُمُ الرَّحمنُ﴾ [طه: ٩٠] فأقام هارون ومن معه من بني إسرائيل، لا يقاتلونهم. وانطلق موسى إلى الله يكلمه، فلما كلمه قال له: ﴿مَـا أعجَلكَ عَنْ قَومكَ يَاموسى * قال هُمْ أولاءِ عَلَى أثـري وَعَجِلتُ إليكَ رَبِّ لِتَرضَى * قال فَإنَّا قَدْ فَتنَّا قَومَكَ من بَعْدِكَ [وَأضَلَّهُمُ السَّامريُّ][4] [طه: ٨٣ ـ ٨٥]. فأخبره خبرهم. قال

---

(١) في ابن جرير: وقال إنه فرس الحياة.

(٢)، (٣)، (٤) زيادات من تفسير ابن جرير. وهذه الروايات ليس فيها شيء مسند إلى رسول الله، ﷺ، وظاهر من

موسى: يارب هذا السامريُّ أمرهم أن يتخذوا العجل. فالروح مَن نفخها فيه؟ قال الرب تعالى: أنا، قال: يارب أنت إذًا أضللتهم».

وقال ابن إسحق عن حكيم بن جُبير عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «كان السامري [من أهل باجِرْما][1] وكان من قوم يعبدون

= سياقها أنها إسرائيلية. وظاهر فيها التكلف. والأقرب إلى معنى القرآن وأسلوبه ـ والله أعلم ـ أن السامري كان صانعاً ومثالاً يصنع تلك الصور والتماثيل في مصر للعجول وغيرها. وأنه كان كنوداً حسوداً يحسد موسى على ما وهبه الله من النبوة والرياسة بالحق على بني إسرائيل. فانتهز فرصة ذهابه لميقات ربه، وقال لبني إسرائيل: إن ما تحملون من حلى القبط عليه من صور آلهتهم ومعبوداتهم، وذلك مشاركة لهم في وثنيتهم، فاجمعوا ذلك وألقوه عنكم، فجمعوه وأعطوه إياه، فأخذه وصاغه بصنعته الهندسية على صورة العجل، واحتال عليه حتى جعله يخرج الريح من فمه كشبه خوار العجل. مثل الذي يصنعه اليوم أصحاب السيارات في نفيرها الذي ينبهون به على أصوات مختلفة. ثم أخرجه إلى بني إسرائيل، وقال لهم: هذا إلهكم وإله موسى، وقد نسي أن يأمركم بعبادته وأنا أبلغكم عنه ذلك، يقول السامري هذا ويفعله يبتغي الرياسة على بني إسرائيل بالباطل والكفر. فعكلفوا عليه يعبدونه طاعة للسامري، حتى جاء موسى غضبان أسفاً. وقال للسامري: (ما خطبك ياسامري؟ قال بصرت بما لم يبصروا به) من فن الهندسة والصياغة فصغت لهم هذا العجل، وقد كنت قبضت قبضة من أثر الرسول، ولم يقل من أثر الملك ولا من أثر جبريل. وليس ثم رسول إلا موسى يقول: أخذت قليلاً من أثرك، يعني من دينك الذي تأثره عن ربك، ولكن ذلك الدين لم يصل إلى قلبي، ولم يجاوز يدي، وقد كان ما أخذته قليلاً قدر ما يقبض الإنسان في يده شيئاً بسيطاً من الطعام ونحوه. ثم طرحت ذلك ونبذته، وكفرت بك وبما جئت به، حسداً لك على ما أوتيت من هذه الرياسة. ويدل على ذلك قوله «فنبذتها» فإنما النبذ يقال لطرح الشيء المكروه، أو الحقير الممتهن. وما يذكر في الروايات الإسرائيلية يدل أنه كان معتزاً بما قبض من أثر فرس جبريل ومكر ما له، فلا يناسبه التعبير بالنبذ. هذا وينبغي أن يفهم قصص القرآن الكريم بنص الآيات فقط، بعيداً كل البعد عما يروى في ذلك من الإسرائيليات. وإن كان قد رواه ابن جرير وابن كثير أوغيرهما. اللهم إلا إذا كان ذلك عن الرسول، ﷺ، فينظر في الرواية، فإن صحت فعلى العين والرأس، وإن لم تفهمها عقولنا القاصرة. فإن قلوبنا المؤمنة تطمئن إليها ولا تجد لها أدنى حرج. أما كانت ضعيفة السند أو واهية، فإنها تضاف إلى الإسرائيليات. وإنما كان لما يروى عن الرسول، لأنه لا يكون من عند بشريته. وإنما يكون من إيحاء الله له. أما ما كان عن الصحابة. فهو بلاشك من بشريتهم وأفهامهم، أو من مسموعاتهم من مسلمة بني إسرائيل، أمثال كعب الأحبار ووهب بن منبه. وأمثالها، والله أعلم بما أصاب التفسير من أقوالها وقصصها، بل وبما أصاب الإسلام كله ولا حول ولا قوة إلا بالله.

(١) زيادة من تفسير ابن جرير.

البقر، فكان يحب عبادة البقر في نفسه، وكان قد أظهر الإسلام في بني إسرائيل. فلما ذهب موسى إلى ربه قال لهم هارون: أنتم قد حملتم أوزاراً من زينة القوم آل فرعون وأمتعةً وحُليًّا، فتطهروا منها، فإنها نَجَس، وأوقد لهم ناراً. فقال: اقذفوا ما كان معكم من ذلك فيها، فجعلوا يأتون بها كان معهم من تلك الأمتعة والحلي، فيقذفون به فيها، حتى إذا انكسر الحليُّ فيها، ورأى السامريُّ أثَرَ فرسِ جبريل، فأخذ تراباً من أثرِ حافره، ثم أقبل إلى النار، فقال لهارون: يانبي الله، أُلقي ما في يدي؟ ولا يَظنُّ هارون إلا أنه كبعض ما جاء به غيره من الحلي والأمتعة. فقَذَفه فيها، فقال: كُن عجلاً جسداً له خوار، فكان البلاء والفتنة، فقال: هذا إلهكم وإله موسى، فعكفوا عليه، وأحبوه حباً لم يحبوا شيئاً مثله قط. يقول الله عز وجل: ﴿فَنَسِيَ﴾ أي ترك ما كان عليه من الإسلام، يعني السامريَّ ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنْ لَا يَرجِعُ إليهمْ قَولاً وَلَا يَملِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفعاً﴾ [طه: ٨٩].

وكان اسم السامري موسى بن ظفر وقع في أرض مصر فدخل في بني إسرائيل[(١)].

فلما رأى هارون ماوقعوا فيه قال: ﴿يَاقَومِ إِنَّما فُتِنتُم بِهِ وإنَّ رَبَّكُمُ الرَّحمٰن فَاتَّبِعُوني وأَطيعُوا أمري * قالوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيهِ عَاكِفِينَ حتَّى يَرجعَ إلينا مُوسَى﴾ [طه: ٩٠، ٩١].

فأقام هارون فيمن معه من المسلمين ممن لم يَفتتِنْ، وأقام مَنْ يعبد العجل على عبادة العجل، وتَخَوَّف هارون إن سار بمن معه من المسلمين أن يقول له موسى: ﴿فرَّقْتَ بَيْنَ بني إسرائيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَولي﴾ [طه: ٩٤] وكان له هائباً مطيعاً.

فقال تعالى مذكِّراً لبني إسرائيل بهذه القصة التي جرت لأسلافهم مع نبيهم. ﴿وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسىٰ أَرْبَعِينَ لَيلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ﴾ [البقرة: ٥١] يعني من بعد ذهابه إلى ربه. وليس المراد من بعدِ موته ﴿وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾ أي بعبادة غير الله تعالى؛ لأن الشِّرْكَ أظلمُ الظلم؛ لأن المشركَ وضَعَ العبادة في غير موضعها.

فلما قَدِمَ موسى عليه السلام ورأى ماأصابَ قومه من الفتنة اشتد غضبه، وألقى الألواح عن رأسه، وفيها كلامُ اللهِ الذي كتبه له، وأخذ برأس أخيه ولحيته، ولم يَعْتِبِ الله عليه في ذلك، لأنه حمله عليه الغضبُ للهِ. وكان الله عز وجل قد

---

(١) زيادة من تفسير ابن جرير.

أعلمه بفتنة قومه، ولكن لما رأى الحالَ مشاهدةً حدثَ له غضبٌ آخر. فإنه ليس الخبرُ كالمعاينةِ.

. . .[(١)] **الناس** يقومون من قبورهم مهطعين إلى الداعي، يؤمون الصوت، لا يعرجون عنه يمنة ولا يسرة كما قال: ﴿**يَومَئِذٍ يَّتبعوُن الداعي لا عِوَجَ له**﴾ [طه: ١٠٨]أي يقبلون من كل أوب إلى صوته وناحيته، لا يعرجون عنه. قال الفراء: وهذا كما تقول: دعوتك دعوة لا عوج لك عنها، وقال الزجاج: المعنى لا عوج لهم عن دعائه، أي لا يقدرون إلا على اتباعه وقصده.

فإن قلت: إذا كان المعنى لا عوج لهم عن دعوتي، فكيف قال: (لا عوج له) قيل: قالت طائفة: اللام بمعنى عن، أي لا عوج عنه، وقالت طائفة: المعنى لا عوج لهم عن دعائي، كما قال الزجاج، وفي القولين تكلف ظاهر. ولما كانت الدعوة تسمع الجميع لا تعوج عنهم، وكلهم يؤم صوت الداعي ويتبعه لا يعوج عنه، كان مجيء اللام منتظماً للمعنيين ودالاً عليهما. والمعنى لا عوج لدعائه لا في إسماعهم إياه، ولا في إجابتهم لـه.

[(٢)] **قال** ـ تعالى ـ: ﴿**وخشت الأصوات للرحمن**﴾ [طه: ١٠٨] أي: سكنت وذلت وخضعت[(٣)].

. . .[(٤)] **كانت** أم الدرداء رضي الله عنه إذا سافرت فصعدت على جبل تقول لمن معها أسمعت الجبال ما وعدها ربها فيقال ما أسمعها فتقول: ﴿**ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربي** نسفًا **فيذرها قاعًا صفصفًا لاترى فيها عوجًا ولا أمتًا**﴾ فهذا حال الجبال وهي الحجارة الصلبة وهذه رقتها وخشيتها وتدكدكها من جلال ربها وعظمته. وقد أخبر عنها فاطرها وباريها إنه لو أنزل عليها كلامه لخشعت ولتصدعت من خشية الله فياعجباً من مضغة لحم أقسى من هذه الجبال، تسمع آيات الله تتلى عليها ويذكر الرب تبارك وتعالى فلا تلين ولا تخشع ولا تنيب، فليس

---

(١) ١٢�५ التبيان.

(٢) ٥٢٠ مدارج جـ١.

(٣) يأتي إن شاء الله البحث عن الخشوع في سورة الحديد والمؤمنون.

(٤) ٢٢٠ مفتاح جـ١.

بمستنكر على الله عز وجل ولا يخالف حكمته أن يخلق لها نارًا تذيبها إذ لم تلن بكلامه وذكره وزواجره ومواعظه، فمن لم يلن لله في هذه الدار قلبه، ولم ينب إليه، ولم يذبه بحبه والبكاء من خشيته، فليتمتع قليلاً فإن أمامه الملين الأعظم: وسيرد إلى عالم الغيب والشهادة فيرى ويعلم.

. . . (١)**وقال** تعالى: **﴿ومَن يَعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلماً ولا هضماً﴾** [طه: ١١٢] يعني لا يُحمل عليه من سيئات ما لم يعمله، ولا ينقص من حسنات ما عمل. ولو كان الظلم هو المستحيل الذي لا يمكن وجوده: لم يكن لعدم الخوف منه معنى، ولا للأمن من وقوعه فائدة.

. . . (٢)**تأمل** أول نقص دخل على أبي البشر وسرى إلى أولاده، كيف كان من عدم العلم والعزم قال تعالى: **﴿ولَقَد عهدنا إلى آدمَ من قبل فَنَسِيَ ولَمْ نجد لهُ عزماً﴾** [طه: ١١٥] والنسيان، سواء كان عدم العلم أو عدم الصبر كما فسر بهما ههنا، فهو أمر عدمي.

ولهذا قال آدم لما رأى ما دخل عليه من ذلك **﴿رَبَّنا ظَلَمنا أنفسنا وإن لم تَغفرْ لنا وترحمنا لَنَكُوننَّ من الخاسرين﴾** [الأعراف: ٢٣].

فإنه إذا اعترف بنقصه، خص نفسه ـ بما حصل لها من عدم العلم والصبر ـ بالنسيان الذي أوجب فوات حظه من الجنة، ثم قال: **﴿وإن لم تَغْفرْ لَنا وتَرحمنا لَنَكونَنَّ مِنَ الخاسِرين﴾**.

فإنه سبحانه إن لم يغفر السيئات الوجودية فيمنع أثرها وعقابها ويق العبد من ذلك وإلا ضرته آثارها ولابد، كآثار الطعام المسموم إن لم يتداركه المداوي بشرب الترياق ونحوه وإلا ضره ولابد. وإن لم يرحمه سبحانه بإيجاد ما يصلح به النفس وتصير عالمة بالحق عاملة به وإلا خسر، والمغفرة تمنع الشر، والرحمة توجب الخير.

والرب سبحانه إن لم يغفر للإنسان فيقيه السيئات ويرحمه فيؤتيه الحسنات وإلا هلك ولابد، إذ كان ظالماً لنفسه ظلوماً بنفسه، فإن نفسه ليس عندها خير يحصل لها منها، وهي متحركة بالذات، فإن لم تتحرك إلى الخير تحركت إلى الشر

---

(١) ١٣٦ مدارج جـ١. (٢) ١٠٧ طريق الهجرتين.

فضرت صاحبها، وكونها متحركة بالذات من لوازم كونها نفساً؛ لأن ما ليس حساساً متحركاً بالإرادة فليس نفساً.

ففي الصحيح عن النبي، ﷺ، «أصدق الأسماء حارث وهمام» فالحارث الكاسب العامل، والهمام الكثير الهم، والهم مبدأ الإرادة، فالنفس لا تكون إلا مريدة عاملة، فإن لم توفق للإرادة الصالحة وإلا وقعت في الإرادة الفاسدة والعمل الضار.

وقد قال تعالى: ﴿**إنَّ الإنسانَ خُلقَ هَلوعًا إذا مَسَّهُ الشَّرُّ جزوعًا * وإذا مَسَّهُ الخير منوعًا * إلَّا المُصلِّين**﴾ [المعارج: ١٩ - ٢٢].

فأخبر سبحانه أن الإنسان خلق على هذه الصفة، وأن من كان على غيرها فلأجل مازكاه الله به من فضله وإحسانه.

. . .[1]﴿**وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالحاتِ وَهُو مُؤمن فلا يخاف ظُلماً وَلَا هضما**﴾ [طه: ١١٢] قال المفسرون من السلف والخلف قاطبة: الظلم أن يحمل عليه سيئات غيره، والهضم أن ينقص من حسنات ما عمل.

وعند الجبرية أن هذا لو وقع لم يكن ظلماً. ومن المعلوم أن الآية لم ترفع عنه خوف المحال لذاته، وأنه لا يخاف الجمع بين النقيضين، فإنه لا يخاف ذلك، ولو أتى بكل كفر وإساءة. فلا يجوز تحريف كلام الله بحمله على هذا. فإن الخوف من الشيء يستلزم تصور وجوده وإمكانه، وما لا يمكن وجوده يستحيل خوفه.

وأيضاً فإنه لا يحسن أن ينفي الجمع بين الضدين في السياق الذي نفى الله فيه الظلم كقوله تعالى: ﴿**مَنْ عَمِلَ صَالحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَن أساء فَعَلَيهَا وَمارَبُّك بظَلامٍ للعبيد**﴾ [فصلت: ٤٦] فلا يحسن بوجه أن يقال عقيب هذه الجملة: وما ربك بجامع للعبيد بين الوجود والعدم في آن واحد، وإنما الظلم المنفي هو خلاف ما اقتضاه قوله: ﴿**مَنْ عَمِلَ صَالحِاً فَلِنَفسِهِ وَمَن أسَاء فَعَليها**﴾ [النساء: ١٢٤] وكذلك قوله: ﴿**وَلَا تُظلمونَ فتيلًا**﴾ [النساء: ٧٧] ﴿**وَلَا يُظلمونَ نقيراً**﴾ ﴿**وَلَا يُظلمُون شَيئاً**﴾ [مريم: ٦٠] أي لا يترك من أعمالهم ما هو بقدر الفتيل والنقير، فيكون ظلماً.

وعند الجبرية يجوز أن يترك ثواب جميع أعمالهم من أولها إلى آخرها بغير سبب

(١) ٣١٥ مختصر الصواعق جـ١.

يقتضي تركها إلا مجرد المشيئة والقدرة، ولا يكون ذلك ظلماً وكذلك قوله: ﴿وَمَا ظَلمنـاهم ولكن كانُوا هُمُ الظَّالمين﴾ [الزخرف: ٧٦] ﴿وَمَا ظَلَمناهُم وَلكن ظلموا أنفسهم﴾ بين أنه لم يعاقبهم بغير جرم فيكون ظالمًا لهم، بل عاقبهم بظلمهم أنفسهم.

. . .(١)**وقال** أهل السنة والحديث ومن وافقهم: الظلم وضع الشيء في غير موضعه وهو سبحانه حكم عدل لا يضع الشيء إلا في موضعه الذي يناسبه ويقتضيه العدل والحكمة والمصلحة، وهو سبحانه لا يفرق بين متماثلين، ولا يساوي بين مختلفين، ولا يعاقب إلا من يستحق العقوبة، ويضعها موضعها لما في ذلك من الحكمة، ولا يعاقب أهل البر والتقوى. وهذا قول أهل اللغة قاطبة.

وتفسير الظلم بذينيك التفسيرين اصطلاح حادث ووضع جديد.

قال ابن الأنباري: الظلم وضع الشيء في غير موضعه، يقال: ظلم الرجل سقاءه إذا سقى منه قبل أن يخرج منه زبده. وقال الشاعر:

وصاحب صدق لم ينلني شكاية　　ظلمت وفي ظلمي له عامدا أجر

أراد بالصاحب وطب اللبن وظلمه إياه أن يستقيه قبل أن يخرج زبده.

قال والعرب تقول: هو أظلم من حية، لأنها تأتي الحفر الذي لم تحفره فتسكنه.

ويقال: قد ظلم الماء الوادي، إذا وصل منه إلى مكان لم يكن يصل إليه فيما مضى.

وقال الحسن بن مسعود والفراء: أصل الظلم وضع الشيء في غير موضعه.

قال ومنه قولهم: من أشبه أباه فما ظلم، وقوله: من استرعى الذئب فقد ظلم، يعنون من أشبه أباه فما وضع الشبه في غير موضعه. وهذا القول هو الصواب المعروف في لغة العرب والقرآن والسنة. . . .

. . .(٢)**سأل** سائل فقال: إذا كانت الجنة لا موت فيها فكيف يأكلون فيها لحم الطير وهو حيوان قد فارقته الروح فأجيب بأنه يجوز أن لا يكون ميتاً وهذا جواب في غاية الغثاثة.

قال ابن عقيل: وما الذي أحوجه إلى هذا والجنة دار لا يخلق فيها أذى ولا نصب لا مطلقا، بل لا يدخل الداخل إليها ذلك على طريق الإكرام كما قال

---

(١) ٣١٢ مختصر الصواعق جـ١.　(٢) ١٧٦ بدائع جـ٣.

تعالى: ﴿إنَّ لَكَ ألا تَجُوع فيها وَلاَ تعرىٰ * وأنَّك لا تظمأ فيها ولاَ تَضحىٰ﴾ [طه:١١٨] وذلك مشروط بالطاعة، فإذا جاز ذلك في حق آدم علم أنه ليس بواجب في حق الطير، ولا يمتنع في قدرة الله تعالى أن يكون هذا الطائر مشوياً لا عن روح خرجت منه أو عن روح خرجت خارج الجنة وولج الجنة وهو لحم مشوى (قلت) وما الذي أوجب هذا التكلف كله، فالجنة دار الخلود لأهلها وسكانها. وأما الطير فهو نوع من أنواع الأطعمة التي يحدثها الله لهم شيئاً بعد شيء، فهو دائم النوع وإن كان آحاده متصرمة، كالفاكهة وغيرها. وقد ثبت عن النبي، ﷺ، أن المؤمنين ينحر لهم يوم القيامة ثور الجنة الذي كان يأكل منها فيكون نزلهم. فهذا حيوان قد كان يأكل من الجنة فينحر نزلاً لأهلها، والله أعلم.

فصل(١)

الله سبحانه مهد الأرض لآدم وذريته قبل خلقه فقال: ﴿إنِّي جَاعلٌ في الأرض خَليفَةً﴾ [البقرة: ٣٠] وقضى أن يعرفه قدر المخالفة وأقام عذره بقوله: ﴿فَأَزَلَّهُما الشَّيطانُ﴾ [البقرة: ٣٦] وتداركه برحمة بقوله: ﴿ثُم اجتبَاهُ رَبُّه﴾ [طه: ١٢٢] يا آدم لا تجزع من كأس خطأ كان سبب كيسك، فقد استخرج منك داء العجب وألبسك رداء العبودية لو لم تذنبوا. لا تحزن بقولي لك اهبطوا منها فلك خلقتها، ولكن اخرج إلى مزرعة المجاهدة، واجتهد في البذر، واسق شجرة الندم بساقية الدمع، فإذا عاد العود أخضر فعد لما كان..

. . .(٢)**تأمل** قوله تعالى: ﴿فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى﴾ [طه: ١١٧] كيف شرك بينهما في الخروج، وخص الذكر بالشقاء، لاشتغاله بالكسب والمعاش، والمرأة في خدرها.

. . .(٣) **قوله** تعالى لآدم: ﴿إنَّ لَكَ ألاَّ تَجُوعَ فيها وَلا تَعْرى وأنّك لاَ تَظْمأُ فيهـا وَلاَ تضحى﴾ [طه: ١١٨، ١١٩] فقابل بين الجوع والعُرى دون الجوع والظمأ، وبين الظمأ والضحى دون الظمأ والجوع، فإن الجوع عُرى الباطن وذُله،

---

(١) ٢٢٣ بدائع جـ٣.	(٢) ٢٢٩ بدائع جـ٣.

(٣) ٢٥١ روضة المحبين.

والعُرى جوع الظاهر وذُلُّه. فقابل بين نفي ذلّ باطنه وظاهره، وجوع باطنه وظاهره، والظمأ حرُّ الباطن، والضحى حرُّ الظاهر، فقابل بينهما. .

. . .[١]**من** له غرض في دقائق المعاني يتجاوز نظره قالب اللفظ إلى لب المعنى، والواقف مع الألفاظ مقصور النظر على الزينة اللفظية.

فتأمل قوله تعالى: ﴿**إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ**﴾ [طه: ١٠٨، ١٠٩] كيف قابل الجوع بالعرى والظمأ بالضحى، والواقف مع القالب ربما يخيل إليه أن الجوع يقابل بالظمأ، والعرى بالضحى. والداخل إلى بلد المعنى يرى هذا الكلام في أعلا الفصاحة والجلالة؛ لأن الجوع ألم الباطن، والعرى ألم الظاهر فهما متناسبان في المعنى، وكذلك الظمأ مع الضحى؛ لأن الظمأ موجب لحرارة الباطن، والضحى موجب لحرارة الظاهر، فاقتضت الآية نفى جميع الآفات ظاهراً وباطناً. وفي هذا الباب حكاية مشهورة وهي أن ابن حمدان قال يوماً للمتنبي قد انتقد عليك قولك:

وقفت وما في الموت شك لواقف ... كأنك في جفن الردى وهو نائم
تمر بك الأبطال كلمى هزيمة ... ووجهك وضاح وثغرك باسم

قالوا ركبت صدر كل بيت على عجز الآخر وكان الأولى أن يقول:

وقفت وما في الموت شك لواقف ... ووجهك وضاح وثغرك باسم
تمر بك الأبطال كلمى هزيمة ... كأنك في جفن الردى وهو نائم

فليتم المعنى حينئذ؛ لأن انبساط الوجه ووضوحه مع الوقوف في موقف الموت أشبه بأوصاف الكماة، والسلامة من الردى مع مرور الأبطال كلمى هزيمة أعجب في حصول النجاة. وهذا كما انتقد على امرىء القيس قوله:

كأني لم أركب جودًا للذة ... ولم أبتطن كاعبًا ذات خلخال[٢]. .

فصل[٣]

خلق بدن ابن آدم من الأرض، وروحه من ملكوت السماء، وفرق بينهما،

---

(١) ٢٤٠ بدائع جـ٣.
(٢) (تتمة البحث فيه الجواب لمن أراده) (ج).
(٣) ١٦٧ فوائد.

فإذا أجاع بدنه وأسهره وأقامه في الخدمة، وجدت روحه خفة وراحة، فتاقت إلى الموضع الذي خلقت منه، واشتاقت إلى عالمها العلوي، وإذا أشبعه ونعمه ونومه واشتغل بخدمته وراحته، أخلد البدن إلى الموضع الذي خلق منه، فانجذبت الروح معه فصارت في السجن، فلولا أنها ألفت السجن لاستغاثت من ألم مفارقتها وانقطاعها عن عالمها الذي خلقت منه كما يستغيث المعذب.

وبالجملة فكلما خف البدن لطفت الروح وخفت وطلبت عالمها العلوي. وكلما ثقل وأخلد إلى الشهوات والراحة ثقلت الروح وهبطت من عالمها، وصارت أرضية سفلية، فترى الرجل روحه في الرفيق الأعلى وبدنه عندك، فيكون نائماً على فراشه وروحه عند سدرة المنتهى، تجول حول العرش، وآخر واقف في الخدمة ببدنه، وروحه في السفل تجول حول السفليات. فإذا فارقت الروح البدن التحقت لرفيقها الأعلى أو الأدنى، فعند الرفيق الأعلى كل قرة عين. وكل نعيم وسرور وبهجة ولذة وحياة طيبة. وعند الرفيق الأسفل كل هم وغم، وضيق وحزن، وحياة نكدة، ومعيشة ضنك. قال تعالى: ﴿وَمَن أعرضَ عن ذِكري فإنَّ له مَعيشةً ضَنكا﴾ [طه: ١٢٤].

فذكره كلامُه الذي أنزله على رسوله، والإعراض عنه تركُ تدبره والعمل به.

والمعيشة الضنك، فأكثر ما جاء في التفسير، أنها عذاب القبر. قاله ابن مسعود، وأبوهريرة، وأبوسعيد الخدري، وابن عباس، وفيه حديث مرفوع.

وأصل الضنك في اللغة الضيق والشدة. وكل ما ضاق فهو ضنك، يقال: «منزل ضنك، وعيش ضنك»؛ فهذه المعيشة الضنك في مقابلة التوسيع على النفس والبدن بالشهوات واللذات والراحة، فإن النفس كلما وسعت عليها ضيقت على القلب، حتى تصير معيشة ضنكاً، وكلما ضيقت عليها وسعت على القلب، حتى ينشرح وينفسح. فضنك المعيشة في الدنيا بموجب التقوى سعتها في البرزخ والآخرة، وسعة المعيشة في الدنيا بحكم الهوى ضنكها في البرزخ والآخرة، فآثر أحسن المعيشتين وأطيبهما وأدومها. وأشق البدن بنعيم الروح، ولا تشق الروح بنعيم البدن؛ فإن نعيم الروح وشقاءها أعظم وأدوم، ونعيم البدن وشقاؤه أقصر وأهون، والله المستعان.

. . .[1]**ثم قال تعالى: ﴿ومن أعرض عن ذكري فإنَّ له معيشةً ضَنكاً ونحشره يوم القيامة أعمى﴾** [طه: ١٢٤].

لما أخبر سبحانه عن حال من اتبع هداه في معاشه ومعاده أخبر عن حال من أعرض عنه ولم يتبعه فقال: **﴿وَمَن أعْرضَ عَن ذِكري فإن له مَعيشةً ضَنكاً﴾** [طه: ١٢٤]. أي عن الذكر الذى أنزلته، فالذكر هنا مصدر مضاف إلى الفاعل، كقيامي وقراءتي، لا إلى المفعول وليس المعنى: ومن أعرض عن أن يذكرني، بل هذا لازم المعنى ومقتضاه من وجه آخر سنذكره.

وأحسن من هذا الوجه أن يقال الذكر هنا مضاف إضافة الأسماء لا إضافة المصادر إلى معمولاتها والمعنى ومن أعرض عن كتابي ولم يتبعه؛ فإن القرآن يسمى ذكرًا.

قال تعالى: **﴿وَهَذا ذِكرٌ مبارك أنزلناه﴾**.

وقال تعالى: **﴿ذلِكَ نَتلوه عليك مِنَ الآيات والذكر الحكيم﴾** [آل عمران: ٥٨].

وقال تعالى: **﴿وما هو إلا ذكرٌ للعالمين﴾**.

وقال تعالى: **﴿إنَّ الذين كَفروا بالذِّكر لما جَاءهُم وإنَّه لكتابٌ عزيزٌ﴾** [فصلت: ٤١].

وقال تعالى: : **﴿إنَّما تنذرُ من اتَّبعَ الذِّكر وخشِيَ الرحمَنَ﴾**.

وعلى هذا فإضافته كإضافة الأسماء الجوامد التي لا يقصد بها إضافة العامل إلى معموله.

ونظيره في إضافة اسم الفاعل **﴿غافر الذَّنْبِ وقابلِ التَّوبِ شديدِ العقابِ﴾** فإن هذه الإضافات لم يقصد بها قصد الفعل المتجدد، وإنما قصد بها قصد الوصف الثابت اللازم، وكذلك جرت أوصافاً على أعرف المعارف وهو اسم الله تعالى في قوله تعالى: **﴿تنزيلُ الكتاب مِنَ الله العزيز العليمِ*غافرِ الذنب وقابلِ التوب شديدِ العقاب ذي الطَّولِ لا إله إلا هو إليه المصيرُ﴾**[غافر: ٢، ٣].

وقوله تعالى: **﴿فإنَّ له مَعيشَةً ضنكاً﴾** فسرها غير واحد من السلف بعذاب القبر، وجعلوا هذه الآية أحد الأدلة الدالة على عذاب القبر، ولهذا قال:

---

(١) ٤٢ مفتاح جـ١.

﴿ وَنحشُرُه يومَ القيامَة أعمى * قال ربِّ لِمَ حَشرتَني أعمى وقد كنتُ بصيراً * قال كذلِك أَتَتك آياتُنا فَنَسِيتها وكذلك اليوم تُنسى﴾ [طه: ١٢٤ - ١٢٦] أي تترك في العذاب، كما تركت العمل بآياتنا، فذكر عذاب البرزخ وعذاب دار البوار.

ونظيره قوله تعالى في حق آل فرعون ﴿النارُ يُعْرضُونَ عَلَيها غُدُوًّا وعَشيًّا﴾ [غافر: ٤٦] فهذا في البرزخ ﴿ويوم تقوم السَّاعة أدخلوا آل فرعونَ أشدَّ العَذاب﴾ [غافر: ٤٦] فهذا في القيامة الكبرى.

ونظيره قوله تعالى: ﴿وَلَو ترى إذ الظالمون في غَمراتِ الموتِ والملائكةُ بَاسِطُوا أيديهم أخرجُوا أنفسكُم اليومَ تُجزون عذابَ الهُونِ بِما كُنتُم تَقُولون على الله غيْرَ الحقِّ وكنتُم عن آياته تستَكبِرون﴾ [الأنعام: ٩٣] فقول الملائكة اليوم تجزون عذاب الهون المراد به عذاب البرزخ، الذي أوله يوم القبض والموت.

ونظيره قوله تعالى: ﴿وَلَو ترى إذ يَتوفَّى الذِّين كَفَروا الملائكة يَضربُون وُجُوههم وأدبَارهم وذُوقوا عذابَ الحريقِ﴾ [الأنفال: ٥٠] فهذه الإذاقة هي في البرزخ وأولها حين الوفاة، فإنه معطوف على قوله: ﴿يَضْربُون وُجُوههم وأدبارهُم﴾ وهو من القول المحذوف مقوله لدلالة الكلام عليه كنظائره، وكلاهما واقع وقت الوفاة.

وفي الصحيح عن البراء بن عازب رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿يُثبِّتُ الله الذين آمنوا بالقول الثَّابتِ في الحياةِ الدُّنيا وفي الآخرة﴾ [إبراهيم: ٢٧] قال: نزلت في عذاب القبر، والأحاديث في عذاب القبر تكاد تبلغ حد التواتر.

والمقصود أن الله سبحانه أخبر أن من أعرض عن ذكره وهو الهدى الذي من اتبعه لا يضل ولا يشقى فإن له معيشة ضنكا، وتكفل لمن حفظ عهده أن يحييه حياة طيبة ويجزيه أجره في الآخرة فقال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صالحاً من ذكرٍ أو أُنثى وهو مؤمن فَلَنُحيينَّه حياةً طيبةً ولنجزينَّهم أجرهم بأحسنِ ما كانوا يعملون﴾ [النحل: ٩٧] فأخبر سبحانه عن فلاح من تمسك بعهده علماً وعملاً في العاجلة بالحياة الطيبة، وفي الآخرة بأحسن الجزاء. وهذا بعكس من له المعيشة الضنك في الدنيا والبرزخ ونسيانه في العذاب بالآخرة.

(١)**وقوله** تعالى: ﴿وَنَحشُره يومَ القيامةِ أعمى قال ربِّ لِمَ حشرتني أعمى

---

(١) ٤٤ مفتاح جـ١.

وقد كنتُ بصيراً﴾. اختلف فيه هل هو من عمى البصيرة أو من عمى البصر، والذين قالوا هو من عمى البصيرة إنما حملهم على ذلك قوله: ﴿أَسمِعْ بهم وأبْصر يوم يأتوننا﴾ [مريم:٣٨].

وقوله: ﴿لقد كُنتَ في غفلةٍ من هذا فكشفنا عنك غطاءَكَ فَبصرُكَ اليومَ حديدٌ﴾.

وقوله: ﴿يومَ يَرون المَلائكة لا بُشري يومئذٍ للمجرمين﴾ [ق: ٢٢]

وقوله: ﴿لترونَّ الجَحيم ثم لترونها عين اليقين﴾ [التكاثر: ٦،٧] ونظائر هذا مما يثبت لهم الرؤية في الآخرة كقوله تعالى: ﴿وَتَراهم يُعرَضُون عَلَيها خَاشعين من الذلِّ يَنظرون من طرف خفي﴾[الشورى: ٤٥] وقوله: ﴿يوم يُدعون إلى نار جَهنم دَعًا هذه النار التي كُنْتُم بها تُكذِّبُون أفسحر هذا أم أنتم لا تُبصرُون﴾ [الطور: ١٣ - ١٥] وقوله: ﴿وَرَأى المجرمون النَّار فظَنُّوا أنَّهم مُواقِعوها﴾.

والذين رجحوا أنه من عمى البصر قالوا السياق لا يدل إلا عليه لقوله: ﴿قال ربِّ لِمَ حَشرَتني أعمى وقد كنتُ بَصِيراً﴾ [طه: ١٢٥، ١٢٦] وهو لم يكن بصيراً في كفره قط، بل قد تبين له حينئذ أنه كان في الدنيا في عمى عن الحق فكيف يقول وقد كنت بصيراً، وكيف يجاب بقول: ﴿كَذَلك أَتتك آياتُنا فَنَسِيتها وكذلك اليوم تُنسى﴾.

بل هذا الجواب فيه تنبيه على أنه من عمى البصر، وأنه جوزي من جنس عمله؛ فإنه لما أعرض عن الذكر الذي بعث الله به رسوله، وعميت عنه بصيرته أعمى الله بصره يوم القيامة، وتركه في العذاب كما ترك الذكر في الدنيا، فجازاه على عمى بصيرته عمى بصره في الآخرة، وعلى تركه ذكره تركه في العذاب.

وقال تعالى: ﴿وَمَن يَّهد الله فهوَ المُهتَد وَمن يُّضلل فَلن تجدَ لهم أولياءَ من دُونِهِ ونحشرُهم يومَ القيامة على وجوههم عُمياً وبكماً وصمًّا﴾ [الإسراء: ٩٧].

وقد قيل في هذه الآية أيضاً أنهم عمي وبكم وصمم عن الهدى، كما قيل في قوله: ﴿ونحشرُه يومَ القيامة أعمىٰ﴾ قالوا: لأنهم يتكلمون يومئذ ويسمعون ويبصرون.

ومن نصر أنه العمى والبكم والصمم المضاد للبصر والسمع والنطق قال بعضهم: هو عمى وصمم وبكم مقيد لا مطلق، فهم عمي عن رؤية ما يسرهم وسماعه، ولهذا قد روى عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لا يرون شيئاً يسرهم.

وقال آخرون: هذا الحشر حين تتوفاهم الملائكة يخرجون من الدنيا

كذلك، فإذا قاموا من قبورهم إلى الموقف قاموا كذلك، ثم إنهم يسمعون ويبصرون فيما بعد، وهذا مروى عن الحسن.

وقال آخرون: هذا إنما يكون إذا دخلوا النار واستقروا فيها سلبوا الأسماع والأبصار والنطق، حين يقول لهم الرب تبارك وتعالى: ﴿**اخْسَئُوا فيها وَلَا تُكلمونِ**﴾ [المؤمنون: ١٠٨] فحينئذ ينقطع الرجاء وتبكم عقولهم فيصيرون بأجمعهم عمياً بكماً صماً، لا يبصرون، ولا يسمعون، ولا ينطقون، ولا يسمع منهم بعدها إلا الزفير والشهيق. وهذا منقول عن مقاتل.

والذين قالوا المراد به العمى عن الحجة إنما مرادهم أنهم لا حجة لهم، ولم يريدوا أن لهم حجة هم عمي عنها، بل هم عمى عن الهدى كما كانوا في الدنيا؛ فإن العبد يموت على ما عاش عليه، ويبعث على ما مات عليه.

وبهذا يظهر أن الصواب هو القول الآخر وأنه عمى البصر؛ فإن الكافر يعلم الحق يوم القيامة عيانًا، ويقر بما كان يجحده في الدنيا، فليس هو أعمى عن الحق يومئذ.

وفصل الخطاب أن الحشر هو الضم والجمع.

ويراد به تارة الحشر إلى موقف القيامة، كقول النبي، ﷺ: «**إنكم محشورون إلى الله حفاة عراة غرلاً**»، وكقوله تعالى: ﴿**وَإِذا الوُحُوشُ حُشِرَتْ**﴾ [التكوير: ٥] وكقوله تعالى: ﴿**وَحَشَرناهُم فِلم نُغادِرْ منهم أحداً**﴾.

ويراد به الضم والجمع إلى دار المستقر، فحشر المتقين جمعهم وضمهم إلى الجنة، وحشر الكافرين جمعهم وضمهم إلى النار.

قال تعالى: ﴿**يوم نحشرُ المتقين إلى الرحمن وَفداً**﴾ [مريم: ٨٥].

وقال تعالى: ﴿**احْشروا الذين ظَلموا وأزواجهم وماكانوا يعبدون * من دُون الله فاهدوهم إلى صراط الجحيم**﴾ [الصافات: ٢٢، ٢٣].

فهذا الحشر هو بعد حشرهم إلى الموقف، وهو حشرهم وضمهم إلى النار؛ لأنه قد أخبر عنهم أنهم ﴿**قَالوا يَاويلنا هذا يوم الدين * هذا يوم الفصل الذي كنتمْ به تكذبون**﴾ [الصافات: ٢٠، ٢١]. ثم قال تعالى: ﴿**احْشروا الذين ظَلموا وأزواجهم**﴾ وهذا الحشر الثاني.

وعلى هذا فهم ما بين الحشر الأول من القبور إلى الموقف والحشر الثاني من

الموقف إلى النار، فعند الحشر الأول يسمعون ويبصرون ويجادلون ويتكلمون، وعند الحشر الثاني يحشرون على وجوههم عمياً وبكماً وصماً، فلكل موقف حال يليق به ويقتضيه عدل الرب تعالى وحكمته، فالقرآن يصدق بعضه بعضًا ﴿**وَلَو كان مِن عندِ غيرِ الله لوَجَدُوا فيه اختلافًا كثيراً**﴾ [النساء: ٨٢].

. . . [1]**قال** حنبل: قلت لأبي عبد الله: ما أحب إليك مايتقرب به العبد من العمل إلى الله قال: كثرة الصلاة والسجود وأقرب ما يكون العبد من الله[1] إذا عفر وجهه له ساجداً.

يعني بهذا إذا سجد لله على التراب، في هذا بيان أن الصلاة أفضل أعمال الخير.

وروى عنه المروزي أنه قال: كل تسبيح في القرآن صلاة إلا موضع واحد.

قال: ﴿**وإدبار النجُوم**﴾ ركعتين قبل الفجر، ﴿**وأدبار السجود**﴾ [ق: ٤٠] ركعتين بعد المغرب.

قال أبوحفص: والحجة في تفضيل الصلاة على سائر أعمال القرب قوله تعالى: ﴿**واستعينوا بالصبر والصَّلاة**﴾ [البقرة: ٤٥] ﴿**وأمُرْ أهلَكَ بالصَّلاةِ واصطبر عليها**﴾ [طه: ١٣٢]

وكان حذيفة إذا أحزنه أمر صلى. وقال: «**أعني على نفسك بكثرة السجود**» وقال: «**أفضل الأعمال الصلاة لأول وقتها**» وقال: «**جعلت قرة عيني في الصلاة**»، ولأنها تختص بجمع الهمة، وحضور القلب، والانقطاع عن كل شيء سواها، بخلاف غيرها من الطاعات، ولهذا كانت ثقيلة على النفس.

نقل عنه محمد بن الحكم في الرجل يفوته ورده من الليل لا يقرأ به في ركعتي الفجر كان النبي، ﷺ، يخفهما، لكن يقرأ إذا أصبح، أرجو أن يحسب له بقيام الليل.

. . . [2]**الوجه** الرابع إخباره أن الدنيا والغنى والمال إنما جعلها متعة لمن لا نصيب له في الآخرة، وأن الآخرة جعلها للمتقين فقال تعالى: ﴿**وَلاَ تَمدَّن عَينيك إلى مَامَتَّعْنا به أزواجًا منهم زَهْرَةَ الحياةِ الدُّنيا لنفتنهم فيه وَرِزقُ رَبِّك خيرٌ وأبقى**﴾ [طه: ١٣١].

وقال تعالى: ﴿**وَيومَ يُعْرضُ الذين كَفروا على النَّار أذهبتم طيِّباتكُم في**

---

(١) ١١٣ بدائع جـ٤. (٢) ١٩٥ عدة الصابرين.

حَياتِكُم الدُّنيا واستمتعتم بها﴾ [الأحقاف: ٢٥١] وإلى هذا المعنى أشار النبي ، ﷺ، بقوله لعمر: «أما ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة» وسيأتي الحديث.

الوجه الخامس أنه سبحانه لم يذكر المترفين وأصحاب الثروة إلا بالذم كقوله: ﴿إنَّهم كَانُوا قَبْلَ ذلِكَ مُتْرفين﴾ وقوله: ﴿وإذَا أرَدْنَا أن نُهلِكَ قريةً أمرنَا مُتْرفيها فَفَسقُوا فيها﴾ [الإسراء: ١٦] وقوله تعالى: ﴿لَا تركُضوا وارجعُوا إلى ما أُتْرفْتُم فيه وَمسَاكِنِكم لَعلكم تُسْألون﴾ [الأنبياء: ١٣].

الوجه السادس أنه سبحانه ذم محب المال فقال: ﴿وَتَأكُلُون التراثَ أكْلاً لَمًّا * وتُحبُّون المال حُبًّا جمًّا﴾ [الفجر: ١٩، ٢٠]. فذمهم بحب المال وعيَّرهم به.

. . . [1]**العارف** لا يأمر الناس بترك الدنيا، فإنهم لا يقدرون على تركها، ولكن يأمرهم بترك الذنوب مع إقامتهم على دنياهم، فترك الدنيا فضيلة، وترك الذنوب فريضة، فكيف يؤمر بالفضيلة من لم يقم الفريضة. فإن صعب عليهم ترك الذنوب، فاجتهد أن تحبب الله إليهم بذكر آلائه وإنعامه وإحسانه، وصفات كماله ونعوت جلاله، فإن القلوب مفطورة على محبته؛ فإذا تعلقت بحبه هان عليها ترك الذنوب والاستقلال منها والإصرار عليها.

وقد قال يحيى بن معاذ: «طلب العاقل للدنيا خير من ترك الجاهل لها».

العارف يدعو الناس إلى الله من دنياهم فتسهل عليهم الإجابة، والزاهد يدعوهم إلى الله بترك الدنيا فتشق عليهم الإجابة؛ فإن الفطام عن الثدي الذي ما عقل الإنسان نفسه إلا وهو يرتضع منه شديد، ولكن تخير من المرضعات أزكاهن وأفضلهن، فإن للبن تأثيراً في طبيعة المرتضع، ورضاع المرأة الحمقى يعود بحمق الولد، وأنفع الرضاعة ما كان من المجاعة: فإن قويت على مرارة الفطام، وإلا فارتضع بقدر؛ فإن من البشم مايقتل.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة طــه

والحمد لله رب العالميـن

---

(١) ١٦٨ فوائد.



بسم الله الرحمن الرحيم

(1)**الله** ـ تعالى ـ جعل العبودية وصفَ أكمل خلقه، وأقربهم إليه. فقال: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا للهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾ [سورة النساء: ١٧٢]. وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾[سورة الأعراف: ٢٠٦]، وهذا يبين أن الوقف التام في قوله في سورة الأنبياء ﴿وَلَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾[سورة الأنبياء: ١٩]، ههنا. ثم يبتدىء ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ● يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾[الأنبياء: ١٩، ٢٠]. فهما جملتان تامتان مستقلتان، أي: أن له من في السموات ومن في الأرض عبيدًا وملكًا. ثم استأنف جملة أخرى، فقال: ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ﴾ يعني: أن الملائكة الذين عنده لا يستكبرون عن عبادته، يعني: لا يأنفون عنها، ولا يتعاظمون ولا يستحسرون، فيعيون وينقطعون ـ يقال: حَسَر واستحسر، إذا تعب وأعيا ـ بل عبادتهم وتسبيحهم كالنفس لبنى آدم. فالأول: وصف لعبيد ربوبيته. والثاني: وصف لعبيد إلهيته:

. . . .(2)﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾[الأنبياء: ٢٢]. فإن قوام السموات والأرض والخليقة بأن تأله الإله الحق، فلو كان فيهما إله آخر غير الله لم يكن إلهًا حقًا، إذ الإله الحق لا شريك له، ولا سميَّ له، ولا مثل له، فلو تألهت غيره لفسدت كل الفساد بانتفاء ما به صلاحها، إذ صلاحها بتأله الإله الحق، كما أنها لا توجد إلا باستنادها إلى الرب الواحد القهار، ويستحيل أن تستند في وجودها إلى ربين متكافئين، فكذلك يستحيل أن تستند في بقائها وصلاحها إلى إلهين متساويين.

---

(١) ١٠٢ مدارج جـ١.

(٢) ٥٧ طريق الهجرتين.

إذا عرف هذا، فاعلم أن حاجة العبد إلى أن يعبد الله وحده لا يشرك به شيئًا في محبته ولا في خوفه ولا في رجائه ولا في التوكل عليه ولا في العمل له ولا في الحلف به ولا في النذر له ولا في الخضوع له ولا في التذلل والتعظيم والسجود والتقرب أعظم من حاجة الجسد إلى روحه والعين إلى نورها، بل ليس لهذه الحاجة نظير تقاس به، فإن حقيقة العبد روحه وقلبه ولا صلاح لها إلا بإلهها الذي لا إلـه إلا هو، فلا تطمئن في الدنيا إلا بذكره. وهي كادحة إليه كدحًا فملاقيته، ولابد لها من لقائه، ولا صلاح لها إلا بمحبتها وعبوديتها له ورضاه وإكرامه لها.

. . . . (1)**ماحتج** به ـ سبحانه ـ على النصارى مبطلاً لدعوى إلهية المسيح كقوله: ﴿لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لَاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِن كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٧] فأخبر ـ تعالى ـ أن هذا الذي أضافه من نسب الولد إلى الله من مشركي العرب والنصارى غير سائغ في العقول إذا تأمله المتأمل. ولو أراد الله أن يفعل هذا لكان يصطفي لنفسه، ويجعل هذا الولد المتخذ من الجوهر الأعلى السماوي الموصوف بالخلوص والنقاء من عوارض البشر المجبول على الثبات والبقاء، لا من جواهر هذا العالم الفاني الكثير الأدناس والأوساخ والأقذار.

ولما كان هذا الحجاج كما ترى في هذه القوة والجلالة أتبعه بقوله: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ على الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [الأنبياء: ١٨].

ونظير هذا قوله تعالى: ﴿لَوْ أَرَادَ اللهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّاصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [الزمر: ٤].

وقال تعالى: ﴿مَاالْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الآياتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [المائدة: ٧٥]. وقد تضمنت هذه الحجة دليلين يبطلان إلهية المسيح وأمه.

أحدهما: حاجتهما إلى الطعام والشراب وضعف بنيتهما عن القيام بنفسها، بل هي محتاجة فيما يعينهما إلى الغذاء والشراب، والمحتاج إلى غيره لايكون إلها إذ من لوازم الإله أن يكون غنيًا.

---

(١) ١٠٤ مختصر الصواعق جـ١.

الثاني: أن الذي يأكل الطعام يكون منه مايكون من الإنسان من الفضلات القذرة التي يستحي الإنسان من نفسه وغيره حال انفصالها عنه، بل يستحي من التصريح بذكرها. ولهذا ـ والله أعلم ـ عبّر الله ـ سبحانه ـ عنها بلازمها من أكل الطعام الذي ينتقل الذهن منه إلى مايلزمه من هذه الفضلة، فكيف يليق بالرب ـ سبحانه ـ أن يتخذ صاحبة وولدًا من هذا الجنس؟ ولو كان يليق به ذلك أو يمكن لكان الأولى به أن يكون من جنس لا يأكل ولا يشرب ولا يكون منه الفضلات المستقذرة اهـ.

(1)**إذا** عرف ذلك فكل حي له إرادة ومحبة وعمل يحسنه، وكل متحرك فأصل حركته المحبة والإرادة. ولا صلاح للموجودات إلا بأن تكون حركاتها ومحبتها لفاطرها وبارئها وحده كما لا وجود لها إلا بابداعه وحده.

ولهذا قال تعالى: ﴿**لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ**﴾ [الأنبياء: ٢٢].

ولم يقل ـ سبحانه ـ: لما وجدتا، ولكانتا معدومتين، ولا قال: لعدمتا، إذ هو ـ سبحانه ـ قادر على أن يبقيهما على وجه الفساد، لكن لا يمكن أن تكون على وجه الصلاح والاستقامة إلا بأن يكون الله وحده هو معبودهما ومعبود ماحوتاه وسكن فيهما، فلو كان للعالم إلهان لفسد نظامه غاية الفساد، فإن كل إله يطلب مغالبة الآخر والعلو عليه وتفرده دونه بالإلهية. إذ الشرك نقص في كمال الإلهية والإله لا يرضى لنفسه أن يكون إلهًا ناقصًا، فإن قهر أحدهما الآخر، كان هو الإله وحده، والمقهور ليس بإله، وإن لم يقهر أحدهما الآخر لزم عجز كل منهما ونقصه ولم يكن تام الإلهية، فيجب أن يكون فوقهما إله قاهر لهما حاكم عليهما، وإلا ذهب كل منهما بما خلق وطلب كل منهما العلو على الآخر، وفي ذلك فساد أمر السموات والأرض ومن فيهما كما هو المعهود من فساد البلد إذا كان فيها ملكان متكافئان، وفساد الزوجة إذا كان لها بعلان والشول إذا كان فيه فحلان. وأصل فساد العالم إنما هو من فساد اختلاف الملوك والخلفاء. ولهذا لم تطمع أعداء الإسلام فيهم في

---

(1) ٢٧٤ الجواب الكافي.

زمن من الأزمنة إلا في زمن تعدد الملوك من المسلمين واختلافهم وانفراد كل واحد منهم ببلاد وطلب بعضهم العلو على بعض. فصلاح السموات والأرض واستقامتها وانتظام أمر المخلوقات على أتم نظام من أظهر الأدلة على أنه لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، يحيي ويميت، وهو على كل شيء قدير، وأن كل معبود من لدن عرشه إلى قرار أرضه باطل إلا وجهه الأعلى.

قال الله تعالى: ﴿مَااتَّخَذَ اللهُ مِن وَلَدٍ وَماكَانَ مَعَهُ مِنْ إلَـهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إلَـهٍ بِما خَلَقَ ولَعَلَا بعضُهُمْ على بعضٍ سُبحانَ اللهِ عمَّا يَصِفُون • عَالِمِ الغَيْبِ والشَّهادَةِ فَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [المؤمنون: ٩١، ٩٢].

وقال تعالى: ﴿أم اتَّخَذُوا آلِهَةً مِّنَ الأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ • لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إلَّا اللهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللهِ رَبِّ العَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ • لا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَل وَهُمْ يُسْئلون﴾ [الأنبياء: ٢١ - ٢٣].

(1) فصل وأما هديه في الشراب فمن أكمل هدي يحفظ به الصحة

فإنه كان يشرب العسل الممزوج بالماء البارد، وفي هذا من حفظ الصحة مالا يهتدي إلى معرفته إلا أفاضل الأطباء. فإن شربه ولَعْقه على الريق يذيب البلغم، ويغسل خمل المعدة، ويجلو لزوجتها، ويدفع عنها الفضلات، ويسخنها باعتدال، ويفتح سددها، ويفعل مثل ذلك بالكبد والكلىَ والمثانة، وهو أنفع للمعدة من كل حلو دخلها، وإنما يضر بالعرَض لصاحب الصفراء، لحدته وحدة الصفراء، فربما هيجها. ودفع مضرته لهم بالخل، فيعود حينئذ لهم نافعًا جدًا، وشربه أنفع من كثير من الأشربة المتخذة من السكر، أو أكثرها، ولاسيما لمن لم يعتد هذه الأشربة ولا ألفها طبعه، فإنه إذا شربها لا تلائمه ملاءمة العسل ولا قريبًا منه.

والمحكم في ذلك: العادة، فإنها تهدم أصولاً، وتبني أصولاً.

وأما الشراب إذا جمع وصْفَيِ الحلاوة والبرودة: فمن أنفع شيء للبدن، ومن

---

(1) ٢٨٩ زاد المعاد جـ٣.

آكد أسباب حفظ الصحة. وللأرواح والقوى والكبد والقلب: عشق شديد له، واستمـداد منه، وإذا كان فيه الوصفان حصلت به التغذية، وتنفيذ الطعام إلى الأعضاء، وإيصاله إليها أتم تنفيذ.

والماء البارد: رطب يقمع الحرارة، ويحفظ على البدن رطوباته الأصلية، ويرد عليه بدل ماتحلل منها، ويرقق الغذاء وينفذه في العروق، واختلف الأطباء: هل يغـذى البدن؟ على قولين: فأثبتت طائفة التغذية به، بناء على مايشاهدونه من النمو والزيادة والقوة في البدن به، ولا سيما عند شدة الحاجة إليه.

قالوا: وبين الحيوان والنبات قدر مشترك من وجوه عديدة:

منها: النمو والاغتذاء، والاعتدال. وفي النبات: قوة حس وحركة تناسبه، ولهذا كان غذاء النبات بالماء. فما يُنكَر أن يكون للحيوان به نوع غذاء، وأن يكون جُزءًا من غذائه التام.

قالوا: ونحن لا ننكر أن قوة الغذاء ومعظمه في الطعام، وإنما أنكرنا أن لا يكون للماء تغـذية ألبتـة. قالوا: وأيضًا الطعام، إنما يغذى بما فيه من المائية، ولولاها ماحصلت به التغذية. قالوا: ولأن الماء مادة حياة الحيوان والنبات. ولا ريب أن ما كان أقرب إلى مادة الشيء حصلت به التغذية، فكيف إذا كانت مادته الأصلية؟ قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الماءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [الأنبياء: ٣٠] فكيف ننكر حصول التغذية بما هو مادة الحياة على الإطلاق؟

قالوا: وقد رأينا العطشان إذا حصل له الرِّيُّ بالماء البارد: تراجعت إليه قواه ونشاطه وحركته، وصبر عن الطعام، وانتفع بالقدر اليسير منه، ورأينا العطشان لا ينتفع بالقدر الكثير من الطعام، ولا يحدث له به القوة والاغتذاء. ونحن لا ننكر أن الماء ينفذ الغذاء إلى أجزاء البدن، وإلى جميع الأعضاء. وأنه لا يتم أمر الغذاء إلا به، وإنما ننكر على من سلب قوة التغذية عنه ألبتة، ويكاد قوله عندنا يدخل في إنكار الأمور الوجدانية.

وأنكرت طائفة أخرى حصول التغذية به. واحتجت بأمور يرجع حاصلها إلى عدم الاكتفـاء به، وأنـه لا يقـوم مقـام الـطعام، وأنه لا يزيد في نمو الأعضاء ولا يخلف عليها بدل ماحللته الحرارة، ونحو ذلك مما لا ينكره أصحاب التغذية.

فإنهم يجعلون تغذيته بحسب جوهره ولطافته ورقته، وتغذية كل شيء بحسبه، وقد شوهد الهواء الرطب البارد اللين اللذيذ يغذى بحسبه، والرائحة الطيبة تغذي نوعًا من الغذاء، فتغذية الماء أظهر وأظهر.

والمقصود: أنه إذا كان باردًا وخالطه مايحليه ـ كالعسل، أو الزبيب. أو التمر أو السكر ـ كان من أنفع مايدخل البدن، وحفظ عليه صحته، فلهذا كان أحب الشراب إلى رسول الله ﷺ، البارد الحلو. والماء الفاتر: ينفخ، ويفعل ضد هذه الأشياء.

ولما كان الماء البائت أنفع من الذي يشرب وقت استقائه، قال النبي ﷺ ـ وقد دخل إلى حائط أبي الهيثم بن التَّيْهان: «**هل من ماء بات في شَنَّة؟**» **فأتاه به، فشرب منه** رواه البخاري، ولفظه: «**إن كان عندكم ماء بات في شَنٍّ، وإلا كرعنا**» والماء البائت: بمنزلة العجين الخمير، والذي شرب لوقته: بمنزلة الفطير.

وأيضًا: فإن الأجزاء الترابية والأرضية تفارقه إذا بات، وقد ذكر أن النبي ﷺ «كان يستعذب له الماء، ويختار البائت منه». وقالت عائشة: «كان رسول الله ﷺ يُسْتَقَى له الماء من بئر السُّقيا».

(١)**أثنى** ـ سبحانه ـ في كتابه على المتفكرين في خلق السموات والأرض وذم المعرضين عن ذلك. فقال: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٢]. وتأمل كيف خلق هذا السقف الأعظم مع صلابته وشدته ووثاقته من دخان وهو بخار الماء. قال الله تعالى: ﴿**وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا**﴾ [النبأ: ١٢]. وقال تعالى ـ: ﴿**أأنتم أشدُّ خلْقًا أم السماء بناها ● رفع سمكها فسوَّاها**﴾ [النازعات: ٢٧ ـ ٢٨] وقال: ﴿**وجعلنا السماء سقفًا محفوظًا**﴾.

فانظر إلى هذا البناء العظيم الشديد الواسع الذي رفع سمكه أعظم ارتفاع، وزينه بأحسن زينة وأودعه العجائب والآيات، وكيف ابتدأ خلقه من بخار ارتفع من الماء وهو الدخان.

فسبحان من لا يقدر الخلق قدره ... ومن هو فوق العرش فرد موحد

لقد تعرف إلى خلقه بأنواع التعرفات، ونصب لهم الدلالات، وأوضح لهم

---

(١) ١٩٧ مفتاح جـ١.

الآيات البينـات، ليهلك من هلك عن بينة، ويحيا من حي عن بينة، وأن الله لسميع عليم، فارجع البصر إلى السماء وانظر فيها وفي كواكبها ودورانها وطلوعها وغروبها وشمسها وقمرها واختلاف مشارقها ومغاربها ودؤوبها في الحركة على الدوام من غير فتور في حركتها ولا تغير في سيرها بل تجري في منازل قد رتبت لها بحساب مقدر لا يزيد ولا ينقص إلى أن يطويها فاطرها وبديعها.

(١)**وسئل** البخاري عن الخضر وإلياس، هل هما أحياء؟ فقال: كيف يكون هذا؟ وقد قال النبي ﷺ: **«لا يَبْقَى على رأسِ مئةِ سنةٍ ممن هو اليوم على ظهر الأرض أحد»** .

وسئل عن ذلك كثيرٌ غيرُهما من الأئمَّة فقالوا: ﴿**وَمَاجَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِن مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ**﴾ [الأنبياء: ٣٤].

١٢٨ـ وسُئِلَ عنه شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، فقال: لو كان الخَضِرُ حيًا لوجب عليه أن يأتي النبيَّ ﷺ، ويجاهد بين يديه، ويَتَعَلَّم منه. وقد قال النبي ﷺ، يوم بدر: **«اللهم إن تَهلِكْ هذه العصابة لا تُعْبَدْ في الأرض»** ، وكانوا ثلاث مئـةٍ وثـلاثةَ عشر رجلاً، معروفين بأسمائهم وأسماءِ آبائهم وقبائلهم، فأين كان الخَضِرُ حينئذ؟

قال أبو الفرج بن الجوزي(٢): والدليلُ على أن الخضر ليس بباقٍ في الدنيا أربعةُ

---

(١) ٦٨ المنار المنيف.

(٢) ساق الشيخ أبوالفرج بن الجوزي في كتابه «الموضوعات» ١: ١٩٣ ـ ١٩٩ طائفة من الأحاديث الموضوعة المتعلقة بالخضر: ولم يتعرض فيه إلى هذه الوجوه من الاستدلال على موته عليه السلام، وإنما تعرض لذلك في كتاب مستقل، ألَّفه في هذه المسألة وسماه «عُجالة المنتظر في شرح حال الخَضِر». وقد ذكره الحافظ ابن كثير في «البداية والنهاية». وسمّاه بهذا الاسم ونَقَل منه في مواضع ١: ٣٣٠ و٣٣٤ و٣٣٥ و٣٣٦. وأكثرَ الحافظُ ابن حجر النقلَ منه في «الإصابة» في ترجمة الخضر ١: ٤٢٨ ـ ٤٤٨. ولم يُسمّه باسمه العَلَمي.

وقد شَغلَتْ هذه المسألة (حياةُ الخضر) اهتمامَ العلماء قديمًا وحديثًا، فألّفوا فيها تآليف مستقلة، أو توسّعوا في بيانها في كتبهم، نظرًا لاستفحـال الخلاف فيها، فألّف في وفاته أبوالحُسَين بن المنادي المتوفى سنة ٣٣٦، وألّف في حياته عبدالمغيث بن زهير الحربي الحنبلي البغدادي المعاصر لابن الجوزي، والمتوفى قبله سنة ٥٨٣، وألّف ابن الجوزي كتابه المذكور في نقض كتاب عبدالمغيث، وكذلك ألّف الشيخ ابن تيمية =

أشياءَ: القرآنُ، والسُّنَّةُ، وإجماعُ المحقِّقين من العلماء، والمعقول.

١٢٩ـ أما القُرآن: فقولُه تعالى: ﴿**وما جَعَلْنا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الخلد**﴾ فلو دام الخضر كان خالدًا . . .

(١)**فصل** والله سبحانه كما هو خالق الخلق، فهو خالق مابه غناهم وفقرهم، فخلق الغنى والفقر ليبتلي بهما عباده أيهم أحسن عملًا، وجعلهما سببًا للطاعة والمعصية والثواب والعقاب، قال تعالى: ﴿**ونَبْلُوكُم بالشَّرِّ والخَيْرِ فِتنَةً وإلَيْنا تُرْجَعُونَ**﴾ [الأنبياء: ٣٥]. قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: بالشدة والرخاء، والصحة والسقم، والغنى والفقر، والحلال والحرام، وكلها بلاء. وقال ابن يزيد: نبلوكم بما تحبون وما تكرهون، لننظر كيف صبركم وشكركم فيما تحبون وما تكرهون. وقال الكلبي: بالشر: بالفقر والبلاء، والخير: بالمال والولد، فأخبر ـ سبحانه ـ الغنى والفقر مطيتا الابتلاء والامتحان.

وقال تعالى: ﴿**فَأَمَّا الإنسانُ إذا ما ابْتَلاهُ رَبُّهُ فأَكْرَمَهُ ونَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ● وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ ● كَلَّا**﴾ [الفجر: ١٥-١٧].

فأَخبر سبحانه أنه يبتلى عبده بإكرامه له وبتنعيمه له وبسط الرزق عليه كما يبتليه بتضييق الرزق وتقديره عليه، وأن كليهما ابتلاء منه وامتحان.

ثم أنكر ـ سبحانه ـ على من زعم أن بسط الرزق وتوسعته إكرام من الله لعبده، وأن تضييقه عليه إهانة منه له فقال: ﴿**كلا**﴾ أي: ليس الأمر كما يقول الإنسان، بل قد ابتلى بنعمتي وأنعم ببلائي. وإذا تأملت ألفاظ الآية وجدت هذا المعنى يلوح على صفحاتها ظاهرًا للمتأمل. وقال تعالى: ﴿**وَهُو الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ الأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ**﴾ [الأنعام: ١٦٥]. . . .

= جزءًا في وفاته، كما ذكر ذلك تلميذه المؤلف الشيخ ابن القيم في رسالته: «أسماء مؤلفات ابن تيمية» ص٢٢، التي طبعها المجمع العلمي بدمشق سنة ١٣٧٢. وكذلك ألف الشيخ علي القاريء جزءًا في المسألة سماه «كشف الخدر عن أمر الخضر» وهو مطبوع في روسيا في قازان قديمًا.

ويعد ما كتبه الحافظ ابن حجر في «الإصابة» عن الخضر تأليفًا، لطوله واستيعابه ومناقشته الأخبار المحكية في المسألة، وتوسع فيها الحافظ في كتابه «فتح الباري» ٦: ٣٠٩-٣١٢. كما أوسع الكلام فيها أيضًا الحافظ ابن كثير في «البداية والنهاية» ١: ٣٢٥-٣٣٧.

(١) ١٦٩ عدة الصابرين.

[1]**وتنقسم**[2] بذلك إلى قسمين: أحدهما محبة تنشأ من: الإحسان، ومطالعة الآلاء والنعم؛ فإن القلوب جبلت على حب من أحسن إليها، وبغض من أساء إليها. ولا أحد أعظم إحسانًا من الله ـ سبحانه ـ فإن إحسانه على عبده في كل نفَس ولحظة، وهو يتقلب في إحسانه في جميع أحواله.

ولاسبيل له إلى ضبط أجناس هذا الإحسان فضلاً عن أنواعه أو عن أفراده.

ويكفي أن من بعض أنواعه نعمة النفَس التي لاتكاد تخطر ببال العبد، وله عليه في كل يوم وليلة فيه أربعة وعشرون ألف نعمة. فإنه يتنفس في اليوم والليلة أربعة وعشرين ألف نفس. وكل نفس نعمة منه ـ سبحانه ـ فإذا كان أدنى نعمة عليه في كل يوم أربعة وعشرين ألف نعمة فما الظن بما فوق ذلك وأعظم منه ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لا تُحْصُوهَا﴾ [إبراهيم: ٣٤، النحل: ١٨].

هذا إلى مايصرف عنه من المضرات وأنواع الأذى التي تقصده، ولعلها توازن النعم في الكثرة. والعبد لا شعور له بأكثرها أصلاً، والله سبحانه يكلأه منها بالليل والنهار، كما قال ـ تعالى ـ: ﴿قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهارِ مِنَ الرَّحْمَٰنِ﴾ [الأنبياء: ٤٢]. وسواء كان المعنى من يكلؤكم ويحفظكم منه إذا أراد بكم سوءًا. أو يكون يكلؤكم مضمنًا معنى يجيركم وينجيكم من بأسه. أو كانت «من» البدلية أي من يكلؤكم بدل الرحمن، أي هو الذي يكلؤكم وحده لا كاليء لكم غيره.

ونظير «مِن» هذه قوله: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَلائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ﴾ [الزخرف: ٦٠] على أحد القولين، أي عوضكم وبدلكم، واستشهدوا على ذلك بقول الشاعر:

جارية لم تأكل المرقَّقا ... ولم تذق من البقول الفستقا

أي لم تأكل الفستق بدل البقول، وعلى كلا القولين فهو ـ سبحانه ـ منعم عليهم بكلاءتهم وحفظهم وحراستهم مما يؤذيهم بالليل والنهار وحده، لا حافظ لهم غيره. هذا مع غناه التام عنهم وفقرهم التام إليه ـ سبحانه وتعالى ـ فإنه غني عن خلقه من كل وجه، وهم فقراء محتاجون إليه من كل وجه.

---

(١) ٣١٥ طريق الهجرتين. (٢) أي المحبة.

وفي بعض الآثار يقول تعالى: «أنا الجواد، ومن أعظم مني جودًا وكرمًا؟ أبيت أكلأ عبادي في مضاجعهم وهم يبارزونني بالعظائم».

. . . .[١]قوله تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ [الأنبياء: ٤٧] يجوز أن تكون اللام لام التعليل: أي: لأجل يوم القيامة. وقد قيل: إن «القسط» منصوب على أنه مفعول له، أي نضعها لأجل القسط. وقد استوفى شروط نصبه.

[٢]قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُم مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٤٩] وقال تعالى: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ * قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ * فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ﴾ [الطور: ٢٥ - ٢٧].

«الاشفاق» رقة الخوف. وهو خوف برحمة من الخائف لمن يخاف عليه. فنسبته إلى الخوف نسبة الرأفة إلى الرحمة. فإنها ألطف الرحمة وأرقها. ولهذا قال صاحب المنازل: «الاشفاق: دوام الحذر، مقرونًا بالترحم. وهو على ثلاث درجات.

الأولى: إشفاق على النفس أن تجمح إلى العناد». أي تسرع وتذهب إلى طريق الهوى والعصيان، ومعاندة العبودية.

«وإشفاق على العمل: أن يصير إلى الضياع».

أي يخاف على عمله أن يكون من الأعمال التي قال الله فيها: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣] وهي الأعمال التي كانت لغير الله، وعلى غير أمره وسنة رسوله ﷺ. ويخاف أيضًا أن يضيع عمله في المستقبل، إما بتركه. وإما بمعاصي تفرقه وتحبطه. فيذهب ضائعًا. ويكون حال صاحبه كالحال التي قال الله تعالى عن أصحابها: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ [البقرة: ٢٦٦] قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه للصحابة رضي الله عنهم «فيمن ترون هذه الآية نزلت؟ فقالوا: الله أعلم. فغضب عمر، وقال: قولوا: نعلم، أو لا نعلم. فقال ابن عباس: في نفسي منها شيء ياأمير المؤمنين. قال: ياابن أخي قل. ولا تحقرن نفسك. قال ابن عباس: ضُربت مثلًا لعمل. قال عمر: أي عمل؟

---

(١) ٣٨٢ زاد المعاد جـ٤.	(٢) ٥١٧ مدارج جـ١.

قال ابن عباس: لعمل. قال عمر: لرجل غني يعمل بطاعة الله. فبعث الله إليه الشيطان. فعمل بالمعاصي حتى أغرق جميع أعماله» اهـ.

... (١)**واقتران** التوراة بالقرآن في غير موضع من الكتاب: كقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكفُرُوا بِمَآ أُوتِيَ مُوسَى مِن قَبْلُ قالوا سِحْرَانِ تَظاهَرَا وقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كافِرُونَ • قل فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّن عِندِ اللهِ هُوَ أَهْدىٰ مِنهُمَا أَتَّبِعْهُ﴾ [القصص: ٤٨، ٤٩].

وقوله في الأنعام ردًّا على من قال: ﴿مَا أَنزَلَ اللهُ على بَشَرٍ مِّن شيءٍ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الكِتَابَ الَّذي جَآءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وهُدًى للنَّاسِ﴾ [الأنعام: ٩١]الآية ثم قال: ﴿وَهَذَا كِتابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [الأنعام: ٩٢].

وقال في آخر السورة: ﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الكِتَابَ تمامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ • وَهَذَا كِتابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ واتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٥].

وقال في أول سورة آل عمران: ﴿الٓمٓ • اللهُ لَا إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ الحَيُّ القَيُّومُ • نَزَّلَ عَلَيْكَ الكِتَابَ بالحَقِّ مُصَدِّقًا لِّما بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوراةَ والإنجيلَ • مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١ - ٤].

وقال: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الفُرقَانَ وضِياءً وذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ • الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بالغَيْبِ وَهُم مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقونَ • وَهَذَا ذِكْرٌ مُّبارَكٌ أَنزَلْنَاهُ أَفَأَنتُمْ له مُنكِرُونَ﴾[الأنبياء: ٤٨ - ٥٠].

ولهذا يذكر سبحانه وتعالى قصة موسى ويعيدها ويبديها، ويسلي رسول الله ﷺ، ويقول رسول الله ﷺ عندما يناله من أذى الناس: «**لقد أوذي موسى بأكثر من هذا فصبر**» ولهذا قال النبي ﷺ: «**إنه كائن في أمتي ماكان في بني إسرائيل، حتى لو كان فيهم من أتى أمه علانية لكان في هذه الأمة من يفعله**». **فتأمل هذا التناسب بين الرسولين والكتابين والشريعتين؛ أعنى الشريعة الصحيحة التي لم تبدل، والأمتين واللغتين.**

(٢)**ثم أخبر - تعالى - عن القرآن بأنه ذكر للعالمين. وفي موضع آخر: تذكرة**

---

(١) ١١١ جلاء الأفهام.　　(٢) ٨٠ التبيان.

للمتقين. وفي موضع آخر لرسوله ﷺ ولقومه، وفي موضع آخر: ذكر مطلق. وفي موضع آخر: ذكر مبارك، وفي موضع آخر وصفه بأنه ذو الذكر. وبجمع هذه المواضع تبين المراد من كون ذكرًا عامًا وخاصًا. وكونه ذا ذكر، فإنه يذكر العباد بمصالحهم في معاشهم ومعادهم.

ويذكرهم بالمبدأ و المعاد، ويذكرهم بالرب تعالى وأسمائه وصفاته وأفعاله، وحقوقه على عباده. ويذكرهم بالخير ليقصدوه، وبالشر ليجتنبوه.

ويذكرهم بنفوسهم، وأحوالها وآفاتها، وماتكمل به. ويذكرهم بعدوهم ومايريد منهم، وبماذا يحترزون من كيده، ومن أي الأبواب والطرق يأتي إليهم.

ويذكرهم بفاقتهم وحاجتهم إليه، وأنهم مضطرون، إليه لا يستغنون عنه نفسًا واحدًا. ويذكرهم بنعمه عليهم، ويدعوهم بها إلى نعم أخرى أكبر منها.

ويذكرهم بأسه وشدة بطشه، وانتقامه ممن عصى أمره، وكذب رسله ويذكرهم بثوابه وعقابه. ولهذا يأمر ـ سبحانه ـ عباده أن يذكروا مافي كتابه، كما قال: ﴿**خُذُوا ماآتَيْنَاكُم بقُوَّةٍ واذْكُرُوا مافِيهِ لَعَلَّكُم تَتَّقُونَ**﴾ [الأعراف: ١٧١].

وإذا كان كذلك فأحق وأولى وأول من كان ذاكرًا له من أنزل عليه، ثم لقومه. ثم لجميع العالمين. وحيث خص به المتقين فلأنهم الذين انتفعوا بذكره.

وأما وصفه بأنه ذو الذكر فلأنه مشتمل على الذكر، فهو صاحب الذكر، ومنه الذكر، فهو ذكر وفيه الذكر، كما أنه هدى وفيه الهدى وشفاء وفيه الشفاء، ورحمة وفيه الرحمة.

(١)**قوله** ـ سبحانه ـ: ﴿**وَلَقَدْ آتَيْنَا إبراهيمَ رُشْدَه مِن قَبْلُ وكُنَّا به عَالِمِينَ**﴾ [الأنبياء: ٥١] وأصح الأقوال في الآية أن المعنى من قبل نزول التوراة فإنه سبحانه قال: ﴿**ولَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وهارون الفُرقَانَ وضِيَآءً وَّذِكرًا لِّلمتقين**﴾ [الأنبياء: ٤٨] وقال: ﴿**وَهَذَا ذِكْرٌ مُّبارَكٌ أَنْزلناه أَفَأَنتُمْ لَهُ مُنكِرُون**﴾ [الأنبياء: ٥٠] ثم قال ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل ذلك، ولهذا قطعت قبل عن الإضافة، وبنيت لأن المضاف منوى معلوم، وإن كان غير مذكور في اللفظ.

---

(١) ٣٢ شفاء العليل.

وذكر ـ سبحانه ـ هؤلاء الثلاثة وهم أئمة الرسل وأكرم الخلق عليه: محمد وإبراهيم وموسى. وقد قيل: من قبل أي: في حال صغره، قبل البلوغ، وليس في اللفظ مايدل على هذا، والسياق إنما يقتضى من قبل ماذكر.

وقيل المعنى بقوله: من قبل، أي: في سابق علمنا، وليس في الآية أيضًا مايدل على ذلك، ولا هو أمر مختص بإبراهيم، بل كل مؤمن فقد قدر الله هداه في سابق علمه. والمقصود قوله: ﴿وكنّا به عالمين﴾ قال البغوي: إنه أهل للهداية والنبوة، وقال أبو الفرج، أي: عالمين بأنه موضع لإيتاء الرشد.

وقال صاحب الكشاف: المعنى علمه به أنه علم منه أحوالاً بديعة وأسرارًا عجيبة، وصفات قد رضيها وحمدها، حتى أهّله لمخالته ومخالصته، وهذا كقولك في حر من الناس: أنا عالم بفلان، فكلامك هذا من الاحتواء على محاسن الأوصاف، وهذا كقوله: ﴿اللهُ أعْلَمُ حَيْثُ يجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤] وقوله: ﴿وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَى عِلْمٍ﴾ [الدخان: ٣٢].

ونظيره قوله: ﴿إنَّ اللهَ اصْطَفَى آدَمَ ونُوحًا وَآلَ إبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمرانَ على العالَمِين • ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ واللهُ سميعٌ عَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣٣ ـ ٣٤].

وقريب منه فوله: ﴿ولِسُلَيْمانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إلَى الأَرْضِ الَّتِي باركنا فِيهَا وكنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨١] حيث وضعنا هذا التخصيص في المحل الذي يليق به من الأماكن والأناسي.

فائدة(١)

الإنابة هي: عكوف القلب على الله ـ عز وجل ـ كاعتكاف البدن في المسجد لا يفارقه، وحقيقة ذلك عكوف القلب على محبته، وذكره بالإجلال والتعظيم، وعكوف الجوارح على طاعته بالإخلاص له والمتابعة لرسوله، ومن لم يعكف قلبه على الله وحده، عكف على التماثيل المتنوعة؛ كما قال إمام الحنفاء لقومه: ﴿مَاهَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُم لَهَا عَاكِفُونَ﴾ [الأنبياء: ٥٢] فاقتسم هو وقومه حقيقة العكوف، فكان حظ قومه العكوف على التماثيل، وكان حظه العكوف على الرب الجليل.

---

(١) ١٩٥ فوائد.

والتماثيل: جمع تمثال، وهي: الصورة الممثلة، فتعلق القلب بغير الله واشتغاله به والركون إليه؛ عكوف منه على التماثيل التي قامت بقلبه، وهو نظير العكوف على تماثيل الأصنام، ولهذا كان شرك عبادة الأصنام بالعكوف بقلوبهم وهممهم وإراداتهم على تماثيلهم، فإذا كان في القلب تماثيل قد ملكته واستعبدته، بحيث يكون عاكفًا عليها، فهو نظير عكوف الأصنام عليها، ولهذا سماه النبي ﷺ عبدًا لها، ودعا عليه بالتعس والنكس، فقال: «**تعس عبد الدينار، تعس عبد الدرهم، تعس وانتكس، وإذا شيك فلا انتقش**».

. . .[1]**أخبر** الله سبحانه عن كليمه موسى ـ عليه السلام ـ: أنه أحرق العجل الذي عبد من دون الله، ونسَفَه في اليَمِّ. وكان من ذهب وفضة. وذلك مَحْقٌ له بالكلية.

وقال عن خليله إبراهيم ـ عليه السلام ـ: ﴿**فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا**﴾ [الأنبياء: ٥٨] وهو الفَتات. وذلك نص في الاستئصال.

وروى الإمام أحمد في مسنده والطبراني في المعجم من حديث الفرج بن فضالة عن علي بن يزيد عن القاسم عن أبي أمامة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله بعثني رحمة للعالمين، وهدى للعالمين. وأمرني ربي بمَحْقِ المعازف والمزامير والأوثان، والصليب، وأمر الجاهلية**» لفظ الطبراني. والفرج: حمصي. قال أحمد في رواية: هو ثقة. وقال يحيى: ليس به بأس. وتكلم فيه آخرون. وعلي بن يزيد: دمشقي ضعفه غير واحد. وقال أبو مسهر ـ وهو بلديُّه ـ لا أعلم به إلا خيرًا. وهو أعرف به. «والمحق» نهاية الإتلاف.

وأيضًا: فالقياس يقتضي ذلك. لأن محل الضمان: هو ماقَبِلَ المعاوضة. ومانحن فيه لايقبلها ألبتة. فلا يكون مضمونًا. وإنما قلنا: لايقبل المعاوضة. لأن النبي ﷺ قال: «**إن الله حرم بيع الخمر والميتة والخنزير والأصنام**» وهذا نص. وقال: «**إن الله إذا حرم شيئًا حرم ثمنه**» والملاهي محرمات بالنص. فحرم بيعها.

وأما قبول مافوق الحد المبطل للصورة لجعله آنية: فلا يثبت به وجوب الضمان،

---

(١) ٢٧٢ الطرق الحكمية.

لسقوط حرمته، حيث صار جزء المحرم، أو ظرفًا له، كما أمر به النبي ﷺ في كسر دِنان الخمر، وشق ظروفها. فلا ريب أن للمجاورة تأثيرًا في الامتهان والإكرام.

وقد قال تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الكِتَابِ أَنْ إذا سَمِعْتُمْ آياتِ اللهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ • إِنَّكُم إِذًا مِّثْلُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٠]. وسئل النبي ﷺ عن القوم: يكونون بين المشركين، يؤاكلونهم ويشاربونهم؟ فقال: «هم منهم» هذ لفظه أو معناه.

فإذا كان هذا في المجاورة المنفصلة فكيف بالمجاورة التي صارت جزءًا من أجزاء المحرم، أو لَصيقة به؟ وتأثير الجوار ثابت عقلاً وشرعًا وعرفًا.

والمقصود أن إتلاف المال ـ على وجه التعزير والعقوبة ـ ليس بمنسوخ. . . . .

(١)**وقال** تعالى يذكر نعمته على داود وسليمان: ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فيه غَنَمُ القَوْمِ وكُنَّا لِحُكْمِهِم شاهِدِينَ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمانَ وكُلًّا آتَينا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [الأنبياء: ٧٨، ٧٩].

فذكر النبيين الكريمين وأثنى عليهما بالحكم والعلم، وخصّ بفهم القضية أحدهما، وقد ذكرت الحكمين الداوودي والسليماني ووجههما ومن صار من الأئمة إلى هذا، ومن صار إلى هذا، وترجيح الحكم السليماني من عدة وجوه، وموافقته للقياس وقواعد الشرع في كتاب الاجتهاد والتقليد.

(٢)**وعلى** هذا الأصل تبتنى الحكومة المذكورة في كتاب الله ـ عز وجل ـ التي حكم فيها النبيان الكريمان: داود وسليمان صلى الله عليهما وسلم؛ إذ حكَمَا في الحَرْث الذي نَفَشَتْ فيه غنم القوم، والحَرث: هو البستان.

وقد روى أنه كان بستان عنب، وهو المسمى بالكرم، والنفش: رَعْيُ الغنم ليلاً، فحكم داود بقيمة المتلف، فاعتبر الغنم فوجدها بقدر القيمة، فدفعها إلى أصحاب الحرث، إما لأنه لم يكن لهم دراهم أو تَعذَّر بيعُها، وَرَضُوا بدفعها ورضى أولئك بأخذها بدلاً عن القيمة، وأما سليمان فقضى بالضمان على أصحاب الغنم، وأن يضمنوا ذلك بالمثل بأن يعمروا البستان حتى يعود كما كان، ولم يضيع

---

(١) ٥٧ مفتاح جـ١.　　(٢) ٣٢٦ أعلام جـ١.

عليهم مُغَلَّه من الإتلاف إلى حين العَوْد، بل أعطى أصحابَ البستان ماشية أولئك ليأخذوا من نمائها بقدر نماء البستان فيستوفوا من نماء غنمهم نظير مافاتهم من نماء حرثهم، وقد اعتبر النماءين فوجدهما سواء، وهذا هو العلم الذي خَصَّه الله به وأثنى عليه بإدراكه.

وقد تنازع علماء المسلمين في مثل هذه القضية على أربعة أقوال:

أحدها: موافقة الحكم السليماني في ضمان النَّفْش وفي المثل، وهو الحق، وهو أحد القولين في مذهب أحمد، ووجه للشافعية والمالكية، والمشهور عندهم خلافه.

والقول الثاني: موافقته في ضمان النفش دون التضمين بالمثل، وهذا هو المشهور من مذهب مالك والشافعي وأحمد.

والثالث: موافقته في التضمين بالمثل دون النفش كما إذا رَعَاها صاحبها باختياره دون ما إذا تفلتت ولم يشعر بها، وهو قول داود وَمَنْ وافقه.

والقول الرابع: أن النفش لا يوجب الضمان بحال، وما وجب من ضمان الراعي بغير النفش فإنه يضمن بالقيمة لا بالمثل، وهذا مذهب أبي حنيفة.

وما حكم به نبي الله سليمان هو الأقرب إلى العدل والقياس، وقد حكم رسول الله ﷺ على أهل الحوائط حفظها بالنهار، وأن ما أفسدت المواشي بالليل ضمان على أهلها، فصح بحكمه ضمان النفش، وصح بالنصوص السابقة والقياس الصحيح وجوبُ الضمان بالمثل، وصح بنص الكتاب الثناء على سليمان بتفهيم هذا الحكم، فصح أنه الصواب، وبالله التوفيق.

(1)**قوله** تعالى: ﴿**وأيُّوبَ إذْ نَادَى ربَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وأنتَ أرْحَمُ الرَّاحمين**﴾ [الأنبياء: ٨٣] جمع في هذا الدعاء بين حقيقة التوحيد، وإظهار الفقر والفاقة إلى ربه، ووجود طعم المحبة في المتملق له، والإقرار له بصفة الرحمة، وأنه أرحم الراحمين، والتوسل إليه بصفاته - سبحانه - وشدة حاجته هو وفقره، ومتى وجد المبتلى هذا كشفت عنه بلواه، وقد جرب أنه من قالها سبع مرات، ولا سيما مع هذه المعرفة كشف الله ضره.

---

(١) ٢٠٠ فوائد.

[1] **وقد** أثنى عليه ـ سبحانه ـ بذلك في قوله: ﴿وذا النُّون إذ ذَّهبَ مغاضبًا فظنَّ أن لَّن نقدر عليه فنادى في الظلمات أن لا إلـه إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين • فاستَجَبْنا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الغَمِّ وكَذلِكَ نُنْجِي المُؤْمِنِينَ﴾[الأنبياء: ٨٧-٨٨] فكيف ينهي عن التشبه به فيما يثنى عليه ويمدحه به. وكذلك أثنى على أيوب بقوله: ﴿مَسَّنِيَ الضرُّ وأنتَ أرحَمُ الرَّاحِمين﴾. وعلى يعقوب بقوله: ﴿إنما أَشْكُو بَثِّي وحُزْني إلَى اللهِ﴾[يوسف: ٨٦]. وعلى موسى بقوله: ﴿رَبِّ إنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فقيرٌ﴾ [القصص: ٢٤].

وقد شكا إليه خاتم أنبيائه ورسله بقوله: «**اللهم أشكو إليك ضعف قوتي وقلة حيلتي**» الحديث، فالشكوى إليه ـ سبحانه ـ لاتنافي الصبر الجميل، بل إعراض عبده عن الشكوى إلى غيره جملة، وجعل الشكوى إليه وحده هو الصبر. والله ـ تعالى ـ يبتلي عبده ليسمع شكواه وتضرعه ودعاءه.

وقد ذم ـ سبحانه ـ من لم يتضرع إليه ولم يستكن له وقت البلاء، كما قال تعالى: ﴿ولَقَدْ أَخَذْنَاهُم بالعَذَابِ فَما اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ ومايَتَضَرَّعُون﴾ [المؤمنون: ٧٦] والعبد أضعف من أن يتجلد على ربه والرب ـ تعالى ـ لم يرد من عبده أن يتجلد عليه، بل أراد منه أن يستكين له ويتضرع إليه، وهو تعالى يمقت من يشكوه إلى خلقه ويحب من يشكو مابه إليه. وقيل لبعضهم: كيف تشتكي إليه ماليس يخفى عليه، فقلت ربي يرضى ذل العبد إليه.

والمقصود أنه ـ سبحانه ـ أمر رسوله أن يصبر صبر أولى العزم الذين صبروا لحكمه اختيارًا، وهذا أكمل الصبر، ولهذا دارت قصة الشفاعة يوم القيامة على هؤلاء حتى ردوها إلى أفضلهم وخيرهم، وأصبرهم لحكم الله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

[2] **وأما** دعوة ذي النون: فإن فيها من كمال التوحيد، والتنزيه للرب تعالى، واعتراف العبد بظلمه لنفسه وذنبه: ماهو من أبلغ أدوية الكرب والهم والغم، وأبلغ الوسائل إلى الله ـ سبحانه ـ في قضاء الحوائج، فإن التوحيد والتنزيه

---

(١) ٣٣ عدة الصابرين.		(٢) ٢٧٧ زاد المعاد جـ٣.

يتضمنـان إثبـات كل كمال لله وسلب كل نقص وعيب وتمثيل عنه، والاعتراف بالظلم: يتضمن إيمان العبد بالشرع والثواب والعقاب ويوجب انكساره وبرجوعه إلى الله واستقالته عثرته والاعتراف بعبوديته وافتقاره إلى ربه.

فهاهنا أربعـة أمـور قد وقـع التوسل بها، التوحيد، والتنزيه، والعبودية، والاعتراف، اهـ.

(١)**قال** الله ـ عز وجل ـ: ﴿وَيدْعُونَنَا رَغَبًا ورَهَبًا﴾ [الأنبياء: ٩٠] والفرق بين «الرغبة» و«الرجاء» أن الرجاء طمع. والرغبة طلب. فهي ثمرة الرجاء. فإنه إذا رجا الشيء طلبه. والرغبة من الرجاء كالهرب من الخوف. فمن رجا شيئًا طلبه ورغب فيه. ومن خاف شيئًا هرب منه. والمقصود أن الراجي طالب، والخائف هارب.

(٢)﴿**وَزكريَّا إذ نادَىَ ربَّه**﴾ إلى أن قال: ﴿**إنهم كَانُوا يُسارِعُونَ في الخيراتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا ورَهَبًا وكانُوا لنا خاشِعِينَ**﴾ [الأنبياء: ٨٩، ٩٠] أي: رَغَبًا فيما عندنا، ورهبًا من عذابنا. والضمير في قوله: «إنهم» عائد على الأنبياء المذكورين في هذه السورة عند عامة المفسرين.

و«**الرغب** والرهب» رجاء الرحمة، والخوف من النار عندهم أجمعين. وذكر ـ سبحانه ـ عباده، الذين هم خواص خلقه، وأثنى عليهم بأحسن أعمالهم، وجعل منهـا: استعاذتهم به من النار، فقال تعالى: ﴿**وَالَّذينَ يقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عنَّا عَذابَ جَهنَّمَ إنَّ عذابَها كانَ غَرامًا ● إنها سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا ومُقَامًا**﴾ [الفرقان: ٦٥، ٦٦].

وأخبر عنهم: أنهم توسلوا إليه بإيمانهم أن ينجيهم من النار. فقال تعالى: ﴿**الَّذينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إنَّنا آمَنَّا فاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ**﴾ [آل عمران: ١٦] فجعلوا أعظم وسائلهم إليه: وسيلة الإيمان، وأن ينجيهم من النار.

وأخبر تعالى عن سادات العارفين أولى الألباب: أنهم كانوا يسألونه جنته. ويتعوذون به من ناره. فقال تعالى: ﴿**إنَّ في خَلْقِ السَّموات والأَرْضِ وَاختِلافِ اللَّيلِ والنَّهارِ لآياتٍ لأُولي الألبَابِ**﴾ الآيات إلى آخرها [آل عمران: ١٩٠ ـ ١٩٤] ولا خلاف أن الموعود به على ألسنة رسله: هي الجنة التي سألوها.

---

(١) ٥٥ مدارج جـ٢.
(٢) ٧٦ مدارج جـ٢.

وقال عن خليله إبراهيم ﷺ: ﴿والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين • رب هب لي حكما وألحقني بالصالحين • واجعل لي لسان صدق في الآخرين • واجعلني من ورثة جنة النعيم • واغفر لأبي إنه كان من الضالين • ولا تخزني يوم يبعثون • يوم لا ينفع مال ولا بنون • إلا من أتى الله بقلب سليم﴾ [الشعراء: ٨٢ - ٨٩] فسأل الله الجنة، واستعاذ به من النار. وهو الخزي يوم البعث. وأخبرنا - سبحانه - عن الجنة: أنها كانت وعدًا عليه مسئولاً، أي: يسأله إياها عباده وأولياؤه.

(١)**وقد** أثنى الله على أقرب عباده إليه بالخوف عنه فقال عن أنبيائه بعد أن أثنى عليهم ومدحهم: ﴿إنهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغبا ورهبا﴾ فالرغب الرجاء والرغبة، والرهب: الخوف والخشية. وقال عن ملائكته الذين قد أمنهم من عذابه: ﴿يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون﴾ [النحل: ٥٠] وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «**إني أعلمكم بالله وأشدكم له خشية**» وفي لفظ آخر: «**إني أخوفكم لله وأعلمكم بما أتقى**» وكان ﷺ يصلي ولصدره أزيز كأزيز المرجل من البكاء. . . .

(٢)**فصل** النوع الثامن ذكر الحكم الكوني والشرعي عقيب الوصف المناسب له، وتارة بذكر بأن، وتارة يقرن بالفاء، وتارة يذكر مجردًا.

فالأول كقوله: ﴿وزكريا إذ نادى ربه رب لا تذرني فردا وأنت خير الوارثين فاستجبنا له ووهبنا له يحيى وأصلحنا له زوجه إنهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغبا ورهبا وكانوا لنا خاشعين﴾ [الأنبياء: ٨٩، ٩٠] وقوله: ﴿إن المتقين في جنات وعيون • آخذين ما آتاهم ربهم إنهم كانوا قبل ذلك محسنين﴾ [الذاريات: ١٥، ١٦] وقوله: ﴿كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين﴾ [يوسف: ٢٤] وقوله: ﴿والذين يمسكون بالكتاب وأقاموا الصلاة إنا لا نضيع أجر المصلحين﴾ [الأعراف: ١٧٠].

والثاني كقوله: ﴿والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا﴾ [المائدة: ٣٨] ﴿الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة﴾ [النور: ٢].

---

(١) ٢٨٢ طريق الهجرتين.	(٢) ١٩٦ شفاء العليل.

والثالث كقوله: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ [الحجر: ٤٥] ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [البقرة: ٢٧٧] وهذا في التنزيل يزيد على عدة آلاف موضع، بل القرآن مملوء منه.

فإن قيل: هذا إنما يفيد كون تلك الأفعال أسبابًا لما رتب عليها لا يقتضي إثبات التعليل في فعل الرب وأمره، فأين هذا من هذا؟!

قيل: لما جعل الرب ـ سبحانه ـ هذه الأوصاف عللاً لهذه الأحكام وأسبابًا لها دل ذلك على أنه حكم بها شرعًا وقدرًا لأجل تلك الأوصاف وأنه لم يحكم بها لغير علة ولا حكمة، ولهذا كان كل من نفى التعليل والحكم نفى الأسباب ولم يجعل لحكم الرب الكوني والديني سببًا ولا حكمة هي العلة الغائية، وهؤلاء ينفون الأسباب والحكم. ومن تأمل شرع الرب وقدره وجزاءه جزم جزمًا ضروريًا ببطلان قول النفاة، والله ـ سبحانه ـ قد رتب الأحكام على أسبابها وعللها وبين ذلك خبراً وحسًّا وفطرة وعقلاً، ولو ذكرنا ذلك على التفصيل لقام منه عدة أسفار.

فصل(١)

والفرق بين الإخبار بالحال وبين الشكوى وإن اشتبهت صورتها: أن الإخبار بالحال يقصد المخبر به قصدًا صحيحًا من علم سبب إدانته أو الاعتذار لأخيه من أمر طلبه منه أو يحذره من الوقوع في مثل ماوقع فيه، فيكون ناصحًا بإخباره له، أو حمله على الصبر بالتأسي به، كما يذكر عن الأحنف أنه شكا إليه رجل شكوى، فقال: ياابن أخي لقد ذهب ضوء عيني من كذا وكذا سنة فما أعلمت به أحدًا. نفى ضمن هذا الأخبار من حمل الشاكي على التأسي، والصبر مايثاب عليه المخبر وصورته صورة الشكوى، ولكن القصد ميز بينهما، ولعل من هذا قول النبي ﷺ لما قالت عائشة وارأساه فقال: «**بل أنا وارأساه**». أي: الوجع القوي بي أنا دونك، فتأسي بي فلا تشتكي.

ويلوح لي فيه معنى آخر، وهو أنها كانت حبيبة رسول الله ﷺ بل كانت أحب النساء إليه على الإطلاق، فلما شكت إليه رأسها أخبرها أن بمحبها من الألم مثل

(١) ٣١٥ الروح.

الذي بها، وهذا غاية الموافقة من المحب، ومحبوبه يتألم بتألمه، ويسر بسروره حتى إذا آلمه عضو من أعضائه آلم المحب ذلك العضو بعينه، وهذا من صدق المحبة وصفاء المودة، فالمعنى الأول يفهم أنك لا تشتكي واصبري فبي من الوجع مثل مابك فتأسي بي في الصبر وعدم الشكوى.

والمعنى الثاني يفهم إعلامها بصدق محبته لها، أي: انظري قوة محبتي لك كيف واسيتك في ألمك ووجع رأسك فلم تكوني متوجعة وأنا سليم من الوجع بل يؤلمني مايؤلمك كما يسرني مايسرك كما قيل:

وإن أولى البرايا أن تواسيه عند السرور الذي واساك في الحزن

وأما الشكوى فالإخبار العاري عن القصد الصحيح، بل يكون مصدره السخط وشكاية المبتلي إلى غيره، فإن شكا إليه ـ سبحانه وتعالى ـ لم يكن ذلك شكوى، بل استعطاف وتملق واسترحام له كقول أيوب: رب **﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وأنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾** [الأنبياء: ٨٣]. وقول يعقوب: **﴿إِنَّمَا اشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللهِ﴾** [يوسف: ٨٦]. وقول موسى: اللهم لك الحمد، وإليك المشتكى، وأنت المستعان، وبك المستغاث، وعليك التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بك. وقول سيد ولد آدم: «**اللهم إليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس، أنت رب المستضعفين، وأنت ربي، إلى من تكلني! إلى بعيد يتجهمني أو إلى عدو ملكته أمري، إن لم يكن بك غضب عليّ فلا أبالي، غير أن عافيتك أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة أن يحل عليّ غضبك، أو ينزل بي سخطك، لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك**». فالشكوى إلى الله ـ سبحانه ـ لاتنافي الصبر بوجه، فإن الله ـ تعالى ـ قال عن أيوب: **﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾** [ص: ٤٤] مع إخباره عنه بالشكوى إليه في قوله: **﴿مسني الضر﴾**.

وأخبر عن نبيه يعقوب أنه وعد من نفسه بالصبر الجميل، والنبي إذا قال وفّى مع قوله: **﴿إِنَّمَا أَشْكُو بثي وَحُزْنِي إِلَى اللهِ﴾** ولم يجعل ذلك نقصًا لصبره. ولا يلتفت إلى غير هذا من ترهات القوم، كما قال بعضهم لما قال: **﴿مسني الضر﴾** قال تعالى: **﴿إِنَّا وجدْناه صَابِرًا﴾** ولم يقل صبورًا حيث قال: مسني الضر، وقال

بعضهم: لم يقل ارحمني وإنما قال: أنت أرحم الراحمين، فلم يزد على الإخبار بحاله ووصف ربه. وقال بعضهم إنما شكا مس الضر حين ضعف لسانه عن الذكر فشكا مس ضر ضعف الذكر لا ضر المرض والألم. وقال بعضهم: استخرج منه هذا القول ليكون قدوة للضعفاء من هذه الأمة. وكأن هذا القائل رأى أن الشكوى إلى الله تنافي الصبر.

وغلط أقبح الغلط فالمنافي للصبر شكواه لا الشكوى إليه. فالله يبتلي عبده ليسمع تضرعه ودعاءه والشكوى إليه، ولا يحب التجلد عليه وأحب ما إليه انكسار قلب عبده بين يديه وتذلله له، وإظهار ضعفه وفاقته وعجزه وقلة صبره، فاحذر كل الحذر من إظهار التجلد عليه وعليك بالتضرع والتمسكن وإبداء العجز والفاقة والذل والضعف، فرحمته أقرب إلى هذا القلب من اليد للفم اهـ.

(١)**قوله** تعالى: **﴿إِنَّ الَّذِيْنَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُوْلَٰئِكَ عَنْها مُبْعدُونَ﴾** [الأنبياء: ١٠١] قد تقدمت الأحاديث بوقوع أهل السعادة في إحدى القبضتين، وكتابتهم بأسمائهم وأسماء آبائهم في ديوان السعداء قبل خلقهم.

وفي صحيح الحاكم من حديث الحسين بن واقد عن يزيد النحوي عن عكرمة عن ابن عباس قال لما نزلت: **﴿إِنَّكُم وَمَا تَعبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾** [الأنبياء: ٩٨] قال المشركون: فالملائكة وعيسى وعزيرًا يعبدون من دون الله، قال فنزلت: **﴿إِنَّ الَّذِين سَبَقَتْ لَهُم مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُوْلَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾** وهذا إسناد صحيح. وقال علي بن المديني ثنا يحيى بن آدم ثنا أبو بكر بن عياش عن عاصم قال أخبرني أبو رزين عن أبي يحيى عن ابن عباس أنه قال: آية لا يسأل الناس عنها لا أدري أعرفوها فلم يسألوا عنها أو جهلوها فلا يسألون عنها، فقيل له: وما هي؟ فقال لما نزلت: **﴿إِنَّكُم وَمَاتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُم لَهَا وَارِدُون﴾** شق ذلك على قريش أو على أهل مكة، وقالوا: يشتم آلهتنا فجاء ابن الزبعري فقال: مالكم؟ قالوا: يشتم آلهتنا قال: وماقال؟ قالوا: قال: **﴿إنكم وماتعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون﴾** قال: ادعوه لي فلما دُعي النبي ﷺ

---

(١) ٢٦ شفاء العليل.

قال: يامحمد هذا شيء لآلهتنا خاصة أم لكل من عبد من دون الله. فقال: لا بل لكل من عبد من دون الله، قال: فقال: ابن الزبعري: خصمت ورب هذه البنية، يعني: الكعبة، ألست تزعم أن الملائكة عباد صالحون، وأن عيسى عبد صالح، وأن عزيرًا عبد صالح، وهذه بنو مليح تعبد الملائكة، وهذه النصارى تعبد عيسى، وهذه اليهود تعبد عزيرًا. قال: فضج أهل مكة فأنزل الله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُوْلَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا﴾ قال ونزلت: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ [الزخرف: ٥٧] قال هو الضجيج. وهذا الإيراد الذي أورده ابن الزبعري لا يرد على الآية، فإنه ـ سبحانه ـ قال: ﴿إنكم وماتعبدون من دون الله﴾ ولم يقل: ومن تعبدون. [وما] لما لا يعقل، فلا يدخل فيها الملائكة والمسيح وعزير، وإنما ذلك للأحجار ونحوها التي لا تعقل.

وأيضًا فإن السورة مكية والخطاب فيها لعباد الأصنام فإنه قال: ﴿إنكم وماتعبدون﴾ فلفظة [إنكم] ولفظة [ما] تبطل سؤاله، وهو رجل فصيح من العرب لا يخفى عليه ذلك، ولكن إيراده إنما كان من جهة القياس والعموم المعنوي الذي يعم الحكم فيه بعموم علته، أي إن كان كونه معبودًا يوجب أن يكون حصب جهنم فهذا المعنى بعينه موجود في الملائكة وعزير والمسيح، فأجيب بالفارق وذلك من وجوه:

أحدها أن الملائكة والمسيح وعزيرًا ممن سبقت لهم من الله الحسنى، فهم سعداء، لم يفعلوا مايستوجبون به النار، فلا يعذبون بعبادة غيرهم مع بغضهم ومعاداتهم لهم. فالتسوية بينهم وبين الأصنام أقبح من التسوية بين البيع والربا والميتة والذكي وهذا شأن أهل الباطل، وإنما يسوون بين مافرق الشرع والعقل والفطرة بينه، ويفرقون بين ماسوى الله ورسوله بينه.

الفرق الثاني: أن الأوثان حجارة غير مكلفة ولا ناطقة، فإذا حصبت بها جهنم إهانة لها ولعابديها لم يكن في ذلك من لا يستحق العذاب بخلاف الملائكة والمسيح وعزير فإنهم أحياء ناطقون فلو حصبت بهم النار كان ذلك إيلامًا وتعذيبًا لهم.

الثالث: أن من عبد هؤلاء بزعمه فإنه لم يعبدهم في الحقيقة فإنهم لم يدعوا إلى

عبادتهم وإنما عبد المشركون الشياطين وتوهموا أن العبادة لهؤلاء، فإنهم عبدوا بزعمهم من ادعى أنه معبود مع الله وأنه معه إلـه.

وقد برأ الله ـ سبحانه ـ ملائكته والمسيح وعزيرًا من ذلك، وإنما ادعى ذلك الشياطين، وهم بزعمهم يعتقدون أنهم يرضون بأن يكونوا معبودين مع الله، ولا يرضى بذلك إلا الشياطين، ولهذا قال ـ سبحانه ـ: ﴿**وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَٰؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ • قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ**﴾ [سبأ: ٤٠، ٤١].

وقال تعالى: ﴿**أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ**﴾ [يس: ٦٠].

وقال تعالى: ﴿**وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ • لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ • يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ • وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ**﴾ [الأنبياء: ٢٦ ـ ٢٩] فما عبد غير الله إلا الشيطان وهذه الأجوبة منتزعة من قوله: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ**﴾ فتأمل الآية تجدها تلوح في صفحات ألفاظها، وبالله التوفيق.

والمقصود ذكر الحسنى التي سبقت من الله لأهل السعادة قبل وجودهم.

وقال عبدالرحمن بن أبي حاتم ثنا أبوسعيد بن يحيى بن سعيد ثنا أبوعامر العقدي ثنا عروة بن ثابت الأنصاري ثنا الزهري عن إبراهيم بن عبدالرحمن بن عوف أن عبدالرحمن بن عوف مرض مرضًا شديدًا أغمي عليه، فأفاق فقال: أغمي عليّ؟ قالوا: نعم. قال: إنه أتاني رجلان غليظان فأخذا بيدي، فقالا: انطلق نحاكمك إلى العزيز الأمين. فانطلقا بي، فتلقاهما رجل، وقال: أين تريدان به؟ قالا: نحاكمه إلى العزيز الأمين، فقال: دعاه فإن هذا ممن سبقت له السعادة وهو في بطن أمه.

وقال عبدالله بن محمد البغوي ثنا داود بن رشيد ثنا ابن علية حدثني محمد بن محمد القرشي عن عامر بن سعد قال: أقبل سعد من أرض له، فإذا الناس عكوف على رجل فاطلع، فإذا هو يسب طلحة والزبير وعليًا فنهاه، فكأنما زاده إغراء، فقال: ويلك تريد أن تسب أقوامًا هم خير منك لتنتهين أو لأدعون عليك، فقال:

كأنما يخوفني نبي من الأنبياء، فانطلق فدخل دارًا فتوضأ ودخل المسجد، ثم قال: اللهم إن كان هذا قد سب أقوامًا قد سبقت لهم منك حسنى أسخطك سبه إياهم فأرني اليوم آية تكون للمؤمنين آية، وقال: تخرج بختية من دار بني فلان لا يردها شيء حتى تنتهي إليه ويتفرق الناس، وتجعله بين قوائمها وتطأه حتى طفى قال: فأنا رأيت سعدًا يتبعه الناس يقولون: استجاب الله لك يا أبا إسحاق! استجاب الله لك يا أبا إسحاق.

وقال تعالى: ﴿**وَجَاهِدُوا فِي اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا**﴾ [الحج: ٧٨] أي: الله سماكم من قبل القرآن وفي القرآن فسبقت تسمية الحق - سبحانه - لهم مسلمين قبل إسلامهم وقبل وجودهم. وقال تعالى ﴿**وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ**﴾[الصافات: ١٧١، ١٧٣].

وقال ابن عباس في رواية الوالبي عنه في قوله: ﴿**وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ**﴾ [يونس: ٢] قال: سبقت لهم السعادة في الذكر الأول، وهذا لا يخالف قول من قال: إنه الأعمال الصالحة التي قدموها، ولا قول من قال: إنه محمد ﷺ فإنه سبق لهم من الله في الذكر الأول السعادة بأعمالهم على يد محمد ﷺ فهو خير تقدم لهم من الله ثم قدمه لهم على يد رسوله ثم يقدمهم عليه يوم لقائه.

(١)**وثبت** في صحيح البخاري من حديث سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما عن النبي ﷺ أنه قال: «**إنكم محشورون حفاة عراة غرلًا ثم قرأ** ﴿**كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ**﴾ [الأنبياء: ١٠٤] وأول من يكسى يوم القيامة إبراهيم».

(٢)الفصل الرابع عشر
في الحكمة التي لأجلها يعاد بنو آدم غرلًا

لما وعد الله - سبحانه - وهو صادق الوعد الذي لا يخلف وعده، أنه يعيد الخلق كما بدأهم أول مرة، كان من صدق وعده أن يعيده على الحالة التي بدأ عليها من

(١) ١٥٦ جلاء الأفهام.
(٢) ١٢٤ تحفة المودود.

تمام أعضائه وكمالها، قال تعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَآءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٤].

وقال تعالى: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ [الأعراف: ٢٩]. وأيضًا فإن الختان إنما شرع في الدنيا لتكميل الطهارة والتنزه من البول، وأهل الجنة لا يبولون ولا يتغوطون، فليس هناك نجاسة تصيب الغرلة، فيحتاج إلى التحرز منها، والقلفة لا تمنع لذة الجماع ولا تعوقه، هذا إن قدر استمرارهم على تلك الحالة التي بعثوا عليها، وإلا فلا يلزم من كونهم يبعثون كذلك أن يستمروا على تلك الحالة التي بعثوا عليها فإنهم يبعثون حفاة عراة بهما، ثم يكسون ويمد خلقهم ويزاد فيه بعد ذلك، يزاد في خلق أهل الجنة وأهل النار، وإلا فوقت قيامهم من القبور يكونون على صورتهم التي كانوا عليها في الدنيا، وعلى صفاتهم وهيئاتهم وأحوالهم فيبعث كل عبد على ما مات عليه، ثم ينشئهم الله سبحانه كما يشاء، وهل تبقى تلك الغرلة التي كملت خلقهم في القبور أو تزول يمكن هذا وهذا ولا يعلم بخبر يجب المصير إليه، والله سبحانه وتعالى أعلم.

(١) **وقال** تعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا﴾ والسجل: الورق المكتوب فيه، والكتاب: نفسُ المكتوب، واللام بمنزلة على: أي نطوى السماء كطيّ الدَّرج على ما فيه من السطور المكتوبة، ثم استدل على النظير بالنظير فقال: ﴿كما بدأنا أول خلق نعيده﴾.

(٢) الباب الحادي عشر
في ذكر المرتبة الثانية وهي مرتبة الكتابة

وقد تقدم في أول الكتاب ما دل على ذلك من نصوص القرآن والسنة الصحيحة الصريحة فنذكر هنا بعض مالم نذكره قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ • إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥، ١٠٦]. فالزبور هنا جميع الكتب المنزلة من السماء لا تختص بزبور داود.

والذكر: أم الكتاب الذي عند الله، والأرض: الدنيا، وعباده الصالحون: أمة

---

(١) يراجع فيه الشيخ علي

(٢) ٣٩ شفاء العليل.

محمد، ﷺ، هذا أصح الأقوال في هذه الآية، وهي علم من أعلام نبوة رسول الله، ﷺ، فإنه أخبر بذلك بمكة، وأهل الأرض كلهم كفار أعداء له ولأصحابه، والمشركون قد أخرجوهم من ديارهم ومساكنهم وشتتوهم في أطراف الأرض، فأخبرهم ربهم ـ تبارك ـ وتعالى أنه كتب في الذكر الأول: أنهم يرثون الأرض من الكفار، ثم كتب ذلك في الكتب التي أنزلها على رسله.

والكتاب قد أطلق عليه الذكر في قول النبي، ﷺ، في الحديث المتفق على صحته، «**كان الله ولم يكن شيء غيره، وكان عرشه على الماء وكتب في الذكر كل شيء**» فهذا هو الذكر الذي كتب فيه أن الدنيا تصير لأمة محمد، ﷺ.

والكتب المنزلة قد أطلق عليها الزبر في قوله تعالى: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ● بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ**﴾[النحل: ٤٣ ـ ٤٤]. أي أرسلناهم بالآيات الواضحات والكتب التي فيها الهدى والنور والذكر ههنا: الكتابان اللذان أنزلا قبل رسول الله، ﷺ، وهما التوراة والأنجيل، والذكر في قوله: ﴿**وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ**﴾[النحل: ٤٤]، هو القرآن، ففي هذه الآية علمه بما كان قبل كونه وكتابته له بعد علمه، وقال تعالى: ﴿**إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ**﴾ [يس: ١٢]. . . .

(١) **وقد** اختلف الناس في الأرض المذكورة هنا فقال سعيد بن جبير عن ابن عباس هي أرض الجنة، وهذا قول أكثر المفسرين. وعن ابن عباس قول آخر: إنها الدنيا التي فتحها الله على أمة محمد، ﷺ، وهذا القول هو الصحيح. ونظيره قوله تعالى في سورة النور: ﴿**وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ**﴾[النور: ٥٥]. وفي الصحيح عن النبي، ﷺ، قال: «**زويت لي الأرض مشارقها ومغاربها وسيبلغ ملك أمتي مازوى لي منها**».

وقالت طائفة من المفسرين: المراد بذلك أرض بيت المقدس. وهي من الأرض التي أورثها الله عباده الصالحين وليست الآية مختصة بها.

---

(١) ١٣٣ الروح.

(١). . . **وأصح** القولين في قوله تعالى: ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعَالْمين﴾ [الأنبياء:١٠٧]. أنه على عمومه، وفيه على هذا التقدير وجهان:

أحدهما: أن عموم العالمين حصل لهم النفع برسالته، أما أتباعه فنالوا بها كرامة الدنيا والآخرة.

وأما أعداؤه المحاربون له فالذين عجل قتلهم وموتهم خير لهم من حياتهم، لأن حياتهم زيادة لهم في تغليظ العذاب عليهم في الدار الآخرة، وهم قد كتب عليهم الشقاء، فتعجيل موتهم خير لهم من طول أعمارهم في الكفر. **وأما** المعاهدون له فعاشوا في الدنيا تحت ظله وعهده وذمته، وهم أقل شرًّا بذلك العهد من المحاربين له.

وأما المنافقون فحصل لهم بإظهار الإيمان به حقن دمائهم وأموالهم وأهلهم واحترامها وجريان أحكام المسلمين عليهم في التوارث وغيرها؛ وأما الأمم النائية عنه، فإن الله ـ سبحانه ـ رفع برسالته العذاب العام عن أهل الأرض فأصاب كل العالمين النفع برسالته.

الوجه الثاني: أنه رحمة لكل أحد لكن المؤمنون قبلوا هذه الرحمة فانتفعوا بها دنيا وأخرى، والكفار ردوها فلم يخرج بذلك عن أن يكون رحمة لهم لكن لم يقبلوها، كما يقال: هذا دواء لهذا المرض، فإذا لم يستعمله لم يخرج عن أن يكون دواء لذلك المرض. ومما يحمد عليه ﷺ ما جبله الله عليه من مكارم الأخلاق وكرائم الشيم، فإن من نظر في أخلاقه وشيمه ﷺ علم أنها خير أخلاق فإنه ﷺ كان أعلم الخلق، وأعظمهم أمانة وأصدقهم حديثًا، وأجودهم وأسخاهم، وأشدهم احتمالا، وأعظمهم عفوا ومغفرة وكان لا يزيده شدة الجهل عليه إلا حلمًا كما روى البخاري في صحيحه عن عبدالله بن عمرو أنه قال في صفة رسول الله، ﷺ، في التوراة «محمد عبدي ورسولي، سميته المتوكل، ليس بفظ ولا غليظ ولا سخاب بالأسواق، ولا يجزى بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويغفر، ولن أقبضه حتى أقيم به الملة العوجاء، وأفتح به أعينا عميا وآذانا صما وقلوبا غلفا، حتى يقولوا لا إله إلا الله». **وأرحم** الخلق وأرأفهم بهم وأعظم الخلق نفعًا لهم في دينهم ودنياهم.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة الأنبياء

والحمد لله رب العالمين

---

(١) ٩٨ جلاء الأفهام.



بسم الله الرحمن الرحيم

(١)فائــدة

المرضع من لها ولد ترضعه، والمرضعة من ألقمت الثدى للرضيع. وعلى هذا فقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَها تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ﴾[الحج: ٢]. أبلغ من مرضع في هذا المقام.

فإن المرأة قد تذهل عن الرضيع إذا كان غير مباشر للرضاعة، فإذا التقم الثدى واشتغلت برضاعه لم تذهل عنه إلا لأمر هو أعظم عندها من اشتغالها بالرضاع.

وتأمل رحمك الله تعالى السر البديع في عدوله سبحانه عن كل حامل إلى قوله ذات حمل، فإن الحامل قد تطلق على المهيئة للحمل وعلى من هي في أول حملها وباديه، فإذا قيل: ذات حمل لم يكن إلا لمن قد ظهر حملها وصلح للوضع كاملاً أو سقطًا، كما يقال: ذات ولد. فأتى في المرضعة بالتاء التي تحقق فعل الرضاعة دون التهيؤ لها، وأتى في الحامل بالسبب الذي يحقق وجود الحمل وقبوله للوضع. والله سبحانه وتعالى أعلم.

(٢)**وقد** يكون سبب السكر غير تناول المسكر: إما ألم شديد يغيب به العقل، حتى يكون كالسكران.

وقد يكون سببَه مخوف عظيم هجم عليه وهلة واحدة حتى يغيب عقل من هجم عليه.

ومن هذا قوله تعالى: ﴿وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُم بِسُكَارَى وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللهِ شَدِيدٌ﴾[الحج: ٢].

فهم سكارى من الدهش والخوف. وليسوا بسكارى من الشراب، فسكرهم سكر خوف ودهش، لا سكر لذة وطرب.

وقد يكون سببه قوة الفرح بإدراك المحبوب، بحيث يختلط كلامه، وتتغير أفعاله، بحيث يزول عقله، ويُعَرْبِد أعظم من عَرْبدة شارب الخمر. وربما قتله سكر هذا الفرح لسبب طبيعي، وهو انبساط دم القلب وَهْلَةً واحدة انبساطًا غير معتاد ـ والدم حامل

---

(١) ٢١ بدائع جـ٤.
(٢) ٣٠٧ مدارج جـ٣.

الحار الغريزي - فيبرد القلب بسبب انبساط الدم عنه، فيحدث الموت.

ومن هذا قول سكران الفرح بَوجْد راحلته في المفازة، بعد أن استشعر الموت «اللهم أنت عبدي وأنا ربك» أخطأ من شدة فرحه.

وسكرة الفرح فوق سكرة الشراب. فصور في نفسك حال فقير معدم، عاشق للدنيا أشد العشق، ظفر بكنز عظيم، فاستولى عليه آمنًا مطمئنًا. كيف تكون سكرته؟ أو من غاب عنه غلامه بمال له عظيم مدة سنين، حتى أضرَّ به العُدْم، فقدم عليه من غير انتظار له بماله كله، وقد كسب أضعافه؟

وقد يوجبه غضب شديد، يحول بين الغضبان وبين تمييزه. بل قد يكون سُكر الغضب: أقوى من سكر الطرب. ولهذا قال النبي، ﷺ: «**لا يَقْضِ القاضي بين اثنين وهو غضبان**».

ولا يستريب من شَمَّ رائحة الفقه: أن الغضب إذا وصل بصاحبه إلى هذه الحال، فطلق: لم يقع طلاقه. وقد نص الإمام أحمد على أن «الإغلاق» الذي قال فيه النبي، ﷺ: «**لا طلاق ولا عتاق في إغلاق**» أنه الغضب. وقال أبو داود: أظنه الغضب. والشافعي سمى نذر اللَّجاج والغضب نَذْر الغَلْق. وذلك لأن الغضبان قد انغلق عليه باب القصد والتمييز بشدة غضبه. وإذا كان الإكراه غلقا فالغضب الشديد أولى أن يسمى غلقا - وكذلك السكر غلق والجنون غلق. فالغلق والإغلاق أيضًا كلمة جامعة لمن انغلق عليه باب القصد والتمييز بسبب من الأسباب. **وقد أشبعنا الكلام في هذا في كتابنا المسمى إغاثة اللهفان في طلاق الغضبان**[1].

. . [2]**قوله** تعالى: ﴿**يَا أَيُّها النَّاسُ إنْ كُنتم في رَيْب من البَعْث فإنَّا خلقْناكُم مِنْ تُراب ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَير مُخلَّقَةٍ لِنُبينَ لَكُم وَنُقِرُّ في الأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إلىٰ أَجَلٍ مُسَمَّى ثُمَّ نُخرجُكُم طِفلاً ثُمَّ لِتبلُغُوا أَشُدَّكُم وَمِنْكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنْكُم مَن يُرَدُّ إلىٰ أرْذَلِ العُمُرِ لِكيلاَ يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْم شَيْئًا**﴾[الحج: ٥].

يقول سبحانه: إن كنتم في ريب من البعث فلستم ترتابون في أنكم مخلوقون،

---

(١) الموجود رسالة صغيرة فهل هناك غيرها. (ج). (٢) ١٤٠ أعلام جـ١.

ولستم ترتابون في مبدأ خلقكم من حال إلى حال إلى حين الموت. والبعثُ الذي وعدتم به نظير النشأة الأولى، فهما نظيران في الإمكان والوقوع، فإعادتكم بعد الموت خلقًا جديدًا كالنشأة الأولى التي لا ترتابون فيها، فكيف تنكرون إحدى النشأتين مع مشاهدتكم لنظيرها؟

وقد أعاد سبحانه هذا المعنى وأبداه في كتابه بأوجز العبارات، وأدلِّها، وأفصحها، وأقطعها للعذر، وألزمها للحجة، كقوله تعالى: ﴿**أفرأيتُم مَّا تُمنُون * أأنتُم تَخْلقُونه أم نَحنُ الخَالِقُونَ * نَحنُ قَدَّرْنَا بينَكُم الموتَ وَمَا نَحْنُ بِمسْبُوقِينَ * عَلَى أن نُّبَدِّلَ أمْثَالَكُم وَنُنْشِئَكُم فِيمَا لاَ تَعْلَمُونَ * وَلَقَد عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الأُوْلَى فَلَولاَ تَذَكَّرُونَ**﴾[الواقعة: ٥٨-٦٢] فدلهم بالنشأة الأولى على الثانية، وأنهم لو تذكروا لعلموا أن لا فرق بينهما في تعلق القدرة بكل واحدة منهما.

. . .[1]**قوله** تعالى: ﴿**وَتَرَى الأرضَ هَامِدَةً فَإذَا أَنْزَلنا عَلَيْهَا المَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوجٍ بَهْيجٍ * ذَلِك بأنَّ الله هُوَ الحَق وأنَّه يُحيِى المَوتَىٰ وأنَّه عَلَىٰ كُلِّ شيءٍ قَدِيرٌ * وأنَّ السَّاعَةَ آتيةٌ لَا رَيْبَ فِيْهَا وأنَّ الله يَبْعَثُ مَن فِي القُبُورِ**﴾[الحج: ٥-٧].

وقوله تعالى: ﴿**وَمْن آياتهِ أنَّك تَرى الأرضَ خَاشِعَةً فَإذَا أنزلْنَا عَلَيهَا المَاء اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إنَّ الَّذِي أحْيَاهَا لَمحْيِي الموتىٰ إنَّه عَلَىٰ كُلِّ شيَءٍ قَدِيُرٌ**﴾[فصلت: ٣٩].

جعل الله سبحانه إحياء الأرض بعد موتها نظير إحياء الأموات، وإخراج النبات منها نظير إخراجهم من القبور، ودلَّ بالنظير على نظيره، وجعل ذلك آيةً ودليلاً على خمسة مطالب.

أحدها: وجود الصانع، وأنه الحق المبين، وذلك يستلزم إثبات صفات كماله وقدرته، وإرادته وحياته، وعلمه وحكمته، ورحمته، وأفعاله.

الثاني: أنه يحيى الموتى. **الثالث**: عموم قدرته على كل شيء.

الرابع: إتيان الساعة وأنها لا ريب فيها.

الخامس: أنه يخرج الموتى من القبور كما أخرج النبات من الأرض.

---

(١) ١٤٤ أعلام جـ١.

وقد كرر سبحانه ذكر هذا الدليل في كتابه مرارًا؛ لصحة مقدماته، ووضوح دلالته، وقرب تناوله، وبُعده من كل معارضة وشبهة، وجعله تبصرةً وذكرى كما قال تعالى: ﴿والأرضَ مَدَدْنَاهَا وأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وأَنبَتْنَا فِيْهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ * تَبْصِرَةً وَذِكرىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيْبٍ﴾[ق:٧، ٨]. فالمنيب إلى ربه يتذكر بذلك، فإذا تَذكر تبصَّرَ به، فالتذكر قبل التبصر، وإن قُدِّمَ عليه في اللفظ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الذَينَ اتَّقَوْا إذا مَسَّهُمْ طَائفُ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١].

والتذكر: تَفَعُّلُ من الذكر، وهو حضور صورةٍ من المذكور في القلب، فإذا استحضره القلب وشاهدَهُ على وَجْهه أوجَبَ له البصيرة، فأبْصَرَ مَا جعل دليلاً عليه، فكان في حقه تبصرة وذكرى، والهدى مداره على هذين الأصلين: التذكر، والتبصر.

فصل[1]

والمجوس تُعظم الأنوار، والنيران، والماء، والأرض. ويقرون بنبوة زرادشت[2] ولهم شرائع يصيرون إليها. وهم فرق شتى.

---

(١) ٢٤٧ إغاثة جـ٢.

(٢) قال المسعودي: هو زرادشت بن استيهان علي الأشهر من نسبه ـ وهو نبي المجوس الذي أتاهم بالكتاب المعروف بالزمزمة عند عوام الناس، واسمه عند المجوس: نسياه. وأتى زرادشت عندهم بالمعجزات الباهرات للعقول، وأخبر عن الكائنات من المغيبات قبل حدوثها من الكليات والجزئيات. ومعجم هذا الكتاب يدور على ستين حرفًا من أحرف المعجم. وليس في سائر اللغات أكثر حروفًا من هذا. ولهم خطب طويل. وأتى زرادشت بكتابهم هذا بلغة يعجزون عن إيراد مثلها، ولا يدركون كنه مرادها. ثم عمل له تفسيرًا عند عجزهم عن فهمه. وسموا التفسير: زندًا. ثم عمل للتفسير تفسيرًا. وسماه: بازندا. ثم عمل علماؤهم بعد وفاة زرادشت تفسيرًا لتفسير التفسير وشرحًا لسائر ماذكرنا. وسموا هذا التفسير: بارده. فلم تزل الملوك من الفرس تعمل بما في هذا الكتاب إلى عهد الأسكندر وماكان من قتله دارا بن دارا. فأحرق الأسكندر بعض هذا الكتاب، وفي عهد بهرام بن هرمز من ملوك الفرس الساسانية ـ أتاه ماني بن فديك تلميذ ماردون فعرض عليه مذاهب الثنوية فقتله، وقتل الرؤساء من أصحابه. وفي أيام ماني هذا ظهر اسم الزندقة الذي أضيف إليه اسم الزنادقة. وذلك أن الفرس حين عمل لهم زرادشت تفسير كتابهم وسماه الزند: وعمل لهذا التفسير شرحًا سماه البازند. وكان الزند بالتأويل غير المقدم المنزل، وكان من أورد في شريعتهم شيئًا بخلاف المنزل الذي هو النسياه وعدل إلى التأويل الذي هو الزند. قالوا: هذا زندي. فأضافوه إلى التأويل وأنه منحرف عن الظواهر من المنزل إلى تأويل هو بخلاف التنزيل. فلما أن جاءت العرب أخذت هذا المعنى من الفرس وقالوا زنديق. اهـ بتصرف من مروج الذهب. (ج١ ص١٩٣، ٢١٢).

منهم: المزدكية، أصحاب مزدك الموبذ(١). والموبذ عندهم: العالم القدوة. وهؤلاء يرون الاشتراك في النساء والمكاسب كما يشترك في الهواء، والطرق، وغيرها.

ومنهم الخرمية: أصحاب بابك الخرمي(٢). وهم شر طوائفهم، لا يقرون بصانع، ولا معاد، ولا نبوة، ولا حلال، ولا حرام. وعلى مذهبهم: طوائف القرامطة(٣)، والإسماعلية، والنصيرية(٤)، والبشكية، والدرزية، والحاكمية،

---

(١) هو مزدك الذي ظهر في أيام قباذ بن فيروز، والد أنوشروان. وكان ينهى الناس عن المباغضة والقتال. ولما كان أكثر ذلك إنما يقع بسبب النساء والأموال أباح كل شيء من النساء والأموال. وجعل الناس شركاء فيه كاشتراكهم في الماء والكلأ والنار. وقد قتله أنوشروان بن قباذ.

(٢) الخرمية: نسبة إلى خرمة ـ بوزن سكرة، من قرى فارس ـ وهم صنفان. صنف قبل الإسلام. وهم الذين استباحوا المحرمات. وأحلوا البنات والأمهات وهم المزدكية. والصنف الثاني بعد الإسلام. وهم فريقان: بابكية. وهم أتباع بابك الخرمي، الذي ظهر سنة اثنتين وتسعين ومائة بناحية أذربيجان: وكثر بها أتباعه، واستباحوا كل المحرمات. وقتلوا الكثير من المسلمين. وقد جهز إليه بنو العباس جيوشًا كثيرة استمرت في حروبهم عشرين سنة إلى أن كانت وقعة الأفشين معه في سنة اثنتين وعشرين ومائتين فهزمه الأفشين واستباح عسكره وهرب بابك، ثم أسروه بعد فصول طويلة. وكان بابك من أبطال زمانه وشجعانهم. عاث في الأرض فسادًا، وأخاف الإسلام وأهله وغلب على أذربيجان وغيرها. وأراد أن يقيم ملة المجوس. وظهر في أيامه مازيار القائم بالملة المجوسية بمدينة طبرستان. وهو رأس الفرقة الثانية من الخرمية. فعظم شره وكان الخليفة المعتصم مهتمًا بأمر هذين الملعونين جدًا حتى إنه جعل لمن يأتيه بكل واحد منهما حيًا ألف درهم. فلما جاء الأفشين ببابك ضجت بغداد بالتكبير فقطعت أعضاؤه الأربعة ثم قتل وعلقت رأسه وأحرق بالنار. وأما ما زيار فأسر، وأحضر بين يدي المعتصم سنة ست وعشرين ومائتين، فأمر به فضرب أربعمائة وخمسين سوطًا فمات من ساعته تحت العقوبة.

(٣) القرامطة: نسبة إلى حمدان بن الأشعث. عرف بقرمط. لأنه كان قصيراً متقارب الخطو. وكان في ابتداء أمره أكارا من أكرة سواد الكوفة. وهم طائفة من الباطنية: أظهروا أولاً التشيع، ثم دخلوا منه إلى الإلحاد والزندقة. واستباحة المحرمات كلها. وظهر أمرهم في سنة ست وثمانين ومائتين على يد أبي سعيد الحسن بن بهرام الجنابي ـ بتشديد النون، نسبة إلى قرية جنابة ـ أخذ الدعوة عن قرمط. ثم بثها فاستجاب له كثير من الأشرار وكان منهم على الإسلام والمسلمين كوائن عظيمة وشر كبير. فكم سفكوا دماء وانتهكوا حرمات. حتى حرمة البيت المشرف فإنهم دخلوا مكة في يوم التروية من سنة سبع عشرة وثلاثمائة وقتلوا حجاج بيت الله وهم محرمون يطوفون بالبيت الذي من دخله كان آمنًا. وقلعوا باب الكعبة. وعروها عن كسوتها وطرحوا القتلى في زمزم. واقتلعوا الحجر الأسود. وذهبوا به إلى القطيف وبقى عندهم حتى رده الخليفة العباسي المطيع لله الفضل بن المقتدر.

(٤) سأل الشيخ شهاب الدين أحمد بن محمد بن الشافعي شيخ الإسلام ابن تيمية رحمهما الله عن النصيرية =

وسائر العبيدية، الذين يسمون أنفسهم الفاطمية، وهم من أكفر الكفار، كما ستأتي ترجمتهم.

فكل هؤلاء يجمعهم هذا المذهب ويتفاوتون في التفصيل.

= القائلين باستحلال الخمر وتناسخ الأرواح، وقدم العالم، وإنكار البعث والنشور والجنة والنار في غير الحياة الدنيا، وبأن الصلوات الخمس عبارة عن ذكر خمسة أسماء: علي وفاطمة، وحسن وحسين ومحسن، وأن الصيام عبارة عن أسماء ثلاثين رجلاً وامرأة يعدونهم في كتبهم، وبأن إلههم علي بن أبي طالب. فهو عندهم الإمام في الأرض والإمام في السماء. فكانت الحكمة في ظهور اللاهوت بهذا الناسوت على رأيهم أن يؤنس خلقه وعبيده ليعلّمهم كيف يعرفونه ويعبدونه. وعندهم لا يصير النصيري نصيريًا حتى يخاطبه معلمه. فيحلفه على كتمان دينه، ومعرفة مشايخه وأكابر أهل مذهبه، وعلى أن لا ينصح مسلمًا ولا غيره إلا من كان على دينه، وأن يعرف ربه وإمامه بظهوره في أنواره وأدواره. فيعرف انتقال الاسم والمعنى، في كل حين وزمان. فالاسم عندهم في أول الناس آدم والمعنى شيث: والاسم يعقوب، فكان الاسم فما قدر أن يتعدى منزلته فقال: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُ رَبِّيٓ﴾ [يوسف: ٥٨] وأما يوسف، فكان المعنى المطلوب فقال: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللهُ لَكُمْ﴾ [يوسف: ٩٢] فلم يعلق الأمر بغيره لأنه علم أنه هو الإمام المتصرف. وهكذا يعدون الأنبياء والمرسلين واحدًا واحدًا على هذا النمط إلى زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقولون: محمد هو الاسم، وعلي هو المعنى ويوصلون العدد على هذا الترتيب في كل زمان إلى وقتنا. فمن حقيقة الخطاب في الدين عندهم: أن عليًا هو الرب، وأن محمدًا هو الحجاب. وأن سلمان الفارسي هو الباب. ويقولون: إن إبليس الأبالسة هو عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - ويليه في رتبة الإبليسية أبو بكر - رضي الله عنه - ثم عثمان - رضي الله عنهم وشرفهم وأعلى مراتبهم عن قول أولئك الملحدين. ولمذهبهم الفاسد شعب ترجع إلى هذه الأصول. وقد استولت هذه الطائفة الملعونة على جانب كبير من أرض الشام. وهم معروفون مشهورون بهذا المذهب. وقد أفتى شيخ الإسلام ابن تيمية في رساله له مستقلة بأن هذه الطائفة الملعونة أكفر من اليهود والنصارى والمشركين. وأن قتالهم أوجب من قتال هؤلاء. وأنهم فرع من القرامطة المجوسية الملعونة. لا يختلفون إلا في الاسم فقط، وهم ينسبون إلى أبي شعيب محمد بن نصير. وكذلك ذكر شيخ الإسلام في كثير من كتبه أن الأسماعيلية على مثل نحلة النصيرية والقرامطة، يقولون بالتناسخ وتأليه عليّ ومن بعده من أئمتهم. والاسماعيلية اليوم كثير في الهند زعيمهم المدعو أغا خان. وكذلك الدرزية الذين يسكنون في جبل الدروز من أرض الشام، وهم الذين يؤلهون الحاكم العبيدي، وكل أولئك من ذيول الدولة الملحدة الملعونة العبيدية التي قامت بالمغرب، ثم كان من قضاء الله أن ملكت مصر وغيرها من البلاد الإسلامية. وأعلنت فيها الكفر والزندقة وسب الصحابة، كما ذكر ذلك المؤرخون، كابن تغري بردي في النجوم الزاهرة. وابن كثير في البداية والنهاية. وقد ألف كثير من الأئمة والعلماء الكتب في تكفيرهم وبيان شنيع مذاهبهم كالإمام أبي بكر البلاقلاني ألف كتاب «كشف الأسرار وهتك الأستار». وذكر عنه الحافظ ابن كثير وغيره أنه قال: هم قوم يظهرون الرفض ويبطنون الكفر المحض.

فالمجوس شيوخ هؤلاء كلهم، وأئمتهم، وقدوتهم. وإن كان المجوس قد يتقيدون بأصل دينهم وشرائعهم، وهؤلاء لا يتقيدون بدين من ديانات العالم، ولا بشريعة من الشرائع.

(١)**وقال** تعالى: ﴿**فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ**﴾[الحج: ١٥]. قال بعض أهل اللغة السبب من الحبال القوى الطويل.

قال: ولا يدعى الحبل سببًا حتى يصعد به وينزل، ثم قيل لكل شيء وصلت به إلى موضع أو حاجة تريدها سبب، يقال: مابيني وبين فلان سبب، أي آصرة رحم أو عاطفة مودة.

وقد سمى تعالى وصل الناس بينهم أسبابًا وهي التي يتسببون بها إلى قضاء حوائجهم بعضهم من بعض قال تعالى: ﴿**إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِم الأَسْبَابُ**﴾ [البقرة: ١٦٦]. يعني الواصلات التي كانت بينهم في الدنيا.

وقال ابن عباس وأصحابه: يعني أسباب المودة الواصلات التي كانت بينهم في الدنيا.

وقال ابن زيد: هي الأعمال التي كانوا يؤملون أن يصلوا بها إلى ثواب الله، وقيل: هي الأرحام التي كانوا يتعاطفون بها.

وبالجملة فسمى الله سبحانه ذلك كله أسبابًا لأنها كانت يتوصل بها إلى مسبباتها. وهذا كله عند نفاة الأسباب مجاز لا حقيقة له وبالله التوفيق.

(٢)**و«الذوق»** مباشرة الحاسة الظاهرة والباطنة للملائم والمنافر. ولا يختص ذلك بحاسة الفم في لغة القرآن، بل ولا في لغة العرب. قالالله تعالى: ﴿**وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيْقِ**﴾ [الحج: ٢٢، الأنفال: ٥٠]. وقال: ﴿**فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِما كُنْتُمْ تَكْفُرونَ**﴾ [الأحقاف: ٣٤].

وقال تعالى: ﴿**هذا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وغَسَّاقٌ**﴾[ص: ٥٧].

وقال: ﴿**فَأَذَاقَها الله لِبَاسَ الجُوعِ وَالخَوفِ بِما كَانُوا يَصْنَعُونَ**﴾[النحل: ١١٢].

فتأمل كيف جمع بين الذوق واللباس، ليدل على مباشرة المذوق وإحاطته وشموله. فأفاد الإخبار عن إذاقته: أنه واقع مباشر غير منتظر؛ فإن الخوف قد

---

(١) ١٩٠ شفاء العليل.

(٢) ٨٧ مدارج جـ٣.

يتوقع ولا يباشر. وأفاد الإخبار عن لباسه: أنه محيط شامل كاللباس للبدن.

وفي الصحيح عنه ﷺ: «**ذاق طعمَ الإيمان: من رضي بالله ربا، وبالإسلام دينا. وبمحمد - ﷺ - رسولاً**».

فأخبر: أن للإيمان طعما، وأن القلب يذوقه كما يذوق الفم طعم الطعام والشراب.

وقد عبر النبي، ﷺ، عن إدراك حقيقة الإيمان، والإحسان، وحصوله للقلب ومباشرته له: بالذوق تارة، وبالطعام والشراب تارة، وبوجود الحلاوة تارة. كما قال: «**ذاق طعم الإيمان**». وقال: «**ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: من كان الله ورسوله أحب اليه مما سواهما، ومن كان يحب المرء لا يحبه إلا لله، ومن كان يكره أن يرجع في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى في النار**»...

...(1)**وقال** تعالى: ﴿**إنَّ الله يُدخلُ الَّذين آمنُوا وعملُوا الصّالحاتِ جَنَّاتٍ تَجري مِنْ تَحْتِهَا الأنهارُ يُحلَّون فيها من أساوِرَ مِن ذَهَبٍ ولُؤلُؤاً ولباسُهُم فِيْهَا حَرِيرٌ**﴾ [الحج:٢٣]. واختلفوا في جر لؤلؤ ونصبه. فمن نصبه ففيه وجهان:

أحدهما أنه عطف على موضع قوله: «من أساور».

والثاني أنه منصوب بفعل محذوف دل عليه الأول أى ويحلون لؤلؤاً.

ومن جره فهو عطف على الذهب ثم يحتمل أمرين:

أحدهما أن يكون لهم أساور من ذهب وأساور من لؤلؤ.

ويحتمل أن تكون الأساور مركبة من الأمرين معا الذهب المرصع باللؤلؤ. والله أعلم بما أراد.

قال ابن أبي الدنيا: حدثني محمد بن رزق حدثنا زيد بن الحباب قال حدثني عتبة بن سعد قاضي الرى عن جعفر بن أبي المغيرة عن شمر بن عطية عن كعب قال: «إن لله عز وجل ملكا منذ يوم خلق يصوغ حلي أهل الجنة إلى أن تقوم الساعة لو أن قلبا من حلي أهل الجنة أخرج لذهب بضوء شعاع الشمس فلا تسألوا بعد هذا عن حلى أهل الجنة».

حدثنا الحسن بن يحيى بن كثير العنبري حدثنا أبي عن أشعث عن الحسن قال: «الحلي في الجنة على الرجال أحسن منه على النساء».

(١) ١٤٣ حادي الأرواح.

حدثنا أحمد بن منيع حدثنا الحسن بن موسى حدثنا ابن لهيعة حدثنا يزيد بن أبي حبيب عن داود بن عامر بن سعد بن أبي وقاص عن أبيه عن جده عن النبي ، ﷺ ، قال : «**لو أن رجلاً من أهل الجنة اطلع فبدا سواره لطمس ضوء الشمس كما تطمس الشمس ضوء النجوم**» .

وقال ابن وهب حدثني ابن لهيعة عن عقيل بن خالد عن الحسن عن أبي هريرة قال : إن أبا أمامة حدث أن رسول الله ، ﷺ حدثهم وذكر حلى أهل الجنة فقال : «**مسورون بالذهب والفضة مكللون بالدر، عليهم أكاليل من در وياقوت متواصلة، وعليهم تاج كتاج الملوك، شباب مرد مكحلون**» .

وقد أخرجا في الصحيحين والسياق لمسلم عن أبي حازم قال : «كنت خلف أبي هريرة وهو يتوضأ للصلاة فكان يمد يده حتى يبلغ إبطه فقلت : ياأبا هريرة ماهذا الوضوء؟ فقال : يابني فروخ أنتم ههنا؟ لو علمت أنكم ههنا ماتوضأت هذا الوضوء، سمعت خليلي ﷺ يقول : «**تبلغ الحلية من المؤمن حيث يبلغ الوضوء**» .

وقد احتج بهذا من يرى استحباب غسل العضد وإطالته .

والصحيح أنه لا يستحب، وهو قول أهل المدينة . وعن أحمد روايتان .

والحديث لا يدل على الإطالة فإن الحلية إنما تكون زينة في الساعد والمعصم لا في العضد والكتف . وأما قوله : «**فمن استطاع منكم أن يطيل غرته فليفعل**» فهذه الزيادة مدرجة في الحديث من كلام أبي هريرة لا من كلام النبي ﷺ .

[1]**وأما** مكة : فإن فيها شيئًا آخر يمنع من قسمتها، ولو وجبت قسمة ماعداها من القرى وهي : أنها لاتملك، فإنها دار النُّسُك ومُتَعَبَّدُ الخلق، وحَرَمُ الرب سبحانه وتعالى، الذي جعله للناس سواءً العَاكف فيه والبَاد، فهي وقف من الله على العالمين، وهم فيه سواء، ومِنى مَناخ من سَبَقَ .

قال تعالى : ﴿**إِنَّ الَّذِيْنَ كفرُوا ويَصُدُّون عَنْ سَبِيْل اللهِ وَالْمسجدِ الحرام الَّذِي جَعَلْنَاهُ للناس سَوَآءً الْعاكِفُ فِيهِ وَالبَادِ وَمَنْ يُرِدْ فيه بإلحَادٍ بظُلْم نُذِقْهُ مِن عَذاب أَلِيمٍ**﴾[الحج : ٢٥] والمسجد الحرام هنا، المراد به : الحرم كله، لقوله تعالى : ﴿**إِنَّما الْمشركُونَ**

---

(١) ٤١٣ زاد المعاد جـ٢ .

نَجَسٌ فلا يَقْرَبُوا المَسْجِدَ الحَرامَ بَعْدَ عَامِهِم هٰذَا﴾ [التوبة: ٢٨]. فهذا المراد به: الحرم كله. وقوله سبحانه: ﴿سُبحانَ الَّذِيْ أسْرَى بعَبْده لَيْلاً من الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إلَى الْمَسْجِد الْأقْصىٰ﴾ [الإسراء: ١] وفي الصحيح «أنه أسْرَى به من بيت أم هانىء».

وقال تعالى: ﴿ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أهلهُ حَاضِرِي المسجدِ الحرام﴾ [البقرة: ١٩٦] وليس المراد به: حضور نفس موضع الصلاة اتفاقًا، وإنما هو حضور الحرم، والقرب منه، وسياق آية الحج تدل على ذلك، فإنه قال: ﴿وَمَن يُرِدْ فيه بإلْحَادٍ بظُلم نُذِقْه مِن عذابٍ أليمٍ﴾ وهذا لا يختص بمقام الصلاة قطعًا، بل المراد به: الحرم كله. فالذي جعله للناس سواءً العاكف فيه والباد: هو الذي تَوَعَّدَ من صَدَّ عنه، ومن أراد الإلحاد بالظلم فيه. فالحرم ومشاعره كالصفا والمروة والمسعى، ومِنىً وعرفة ومُزْدَلفة: لا يختص بها أحد دون أحد، بل هي مشتركة بين الناس؛ إذْ هي محل نُسُكهم ومُتَعَبَّدِهم، فهي مسجد من الله وقفه ووضعه لخلقه، ولهذا امتنع النبي ﷺ أن يُبْنَى له بيت بمنىَ يُظِلهُ من الحرّ، وقال: «مِنىَ مناخ من سبق».

ولهذا ذهب جمهور الأئمة من السلف والخلف إلى أنه لا يجوز بيع أراضي مكة، ولا إجارة بيوتها. هذا مذهب مجاهد وعطاء في أهل مكة، ومالك في أهل المدينة، وأبي حنيفة في أهل العراق، وسفيان الثوري والإمام أحمد بن حنبل وإسحاق بن راهويه. وروى الإمام أحمد عن علقمة بن نضلة قال: «كانت رَبَاعُ مكة تدْعى السَّوَائب على عهد رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر: مَنِ احتَاج سكن، ومن استغنى أسكن».

وروى أيضًا عن عبدالله بن عمر «مَنْ أكل أُجُورَ بيوت مكة فإنما يأكل في بطنه نار جهنم» رواه الدارقطني مرفوعًا إلى النبي ﷺ، وفيه «إن الله حَرَّم مكة، فحرام بيع رِبَاعِها وأكل ثمنها».

وقال الإمام أحمد: حدثنا معمر عن ليث عن عطاء وطاوس ومجاهد أنهم قالوا: «يكره أن تباع رِبَاع مكة، أو تُكْرَى بيوتها».

وذكر الإمام أحمد عن القاسم بن عبدالرحمن قال: «من أكل من كِرَاء بيوت مكة، فإنما يأكل في بطنه نارًا».

وقال أحمد: حدثنا هشيم حدثنا حجاج عن مجاهد عن عبدالله بن عمر قال: «نهى عن إجارة بيوت مكة، وعن بيع رباعها».

وذكر عن عطاء قال: «نهى عن إجارة بيوت مكة» وقال أحمد: حدثنا إسحاق بن يوسف قال: حدثنا عبدالملك قال: «كتب عمر بن عبدالعزيز إلى أمير مكة، ينهاهم عن إجارة بيوت مكة، وقال: إنه حرام».

وحكى أحمد عن عمر «أنه نهى أن يتخذ أهل مكة للدُّورِ أبوابًا، ليننزل البادي حيث شاء» وحكى عن عبدالله بن عمر عن أبيه «أنه نهى أن تُغْلَق أبوابُ دُورِ مكة، فنهى من لا باب لداره أن يتخذ لها بابًا، ومن لداره باب أن يغلقه. وهذا في أيام الموسم».

قال المجَوِّزُون للبيع والإجارة: الدليل على جواز ذلك: كتاب الله وسنة رسوله وعمل أصحابه وخلفائه الراشدين. قال الله تعالى: ﴿لِلْفُقَراءِ المهَاجِرْينَ الَّذِيْنَ أُخْرِجُوا من دِيَارِهم وأموَالِهِم﴾ [الحشر: ٨] وقال: ﴿فَالَّذيْنَ هَاجَرُوا وأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِم﴾ [آل عمران: ١٩٥] وقال: ﴿إنَّما يَنْهَاكُم الله عَن الَّذِينَ قَاتَلوكُم فِي الدِّيْنِ وَأَخْرَجُوكُم مِن دِيَارِكُم﴾ [الممتحنة: ٩] وأضاف الدُّور إليهم، وهذه إضافة تمليك. وقال النبي ﷺ - وقد قيل له: أين تنزل غدًا بدارك بمكة؟ - فقال: «وهل ترك لنا عقيلٌ من رِبَاعٍ؟» ولم يقل: إنه لا دار لي، بل أقرهم على الإضافة، وأخبر: أن عقيلاً اسْتَوْلَى عليها ولم ينزعها من يده. وإضافة دورهم إليهم في الأحاديث أكثر من أن تذكر، كدار أم هانىء، ودار خديجة، ودار أبي أحمد بن جحش وغيرها. فكانوا يتوارثونها، كما يتوارثون المنقول. ولهذا قال النبي ﷺ: «وهل ترك لنا عقيل من منزل؟» وكان عقيل بن أبي طالب هو ورث دور أبي طالب، فإنه كان كافرًا، ولم يرثه علي لاختلاف الدين بينهما، فاستولى عقيل على الدور ولم يزالوا قبل الهجرة وبعدها، بل قبل المبعث وبعده من مات ورث ورثته داره إلى الآن...

(١)**وأما تقديم الرجال على الركبان ففيه فائدة جليلة، وهي أن الله شرط في الحج الاستطاعة، ولابد من السفر إليه لغالب الناس، فذكر نوعي الحجاج لقطع توهم**

---

(١) ٦٩ بدائع جـ١.

من يظن أنه لا يجب إلا على راكب، وقدم الرجال اهتمامًا بهذا المعنى وتأكيدًا.

ومن الناس من يقول قدمهم جبرًا لهم، لأن نفوس الركبان تزدريهم وتوبخهم وتقول: إن الله لم يكتبه عليكم ولم يرده منكم، وربما توهموا أنه غير نافع لهم فبدأ بهم جبرًا لهم ورحمة اهـ.

(١)**قرن** الله سبحانه في كتابه بين الإشراك وقول الزور، وقال تعالى: ﴿**وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ حُنَفَاءَ لله غَيْرَ مُشْرِكِيْنَ بِهِ**﴾ [الحج: ٣٠، ٣١].

وفي الصحيحين أيضًا عن النبي ﷺ: «**ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟** قلنا: بلى يارسول الله، قال: **الشرك بالله، ثم عقوق الوالدين**، وكان متكئًا فجلس، ثم قال: **ألا وقَوْل الزور، ألا وقول الزور**، فما زال يكررها حتى قلنا: ليته سكت».

وفي الصحيحين عن أنس عن النبي ﷺ: «**أكبر الكبائر الإشراك بالله، وقَتْلُ النفس، وعُقُوق الوالدين، وقول الزور**».

ولا خلاف بين المسلمين أن شهادة الزور من الكبائر.

واختلف الفقهاء في الكذب في غير الشهادة: هل هو من الصغائر أو من الكبائر؟ على قولين هما روايتان عن الإمام أحمد حكاهما أبو الحسين في تمامه.

واحتج مَنْ جعله من الكبائر بأن الله سبحانه جعله في كتابه من صفات شَرِّ البرية، وهم الكفار والمنافقون، فلم يصف به إلا كافرًا أو منافقًا، وجعله عَلَم أهل النار وشِعارهم، وجعل الصدق عَلَم أهل الجنة وشعارهم.

وفي الصحيح من حديث ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «**عليكم بالصدق؛ فإنه يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، وإن الرجل ليصْدُق حتى يكتب عند الله صِدِّيقًا، وإياكم والكذب؛ فإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذابًا**».

وفي الصحيحين مرفوعًا «**آيةُ المنافِق ثلاث: إذا حَدَّث كذب، وإذا وَعَدَ أخلف، وإذا اؤتمن خان**».

وقال معمر عن أيوب عن ابن أبي مليكة عن عائشة رضي الله عنها قالت:

---

(١) ١١٩ أعلام جـ١.

«ماكان خُلُقٌ أبْغَضَ إلى الرسول ﷺ من الكذب، ولقد كان الرجل يكذب عنده الكذبة فما تزال في نفسه حتى يعلم أنه قد أحدث منها توبة».

وقال مروان الطاطري[1]: ثنا محمد بن مسلم ثنا أيوب عن ابن أبي مليكة عن عائشة قالت: «ماكان شيء أبْغَضَ إلى رسول الله ﷺ من الكذب، وماجرب على أحد كذبًا فرجع إليه ماكان حتى يعرف منه توبة» حديث حسن رواه الحاكم في المستدرك من طريق ابن وهب عن محمد بن مسلم عن أيوب عن ابن سيرين عن عائشة رضي الله عنها.

وروى عبدالرزاق عن معمر عن موسى بن أبي شيبة أن النبي ﷺ: «**أبطَلَ شهادة رجل في كذبة كذبها**» وهو مرسل، وقد احتج به أحمد في إحدى الروايتين عنه.

وقال قيس بن أبي حازم: سمعت أبا بكر الصديق رضي الله عنه يقول: «إياكم والكذب، فإن الكذب مُجَانب الإيمان» يروى موقوفًا ومرفوعًا.

وروى شعبة عن سلمة بن كهيل عن مصعب بن سعد عن أبيه قال: «المسلم يُطْبَع على كل طبيعة غير الخيانة والكذب»، ويروى مرفوعًا أيضًا.

وفي المسند والترمذي من حديث خريم بن فاتك الأسدي، أن رسول الله ﷺ؛ صَلّى صلاة الصبح، فلما انصرف قام قائمًا قال: «**عَدَلَت شهادة الزور الشرك بالله**» ثلاث مرار، ثم تلا هذه الآية: **﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأوثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَولَ الزُّوْرِ حُنَفَآءَ لِلهِ غَيْرَ مُشْرِكِيْنَ بِهِ﴾**.

وفي المسند من حديث عبدالله بن مسعود عن النبي ﷺ قال: «**بين يدي الساعة تسليم الخاصة، وفشو التجارة حتى تعين المرأة زوجها على التجارة، وقطع الأرحام، وشهادة الزور، وكتمان شهادة الحق**».

وقال الحسن بن زياد اللؤلؤي: ثنا أبوحنيف قال: كنا عند محارب بن دثار، فتقدم إليه رجلان، فادَّعَى أحدهما على الآخر مالاً، فجحده المدعَى عليه، فسأله البينة، فجاء رجل فشهد عليه، فقال المشهود عليه: لا والله الذي لا إلـهَ إلا هو

(١) مروان بن محمد بن حسان الأسدي الدمشقي الطاطري ـ بفتح الطاءين ـ وثقه أبو حاتم، وقال البخاري: مات سنة عشر ومائتين.

ماشهد عليّ بحق، وماعلمته إلا رجلاً صالحًا، غير هذه الزلة فإنه فَعَلَ هذا لحقد كان في قلبه عليّ، وكان محارب متكئًا فاستوى جالسًا ثم قال: ياذا الرجُلُ سمعتُ ابنَ عمر يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**ليأتينّ على الناس يومٌ تشيب فيه الولدان، وتَضَع الحوامل مافي بطونها، وتضرب الطير بأذنابها وتضع مافي بطونها من شدة ذلك اليوم، ولاذنب عليها، وإن شاهد الزور لايقار قدماه على الأرض حتى يُقْذَفَ به في النار**» فإن كنْتَ شهدت بحق فاتق الله وأقم على شهادتك، وإن كنت شهدت بباطل فاتق الله وغط رأسك واخرج من ذلك الباب.

(١)**قوله** تعالى: ﴿**فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ * حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ**﴾ [الحج: ٣٠، ٣١] فتأمل هذا المثل وَمطابَقتَهُ لحال ِ مَنْ أشرك بالله وتعلّق بغيره، ويجوز لَكَ في هذا التشبيه أمران:

أحدهما أن تجعله تشبيهًا مركبًا، ويكون قد شبه مَنْ أشْرَكَ بالله وعَبَدَ معه غيرَه برجل قد تسبَّب إلى هَلَاك نفسه هلاكًا لايُرْجَى معه نجاة، فصَوَّرَ حاله بصورة حال ِ مَنْ خَرَّ من السماء فاختطفته الطيرُ في الهوى فتمزَّق مِزَقًا في حواصلها، أو عَصفَتْ به الريحُ حتى هَوَتْ به في بعض المطارح البعيدة، وعلى هذا لاتنظر إلى كل فرد من أفراد المشبَّه ومقابِلِه من المشبه به.

والثاني: أن يكون من التشبيه المفرَّق، فيقابل كل واحد من أجزاء الممثَّل ِ بالمثل ِ به وعلى هذا فيكون قد شَبَّهَ الإيمانَ والتوحيدَ في عُلُوه وسَعَته وشَرَفه بالسماء التي هي مَصْعَده ومَهْبطه، فمنها هَبَطَ إلى الأرض، وإليها يصعد منها، وشبه تارك الإيمان والتوحيد بالساقط من السماء إلى أسفل سافلين من حيث التضييقِ الشديدِ والآلام المتراكمة، والطيرَ الذي تخطف أعضاءه وتمزِّقه كل ممزَّقٍ بالشياطين التي يُرْسِلُها الله سبحانه وتعالى عليه وتَؤُزُّهُ أزًا، وتزعجه وتُقْلِقُه إلى مَظَان هلاكه؛ فكل شيطان له مزعة من دينه وقلبه، كما أن لكل طير مزعةً من لحمه وأعضائه، والريح التي تهوى به في مكان سحيق هو هَوَاه الذي يحمله على إلقاء نفسه في أسفل مكانٍ وأبعده من السماء.

---

(١) ١٨٠ أعلام جـ١.

(١)**قال** الله عز وجل: ﴿وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللهِ فَهُوَ خَيرٌ لَّه عِنْدَ رَبِّه﴾ [الحج: ٣٠] قال جماعة من المفسرين «حرمات الله» هٰهنا مغاضبه، ومانهى عنه، و «تعظيمها» ترك ملابستها.

قال الليث: حرمات الله: مالا يحل انتهاكها. وقال قوم: الحرمات: هي الأمر والنهي.

وقال الزجاج: الحرمة ماوجب القيام به، وحرم التفريط فيه. وقال قوم: الحرمات هٰهنا المناسك، ومشاعر الحج زمانًا ومكانًا.

والصواب: أن «الحرمات» تعم هذا كله. وهي جمع «حرمة» وهي مايجب احترامه، وحفظه: من الحقوق، والأشخاص، والأزمنة، والأماكن. فتعظيمها: توفيتها حقها، وحفظها من الإضاعة.

(٢)**قال** الله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الْمُخْبتِينَ﴾ ثم كشف عن معناهم. فقال: ﴿الَّذِيْنَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهم وَالصَّابرِيْنَ عَلى مَاأَصَابَهُم وَالْمُقِيمي الصَّلَاة وَمما رَزَقْنَاهُم يُنْفِقُوْنَ﴾ [الحج: ٣٤، ٣٥] وقال: ﴿إِنَّ الَّذِيْنَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وأَخبتُوا إِلىٰ ربِّهِمْ أُولئكَ أصحابُ الجَنَّةِ هُمْ فِيهْا خَالِدُوْنَ﴾ [هود: ٢٣].

و«**الخَبت**» في أصل اللغة: المكان المنخفض من الأرض. وبه فسر ابن عباس رضي الله عنهما وقتادة لفظ «المخبتين» وقالا: هم المتواضعون.

وقال مجاهد: المخبت المطمئن إلى الله عز وجل. قال: والخبت: المكان المطمئن من الأرض.

وقال الأخفش: الخاشعون. وقال إبراهيم النخعي: المصلون المخلصون. وقال الكلبي: هم الرقيقة قلوبهم. وقال عمرو بن أوس: هم الذين لايظلمون، وإذا ظُلموا لم ينتصروا(٣).

وهذه الأقوال تدور على معنيين: التواضع، والسكون إلى الله عز وجل، ولذلك عُدِّي بإلى، تضمينًا لمعنى الطمأنينة، والإنابة والسكون إلى الله.

(٤)**الذبيحة** تجري مجرى العبادة، ولهذا يقرن الله سبحانه بينهما كقوله: ﴿فَصَلِّ لَربِّكَ وانْحَرْ﴾ [الكوثر: ٢] وقوله: ﴿قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾

---

(١) ٧٤ مدارج جـ٢.
(٢) ٣ مدارج جـ٢
(٣) يأتي له زيادة بحث عند قوله تعالى: ﴿فتخبت له قلوبهم﴾.
(٤) ١٥٥ أعلام جـ١.

وقال تعالى: ﴿والبدْنَ جعلْنَاهَا لَكُم مّنْ شَعَآئِر الله لَكُم فِيْهَا خيرٌ فَاذكُرُوا اسمَ الله عَلَيهَا صَوآفَّ فإذا وجَبَتْ جُنُوبُهَا فكُلُوا مِنْهَا وأطعِمُوا الْقَانِعَ والْمُعْتَرّ كذلك سَخَّرْنَاهَا لَكُم لَعَلَّكُم تَشْكُرُونَ * لَنْ يَنَال الله لُحُومُهَا وَلاَ دِمَآؤُهَا وَلَـٰكِن يَنالُه التَّقْوىٰ مِنْكُم﴾ [الحج: ٣٦، ٣٧].

فأخبر أنه إنما سخرها لمن يذكر اسمه عليها، وأنه ينالُه التقوى ـ وهو التقرب إليه بها وذكر اسمه عليها ـ فإذا لم يذكر اسمه عليها كان ممنوعًا من أكلها، وكانت مكروهة لله، فأكسبتها كراهيته لها ـ حيث لم يذكر عليها اسمه أو ذكر عليها اسمُ غيره ـ وَصْفَ الخبث فكانت بمنزلة الميتة.

وإذا كان هذا في متروك التسمية وماذكر عليه اسم غير الله فما ذَبَحه عدوُّه المشركُ به الذي هو من أخبث البرية أولى بالتحريم؛ فإن فِعْلَ الذابح وقَصْدَه وخبثه لاينكَرُ أن يؤثر في المذبوح.

كما أن خبث الناكح ووصفه وقصده يؤثر في المرأة المنكوحة، وهذه أمور إنما يصدق بها مَنْ أشرق فيه نور الشريعة وضياؤها، وباشر قلبه بشاشة حكمها ومااشتملت عليه من المصالح في القلوب والأبدان، وتلقَّاها صافيةً من مِشْكَاة النبوة، وأحكم العقد بينها وبين الأسماء والصفات التي لم يطمس نور حقائقها ظلمة التأويل والتحريف.

(١)**قال** أبوالدرداء ـ رضي الله عنه ـ: **ياحبذا نوم الأكياس وفطرهم، كيف يغبنون** به قيام الحمقى وصومهم، والذرة من صاحب تقوى أفضل من أمثال الجبال عبادة من المغترين. وهذا من جواهر الكلام وأدله على كمال فقه الصحابة، وتقدمهم على من بعدهم في كل خير، رضي الله عنهم.

فاعلم أن العبد إنما يقطع منازل السير إلى الله بقلبه وهمته، لا ببدنه. والتقوى في الحقيقة تقوى القلوب، لاتقوى الجوارح. قال تعالى: ﴿ذٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَآئِر اللهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقوى الْقُلُوب﴾ [الحج: ٣٢]، وقال: ﴿لَنْ يَّنَالَ الله لُحُومُهَا وَلاَ دِمَآؤُهَا وَلٰكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوىٰ مِنْكُم﴾ [الحج: ٣٧]، وقال النبي ﷺ: «**التقوى ههنا**»، وأشار إلى

(١) ١٤٠ فوائد.

صدره. فالكيس يقطع من المسافة بصحة العزيمة وعلو الهمة، وتجريد القصد وصحة النية مع العمل القليل، أضعاف أضعاف مايقطعه الفارغ من ذلك مع التعب الكثير والسفر الشاق؛ فإن العزيمة والمحبة تذهب المشقة وتطيب السير.

والتقدم والسبق إلى الله - سبحانه - إنما هو بالهمم وصدق الرغبة والعزيمة، فيتقدم صاحب الهمة مع سكونه صاحب العمل الكثير بمراحل، فإن ساواه في همته تقدم عليه بعمله، وهذا موضع يحتاج إلى تفصيل يوافق فيه الإسلام الإحسان.

فأكمل الهدي؛ هدي رسول الله ﷺ، وكان موفيًا كل واحد منهما حقه، فكان مع كماله وإرادته وأحواله مع الله، يقوم حتى ترم قدماه. . .

فصل(١)

فلما استقر رسول الله ﷺ بالمدينة، وأيده الله بنصره وبعباده المؤمنين الأنصار، وألَّفَ بين قلوبهم، بعد العداوة والإحَن التي كانت بينهم، فمنعته أنصار الله وكتيبة الإسلام من الأسود والأحمر، وبذلو نفوسهم دونه، وقدَّموا محبته على محبة الآباء والأبناء والأزواج، وكان أولى بهم من أنفسهم: رمتهم العرب واليهود عن قَوْس واحدة، وشمَّروا لهم عن ساق العداوة والمحاربة، وصاحوا بهم من كل جانب. والله سبحانه يأمرهم بالصبر والعفو والصفح، حتى قَويت الشَّوكة، واشتد الجناح، فأذن لهم حينئذ في القتال، ولم يفرضه عليهم، فقال تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِيْنَ يُقاتَلُونَ بِأَنَّهُم ظُلِمُوا وَإِنَّ الله عَلَىٰ نَصرِهِم لَقَدِيْرٌ﴾ [الحج: ٣٩] وقد قالت طائفة: إن هذا الإذن كان بمكة، والسورة مكية. وهذا غلط لوجوه.

أحدها: أن الله لم يأذن بمكة لهم في القتال ولا كان لهم شَوْكة يتمكنُون بها من القتال بمكة.

الثاني: أن سياق الآية يدل على أن الإذن بعد الهجرة، وإخراجهم من ديارهم، فإنه قال: ﴿الَّذِيْنَ أخرِجُوا مِنْ دِيارِهِمْ بِغَيْرِ حِقّ إلاّ أنْ يَّقُولُوا رَبُّنَا الله﴾ [الحج: ٤٠] وهؤلاء هم المهاجرون.

الثالث: قوله تعالى: ﴿هٰذانِ خَصْمانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ﴾ [الحج: ١٩] نزلت في

---

(١) ١٥٠ زاد المعاد جـ٢.

الذين تبارزوا يوم بدر من الفريقين.

الرابع: أنه قد خاطبهم في آخرها بقوله: ﴿**يا أيها الذين آمنوا**﴾ والخطاب بذلك كله مدني. فأما الخطاب: «يا أيها الناس» فمشترك.

الخامس: أنه أمر فيها بالجهاد الذي يعم الجهاد باليد وغيره. ولا ريب أن الأمر بالجهاد إنما كان بعد الهجرة. فأما جهاد الحجَّة: فأمر به في مكة، بقوله: ﴿**فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِيْنَ وَجَاهِدْهُمْ** به ـ أي: بالقرآن ـ **جِهَادًا كَبِيْرًا**﴾ [الفرقان: ٥٢] فهذه سورة مكية، والجهاد فيها هو التبليغ، وجهاد الحجة. وأما الجهاد المأمور به في سورة الحج: فيدخل فيه الجهاد بالسيف.

السادس: أن الحاكم روى في مستدركه من حديث الأعمش عن مسلم البَطين عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: «لما خرج رسول الله ﷺ من مكة قال أبوبكر: أخرجوا نبيهم؟ إنا لله وإنا إليه راجعون. لَيَهْلِكُن، فأنزل الله عز وجل: ﴿**أُذِنَ لِلَّذِيْنَ يُقَاتَلُونْ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوْا**﴾ وهي أول آية نزلت في القتال» وإسناده على شرط الصحيحين. وسياق السورة يدل على أن فيها المكي والمدني؛ فإن قصة إلقاء الشيطان في أُمْنِيَّة الرسول مكية. والله أعلم.

فصل

ثم فرض عليهم القتال بعد ذلك لمن قاتلهم، دون من لم يقاتلهم، فقال: ﴿**وَقَاتِلُوا فِيْ سَبِيْلِ اللهِ الَّذِيْنَ يُقَاتِلُونَكُمْ**﴾ [البقرة: ١٩٠].

ثم فرض عليهم قتال المشركين كافة، وكان محرمًا، ثم مأذونًا به، ثم مأمورًا به لمن بدأهم بالقتال، ثم مأمورًا به لجميع المشركين إما فرض عين ـ على أحد القولين ـ أو فرض كفاية ـ على المشهور.

والتحقيق: أن جنس الجهاد فرض عين: إما بالقلب، وإما باللسان، وإما بالمال، وإما باليد، فعلى كل مسلم أن يجاهد بنوع من هذه الأنواع.

أما الجهاد بالنفس: ففرض كفاية. وأما الجهاد بالمال: ففي وجوبه قولان. والصحيح: وجوبه؛ لأن الأمر بالجهاد به وبالنفس في القرآن سواء، كما قال تعالى:

﴿انْفِرُوا خِفَافًا وثِقَالاً وجَاهِدُوا بأموالِكُم وأنفُسِكُم فِي سَبِيْلِ اللهِ ذلكُم خيرٌ لَّكُم إنْ كُنْتُم تَعلَمُونَ﴾ [التوبة: ٤١].

وعلق النجاة من العذاب الأليم ومغفرة الذنب، ودخول الجنة به. فقال: ﴿يَاأيُّها الَّذيْنَ آمنُوا هَلْ أدلُّكُمْ عَلى تِجَارةٍ تُنْجِيْكُم مِن عَذابٍ أليم * تؤمِنُوْنَ باللهِ وَرَسُولِه وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ بأَمْوَالِكُم وأنفُسِكُم ذٰلِكُم خَيْرٌ لَكُم إن كُنتُم تَعْلَمُونَ * يَغْفِرْ لَكُم ذُنُوبَكُم وَيُدخِلْكُم جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تحتِها الأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذٰلِكَ الْفَوزُ العظِيْمُ﴾ [الصف: ١٠-١٢].

وأخبر أنهم إن فعلوا ذلك أعطاهم مايحبون من النصر والفتح القريب. فقال: ﴿وأخرى تُحِبُّونها﴾ - أي: ولكم خصلة أخرى تحبونها في الجهاد، وهي - ﴿نَصْرٌ مِّنَ اللهِ وَفَتْحٌ قَرِيْبٌ﴾ [الصف: ١٣].

وأخبر سبحانه أنه ﴿اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم﴾ [التوبة: ١١١] وأعاضهم عليه الجنة، وأن هذا العقد والوعد قد أودعه أفضل كتبه المنزلة من السماء، وهي: التوراة والإنجيل والقرآن. ثم أكَّد ذلك بإعلامهم أنه لاأحد أوفى بعهده منه تبارك وتعالى. ثم أكدَّ ذلك بأن أمرهم بأن يستبشِروا ببيعهم الذي عاقدهم عليه. ثم أعلمهم أن ذلك هو الفور العظيم.

فليتأمل العاقد مع ربه عَقْد هذا التبايع، ماأعظم خطره وأجلَّه، فإن الله عز وجل هو المشتري، والثمن جناتُ النعيم، والفوزُ برضاه، والتمتع برؤيته هناك والذي يجرى على يده هذا العقد: أشرف رسله، وأكرمهم عليه من الملائكة والبشر، وأن سِلْعَةً هذا شأنُها لقد هيُئت لأمر عظيم، وخطب جسيم.

قد هَّيؤوك لأمـر لو فَطِنْتَ له		فاربأْ بنفسك أن تَرعَى مع الهَمَل

مهر المحبة والجنة: بذل النفس والمال لمالكهما، الذي اشتراهما من المؤمنين. فما للجبان المعرض المفلِس وسَوْم هذه السلعة؟ بالله ماهَزُلت فيَسْتامَها المفلسون، ولاكَسَدت فيبيعها بالنسيئة المعسرون، لقد اقيمت للعرض في سوق من يريد، فلم يرض ربُّها لها بثمن دون بذل النفوس، فتأخَّر البطالون، وقام المحبون ينتظرون أيُّهم يصلح أن يكون نفسُه الثمن، فدارت السلعة بينهم، ووقعت في يد ﴿أذلةٍ عَلى المُؤمِنِينَ أعِزّةٍ عَلى الْكَافِرِيْنَ﴾ [المائدة: ٥٤]. . . .

(١)**قال** تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللهِ كَثِيرًا﴾ [الحج: ٤٠].

قال الزجَّاج: «تأويل هذا: لولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدم ـ في كل شريعة نبي ـ المكانُ الذي يصلي فيه، فلولا الدفع لهدم في زمن موسى الكنائس التي كان يصلي فيها في شريعته، وفي زمن عيسى الصوامع والبيع، وفي زمن محمد المساجد».

وقال الأزهري: «أخبر الله سبحانه أنه لولا دفعُه بعضَ الناس عن الفساد ببعضهم لهدمت متعبَّدات كل فريق من أهل دينه وطاعته في كل زمان، فبدأ بذكر الصوامع والبيع لأن صلوات من تقدم من أنبياء بني إسرائيل وأصحابهم كانت فيها قبل نزول القرآن؛ وأُخِّرت المساجد لأنها حدثت بعدهم» وقال ابن زيد: «الصلوات صلوات أهل الإسلام تنقطع إذا دخل عليهم العدو». قال الأخفش: «وعلى هذا القول، الصلوات لاتُهدم، ولكن تحل محل فعل آخر، كأنه قال: تركت صلوات».

وقال أبوعبيدة «إنما يعني مواضع الصلوات».

وقال الحسن: «يدفع عن مصلّيَات أهل الذمة بالمؤمنين». وعلى هذا القول لا يحتاج إلى التقدير الذي قدره أصحاب القول الأول؛ وهذا ظاهر اللفظ، ولا إشكال فيه بوجه: فإن الآية دلت على الواقع، لم تدل على كون هذه الأمكنة ـ غير المساجد ـ محبوبةً مرضيةً له، لكنه أخبر أنه لولا دفعه الناس بعضهم ببعض لهدمت هذه الأمكنة التي كانت محبوبة له قبل الإسلام وأقرَّ منها ماأقرَّ بعده وإن كانت مسخوطة له، كما أقرّ أهل الذمة وإن كان يبغضهم ويمقتهم، ويدفع عنهم بالمسلمين مع بغضه لهم. وهكذا يدفع عن مواضع متعبداتهم بالمسلمين وإن كان يبغضها، وهو سبحانه يدفع عن متعبداتهم التي أقروا عليها شرعًا وقدرًا: فهو يحبّ الدفع عنها وإن كان يبغضها كما يحب الدفع عن أربابها وإن كان يبغضهم.

وهذا القول هو الراجح إن شاء الله تعالى، وهو مذهب ابن عباس في الآية.

قال ابن أبي حاتم في تفسيره: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا عبيد الله ـ هو ابن

---

(١) ٦٦٦ أحكام أهل الذمة جـ٢.

موسى - عن إسرائيل، عن السدي، عمّن حدثه عن ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿لهدمت صوامعُ وبِيَع﴾ قال: الصوامع التي يكون فيها الرهبان، والبيع مساجد اليهود، و[الـ] صلوات كنائس النصارى، والمساجد مساجد المسلمين.

قال ابن أبي حاتم: وأخبرنا الأشج، ثنا حفص بن غياث، عن داود، عن أبي العالية قال: ﴿لهدِّمَتْ صَوَامعُ﴾ قال: صوامع وإن كان يشرك به! وفي لفظ: إن الله يحب أن يذكر ولو من كافر! وفي تفسير شيبان عن قتادة: الصوامع للصابئين، والبيع للنصارى، والصلوات لليهود، والمساجد للمسلمين...

(1)**فصل** وههنا عدة أمور عاقب بها الكفار بمنعهم عن الإيمان وهي الختم، والطبع، والأكنة، والغطاء، والغلاف، والحجاب، والوقر، والغشاوة، والران، والغل، والسد، والقفل، والصمم، والبكم، والعمى، والصد، والصرف، والشد على القلب، والضلال، والإغفال، والمرض، وتقليب الأفئدة، والحول بين المرء وقلبه، وإزاغة القلوب، والخذلان، والإركاس، والتثبيط، والتزيين، وعدم إرادة هداهم وتطهيرهم، وإماتة قلوبهم بعد خلق الحياة فيها فتبقى على الموت الأصلي، وإمساك النور عنها فتبقى في الظلمة الأصلية، وجعل القلب قاسيًا لاينطبع فيه مثال الهدى وصورته، وجعل الصدر ضيقًا حرجًا لا يقبل الإيمان.

وهذه الأمور منها مايرجع إلى القلب كالختم والطبع، والقفل والأكنة، والإغفال والمرض ونحوها.

ومنها مايرجع إلى رسوله الموصل إليه الهدى كالصمم والوقر.

ومنها مايرجع إلى طليعته ورائده كالعمى والغشاء.

ومنها مايرجع إلى ترجمانه ورسوله المبلغ عنه كالبكم النطقي وهو نتيجة البكم القلبي، فإذا بكم القلب بكم اللسان.

ولاتصغ إلى قول من يقول إن هذه مجازات واستعارات فإنه قال: بحسب مبلغه من العلم والفهم عن الله ورسوله. وكأن هذا القائل حقيقة القفل عنده أن يكون

---

(١) ٩٢ شفاء العليل.

من حديد، والختم أن يكون بشمع أو طين، والمرض أن يكون حمى بنافض، أو قولنـج أو غيرهما من أمراض البدن، والموت هو مفارقة الروح للبدن ليس إلا، والعمى ذهاب ضوء العين الذي تبصر به.

وهذه الفرقة من أغلظ الناس حجابًا؛ فإن هذه الأمور إذا أضيفت إلى محلها كانت بحسب تلك المحال، فنسبة قفل القلب إلى القلب كنسبة قفل الباب إليه، وكذلك الختم والطابع الذي عليه هو بالنسبة إليه كالختم والطابع الذي على الباب والصنـدوق ونحوهما، وكذلك نسبة الصمم والعمى إلى الأذن والعين، وكذلك موته وحياته نظير موت البدن وحياته، بل هذه الأمور ألزم للقلب منها للبدن. فلو قيل إنها حقيقة في ذلك مجاز في الأجسام المحسوسة لكان مثل قول هؤلاء وأقوى منه وكلاهما باطل، فالعمى في الحقيقة والبكم والموت والقفل للقلب.

ثم قـال تعـالى: ﴿فَـإِنَّهـا لَاتَعْمَى الْأَبْصَـارُ وَلَكِنْ تَعْمَـى الْقُلُوبُ الَّتِيْ فِي الصُّدُوْرِ﴾ [الحج: ٤٦].

والمعنى أنه معظم العمى وأصله. وهذا كقوله ﷺ: «**إنما الربا في النسيئة**». وقوله: «**إنما الماء من الماء**» وقوله: «**ليس الغنى عن كثرة العرض إنما الغنى غنى النفس**». وقوله: «**ليس المسكين الذي ترده اللقمة واللقمتان والتمرة والتمرتان إنما المسكين الذي لا يجد مايغنيه ولايفطن له فيتصدق عليه**». وقوله: «**ليس الشديد بالصرعة إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب**».

ولم يرد نفي الاسم عن هذه المسميات، إنما أراد أن هؤلاء أولى بهذه الأسماء وأحق ممن يسمونه بها، فهكذا قوله: **لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور**﴾ وقريب من هذا قوله: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوْهَكُم قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمغـرِبِ وَلكِنَّ الْـبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَـوْمِ الآخِـرِ﴾ [البقرة: ١٧٧] الآية، وعلى التقديرين فقد أثبت للقلب عمى حقيقة، وهكذا جميع مانسْب إليه.

ولما كان القلب ملك الأعضاء وهي جنوده وهو الذي يحركها ويستعملها، والإرادة والقوى والحركة الاختيارية تنبعث كانت هذه الأمثال أصلًا وللأعضاء تبعًا.

فلنذكر هذه الأمور مفصلة ومواقعها في القرآن فقد تقدم الختم قال الأزهري: وأصله التغطية وختم البذر في الأرض إذا غطاه.

قال أبو إسحاق معنى: ختم وطبع في اللغة واحد، وهو التغطية على الشيء والاستيثاق منه فلا يدخله شيء كما قال تعالى: ﴿**أم على قلوب أقفالها**﴾ وكذلك قوله: ﴿**طبع الله على قلوبهم**﴾. قلت الختم والطبع يشتركان فيما ذكر ويفترقان في معنى آخر وهو أن الطبع ختم يصير سجية وطبيعة فهو تأثير لازم لا يفارق(١).

(٢)**وأما** معاينة القلب: فهي انكشاف صورة المعلوم له، بحيث تكون نسبته إلى القلب كنسبة المرئي إلى العين.

وقد جعل الله سبحانه القلب يبصر ويعمى كما تبصر العين وكما تعمى.

قال تعالى: ﴿**فَإِنَّهَا لاتَعْمَى الأَبصَارُ وَلَٰكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِيْ فِي الصُّدُورِ**﴾ [الحج: ٤٦] فالقلب يرى ويسمع، ويعمى ويصم. وعماه وصممه أبلغ من عمى البصر وصممه.

وأما مايثبته متأخرو القوم من هذا القسم الثالث ـ وهو رؤية الروح، وسمعها وإرادتها، وأحكامها، التي هي أخص من أحكام القلب ـ فهؤلاء اعتقادهم أن الروح غير النفس والقلب.

ولاريب أن هٰهنا أمورًا معلومة، وهي: البدن، وروحه القائم به، والقلب المشاهَد فيه، وفي سائر الحيوان، والغريزة. وهي القوة العاقلة التي محلها القلب. ونسبتها إلى القلب كنسبة القوة الباصرة إلى العين، والقوة السامعة إلى الأذن. ولهذا تسمى تلك القوة قلبًا، كما تسمى القوة الباصرة بصرًا. قال تعالى: ﴿**إِنَّ فِيْ ذٰلِكَ لَذِكرىٰ لِمَن كَانَ لَه قَلْبٌ**﴾ [ق: ٣٧] ولم يُرد شكل القلب؛ فإنه لكل أحد، وإنما أراد: القوة والغريزة المودعة فيه.

والروح: هي الحاملة للبدن، ولهذه القوى كلها. فلا قوام للبدن ولا لقواه إلا بها. ولها ـ باعتبار إضافتها إلى كل محل ـ حكم واسم يخصها هناك. فإذا أضيفت إلى محل البصر سميت بصرًا، وكان لها حكم يخصها هناك. وإذا أضيفت إلى محل السمع سميت سمعًا، وكان لها حكم يخصها هناك. وإذا أضيفت إلى محل العقل ـ وهو

---

(١) بقية البحث ذكر عقوبة الله لمن صد عن سبيله وذكرها الشيخ مجموعة هنا وقد حاولنا توزيعها في محالها من القرآن حسب الاجتهاد إلا أن الباحث لايستغني عن مراجعتها في الأصل (ج).

(٢) ٢٤٦ مدارج جـ٣.

القلب ـ سميت قلبًا. ولها حكم يخصها هناك، هي في ذلك كله روح.

فالقوة الباصرة والعاقلة والسامعة والناطقة: روح باصرة وسامعة وعاقلة وناطقة. فهي في الحقيقة هذا العاقل، الفاهم المدرك، المحب العارف، المحرك للبدن، الذي هو محل الخطاب والأمر والنهي ـ هو شيء واحد له صفات متعددة بحسب متعلقاته. فإنه يسمى نفسًا مطمئنة، ونفسًا لوامة، ونفسًا أمّارة. وليس هو ثلاثة أنفس بالذات والحقيقة، ولكن هو نفسٌ واحدة لها صفات متعددة.

فصل(١)

والله سبحانه وتعالى يغار على قلب عبده أن يكون مُعَطَّلاً من حبه وخوفه ورجائه وأن يكون فيه غيرهُ. فالله سبحانه وتعالى خلقه لنفسه واختاره من بين خلقه. كما في الأثر الإلهي: «**ابنَ آدم خلقتك لنفسي وخلقت كلَّ شيءٍ لك، فبحقي عليك لا تشتغل بما خلقته لك عن ماخلقتُك له**».

وفي أثر آخر: «**خلقتك لنفسي فلا تلعب، وتكفلّت لك برزقك فلا تتعب. يا ابن آدم اطلبني تجدني، فإن وجدتني وجدت كل شيء، وإن فُتُّكَ فاتك كلّ شيء، وأنا خيرٌ لك من كل شيء**».

ويغار عَلَى لسانه أن يتعطّل من ذكره ويشتغل بذكر غيره.

ويغار عَلَى جوارحه أن تتعطل من طاعته وتشتغل بمعصيته، فيقبُح بالعبد أن يغار مولاه الحقُّ عَلَى قلبه ولسانه وجوارحه وهو لا يغار عليها.

وإذا أراد الله بعبده خيرًا سلّط عَلَى قلبه إذا أعرض عنه واشتغل بحبّ غيره أنواعَ العذاب حتى يرجع قلبه إليه.

وإذا اشتغلت جوارحه بغير طاعته ابتلاها بأنواع البلآء. وهذا من غيرته سبحانه وتعالى عَلَى عبده.

وكما أنه سبحانه وتعالى يغار عَلَى عبده المؤمن فهو يغار له ولحُرمته، فلا يُمَكّن المفسدَ أن يتوصلّ إلى حُرمته غيرةً منه لعبده، فإنه سبحانه وتعالى يدفع عن الذين آمنوا، فيدفع عن قلوبهم وجوارحهم وأهلهم وحريمهم وأموالهم، يتولى سبحانه الدفع عن ذلك كله غيرة منه لهم كما غاروا لمحارمه من نفوسهم ومن غيرهم. والله

---

(١) ٣٢٦ روضة المحبين.

تعالى يغار عَلَى إمائه وعَبيده من المفسدين شرعًا وقَدَرًا.

ومن أجل ذلك حرَّم الفواحش وشرع عليها أعظَمَ العقوبات وأشنعَ القَتَلات لشدة غيرته عَلَى إمائه وعبيده. فإن عُطِّلت هذه العقوباتُ شرعًا أَجراها سبحانه قَدَرًا.

فصل[1]

فاستحضر بعض العقوبات التي رتبها الله سبحانه وتعالى على الذنوب، وجوز وصولها إليك، واجعل ذلك داعيًا للنفس إلى هجرانها. وأنا أسوق إليك منها طرفًا يكفي العاقل مع التصديق ببعضه.

فمنها الختم على القلوب والأسماع، والغشاوة على الأبصار، والأقفال على القلوب، وجعل الأكنة[2] عليها، والرين عليها، والطبع عليها، وتقليب الأفئدة والأبصار، والحيلولة بين المرء وقلبه، وإغفال القلب عن ذكر الرب، وإنساء العبد نفسه، وترك إرادة الله تطهير القلب، وجعل الصدر ضيقًا حرجًا كأنما يصعد[3] في السماء، وصرف القلوب عن الحق، وزيادتها مرضًا على مرضها، وإركاسها وإنكاسها، بحيث تبقى منكوسة.

كما ذكر الإمام أحمد عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه أنه قال: «القلوب أربعة: فقلب أجرد فيه سراج يزهر[4]، فذلك قلب المؤمن، وقلب أغلف[5]، فذلك قلب الكافر. وقلب منكوس، فذلك قلب المنافق. وقلب تمده مادتان مادة إيمان ومادة نفاق وهو لما غلب عليه منهما».

ومنها التثبيط عن الطاعة والابتعاد عنها.

ومنها جعل القلب أصم لا يسمع الحق، أبكم لا ينطق به، أعمى لا يراه، فتصير النسبة بين القلب وبين الحق الذي لا ينفعه غيره كالنسبة بين أذن الأصم والأصوات، وعين الأعمى والألوان، ولسان الأخرس والكلام. وبهذا يعلم أن الصمم والبكم والعمى للقلب بالذات والحقيقة، وللجوارح بالفرض والتبعية ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾[الحج: ٤٦]،

---

(١) ١٥٨ الجواب الكافي. (٢) الأكنة الأغطية. (٣) يصعد بتشديد الصاد والعين.

(٤) أي ليس فيه غل ولا غش فهو على أصل الفطرة فنور الإيمان فيه يزهر. (٥) أي مغشي مغطى.

وليس المراد نفى العمى الحسي عن البصر، كيف وَقد قال تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الأَعْمَىٰ حَرَجٌ﴾[الفتح:١٧]، وقال: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى * أَنْ جَاءَهُ الأَعْمَىٰ﴾[عبس:١،٢]، وإنما المراد أن العمى التام علي الحقيقة عمى القلب، حتى إن عمى البصر بالنسبة اليه كلا عمى، حتى يصح نفيه بالنسبة إلى كماله وقوته كما قال النبي ﷺ «**ليس الشديد بالصرعة**[1] **ولكنه الذي يملك نفسه عند الغضب**» وقوله ﷺ: «**ليس المسكين بالطواف الذي ترده اللقمة واللقمتان، ولكن المسكين الذي لا يسأل الناس ولا يفطن له فيتصدق عليه**» ونظائره كثيرة.

والمقصود أن من عقوبات المعاصي جعل القلب أعمى أصم أبكم.

ومنها الخسف بالقلب كما يخسف بالمكان وما فيه فيخسف به إلى أسفل سافلين وصاحبه لا يشعر.

وعلامة الخسف به أنه لا يزال جوالا حول السفليات والقاذورات والرذائل، كما أن القلب الذي رفعه الله وقربه اليه لايزال جوالا حول البر والخير.

فصل[2]

قوله ﴿لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ﴾[الحج:٥٣]. فهي على بابها وهي لام الحكمة والتعليل.

أخبر الله سبحانه أنه جعل ما ألقاه الشيطان في أمنية الرسول محنة واختبارًا لعباده فافتتن به فريقان، وهم الذين في قلوبهم مرض، والقاسية قلوبهم، وعلم المؤمنون أن القرآن والرسول حق، وأن القاء الشيطان باطل فآمنوا بذلك وأخبتت له قلوبهم. فهذه غاية مطلوبة مقصودة بهذا القضاء والقدر.

والله سبحانه جعل القلوب على ثلاثة أقسام، مريضة وقاسية، ومخبتة، وذلك لأنها إما أن تكون يابسة جامدة لا تلين للحق اعترافًا وإذعـانًا، أو لاتكون كذلك.

فالأول حال القلوب القاسية الحجرية التي لا تقبل ما يبث فيها، ولا ينطبع فيها الحق، ولا ترتسم فيها العلوم النافعة، ولا تلين لإعطاء الأعمال الصالحة.

وأما النوع الثاني فلا يخلو إما أن يكون الحق ثابتًا فيه لا يزول عنه لقوته مع

---

(١) بضم الصاد وفتح الراء المبالغ في الصراع الذي لايغلب.

(٢) ١٩٢ شفاء العليل.

لينه، أو يكون ثابتًا مع ضعف وانحلال. والثاني هو القلب المريض، والأول هو الصحيح المخبت وهو الذي(١) جمع الصلابة والصفاء واللين، فيبصر الحق بصفائه، ويشتد فيه بصلابته، ويرحم الخلق بلينه.

كما في أثر مروى: «القلوب آنية الله في أرضه فأحبها إلى الله أصلبها وأرقها وأصفاها». كما قال تعالى في أصحاب هذه القلوب ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾[الفتح: ٢٩].

فهذا وصف منه للمؤمنين الذين عرفوا الإيمان بصفاء قلوبهم، واشتدوا على الكفار بصلابتها، وتراحموا فيما بينهم بلينها.

وذلك أن القلب عضو من أعضاء البدن، وهو أشرف أعضائه وملكها المطاع، وكل عضو، كاليد مثلاً ـ إما أن تكون جامدة ويابسة لا تلتوي ولا تبطش، أو تبطش بضعف، فذلك مثل القلب القاسي.

أو تكون مريضة ضعيفة عاجزة ولضعفها ومرضها فذلك مثل الذي فيه مرض.

أو تكون باطشة بقوة ولين فذلك مثل القلب العليم الرحيم.

فبالعلم خرج عن المرض الذي ينشأ من الشهوة والشبهة؛ وبالرحمة خرج عن القسوة. ولهذا وصف سبحانه من عدا أصحاب القلوب المريضة والقاسية بالعلم والإيمان والإخبات.

فتأمل ظهور حكمته سبحانه في أصحاب هذه القلوب وهم كل الأمة.

فأخبر أن الذين أوتوا العلم علموا أنه الحق من ربهم، كما أخبر أنهم في المتشابه يقولون: «آمنا به كل من عند ربنا» وكلا الوصفين موضع شبهة فكان حظهم منه الإيمان وحظ أرباب القلوب المنحرفة عن الصحة الافتتان.

ولهذا جعل سبحانه إحكام آياته في مقابلة ما يلقى الشيطان بإزاء الآيات المحكمات في مقابلة المتشابهات، فالإحكام ههنا بمنزلة إنزال المحكمات هناك، ونسخ ما يلقي الشيطان ههنا في مقابلة رد المتشابه إلى المحكم هناك.

والنسخ ههنا رفع ماألقاه الشيطان لا رفع ماشرعه الرب سبحانه.

وللنسخ معنى آخر وهو النسخ من أفهام المخاطبين مافهموه مما لم يرده ولا دل

---

(١) في المطبوعة (وهو جمع) والصواب ماأثبتناه (ج).

اللفظ عليه وإن أوهمه، كما أطلق الصحابة النسخ على قوله: ﴿وَإِنْ تُبْدُوا مَافِي أَنْفسكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَآءُ﴾ [البقرة: ٢٨٤] قالوا نسختها قوله: ﴿رَبَّنَا لَاتُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦] الآية فهذا نسخ من الفهم لانسخ للحكم الثابت فإن المحاسبة لاتستلزم العقاب في الآخرة ولا في الدنيا أيضًا، ولهذا عمهم بالمحاسبة.

ثم أخبر بعدها أنه يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء. ففهم المؤاخذة التي هي المعاقبة من الآية، تحميل لها فوق وسعها، فرفع هذا المعنى من فهمه بقوله: ﴿**ربنا لاتؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا**﴾ إلى آخرها، فهذا رفع لفهم غير المراد من إلقاء الملك، وذاك رفع لما ألقاه غير الملك في أسماعهم أو في التمني.

وللنسخ معنى ثالث عند الصحابة والتابعين وهو ترك الظاهر: إما بتخصيص عام، أو بتقييد مطلق وهذا كثير في كلامهم جدًّا.

وله معنى رابع وهو الذي يعرفه المتأخرون وعليه اصطلحوا وهو رفع الحكم بجملته بعد ثبوته بدليل رافع له فهذه أربعة معان للنسخ.

والإحكام له ثلاثة معان، أحدها: الإحكام الذي في مقابلة المتشابه كقوله: ﴿مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾ [آل عمران: ٧].

والثاني: الإحكام في مقابلة نسخ مايلقى الشيطان كقوله ﴿**فينسخ الله مايلقى الشيطان ثم يحكم الله آياته**﴾ وهذا الإحكام يعم جميع آياته، وهو إثباتها وتقريرها وبيانها ومنه قوله: ﴿**كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُه**﴾[هود: ١].

الثالث: إحكام في مقابلة الآيات المنسوخة كما يقول السلف كثيرًا هذه الآية محكمة غير منسوخة.

وذلك لأن الإحكام تارة يكون في التنزيل، فيكون في مقابلة مايلقيه الشيطان في أمنيته مايلقيه المبلغ أو في سمع المبلغ. فالحكم هنا هو المنزل من عند الله أحكمه الله أي فصله من اشتباهه بغير المنزل، وفصل منه ماليس منه بإبطاله.

وتارة يكون في إبقاء المنزل واستمراره فلا ينسخ بعد ثبوته.

وتارة يكون في معنى المنزل وتأويله، وهو تمييز المعنى المقصود من غيره حتى لايشتبه به.

والمقصود أن قوله: ﴿ليجعل مايلقى الشيطان فتنة للذين في قلوبهم مرض﴾ هي لام التعليل على بابها. وهذا الاختبار والامتحان مظهر لمختلف القلوب الثلاثة، فالقاسية والمريضة ظهر خبؤها من الشك والكفر، والمخبتة ظهر خبؤها من الإيمان والهدى، وزيادة محبته، وزيادة بغض الكفر والشرك والنفرة عنه. وهذا من أعظم حكمة هذا الإلقاء.

(١)**وفي** المسند وغيره عن النبي ﷺ **«القلوب آنية الله في أرضه فأحبها إليه أصلبها وأرقها وأصفاها»**.

وقد ذكر سبحانه أنواع القلوب في قوله: ﴿لِيجعَلَ مَايُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِيْنَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَّالْقَاسِيَةِ قُلُوْبُهُم وإِنَّ الظَّالِمِيْنَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيْدٍ * وَلِيَعْلَمَ الَّذِيْنَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيؤمنوا به فتخبت له قلوبهم﴾ [الحج: ٥٣، ٥٤] فذكر القلب المريض وهو الضعيف المنحل الذي لاتثبت فيه صورة الحق، والقلب القاسي اليابس الذي لايقبلها ولاتنطبع فيه. فهذان القلبان شقيان معذبان.

ثم ذكر القلب المخبت المطمئن إليه، وهو الذي ينتفع بالقرآن ويزكو به.

قال الكلبي: ﴿فتخبت له قلوبهم﴾ فترقّ للقرآن قلوبهم.

وقد بين سبحانه حقيقة الإخبات ووصف المخبتين في قوله: ﴿وَبَشِّرِ الْمُخبِتِيْنَ* الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلوبُهُم وَالصَّابِرِيْنَ عَلَىٰ مَاأَصَابَهُم وَالْمقيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُوْنَ﴾ [الحج: ٣٤، ٣٥].

فذكر للمخبتين أربع علامات: وجل قلوبهم عند ذكره، والوجل خوف مقرون بهيبة ومحبة، وصبرهم على أقداره، وإتيانهم بالصلاة قائمة الأركان ظاهرًا وباطنًا، وإحسانهم إلى عباده بالإنفاق مما آتاهم. وهذا إنما يتأتى للقلب المخبت.

قال ابن عباس: المخبتين المتواضعين. وقال مجاهد المطمئنين إلى الله.

وقال الأخفش: الخاشعين. وقال ابن جرير: الخاضعين.

قال الزجاج: اشتقاقه من الخبت وهو المنخفض من الأرض، وكل مخبت متواضع، فالإخبات سكون الجوارح على وجه التواضع والخشوع لله.

---

(١) ١٠٦ شفاء العليل.

فإن قيل فإذا كان معناه التواضع والخشوع فكيف عدى بإلي في قوله: ﴿وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ [هود: ٢٣].

قيل: ضمن معنى أنابوا. واطمأنوا وتابوا وهذه عبارات السلف في هذا الموضع.

والمقصود أن القلب المخبت ضد القاسي والمريض، وهو سبحانه الذي جعل بعض القلوب مخبتًا إليه وبعضها قاسيًا، وجعل للقسوة آثارًا وللإخبات آثارًا.

من آثار القسوة: تحريف الكلم عن مواضعه، وذلك من سوء الفهم وسوء القصد، وكلاهما ناشيء عن قسوة القلب. ومنها نسيان ماذكر به، وهو ترك ما أمر به علمًا وعملاً.

ومن آثار الإخبات: وجل القلوب لذكره سبحانه، والصبر على أقداره، والإخلاص في عبوديته، والإحسان إلى خلقه.

فصل(١)

و الفرق بين الصبر والقسوة أن الصبر خلق كسبي يتخلق به العبد، وهو حبس النفس عن الجزع والهلع والتشكي، فيحبس النفس عن التسخط، واللسان عن الشكوى، والجوارح عما لا ينبغي فعله. وهو ثبات القلب على الأحكام القدرية والشرعية.

وأما القسوة فيبس في القلب يمنعه من الانفعال، وغلظة تمنعه من التأثر بالنوازل، فلا يتأثر لغلظته وقساوته لا لصبره واحتماله.

وتحقيق هذا أن القلوب ثلاثة (قلب قاس) غليظ بمنزلة اليد اليابسة، (وقلب مائع) رقيق جدًا. فالأول لا ينفعل بمنزلة الحجر، والثاني بمنزلة الماء، وكلاهما ناقص.

وأصح القلوب (القلب الرقيق) الصافي، الصلب فهو يرى الحق من الباطل بصفائه، ويقبله ويؤثره برقته، ويحفظه ويحارب عدوه بصلابته.

وفي أثر «القلوب آنية الله في أرضه فأحبها إليه أرقها وأصلبها وأصفاها».

وهذا القلب الزجاجي؛ فإن الزجاجة جمعت الأوصاف الثلاثة.

وأبغض القلوب إلى الله القلب القاسي قال تعالى: ﴿**فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله**﴾ [الزمر: ٢٢]. وقال تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِنَ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ

---

(١) ٢٩٣ الروح.

كَالْحِجَارةِ أَوْ أَشدُّ قَسْوَةً﴾ [البقرة: ٧٤]. و قال تعالى: ﴿لِيَجْعَلَ مَايُلقي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلّذيْنِ فِيْ قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَّالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ [الحج: ٥٣].

فذكر القلبين المنحرفين عن الاعتدال، هذا بمرضه، وهذا بقسوته، وجعل إلقاء الشيطان فتنة لأصحاب هذين القلبين، ورحمة لأصحاب القلب الثالث، وهو القلب الصافي الذي ميز بين إلقاء الشيطان وإلقاء الملك بصفائه، وقبل الحق بإخباته ورقته، وحارب النفوس المبطلة بصلابته وقوته.

فقال تعالى عقيب ذلك: ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِيْنَ أُوتُوا الْعلمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَّبّكَ فَيُؤْمِنُوْا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللهَ لَهَادِ الَّذِيْنَ آمَنُوا إِلىٰ صِراطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الحج: ٥٤].

(١)**والفرق** بين إلهام الملك وإلقاء الشيطان من وجوه:

منها: أن ما كان لله موافقًا لمرضاته وماجاء به رسوله فهو من الملك، و ما كان لغيره غير موافق لمرضاته فهو من إلقاء الشيطان.

ومنها: أن ماأثمر إقبالاً على الله وإنابة إليه وذكرًا له وهمة صاعدة إليه فهو من القاء الملك، وماأثمر ضد ذلك فهو من الشيطان.

ومنها: أن ماأورث أنسًا ونورًا في القلب وانشراحًا في الصدر فهو من الملك، و ماأورث ضد ذلك فهو من الشيطان.

ومنها: أن ما أورث سكينة وطمأنينة فهون من الملك، و ما أورث قلقًا وانزعاجًا واضطرابًا فهو من الشيطان.

فالإلهام الملكي: يكثر في القلوب الطاهرة النقية التي قد استنارت بنور الله، فللملك بها اتصال وبينه وبينها مناسبة، فإنه طيب طاهر لايجاور إلا قلبًا يناسبه، فتكون لمة الملك بهذا القلب أكثر من لمة الشيطان. وأما القلب المظلم الذي قد اسود بدخان الشهوات والشبهات فإلقاء الشيطان ولمته به أكثر من لمة الملك.

(٢)**قال** تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِيَن تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لاَيَسْتَنقذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ * مَاقَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌ عَزِيْزٌ﴾ [الحج: ٧٣، ٧٤].

---

(١) ٣١٣ الروح. (٢) ٩٧ مختصر الصواعق جـ١.

فتأمل هذا المثل الذي أمر الناس كلهم باستماعه، فمن لم يسمعه فقد عصى أمره، كيف تضمن إبطال الشرك وأسبابه بأوضح برهان في أوجز عبارة وأحسنها وأحلاها، وسجل على جميع آلهة المشركين أنهم لو اجتمعوا كلهم في صعيد واحد وعاون بعضهم بعضًا بأبلغ المعاونة لعجزوا عن خلق ذباب واحد، ثم بين عجزهم وضعفهم عن استنقاذ مايسلبهم الذباب إياه حين يسقط عليهم. فأي شيء أضعف من هذا الإله المطلوب ومن عابده الطالب نفعه وحده؟ فهل قدر القوي العزيز حق قدره من أشرك معه آلهة هذا شأنها، فأقام سبحانه حجة التوحيد وبين ذلك بأعذب ألفاظ وأحسنها، لم يكتنفها غموض، ولم يشنها تطويل، ولم يعبها تقصير، ولم يزر بها زيادة ولانقص. بل بلغت في الحسن والفصاحة والبيان والإيجاز مالا يتوهمه متوهم ولا يظن ظان أن يكون أبلغ في معناها منها، وتحتها من المعنى الجليل القدر العظيم الشأن البالغ في النفع ما هو أجل من الألفاظ اهـ.

(1)**ومن** هذا قوله تعالى: **﴿ياأَيُّها النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فاسْتَمِعُوا له إنَّ الَّذِيْنَ تَدعُونَ من دُونِ اللهِ لَن يَخْلُقوا ذُبَابًا وَّلو اجْتَمَعُوا لَه وإنْ يَّسْلُبْهُمُ الذُّبابُ شَيئًا لَّايَسْتَنْقِذوهُ مِنهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمطلُوبُ * ماقَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ إنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾**.

فضرب لهم سبحانه مثلاً من عقولهم يدلهم على قبح عبادتهم لغيره، وأن هذا أمر مستقر قبحه وهجنته في كل عقل وإن لم يرد به الشرع. وهل في العقل أنكر وأقبح من عبادة من لو اجتمعوا كلهم لم يخلقوا ذبابًا واحدًا، وإن يسلبهم الذباب شيئًا لم يقدروا على الانتصار منه واستنقاذ ماسلبهم إياه، وتركِ عبادة الخلاق العليم القادر على كل شيء. الذي ليس كمثله شيء، أفلا تراه كيف احتج عليهم بما ركبه في العقول من حسن عبادته وحده وقبح عبادة غيره.

(2)**قوله** تعالى: **﴿يَاأَيُّها النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا له إنَّ الَّذِيْنَ تدعُونَ من دون الله لن يخلقوا ذبابًا ولو اجتمعوا له وإن يَسْلُبْهُمُ الذبابُ شيئًا لا يستنقذوه منه ضَعُفَ الطالبُ والمطلوب ماقَدَرُوا الله حق قدره إن الله لقويٌّ عزيز﴾**.

حقيق على كل عبد أن يستمع قلبُه لهذا المثل، ويتدبره حق تدبره، فإنه يقطع

---

(1) ٨ مفتاح جـ٢.	(2) ١٨١ أعلام جـ١.

موادَّ الشرك من قلبه، وذلك أن المعبودَ أقلُّ درجاته أن يقدِرَ على إيجاد ماينفع عابدَه وإعدام مايضره. والآلهةُ التي يعبدها المشركون من دون الله لن تقدر على خَلْق الذباب ولو اجتمعوا كلهم لخلقه، فكيف ما هو أكبر منه؟ ولا يقدرون على الانتصار من الذباب إذا سَلَبهم شيئًا مما عليهم من طيب ونحوه فيستنقذوه منه، فلاهم قادرون على خَلْق الذباب الذي هو من أضعفِ الحيواناتِ، ولا على الانتصار منه واسترجاع ماسَلَبهم إياه، فلا أعْجَزَ من هذه الآلهة، ولاأضعف منها، فكيف يستحسن عاقل عبادتها من دون الله.

وهذا المثلُ من أبلغ ماأنزله الله سبحانه في بُطْلانِ الشرك، وتجهيل أهله، وتقبيح عقولهم، والشهادة على أن الشيطان قد تَلَاعَبَ بهم أعْظَمَ من تلاعب الصبيان بالكُرَةِ حيث أعْطَوُا الإلٰهية التي مِنْ بعض لوازمها القدرةُ على جميع المقدورات، والإحاطة بجميع المعلومات، والغنى عن جميع المخلوقات، وأن يصمد إلى الربِّ في جميع الحاجات، وتفريج الكربات، وإغاثة اللهفات، وإجابة الدعوات، فأعطوها صورًا وتماثيل يمتنع عليها القدرةُ على أقلِّ مخلوقاتِ الإله الحق وأذلها وأصغرِها وأحقرها، ولو اجتمعوا لذلك وتعانوا عليه.

وأدل من ذلك على عَجْزهم وانتفاء إلاهيتهم أن هذا الخلقَ الأقلَّ الأذلَّ العاجز الضعيفَ لو اختطَفَ منهم شيئًا واستلبه فاجتمعوا على أن يستنقذوه منه **لعجزوا** عن ذلك، ولم يقدروا عليه، ثم سَوَّى بين العابد والمعبود في الضعف والعجز بقوله: ﴿**ضَعُفَ الطالبُ والمطلوبُ**﴾ [الحج:٧٣]. قيل: الطالب العابد والمطلوب المعبود؛ فهو عاجز متعلِّق بعاجز.

وقيل: هو تسوية بين السالب والمسلوب، وهو تسوية بين الإلٰه والذباب في الضعف والعجز؛ وعلى هذا فقيل: الطالبُ الإلٰه الباطل، والمطلوبُ الذبابُ يطلب منه ما استلبه منه.

وقيل: الطالب الذباب، والمطلوب الإلٰه؛ فالذباب يطلب منه مايأخذه مما عليه، والصحيح أن اللفظ يتناول الجميع، فضعف العابد والمعبود والمستلِب والمستَلِب؛ فمَنْ جعل هذا إلٰهًا مع القوي العزيز فما قَدَره حتى قَدْره، ولا عَرَفه حق معرفته، ولا عَظَّمه حق تعظيمه.

(١)**قوله تعالى: ﴿يَـامَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ واسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾** [آل عمران: ٤٣] فقد أبعد النجعة فيما تعسفه من فائدة التقديم وأتى بما ينبو اللفظ عنه.

وقال غيره: السجود كان في دينهم قبل الركوع وهذا قائل مالا علم له به.

والذي يظهر في الآية والله أعلم بمراده من كلامه أنها اشتملت على مطلق العبادة وتفصيلها، فذكر الأعم، ثم ماهو أخص منه، ثم ما هو أخص من الأخص. فذكر القنوت أولاً وهو الطاعة الدائمة فيدخل فيه القيام والذكر والدعاء وأنواع الطاعة.

ثم ذكر ما هو أخص منه وهو السجود الذي يشرع وحده، كسجود الشكر والتلاوة، ويشرع في الصلاة، فهو أخص من مطلق القنوت. ثم ذكر الركوع الذي لا يشرع إلا في الصلاة، فلا يسن الإتيان به منفردًا، فهو أخص مما قبله. ففائدة الترتيب النزول من الأعم إلى الأخص إلى أخص منه. وهما طريقتان معروفتان في الكلام. النزول من الأعم إلى الأخص، وعكسها وهو الترقي من الأخص إلى ما هو أعم منه، إلى ما هو أعم ونظيرها **﴿يَاأَيُّها الَّذِيْنَ آمنوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ﴾** [الحج: ٧٧] فذكر أربعة أشياء أخصها الركوع، ثم السجود أعم منه، ثم العبادة أعم من السجود، ثم فعل الخير العام المتضمن لذلك كله.

والذي يزيد هذا وضوحًا الكلام على ماذكره بعد هذه الآية من قوله: **﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائمينَ وَالرُّكَّع السُّجُودِ﴾** [الحج: ٢٦] فإنه ذكر أخص هذه الثلاثة وهو الطواف الذي لايشرع إلا بالبيت خاصة، ثم انتقل منه إلى الاعتكاف ـ وهو القيام المذكور في الحج ـ وهو أعم من الطواف؛ لأنه يكون في كل مسجد ويختص بالمساجد لايتعداها. ثم ذكر الصلاة التي تعم سائر بقاع الأرض سوى مامنع منه مانع أو استثنى شرعًا.

وإن شئت قلت: ذكر الطواف الذي هو أقرب العبادات بالبيت.

ثم الاعتكاف الذي يكون في سائر المساجد.

ثم الصلاة التي تكون في البلد كله، بل في كل بقعة. فهذا تمام الكلام على ماذكره من الأمثلة وله رحمه الله مزيد السبق وفضل التقدم.

---

(١) ٨٠ البدائع جـ١.

(١)**الوجه** الرابع والستون: أن أفضل منازل الخلق عند الله منزلة الرسالة والنبوة، فالله يصطفى من الملائكة رسلاً ومن الناس. وكيف لا يكون أفضل الخلق عند الله من جعلهم وسائط بينه وبين عباده في تبليغ رسالاته، وتعريف أسمائه وصفاته، وأفعاله وأحكامه، ومراضيه ومساخطه، وثوابه وعقابه، وخصهم بوحيه، واختصهم بتفضيله، وارتضاهم لرسالته إلى عباده، وجعلهم أزكى العالمين نفوسًا وأشرفهم أخلاقًا، وأكملهم علومًا وأعمالاً، وأحسنهم خلقة، وأعظمهم محبة وقبولاً في قلوب الناس، وبرأهم من كل وصم وعيب وكل خلق دنيء، وجعل أشرف مراتب الناس بعدهم مرتبة خلافتهم ونيابتهم في أممهم؛ فإنهم يخلفونهم على منهاجهم وطريقهم من نصيحتهم للأمة، وإرشادهم الضال، وتعليمهم الجاهل، ونصرهم المظلوم، وأخذهم على يد الظالم، وأمرهم بالمعروف وفعله، ونهيهم عن المنكر وتركه، والدعوة إلى الله بالحكمة للمستجيبين، والموعظة الحسنة للمعرضين الغافلين، والجدال بالتي هي أحسن للمعاندين المعارضين. فهذه حال أتباع المرسلين وورثة النبيين. قال تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ [يوسف:١٠٨] وسواء كان المعنى وأنا ومن اتبعني على بصيرة وأنا أدعوا إلى الله. أو المعنى أدعوا إلى الله على بصيرة والقولان متلازمان، فإنه لا يكون من أتباعه حقًّا إلا

من دعا ﷺ إلى الله على بصيرة كما كان متبوعه يفعل فهؤلاء خلفاء الرسل حقًّا وورثتهم دون الناس، وهم أولو العلم الذين قاموا بما جاء به علمًا وعملاً، وهداية وإرشادًا، وصبرًا وجهادًا، وهؤلاء هم الصديقون، وهم أفضل أتباع الأنبياء ورأسهم وإمامهم الصديق الأكبر أبوبكر رضي الله عنه. قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا * ذَٰلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللهِ وَكَفَىٰ بِاللهِ عَلِيمًا﴾ [النساء: ٦٩، ٧٠] فذكر مراتب السعداء أربعة، وبدأ بأعلاهم مرتبة ثم الذين يلونهم إلى آخر المراتب. وهؤلاء الأربعة هم أهل الجنة الذين هم أهلها جعلنا الله منهم بمنه وكرمه.

---

(١) ٧٨ مفتاح جـ١.

(١)**قوله تعالى** : ﴿**وَجَاهِدُوا فِي اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُم فِي الدِّيْنِ مِنَ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُم إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هٰذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُم وَتَكُونُوا شُهَدَآءَ عَلَى النَّاسِ**﴾.[الحج : ٧٨] فأخبر تعالى أنه اجتباهم، والاجتباء كالاصطفاء، وهو افتعال من «اجْتَبَى الشيء يَجْتَبيه» إذا ضمه إليه وحازه إلى نفسه، فهم المجتبوْن الذين اجتباهم الله إليه وجعلهم أهله وخاصته وصفوته من خلقه بعد النبيين والمرسلين.

ولهذا أمرهم تعالى أن يجاهدوا فيه حق جهاده، فيبذلوا له أنفسهم، ويُفْردوه بالمحبة والعبودية، ويختاروه وحده إلٰهًا معبودًا محبوبًا على كل ما سواه كما اختارهم على من سواهم، فيتخذونه وحده إلٰههم ومعبودهم الذي يتقربون إليه بألسنتهم وجَوَراحهم وقلوبهم ومحبتهم وإرادتهم، فيؤثرونه في كل حال على مَنْ سواه، كما اتخذهم عبيده وأولياءه وأحِبَّاءه وآثرهم بذلك على مَنْ سواهم.

ثم أخبرهم تعالى أنه يَسَّرَ عليهم دينه غاية التيسير، ولم يجعل عليهم فيه من حرج البتة لكمال محبته لهم ورأفته ورحمته وحنانه بهم.

ثم أمرهم بلزوم ملة إمام الحُنَفَاء أبيهم إبراهيم، وهي إفراده تعالى وحده بالعبودية والتعظيم، والحبِّ، والخوفِ والرجاء، والتوكل والإنابة، والتفويض والاستسلام، فيكون تعلق ذلك من قلوبهم به وحده لا بغيره.

ثم أخبر تعالى أنه نَوَّهَ بهم وأثنى عليهم قبلَ وجودِهم وسَمَّاهم عباده المسلمين قبل أن يظهرهم.

ثم نوَّه بهم وسماهم كذلك بعد أن أوجدهم اعتناء بهم ورفعة لشأنهم وإعلاء لقدرهم.

ثم أخبر تعالى أنه فعل ذلك ليشهد عليهم رسوله ويشهدوا هم على الناس؛ فيكونون مشهودًا لهم بشهادة الرسول شاهدِينَ على الأمم بقيام حجة الله عليهم، فكان هذا التنويه وإشادة الذكر لهذين الأمرين الجليلين ولهاتين الحكمتين العظيمتين.

والمقصود أنهم إذا كانوا بهذه المنزلة عنده تعالى؛ فمن المحال أن يحرمهم كلَّهم الصوابَ في مسألة فيفتى فيها بعضُهم بالخطأ، ولا يفتى فيها غيره بالصواب، ويظفر فيها بالهدى مَنْ بعدهم، والله المستعان.

---

(١) ١٣٣ أعلام جـ٤.

الفصل الخامس[1]
في ذكر إبراهيم خليل الرحمن ﷺ

وهذا الاسم من النمط المتقدم؛ فإن إبراهيم بالسريانية معناه «أب رحيم» والله سبحانه وتعالى جعل إبراهيم الأب الثالث للعالم؛ فإن أبانا الأول آدم، والأب الثاني نوح. وأهل الأرض كلهم من ذريته، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَه هُمُ الْبَاقِينَ﴾ [الصافات: ٧٧] وبهذا يتبين كذب المعبرين من العجم الذين يزعمون أنهم لايعرفون نوحًا ولا ولده، ولاينسبون إليه، وينسبون ملوكهم من آدم إليهم ولا يذكرون نوحًا في آبائهم. وقد أكذبهم الله عز وجل في ذلك.

فالأب الثالث أب الآباء وعمود العالم، وإمام الحنفاء الذي اتخذه الله خليلاً وجعل النبوة والكتاب في ذريته، ذاك خليل الرحمن، وشيخ الأنبياء كما سماه النبي ﷺ، بذلك. فإنه لما دخل الكعبة وجد المشركين قد صوروا فيها صورته وصورة إسماعيل ابنه وهما يستقسمان بالأزلام. فقال: قاتلهم الله، لقد علموا أن شيخنا لم يكن يستقسم بالأزلام، ولم يأمر الله رسوله ﷺ أن يتبع ملة أحد من الأنبياء غيره فقال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَّمَاكَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٣] وأمر أمته بذلك فقال تعالى: ﴿هُوَ اجْتَبَاكُم وَمَاجَعَلَ عَلَيْكُم فِي الدِّيْنِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُم إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هٰذَا﴾ [الحج: ٧٨] «وملة» منصوب على إضمار فعل أي اتبعوا والزموا ملة إبراهيم. ودل على المحذوف ماتقدم من قوله: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللهِ حَقَّ جِهَادِه﴾[الحج: ٧٨] وهذا هو الذي يقال له الإغراء. وقيل: منصوب انتصاب المصادر والعامل فيه مضمون ماتقدم قبله؛ وكان رسول الله ﷺ يوصي أصحابه إذا أصبحوا وإذا أمسوا أن يقولوا: «**أصبحنا على فطرة الإسلام وكلمة الإخلاص. ودين نبينا محمد وملة أبينا إبراهيم حنيفًا مسلمًا وماكان من المشركين**»[2].

[3]**وقد** اختلفت عبارات السلف في «حق الجهاد».

---

(١) ١٥٤ جلاء الأفهام. (٢) يأتي البحث كاملًا إن شاء الله في سورة الصافات (ج).

(٣) ١٠٥ زاد المعاد جـ٢

فقال ابن عباس «هو استفراغ الطاقة فيه، وأن لايخاف في الله لومة لائم».

وقال مقاتل «اعملوا لله حق عمله، واعبدوه حق عبادته».

وقال عبدالله بن المبارك «هو مجاهدة النفس والهوى» ولم يصب من قال: إن الآيتين منسوختان، لظَنِّه أنهما تضمنتا الأمر بما لايطاق.

وحق تُقَاته وحق جهاده: هو مايطيقه كل عبد في نفسه. وذلك يختلف باختلاف أحوال المكلفين في القدرة والعجز، والعلم والجهل. فحق التقوى وحق الجهاد بالنسبة إلى القادر المتمكن العالم شيء، وبالنسبة إلى العاجز الجاهل الضعيف شيء.

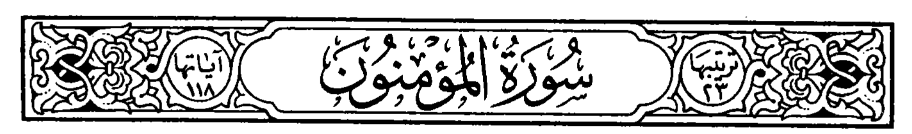
وتأمل كيف عَقَّب الأمر بذلك ﴿**هُوَ اجْتَبَاكُم وَمَاجَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الّدِيْنِ مِنْ حَرَجٍ**﴾ [الحج: ٧٨] والحرج: الضيق، بل جعله واسعًا يسعَ كل أحد، كما جعل رزقه يسع كل حي. وكلف العبد بما يسعه العبد. ورزق العبد مايسع العبد. فهو يسع تكليفه، ويسعه رزقه. وما جعل على عبده في الدين من حرج بوجه ما. قال النبي ﷺ: «**بعثت بالحنيفية السمحة**» أي: بالملة، فهي عصمة حنيفية في التوحيد سمحة في العمل...

(١) **قال تعالى**: ﴿**وَاعتَصموُا باللهِ هُوَ مَولاَكُم فَنِعْمَ الْمَولىَ وَنِعْمَ النَّصِيرْ**﴾ [الحج: ٧٨] **أي: متى اعتصمتم به تولاكم، ونصركم على أنفسكم وعلى الشيطان. وهما** العدوان اللذان لايفارقان العبد، وعداوتهما أضر من عداوة العدو الخارج. فالنصر على هذا العدوّ أهم، والعبد إليه أحوج. وكمال النصرة على العدو بحسب كمال الاعتصام بالله.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة الحج

والحمد لله رب العالمين

(١) يبحث عنه



بسم الله الرحمن الرحيم

(١)**قال** الله ـ تعالى ـ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ * فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾ [المؤمنون: ١-٧]. ولما أنزلت هذه الآيات على النبيّ ﷺ قال: «قَدْ أُنْزِلَتْ عَلَيَّ عَشْرُ آيَاتٍ مَنْ أَقَامَهُنَّ دَخَلَ الجَنَّة» ثم قرأ هذه الآيات:

(٢)**قال** الله ـ تعالى ـ ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ﴾ [الحديد: ١٦]. قال ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: «ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله بهذه الآية إلا أربع سنين» وقال ابن عباس: «إن الله استبطأ قلوب المؤمنين. فعاتبهم على رأس ثلاث عشرة سنة من نزول القرآن». وقال تعالى: ﴿قَدْ أَفلَحَ الْمُؤمِنُونَ. الَّذِيْنَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُوْنَ﴾.

و«**الخشوع**» في أصل اللغة: الانخفاض، والذل، والسكون. قال تعالى: ﴿وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ﴾ [طه: ١٠٨]. أي: سكنت، وذلت، وخضعت. ومنه وصف الأرض بالخشوع. وهو يبسها، وانخفاضها، وعدم ارتفاعها بالري والنبات. قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ [فصلت: ٣٩]. و«الخشوع» قيام القلب بين يدي الرب بالخضوع والذل، والجمعية عليه، وقيل: «الخشوع» الانقياد للحق. وهذا من موجبات الخشوع.

فمن علاماته: أن العبد إذا خولف وَرُدَّ عليه بالحق، استقبل ذلك بالقبول والانقياد. وقيل «الخشوع» خمود نيران الشهوة. وسكون دخان الصدور. وإشراق نور التعظيم في القلب. وقال الجنيد: الخشوع تذلل القلوب لعلام الغيوب.

وأجمع العارفون على أن «الخشوع» محله القلب. وثمرته على الجوارح. وهي تظهره. و«رأى النبي ﷺ رجلا يعبث بلحيته في الصلاة، فقال: «**لوخشع قلب**

---

(١) ٣٣٩ روضة المحبين.	(٢) ٥٢٠ مدارج جـ١.

هذا لخشعت جوارحه». وقال النبي ﷺ: «**التقوى ههنا**» - وأشار إلى صدره - ثلاث مرات. وقال بعض العارفين: حسن أدب الظاهر عنوان أدب الباطن.

ورأى بعضهم رجلا خاشع المنكبين والبدن. فقال: يافلان، الخشوع ههنا. وأشار إلى صدره. لاههنا. وأشار إلى منكبيه. وكان بعض الصحابة - رضي الله عنهم - وهو حذيفة، يقول: «إياكم وخشوع النفاق. فقيل له: وما خشوع النفاق؟ قال: أن ترى الجَسد خاشعاً والقلب ليس بخاشعٍ».

ورأى عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - رجلاً طأطأ رقبته في الصلاة. فقال: «يا صاحب الرقبة، ارفع رقبتك. ليس الخشوع في الرقاب. إنما الخشوع في القلوب». ورأت عائشة - رضي الله عنها - «شبابا يمشون ويتماوتون في مشيتهم، فقالت لأصحابها: من هؤلاء؟ فقالوا: نُسَّاك. فقالت: كان عمر بن الخطاب: إذا مشي أسرعٍ، وإذا قال أسمع، وإذا ضرب أوجع، وإذا أطعم أشبع، وكان هو الناسك حقًا». وقال الفضيل بن عياض: كان يُكرَه أن يُرِي الرجل من الْخشوع أكثر مما في قلبه. وقال حذيفة رضي الله عنه: «أول ما تفقدون من دينكم الْخشوع، وآخر ما تفقدون من دينكم الصلاة، ورب مصلٍّ لا خير فيه، ويوشك أن تدخل مسجد الجماعة فلا ترى فيهم خاشعًا. وقال سهل: من خشع قلبه لم يقرب منه الشيطان.

. . . (١)**وكذلك** إذا قام إلى الصلاة فإنه يستقبل ربه وهو فوقه فيدعوه من تلقائه لا عن يمينه ولا عن يساره ويدعوه من العلو لا من السفل. وقد ثبت في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: «**لينتهين أقوام عن رفع أبصارهم إلى السماء في الصلاة أو لا ترجع إليهم أبصارهم**». واتفق العلماء على أن رفع البصر إلى السماء للمصلي منهي عنه.

وروى أحمد عن محمد بن سيرين أن النبي ﷺ كان يرفع بصره في الصلاة إلى السماء حتى أنزل الله: ﴿**قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُم فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ**﴾ [المؤمنون: ١ - ٢] فكان بصره لا يجاوز موضع سجوده فهذا مما جاءت به الشريعة تكميلا للفطرة لأن الداعي السائل الذي أمر بالخشوع وهو الذل والسكون لا يناسب حاله أن ينظر إلى ناحية من يدعوه ويسأله، بل يناسبه الإطراق وخفض

(١) ٢٧٥ مختصر الصواعق جـ٢.

بصره أمامه فليس في هذا النهي ما ينفي كونه فوق سمواته على عرشه، كما زعم بعض جهال الجهمية فإنه لا فرق عندهم بين تحت التحت والعرش بالنسبة إليه، ولو كان كذلك لم ينه عن رفع بصره إلى جهة ويؤمر برده إلى غيرها لأن الجهتين عند الجهمية سواء بالنسبة إليه. وأيضًا فلو كان الأمر كذلك لكان النهي ثابتًا في الصلاة وغيرها.

وقد قال تعالى: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ﴾ [البقرة: ١٤٤] فليس العبد منهيا عن رفع بصره إلى السماء مطلقا، وإنما نهى عنه في الوقت الذي أمر فيه بالخشوع لأن خفض البصر من تمام الخشوع، كما قال تعالى: ﴿خُشَّعاً أَبْصَارُهُمْ﴾ [القمر: ٧]. وأيضًا فلو كان النهي عن رفع البصر إلى السماء لكون الرب ليس في السماء لكان لا فرق بين رفعه إلى السماء ورده إلى جميع الجهات، ولو كان مقصوده أن ينهي الناس أن يعتقدوا أن الله في السماء أو يقصدوا بقلوبهم التوجه إلى العلو لبين لهم ذلك بيانا شافيا ولم يحملهم فيه على أدب من آداب المصلي وهو إطراقه بين يدي ربه وخشوعه ورمي بصره إلى الأرض كما يفعل بين يدي الملوك فهذا إنما يدل على نقيض قولهم. . . .

(١)**الوجه** السادس والعشرون: أنك إذا تأملت الأحاديث الصحيحة وجدتها مفسرة للآية مشتقة منها. كقوله ﷺ: «**إذا قام أحدكم إلى الصلاة فإنما يستقبل ربه**». وقوله: «**فالله يقبل عليه بوجهه ما لم يصرف وجهه عنه**». وقوله: «**إذا قام أحدكم إلى الصلاة فلا يبصقن قبل وجهه**». وقوله: **فإن الله بينه وبين القبلة**». وقوله: «**إن الله يأمركم بالصلاة، فإذا صليتم فلا تلتفتوا، فإن الله ينصب وجهه لوجه عبده في صلاته ما لم يلتفت**» رواه ابن حبان في صحيحه والترمذي.

وقال: «**إن العبد إذا توضأ فأحسن الوضوء ثم قام إلى الصلاة، أقبل الله عليه بوجهه فلا ينصرف عنه حتى ينصرف أو يحدث حدث سوء**». وقال: جابر - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ: «**إذا قام العبد يصلي أقبل الله عليه بوجهه فإذا التفت أعرض الله عنه، وقال: ياابن آدم أنا خير ممن تلتفت إليه. فإذا أقبل على صلاته أقبل الله عليه، فإذا التفت أعرض الله عنه**». وقال ابن عمر عن النبي ﷺ: «**إذا صلى أحدكم فلا يتنخمن تجاه وجه الرحمن**». وقال أبو هريرة عن النبي ﷺ:

(١) ١٨٨ مختصر الصواعق جـ٢.

«إن العبد إذا قام إلى الصلاة فإنه بين عيني الرحمن، فإذا التفت قال له: ابن آدم! إلى من تلتفت؟ إلى خير لك مني تلتفت».

[1] **فإذا** قيل: ما تقولون في صلاة من عدم الخشوع: هل يعتد بها أم لا؟

قيل: أما الاعتداد بها في الثواب: فلا يعتد له فيها. إلا بما عَقَل فيه منها. وخشع فيه لربه. قال ابن عباس - رضي الله عنهما -: «ليس لك من صلاتك إلا ما عقلت منها». وفي المسند مرفوعاً: **«إن العبد ليصلي الصلاة، ولم يكتب له إلا نصفها، أو ثلثها، أو ربعها - حتى بلغ عشرها»**.

وقد علق الله فلاح المصلين بالخشوع في صلاتهم. فدل على أن من لم يخشع فليس من أهل الفلاح. ولو اعْتُدَّ له بها ثواباً لكان من المفلحين.

وأما الاعتداد بها في أحكام الدنيا، وسقوط القضاء: فإن غلب عليها الخشوع وتعقلها اعتد بها إجماعاً. وكانت السنن، والأذكار عقيبها جوابر ومكملات لنقصها. وإن غلب عليه عدم الخشوع فيها. وعدم تعقلها، فقد اختلف الفقهاء في وجوب إعادتها. فأوجبها أبو عبد الله بن حامد من أصحاب أحمد، وأبو حامد الغزالي في إحيائه، لا في وسيطه وبسيطه.

وأحتجوا بأنها صلاة لا يثاب عليها، ولم يضمن له فيها الفلاح، فلم تبرأ ذمته منها، ويسقط القضاء عنه كصلاة المرائي.

قالوا: ولأن الخشوع والعقل: روح الصلاة ومقصودها ولُبُّها، فكيف يعتد بصلاة فقدت روحها ولبها، وبقيت صورتها وظاهرها؟.

قالوا: ولو ترك العبد واجباً من واجباتها عمداً لأبطلها تركه. وغايته: أن يكون بعضاً من أبعاضها بمنزلة فوات عضو من أعضاء العبد المعتق في الكفارة، فكيف إذا عدمت روحها، ولبها ومقصودها؟ صارت بمنزلة العبد الميت. إذا لم يعتد بالعبد المقطوع اليد. يعتقه تقرباً إلى الله تعالى في كفارة واجبة. فكيف يعتد بالعبد الميت. وقال بعض السلف: الصلاة كجارية تهدى إلى ملك من الملوك. فما الظن بمن يهدى إليه جارية شَلَّاءَ، أو عوراء، أو عمياء، أو مقطوعة اليد والرجل، أَوْ مريضة، أو دميمة، أو قبيحة، حتى يُهدى إليه جارية ميتة بلا روح وجارية قبيحة.

---

(١) ٥٢٥ مدارج جـ١.

فكيف بالصلاة التي يهديها العبد، ويتقرب بها إلى ربه تعالى؟ والله طيب لا يقبل إلا طيباً. وليس من العمل الطيب: صلاة لا روح فيها. كما أنه ليس من العتق الطيب عتق عبد لا روح فيه.

قالوا: وتعطيل القلب عن عبودية الحضور والخشوع: تعطيل لملك الأعضاء عن عبوديته، وعزل له عنها. فماذا تغني طاعة الرعية وعبوديتها، وقد عزل ملكها وتعطل؟.

قالوا: والأعضاء تابعة للقلب، تصلح بصلاحه، وتفسد بفساده. فإذا لم يكن قائماً بعبوديته، فالأعضاء أولى أن لا يعتدَّ بعبوديتها، وإذا فسدت عبوديته ـ بالغفلة والوسواس ـ فأنَّى تصح عبودية رعيته وجنده ومادتهم منه، وعن أمره يصدرون، وبه يأتمرون؟

قالوا: وفي الترمذي وغيره، مرفوعاً إلى النبي ﷺ: «**إن الله لا يستجيب الدعاء من قلب غافل**» وهذا إما خاص بدعاء العبادة، وإما عام له ولدعاء المسألة، وإما خاص بدعاء المسألة الذي هو أبعد. فهو تنبيه على أنه لا يقبل دعاء العبادة الذي هو خاص حقه من قلب غافل.

قالوا: ولأن عبودية من غلبت عليه الغفلة، والسهو في الغالب لا تكون مصاحبة للإخلاص. فإن الإخلاص قصد المعبود وحده بالتعبد. والغافل لا قصد له. فلا عبودية له.

قالوا: وقد قال الله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ [الماعون: ٤، ٥] وليس السهو عنها تركها، وإلا لم يكونوا مصلين، وإنما هو السهو عن واجبها: إما عن الوقت، كما قال ابن مسعود وغيره. وإما عن الحضور. والخشوع، والصواب: أنه يعمّ النوعين. فإنه سبحانه أثبت لهم صلاة. ووصفهم بالسهو عنها، فهو السهو عن وقتها الواجب، أو عن إخلاصها وحضورها الواجب. ولذلك وصفهم بالرياء، ولو كان السهو سهو ترك لما كان هناك رياء.

قالوا: ولو قدرنا أنه السهو عن واجب فقط، فهو تنبيه على التوعد بالويل على سهو الإخلاص والحضور بطريق الأولى لوجوه:

أحدها: أن الوقت يسقط في حال العذر، وينتقل إلى بدله. والإخلاص والحضور لا يسقط بحال. ولا بدل له.

الثاني: أن واجب الوقت يسقط لتكميل مصلحة الحضور. فيجوز الجمع بين

الصلاتين للشغل المانع من فعل إحداهما في وقتها بلا قلب ولا حضور، كالمسافر. والمريض، وذي الشغل الذي يحتاج معه إلى الجمع، كما نص عليه أحمد وغيره.

فبالجملة: مصلحة الإخلاص والحضور، وجمعية القلب على الله في الصلاة: أرجح في نظر الشارع من مصلحة سائر واجباتها. فكيف يظن به أنه يبطلها بترك تكبيرة واحدة، أو اعتدال في ركن، أو ترك حرف، أو شَدَّةٍ من القرآن، أو ترك تسبيحة، أو قول: «سمع الله لمن حمده» أو قول: «ربنا ولك الحمد» أو ذكر رسول الله ـ ﷺ ـ بالصلاة عليه. ثم يصححها مع فوت لُبِّهَا، ومقصودها الأعظم. وروحها وسرها. فهذا ما احتجت به هذه الطائفة. وهي حجج ـ كما تراها ـ قوة وظهوراً. قال أصحاب القول الآخر: قد ثبت عن النبي ﷺ في الصحيح أنه قال: **«إذا أذن المؤذن أدبر الشيطان، وله ضراط حتى لا يسمع التأذين. فإذا قضي التأذين أقبل. فإذا ثُوِّب بالصلاة أدبر. فإذا قضى التثويب أقبل حتى يخطر بين المرء وبين نفسه، فَيُذَكِّره ما لم يكن يذكر. ويقول: أُذكُر كذا، أُذكر كذا. لما لم يكن يذكر. حتى يَظَلَّ الرجل لا يدري كم صلى. فإذا وجد ذلك أحدكم فليسجد سجدتين وهو جالس»**.

قالوا: فأمره النبي ﷺ في هذه الصلاة التي قد أغفله الشيطان فيها، حتى لم يدر كم صلى: بأن يسجد سجدتي السهو. ولم يأمره بإعادتها، ولو كانت باطلة ـ كما زعمتم ـ لأمره بإعادتها.

قالوا: وهذا هو السر في سجدتي السهو، ترغيما للشيطان في وسوسته للعبد، وكونه حال بينه وبين الحضور في الصلاة: ولهذا سماهما النبي ﷺ «المرغمتين» وأمر من سها بهما، ولم يُفَصِّل في سهوه الذي صدر عنه موجب السجود بين القليل والكثير، والغالب والمغلوب. وقال: **«لكل سهو سجدتان»** ولم يستثن من ذلك السهو الغالب، مع أنه الغالب.

قالوا: ولأن شرائع الإسلام على الأفعال الظاهرة. وأما حقائق الإيمان الباطنة: فتلك عليها شرائع الثواب والعقاب. فلله تعالى حكمان: حكم في الدنيا على الشرائع الظاهرة وأعمال الجوارح. وحكم في الآخرة على الظواهر والبواطن. ولهذا كان النبي ﷺ يقبل علانية المنافقين. ويَكِلُ أسرارهم إلى الله فيُناكحون. ويرثون

ويورثون، ويعتد بصلاتهم في أحكام الدنيا. فلا يكون حكمهم حكم تارك الصلاة، إذ قد أتوا بصورتها الظاهرة، وأحكام الثواب والعقاب. ليست إلى البشر، بل إلى الله، والله يتولاه في الدار الآخرة.

قالوا: فنحن في حكم شرائع الإسلام نحكم بصحة صلاة المنافق والمرائي، مع أنه لا يسقط عنه العقاب، ولا يحصل له الثواب في الآخرة. فصلاة المسلم الغافل المبتلى بالوسواس وغفلة القلب عن كمال حضوره، أولى بالصحة.

نعم: لا يحصل مقصود هذه الصلاة من ثواب الله عاجلا ولا آجلا. فإن للصلاة مزيد ثواب عاجل في القلب من قوة إيمانه، واستنارته، وانشراحه وانفساحه ووجود حلاوة العبادة، والفرح والسرور، واللذة التي تحصل لمن اجتمع همه وقلبه على الله، وحضر قلبه بين يديه، كما يحصل لمن قرَّبه السلطان منه، وخصه بمناجاته والإقبال عليه والله أعلى وأجل.

وكذلك ما يحصل لهذا من الدرجات العلى في الآخرة، ومرافقة المقربين.

كل هذا يفوته بفوات الحضور والخضوع. وأن الرجلين ليكون مقامهما في الصف واحداً. وبين صلاتيهما كما بين السماء والأرض. وليس كلامنا في هذا كله.

فإن أردتم وجوب الإعادة: لتحصل هذه الثمرات والفوائد: فذاك إليه إن شاء أن يحصلها وإن شاء أن يفوتها على نفسه. وإن أردتم بوجوبها أنا نلزمه بها ونعاقبه على تركها. ونرتب عليه أحكام تارك الصلاة فلا.

وهذا القول الثاني أرجح القولين. والله أعلم.

(١)**الاسم** الثامن الفردوس، قال تعالى: ﴿**أُولَئِكَ هُمُ الوَارِثُونَ * الَّذِينَ يَرِثُونَ الفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ**﴾ [المؤمنون: ١٠ - ١١] وقال تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الفِرْدَوْسِ نُزُلاً * خَالِدِينَ فِيهَا**﴾

والفردوس اسم يقال على جميع الجنة، ويقال على أفضلها وأعلاها، كأنه أحق بهذا الاسم من غيره من الجنات. وأصل الفردوس البستان، والفراديس: البساتين. قال كعب: هو البستان الذي فيه الأعناب. وقال الليث: الفردوس: جنة ذات كروم، يقال: كرم مفردس أي معرش.

---

(١) ٧٥ حادي الأرواح.

وقال الضحاك: هي الجنة الملتفة بالأشجار وهو اختيار المبرد، وقال: الفردوس فيما سمعت من كلام العرب: الشجر الملتف، والأغلب عليه العنب، وجمعه الفراديس، قال ولهذا سمى باب الفراديس بالشام وأنشد لجرير:

فقلت للركب إذ جد المسير بنا　　يابعد بيربن[1] من باب الفراديس

وقال مجاهد: هذا البستان بالرومية واختاره الزجاج، فقال: هو بالرومية منقول إلى لفظ العربية، قال: وحقيقته أنه البستان الذي يجمع كل ما يكون في البساتين قال حسان:

وإن ثـواب الله كـل مخلـد　　جنـان من الفـردوس فيها يخلد

[2]الباب السابع عشر

في أطوار بني آدم من وقت كونه نطفة إلى استقراره في الجنة أو النار.

قال الله ـ تعالى ـ: **﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلإِنسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَاماً فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْماً ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ * ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ * ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ﴾** [المؤمنون: ١٢-١٦].

فاستوعب ـ سبحانه ـ ذكر أحوال ابن آدم قبل كونه نطفة بل تراباً وماء إلى حين بعثه يوم القيامة. فأول مراتب خلقه أنه سلالة من طين. ثم بعد ذلك سلالة من ماء مهين، وهي النطفة التي استلت من جميع البدن، فتمكث كذلك أربعين يوماً. ثم يقلب الله ـ سبحانه ـ تلك النطفة علقة: وهي قطعة سوداء من دم، فتمكث كذلك أربعين يوماً أخرى. ثم يصيرها ـ سبحانه ـ مضغة: وهي قطعة لحم أربعين يوماً، وفي هذا الطور تقدر أعضاؤه وصورته وشكله وهيأته[3].

[4]**وقال: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّنْ طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا العَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَاماً فَكَسَوْنَا العِظَامَ لَحْماً ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلقاً آخَرَ فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾** [المؤمنون: ١٢-١٦].

---

(١) كذا بالأصل فيصحح (ج).　(٢) ١٤٥ تحفة المودود.

(٣) هنا بحث المؤلف بحثًا مطولاً حول تخليق الجنين وأطواره فمن أراد فليرجع إليه (ج).

(٤) ١٨٨ مفتاح جـ١.

وهذا كثير في القرآن يدعو العبد إلى النظر والتفكر في مبدأ خلقه ووسطه وآخره، إذ نفسه وخلقه من أعظم الدلائل على خالقه وفاطره، وأقرب شيء إلى الإنسان نفسه، وفيه من العجائب الدالة على عظمة الله ما تنقضي الأعمار في الوقوف على بعضه وهو غافل عنه، معرض عن التفكر فيه. ولو فكر في نفسه لزجره ما يعلم من عجائب خلقها عن كفره.

قال الله تعالى: ﴿**قُتِلَ الإنْسَانُ مَا أَكْفَرَه * مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَه * مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَه * ثُمَّ السَّبِيْلَ يَسَّرَهُ * ثُمَّ أَمَاتَه فَأَقْبَرَهُ * ثُمَّ إذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ**﴾ [عبس: ١٧-٢٢].

فلم يكرر - سبحانه - على أسماعنا وعقولنا ذكر هذا لنسمع لفظ النطفة والعلقة والمضغة والتراب ولا لنتكلم بها فقط ولا لمجرد تعريفنا بذلك، بل لأمر وراء ذلك كله، هو المقصود بالخطاب وإليه جرى ذلك الحديث.

فانظر الآن إلى النطفة بعين البصيرة وهي قطرة من ماء مهين ضعيف مستقذر لو مرت بها ساعة من الزمان فسدت وانتنت كيف استخرجها رب الأرباب العليم القدير من بين الصلب والترائب منقادة لقدرته مطيعة لمشيئته مذللة الانقياد على ضيق طرقها واختلاف مجاريها إلى أن ساقها إلى مستقرها ومجمعها.

وكيف جمع - سبحانه - بين الذكر والأنثى، وألقى المحبة بينهما، وكيف قادهما بسلسلة الشهوة والمحبة إلى الاجتماع الذي هو سبب تخليق الولد وتكوينه وكيف قدر اجتماع ذينك الماءين مع بعد كل منهما عن صاحبه وساقهما من أعماق العروق والأعضاء وجمعهما في موضع واحد، جعل لهما قرارا مكينا لا يناله هواء يفسده ولا برد يجمده، ولا عارض يصل إليه، ولا آفة تتسلط عليه، ثم قلب تلك النطفة البيضاء المشربة علقة حمراء تضرب إلى سواد، ثم جعلها مضغة لحم مخالفة للعلقة في لونها وحقيقتها وشكلها، ثم جعلها عظاما مجردة لاكسوة عليها مباينة للمضغة في شكلها وهيأتها وقدرها وملمسها ولونها. وانظر كيف قسم تلك الأجزاء المتشابهة المتساوية إلى الأعصاب والعظام والعروق والأوتار واليابس واللين وبين ذلك.

ثم كيف ربط بعضها ببعض أقوى رباط وأشده وأبعده عن الانحلال.

وكيف كساها لحماً ركبه عليها، وجعله وعاء لها وغشاء وحافظاً، وجعلها حاملة له مقيمة له، فاللحم قائم بها وهي محفوظة به، وكيف صورها فأحسن صورها،

وشق لها السمع والبصر والفم والأنف وسائر المنافذ ومد اليدين والرجلين، وبسطهما، وقسم رءوسهما بالأصابع، ثم قسم الأصابع بالأنامل، وركب الأعضاء الباطنة من القلب والمعدة والكبد والطحال والرئة والرحم والمثانة والأمعاء كل واحد منها له قدر يخصه ومنفعة تخصه.

ثم انظر الحكمة البالغة في تركيب العظام قواماً للبدن وعماداً له وكيف قدرها ربها وخالقها بتقادير مختلفة وأشكال مختلفة فمنها الصغير والكبير والطويل والقصير والمنحني والمستدير والدقيق والعريض والمصمت والمجوف، وكيف ركب بعضها في بعض، فمنها ما تركيبه تركيب الذكر في الأنثى، ومنها ما تركيبه تركيب اتصال فقط، وكيف اختلفت أشكالها باختلاف منافعها.

(1)**ومن** حجب الملك في الصدر وأجلسه هناك على كرسي المملكة، وأقام جند الجوارح والأعضاء والقوى الباطنة والظاهرة في خدمته وذللها له، فهي مؤتمرة إذا أمرها، منتهية إذا نهاها، سامعة له مطيعة تكدح وتسعى في مرضاته، فلا تستطيع منه خلاصاً ولا خروجاً عن أمره.

فمنها رسوله، ومنها بريده، ومنها ترجمانه، ومنها أعوانه وكل منها على عمل لا يتعداه ولا يتصرف في غير عمله، حتى إذا أراد الراحة أوعز إليها بالهدوء والسكون ليأخذ الملك راحته، فإذا استيقظ من منامه قامت جنوده بين يديه على أعمالها، وذهبت حيث وجهها دائبة لا تفتر، فلو شاهدته في محل ملكه والأشغال والمراسيم صادرة عنه وواردة، والعساكر في خدمته، والبُرُدُ تتردد بينه وبين جنده ورعيته لرأيت له شأنًا عجيبًا، فماذا فات الجاهل الغافل من العجائب والمعارف والعبر التي لا يحتاج فيها إلى طول الأسفار وركوب القفار.

قال تعالى: ﴿وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ * وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢٠، ٢١] فدعا عباده إلى التفكر في أنفسهم، والاستدلال بها على فاطرها وباريها، ولولا هذا لم نوسع الكلام في هذا الباب، ولا أطلنا النفس إلى هذه الغاية، ولكن العبرة بذلك حاصلة والمنفعة عظيمة، والفكرة فيه مما يزيد المؤمن إيمانًا.

فكم دون القلب من حرس، وكم له من خادم، وكم له من عبيد ولا يشعر به،

---

(1) ٢٧٠ مفتاح جـ١.

ولله ما خلق له، وهيأ له، وأريد منه، وأعد له من الكرامة والنعيم، أو الهوان والعذاب. فإما على سرير الملك في مقعد صدق عند مليك مقتدر، ينظر إلى وجه ربه ويسمع خطابه. وإما أسير في السجن الأعظم بين أطباق النيران في العذاب الأليم.

فلو عقل هذا السلطان ما هيأ له لضن بملكه ولسعى في الملك الذي لا ينقطع ولا يبيد، ولكنه ضربت عليه حجب الغفلة ليقضي الله أمراً كان مفعولاً.

(١) **قوله** تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ﴾ [المؤمنون: ١٨] وهذا أيضاً على أحد القولين، أي تغور العيون في الأرض فلا يقدر على الماء. قال ابن عباس: يريد أن سيغيض فيذهب. فلا يكون من هذا الباب، بل يكون من باب القدرة على ما سيفعله.

(٢) **وأما** الإنشاء فإنما وقع إطلاقه عليه سبحانه فعلاً كقوله ﴿وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ﴾ [الرعد: ١٢]. وقوله: ﴿فَأَنْشَأْنَا لَكُم بِهِ جَنَّاتٍ﴾ [المؤمنون: ١٩] وقوله: ﴿وَنُنْشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الواقعة: ٦١]. وهو كثير ولم يرد لفظ المنشىء.

وأما العبد فيطلق عليه الإنشاء باعتبار آخر وهو شروعه في الفعل وابتداؤه له، يقول: أنشأ يحدثنا، وأنشأ السير، فهو منشىء لذلك، وهذا إنشاء مقيد وإنشاء الرب إنشاء مطلق وهذه اللفظة تدور على معنى الابتداء أنشأه الله أي ابتدأ خلقه، وأنشأ يفعل كذا ابتدأ، وفلان ينشىء الأحاديث أي يبتدىء وضعها والناشىء أول ما ينشأ من السحاب.

(٣) **أخبر** تعالى عن الأمم التي أطبقت على تكذيب الرسل ودمرها الله ـ تعالى ـ فقال ـ تعالى ـ: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضاً وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْداً لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [المؤمنون: ٤٤].

فأخبر عن هؤلاء الأمم أنهم تطابقوا على تكذيب رسلهم وأنه عمهم بالإهلاك. وقال تعالى: ﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ * أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ [الذاريات: ٥٢، ٥٣].

ومعلوم قطعاً أن الله ـ تعالى ـ لم يهلك هذه الأمم الكثيرة إلا بعد ما تبين لهم

---

(١) ٩٩ التبيان.
(٢) ١٣٣ شفاء.
(٣) هداية الحيارى.

الهدى فاختاروا عليه الكفر، ولو لم يتبين لهم الهدى لم يهلكهم، كما قال ـ تعالى ـ: ﴿وما كُنَّا مُهْلِكِي القُرَى إلَّا وأَهْلُها ظالِمُونَ﴾ [القصص: ٥٩] . وقال تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إيمانُها إلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لما آمَنُوا كَشَفْنا عَنْهُمْ عَذَابَ الخِزْي فِي الحياةِ الدُّنْيَا ومَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ﴾ [يونس: ٩٨] . أي فلم يكن قرية آمنت فنفعها إيمانها إلا قوم يونس. . .

(١)**الله** ـ سبحانه ـ ذم الذين تقطعوا أمرهم بينهم زبرا، كل حزب بما لديهم فرحون، والزبر: الكتب المصنفة التي رغبوا بها عن كتاب الله وما بعث الله به رسوله(٢)، فقال تعالى: ﴿يَا أيها الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبات وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ * وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فاتَّقُونِ * فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُراً كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [المؤمنون: ٥١ ـ ٥٣] .

فأمر تعالى الرسل بما أمر به أممهم: أن يأكلوا من الطيبات، وأن يعملوا صالحًا، وأن يعبدوه وحده، وأن يطيعوا أمره وحده، وأن لا يتفرقوا في الدين؛ فمضت الرسل وأتباعهم على ذلك، ممتثلين لأمر الله، قابلين لرحمته، حتى نشأت خُلُوفٌ قَطّعوا أمرهم بينهم زبراً، كل حزب بما لديهم فرحون. فمن تدبر هذه الآيات ونزّلها على الواقع تبين له حقيقة الحال، وعلم من أي الحزبين هو، والله المستعان.

(٣)**فصل** وكل لذة أعقبت ألماً أو منعت لذة أكمل منها فليست بلذة في الحقيقة وإن غالطت النفس في الالتذاذ بها، (فأي لذة) لآكل طعام شهي مسموم يُقطِّع أمعاءه عن قريب؟ وهذه هي لذات الكفار والفُساق بعلوهم في الأرض وفسادهم وفرحهم فيها بغير الحق ومرحهم. وذلك مثل لذة الذين اتخذوا من دون الله أولياء يحبونهم كحب الله فنالوا بهم مَوَدَّة بينهم في الحياة الدنيا. ثم استحالت تلك اللذة أعظم ألمٍ وأمرَّه. ومن ذلك لذة العقائد الفاسدة والفرح بها، ولذة غَلَبة أهل الجوْر والظلم والعدوان والزنى والسرقة وشرب المسكرات. وقد أخبر الله ـ سبحانه وتعالى ـ أنه لم يُمكّنهم من ذلك لخير يريده بهم، إنما هو استدراجٌ منه لينيلهم به أعظم الألم قال الله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّما نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ * نُسَارِعُ لَهُمْ

---

(١) ٢١٠ أعلام جـ٢ .
(٢) تقدم في سورة النساء بحث في هذا الموضوع يحسن الرجوع إليه. (ج). (٣) ١٧٥ روضة المحبين.

في الخيرات بل لا يشعرون﴾ [المؤمنون: ٥٥،٥٦] وقال تعالى: ﴿فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم إنما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون﴾ [التوبة: ٥٥].

فصل (١)

ومن منازل ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾ منزلة «الخوف» وهي من أجل منازل الطريق، وأنفعها للقلب. وهي فرض على كل أحد. قال الله ـ تعالى ـ: ﴿فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين﴾ [آل عمران: ١٧٥] وقال تعالى: ﴿وإياي فارهبون﴾ [البقرة: ٤٠] وقال: ﴿فلا تخشوا الناس واخشون﴾ [المائدة: ٤٤].

ومدح أهله في كتابه وأثنى عليهم. فقال: ﴿إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون﴾ إلى قوله: ﴿أولئك يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون﴾ [المؤمنون: ٥٧ ـ ٦١] وفي المسند والترمذي عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: قلت: يارسول الله، قول الله: ﴿والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة﴾ [المؤمنون: ٦٠] أهو الذي يزني، ويشرب الخمر، ويسرق؟ قال: لا، يا ابنة الصديق. ولكنه الرجل يصوم ويصلي ويتصدق. ويخاف أن لا يُقبل منه».

قال الحسن: عملوا والله بالطاعات، واجتهدوا فيها، وخافوا أن ترد عليهم، إن المؤمن جمع إحسانًا وخشية، والمنافق جمع إساءة وأمناً. و«الوجل» و «الخوف» و «الخشية» و «الرهبة» ألفاظ متقاربة غير مترادفة. قال أبو القاسم الجنيد: الخوف توقع العقوبة على مجارى الأنفاس. وقيل: الخوف اضطراب القلب وحركته من تذكر المخوف. وقيل: الخوف قوة العلم بمجاري الأحكام. وهذا سبب الخوف. لا أنه نفسه. وقيل: الخوف هرب القلب من حلول المكروه عند استشعاره.

والخشية أخص من الخوف. فإن الخشية للعلماء بالله، قال الله ـ تعالى ـ: ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾ فهي خوف مقرون بمعرفة. وقال النبي (ﷺ): «**إني أتقاكم لله، وأشدكم له خشية**».

فالخوف: حركة. والخشية: انجماع، وانقباض، وسكون. فإن الذي يرى العدو والسيل ونحو ذلك: له حالتان. إحداهما: حركة للهرب منه، وهي حالة

---
(١) ٥١١ مدارج جـ١.

الخوف. والثاني: سكونه وقراره في مكان لا يصل إليه فيه. وهي الخشية. ومنه: انخش الشيء، والمضاعف والمعتل أخوان. كتقضى البازي وتقضض.

وأما «الرهبة» فهي الإمعان في الهرب من المكروه. وهي ضد «الرغبة» التي هي سفر القلب في طلب المرغوب فيه. . .

فصل(١)

ومما ينبغي أن يعلم أن من رجا شيئاً استلزم رجاؤه ثلاثة أمور: أحدها محبة ما يرجوه: الثاني خوفه من فواته. الثالث: سعيه في تحصيله بحسب الإمكان.

وأما رجاء لا يقارنه شيء من ذلك فهو من باب الأماني. والرجاء شيء والأماني شيء آخر. فكل راج خائف، والسائر على الطريق إذا خاف أسرع السير مخافة الفوات. وفي جامع الترمذي من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله (ﷺ): **«من خاف أدلج(٢) ومن أدلج بلغ المنزل. ألا إن سلعة الله غالية، ألا إن سلعة الله الجنة». وهو سبحانه كما جعل الرجاء لأهل الأعمال الصالحة، فكذلك جعل الخوف لأهل الأعمال الصالحة فعلم أن الرجاء والخوف النافع هو مااقترن به العمل.**

قال الله تعالى: **﴿إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ * وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ * وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ * أُوْلَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾** [المؤمنون: ٥٧ ـ ٦١] وقد روى الترمذي في جامعه عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: سألت رسول الله (ﷺ) عن هذه الآية، فقلت: أهم الذين يشربون الخمر ويزنون ويسرقون؟ فقال: **«لا يا ابنة الصديق، ولكنهم الذين يصومون ويصلون ويتصدقون ويخافون أن لا يتقبل منهم. أولئك يسارعون في الخيرات»** وقد روي من حديث أبي هريرة أيضاً. والله سبحانه وصف أهل السعادة بالإحسان مع الخوف، ووصف الأشقياء بالإساءة مع الأمن.

ومن تأمل أحوال الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ وجدهم في غاية العمل مع غاية الخوف، ونحن جمعنا بين التقصير بل التفريط والأمن. فهذا الصديق(٣) يقول: وددت أني شعرة في جنب عبد مؤمن. ذكره أحمد عنه.

---

(١) ٤٧ الجواب الكافي.

(٢) الإدلاج: السير بالليل.

(١) **وقال** في إثبات نبوة رسوله باعتبار المتأمل لأحواله ودعوته وما جاء به ﴿**أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ * أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ * أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ**﴾ [المؤمنون: ٦٨ - ٧٠]. فدعا سبحانه إلى تدبر القول وتأمل حال القائل، فإن كون القول كذبا وزوراً يعرف من نفس القول تارة. وتارة من تناقضه واضطرابه وظهور شواهد الكذب عليه، ويعرف من حال القائل تارة. فإن المعروف بالكذب والفجور والمنكر والخداع والمكر لا تكون أقواله إلا مناسبة لأفعاله، ولا يأتي منه من القول والفعل مايتأتى من البار الصادق من كل فاحشة وغدر وفجور وكذب، بل قلب هذا وقصده وعمله وقوله يشبه بعضه بعضًا، وقلب ذلك وقوله وعمله وقصده يشبه بعضه بعضاً. فدعاهم سبحانه إلى تدبر القول وتأمل سيرة القائل وأحواله وحينئذ يتحقق لهم ويتبين حقيقة الأمر وأن ماجاء به أعلى مراتب الصدق.

(٢) فصل

وأما الأدب مع الرسول (ﷺ): فالقرآن مملوء به.

فرأس الأدب معه: كمال التسليم له، والانقياد لأمره، وتلقي خبره بالقبول والتصديق، دون أن يحمله معارضة خيال باطل، يسميه معقولاً، أو يحمله شبهة أو شكًا، أو يقدم عليه آراء الرجال، وزبالات أذهانهم، فيوحده بالتحكيم والتسليم، والانقياد والإذعان. كما وحد المرسِل - سبحانه وتعالى - بالعبادة والخضوع والذل، والإنابة والتوكل.

فهما توحيدان. لا نجاة للعبد من عذاب الله إلا بهما: توحيد المرسل. وتوحيد متابعة الرسول. فلا يحاكم إلى غيره. ولا يرضى بحكم غيره. ولا يقف تنفيذ أمره، وتصديق خبره على عرضه على قول شيخه وإمامه، وذوي مذهبه وطائفته، ومن يعظمه. فإن أذنوا له نفذه وقبل خبره، وإلا فإن طلب السلامة: أعرض عن أمره وخبره وفوضه إليهم، وإلا حرفه عن مواضعه. وسمّى تحريفه: تأويلاً، وحملا. فقال: نؤوله ونحمله.

فلأن يلقى العبدُ ربه بكل ذنب على الإطلاق - ما خلا الشرك بالله - خير له

(١) ٩٨ مختصر الصواعق جـ١.		(٢) ٣٨٧ مدارج جـ٢

من أن يلقاه بهذه الحال. ولقد خاطبت يوماً بعض أكابر هؤلاء. فقلت له: سألتك بالله. لو قُدِّر أن الرسول (ﷺ) حي بين أظهرنا. وقد واجهنا بكلامه وبخطابه: أكان فرضاً علينا أن نتبعه من غير أن نعرضه على رأي غيره وكلامه ومذهبه، أم لا نتبعه حتى نعرض ما سمعناه منه على آراء الناس وعقولهم؟ فقال: بل كان الفرض المبادرة إلى الامتثال من غير التفات إلى سواه. فقلت: فما الذي نسخ هذا الفرض عنا؟ وبأي شيء نسخ؟ فوضع إصبعه على فيه. وبقي باهتاً متحيراً. وما نطق بكلمة.

هذا أدب الخواص معه، لا مخالفة أمره والشرك به، ورفع الأصوات، وإزعاج الأعضاء بالصلاة عليه والتسليم، وعزل كلامه عن اليقين، وأن يستفاد منه معرفة الله، أو يتلقى منه أحكامه، بل المعول في باب معرفة الله: على العقول المنهوكة المتحيرة المتناقضة. وفي الأحكام: على تقليد الرجال وآرائها. والقرآن والسنة إنما نقرؤهما تبركاً، لا أنا نتلقى منهما أصول الدين ولا فروعه. ومن طلب ذلك ورامه عاديناه وسعينا في قطع دابره، واستئصال شأفته ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّن دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ * حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ * لَا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ * قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ تَنكِصُونَ * مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ * أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ * أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ * أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ * وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ * أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ * وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ * وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٣ - ٧٤]. .

والناصح لنفسه، العامل على نجاتها: يتدبر هذه الآيات حق تدبرها. ويتأملها حق تأملها. وينزلها على الواقع: فيرى العجب. ولا يظنها اختصت بقوم كانوا فبانوا «فالحديث لك. واسمعي ياجارة» والله المستعان.

(١) **قال** تعالى: ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ * أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ

---

(١) ١١ مفتاح جـ٢.

جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ * وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٩-٧١].

فأخبر ـ سبحانه ـ أن الحق لو اتبع أهواء العباد فجاء شرع الله ودينه بأهوائهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن، ومعلوم أن عند النفاة يجوز أن يرد شرع الله ودينه بأهواء العباد وأنه لا فرق في نفس الأمر بين ما ورد به وبين ما تقتضيه أهواؤهم إلا مجرد الأمر وأنه لو ورد بأهوائهم جاز وكان تعبداً وديناً وهذه مخالفة صريحة للقرآن، وأنه من المحال أن يتبع الحق أهواءهم، وأن أهواءهم مشتملة على قبح عظيم لو ورد الشرع به لفسد العالم أعلاه وأسفله وما بين ذلك.

ومعلوم أن هذا الفساد إنما يكون لقبح خلاف ما شرعه الله وأمر به ومنافاته لصلاح العالم علويه وسفليه، وأن خراب العالم وفساده لازم لحصوله ولشرعه، وأن كمال حكمة الله وكمال علمه ورحمته وربوبيته يأبى ذلك ويمنع منه، ومن يقول: الجميع في نفس الأمر سواء، يجوز ورود التعبد بكل شيء سواء كان من مقتضى أهوائهم أو خلافها. ومثل هذا قوله ـ تعالى ـ: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ﴾ [الأنبياء: ٢٢] أي لو كان في السموات والأرض آلهة تعبد غير الله لفسدتا وبطلتا ولم يقل: أرباب، بل قال: آلهة، والإله هو المعبود المألوه، وهذا يدل على أنه من الممتنع المستحيل عقلاً أن يشرع الله عبادة غيره أبداً، وأنه لو كان معه معبود سواه لفسدت السموات والأرض، فقبح عبادة غيره قد استقر في الفطر والعقول، وإن لم يرد بالنهي عنه شرع، بل العقل يدل على أنه أقبح القبيح على الإطلاق، وأنه من المحال أن يشرعه الله قط فصلاح العالم في أن يكون الله وحده هو المعبود. وفساده وهلاكه في أن يعبد معه غيره، ومحال أن يشرع لعباده ما فيه فساد العالم وهلاكه، بل هو المنزه عن ذلك.

(١)... **وفي** هذا المشهد: (٢) يتحقق للعبد مقام ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ علماً وحالاً، فيثبت قدم العبد في توحيد الربوبية، ثم يرقى منه صاعداً إلى توحيد الإلهية. فإنه إذا تيقن أن الضر والنفع، والعطاء والمنع. والهدى والضلال، والسعادة والشقاء: كل ذلك بيد الله لا بيد غيره، وأنه الذي يقلب القلوب،

---

(١) ٤١١ مدارج جـ١.　　(٢) أي مشهد التوحيد.

ويصرفها كيف يشاء. وأنه لا موفَّق إلا من وفقه وأعانه، ولا مخذول إلا من خذله وأهانه وتخلى عنه. وأن أصح القلوب وأسلمها وأقومها، وأرقها وأصفاها، وأشدها وألينها: من اتخذه وحده إلهاً ومعبوداً. فكان أحب إليه من كل ما سواه، وأخوف عنده من كل ما سواه، وأرجى له من كل ما سواه. فتتقدم محبته في قلبه جميع المحاب، فتنساق المحابُّ تبعاً لها كما ينساق الجيش تبعاً للسلطان. ويتقدم خوفه في قلبه جميع المخوفات، فتنساق المخاوف تبعاً لخوفه. ويتقدم رجاؤه في قلبه جميع الرجاء، فينساق كل رجاء تبعاً لرجائه. فهذا علامة توحيد الإلهية في هذا القلب، والباب الذي دخل إليه منه توحيد الربوبية، أي بابُ توحيد الإلهية: هو توحيد الربوبية. فإن أول ما يتعلق القلب يتعلق بتوحيد الربوبية. ثم يرتقي إلى توحيد الإلهية، كما يدعو الله سبحانه عباده في كتابه بهذا النوع من التوحيد إلى النوع الآخر. ويحتج عليهم به، ويقررهم به. ثم يخبر أنهم ينقضونه بشركهم به في الإلهية.

وفي هذا المشهد يتحقق له مقام ﴿إياك نعبد﴾ قال الله ـ تعالى ـ: **﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾** [الزخرف: ٨٧] أي فأين يصرفون عن شهادة أن لا إله إلا الله، وعن عبادته وحده، وهم يشهدون: أنه لا رب غيره، ولا خالق سواه. وكذلك قوله تعالى: **﴿لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لِلهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾** [المؤمنون: ٨٤، ٨٥] فتعلمون أنه إذا كان هو وحده مالك الأرض ومن فيها، وخالقهم وربهم ومليكهم، فهو وحده إلـههم ومعبودهم. فكما لا رب لهم غيره، فهكذا لا إلـه لهم سواه **﴿قُلْ مَن رَّبُّ السَّمٰوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ * سَيَقُولُونَ لِلهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ * قل من بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾** الآيات [المؤمنون: ٨٦ ـ ٨٨].

(١)**وقال** تعالى: **﴿مَا اتَّخَذَ اللهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِن إِلَـٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَـٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾** [المؤمنون: ٩١].

فتأمل هذا البرهان الباهر بهذا اللفظ الوجيز البين، فإن الإله الحق لابد أن يكون خالقًا فاعلاً، يوصل إلى عابده النفع، ويدفع عنه الضر. فلو كان معه ـ سبحانه ـ إله لكان له خلق وفعل، وحينئذ فلا يرضى شركة الإله الآخر معه، بل

(١) ٩٥ مختصر الصواعق جـ١.

إن قدر على قهره وتفرده بالآلهية دونه فعل، وإن لم يقدر على ذلك انفرد بخلقه وذهب به. كما ينفرد ملوك الدنيا بعضهم عن بعض. بمماليكهم إذالم يقدر المنفرد على قهر الآخر والعلو عليه. فلابد من أحد أمور ثلاثة:

إما أن يذهب كل إله بخلقه وسلطانه. وإما أن يعلو بعضهم على بعض. وإما أن يكونوا كلهم تحت قهر إله واحد، يتصرف فيهم ولا يتصرفون فيه، ويمتنع من حكمهم ولا يمتنعون من حكمه فيكون وحده هو الإلـه وهم العبيد المربوبون المقهورون..

(١) **وقوله:** ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ﴾ [النحل: ١٧] وقوله: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ [النحل: ٢٠] وقوله: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ [الفرقان: ٣] وهو كثير في القرآن. وبه تتم الحجة كما تبين. والمقصود: أن العبد يحصل له هذا المشهد من مطالعة الجنايات والذنوب، وجريانها عليه وعلى الخليقة بتقدير العزيز الحكيم. وأنه لا عاصم من غضبه وأسباب سخطه إلا هو. ولاسبيل إلى طاعته إلا بمعونته. ولا وصول إلى مرضاته إلا بتوفيقه. فموارد الأمور كلها منه. ومصادرها إليه. وأزمة التوفيق جميعها بيديه، فلا مستعان للعباد إلا به، ولا مُتَّكَلَ إلا عليه. كما قال شعيب خطيب الأنبياء: ﴿وَمَاتَوْفِيقِي إِلَّا بِاللهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨].

(٢) **قال** تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ * وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾ [المؤمنون: ٩٧، ٩٨].

والهمزات: جمع هَمزة كتمرات وتمرة. وأصل الهمز الدفع. قال أَبوعبيد عن الكسائي: همزته، ولَمْزْته، ولهزته، ونهزته ـ إذا دفعته. والتحقيق: أنه دفع بنَخْز، وغَمْز يشبه الطعن، فهو دفع خاص، فهمزات الشياطين: دفعهم الوساوس والإغواء إلى القلب. قال ابن عباس والحسن «همزات الشياطين: نزغاتهم ووساوسهم». وفسرت همزاتهم بنفخهم ونفثهم، وهذا قول مجاهد.

وفسرت بخنقهم وهو الموتة التي تشبه الجنون.

وظاهر الحديث أن الهمز نوع غير النفخ والنفث، وقد يقال ـ وهو الأظهر ـ إن همزات الشياطين إذا أفردت دخل فيها جميع إصاباتهم لابن آدم، وإذا قرنت بالنفخ

(١) ٤١٢ مدارج جـ١.
(٢) ٩٥ إغاثة جـ١

والنفث كانت نوعًا خاصًا، كنظائر ذلك.

ثم قال: ﴿وأعوذ بك رب أن يحضرون﴾ قال ابن زيد: في أموري، وقال الكلبي: عند تلاوة القرآن، وقال عكرمة: عند النزع والسياق، فأمره أن يستعيذ من نوعي شر إصابتهم بالهمز وقربهم ودنوّهم منه.

فتضمنت الاستعاذة أن لا يمسوه ولا يقربوه، وذكر ذلك سبحانه عقيب قوله: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾ [المؤمنون: ٩٦] فأمره أن يحترز من شر شياطين الإنس بدفع إساءتهم إليه بالتي هي أحسن، وأن يدفع شر شياطين الجن بالاستعاذة منهم. ونظير هذا قوله في سورة الأعراف: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩] فأمره بدفع شر الجاهلين بالإعراض عنهم، ثم أمره بدفع شر الشيطان بالاستعاذة منه فقال: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [فصلت: ٣٦].

(١)**الأمر** التاسع: أنه ينبغي أن يعلم أن عذاب القبر ونعيمه اسم لعذاب البرزخ ونعيمه، وهو ما بين الدنيا والآخرة، وقال تعالى: ﴿وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٠] وهذا البرزخ يشرف أهله فيه على الدنيا والآخرة، وسمى عذاب القبر ونعيمه وأنه روضة أو حفرة نار، باعتبار غالب الخلق، فالمصلوب والحريق والغريق وأكيل السباع والطيور له من عذاب البرزخ ونعيمه قسطه الذي تقتضيه أعماله، وإن تنوعت أسباب النعيم والعذاب وكيفياتها، فقد ظن بعض الأوائل أنه إذا حرق جسده بالنار وصار رمادًا، وذرى بعضه في البحر وبعضه في البر في يوم شديد الريح: أنه ينجو من ذلك، فأوصى بنيه أن يفعلوا به ذلك، فأمر الله البحر فجمع ما فيه، وأمر البر فجمع مافيه، ثم قال: قم، فإذا هو قائم بين يدي الله، فسأله: ماحملك على مافعلت؟ فقال: خشيتك يارب، وأنت أعلم. فما تلافاه أن رحمه، فلم يفت عذاب البرزخ ونعيمه لهذه الأجزاء التي صارت في هذه الحال حتى لو علق الميت على رءوس الأشجار في مهاب الرياح لأصاب جسده من عذاب البرزخ حظه ونصيبه، ولو دفن الرجل الصالح في أتون من النار لأصاب جسده من نعيم البرزخ وروحه نصيبه وحظه، فيجعل الله النار

---

(١) ٩٠ الروح.

على هذا بردًا وسلامًا، والهواء على ذلك نارًا وسمومًا، فعناصر العالم ومواده منقادة لربها وفاطرها وخالقها يصرفها كيف يشاء، ولا يستعصى عليه منها شيء أراده، بل هي طوع مشيئته مذللة منقادة لقدرته، ومن أنكر هذا فقد جحد رب العالمين، وكفر به وأنكر ربوبيته.

فصل

الأمر العاشر: أن الموت معاد وبعث أول، فإن الله ـ سبحانه وتعالى ـ جعل لابن آدم معادين وبعثين، يجزي فيهما الذين أساؤا بما عملوا، ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى. فالبعث الأول مفارقة الروح للبدن ومصيرها إلى دار الجزاء الأول. والبعث الثاني يوم يرد الله الأرواح إلى أجسادها ويبعثها من قبورها إلى الجنة أو النار وهو الحشر الثاني. ولهذا في الحديث الصحيح «وتؤمن بالبعث الآخر» فإن البعث الأول لا ينكره أحد وإن أنكر كثير من الناس الجزاء فيه والنعيم والعذاب.

وقد ذكر الله سبحانه وتعالى هاتين القيامتين، وهما الصغرى والكبرى في سورة المؤمنين وسورة الواقعة وسورة القيامة وسورة المطففين وسورة الفجر وغيرها من السور، وقد اقتضى عدله وحكمته أن جعلها داري جزاء المحسن والمسيء، ولكن توفية الجزاء إنما يكون يوم المعاد الثاني في دار القرار. كما قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُم يَوْمَ القِيَامَةِ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

وقد اقتضى عدله وأوجبت أسماؤه الحسنى وكماله المقدس تنعيم أبدان أوليائه وأرواحهم، وتعذيب أبدان أعدائه وأرواحهم، فلابد أن يذيق بدن المطيع له وروحه من النعيم واللذة مايليق به ويذيق بدن الفاجر العاصي له وروحه من الألم والعقوبة مايستحقه، هذا موجب عدله وحكمته وكماله المقدس، ولما كانت هذه الدار دار تكليف وامتحان لا دار جزاء لم يظهر فيها ذلك.

وأما البرزخ فأول دار الجزاء فظهر فيها من ذلك مايليق بتلك الدار وتقتضي الحكمة إظهاره، فإذا كان يوم القيامة الكبرى وفي أهل الطاعة وأهل المعصية مايستحقونه من نعيم الأبدان والأرواح وعذابها.

فعذاب البرزخ ونعيمه أول عذاب الآخرة ونعيمها، وهو مشتق منه، وواصل إلى أهل البرزخ هناك، كما دل عليه القرآن والسنة الصحيحة الصريحة، في غير

موضع دلالة صريحة كقوله ﷺ: «**فيفتح له باب إلى الجنة، فيأتيه من روحها ونعيمها**» وفي الفاجر: «**فيفتح له باب إلى النار فيأتيه من حرّها وسمومها**».

ومعلوم قطعًا أن البدن يأخذ حظه من هذا الباب، كما تأخذ الروح حظها، فإذا كان يوم القيامة دخل من ذلك الباب إلى مقعده الذي هو داخله.

وهذان البابان يصل منهما إلى العبد في هذه الدار أثر خفي محجوب بالشواغل والغواشي الحسية والعوارض، ولكن يحس به كثير من الناس وإن لم يعرف سببه ولا يحسن التعبير عنه فوجود الشيء غير الأحساس به والتعبير عنه.

فإذا مات كان وصول ذلك الأثر إليه من ذينك البابين أكمل، فحكمة الرب تعالى منتظمة لذلك أكمل انتظام في الدور الثلاث. اهـ.

(١)﴿**أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ**﴾ [المؤمنون: ١١٥] ثم نزه نفسه عن هذا الحسبان المضاد لحكمته وعلمه وحمده، فقال: ﴿**فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ**﴾ [المؤمنون: ١١٦].

وتأمل ما في هذين الاسمين وهما الملك الحق من إبطال هذا الحسبان الذي ظنه أعداؤه إذ هو مناف لكمال ملكه ولكونه الحق، إذ الملِك الحق هو الذي يكون له الأمر والنهي فيتصرف في خلقه بقوله وأمره، وهذا هو الفرق بين الملِك والمالك، إذ المالك هو المتصرف بفعله، والملك هو المتصرف بفعله وأمره، والرب تعالى مالك الملك فهو المتصرف بفعله وأمره.

فمن ظن أنه خلق خلقه عبثًا لم يأمرهم ولم ينههم، فقد طعن في ملكه، ولم يقدره حق قدره. كما قال ـ تعالى ـ: ﴿**وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ**﴾ [الأنعام: ٩١].

فمن جحد شرع الله وأمره ونهيه وجعل الخلق بمنزلة الأنعام المهملة فقد طعن في ملك الله ولم يقدره حق قدره. وكذلك كونه تعالى إلـه الخلق يقتضى كمال ذاته وصفاته وأسمائه ووقوع أفعاله على أكمل الوجوه وأتمها.

فكما أن ذاته الحق، فقوله الحق، ووعده الحق، وأمره الحق، وأفعاله كلها حق، وجزاءه المستلزم لشرعه ودينه ولليوم الآخر حق.

---

(١) ١٦٤ بدائع جـ٤.

فمن أنكر شيئًا من ذلك فما وصف الله بأنه الحق المطلق من كل وجه، وبكل اعتبار، فكونه حقًا يستلزم شرعه ودينه وثوابه وعقابه .

فكيف يظن بالملك الحق أن يخلق عبثًا وأن يتركهم سدى لا يأمرهم ولا ينهاهم ولا يثيبهم ولا يعاقبهم كما قال تعالى: ﴿**أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى**﴾ [القيامة: ٣٦]. قال الشافعي رحمه الله: مهملاً؛ لا يؤمر ولا ينهى. وقال غيره: لا يجزى بالخير والشر، ولا يثاب، ولا يعاقب والقولان متلازمان. فالشافعي ذكر سبب الجزاء والثواب والعقاب وهو الأمر والنهي، و الآخر ذكر غاية الأمر والنهي وهو الثواب والعقاب.

ثم تأمل قوله تعالى بعد ذلك: ﴿**أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ * ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ**﴾ [القيامة: ٣٧، ٣٨] فمن لم يتركه وهو نطفة سدى بل قلب النطفة وصرفها حتى صارت أكمل مما هي، وهي العلقة، ثم قلب العلقة حتى صارت أكمل مما هي حتى خلقها فسوى خلقها فدبرها بتصريفه وحكمته في أطوار كمالاتها حتى انتهى كمالها بشرًا سويًا فكيف يتركه سدى لا يسوقه إلى غاية كماله الذي خلق له، فإذا تأمل العاقل البصير أحوال النطفة من مبدئها إلى منتهاها دلته على المعاد والنبوات، كما تدله على إثبات الصانع وتوحيده وصفات كماله، فكما تدل أحوال النطفة من مبدئها إلى غايتها على كمال قدرة فاطر الإنسان وبارئه، فكذلك تدل على كمال حكمته وعلمه وملكه وأنه الملك الحق المتعالي عن أن يخلقها عبثًا ويتركها سدى بعد كمال خلقها.

وتأمل كيف لما زعم أعداؤه الكافرون أنه لم يأمرهم ولم ينههم علي ألسنة رسله، وإنه لا يبعثهم للثواب والعقاب كيف كان هذا الزعم منهم قولاً بأن خلق السموات والأرض باطل فقال تعالى: ﴿**وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ**﴾ [ص: ٢٧].

فلما ظن أعداؤه أنه لم يرسل إليهم رسولاً، ولم يجعل لهم أجلاً للقائه، كان ذلك ظنًا منهم أنه خلق خلقه باطلاً.

(١)**قوله:** وأي حكمة في تكليف الثقلين وتعريضهم بذلك للعقوبة وأنواع

(١) ٢٦٦ شفاء العليل.

المشاق. فاعلم أنه لولا التكليف لكان خلق الإنسان عبثًا وسدى، والله يتعالى عن ذلك، وقد نزه نفسه عنه، كما نزه نفسه عن العيوب والنقائص.

قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥]. وقال: ﴿أَيَحْسَبُ الإنسَانُ أن يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة: ٣٦] قال الشافعي لا يؤمر ولا ينهى، ومعلوم أن ترك الإنسان كالبهائم مهملاً معطلاً مضاد للحكمة، فإنه خلق لغاية كماله. وكماله أن يكون عارفًا بربه محبًّا له قائمًا بعبوديته.

قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الجنَّ والإنسَ إلاّ لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]. وقال: ﴿لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ الله قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق: ١٢]. وقال: ﴿ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ الله يَعْلَمُ مَافِي السَّمَواتِ وَمَافِي الأرض وَأَنَّ الله بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٩٧].

فهذه المعرفة وهذه العبودية هما غاية الخلق والأمر، وهما أعظم كمال الإنسان، والله تعالى منْ عنايته به ورحمته له عرضه لهذا الكمال، وهيأ له أسبابه الظاهرة والباطنة ومكنه منها. ومدار التكليف على الإسلام والإيمان والاحسان، وهي ترجع إلى شكر المنعم كلها دقيقها وجليلها منه وتعظيمه وإجلاله ومعاملته بما يليق أن يعامل به، فتذكر آلاؤه، وتشكر فلا يكفر، ويطاع فلا يعصى، ويذكر فلا ينسى، هذا مع تضمن التكليف لاتصاف العبد بكل خلق جميل وإتيانه بكل فعل جميل وقول سديد، واجتنابه لكل خلق سيء، وترك كل فعل قبيح وقول زور.

فتكليفه متضمن لمكارم الأخلاق ومحاسن الأفعال، وصدق القول والإحسان إلى الخليقة وتكميل نفسه بأنواع الكمالات وهجر أضداد ذلك، والتنزه عنها مع تعريضه بذلك التكليف للثواب الجزيل الدائم ومجاورة ربه في دار البقاء فأي الأمرين أليق بالحكمة هذا أو إرساله هملاً: كالخيل والبغال والحمير، يأكل ويشرب وينكح: كالبهائم أيقتضى كماله المقدس ذلك فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم. وكيف يليق بذلك الكمال طي بساط الأمر والنهي والثواب والعقاب وترك إرسال الرسل وإنزال الكتب وشرع الشرائع وتقرير الأحكام. وهل عرف الله من جوز عليه خلاف ذلك وهل ذلك إلا من سوء الظن به قال تعالى: ﴿وَمَاقَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَاأَنزَلَ اللهُ عَلى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٩١].

فحسن التكليف في العقول كحسن الإحسان والإنعام والتفضل والطول، بل هو من أبلغ أنواع الإحسان والإنعام، ولهذا سمى سبحانه ذلك نعمة ومنة وفضلاً ورحمة، وأخبر أن الفرح به خير من الفرح بالنعم المشتركة بين الأبرار والفجار. قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللهِ كُفْرًا﴾ [إبراهيم: ٢٨] فنعمة الله هاهنا نعمته بمحمد ﷺ ومابعثه به من الهدى ودين الحق. وقال: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً من أنفسهم يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آياتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الكِتَابَ والحِكْمَةَ وإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤]. وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الكِتَابَ والحِكْمَةَ وإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ * وآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ * ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَاللهُ ذُو الفَضْلِ العَظِيمِ﴾ [الجمعة: ٢ـ٤]. وقال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]. وقال: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨]. وقال: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]. وقال: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ الكِتَابِ وَالحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِ﴾ [البقرة: ٢٣١]. وقال: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الكُفْرَ وَالفُسُوقَ وَالعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ * فَضْلاً مِّنَ اللهِ وَنِعْمَةً وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [الحجرات: ٧، ٨]. وقال لرسوله: ﴿وَأَنزَلَ اللهُ عَلَيْكَ الكِتَابَ وَالحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾

وهل النعمة والفضل في الحقيقة إلا ذلك وتوابعه وثمرته في القلوب والأبدان في الدنيا والآخرة، وهل في العقول السليمة والفطر المستقيمة أحسن من ذلك وأليق بكمال الرب وأسمائه وصفاته.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة المؤمنون

والحمد لله رب العالمين



بسم الله الرحمن الرحيم

...[1]**في** الصحيحين عن أنس بن مالك أنه قال: لأحدثنكم حديثًا لا يحدثكموه أحد بعدي سمعته من النبي ، ﷺ ، يقول: «**من أشراط الساعة أن يرفع العلم، ويظهر الجهل، ويُشرب الخمر، ويظهر الزنى، ويقل الرجال، وتكثر النساء حتى يكون لخمسين امرأة القيم الواحد**».

وقد جرت سنة الله سبحانه في خلقه أنه عند ظهور الزنى يغضب الله سبحانه وتعالى ويشتد غضبه فلابد أن يؤثر غضبه في الأرض عقوبة.

قال عبدالله بن مسعود: «ما ظهر الربا والزنى في قرية إلا أذن الله بإهلاكها».

ورأى بعض أحبار بني إسرائيل ابنًا له يغامز امرأة فقال: مهلاً يا بني، فصرع الأب عن سريره فانقطع نخاعه وأسقطت امرأته وقيل له «هكذا غضبك لي؟ لا يكون في جنسك خير أبدًا».

وخص سبحانه حد الزنى من بين سائر الحدود بثلاث خصائص:

أحدها: القتل فيه بأشنع القتلات، وحيث خففه فجمع فيه بين العقوبة على البدن بالجلد وعلى القلب بتغريبه عن وطنه سنة.

الثاني: أنه نهى عباده أن تأخذهم بالزناة رأفة في دينه بحيث تمنعهم من إقامة الحد عليهم؛ فإنه سبحانه من رأفته بهم ورحمته بهم شرع هذه العقوبة، فهو أرحم بهم منكم بهم، ولم تمنعه رحمته من أمره بهذه العقوبة، فلا يمنعكم أنتم ما يقوم بقلوبكم من الرأفة من إقامة أمره.

وهذا وإن كان عامًّا في سائر الحدود، ولكن ذُكر في حد الزنى خاصة لشدة الحاجة إلى ذكره؛ فإن الناس لا يجدون في قلوبهم من الغلظة والقسوة على الزاني ما يجدونه على السارق والقاذف وشارب الخمر؛ فقلوبهم ترحم الزاني أكثر مما ترحم غيره من أرباب الجرائم والوقائع. والواقع شاهد بذلك، فنهوا أن تأخذهم هذه الرأفة وتحملهم على تعطيل حد الله عز وجل.

(١) ٢٢٠ الجواب الكافي.

وسبب هذه الرحمة أن هذا ذنب يقع من الأشراف والأوساط والأراذل، وفي النفوس أقوى الدواعي إليه، والمشارك فيه كثير، وأكثر أسبابه العشق، والقلوب مجبولة على رحمة العاشق، وكثير من الناس يعد مساعدته طاعة وقربة، وإن كانت الصور المعشوقة محرمة عليه، ولا يستنكر هذا الأمر، فهو مستقر عند من شاء الله من أشباه الأنعام. ولقد حكي لنا من ذلك شيء كثير أكثره عن ناقصي العقول والأديان كالخدم والنساء.

وأيضا فإن هذا ذنب غالب ما يقع مع التراضي من الجانبين، فلا يقع فيه من العدوان والظلم والاغتصاب ما تنفر النفوس منه، وفيه شهوة غالبة له، فتصور ذلك لنفسها فتقوم بها رحمة تمنع إقامة الحد. وهذا كله من ضعف الإيمان.

وكمال الإيمان أن تقوم به قوة يقيم بها أمر الله، ورحمة يرحم بها المحدود فيكون موافقًا لربه سبحانه في أمره ورحمته.

الثالث: أنه سبحانه أمر أن يكون حدهما بمشهد من المؤمنين فلا يكون في خلوة حيث لا يراهما أحد، وذلك أبلغ في مصلحة الحد وحكمة الزجر.

وحد الزاني المحصن مشتق من عقوبة الله تعالى لقوم لوط بالقذف بالحجارة؛ وذلك لاشتراك الزنى واللواط في الفحش، وفي كل منهما فساد يناقض حكمة الله في خلقه وأمره.

فإن في اللواط من المفاسد ما يفوت الحصر والتعداد، ولأن يقتل المفعول به خير له من أن يؤتى؛ فإنه يفسد فسادًا لا يرجى له بعده صلاح أبدًا ويذهب خيره كله، وتمص الأرض ماء الحياء من وجهه، فلا يستحي بعد ذلك لا من الله ولا من خلقه، وتعمل في قلبه وروحه نطفة الفاعل ما يعمل السم في البدن.

...[1]**فليس** في الذنوب أفسد للقلب والدين من هاتين الفاحشتين، ولهما خاصية في تبعيد القلب من الله، فإنهما من أعظم الخبائث، فإذا انصبغ القلب بهما بعد ممن هو طيب، لا يصعد إليه إلا طيب، وكلما ازداد خبثًا ازداد من الله بعدًا.

ولهذا قال المسيح فيما رواه الإمام أحمد في كتاب الزهد: «لا يكون البطَّالون من الحكماء، ولا يلجُ الزناة ملكوت السماء».

(١) ٦٥ إغاثة جـ١.

ولما كانت هذه حال الزنا كان قريبًا للشرك في كتاب الله تعالى، قال الله تعالى: ﴿**الزَّاني لَا يَنْكِحُ إلاَّ زانيةً أوْ مُشرِكةً والزَّانِيَةُ لا يَنكِحُها إلاَّ زَانٍ أَوْ مُشرِكٌ وحُرِّم ذلِكَ عَلى المُؤْمنينَ**﴾. [النور: ٣].

والصواب: القول بأن هذه الآية محكمة يعمل بها لم ينسخها شيء، وهي مشتملة على خبر وتحريم، ولم يأت من ادّعى نسخها بحجة البتة.

والذي أشكل على كثير من الناس واضح بحمد الله تعالى، فإنهم أشكل عليهم قوله: ﴿**الزَّاني لا ينكِحُ إلاَّ زانِية أَوْ مُشركَة**﴾ هل هو خبر أو نهي، أو إباحة؟

فإن كان خبرًا فقد رأينا كثيرًا من الزناة ينكح عفيفة.

وإن كان نهيًا فيكون قد نهى الزاني أن يتزوج إلا بزانية أو مشركة، فيكون نهيًا له عن نكاح المؤمنات العفائف، وإباحة له في نكاح المشركات والزواني، والله سبحانه لم يرد ذلك قطعًا. فلما أشكل عليهم ذلك طلبوا للآية وجهًا يصح حملها عليه.

فقال بعضهم: المراد من النكاح الوطء والزنا، فكأنه قال: الزاني لا يزني إلا بزانية أو مشركة، وهذا فاسد، فإنه لا فائدة فيه، ويصان كلام الله تعالى عن حمله على مثل ذلك؛ فإنه من المعلوم أن الزاني لا يزني إلا بزانية، فأي فائدة في الإخبار بذلك؟ **ولما** رأى الجمهور فساد هذا التأويل أعرضوا عنه.

ثم قالت طائفة: هذا عام اللفظ خاص المعنى، والمراد به رجل واحد وامرأة واحدة، وهي عناق البَغِي وصاحبها[1] فإنه أسلم، واستأذن رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم في نكاحها. فنزلت هذه الآية.

وهذا أيضًا فاسد، فإن هذه الصورة المعينة وإن كانت سبب النزول فالقرآن لا يقتصر به على محال أسبابه، ولو كان كذلك لبطل الاستدلال به على غيرها.

وقالت طائفة: بل الآية منسوخة بقوله: ﴿**وأَنْكِحُوا الأَيامَى مِنْكُمْ**﴾. [النور: ٣٢]. وهذا أفسد من الكل، فإنه لا تعارض بين هاتين الآيتين، ولا تناقض إحداهما الأخرى، بل أمر سبحانه بإنكاح الأيامى، وحرَّم نكاح الزانية، كما حرَّم

---

(١) هو مرثد بن أبي مرثد. وكان رجلاً يحمل الأسرى من مكة حتى يأتي بهم المدينة، وحديثه رواه أبو داود والترمذي والنسائي في كتاب النكاح. وذكره الحافظ ابن كثير في تفسير الآية من سورة النور.

نكاح المعتدة والمحرمة، وذوات المحارم، فأين الناسخ والمنسوخ في هذا؟

فإن قيل: فما وجه الآية؟

قيل: وجهها ـ والله أعلم ـ أن المتزوج أمر أن يتزوج المحصنة العفيفة، وإنما أبيح له نكاح المرأة بهذا الشرط، كما ذكر ذلك سبحانه في سورتي النساء والمائدة[1] والحكم المعلق على الشرط ينتفي عند انتفائه، والإباحة قد علِّقت على شرط الإحصان، فإذا انتفى الإحصان انتفت الإباحة المشروطة به.

فالمتزوج إما أن يلتزم حكم الله وشرعه الذي شرعه على لسان رسوله، أو لا يلتزمه، فإن لم يلتزمه فهو مشرك لا يرضى بنكاحه إلا من هو مشرك مثله، وإن التزمه وخالفه ونكح ما حرم عليه، لم يصح النكاح، فيكون زانيًا، فظهر معنى قوله: ﴿**لا يَنْكِحُ إلاَّ زَانيةً أَوْ مُشْرِكَةً**﴾. [النور: ٣]. وتبين غاية البيان، وكذلك حكم المرأة.

وكما أن هذا الحكم هو موجب القرآن وصريحه فهو موجب الفطرة، ومقتضى العقل، فإن الله سبحانه حرم على عبده أن يكون قَرْنانًا[2] دَيُّوثًا زوج بغي، فإن الله تعالى فطر الناس على استقباح ذلك واستهجانه، ولهذا إذا بالغوا في سب الرجل قالوا: زوج قحبة، فحرَّم الله على المسلم أن يكون كذلك.

فظهرت حكمة التحريم وبان معنى الآية، والله الموفق.

ومما يوضح التحريم، وأنه هو الذي يليق بهذه الشريعة الكاملة: أن هذه الجناية من المرأة تعود بفساد فراش الزوج، وفساد النسب الذي جعله الله تعالى بين الناس لتمام مصالحهم، وعده من جملة نعمه عليهم، فالزنا يفضي إلى اختلاط المياه، واشتباه الأنساب، فمن محاسن الشريعة: تحريم نكاح الزانية، حتى تتوب وتستبرأ.

وأيضا فإن الزانية خبيثة، كما تقدم بيانه، والله سبحانه جعل النكاح سببًا للمودة والرحمة، والمودة خالص الحب، فكيف تكون الخبيثة مودودة للطيب، زوجًا

---

(١) قال تعالى في سورة النساء: ﴿**فانْكِحُوا ما طاب لكم من النساء**﴾. [النساء: ٣]. وقال فيها أيضًا: ﴿**وأحلَّ لكم ما وراء ذلكُم أن تبتَغُوا بأموالكم مُحصنين غير مسافِحين**﴾. [النساء: ٢٣]. وقال في سورة المائدة: ﴿**والمُحصناتُ مِن المؤمنات والمحصنات من الذينَ أُوتُوا الكتاب مِنْ قبلكم**﴾.

(٢) القَرْنَانُ: نعت سوء في الرجل الذي لا غيرة له. اللسان ١٣/٣٣٨.

الديوث المشارك في قرينته لزوجته القاموس ١٥٧٩ ـ المراجع.

له، والزوج سمّي زوجًا من الازدواج وهو الاشتباه، فالزوجان الاثنان المتشابهان، والمنافرة ثابتة بين الطيب والخبيث شرعًا وقَدَرًا، فلا يحصل معها الازدواج والتراحم والتواد، فلقد أحسن كل الإحسان من ذهب إلى هذا المذهب، ومنع الرجل أن يكون زوج قحبة.

فأين هذا من قول من جوز أن يتزوجها ويطأها الليلة، وقد وطئها الزاني البارحة، وقال: ماء الزاني لا حرمة له، فهب أن الأمر كذلك، فماء الزوج له حرمة، فكيف يجوز اجتماعه مع ماء الزاني في رحم واحد؟

والمقصود: أن الله سبحانه سمى الزواني والزناة خبيثين وخبيثات، وجنس هذا الفعل قد شرعت فيه الطهارة، وإن كان حلالاً، وسمي فاعله جنبًا، لبعده عن قراءة القرآن، وعن الصلاة، وعن المساجد، فمنع من ذلك كله حتى يتطهر بالماء.

فكذلك إذا كان حرامًا يبعد القلب عن الله تعالى، وعن الدار الآخرة، بل يحول بينه وبين الإيمان، حتى يحدث طهرًا كاملاً بالتوبة، وطهرًا لبدنه بالماء. وقول اللوطية **﴿أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾**. [الأعراف: ٨٢]. من جنس قوله سبحانه في أصحاب الأخدود: **﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾**. [البروج: ٨]. وقوله تعالى: **﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ﴾**. [المائدة: ٥٩].

وهكذا المشرك إنما ينقم على الموحد تجريده للتوحيد، وأنه لا يشوبه بالإشراك.

وهكذا المبتدع: إنما ينقم على السني تجريده متابعة الرسول، وأنه لم يشبها بآراء الرجال، ولا بشيء مما خالفها. فصبر الموحد المتبع للرسول على ما ينقمه عليه أهل الشرك والبدعة خير له وأنفع، وأسهل عليه من صبره على ما ينقمه الله ورسوله عليه من موافقة أهل الشرك والبدعة.

إذا لم يكن بد من الصبر فاصطبر على الحق ذاك الصبر تُحْمد عقباه

فصل وأما نكاح الزانية(١)

فقد صرح الله سبحانه وتعالى بتحريمه في سورة النور، وأخبر أن من نكحها فهو إما زان أو مشرك. فإنه إما أن يلتزم حكمه سبحانه، ويعتقد وجوبه عليه أو لا، فإن لم يلتزمه ولم يعتقده فهو مشرك، وإن التزمه واعتقد وجوبه وخالفه فهو زان. ثم صرح بتحريمه فقال: ﴿وحُرِّمَ ذلكَ على المُؤْمِنِينَ﴾. [النور: ٣].

ولا يخفى أن دعوى النسخ للآية بقوله: ﴿وأَنْكِحُوا الأَيَامَى مِنْكُم﴾ من أضعف ما يقال. **وأضعف** منه: حمل النكاح على الزنا، إذ يصير معنى الآية: الزاني لا يزني إلا بزانية أو مشركة، والزانية لا يزني بها إلا زان أو مشرك. وكلام الله ينبغي أن يصان عن مثل هذا.

وكذلك حمل الآية على امرأة بَغِيّ مشركة: في غاية البعد عن لفظها وسياقها، كيف وهو سبحانه إنما أباح نكاح الحرائر والإماء بشرط الإحصان. وهو العفة، فقال: ﴿فانْكِحُوهُنَّ بإذْنِ أَهْلِهِنَّ وآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بالمَعْرُوفِ مُحْصَناتٍ غيرَ مُسَافِحَاتٍ ولاَ مُتَّخِذاتِ أخْدَانٍ﴾. [النساء: ٢٥].

فإنما أباح نكاحها في هذه الحالة دون غيرها وليس هذا من باب دلالة المفهوم؛ فإن الأبضاع في الأصل على التحريم، فيقتصر في إباحتها على ما ورد به الشرع. وما عداه فعلى أصل التحريم.

وأيضا: فإنه سبحانه قال: ﴿الخَبِيثَاتُ للخَبِيثِينَ والخَبِيثُونَ للخَبِيثَاتِ﴾. [النور: ٢٦]. والخبيثات: الزواني، وبهذا يقتضي أن من تزوج بهن فهو خبيث مثلهن.

وأيضا: فمن أقبح القبائح: أن يكون الرجل زوج بَغِيّ، وقبح هذا مستقر في فطر الخلق، وهو عندهم غاية المسبة.

وأيضا: فإن البغي لا يؤمَن أن تفسد على الرجل فراشه، وتعلق عليه أولادًا من غيره، والتحريم يثبت بدون هذا.

وأيضا: فإن النبي، ﷺ، فرق بين الرجل وبين المرأة التي وجدها حبلى من الزنا.

وأيضا: فإن مَرْثَد بن أبي مرثد الغنوي «استأذن النبي، ﷺ، أن يتزوج عَناق. ـ وكانت بغيًا ـ فقرأ عليه رسول الله، ﷺ، آية النور، وقال: لا تنكحها».

---

(١) ١٣ زاد المعاد جـ٤.

وسأله ﷺ، رجل آخر عن نكاح امرأة يقال لها أم مهزول كانت تسافح، فقرأ عليه رسول الله، ﷺ، الآية، ذكره أحمد.

...(١)**وأفتى** ﷺ، بأن الزاني المجلودَ لا ينكح إلا مثله، فأخذ بهذه الفتاوى التي لا معارض لها الإمام أحمد ومَنْ وافقه، وهي من محاسن مذهبه رحمة الله عليه؛ فإنه لم يجوز أن يكون الرجل زوج قَحْبة، ويعضد مذهبه بضعة وعشرون دليلاً قد ذكرناها في موضع آخر.

(٢)**الصحيح** من القولين أن توبة القاذف إكذابه نفسه؛ لأنه ضد الذنب الذي ارتكبه وهتك به عرض المسلم المحصن، فلا تحصل التوبة منه إلا بإكذابه نفسه؛ لينتفي عن المقذوف العار الذي ألحقه به بالقذف، وهو مقصود التوبة.

وأما من قال: إن توبته أن يقول «أستغفر الله» من القذف، ويعترف بتحريمه، فقول ضعيف؛ لأن هذا لا مصلحة فيه للمقذوف، ولا يحصل له به براءة عرضه مما قذفه به، فلا يحصل به مقصود التوبة من هذا الذنب، فإن فيه حقين:

حقا لله، وهو تحريم القذف. فتوبته منه: باستغفاره، واعترافه بتحريم القذف، وندمه عليه، وعزمه على أن لا يعود. **وحقا** للعبد، وهو إلحاق العار به. فتوبته منه: بتكذيبه نفسه. فالتوبة من هذا الذنب بمجموع الأمرين.

فإن قيل: إذا كان صادقًا قد عاين الزنا، فأخبر به، فكيف يسوغ له تكذيب نفسه وقذفها بالكذب، ويكون ذلك من تمام توبته؟

قيل: هذا هو الإشكال الذي قال صاحب هذا القول لأجله ما قال: إن توبته الاعتراف بتحريم القذف والاستغفار منه. وهو موضع يُحتاج فيه إلى بيان الكذب الذي حكم الله به على القاذف، وأخبر أنه كاذب عنده، ولو كان خبره مطابقًا للواقع. فنقول: **الكذب** يراد به أمران، أحدهما: الخبر غير المطابق لمخبره. وهو نوعان:

كذب عمد، وكذب خطأ. فكذب العمد معروف. وكذب الخطأ ككذب أبي السنابل بن بَعككَ في فتواه للمتوفَّى عنها إذا وضعت حملها «أنها لا تحل حتى تتم لها أربعة أشهر وعشرًا» فقال النبي، ﷺ: **«كذب أبو السنابل»**. ومنه قوله، ﷺ: **«كذب من قالها»** لمن قال: «حبط عمل عامر. حيث قتل نفسه خطأ». ومنه قول

(١) ٣٤٣ أعلام جـ٤. (٢) ٣٦٣ مدارج جـ١.

عبادة بن الصامت «كذب أبو محمد» حيث قال «الوتر واجب». فهذا كله من كذب الخطأ. ومعناه «أخطأ» قائل ذلك.

والثاني من أقسام الكذب: الخبر الذي لا يجوز الإخبار به، وإن كان خبره مطابقًا لمخبره. كخبر القاذف المنفرد برؤية الزنا، والإخبار به؛ فإنه كاذب في حكم الله، وإن كان خبره مطابقًا لمخبره. ولهذا قال تعالى: ﴿**فإذْ لَمْ يَأْتُوا بالشُّهَدَاءِ فأُولئِكَ عندَ الله هُمُ الكَاذِبُونَ**﴾. [النور: ١٣]. فحكم الله في مثل هذا: أن يعاقب عقوبة المفتري الكاذب، وإن كان خبره مطابقًا. وعلى هذا فلا تتحقق توبته حتى يعترف بأنه كاذب عند الله، كما أخبر الله تعالى به عنه. فإذا لم يعترف بأنه كاذب وجعله الله كاذبًا، فأيّ توبة له؟ وهل هذا إلا محض الإصرار والمجاهرة بمخالفة حكم الله الذي حكم به عليه؟

حكم رسول الله ﷺ في اللعان (١)

قال تعالى: ﴿**والذِينَ يَرْمُونَ أَزْواجَهُمْ ولَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهداءُ إلاَّ أَنْفُسهم * فَشَهادَةُ أَحدِهمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بالله إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادقِينَ * والخَامِسَةُ أَن لَعْنَةَ الله عليهِ إِنْ كَانَ مِنَ الكَاذبِينَ * ويَدْرَأُ عَنْهَا العَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ باللهِ إِنَّهُ لَمِنَ الكَاذِبِينَ * والخَامِسَةَ أَن غَضَبَ الله عليهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ**﴾ [النور: ٦ ـ ٩].

وثبت في الصحيحين من حديث سهل بن سعد «أن عويمرًا العَجْلاني قال لعاصم بن عدي: أرأيت لو أن رجلاً وجد مع امرأته رجلاً، أيقتله فتقتلونه أم كيف يفعل؟ فَسَلْ لي رسول الله، ﷺ. فسأل رسول الله، ﷺ، فكره رسول الله، ﷺ، المسائل وعابها، حتى كَبُر على عاصم ما سمع من رسول الله، ﷺ، ثم إن عويمرًا سأل رسول الله، ﷺ، عن ذلك؟ فقال: قد نزل فيك وفي صاحبتك، فاذهب فائت بها، فتلاعنا عند رسول الله، ﷺ. فلما فرغا قال: كذبتُ عليها يا رسول الله، إن أمسكتها، فطلقها ثلاثًا قبل أن يأمره رسول الله، ﷺ» قال الزهري: «فكانت تلك سنة المتلاعنين».

قال سهل: «وكانت حاملاً، وكان ابنها ينسب إلى أمه. ثم جرت السنة: أن يرثها، وترث منه ما فرض الله لها».

(١) ١٨٠ زاد المعاد جـ٤.

وفي لفظ: «فتلاعنا في المسجد ففارقها عند النبي، ﷺ. فقال النبي، ﷺ: «ذلكم التفريق بين كل متلاعنين».

وقول سهل: «وكانت حاملاً إلى آخره» هو عند البخاري من قول الزهري.

وللبخاري «ثم قال رسول الله، ﷺ: انظروا، فإن جاءت به أسْحَم أدْعَجَ العينين عظيم الأليتين خَدَلَّج الساقين: فلا أحسب عويمرًا إلا قد صدق عليها. وإن جاءت به أُحَيْمِر كأنه وَحْرَة: فلا أحسب عويمرًا إلا قد كذب عليها فجاءت به على النَّعت الذي نعت به رسول الله، ﷺ، من تصديق عويمر».

وفي لفظ «وكانت حاملاً، فأنكر حملها».

وفي صحيح مسلم من حديث ابن عمر «أن فلانًا قال: يا رسول الله، أرأيت لو وجد أحدنا امرأته على فاحشة، كيف يصنع؟ إن تكلم تكلم بأمر عظيم، وإن سكت سكت على مثل ذلك. فسكت النبي، ﷺ، فلم يجبه. فلما كان بعد ذلك أتاه، فقال: إن الذي سألتك عنه قد ابتليت به. فأنزل الله عز وجل هؤلاء الآيات في سورة النور ﴿والذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ﴾. [النور: ٦]. فتلاهن عليه. ووعظه وذكره. وأخبره: أن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة. قال: لا، والذي بعثك بالحق ما كذبت عليها. ثم دعاها فوعظها وذكرها، وأخبرها: أن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة. قالت: لا والذي بعثك بالحق، إنه لكاذب. فبدأ بالرجل فشهد أربَع شهادات بالله: إنّه لَمِن الصَّادقينَ والخامسةَ أنَّ لعنَةَ الله عليْهِ إنْ كانَ مِنَ الكَاذِبين، ثم ثنَّى بالمرأة فشهدت أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين، والخامسة أنَّ غَضَب الله عليها إنْ كانَ مِنَ الصادقين. ثم فرق بينهما».

وفي الصحيحين عنه قال رسول الله، ﷺ، للمتلاعنين: «**حسابكما على الله. أحدكما كاذب. لا سبيل لك عليها**. قال: يا رسول الله، مالي؟ قال: **لا مال لك. إن كنت صدقت عليها: فهو بما استحللت من فرجها، وإن كنت كذبت عليها فهو أبعد لك منها**». و في لفظ لهما «فرَّق رسول الله، ﷺ، بين المتلاعنين. وقال: «**والله إن أحدكما كاذب، فهل منكما تائب؟**». **وفيهما** عنه «أن رجلاً لاعَن على عهد رسول الله، ﷺ، ففرَّق رسول الله، ﷺ بينهما. وألحق الولد بأمه».

وفي صحيح مسلم من حديث ابن مسعود في قصة المتلاعنين: «فشهد الرجل أربع شهادات بالله: إنه لمن الصادقين، ثم لعن الخامسة: أن لعنة الله عليه إن كان من الكـاذبـين. فذهبت لتلتعن. فقال لها رسول الله، ﷺ: مَهْ. فأبت. فلعنت. فلما أدبرت. قال: «**لعلها أن تجيء به أسود جَعْدًا**». فجاءت به أسود جعدًا».

وفي صحيح مسلم من حديث أنس بن مالك «أن هلال بن أمية قذف امرأته بشريك بن سَحْـماء، وكان أخا البراء بن مالك لأمه، وكان أول رجل لاعن في الإسلام، فقال النبي، ﷺ: **أبصروها فإن جاءت به أبيض سبطًا قضىء العينين فهو لهلال بن أمية. وإن جاءت به أكحل أدعج أحمش الساقين فهو لشريك بن سحماء**. قال: فأنبئتُ أنها جاءت به أكحل أجعد أحمش الساقين»[1].

وفي الصحيحين من حديث ابن عباس نحو هذه القصة «فقال له رجل: أهي المرأة التي قال رسول الله، ﷺ: لو رجمتُ أحدًا بغير بينة لرجمت هذه؟ فقال ابن عباس: لا، تلك امرأة كانت تظهر في الإسلام السوء» ولأبي داود في هذا الحديث عن ابن عباس «ففرق رسول الله، ﷺ، بينهما، وقضى أن لا يدعى ولدها لأب، ولا ترمى، ولا يُرمى ولدُها. ومن رماها أو رمى ولدها فعليه الحد. وقضى: أن لا بيت لها عليه، ولا قوت، من أجل أنهما يتفرقان من غير طلاق ولا متوفى عنها». وفي القصة: قال عكرمة: «فكان بعد ذلك أميرًا على مصر. وما يدعى لأب»[2].

وذكر البخـاري «أن هلال بن أمية قذف امـرأتـه عنـد رسـول الله، ﷺ، بشريك بن سحــماء فقـال النبي، ﷺ: **البينـة أو حَدٌّ في ظهـرك**. فقـال: يا رسول الله. إذا رأى أحدُنا على امرأته رجلاً ينطلق يلتمس البينة؟ فجعل رسول الله، ﷺ، يقول: **البينة وإلا حَدٌّ في ظهرك**. فقال: والذي بعثك بالحق، إني لصادق ولينزلنَّ الله ما يُبرىء ظهري من الحد، فنزل جبريل وأنزل عليه ﴿**والذين يرمون أزواجهم ـ الآيات**﴾ فانصرف النبي، ﷺ، إليها. فجاء هلال، فشهد والنبي، ﷺ، يقول: **إن الله يعلم أن أحدكما كاذب، فهل منكما تائب**؟ فشهدت.

---

(١) قضىء العين: أي فاسدها. والدعج: سواد في العين. والحمش: قد الساقين.

(٢) قال المنذري (ج ٣ ص ١٦٩) في إسناده عباد بن منصور. وقد تكلم فيه غير واحد. وكان قدريًّا داعية.

فلما كانت عند الخامسة وقفوها، وقالوا: إنها الموجبة، قال ابن عباس فتلكأت، ونكصت حتى ظننا أنها ترجع. ثم قالت: لا أفضح قومي سائر اليوم. فمضت. فقال النبي، ﷺ: **أبصروها، فإن جاءت به أكحل العينين، سابغ الأليتين، خَدَلَّج الساقين: فهو لشريك بن سحماء**. فجاءت به كذلك. فقال النبي، ﷺ: **لولا ما مضى من كتاب الله: كان لي ولها شأن**».

وفي الصحيحين «أن سعد بن عبادة قال: يا رسول الله، أرأيت الرجل يجد مع امرأته رجلاً أيقتله؟ فقال رسول الله، ﷺ: **لا**. فقال سعد: بلى، والذي بعثك بالحق. فقال رسول الله، ﷺ: **اسمعوا إلى ما يقول سيدكم**».

وفي لفظ آخر «يا رسول الله، إن وجدت مع امرأتي رجلاً أُمْهِلُه حتى آتي بأربعة شهداء؟ قال: **نعم**».

وفي لفظ آخر «لو وجدت مع أهلي رجلاً لم أهجْه حتى آتي بأربعة شهداء؟ قال رسول الله، ﷺ: **نعم**. قال: كلا. والذي بعثك بالحق نبيًا، إن كنت لأعالجه بالسيف قبل ذلك. قال رسول الله، ﷺ: **اسمعوا إلى ما يقول سيدكم. إنه لَغَيُور، وأنا أغيرُ منه، والله أغير مني**».

وفي لفظ «لو رأيت مع امرأتي رجلاً لضربته بالسيف غير مُصَفَّح. فقال النبي، ﷺ: **أتعجبون من غَيْرة سعد؟ فوالله لأنا أغير منه، والله أغير مني. ومن أجل ذلك: حرم الفواحش، ما ظهر منها وما بطن. ولا شخص أغير من الله. ولا شخص أحب إليه العذر من الله. من أجل ذلك: بعث الله المرسلين مبشرين ومنذرين. ولا أحد أحب إليه المدحة من الله. من أجل ذلك: وعد الله الجنة**».

فصل: فاستفيد من هذا الحكم النبوي عدة أحكام

الحكم الأول: أن اللعان يصح من كل زوجين، سواء كانا مسلمين أو كافرين عدلين أو فاسقين، محدودين في قذف أو غير محدودين، أو أحدهما كذلك.

قال الإمام أحمد في رواية إسحاق بن منصور: جميع الأزواج يلتعنون. الحر من الحرة، والأمة إذا كانت زوجة، والعبد من الحرة، والأمة إذا كانت زوجة. والمسلم من اليهودية والنصرانية. وهذا قول مالك وإسحاق وقول سعيد بن المسيب، والحسن وربيعة، وسليمان بن يسار.

وذهب أهل الرأي، والأوزاعي، والثوري، وجماعة إلى أن اللعان لا يكون إلا بين زوجين مسلمين عدلين حُرَّين، غير محدودين في قذف، وهو رواية عن أحمد.

ومأخذ القولين: أن اللعان يجمع وصفين: اليمين، والشهادة، وقد سماه الله سبحانه شهادة، وسماه رسول الله، ﷺ، يمينًا حيث يقول: «**لولا الأيمان لكان لي ولها شأن**». **فمن** غَلَّب عليه حكم الأيمان قال: يصح من كل من يصح يمينه.

قالوا: ولعموم قوله تعالى: ﴿**والذينَ يَرمُون أزواجَهُم**﴾. [النور: ٦]. قالوا: وقد سماه رسول الله، ﷺ، يمينًا.

قالوا: ولأنه مفتقر إلى اسم الله وإلى ذكر القسم المؤكد وجوابه. قالوا: ولأنه يستوي فيه الذكر والأنثى. بخلاف الشهادة.

قالوا: ولو كان شهادة لما تكرر لفظه بخلاف اليمين؛ فإنه قد يشرع فيها التكرار كأيمان القسامة.

قالوا: ولأن حاجة الزوج التي لا تصح منه الشهادة إلى اللعان ونفي الولد كحاجة من تصح شهادته سواء. والأمر الذي نزل به مما يدعو إلى اللعان كالذي ينزل بالعدل الحر. والشريعة لا ترفع ضرر أحد النوعين، وتجعل له فرجًا ومخرجًا مما نزل به، وتدع النوع الآخر في الآصار والأغلال، لا فرج له مما نزل به ولا مخرج، بل يستغيث فلا يُغاث، ويستجير فلا يجار إن تكلم تكلم بأمر عظيم، وإن سكت سكت على مثله، قد ضاقت عنه الرحمة التي وسعت من تصح شهادته. وهذا تأباه الشريعة الواسعة الحنيفية السمحة.

قال الآخرون: قال الله تعالى: ﴿**والذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهم ولَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَداءُ إلاَّ أنْفُسُهُم فشهَادَةُ أَحَدِهم أَرْبَعُ شَهادَاتٍ باللهِ**﴾. [النور: ٦]. وفي الآية دليل من ثلاثة أوجه:

أحدها: أنه سبحانه استثنى «أنفسهم» من الشهداء، وهذا استثناء متصل قطعًا، ولهذا جاء مرفوعًا.

والثاني: أنه صرح بأن التعانهم شهادة، ثم زاد سبحانه هذا بيانًا فقال: ﴿**ويدْرَأُ عنْهَا العَذَابَ أَنْ تَشهَدَ أربَعَ شَهادَاتٍ بالله إنَّهُ لَمِنَ الكَاذِبينَ**﴾. [النور: ٨].

والثالث: أنه جعله بدلاً من الشهود، وقائمًا مقامهم عند عدمهم.

قالوا: وقد روى عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده: أن النبي، ﷺ، قال: «**لا لِعَانَ بين مملوكين ولا كافرين**». ذكره أبو عمر بن عبدالبر في التمهيد، وذكر الدارقطني من حديثه أيضًا عن أبيه عن جده مرفوعًا «**أربعة ليس بينهم لعان: ليس بين الحر والأمة لعان، وليس بين الحرة والعبد لعان، وليس بين المسلم واليهودية لعان، وليس بين المسلم والنصرانية لعان**». وذكر عبدالرازق في مصنفه عن ابن شهاب قال: «من وصية النبي، ﷺ، لعَتَّاب بن أسد أن لا لعان بين أربع ـ فذكر معناه».

قالوا: ولأن اللعان جعل بدل الشهادة، قائمًا مقامها عند عدمها، فلا يصح إلا ممن يصح منه، ولهذا تحد المرأة بالتعان الزوج ونُكُولِها، تنزيلاً للعانه منزلة أربعة شهود.

قالوا: وأما الحديث «**لولا ما مضى من الأيمان لكان لي ولها شأن**» فالمحفوظ فيه «**لولا ما مضى من كتاب الله**» هذا لفظ البخاري في صحيحه، وأما قوله «**لولا ما مضى من الأيمان**» فمن رواية عباد بن منصور، وقد تكلم فيه غير واحد، قال يحيى بن معين: ليس بشيء، وقال مهنا عن أحمد: متروك قَدْري، وقال النسائي: ضعيف، وقد استقرت قاعدة الشريعة: أن البينة على المدعي، واليمين على المدعى عليه، والزوج ههنا مُدَّع، فلعانه شهادة، ولو كان يمينًا لم يشرع في جانبه.

قال الأولون: أما تسميته شهادة، فلقول الملتعن في يمينه «أشهد بالله» فسمي بذلك شهادة، وإن كان يمينًا، اعتبارًا بلفظها، قالوا: وكيف؟ وهو مصرح فيه بالقسم، وجوابه. وكذلك لو قال «أشهد بالله» انعقدت يمينه بذلك، سواء نوى اليمين أو أطلق، والعرب تعد ذلك يمينًا في لغتها واستعمالها، قال قيس:

فأشهـد عنـد الله أني أحبـها　　　فهـذا لها عنـدي فما عندهـا ليا

وفي هذا حجة لمن قال: إن قوله «أشهد» تنعقد به اليمين، ولو لم يقل «بالله» كما هو إحدى الروايتين عن أحمد.

والثانية: لا يكون يمينًا إلا بالنية، وهو قول الأكثرين، كما أن قوله «أشهد بالله» يمين عند الأكثرين بمطلقه.

قالوا: وأما استثناؤه سبحانه «أنفسهم» من الشهداء، فيقال أولاً «إلا» ههنا صفة بمعنى (غير) والمعنى: ولم يكن لهم شهداء غير أنفسهم، فإن غير وإلا

يتعاوضان الوصيفة والاستثناء، فيستثنى بغير حملاً على إلا، ويوصف بإلا، حملاً على غير.

ويقال ثانيًا: إن «أنفسهم» مستثنين من الشهداء، ولكن يجوز أن يكون منقطعًا على لغة بني تميم. فإنهم يبدلون في الانقطاع كما يبدل أهل الحجاز، وهم في الاتصال.

ويقال ثالثًا: إنما استثنى «أنفسهم» من الشهداء، لأنه نزلهم منزلتهم في قبول قولهم، وهذا قوي جدًّا على قول من يرجم المرأة بالتعان الزوج إذا نكلت وهو الصحيح، كما يأتي تقريره إن شاء الله تعالى.

والصحيح: أن لعانهم يجمع الوصفين: اليمين والشهادة، فهو شهادة مؤكدة بالقسم والتكرار، ويمين مغلظة بلفظ الشهادة والتكرار، لاقتضاء الحال تأكيد الأمر، ولهذا اعتبر فيه من التأكيد عشرة أنواع: **أحدها**: ذكر لفظ الشهادة.

الثاني: ذكر القسم بأحد أسماء الرب سبحانه وأجمعها لمعاني أسمائه الحسنى، وهو اسم الله جل ذكره.

الثالث: تأكيد الجواب بما يؤكد به المقسم عليه من إنَّ واللام، وإتيانه باسم الفاعل الذي هو صادق وكاذب، دون الفعل الذي هو صدق وكذب.

الرابع: تكرار ذلك أربع مرات.

الخامس: دعاؤه على نفسه في الخامسة بلعنة الله إن كان من الكاذبين.

السادس: إخباره عند الخامسة، أنها الموجبة لعذاب الله، وأن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة.

السابع: جعل لعانه مقتض لحصول العذاب عليها وهو إما الحد أو الحبس، وجعل لعانها دارئًا للعذاب عنها.

الثامن: أن هذا اللعان يوجب العذاب على أحدهما: إما في الدنيا وإما في الآخرة.

التاسع: التفريق بين المتلاعنين وخراب بيتها وكسرها بالفراق.

العاشر: تأبيد تلك الفرقة ودوام التحريم بينهما.

فلما كان شأن هذا اللعان هذا الشأن، جعل يمينًا مقرونًا بالشهادة، وشهادة مقرونة باليمين، وجعل الملتعن لقبول قوله كالشاهد، فإن نكلت المرأة مضت شهادته وحُدَّتْ، وأفادت شهادته ويمينه شيئين: سقوط الحد عنه، ووجوبه

عليها. وإن التعنت المرأة وعارضت لعانه بلعان آخر منها، أفاد لعانه سقوط الحد عنه دون وجوبه عليها، فكان شهادة ويمينًا بالنسبة إليه دونها؛ لأنه إن كان يمينًا محضة فهي لا تحد بمجرد حلفه، وإن كان شهادة فلا تحد بمجرد شهادته عليها وحده، فإذا انضم إلى ذلك نكولها قوي جانب الشهادة واليمين في حقه بتأكده ونكولها، فكان دليلاً ظاهرًا على صدقه فأسقط الحد عنه وأوجبه عليها، وهذا أحسن ما يكون من الحكم ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠]. وقد ظهر بهذا أنه يمين فيها معنى الشهادة، وشهادة فيها معنى اليمين. . .

فصل(١)

وأما قوله «وجعل للقاذف إسقاط الحد باللعان في الزوجة دون الأجنبية، وكلاهما قد ألحق بهما العار» فهذا من أعظم محاسن الشريعة؛ فإن قاذف الأجنبية مستغنٍ عن قذفها، لا حاجة له إليه البتة؛ فإن زناها لا يضره شيئًا، ولا يفسد عليه فراشه، ولا يعلق عليه أولادًا من غيره، وقذفها عدوان محض، وأذى لمحصنة غافلة مؤمنة، فترتب عليه الحد زجرًا له وعقوبة، وأما الزوجة فإنه يلحقه بزناها من العار والمسبة وإفساد الفراش وإلحاق ولد غيره به، وانصراف قلبها عنه إلى غيره؛ فهو محتاج إلى قذفها، ونفي النسب الفاسد عنه، وتخلصه من المسبة والعار؛ لكونه زوج بَغِي فاجرة، ولا يمكن إقامة البينة على زناها في الغالب، وهي لا تقرُّ به، وقول الزوج عليها غير مقبول، فلم يبق سوى تحالفهما بأغلظ الأيمان، وتأكيدها بدعائه على نفسه باللعنة ودعائها على نفسها بالغضب إن كانا كاذبين. ثم يفسخ النكاح بينهما؛ إذ لا يمكن أحدهما أن يصفو للآخر أبدًا، فهذا أحسن حكم يفصل به بينهما في الدنيا، وليس بعده أعدل منه، ولا أحكم، ولا أصلح، ولو جمعت عقول العالمين لم يهتدوا إليه، فتبارك مَنْ أبان ربوبيته ووحدانيته وحكمته وعلمه في شرعه وخلقه.

(٢)**وقد** جعل الله سبحانه أيمان اللعان من جانب الزوج أولاً، فإذا نكلَت المرأة عن معارضة أيمانه بأيمانها وجب عليها العذاب بالحد، وهو العذاب المذكور في قوله: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾. [النور: ٢]. فإن المدعي لما ترجح جانبه بالشاهد الواحد شرعت اليمين من جهته، وكذلك أولياء الدَّمِ ترجَّح

---

(١) ١١٠ أعلام جـ٢.	(٢) ١٠١ أعلام جـ١.

جانبهم باللَّوث فشُرعت اليمين من جهتهم، وأكدت بالعدد تعظيمًا لخطر النفس. وكذلك الزوج في اللعان جانبه أرجح من جانب المرأة قطعًا، فإن إقدامه على إتلاف فراشه، ورميها بالفاحشة على رؤوس الأشهاد، وتعريض نفسه لعقوبة الدنيا والآخرة، وفضيحة أهله ونفسه على رؤوس الأشهاد، مما يأباه طباع العقلاء، وتنفرُ عنه نفوسهم، لولا أن الزوجة اضطرَّته بما رآه وتيقنه منها إلى ذلك، فجانبه أقوى من جانب المرأة قطعًا فشرعت اليمين من جانبه. . .

(1)**قالوا:** ولهذا لم يحكم على المرأة في اللعان بمجرد نكولها دون يمين الزوج. فإذا حلف الزوج، ونكلت عن اليمين، حكم عليها.

إما بالحبس حتى تقر أو تلاعن كما يقول أحمد وأبو حنيفة.

وإما بالحد كما يقول الشافعي ومالك. وهو الراجح؛ لأن الله سبحانه وتعالى إنما درأ عنها العذاب بشهادتها أربع شهادات. والعذاب المدروء عنها بالتعانها هو العذاب المذكور في قوله تعالى: ﴿**وَلْيَشْهَدْ عذابَهُما طَائِفَةٌ مِنَ المؤمنينَ**﴾. وهو عذاب الحدود. ولهذا ذكره معرفًا بلام العهد، فعلم أن العذاب هو العذاب المعهود ذكره أولاً. ولهذا بدأ أولاً بأيمان الزوج لقوة جانبه، ومُكنت المرأة من أن تعارض أيمانه بأيمانها. فإذا نكلت لم يكن لأيمانه ما يعارضها، فعملت عملها، وقواها نكول المرأة، فحكم عليها بأيمانه ونكولها.

فإن قيل: فكان من الممكن أن يبدأ بأيمانها، فإن نكلت حلف الزوج حُدَّت، كما إذا ادعى عليه حقًّا فنكل عن اليمين فإنهاترد على المدعي، ويقضي له، فهلا شُرِع اللعان كذلك والمرأة هي المدعى عليها؟ بل شرع اليمين في جانب المدعي أولاً، وهذا لا نظير له في الدعاوى.

قيل: لما كان الزوج قاذفًا لها كان موجب قذفه أن يحد لها، فمكن أن يدفع الحد عن نفسه بالتعانه، ثم طولبت هي بعد ذلك بأن تقر أو تلاعن. فإن أقرت حدت. وإن أنكرت والتعنت درأت عنها الحد بلعانها، كما له أن يدرأ الحد عن نفسه بلعانه. وكانت البداءة به أولى لأنه مدّعٍ، وأيمانه قائمة مقام البينة. ولكن لما كانت دون الشهود الأربع في القوة مكنت المرأة من دفعها بأيمانها. فإذا أبت أن تدفعها

---

(١) ١١٧ الطرق الحكمية.

ترجح جانبه، فوجب عليها الحد. فلم تحد بمجرد التعانه، ولا بمجرد نكولها، بل بمجموع الأمرين. وأكدت الأيمان بكونها أربعًا، كما أكدت أيمان المدعين في القسامة بكونها خمسين ولتقوم الأيمان مقام الشهود. . .

(١)**قال** ابن سعد: وفي هذه الغزوة(٢) سقط عِقدٌ لعائشة رضي الله عنها، فاحتبسوا على طلبه، فنزلت آية التيمم.

وذكر الطبراني في معجمه من حديث محمد بن إسحاق: عن يحيى بن عباد بن عبدالله بن الزبير عن أبيه عن عائشة قالت: «لما كان من أمر عقدي ما كان، قال أهل الإفك ما قالوا، فخرجت مع النبي، ﷺ، في غزوة أخرى، فسقط أيضًا عقدي، حتى حَبس التماسه الناس، ولقيت من أبي بكر ما شاءالله، وقال لي: يا بُنَيَّةُ، في كل سفر تكونين عناء وبلاء، وليس مع الناس ماء، فأنزل الله الرخصة في التيمم».

وهذا يدل على أن قصة العقد التي نزل التيمم لأجلها بعد هذه الغزوة، وهو الظاهر. ولكن فيها: كانت قصة الإفك بسبب فقد العقد والتماسه، فالتبس على بعضهم إحدى القصتين بالأخرى. ونحن نُشير إلى قصة الإفك.

وذلك: أن عائشة رضي الله عنها كانت قد خرج بها رسول الله، ﷺ، معه في هذه الغزوة بِقُرعة أصابتها ـ وكانت تلك عادته مع نسائه ـ فلما رجعوا من الغزوة نزلوا في بعض المنازل، فخرجت عائشة لحاجتها، ففقدت عقدًا لأختها من جِذع ظِفار، كانت أعارتها إياه، فرجعت تلتمسه في الموضع الذي فقدته فيه، فالتمسته حتى وجدته فجاء النفر الذين كانوا يرحلون هودجها، فظنوها فيه، فحملوا الهودج، ولا ينكرون خفَّته، لأنها رضي الله عنها كانت فتيَّة السن، لم يغشها اللحم الذي كان يثقلها.

وأيضا فإن النفر لما تساعدوا على حمل الهودج لم ينكروا خفَّته. ولو كان الذي حمله واحد، أو اثنان، لم يخف عليهما الحال.

فرجعت عائشة إلى منازلهم وقد أصابت العقد، فإذا ليس بها داع ولا مُجيب،

---

(١) ٢٨٠ زاد المعاد جـ٢. (٢) أي غزوة المريسيع: وهو اسم للماء. وهي غزوة بني المصطلق.

فاضـطجعت في المنـزل مُتلففة بجلبابها، وظنت أنهم سيفقدونها، فيرجعون في طلبها - والله غالب على أمره، يُدبر الأمر من فوق عرشه كما يشاء - فغلبتها عيناها فنامت، فلم تستيقظ إلا بقول صفوان بن المعطل ﴿إنَّا لله وإنَّا إليه راجِعُونَ﴾. [البقرة: ١٥٦]. زوج رسول الله، ﷺ؟ وكان صفوان قد عرَّس في أخريات الجيش؛ لأنه كان كثير النوم - كما جاء عنه في صحيح أبي حاتم بن حبان، وفي السنن - فلما رآها عرفها. وكان يراها قبل نزول الحجاب، فاسترجع، وأناخ راحلته، فقربها إليها فركبتها، وما كلمها كلمة واحدة، ولم تسمع منه إلا استرجاعه، ثم سار بها يقودها، حتى قدم بها - وقد نزل الجيش في نحر الظهيرة - فلما رأى ذلك الناس تكلم كل منهم على شاكلته وما يليق به، ووجد الخبيث عدو الله ابن أبيّ متنفسًا، فتنفس من كرب النفـاق والحسـد الذي بين ضلوعه، فجعل يستحكي الإفك ويستوشيه، ويشيعه ويذيعه، ويجمعه ويفرقه. وكان أصحابه يتقربون به إليه. فلما قدمـوا المـدينـة أفاض أهل الإفك في الحديث، ورسول الله، ﷺ، ساكت لا يتكلم. ثم استشار أصحابه في فراقها. فأشار عليه عليّ: أن يفارقها ويأخذ غيرها -تلويحًا لا تصريحًا- وأشار عليه أسامة وغيره بإمساكها، وأن لا يلتفت إلى كلام الأعداء.

فعلي لما رأى أن ماقيل مشكوك فيه: أشار بترك الشك والريبة إلى اليقين؛ ليتخلص رسول الله، ﷺ، من الهم والغم الذي لحقه من كلام الناس، فأشار بحسم الداء.

وأسامة: لما علم حبَّ رسول الله، ﷺ، لها ولأبيها، وعلم من عِفَّتها وبراءتها وحصانتها وديانتها ما هي فوق ذلك وأعظم منه، وعرف من كرامة رسول الله، ﷺ، على ربـه، ومنـزلته عنده، ودفاعه عنه: أنه لا يجعل ربة بيته وحبيبته من النساء، وبنت صدِّيقه بالمنزلة التي أنزلها بها أرباب الإفك، وأن رسول الله، ﷺ، أكرم على ربه وأعز عليه من أن يجعل تحته امرأة بغيًا، وعلم أن الصديقة حبيبة رسول الله، ﷺ، أكرم على ربها من أن يبتليها بالفاحشة، وهي تحت رسوله... (١).

(٢)**ومن** خصائصها أن الله سبحانه برأها مما رماها به أهل الإفك، وأنزل في عذرها وبراءتها وحيًا يتلى في محاريب المسلمين وصلواتهم إلى يوم القيامة، وشهد لها

---

(١) ذكر ابن القيم بقية القصة في عدة صحائف.　　(٢) ١٣٤ جلاء الأفهام.

بأنها من الطيبات، ووعدها المغفرة والرزق الكريم. وأخبر سبحانه أن ما قيل فيها من الإفك كان خيراً لها، ولم يكن ذلك الذي قيل فيها شرًّا لها ولا خافضًا من شأنها. بل رفعها الله بذلك، وأعلى قدرها، وأعظم شأنها، وصار لها ذكرًا بالطيب والبراءة بين أهل الأرض والسماء فيا لها من منقبة،ما أجلها.

وتأمل هذا التشريف والإكرام الناشىء عن فرط تواضعها واستصغارها لنفسها حيث قالت: «ولَشأني في نفسي كان أحقر من أن يتكلم الله فيَّ بوحي يتلى، ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله، ﷺ، رؤيا يبرئني الله بها» فهذه صديقة الأمة وأم المؤمنين، وحب رسول الله، ﷺ، وهي تعلم أنها بريئة منه مظلومة، وأن قاذفيها ظالمون مفترون عليها. قد بلغ أذاهم إلى أبويها وإلى رسول الله، ﷺ. وهذا كان احتقارها لنفسها وتصغيرها لشأنها. فما ظنك بمن صام يومًا أو يومين أو شهرًا أو شهرين، وقام ليلة أو ليلتين، وظهر عليه شيء من الأحوال، ولاحظوا أنفسهم بعين استحقاق الكرامات والمكاشفات، والمخاطبات والمنازلات، وإجابة الدعوات، وأنهم ممن يتبرك بلقائهم، ويغتنم صالح دعائهم، وأنهم يجب على الناس احترامهم، وتعظيمهم، وتعزيرهم، وتوقيرهم؛ فيتمسح بأثوابهم، ويقبل ثرى أعتابهم، وأنهم من الله بالمكانة التي ينتقم لهم لأجلها ممن تنقصهم في الحال، وأن يؤخذ من أساء الأدب عليهم من غير إمهال، وأن الإساءة عليهم ذنب لا يكفره شيء إلا رضاهم. ولو كان هذا من وراء كفاية لهان، ولكن من وراء تخلف، وهذه الحماقات والرعونات نتائج الجهل الصميم والعقل الغير المستقيم؛ فإن ذلك إنما يصدر من جاهل معجب بنفسه غافل عن جرمه وذنوبه، مغتر بإمهال الله له عن أخذه بما هو فيه من الكبر والإزراء على من لعله عند الله خير منه. نسأل الله تعالى العافية في الدنيا والآخرة. وينبغي للعبد أن يستعيذ بالله أن يكون عند نفسه عظيمًا وهو عند الله حقيراً...

..[1]**وقال** تعالى: ﴿**الخَبِيثاتُ للخَبيثِينَ والخَبيثونَ للخبيثاتِ والطَّيباتُ للطيبينَ والطَّيبونَ للطَّيِّباتِ**﴾. [النور: ٢٦]. وقد فسرت الآية بأن الكلمات الخبيثات للخبيثين، والكلمات الطيبات للطيبين.

(١) ٢٤ زاد المعاد جـ١.

وفسرت بأن النساء الطيبات للرجال الطيبين، والنساء الخبيثات للرجال الخبيثين. وهي تعم ذلك وغيره؛ فالكلمات والأعمال والنساء الطيبات لمناسبها من الطيبين، والكلمات والأعمال والنساء الخبيثة لمناسبها من الخبيثين.

والله سبحانه وتعالى جعل الطيب بحذافيره في الجنة، وجعل الخبيث بحذافيره في النار.

فجعل الدور ثلاثة: دارًا أخلصت للطيبين، وهي حرام على غير الطيبين، وقد جمعت كل طيب، وهي الجنة. ودارًا أخلصت للخبيثين والخبائث، ولا يدخلها إلا الخبيثون، وهي النار. ودارًا امتزج فيها الطيب والخبيث وخلط بينهما، وهي هذه الدار.

ولهذا وقع الابتلاء والمحنة بسبب هذا الامتزاج والاختلاط، وذلك بموجب الحكمة الإلـٰهية. فإذا كان يوم معاد الخليفة ميز الله الخبيث من الطيب، فجعل الطيب وأهله في دار على حدة لا يخالطهم غيرهم، وجعل الخبيث وأهله في دار على حدة لا يخالطهم غيرهم. فعاد الأمر إلى دارين فقط: الجنة وهي دار الطيبين، والنار، وهي دار الخبيثين. وأنشأ الله تعالى من أعمال الفريقين ثوابهم وعقابهم، فجعل طيبات أقوال هؤلاء وأعمالهم وأخلاقهم هي عين نعيمهم ولذاتهم، أنشأ لهم منها أكمل أسباب النعيم والسرور. وجعل خبيثات أقوال الآخرين وأعمالهم وأخلاقهم هي عين عذابهم وآلامهم. فأنشأ لهم منها أعظم أسباب العقاب والآلام، حكمة بالغة، وعزة باهرة قاهرة، ليرى عباده كمال ربوبيته، وكمال حكمته وعلمه، وعدله ورحمته، وليعلم أعداؤه أنهم كانوا هم المفترين الكذابين، لا رسله البررة الصادقون قال الله تعالى: **﴿وأَقْسَمُوا بالله جهْدَ أيمانِهْم لا يبعَثُ الله مَنْ يَموتُ بَلَى وعْدًا عليهِ حقًّا ولكنَّ أكثرَ النَّاسِ لا يَعْلَمونَ. ليبيِّنَ لهمُ الذي يَخْتَلِفُونَ فيه ولِيَعْلَم الذينَ كَفَرُوا أنَّهم كَانُوا كَاذِبينَ﴾**. [النحل: ٣٨، ٣٩].

...[1]**وسئل** عن الاستئناس في قوله تعالى: **﴿حتى تستأنسوا﴾** قال: «يتكلم الرجل بتسبيحة وتكبيرة وتحميدة ويتنحنح ويؤذن أهل البيت» ذكره ابن ماجه.

. . .[2]**قال** تعالى: **﴿قُلْ للمُؤمِنينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبصَارِهِمْ ويَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إنَّ الله خبيرٌ بِمَا يَصنَعُونَ﴾**[النور: ٣٠]. فجعل الزكاة بعد غض البصر وحفظ الفرج.

ولهذا كان غض البصر عن المحارم يوجب ثلاث فوائد، عظيمة الخطر جليلة القدر:

(١) ٤١٤ أعلام جـ٤.		(٢) ٤٧ إغاثة جـ١.

إحداها: حلاوة الإيمان ولذته، التي هي أحلى وأطيب وألذ مما صرف بصره عنه وتركه لله تعالى. فإن من ترك شيئًا لله عوضه الله عز وجل خيرًا منه، والنفس مولعة بحب النظر إلى الصور الجميلة. والعين رائد القلب، فيبعث رائده لنظر ما هناك، فإذا أخبره بحسن المنظور إليه وجماله، تحرك اشتياقًا إليه، وكثيرًا ما يتعب ويتعب رسوله ورائده، كما قيل:

وكنتَ متى أرسلت طرفَك رائدا لقلبك يومًا أتعبتك المناظر
رأيت الذي لا كلُّه أنت قادر عليه ولا من بعضه أنت صابر

فإذا كف الرائد عن الكشف والمطالعة استراح القلب من كلفة الطلب والإرادة، فمن أطلق لحظاته دامت حسراته.

فإن النظر يولد المحبة، فتبدأ علاقة يتعلق بها القلب بالمنظور إليه. ثم تقوى فتصير صبابة، ينصبُّ إليه القلب بكليته.

ثم تقوى فتصير غرامًا يلزم القلب، كلزوم الغريم الذي لا يفارق غريمه.

ثم يقوى فيصير عشقًا، وهو الحب المفرط. ثم يقوى فيصير شغفًا، وهو الحب الذي قد وصل إلى شغاف القلب وداخله. ثم يقوى فيصير تتيمًا. والتتيم التعبد، ومنه تيمه الحب إذا عبده. وتيم الله عبدالله. فيصير القلب عبدًا لمن لا يصلح أن يكون هو عبدًا له. وهذا كله جناية النظر. فحينئذ يقع القلب في الأسر فيصير أسيرًا بعد أن كان ملكًا، ومسجونًا بعد أن كان مطلقًا، يتظلم من الطرف ويشكوه. والطرف يقول: أنا رائدك ورسولك، وأنت بعثتني. وهذا إنما تبتلي به القلوب الفارغة من حب الله والإخلاص له؛ فإن القلب لابد له من التعلق بمحبوب، فمن لم يكن الله وحده محبوبه وإلـهه ومعبوده فلابد أن يتعبد قلبه لغيره. قال تعالى عن يوسف الصديق عليه السلام: ﴿**كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ**﴾. [يوسف: ٢٤].

فامرأة العزيز لما كانت مشركة وقعت فيما وقعت فيه، مع كونها ذات زوج، ويوسف عليه السلام لما كان مخلصًا لله تعالى نجا من ذلك، مع كونه شابًا عزبًا غريبًا مملوكًا.

الفائدة الثانية في غض البصر: نور القلب وصحة الفراسة.

قال أبو شجاع الكرماني: «من عمر ظاهره باتباع السنة، وباطنه بدوام المراقبة، وكف نفسه عن الشهوات، وغض بصره عن المحارم، واعتاد أكل الحلال لم تخطىء له فراسة».

وقد ذكر الله سبحانه قصة قوم لوط وما ابتلوا به، ثم قال بعد ذلك: ﴿**إنَّ في ذلكَ لآياتٍ للمُتَوَسِّمينَ**﴾. [الحجر: ٧٥]. وهم المتفرسون الذين سلموا من النظر المحرم والفاحشة. وقال تعالى عقيب أمره للمؤمنين بغض أبصارهم وحفظ فروجهم: ﴿**الله نُورُ السموات والأرض**﴾ [النور: ٣٥].

وسر هذا: أن الجزاء من جنس العمل. فمن غضَّ بصره عما حرم الله عز وجل عليه عوضه الله تعالى من جنسه ما هو خير منه، فكما أمسك نور بصره عن المحرمات أطلق الله نور بصيرته وقلبه، فرأى به ما لم يره من أطلق بصره ولم يغضه عن محارم الله تعالى. وهذا أمر يحسه الإنسان من نفسه؛ فإن القلب كالمرآة، والهوى كالصدأ فيها. فإذا خلصت المرآة من الصدأ انطبعت فيها صور الحقائق كما هي عليه. وإذا صدئت لم تنطبع فيها صور المعلومات، فيكون علمه وكلامه من باب الخرص والظنون.

الفائدة الثالثة: قوة القلب وثباته وشجاعته فيعطيه الله تعالى بقوته سلطان النصرة، كما أعطاه بنوره سلطان الحجة، فيجمع له بين السلطانين، ويهرب الشيطان منه. كما في الأثر: «إن الذي يخالف هواه يفرَق الشيطان من ظله».

ولهذا يوجد في المتبع هواه من ذل النفس وضعفها ومهانتها ما جعله الله لمن عصاه، فإنه سبحانه جعل العز لمن أطاعه، والذل لمن عصاه. قال تعالى: ﴿**ولله العِزَّةُ ولِرَسُولِه وللمُومنينَ**﴾ [المنافقون: ٨]. وقال تعالى: ﴿**ولا تهِنُوا ولا تَحْزَنُوا وأنتُم الأعْلَونَ إنْ كنتُم مُؤمنينَ**﴾. [آل عمران: ١٣٩].

وقال تعالى: ﴿**منْ كَانَ يُريدُ العِزَّةَ فللهِ العِزَّةُ جميعًا**﴾. [فاطر: ١٠].

---

(١) ٤٨ إغاثة جـ١.

أي من كان يطلب العزة فليطلبها بطاعة الله. بالكلم الطيب، والعمل الصالح.

وقال بعض السلف: «الناس يطلبون العز بأبواب الملوك ولا يجدونه إلا في طاعة الله».

وقال الحسن: «وإن هَمْلَجتْ بهم البراذين، وطَقْطَقتْ بهم البغال إنَّ ذل المعصية لفي قلوبهم، أبى الله عز وجل إلا أن يُذِلَّ من عصاه، وذلك أن من أطاع الله تعالى فقد والاه. ولا يذل من والاه ربه، كما في دعاء القنوت «إنه لا يذل من واليت ولا يعز من عاديت»[1]. . . .

والمقصود أن زكاة القلب موقوفة على طهارته، كما أن زكاة البدن موقوفة على استفراغه من أخلاطه الرديئة الفاسدة، قال تعالى: ﴿ولَوْلَا فَضْلُ الله عليكُمْ ورَحْمَتُهُ ما زَكَى مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبدًا ولكِنَّ الله يُزكِّي مَنْ يَشاءُ والله سَميعٌ عليمٌ﴾. [النور: ٢١]. ذكر ذلك سبحانه عقيب تحريم الزنا والقذف ونكاح الزانية، فدل على أن التزكي هو باجتناب ذلك، وكذلك قوله تعالى في الاستئذان على أهل البيوت ﴿وإنْ قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ﴾. [النور: ٢٨]. فإنهم إذا أُمروا بالرجوع لئلا يطلعوا على عورة لا يحب صاحب المنزل أن يُطلع عليها كان ذلك أزكى لهم، كما أن رد البصر وغضه أزكى لصاحبه، وقال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى وذَكَرَ اسمَ رَبِّهِ فَصَلَّى﴾. [الأعلى: ١٤، ١٥]. وقال تعالى عن موسى عليه السلام في خطابه لفرعون: ﴿هَلْ لَكَ إلى أَنْ تَزَكَّى﴾. [النازعات: ١٨]. وقال تعالى: ﴿ووَيْلٌ للمُشْرِكينَ. الذينَ لا يُؤْتُونَ الزَّكاةَ﴾. [فصلت: ٦، ٧]. قال أكثر المفسرين من السلف ومن بعدهم: هي التوحيد: شهادة أن لا إله إلا الله، والإيمان الذي به يزكو القلب، فإنه يتضمن نفي إلهية ما سوى الحق من القلب، وذلك طهارته، وإثبات إلهيته سبحانه، وهو أصل كل زكاة ونماء، فإن التزكي - وإن كان أصله النماء والزيادة والبركة - فإنه إنما يحصل بإزالة الشر. فلهذا صار التزكي ينتظم الأمرين جميعًا. فأصل ما تزكو به القلوب والأرواح: هو التوحيد. والتزكية جعل الشيء زكيًا، إما في ذاته، وإما في الاعتقاد والخبر عنه، كما يقال: عَدَّلته وفسَّقته، إذا جعلته كذلك في الخارج، أو في الاعتقاد والخبر، وعلى هذا فقوله تعالى: ﴿فلا

---

(١) ذكر ابن القيم في الجواب الكافي ما هو بمعنى ما تقدم. (ج).

تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ﴾. [النجم: ٣٢]. هو على غير معنى ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاها﴾. [الشمس: ٩]. أي لا تخبروا بزكاتها وتقولوا: نحن زاكون صالحون مُتَّقون، ولهذا قال عقيب ذلك: ﴿هُوَ أَعْلَم بِمَنِ اتَّقى﴾. [النجم: ٣٢]. وكان اسم «زينب» «بَرَّة» فقال: «تزكي نفسها» فسماها رسول الله، ﷺ «زينب»، وقال: «الله أعلم بأهل البر منكم»(١).

(٢) أحكام النظر وغائلته وما يجني على صاحبه

قال الله تعالى: ﴿قُلْ للمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِم ويَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكى لَهُمْ إِنَّ الله خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُون. وقُلْ للمُؤْمِناتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ ويَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾. [النور: ٣٠، ٣١].

فلما كان غضُّ البصر أصلاً لحفظ الفرج بدأ بذكره، ولما كان تحريمهُ تحريم الوسائل فيُباح للمصلحة الراجحة ويحرم إذا خيفَ منه الفساد ولم يعارضه مصلحة أرجح من تلك المفسدة لم يأمر سبحانه بغضه مطلقًا، بل أمر بالغضّ منه.

وأما حفظ الفرج فواجب بكل حال، لا يباح إلا بحقه، فلذلك عمّ الأمر بحفظه.

وقد جعل الله سبحانه العين مرآة القلب، فإذا غض العبد بصره غض القلب شهوته وإرادته، وإذا أطلق بصره أطلق القلب شهوته.

وفي الصحيح أن الفضل بن عباس رضي الله عنهما كان رديف رسول الله، ﷺ، يوم النحر من مزدلفة إلى منى، فمرَّت ظُعُن يَجرين، فطفق الفضل ينظر إليهن، فحوَّل رسول الله، ﷺ، رأسه إلى الشق الآخر(٣)، وهذا منع وإنكار بالفعل. فلو كان النظر جائزًا لأقره عليه.

وفي الصحيح عنه، ﷺ، أنه قال: **«إنَّ الله عزَّ وجل كتبَ على ابن آدمَ حظَّهُ من الزنى أدركَ ذلك لا محالة، فالعينُ تزني وزناها النظر، واللسان يزني وزناه النُّطق، والرِّجل تزني وزناها الخُطى، واليد تزني وزناها البطش، والقلب يهوى**

---

(١) بقية البحث سيأتي إن شاء الله تعالى في سورة: ﴿والشمس وضحاها﴾.

(٢) ١٠١ روضة.　　(٣) ذكره البخاري ومسلم والترمذي وغيرهم.

ويتمنى، والفرج يصدق ذلك أو يكذبه»[١]. فبدأ بزنى العين لأنه أصل زنى اليد والرجل والقلب والفرج، ونبه بزنى اللسان بالكلام على زنى الفم بالقُبَل، وجعل الفرج مصدقًا لذلك إن حقق الفعل أو مكذبًا [له] إن لم يحققه.

وهذا الحديث من أبين الأشياء على أن العين تعصي بالنظر وأن ذلك زناها، ففيه رد على من أباح النظر مطلقًا. وثبت عنه، ﷺ، أنه قال: «**يا علي لا تُتبع النظرة النظرة فإن لك الأولى وليست لك الثانية**»[٢].

ووقعت مسألة: ما تقول السادة العلماء في رجل نظر إلى امرأة [نظرة] فعلق حبها بقلبه واشتد عليه الأمر، فقالت له نفسه: هذا كله من أول نظرة فلو أعدت النظر إليها لرأيتها دون ما في نفسك فسلوت عنها، فهل يجوز له تعمد النظر ثانيًا لهذا المعنى؟ **فكان** الجواب: الحمد لله لا يجوز هذا لعشرة أوجه:

أحدها: أن الله سبحانه أمر بغض البصر ولم يجعل شفاء القلب فيما حرمه على العبد.

الثاني: أن النبي، ﷺ، سئل عن نظر الفجأة وقد علم أنه يؤثر في القلب فأمر بمداواته بصرف البصر لا بتكرار النظر.

الثالث: أنه صرح بأن الأولى له وليست له الثانية، ومحال أن يكون [داؤه مما له و][٣] دواؤه فيما ليس له.

الرابع: أن الظاهر قوة الأمر بالنظرة الثانية لا تَناقُصه، والتجربة شاهدة به. والظاهر أن الأمر كما رآه أول مرة فلا تحسن المخاطرة بالإعادة.

الخامس: أنه ربما رأى ما هو فوق الذي في نفسه فزاد عذابه.

السادس: أن إبليس عند قصده للنظرة الثانية يقوم في ركائبه فيزين له ما ليس بحسن لتتم البلية.

السابع: أنه لا يعان على بليته إذا أعرض عن امتثال أوامر الشرع وتداوى بما حرمه عليه، بل هو جدير أن تتخلف عنه المعونة.

الثامن: أن النظرة الأولى سهم مسموم من سهام إبليس، ومعلوم أن الثانية أشد سمًا فكيف يتداوى من السم بالسم؟

---

(١) قال الحافظ المنذري وقد أورده بنحوه: رواه مسلم والبخاري باختصار والنسائي وأبو داود.

(٢) قال الحافظ المنذري: رواه أحمد والترمذي وأبو داود (٣) زيادة من غذاء الألباب للسفاريني.

التاسع: أن صاحب هذا المقام في مقام معاملة الحق عز وجل في ترك محبوب كما زعم، وهو يريد بالنظرة الثانية أن يتبين حال المنظور إليه، فإن لم يكن مرضيًا تركه، فإذاً يكون تركه لأنه لا يلائم غرضه لا لله تعالى، فأين معاملة الله سبحانه بترك المحبوب لأجله؟

العاشر: يتبين بضرب مثل مطابق للحال وهو أنك إذا ركبت فرسًا حديدًا فمالت بك إلى درب ضيق لا ينفذ ولا يمكنها تستدير فيه للخروج، فإذا همَّت بالدخول فيه فاكبحها لئلا تدخل، فإذا دخلت خطوة أو خطوتين فصِح بها وردها إلى وراء عاجلاً قبل أن يتمكن دخولها، فإن رددتها إلى ورائها سهل الأمر، وإن توانيت حتى ولجت وسقتها داخلاً ثم قمت تجذبها بذنبها عسر عليك أو تعذر خروجها. فهل يقول عاقل إن طريق تخليصها سوقها إلى داخل؟ فكذلك النظرة إذا أثرت في القلب، فإن عجل الحازم وحسم المادة من أولها سهل علاجه، وإن كرر النظر ونقب [عن] محاسن الصورة ونقلها إلى قلب فارغ فنقشها فيه تمكنت المحبة، وكلما تواصلت النظرات كانت كالماء يسقي الشجرة فلا تزال [شجرة الحب][1] تنمى حتى يفسد القلب ويعرض عن الفكر فيما أمر به، فيخرج بصاحبه إلى المحن، ويوجب ارتكاب المحظورات [والفتن][2]، ويلقي القلب في التلف. والسبب في هذا أن الناظر التذَّت عينه بأول نظرة فطلبت المعاودة، كأكل الطعام اللذيذ إذا تناول منه لقمة، ولو أنه غضَّ أولاً لاستراح قلبه وسلم، وتأمل قول النبي، ﷺ: «**النظرة سهم مسموم من سهام إبليس**»[3] فإن السهم[4] شأنه أن يسري في القلب فيعمل فيه عمل السم الذي يُسقاه المسموم، فإن بادر واستفرغه وإلا قتله ولا بد.

قال المرُّوذِي: قلت لأحمد: الرجل ينظر إلى المملوكة. قال: أخاف عليه الفتنة: كم نظرة قد ألقت في قلب صاحبها البلابل.

وقال ابن عباس: الشيطان من الرجل في ثلاثة: في نظره، وقلبه، وذكره. وهو من المرأة في ثلاثة: في بصرها، وقلبها، وعَجُزِها.

(١، ٢) زيادة من غذاء الألباب. (٣) رواه الإمام أحمد.
(٤) في النسختين: فإن السم ولعل الصواب ما أثبتناه.

فصــل

ولما كان النظر من أقرب الوسائل إلى المحرم اقتضت الشريعة تحريمه، وأباحته في موضـع الحاجة. وهذا شأن كل ما حرم تحريم الوسائل فإنه يباح للمصلحة الراجحة، كما حرمت الصلاة في أوقات النهي لئلا تكون وسيلة إلى التشبة بالكفار في سجـودهم للشمس، أبيحت للمصلحـة الراجحة كقضاء الفوائت، وصلاة الجنازة، وفعل ذوات الأسباب على الصحيح.

وفي مسنـد الإمام أحمد بن حنبل عن النبي، ﷺ، أنه قال: **«النظرة سهم مسموم من سهام إبليس فمن غضَّ بصره عن محاسن امرأة أورث الله قلبه حلاوة يجدها إلى يوم يلقاه»**، أو كما قال.

وقـال جرير بن عبـدالله رضي الله عنهما: سألت رسول الله، ﷺ، عن نظر الفجأة فأمرني أن أصرف بصري[١] ونظرة الفجأة هي النظرة الأولى التي تقع بغير قصد من الناظر، فما لم يتعمده القلب لا يعاقب عليه، فإذا نظر الثانية تعمُّدًا أثم، فأمـره النبي، ﷺ، عند نظرة الفجأة أن يصرف بصره ولا يستديم النظر؛ فإن استدامته كتكريره، وأرشد من ابتلي بنظرة الفجأة أن يداويه بإتيان امرأته، وقال: **«إنَّ معها مثل الذي معها»**[٢]، فإن في ذلك التسلي عن المطلوب بجنسه. والثاني: أن النظر يثير قوة الشهوة، فأمره بتنقيصها بإتيان أهله، ففتنة النظر أصل كل فتنة.

كما ثبت في الصحيحين من حديث أسامة بن زيد رضي الله عنهما أن النبي، ﷺ، قال: **«ما تركتُ بعدي فتنةً أضرَّ على الرجال من النساء»**[٣].

وفي صحيح مسلم من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي، ﷺ: **«اتَّقوا الدنيا واتقوا النساء»**.

وفي مسند محمد بن إسحاق السراج من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه عن النبي، ﷺ: **«أخوفُ ما أخافُ على أُمَّتي النساءُ والخمر»**.

---

(١) قال الحافظ المنذري: رواه مسلم وأبو داود والترمذي.

(٢) هذا اللفظ في رواية الخطيب والأمر بإتيان الأهل في مثل هاته الحال جاء في أحاديث رواها أحمد ومسلم وأبو داود.

(٣) قال السيوطي: رواه البخاري ومسلم وأحمد والترمذي والنسائي وابن ماجه.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: لم يكفر من كفر ممن مضى إلا من قبل النساء، وكفر من بقي من قبل النساء.

فصل

وفي غض البصر عدة فوائد: أحدها تخليص القلب من ألم الحسرة، فإن من أطلق نظره دامت حسرته، فأضر شيء على القلب إرسال البصر، فإنه يريه ما يشتد طلبه، ولا صبر له عنه، ولا وصول له إليه، وذلك غاية ألمه وعذابه. . .

(١)**وقد** روى هشام بن الغاز عن مكحول وسليمان بن موسى أن عمر كتب إلى أهل الشام: امنعوا نساءهم أن يدخلن مع نسائكم الحمامات.

وقال أحمد بن حنبل: أكره أن تطلع أهل الذمة على عورات المسلمين.

قال أبو القاسم: وهذا صحيح، إن نساء أهل الذمة لسن بثقات على شيء من أمور المسلمين فلا يؤمن الفساد. وقد نهى رسول الله، ﷺ، أن تباشر المرأة قشعتها(٢) لزوجها حتى كأنه ينظر إليها. يعني: فيفضي ذلك إلى وصف الذمية المسلمة لزوجها الذمي حتى كأنه يشاهدها، فكره أحمد لهذا المعنى. قال: وقد رويت كراهته عن عبدالله بن بشر، وهو من أعلى التابعين من أهل الشام. ثم ساق من طريق عيسى بن يونس عن أبي إسحاق عن هشام بن الغاز أن عبدالله بن بشر كره أن تقبل النصرانية وأن ترى عورتها. قلت: أحمد احتج بقوله تعالى: ﴿**ولا يُبدينَ زِينَتهُنَّ إلاَّ لِبُعولَتِهِنَّ**﴾. [النور: ٣١]. إلى أن قال: ﴿**أو نِسائِهِنَّ**﴾ فخص نساء المسلمات بجواز إبداء الزينة لهن دون الكوافر. . .

فصل(٣)

وأما تحريم النظر إلى العجوز الحرة الشوهاء القبيحة وإباحته إلى الأمة البارعة الجمال فكذب على الشارع، فأين حرم الله هذا وأباح هذا؟

والله سبحانه إنما قال: ﴿**قُلْ للمُؤمِنينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ**﴾. [النور: ٣٠]. ولم يطلق الله ورسوله للأعين النظر إلى الإماء البارعات الجمال، وإذا خشي الفتنة بالنظر إلى الأمة حرم عليه بلا ريب.

وإنما نشأت الشبهة أن الشارع شرع للحرائر أن يسترن وجوههن عن الأجانب.

---

(١) ٧٦٥ أحكام أهل الذمة جـ٢. (٢) القشعة: العورة. (٣) ٦١ أعلام جـ٢.

وأما الإماء فلم يوجب عليهن ذلك، لكن هذا في إماء الاستخدام والابتذال، وأما إماء التسرِّي اللاتي جرت العادة بصونهن وحجبهن فأين أباح الله ورسوله لهن أن يكشفن وجوههن في الأسواق والطرقات ومجامع الناس، وأذن للرجال في التمتع بالنظر إليهن؟ فهذا غلط محض على الشريعة، وأكد هذا الغلط أن بعض الفقهاء سمع قولهم: إن الحرة كلها عورة إلا وجهها وكفيها، وعورة الأمة ما لا يظهر غالبًا كالبطن والظهر والساق؛ فظن أن ما يظهر غالبًا حكمه حكم وجه الرجل، وهذا إنما هو في الصلاة لا في النظر، فإن العورة عورتان: عورة في النظر، وعورة في الصلاة؛ فالحرة لها أن تصلي مكشوفة الوجه والكفين، وليس لها أن تخرج في الأسواق ومجامع الناس كذلك، والله أعلم.

(١)**قوله** تعالى: ﴿ولَا يَضْرِبْنَ بأَرْجُلِهِنَّ ليُعْلَمَ ما يُخفينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ﴾. [النور: ٣١]. فمنعهن من الضرب بالأرجل وإن كان جائزًا في نفسه لئلا يكون سببًا إلى سمع الرجال صوت الخلخال فيثير ذلك دواعي الشهوة منهم إليهنَّ.

(٢)**ومنزل** «التوبة» أول المنازل، وأوسطها، وآخرها، فلا يفارقه العبد السالك، ولا يزال فيه إلى الممات. وإن ارتحل إلى منزل آخر ارتحل به، واستصحبه معه ونزل به. فالتوبة هي بداية العبد ونهايته، وحاجته إليها في النهاية ضرورية. كما أن حاجته إليها في البداية كذلك. وقد قال الله تعالى: ﴿وتُوبُوا إلى الله جميعًا أيُّها المُؤمِنونَ لعلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾. [النور: ٣١]. وهذه الآية في سورة مدنية، خاطب الله بها أهل الإيمان وخيار خلقه أن يتوبوا إليه، بعد إيمانهم وصبرهم، وهجرتهم وجهادهم. ثم علق الفلاح بالتوبة تعليق المسبب بسببه. وأتى بأداة «لعلَّ» المشعرة بالترجي، إيذانًا بأنكم إذا تُبتُمْ كنتم على رجاء الفلاح، فلا يرجو الفلاح إلا التائبون. جعلنا الله منهم.

(٣)فصل

وكثير من الناس إنما يفسر التوبة بالعزم على أن لا يعاود الذنب، وبالإقلاع عنه في الحال، وبالندم عليه في الماضي. وإن كان في حق آدمي: فلابد من أمر رابع: وهو التحلل منه.

---

(١) ١٤٩ أعلام جـ٣.	(٢) ١٧٨ مدارج جـ١.	(٣) ٣٠٥ مدارج جـ١.

وهذا الذي ذكروه بعض مسمى «التوبة» بل شرطها، وإلا فالتوبة في كلام الله ورسوله ـ كما تتضمن ذلك ـ تتضمن العزم على فعل المأمور والتزامه، فلا يكون بمجرد الإقلاع والعزم والندم تائبًا، حتى يوجد منه العزم الجازم على فعل المأمور، والإتيان به. هذا حقيقة التوبة، وهي اسم لمجموع الأمرين، لكنها إذا قرنت بفعل المأمور كانت عبارة عما ذكروه، فإذا أفردت تضمنت الأمرين. وهي كلفظة «التقوى» التي تقتضي عند إفرادها فعل ما أمر الله به، وترك ما نهى الله عنه. وتقتضي عند اقترانها بفعل المأمور الانتهاء عن المحظور.

فإن حقيقة «التوبة» الرجوع إلى الله بالتزام فعل ما يحب، وترك ما يكره. فهي رجوع من مكروه إلى محبوب. فالرجوع إلى المحبوب جزء مسماها، والرجوع عن المكروه الجزء الآخر. ولهذا علق سبحانه الفلاح المطلق على فعل المأمور وترك المحظور بها، فقال: ﴿**وتُوبُوا إلى الله جَمِيعًا أَيُّهَا المؤمِنُونَ لعلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**﴾. فكل تائب مفلح. ولا يكون مفلحًا إلا من فعل ما أُمر به وترك ما نُهي عنه. وقال تعالى: ﴿**ومَنْ لَمْ يَتُبْ فأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ**﴾. [الحجرات: ١١]. وتارك المأمور ظالم، كما أن فاعل المحظور ظالم، وزوال اسم «الظلم» عنه إنما يكون بالتوبة الجامعة للأمرين. فالناس قسمان: تائب وظالم، ليس إلا. فالتائبون هم ﴿**العابِدُونَ الحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الآمِرُونَ بالمعرُوفِ والنَّاهُونَ عنِ المُنكَرِ والحَافِظُونَ لِحُدودِ الله**﴾. [التوبة: ١١٢]. فحفظ حدود الله: جزء التوبة. والتوبة هي مجموع هذه الأمور. وإنما سمي تائبًا: لرجوعه إلى أمر الله من نهيه، وإلى طاعته من معصيته، كما تقدم.

فإذًا «التوبة» هي حقيقة دين الإسلام، والدين كله داخل في مسمى «التوبة» وبهذا استحق التائب أن يكون حبيب الله. فإن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين. وإنما يحب الله من فعل ما أمر به، وترك ما نهى عنه.

فإذًا «التوبة» هي الرجوع مما يكرهه الله ظاهرًا وباطنًا إلى ما يحبه ظاهرًا وباطنًا. ويدخل في مسماها الإسلام، والإيمان، والإحسان، وتتناول جميع المقامات. ولهذا كانت غاية كل مؤمن، وبداية الأمر وخاتمته. كما تقدم. وهي الغاية التي وُجد

لأجلها الخلق. والأمر والتوحيد جزء منها، بل هو جزؤها الأعظم الذي عليه بناؤها.

وأكثر الناس لا يعرفون قدر «التوبة» ولا حقيقتها، فضلاً عن القيام بها علماً وعملاً وحالاً. ولم يجعل الله تعالى محبته للتوابين إلا وهم خواص الخلق لديه.

ولولا أن «التوبة» اسم جامع لشرائع الإسلام، وحقائق الإيمان لم يكن الرب تعالى يفرح بتوبة عبده ذلك الفرح العظيم. فجميع ما يتكلم فيه الناس من المقامات والأحوال هو تفاصيل «التوبة» وآثارها.

(1)**فإن** قيل فقد قال الله تعالى: **﴿وأَنْكِحُوا الأَيَامَى مِنْكُم والصَّالِحِينَ مِنْ عِبادِكُمْ وإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقراءَ يُغنِهِمُ الله مِنْ فَضْلِه﴾**. [النور: ٣٢].

وقال في الآية الأخرى: **﴿ولْيَسْتَعْفِفِ الذينَ لاَ يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغنِيهُمُ الله مِنْ فَضلِهِ﴾**. [النور: ٣٣]. أمرهم بالاستعفاف إلى وقت الغنى، وأمر بتزويج أولئك مع الفقر، وأخبر أنه تعالى يغنيهم فما محمل كل من الآيتين؟

فالجواب أن قوله: **﴿وليَسْتَعْفِفِ الذينَ لاَ يَجِدُونَ نِكَاحًا حتَّى يُغنِيهُمُ الله مِنْ فَضْلِهِ﴾**. في حق الأحرار، أمرهم الله تعالى أن يستعفُّوا حتى يغنيهم الله [من فضله] فإنهم إن تزوجوا مع الفقر التزموا حقوقاً لم يقدروا عليها وليس لهم من يقوم بها عنهم.

وأما قوله: **﴿وأَنْكِحُوا الأَيَامَى مِنْكُم والصَّالِحِينَ مِنْ عِبادِكُمْ وإِمَائِكُمْ﴾**. فإنه سبحانه أمرهم فيها [أن ينكحوا] الأيامى وهن النساء اللواتي لا أزواج لهن، هذا هو المشهور من لفظ الأيّم عند الإطلاق، وإن استعمل في حق الرجل بالتقييد، كما أن العَزَب عند الإطلاق للرجل وإن استعمل في حق المرأة.

ثم أمرهم سبحانه أن يزوّجوا عبيدهم وإماءهم إذا صلحوا للنكاح، فالآية الأولى في حكم تزوجهم لأنفسهم، والثانية في حكم تزويجهم لغيرهم.

وقوله في هذا القسم **﴿إِنْ يَكُونُوا فُقَراءَ﴾**يعم الأنواع الثلاثة التي ذُكرت فيه، فإن الأيّم تستغني بنفقة زوجها وكذلك الأمة، وأما العبد فإنه لما كان لا مال له وكان ماله لسيده فهو فقير ما دام رقيقًا فلا يمكن أن يُجعل لنكاحة غاية وهي غناه ما دام عبدًا، بل غناه إنما يكون إذا عتق واستغنى بهذا العتق، والحاجة تدعوه إلى النكاح

---

(١) ٣٤٠ روضة.

في الرق، فأمر سبحانه بإنكاحه، وأخبر أنه يغنيه من فضله إما بكسبه، وإما بإنفاق سيده عليه وعلى امرأته، فلم يمكن أن ينتظر بنكاحه الغني الذي ينتظر بنكاح الحر والله أعلم. وفي المسند وغيره مرفوعًا: **«ثلاثة حق على الله عونهم: المتزوج يريد العفاف والمكاتب يريد الأداء»** وذكر الثالث.

[1]**قوله** تعالى: **﴿الله نور السموات والأرض﴾**. [النور: ٣٥]. ومن أسمائه النور.

وقالت المعطلة ذلك مجاز معناه منور السموات والأرض بالنور المخلوق.

قالوا ويتعين المجاز؛ لأن كل عاقل يعلم بالضرورة أن الله تعالى ليس هو هذا النور المنبسط على الجدران، ولا هو النور الفائض من جرم الشمس والقمر والنار، فإما أن يكون مجازه منور السموات، أو هادي أهلها، وبطلان هذا يتبين بوجوه:

الأول: أن النور جاء في أسمائه تعالى، وهذا الاسم مما تلقته الأمة بالقبول وأثبتوه في أسمائه الحسنى. وهو في حديث أبي هريرة الذي رواه الوليد بن مسلم ومن طريقه رواه الترمذي والناس، ولم ينكره أحد من السلف، ولا أحد من أئمة أهل السنة، ومحال أن يسمي نفسه نورًا وليس له نور ولا صفة النور ثابتة له، كما أن من المستحيل أن يكون عليمًا قديرًا سميعًا بصيرًا و لا علم له ولا قدرة، بل صحة هذه الأسماء عليه مستلزمة لثبوت معانيها له، وانتفاء حقائقها عنه مستلزم لنفيها عنه. والثاني: باطل قطعًا فتعين الأول.

الوجه الثاني: أن النبي، ﷺ، لما سأله أبو ذر هل رأيت ربك قال: **«نور أنى أراه»**. رواه مسلم في صحيحه.

وفي الحديث قولان (أحدهما) أن معناه ثم نور أي فهناك نور منعني رؤيته.

ويدل على هذا المعنى شيئان (أحدهما) قوله في اللفظ الآخر في الحديث **«رأيت نورًا»** فهذا النور الذي رآه هو الذي حال بينه وبين رؤية الذات. (الثاني) قوله في حديث أبي موسى **«إن الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام يخفض القسط ويرفعه، يرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار، وعمل النهار قبل عمل الليل، حجابه النور، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ماانتهى إليه بصره من خلقه»**. رواه مسلم في صحيحه...

---

(١) ١٨٨ مختصر الصواعق جـ٢.

فصل(١)

والله سبحانه وتعالى سمى نفسه نورًا، وجعل كتابه نورًا، ورسوله، ﷺ، نورًا، ودينه نورًا، واحتجب عن خلقه بالنور، وجعل دار أوليائه نورًا يتلألأ قال تعالى: ﴿**اللهُ نُورُ السَّموات والأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ المِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ ولَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ ولَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ ويَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ واللهُ بِكُلِّ شَيءٍ عَلِيمٌ**﴾. [النور: ٣٥]. وقد فسر قوله تعالى: ﴿**الله نُور السموات والأرض**﴾. بكونه منور السموات والأرض، وهادي أهل السموات والأرض، فبنوره اهتدى أهل السموات والأرض، وهذا إنما هو فعله، وإلا فالنور الذي هو من أوصافه قائم به، ومنه اشتق له اسم النور الذي هو أحد الأسماء الحسنى.

والنور يضاف إليه سبحانه على أحد وجهين: إضافة صفة إلى موصوفها، وإضافة مفعول إلى فاعله، فالأول كقوله عز وجل: ﴿**وأَشْرَقَت الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا**﴾. [الزمر: ٦٩]. فهذا إشراقها يوم القيامة بنوره تعالى إذا جاء لفصل القضاء، ومنه قول النبي، ﷺ، في الدعاء المشهور: «**أعوذ بنور وجهك الكريم أن تضلني لا إله إلا أنت**»، وفي الأثر الآخر: «**أعوذ بوجهك ـ أو بنور وجهك ـ الذي أشرقت له الظلمات**»، فأخبر، ﷺ، أن الظلمات أشرقت لنور وجه الله، كما أخبر تعالى أن الأرض تشرق يوم القيامة بنوره.

وفي معجم الطبراني والسنة له، وكتاب عثمان الدارمي، وغيرها عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: ليس عند ربكم ليل ولا نهار، نور السموات والأرض من نور وجهه.

وهذا الذي قاله ابن مسعود رضي الله عنه أقرب إلى تفسير الآية من قول من فسرها بأنه هادي أهل السموات والأرض.

وأما من فسرها بأنه منور السموات والأرض فلا تنافي بينه وبين قول ابن مسعود، والحق أنه نور السموات والأرض بهذه الاعتبارات كلها.

---

(١) ٩ اجتماع الجيوش.

وفي صحيح مسلم وغيره من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قام فينا رسول الله، ﷺ، بخمس كلمات فقال: «**إن الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، يرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار، وعمل النهار قبل عمل الليل، حجابه النور لو كشفه لأحرقت سبحات**[1] **وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه**».

وفي صحيح مسلم عن أبي ذر رضي الله عنه قال: سألت رسول الله، ﷺ، هل رأيت ربك؟ قال: «**نور أنَّى أراه**». فسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله يقول: معناه كان ثَم[2] نور، وحال دون رؤيته نور، فأنّى أراه، قال: ويدل عليه أن في بعض الألفاظ الصحيحة هل رأيت ربك؟ فقال: «**رأيت نورًا**»، وقد أعضل أمر هذا الحديث على كثير من الناس حتى صحفه بعضهم فقال: (نوراني أراه) على أنها ياء النسب، والكلمة كلمة واحدة، وهذا خطأ لفظًا ومعنى، وإنما أوجب لهم هذا الإشكال والخطأ أنهم لما اعتقدوا أن رسول الله، ﷺ، رأى ربه، وكان قوله (أنى أراه) كالإنكار للرؤية حاروا في الحديث، ورده بعضهم باضطراب لفظه، وكل هذا عدول عن موجب الدليل.

وقد حكى عثمان بن سعيد الدارمي في كتاب الرؤية له إجماع الصحابة على أنه لم ير ربه ليلة المعراج، وبعضهم استثنى ابن عباس فيمن قال ذلك.

وشيخنا يقول: ليس ذلك بخلاف في الحقيقة؛ فإن ابن عباس لم يقل رآه بعيني رأسه، وعليه اعتمد أحمد في إحدى الروايتين حيث قال: إنه، ﷺ، رآه عز وجل، ولم يقل بعيني رأسه. ولفظ أحمد لفظ ابن عباس رضي الله عنهما، ويدل على صحة ما قال شيخنا في معنى حديث أبي ذر رضي الله عنه قوله، ﷺ، في الحديث الآخر: (**حجابه النور**) فهذا النور هو والله أعلم النور المذكور في حديث أبي ذر رضي الله عنه (**رأيت نورًا**).

وقوله تعالى: ﴿**مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ**﴾. [النور: ٣٥]. هذا مثل لنوره في قلب عبده المؤمن كما قال أبي بن كعب وغيره. وقد اختلف في مفسر الضمير في (نوره) فقيل هو النبي، ﷺ، أي مثل نور محمد، ﷺ.

(١) سبحات وجه الله: نوره.
(٢) أي هناك.

وقيل مفسره المؤمن أي مثل نور المؤمن. والصحيح أنه يعود على الله سبحانه وتعالى، والمعنى مثل نور الله سبحانه وتعالى في قلب عبده، وأعظم عباده نصيبًا من هذا النـور رسوله، ﷺ، فهذا مع ما تضمنه عود الضمير المذكور وهو وجه الكلام يتضمن التقادير الثلاثة وهو أتم لفظًا ومعنى.

وهذا النور يضاف إلى الله تعالى إذ هو معطيه لعبده وواهبه إياه، ويضاف إلى العبد إذ هو محله وقابله، فيضاف إلى الفاعل والقابل، ولهذا النور فاعل وقابل، ومحل وحال، ومادة .**وقد** تضمنت الآية ذكر هذه الأمور كلها على وجه التفصيل.

فالفاعل هو الله تعالى مفيض الأنوار الهادي لنوره من يشاء.

والقابل العبد المؤمن، والمحل قلبه، والحال همته وعزيمته وإرادته، والمادة قوله وعمله. وهذا التشبيه العجيب الذي تضمنته الآية فيه من الأسرار والمعاني وإظهار تمام نعمته على عبده المؤمن بما أناله من نوره ما تقر به عيون أهله وتبتهج به قلوبهم.

وفي هذا التشبيه لأهل المعاني طريقتان:

إحداهما طريقة التشبيه المركب وهي أقرب مأخذًا وأسلم من التكلف، وهي أن تشبه الجملة برمتها بنور المؤمن من غير تعرض لتفصيل كل جزء من أجزاء المشبه ومقابلته بجزء من المشبه به، وعلى هذا عامة أمثال القرآن. فتأمل صفة المشكاة وهي كوة تتقد لتكون أجمع للضوء قد وضع فيها مصباح، وذلك المصباح داخل زجاجة تشبه الكوكب الدري في صفائها وحسنها، ومادته من أصفى الأدهان وأتمها وقـودًا من زيت شجـرة في وسط القَراح[1] لا شرقية ولا غربية، بحيث تصيبها الشمس في إحدى طرفي النهار، بل هي في وسط القراح محمية بأطرافه تصيبها الشمس أعـدل إصـابـة، والآفات إلى الأطراف دونها، فمن شدة إضاءة زيتها وصفائها وحسنها يكاد يضيء من غير أن تمسه نار، فهذا المجموع المركب هو مثل نور الله تعالى الذي وضعه في قلب عبده المؤمن وخصه به.

والـطريقـة الثـانية طريقـة التشبيه المفصـل، فقيل المشكـاة صدر المؤمن، والزجاجة قلبه، شبه قلبه بالزجاجة لرقتها، وصفائها، وصلابتها، وكذلك قلب

---

(١) الماء لا يخالطه ثفل والخالص. والأرض لا ماء ولا شجر به.

المؤمن فإنه قد جمع الأوصاف الثلاثة فهو يحرم ويحسن، ويتحنن ويشفق على الخلق برقته.

وبصفائه تتجلى فيه صور الحقائق والعلوم على ما هي عليه، ويباعد الكدر والدرن والوسخ بحسب ما فيه من الصفاء.

وبصلابته يشتد في أمر الله تعالى ويتصلب في ذات الله تعالى، ويغلظ على أعداء الله تعالى، ويقوم بالحق لله تعالى.

وقد جعل الله تعالى القلوب كالآنية، كما قال بعض السلف «القلوب آنية الله في أرضه فأحبها إليه أرقها وأصلبها وأصفاها».

والمصباح هو نور الإيمان في قلبه، والشجرة المباركة هي شجرة الوحي المتضمنة للهدى ودين الحق، وهي مادة المصباح التي يتقد منها.

والنور على النور، نور الفطرة الصحيحة والإدراك الصحيح، ونور الوحي والكتاب، فينضاف أحد النورين إلى الآخر، فيزداد العبد نورًا على نور. ولهذا يكاد ينطق بالحق والحكمة قبل أن يسمع ما فيه بالأثر، ثم يبلغه الأثر بمثل ما وقع في قلبه ونطق به، فيتفق عنده شاهد العقل والشرع، والفطرة والوحي، فيريه عقله وفطرته وذوقه الذي جاء به الرسول، ﷺ، هو الحق لا يتعارض عنده العقل والنقل البتة بل يتصادقان ويتوافقان.

فهذا علامة النور على النور، عكس من تلاطمت في قلبه أمواج الشبه الباطلة، والخيالات الفاسدة من الظنون الجهليات التي يسميها أهلها القواطع العقليات، فهي في صدره ﴿كظُلُماتٍ في بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فوقِهِ مَوْجٌ مِنْ فوقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بعضُها فوقَ بَعضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لم يجعلِ الله لَهُ نورًا فما لَهُ مِنْ نُورٍ﴾. [النور: ٤٠].

فانظر كيف انتظمت هذه الآيات طرائق بني آدم أتم انتظام، واشتملت عليه أكمل اشتمال، فإن الناس قسمان:

أهل الهدى والبصائر الذين عرفوا أن الحق فيما جاء به الرسول، ﷺ، عن الله سبحانه وتعالى، وأن كل ما عارضه فشبهات يشتبه على من قل نصيبه من العقل والسمع أمرها، فيظنها شيئًا له حاصل ينتفع به وهي ﴿كَسَرَابٍ بِقيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمآنُ

ماءً حتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يجِدْهُ شيئًا ووَجَدَ الله عِنْدَه فوفَّاه حِسَابهُ والله سَرِيعُ الحِسَاب أو كظُلُماتٍ في بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فوقِهِ مَوْجٌ مِنْ فوقِهِ سَحَابٌ ظُلُماتٌ بعضُها فوقَ بَعضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَراهَا ومَنْ لم يجعل الله لهُ نورًا فما لَهُ مِنْ نُورٍ﴾. [النور: ٣٩، ٤٠]. وهؤلاء هم أهل الهدى ودين الحق أصحاب العلم النافع، والعمل الصالح، الذين صدقوا الرسول، ﷺ، في إخباره ولم يعارضوها بالشبهات، وأطاعوه في أوامره ولم يضيعوها بالشهوات، فلا هم في علمهم من أهل الخوض الخراصين الذين هم في غمرة ساهون، ولا هم في عملهم من المستمتعين بخلاقهم الذين حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة، وأولئك هم الخاسرون. أضاء لهم نور الوحي المبين فرأوا في نوره أهل الظلمات في ظلمات آرائهم يعمهون، وفي ضلالتهم يتهوكون، وفي ريبهم يترددون، مغترين بظاهر السراب، ممحلين مجدبين مما بعث الله تعالى به رسوله، ﷺ، من الحكمة وفصل الخطاب، إن عندهم إلا نخالة الأفكار، وزبالة الأذهان التي قد رضوا بها واطمأنوا إليها، وقدموها على السنة والقرآن **﴿إن في صدورهم إلا كبر ما هم ببالغيه﴾** أوجبه لهم اتباع الهوى ونخوة الشيطان، وهم لأجله يجادلون في آيات الله بغير سلطان.

القسم الثاني: أهل الجهل والظلم الذين جمعوا بين الجهل بما جاء به، والظلم باتباع أهوائهم الذين قال الله تعالى فيهم: **﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وما تَهوى الأَنْفُسُ ولَقَدْ جَاءَهم من رَبِّهِم الهُدى﴾.** [النجم: ٢٣].

وهؤلاء قسمان، أحدهما: الذين يحسبون أنهم على علم وهدى، وهم أهل الجهل والضلال فهؤلاء أهل الجهل المركب الذين يجهلون الحق ويعادونه ويعادون أهله، وينصرون الباطل ويوالون أهله، وهم يحسبون أنهم على شيء، ألا إنهم هم الكاذبون. فهم لاعتقادهم الشيء على خلاف ما هو عليه بمنزلة رائي السراب الذي يحسبه الظمآن ماءًا حتى إذا جاءه لم يجده شيئًا. وهكذا هؤلاء أعمالهم وعلومهم بمنزلة السراب الذي يخون صاحبه أحوج ما هو إليه.

ولم يقتصر على مجرد الخيبة والحرمان كما هو حال من أم السراب فلم يجده ماء، بل انضاف إلى ذلك أنه وجد عنده أحكم الحاكمين وأعدل العادلين سبحانه وتعالى، فحسب له ما عنده من العلم والعمل فوفاه بمثاقيل الذر، وقدم إلى ما

عمل من عمل يرجو نفعه فجعله هباء منثورًا إذ لم يكن خالصًا لوجهه ولا على سنة رسوله، ﷺ، وصارت تلك الشبهات الباطلة التي كان يظنها علومًا نافعة كذلك هباء منثورًا، فصارت أعماله وعلومه حسرات عليه.

والسراب ما يُرى في الفلاة المنبسطة من ضوء الشمس وقت الظهيرة يسرب على وجه الأرض كأنه ماء يجري، والقيعة والقاع هو المنبسط من الأرض الذي لا جبل فيه ولا واد، فشبه علوم من لم يأخذ علومه من الوحي وأعماله بسراب يراه المسافر في شدة الحر فيؤمه فيخيب ظنه ويجده نارًا تلظى، فهكذا علوم أهل الباطل وأعمالهم إذا حشر الناس واشتد بهم العطش بدت لهم كالسراب فيحسبونه ماء، فإذا أتوه وجدوا الله عنده فأخذتهم زبانية العذاب فعتلوهم إلى نار الجحيم، فسُقوا ماء حميمًا فقطع أمعاءهم. وذلك الماء الذي سقوه هو تلك العلوم التي لا تنفع، والأعمال التي كانت لغير الله تعالى، صيرها الله تعالى حميمًا سقاهم إياه، كما أن طعامهم من ضريع لا يسمن ولا يغني من جوع، وهو تلك العلوم والأعمال الباطلة التي كانت في الدنيا كذلك لا يسمن ولا يغني من جوع.

وهؤلاء هم الذين قال الله فيهم: **﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ● الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾** [الكهف: ١٠٣-١٠٤]. وهم الذين عنى بقوله: **﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾** [الفرقان: ٢٣].

وهم الذين عنى بقوله: **﴿كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾**. [البقرة: ١٦٧].

والقسم الثاني من هذا الصنف أصحاب الظلمات، وهم المنغمسون في الجهل بحيث قد أحاط بهم من كل وجه، فهم بمنزلة الأنعام بل هم أضل سبيلًا، فهؤلاء أعمالهم التي عملوها على غير بصيرة، بل بمجرد التقليد واتباع الآباء من غير نور من الله تعالى كظلمات، جمع ظلمة وهي ظلمة الجهل، وظلمة الكفر، وظلمة الظلم واتباع الهوى، وظلمة الشك والريب، وظلمة الإعراض عن الحق الذي بعث الله تعالى به رسله صلوات الله وسلامه عليهم، والنور الذي أنزله معهم ليخرجوا به الناس من الظلمات إلى النور، فإن المعرض عما بعث الله تعالى به

محمدًا، ﷺ، من الهدى ودين الحق يتقلب في خمس ظلمات: قوله ظلمة، وعمله ظلمة، ومدخله ظلمة، ومخرجه ظلمة، ومصيره إلى الظلمة، وقلبه مظلم، ووجهه مظلم، وكلامه مظلم، وحاله مظلم، وإذا قابلت بصيرته الخفاشية[1] ما بعث الله به محمدًا، ﷺ، من النور جد في الهرب منه، وكاد نوره يخطف بصره، فهرب إلى ظلمات الآراء التي هي به أنسب وأولى كما قيل:

خفافيش أعشاها النهار بضوئه ... ووافقها قطع من الليل مظلم

فإذا جاء إلى زبالة الأفكار ونخالة الأذهان، جال ومال وأبدى وأعاد وقعقع وفرقع، فإذا طلع نور الوحي وشمس الرسالة انحجز في حجرة الحشرات.

وقوله ﴿في بحر لجي﴾ اللجي العميق منسوب إلى لجة البحر وهو معظمه، وقوله تعالى: ﴿يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فوقِهِ سَحَابٌ﴾. [النور: ٤٠]. تصوير لحال هذا المعرض عن وحيه، فشبه تلاطم أمواج الشبه والباطل في صدره بتلاطم أمواج ذلك البحر، وأنها أمواج بعضها فوق بعض، والضمير الأول في قوله: ﴿يغشاه﴾ راجع إلى البحر، والضمير الثاني في قول: ﴿من فوقه﴾ عائد إلى الموج، ثم إن تلك الأمواج مغشاة بسحاب، فههنا ظلمات: ظلمة البحر اللجي، وظلمة الموج الذي فوقه، وظلمة السحاب الذي فوق ذلك كله، إذا أخرج من هذا البحر يده لم يكد يراها...

...[2]**قال** تعالى: ﴿يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونةٍ لا شَرْقِيَّة ولا غَربيَّة يَكَادُ زَيْتُها يُضِيء ولو لَمْ تَمْسَسْهُ نار﴾ [النور: ٣٥]. وفي الترمذي وابن ماجه من حديث أبي هريرة عن النبي، ﷺ، أنه قال: **«كلوا الزيت وادهنوا به؛ فإنه من شجرة مباركة»**.

وللبيهقي وابن ماجه أيضًا عن عبدالله بن عمر قال: قال رسول الله، ﷺ: **«ائتدموا بالزيت، وادهنوا به؛ فإنه من شجرة مباركة»**.

الزيت: حار رطب في الأولى. وغلط من قال: يابس، والزيت بحسب زيتونه، فالمعتصر من النضيج: أعدله وأجوده. ومن الفجِّ: فيه برودة ويبوسة، ومن الزيتون الأحمر: متوسط بين الزيتين، ومن الأسود: يسخن ويرطب باعتدال.

---

(١) نسبة إلى الخفاش وهو الوطواط سُمي لصغر عينيه وضعف بصره. (٢) ٣٥٢ زاد المعاد جـ٣.

وينفـع من السمـوم، ويطلق البـطن، ويخرج الدود. والعتيق منه أشد تسخينًا وتحليلاً. وما استخرج منه بالماء فهو أقل حرارة، وألطف وأبلغ في النفع. وجميع أصنافه ملينة للبشرة، وتبطىء الشيب. وماء الزيتون المالح يمنع من تنفط حرق النار، ويشد اللثة. وورقه ينفع من الحمرة والنملة، والقروح الوسخة، والشرى ويمنع العرق، ومنافعه أضعاف ما ذكرنا.

(١)**قال** تعالى: ﴿**والذين كَفَرُوا أعمالهم كسراب بقيعة يحسَبَهُ الظمآنُ ماء حتَّى إذا جاءه لم يجده شيئًا وَوَجَدَ الله عنده فوفَّاه حسابه والله سريعُ الحساب**﴾. وقال تعالى في وصف المغترين: ﴿**قُل هلْ نُنَبِّئكم بالأخسَرينَ أعمالاً الذِينَ ضَلَّ سعيُهمْ في الحياةِ الدُّنيا وهُمْ يَحْسَبونَ أنَّهُمْ يُحسِنُونَ صُنعًا**﴾. [الكهف: ١٠٣، ١٠٤]. وهؤلاء إذا انكشف الغطاء وثبتت حقائق الأمور علموا أنهم لم يكونوا على شيء ﴿**وبَدَا لهم مِنَ الله مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ**﴾. [الزمر: ٤٧]. وفي أثر معروف إذا رأيت الله سبحانه يزيدك من نعمه وأنت مقيم على معصيته فاحذره فإنما هو استدراج يستدرجك به. وشاهد هذا في القرآن في قوله تعالى: ﴿**فلَمَّا نَسُوا ما ذُكِّرُوا بهِ فَتَحْنَا عليْهِمْ أبْوَابَ كلِّ شيْءٍ حتَّى إذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ**﴾. [الأنعام: ٤٤]. وهذا من أعظم الغرة أن تراه يتابع عليك نعمه وأنت مقيم على ما يكره، فالشيطان موكل بالغرور، وطبع النفس الأمَّارة الاغترار. فإذا اجتمع الرأي والبغي والرأي المحتاج(٢) والشيطان الغرور والنفس المغترة لم يقع هناك خلاف، فالشياطين غروا المغترين بالله، وأطمعوهم مع إقامتهم على ما يسخط الله ويغضبه في عفوه وتجاوزه، وحـدثـوهم بالتـوبة لتسكن قلوبهم، ثم دافعوهم بالتسويف حتى هجم الأجل فأُخذوا على أسوأ أحوالهم وقال تعالى: ﴿**وغرَّتكُم الأمانيُّ حتَّى جاءَ أمْرُ الله وغرَّكُم بالله الغَـرُور**﴾. [الحديد: ١٤]. وقال تعالى: ﴿**يا أيُّها النَّاسُ إنَّ وعْدَ الله حَقٌّ فلا تَغُرَّنَّكُم الحياةُ الدُّنيا ولا يَغُرَّنَّكُم بالله الغَرُور**﴾. [فاطر: ٥]. وأعظم الناس غرورًا بربـه من إذا مسـه الله برحمة منه وفضل قال ﴿**هذا لي**﴾ أي أنا أهله وجدير به ومستحق له ثم قال: ﴿**وما أَظُنُّ الساعة قائِمةً**﴾ فظن أنه أهل لما أولاه من النعم

---

(١) ٢٩٧ الروح.	(٢) لعله المحاج.

مع كفـره بالله ثم زاد في غروره فقـال: ﴿وَلَئِن رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى﴾. [فصلت: ٥٠]. يعني الجنـة والكرامة فهكذا تكون الغرة بالله، فالمغتر بالشيطان مغتر بوعوده وأمانيه، وقد ساعده اغتراره بدنياه ونفسه فلا يزال كذلك حتى يتردى في آبار الهلاك.

فصـــل

والفرق بين الرجاء والتمني أن الرجاء يكون مع بذل الجهد واستفراغ الطاقة في الإتيان بأسبـاب الظفر والفوز. (والتمني) حديث النفس بحصول ذلك مع تعطيل الأسباب الموصلة إليه. . .[1]

[2]**قوله** تعالى: ﴿**والذينَ كفروا أعمالُهم كسَرَابٍ بقيعةٍ يَحْسَبهُ الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئًا ووجـد الله عنـده فوفَّاه حسابه والله سريع الحساب. أو كظُلماتٍ في بحر لجيٍّ يَغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرجَ يدَهُ لم يَكَدْ يراها ومَنْ لم يجعل الله له نورًا فما له من نور**﴾. [النور: ٣٩، ٤٠].

ذكـر سبحـانـه للكافرين مثلين: مثلاً بالسَّراب، ومثلاً بالظلمات المتراكمة، وذلك لأن المُعرضين عن الهُدَى والحق نوعان:

أحدهما مَنْ يظن أنه على شيء فيتبين له عند انكشاف الحقائق خلافُ ما كان يظنه، وهذه حال أهل الجهل وأهل البِدَع والأهواء الذين يَظنون أنهم على هُدىً وعلم، فإذا انكشفت الحقائق تبين لهم أنهم لم يكونوا على شيء، وأن عقائدهم وأعمالهم التي ترتَّبتْ عليها كانت كسرَاب بقيعة يُرَى في عين الناظر ماء ولا حقيقة له، وهكذا الأعمال التي لغير الله وعلى غير أمره، يحسبها العامل نافعةً له وليست كذلك، وهذه هي الأعمال التي قال الله عز وجل فيها: ﴿**وقَدِمنا إلى ما عَمِلُوا مِنْ عملٍ فجعلناهُ هَبَاءً مَنْثورًا**﴾. [الفرقان: ٢٣].

وتأمل جعل الله سبحانه السراب بالقيعة ـ وهي الأرض القفر الخالية من البناء والشجـر والنبات والعالم ـ فمحلُّ السراب أرض قفر لا شيء بها، والسراب لا

(١) بقية البحث تقدم في سورة البقرة. (٢) ١٥٥ أعلام جـ١.

حقيقة له، وذلك مطابق لأعمالهم وقلوبهم التي أقفرت من الإيمان والهدى.

وتأمل ما تحت قوله: ﴿**يَحْسَبُهُ الظمآن ماء**﴾ والظمآن الذي قد اشتد عَطَشُه فرأى السَّراب فظنه ماء فتبعه فلم يجده شيئًا، بل خانه أحوجَ ما كان إليه، فكذلك هؤلاء، لما كانت أعمالهم على غير طاعة الرسول، ولغير الله، جُعلت كالسراب، فرفعت لهم أظمأ ما كانوا وأحوج ما كانوا إليها، فلم يجدوا شيئًا، ووجدوا الله سبحانه ثمَّ؛ فجازاهم بأعمالهم ووفَّاهم حسابهم.

وفي الصحيح من حديث أبي سعيد الخدري عن النبي، ﷺ، في حديث التجلي يوم القيامة «**ثم يُؤتى بجهنم تُعرض كأنها السراب، فيقال لليهود: ما كنتم تعبدون؟ فيقولون: كنا نعبد عُزيرَ بن الله، فيقال: كذبتم، لم يكن لله صاحبة ولا ولد، فما تريدون؟ قالوا: نريد أن تسقينا، فيقال: اشرَبُوا، فيتساقطون في جهنم، ثم يقال للنصارى: ما كنتم تعبدون؟ فيقولون: كنا نعبدُ المسيح بن الله، فيقال لهم: كذبتم، لم يكن لله صاحبة ولا ولد، فما تريدون؟ فيقولون: نريد أن تسقينا، فيقال لهم: اشربوا، فيتساقطون**». وذكر الحديث، وهذه حال كل صاحب باطل، فإنه يخونُه باطله أحوَج ما كان إليه، فإن الباطل لا حقيقة له، وهو كاسمه باطل؛ فإذا كان الاعتقادُ غير مطابق ولا حق كان متعلَّقهُ باطلاً.

وكذلك إذا كانت غايةُ العمل باطلة ـ كالعمل لغير الله، أو على غير أمره ـ بَطَل العملُ ببطلان غايته، وتضرَّر عامله ببطلانه، وبحصول ضد ما كان يؤمله، فلم يذهب عليه عملُه واعتقاده، لا لهُ ولا عليه، بل صار مُعَذَّبًا بفوات نفعه، وبحصول ضد النفع؛ فلهذا قال تعالى: ﴿**وَوَجدَ الله عِنْدَهُ فوفَّاهُ حِسَابَهُ والله سَرِيعُ الحِساب**﴾. [النور: ٣٩]. فهذا مَثَلُ الضال الذي يحسب أنه على هُدى.

فصل

النوع الثاني: أصحاب مثل الظلمات المتراكمة، وهم الذين عَرَفُوا الحق والهدى، وآثروا عليه ظُلمات الباطل والضَّلال، فتراكمَتْ عليهم ظلمة الطبع وظلمة النفوس وظلمة الجهل حيث لم يعملوا بعلمهم فصاروا جاهلين، وظلمة اتباع الغيّ والهوى، فحالهم كحال مَنْ كان في بحر لجي لا ساحل له وقد غَشيه

موج ومن فوق ذلك الموج موج، ومن فوقه سحاب مظلم، فهو في ظلمة البحر وظلمة الموج وظلمة السحاب، وهذا نظير ما هو فيه من الظلمات التي لم يُخرجه الله منها إلى نور الإيمان.

وهذان المثلان بالسراب الذي ظنه مادة الحياة وهو الماء، والظلمات المضادة للنور نظير المثلين اللذين ضربهما الله للمنافقين والمؤمنين، وهو المثل المائي والمثل الناري، وجعل حظَّ المؤمنين منهما الحياة والإشراق، وحظَّ المنافقين منهما الظلمة المضادة للنور والموت المضاد للحياة.

فكذلك الكفار في هذين المثلين، حظهم من الماء السراب الذي يغر الناظر ولا حقيقة له، وحظهم الظلمات المتراكمة، وهذا يجوز أن يكون المراد به حال كل طائفة من طوائف الكفار، وأنهم عدِمُوا مادة الحياة والإضاءة بإعراضهم عن الوحي، فيكون المثلان صفتين لموصوف واحد.

ويجوز أن يكون المراد به تنويعَ أحوال الكفار، وأن أصحاب المثل الأول هم الذين عملوا على غير علم ولا بصيرة، بل على جهل وحُسن ظن بالأسلاف، فكانوا يحسبون أنهم يحسنون صنعًا.

وأصحاب المثل الثاني هم الذين استحبُّوا الضلالة على الهدى، وآثروا الباطل على الحق، وعموا عنه بعد أن أبصروه، وجحدوه بعد أن عرفوه، فهذا حال المغضوب عليهم، والأول حال الضالين؛ وحالُ الطائفتين مخالف لحال المنعم عليهم المذكورين في قوله تعالى: ﴿**الله نُورُ السَّموات والأَرْض مَثَلُ نُورِهِ كمشكاةٍ فيها مِصْباحٌ المصباحُ**﴾ إلى قوله: ﴿**لِيَجزيهُمُ الله أَحْسَنَ ما عَمِلُوا ويَزِيدَهُم مِنْ فضلِه والله يرزُقُ مَنْ يشاءُ بغيرِ حِسَابٍ**﴾. [النور: ٣٥ - ٣٨]. فتضمنت الآياتُ أوصاف الفِرق الثلاثة: المُنعم عليهم وهم أهل النور، والضالين وهم أصحاب السَّراب، والمغضوب عليهم وهم أهل الظلمات المتراكمة، والله أعلم.

فالمثل الأول من المثلين لأصحاب العمل الباطل الذي لا ينفع، والمثل الثاني لأصحاب العلم الذي لا ينفع والاعتقادات الباطلة، وكلاهما مضاد للهدى ودين الحق. ولهذا مَثل حال الفريق الثاني في تلاطم أمواج الشكوك والشُّبهات والعلوم الفاسدة في قلوبهم بتلاطم أمواج البحر فيه، وأنها أمواج متراكمة من فوقها سحاب

مظلم، وهكذا أمواج الشكوك والشبه في قلوبهم المظلمة التي قد تراكمت عليها سُحُب الغي والهوى والباطل، فليتدبر اللبيب أحوال الفريقين، وليطابق بينهما وبين المثلين، يعرف عظمة القرآن وجلالته، وأنه تنزيل من حكيم حميد.

وأخبر سبحانه أن الموجب لذلك أنه لم يجعل لهم نورًا، بل تركهم على الظلمة التي خُلقوا فيها فلم يخرجهم منها إلى النور؛ فإنه سبحانه وليُّ الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور.

وفي المسند من حديث عبدالله بن عمر أن النبي، ﷺ، قال: «**إن الله خَلَقَ خلقَهُ في ظلمة، وألقى عليهم من نوره، فمنْ أصابه من ذلك النور اهتدى، ومن أخطأه ضلَّ**». فلذلك أقول: جفَّ القلم على علم الله.

فالله سبحانه خلق الخلق في ظلمة، فمن أراد هدايته جعل له نورًا وجوديًا يحيى به قلبه وروحه كما يحيى بَدنَه بالروح التي ينفُخها فيه، فهما حياتان: حياة البدن بالروح، وحياة الروح والقلب بالنور، ولهذا سمى سبحانه الوحي روحًا لتوقف الحياة الحقيقية عليه.

كما قال تعالى: ﴿**يُنَزِّلُ الملائكةَ بالرُّوحِ مِنْ أمرِهِ على مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ**﴾. [النحل: ٢]. وقال تعالى: ﴿**يلقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ على مَنْ يَشاءُ مِنْ عبادِهِ**﴾ [غافر: ١٥]. وقال تعالى: ﴿**وكذلكَ أوحَينَا إليكَ رُوحًا من أَمْرِنا ما كُنْتَ تدرِي ما الكِتَابُ ولا الإيمانُ ولكِنْ جَعَلناهُ نُورًا نَهْدِي به مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبادِنَا**﴾. [الشورى: ٥٢].

فجعل وحيه رُوحًا ونورًا، فمن لم يحيه بهذا الروح فهو ميت، ومن لم يجعل له نورًا منه فهو في الظلمات ما لَهُ من نور.

[1]**الأمر** الثامن أنه غير ممتنع أن ترد الروح إلى المصلوب والغريق والمحرق ونحن لا نشعر بها؛ لأن ذلك الرد نوع آخر غير المعهود. فهذا المغمي عليه، والمسكوت، والمبهوت أحياء، وأرواحهم معهم ولا نشعر بحياتهم. ومن تفرقت أجزاؤه لا يمتنع على من هو على كل شيء قدير أن يجعل للروح اتصالاً بتلك الأجزاء على تباعد ما بينها وقربه، ويكون في تلك الأجزاء شعور بنوع من الألم واللذة.

---

(١) ٨٨ الروح.

وإذا كان الله سبحانه وتعالى قد جعل في الجمادات شعورًا وإدراكًا تسبح ربها به، وتسقط الحجارة من خشيته، وتسجد له الجبال والشجر، وتسبحه الحصى والمياه والنبات قال تعالى: **﴿وإنْ مِنْ شيْءٍ إلاَّ يُسبِّحُ بحمدِهِ ولكنْ لا تَفْقَهُونَ تَسبيحَهُمْ﴾**. [الإسراء: ٤٤]. ولو كان التسبيح هو مجرد دلالتها على صانعها لم يقل **﴿ولكن لا تَفقهون تسبيحهم﴾**؛ فإن كل عاقل يفقه دلالتها على صانعها. وقال تعالى: **﴿إنَّا سخَّرنا الجبالَ مَعَهُ يُسبِّحنَ بالعَشيّ والإشْراق﴾**. [ص: ١٨]. والدلالة على الصانع لا تختص بهذين الوقتين، وكذلك قوله تعالى: **﴿ياجبالُ أوِّبي معه﴾** والدلالة لا تختص معيته وحده. وكذب على الله من قال: التأويب رجع الصدى؛ فإن هذا يكون لكل صوت. وقال تعالى: **﴿ألم تَرَ أنَّ الله يسجُدُ له مَن في السمواتِ ومَن في الأرض والشمسُ والقمرُ والنجومُ وَالجْبالُ والشَّجَرُ والدوابُ وكثير من الناس﴾**. والدلالة على الصانع لا تختص بكثير من الناس. وقد قال تعالى: **﴿ألم ترَ أنَّ الله يُسَبِّحُ له مَنْ في السَّموات والأَرْض والطيرُ صافَّاتٍ كُلٌّ قدْ عَلِمَ صلاتَهُ وتَسبيحَهُ﴾**. [النور: ٤١]. فهذه صلاة وتسبيح حقيقة يعلمها الله وإن جحدها الجاهلون المكذبون.

وقد أخبر تعالى عن الحجارة أن بعضها يزول عن مكانه ويسقط من خشيته، وقد أخبر عن الأرض والسماء أنهما يأذنان له وقولهما ذلك أي يستمعان كلامه، وأنه خاطبهما فسمعا خطابه وأحسنا جوابه فقال لهما: **﴿ائتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرهًا قالَتَا أَتَيْنَا طَائعِينَ﴾**. [فصلت: ١١].

وقد كان الصحابة يسمعون تسبيح الطعام وهو يؤكل، وسمعوا حنين الجذع اليابس في المسجد، فإذا كانت هذه الأجسام فيها الإحساس والشعور، فالأجسام التي كانت فيها الروح والحياة أولى بذلك. وقد أشهد الله سبحانه عباده في هذه الدار إعادة حياة كاملة إلى بدن قد فارقته الروح، فتكلم ومشى، وأكل وشرب، وتزوج وولد له كالذين **﴿خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وهُم أُلُوفٌ حَذَر الموتِ فقالَ لهم الله مُوتُوا ثُمَّ أحياهُمْ﴾**. [البقرة: ٢٤٣]. **﴿أو كالذي مَرَّ على قَرْيَةٍ وهِيَ خاويةٌ على عُرُوشِها قال أنّى يُحيي هذه الله بَعْدَ موتِها فأَمَاتَهُ الله مائةَ عام ثُمَّ بعثَهُ قال كَمْ لَبِثْتَ قال لَبِثْتُ يومًا أَوْ بَعْضَ يوم﴾**. [البقرة: ٢٥٩]. وكقتيل بني إسرائيل، أو كالذين قالوا لموسى: **﴿لن نُؤمِنَ لكَ حتَّى نَرَى الله جَهْرَةً﴾**. [البقرة: ٥٥]. فأماتهم الله ثم

بعثهم من بعد موتهم، وكأصحاب الكهف، وكقصة إبراهيم في الطيور الأربعة، فإذا أعاد الحياة التامة إلى هذه الأجساد بعدما بردت بالموت فكيف يمتنع على قدرته الباهرة أن يعيد إليها بعد موتها حياة ما غير مستقرة يقضي بها أمره فيها، ويستنطقها بها، ويعذبها أو ينعمها بأعمالها؟ وهل إنكار ذلك إلا مجرد تكذيب وعناد وجحود وبالله التوفيق.

(1)**وقال** تعالى: **﴿والله خَلَقَ كُلَّ دابة من ماءٍ فمنهم من يَمشي على بطنِه ومنهم من يمشي على رجلين ومِنْهم من يَمشي على أَرْبَع يخلُقُ الله مايَشَاءُ إنَّ الله على كل شيءٍ قدير﴾** [النور: ٤٥].

فتأمل كيف نبه سبحانه باختلاف الحيوانات في المشيء مع اشتراكها في المادة على الاختلاف فيما وراء ذلك من أعضائها وأشكالها وقواها وأفعالها وأغذيتها ومساكنها، فنبه على الاشتراك والاختلاف، فيشير إلى يسير منه، فالطير كلها تشترك في الريش والجناح وتتفاوت فيما وراء ذلك أعظم تفاوت.

واشتراك ذوات الحوافر في الحافر كالفرس والحمار والبغل وتفاوتها في ماوراء ذلك.

واشتراك ذوات الأظلاف في الظلف وتفاوتها في غير ذلك.

واشتراك ذوات القرون فيها وتفاوتها في الخلق والمنافع والأشكال.

واشتراك حيوانات الماء في كونها سابحة تأوي فيها وتتكون فيها، وتفاوتها أعظم تفاوت عجز البشر إلى الآن عن حصره.

واشتراك الوحوش في البعد عن الناس والتفاوت عنهم وعن مساكنهم، وتفاوتها في صفاتها وأشكالها وطبائعها وأفعالها أعظم تفاوت يعجز البشر عن حصره.

واشتراك الماشي منها على بطنه في ذلك وتفاوت نوعه.

واشتراك الماشي على رجلين في ذلك وتفاوت نوعه أعظم تفاوت. وكل من هذه الأنواع له علم وإدراك وتحيل على جلب مصالحه ودفع مضاره يعجز كثير منها نوع الإنسان.

فمن أعظم الحكم الدلالة الظاهرة على معرفة الخالق الواحد المستولي بقوته وقدرته وحكمته على ذلك كله بحيث جاءت كلها مطيعة منقادة منساقة إلى ما

---

(١) ٢٣١ شفاء.

خلقها له على وفق مشيئته وحكمته. وذلك أدل شيء على قوته القاهرة وحكمته البالغة وعلمه الشامل. . .

(١)**والتحقق** بـ ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾ علمًا ومعرفة، وعملاً وحالاً: يتضمن الشفاء من مرض فساد القلب والقصد؛ فإن فساد القصد يتعلق بالغايات والوسائل. فمن طلب غاية منقطعة مضمحلة فانية، وتوسل إليها بأنواع الوسائل الموصلة إليها كان كلا نوعي قصده فاسدًا. وهذا شأن كل من كان غاية مطلوبه غير الله وعبوديته: من المشركين، ومتبعي الشهوات، الذين لا غاية لهم وراءها، وأصحاب الرياسات المتبعين لإقامة رياستهم بأي طريق كان من حق أو باطل. فإذا جاء الحق معارضًا في طريق رياستهم طحنوه وداسوه بأرجلهم. فإن عجزوا عن ذلك دفعوه دفع الصائل. فإن عجزوا عن ذلك حبسوه في الطريق، وحادوا عنه إلى طريق أخرى. وهم مستعدون لدفعه بحسب الإمكان. فإذا لم يجدوا منه بدًّا أعطوه السكة والخطبة(٢) وعزلوه عن التصرف والحكم والتنفيذ، وإن جاء الحق ناصرًا لهم وكان لهم صالوا به وجالوا، وأتوا إليه مذعنين، لا لأنه حق، بل لموافقته غرضهم وأهواءهم، وانتصارهم به، ﴿وإذا دُعوا إلى الله ورسوله ليحكُمَ بينهُم إذا فريقٌ منهم معرضون. وإنْ يَكُنْ لهمُ الحقُّ يأتُوا إليه مُذْعنينَ. أفي قُلوبهم مَرَضٌ أمْ ارتَابوا أمْ يخافُونَ أَنْ يَحِيفَ الله عليهم ورسولُهُ بلْ أُولئكَ هُمُ الظَّالمون﴾ [النور: ٤٨-٥٠].

والمقصود: أن قصد هؤلاء فاسد في غاياتهم ووسائلهم. وهؤلاء إذا بطلت الغايات التي طلبوها، واضمحلت وفنيت، حصلوا على أعظم الخسران والحسرات. وهم أعظم الناس ندامة وتحسرًا، إذا حقَّ الحق وبطل الباطل، وتقطعت بهم أسباب الوصل التي كانت بينهم، وتيقنوا انقطاعهم عن ركب الفلاح والسعادة. وهذا يظهر كثيرًا في الدنيا. ويظهر أقوى من ذلك عند الرحيل منها والقدوم على الله. ويشتد ظهوره وتحققه في البرزخ. وينكشف كل الانكشاف يوم اللقاء، إذا حقت الحقائق، وفاز المحقون وخسر المبطلون، وعلموا أنهم كانوا

---

(١) ٥٢ مدارج جـ١.

(٢) السكة: المراد منها الاسم والشعار يضرب على النقود، ويقصد بذلك ما كان عليه الخلفاء في وقته، إذ لم يكن لهم من الخلافة إلا الصور. أما الحكم النافذ في الأمور فلغيرهم.

كاذبين، وكانوا مخدوعين مغرورين، فيا له هناك من علم لا ينفع عالمه، ويقين لا ينجي مستيقنه. . . [١].

[٢]**قال تعالى: ﴿قُلْ أَطيعوا الله وأَطِيعُوا الرسولَ﴾ إلى قوله - ﴿البلاغُ المبين﴾ .** [النور: ٥٤]. فأخبر سبحانه أن الهداية في طاعة الرسول لا في غيرها، فإنه معلق بالشرط فينتفي بانتفائه، وليس هذا من باب دلالة المفهوم كما يغلط فيه كثير من الناس، ويظن أنه محتاج في تقريره الدلالة منه لا تقرير كون المفهوم حجة، بل هذا من الأحكام التي ترتبت على شروط وعلقت فلا وجود لها بدون شروطها، إذ ما علق على الشرط فهو عدم عند عدمه، وإلا لم يكن شرطًا له.

إذا ثبت هذا فالآية نص على انتفاء الهداية عند عدم طاعته.

وفي إعادة الفعل في قوله تعالى: **﴿قُل أطيعوا الله وأطيعُوا الرَّسول﴾**. دون الاكتفاء بالفعل الأول سر لطيف وفائدة جليلة سنذكرها عن قريب إن شاء الله تعالى.

وقوله: ﴿فإنْ تولّوا فإنَّما عليهِ ما حُمِّل﴾. [النور: ٥٤]. الفعل للمخاطبين، وأصله فإن تتولوا، فحذفت إحدى التائين تخفيفًا. والمعنى أنه قد حمل أداء الرسالة وتبليغها، وحملتم طاعته والانقياد له والتسليم، كما ذكره البخاري في صحيحه عن الزهري قال: «من الله البيان، وعلى الرسول البلاغ، وعلينا التسليم» فإن تركتم أنتم ما حملتوه من الإيمان والطاعة فعليكم لا عليه، فإنه لم يحمل إيمانكم وإنما حمل تبليغكم، وإنما حمل أداء الرسالة إليكم **﴿وإن تُطيعُوه تَهْتَدُوا ومَا عَلى الرَّسولِ إلاَّ البَلاغ المُبين﴾**. [النور: ٥٤]. ليس عليه هداهم وتوفيقهم.

[٣]**قال تعالى: ﴿ومَا على الرَّسولِ إلاَّ البلاغُ المُبين﴾**. وهذا يتضمن بلاغ المعنى، وأنه في أعلى درجات البيان، فمن قال إنه لم يبلغ الأمة معاني كلامه وكلام ربه بلاغًا مبينًا بل بلغهم ألفاظه وأحالهم في فهم معانيه على ما يذكره هؤلاء لم يكن قد شهد له بالبلاغ.

وهذا هو حقيقة قولهم، حتى إن منهم من يصرح به ويقول: إن المصلحة كانت: في كتمان معاني هذه الألفاظ وعدم تبليغها للأمة.

---

(١) تقدم كامل البحث في تفسير سورة الفاتحة.

(٢) ٢٨ الرسالة التبوكية.	(٣) ٣٣٨ مختصر الصواعق جـ٢.

إما لمصلحة الجمهور لكونهم لا يفهمون المعاني إلا في قوالب الحسيات وضرب الأمثال. **وإما** لينال الكادحون ثواب كدحهم في استنباط معانيها واستخراج تأويلاتها من وحشي اللغات وغرائب الأشعار، ويغوصون بأفكارهم الدقيقة على صرفها عن حقائقها ما أمكنهم.

وأما أهل العلم والإيمان فيشهدون له بما شهد الله به، وشهدت به ملائكته، وخيار القرون، أنه بلغ البلاغ المبين، القاطع للعذر، المقيم للحجة، الموجب للعلم واليقين لفظًا ومعنى.

والجزم بتبليغه معاني القرآن والسنة كالجزم بتبليغه الألفاظ بل أعظم من ذلك؛ لأن ألفاظ القرآن والسنة إنما يحفظها خواص أمته، وأما المعاني التي بلغها فإنه يشترك في العلم بها العامة والخاصة.

ولما كان بالمجمع الأعظم الذي لم يجمع لأحد مثله قبله ولا بعده في اليوم الأعظم في المكان الأعظم قال لهم: «**أنتم مسئولون عني فما أنتم قائلون**» قالوا: نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت، ورفع أصبعه الكريمة إلى السماء رافعًا لها إلى من هو فوقها وفوق كل شيء قائلاً: «**اللهم اشهد**» فكأنا شهدنا تلك الأصبع الكريمة وهي مرفوعة إلى الله وذلك اللسان الكريم وهو يقول: «**اللهم اشهد**» ونشهد أنه بلغ البلاغ المبين وأدى رسالة ربه كما أمر، ونصح أمته غاية النصيحة، وكشف لهم طرائق الهدى، وأوضح لهم معالم الدين، وتركهم على المحجة البيضاء ليلها كنهارها، فلا يحتاج مع كشفه وبيانه إلى تنطع المتنطعين. فالحمد لله الذي أغنانا بوحيه ورسوله عن تكلفات المتكلفين.

(1)**قوله** تعالى: ﴿**يا أيُّها الذين آمَنُوا ليسْتأذِنْكُمُ الذينَ مَلَكَتْ أيمانُكُمْ والذينَ لم يَبْلُغُوا الحلمَ مِنكُمْ ثلاث مرات**﴾. [النور: ٥٨]. الآية أمر تعالى مماليك المؤمنين ومَنْ لم يبلغ منهم الحلم أن يستأذنوا عليهم في هذه الأوقات الثلاثة لئلا يكون دخولهم هجمًا بغير استئذان فيها ذريعة إلى اطلاعهم على عوراتهم وقت إلقاء ثيابهم عند القائلة والنوم واليقظة، ولم يأمرهم بالاستئذان في غيرها وإن أمكن في تركه هذه المفسدة لندورها وقلة الإفضاء إليها فجعلت كالمقدمة.

---

(١) ١٤٩ أعلام جـ٣.

فصل[1]

ثم بعد العشر إلى سن البلوغ يسمى مراهقًا ومناهزًا للاحتلام.

فإذا بلغ خمس عشرة سنة عرض له حال آخر، يحصل معها الاحتلام ونبات الشعر الخشن حول القبل، وغلظ الصوت، وانفراق أرنبة الأنف.

والذي اعتبره الشارع من ذلك أمران: الاحتلام والإنبات.

أما الاحتلام فقال: ﴿**يا أيُّها الذينَ آمَنُوا ليستأذنكم الذينَ ملكَت أيمانكم والذينَ لم يبلغوا الحلمَ منكم ثلاث مرات**﴾. ثم قال: ﴿**وإذا بلغ الأطفالُ منكُمُ الحلمَ فليستأذِنُوا كما استأذَنَ الذينَ مِنْ قبلِهِمْ**﴾. [النور: ٥٩].

وقال النبي، ﷺ: «**رفع القلم عن ثلاثة: عن الصبي حتى يحتلم، وعن المجنون حتى يفيق، وعن النائم حتى يستيقظ**». وقال لمعاذ: «**خذ من كل حالم دينارًا**»، رواهما أحمد وأبو داود، وليس لوقت الاحتلام سن معتاد، بل من الصبيان من يحتلم لاثنتي عشرة، ومنهم من يأتي عليه خمس عشرة وست عشرة، وأكثر من ذلك - ولا يحتلم.

واختلف الفقهاء في السن الذي يبلغ به مثل هذا.

فقال الأوزاعي وأحمد والشافعي وأبو يوسف ومحمد: متى كمل خمس عشرة سنة حكم ببلوغه.

ولأصحاب مالك ثلاثة أقوال - أحدها: سبع عشرة، والثاني: ثماني عشرة، والثالث: خمس عشرة، وهو المحكي عن مالك.

وعن أبي حنيفة روايتان: إحداهما: سبع عشرة والثانية: ثماني عشرة، والجارية عنده سبع عشرة.

[2] **ومن** الأدب معه[3]: أن لا يجعل دعاؤه كدعاء غيره. قال تعالى: ﴿**لا تَجْعَلُوا دُعاءَ الرَّسولِ بينكم كدُعاءِ بعضِكُم بعضًا**﴾ [النور: ٦٣]. وفيه قولان للمفسرين:

أحدهما: أنكم لا تدعونه باسمه، كما يدعو بعضكم بعضًا، بل قولوا: يا رسول الله يانبي الله. فعلى هذا: المصدر مضاف إلى المفعول، أي دعاءكم الرسول.

---

(١) ١٨٠ تحفة المودود.　(٢) ٢٨٩ مدارج جـ٢.　(٣) أي الرسول، ﷺ.

الثاني: أن المعنى لا تجعلوا دعاءه لكم بمنزلة دعاء بعضكم بعضًا، إن شاء أجاب، وإن شاء ترك، بل إذا دعاكم لم يكن لكم بدٌّ من إجابته، ولم يسعكم التخلف عنها البتة. فعلى هذا: المصدر مضاف إلى الفاعل، أي دعاؤه إياكم.

ومن الأدب معه: أنهم إذا كانوا معه على أمر جامع - من خطبة، أو جهاد، أو رباط - لم يذهب أحد منهم مذهبًا في حاجته حتى يستأذنه. كما قال تعالى: ﴿**إنّما المؤمنونَ الذينَ آمَنُوا بالله ورَسولِه وإذَا كانُوا معهُ على أمْرٍ جَامعٍ لم يذهَبُوا حتَّى يستَأْذِنُوه**﴾. [النور: ٦٢]. فإذا كان هذا مذهبًا مقيدًا بحاجة عارضة، لم يوسع لهم فيه إلا بإذنه، فكيف بمذهب مطلق في تفاصيل الدين: أصوله، وفروعه، دقيقه، وجليله؟ هل يشرع الذهاب إليه بدون استئذانه؟ ﴿**فاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إنْ كُنتُم لا تَعْلَمُونَ**﴾. [النحل: ٤٣].

ومن الأدب معه: أن لا يستشكل قوله، بل تستشكل الآراء لقوله، ولا يعارض نصُّه بقياس، بل تهدر الأقيسة وتلقى لنصوصه، ولا يحرف كلامه عن حقيقته لخيال يسميه أصحابه معقولاً، نعم هو مجهول، وعن الصواب معزول. ولا يوقف قبول ما جاء به، ﷺ، على موافقة أحد. فكل هذا من قلة الأدب معه، ﷺ، وهو عين الجرأة.

فصل

وأما الأدب مع الخلق: فهو معاملتهم - على اختلاف مراتبهم - بما يليق بهم؛ فلكل مرتبة أدب. والمراتب فيها أدب خاص. فمع الوالدين: أدب خاص وللأب منهما: أدب هو أخص به، ومع العالم: أدب آخر، ومع السلطان: أدب يليق به. وله مع الأقران أدب يليق بهم. ومع الأجانب: أدب غير أدبه مع أصحابه وذوي أُنسه. ومع الضيف: أدب غير أدبه مع أهل بيته.

ولكل حال أدب: فللأكل آداب. وللشرب آداب. وللركوب والدخول والخروج والسفر والإقامة والنوم آداب. وللبول آداب. وللكلام آداب. وللسكوت والاستماع آداب.

(1)**قوله** تعالى: ﴿**فليحذر الذينَ يخالِفُونَ عن أمره أنْ تُصيبهم فِتنَةٌ أَوْ يُصيبَهُمْ**

---

(١) ٣٩٩ مختصر الصواعب جـ٢.

عذابٌ أليمٌ﴾. [النور: ٦٣]. وهذا يعم كل مخالف بلغه أمره، ﷺ، إلى يوم القيامة ولو كان ما بلغه لم يفده علمًا لما كان متعرضًا بمخالفة ما لا يفيد علمًا للفتنة والعذاب الأليم، فإن هذا إنما يكون بعد قيام الحجة القاطعة التي لا يبقى معها لمخالف أمره عذر.

(١)**وقال** أبو العالية في قوله عز وجل: **﴿إنَّ الذين قالُوا ربُّنَا الله ثمَّ استَقَامُوا﴾**. [فصلت: ٣٠]. قال: أخلصوا لله الدين والعمل والدعوة أن جردوا الدعوة إليه وإلى كتابه وسنة رسوله، ﷺ، فقط لا إلى رأي فلان وقول فلان. وقال سفيان في قوله تعالى: **﴿فليَحْذَرِ الذينَ يُخَالِفُونَ عن أَمْرِهِ أَنْ تُصيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾**. قال يطبع على قلوبهم. وقال الإمام أحمد إنما هي الكفر.

ولقي عبدالله بن عمر جابر بن زيد في الطواف فقال له: يا أبا الشعثاء إنك من فقهاء البصرة فلا تفت إلا بقرآن ناطق أو سنة ماضية، فإنك إن فعلت غير ذلك هلكت وأهلكت.

وقال ابن خزيمة قلت لأحمد بن نصر وحدث بخبر عن رسول الله، ﷺ، أما تأخذ به؟ فقال: أترى على وسطي زنارًا؟! لا تقل لخبر النبي، ﷺ، أتأخذ به وقل أصحيح هو ذا؟ فإذا صح الخبر عن رسول الله، ﷺ، قلت به شئت أم أبيت.
وقال: أفلح مولى أم سلمة أنها كانت تحدث أنها سمعت رسول الله، ﷺ، يقول على المنبر وهي تمتشط «**أيها الناس**» فقالت لماشطتها: كفى رأسي قالت: فديتك، إنما يقول أيها الناس قالت: ويحك أولسنا من الناس. فكفت رأسها وقامت في حجرتها فسمعته يقول: «**يا أيها الناس بينا أنا على حوضي إذ مُر بكم زمرًا فتفرقت بكم الطرق فناديتكم ألا هلم إلى الطريق فينادي مناد إنهم قد بدلوا بعدك فأقول ألا سحقًا سحقًا**». وهذه الطرق التي تفرقت بهم هي الطرق والمذاهب التي ذهبوا إليها وأعرضوا عن طريقه ومذهبه، ﷺ، فلا يجوزون على الطريق التي هو عليها يوم القيامة كما لم يسلكوا الطريق التي كان عليها هو وأصحابه.

وقال عكرمة عن ابن عباس: إياكم والرأي فإن الله رد على الملائكة الرأي وقال: **﴿إنّي أعلَمُ ما لا تَعْلَمُونَ﴾**. [البقرة: ٣٠]. وقال لنبيه، ﷺ: **﴿إنَّا أنزلنا إليكَ**

---

(١) ٣٥٤ مختصر الصواعق جـ٢.

الكِتابَ بالحقّ لتحكم بينَ النَّاس بما أَرَاكَ الله﴾. [النساء: ١٠٥]. ولم يقل بما رأيت.

وقال بعض العلماء: ما أُخرج آدم من الجنة إلا بتقديم الرأي على النص، وما لُعن إبليس وغُضب عليه إلا بتقديم الرأي على النص. ولا هلكت أمة من الأمم إلا بتقديم آرائها على الوحي. ولا تفرقت الأمة فرقًا وكانوا شيعًا إلا بتقديم آرائهم على النصوص.

وقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: يا أيها الناس اتهموا الرأي على الدين فلقد رأيتني أرد أمر رسول الله، ﷺ، برأي اجتهادًا، والله ما آلو عن الحق وذلك يوم أبي جندل والكتاب بين يدي رسول الله، ﷺ، وبين أهل مكة فقال رسول الله، ﷺ: اكتب بسم الرحمن الرحيم، فقال بل تكتب كما نكتب باسمك اللهم فرضي رسول الله، ﷺ، وأبيت عليه حتى قال رسول الله، ﷺ: «**تراني أرضى وتأبى**». وقال ابن عباس في قوله تعالى: **﴿يا أَيُّهَا الذينَ آمَنُوا لا تُقَدِّموا بَيْنَ يَدَي الله ورسُولِهِ﴾**. [الحجرات: ١]. قال: لا تقولوا خلاف الكتاب والسنة.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة النــور
والحمد لله رب العالميـن



بسم الله الرحمن الرحيم

فصل(١)

وأما البركة فكذلك نوعان أيضًا. أحدهما: بركة هي فعله تبارك وتعالى، والفعل منها بارك، ويتعدى بنفسه تارة، وبأداة على، تارة وبأداة في تارة. والمفعول منها مبارك، وهو ما جعل كذلك، فكان مباركًا بجعله تعالى.

والنوع الثاني بركة تضاف إليه إضافة الرحمة والعزة. والفعل منها تبارك؛ ولهذا لا يقال لغيره ذلك، ولا يصلح إلا له عز وجل، فهو سبحانه المبارك، وعبده ورسوله المبارك كما قال المسيح ﴿وجَعَلَني مُباركًا أيْنَما كُنْتُ﴾. [مريم: ٣١]. فمن بارك الله فيه وعليه فهو المبارك. وأما صفته تبارك فمختصة به تعالى كما أطلقها على نفسه بقوله: ﴿تبارك الله ربّ العالمين﴾ [الأعراف: ٥٤]. ﴿تبارَكَ الذي بيدِهِ المُلك﴾ [الملك: ١]. ﴿فتَبارَكَ الله أحسنُ الخَالقين﴾ [المؤمنون: ١٤]. ﴿وتبارَكَ الذي لهُ مُلكُ السمواتِ والأَرْضِ وما بينهما وعندهُ عِلمُ السَّاعة وإليه تُرجَعون﴾[الزخرف: ٨٥]. ﴿تبارَكَ الذي نَزَّلَ الفُرقانَ على عبده﴾. [الفرقان: ١]. ﴿تبارك الذي إنْ شاءَ جعلَ لك خيراً مِنْ ذلك﴾ [الفرقان: ١٠]. ﴿تبارَكَ الذي جَعَلَ في السماءِ بُروجًا﴾. [الفرقان: ٦١]. أفلا تراها كيف اطردت في القرآن جارية عليه مختصة به لا تطلق على غيره، وجاءت على بناء السعة والمبالغة كتعالى وتعاظم ونحوهما، فجاء بناء تبارك على بناء تعالى الذي هو دال على كمال العلو ونهايته، فكذلك تبارك دال على كمال بركته وعظمها وسعتها.

وهذا معنى قول من قال من السلف تبارك تعاظم.

وقال آخر معناه أن تجيء البركات من قبله فالبركة كلها منه.

وقال غيره كثر خيره وإحسانه إلى خلقه.

وقيل: اتسعت رأفته ورحمته بهم.

---

(١) ١٨٥ بدائع جـ٢.

وقيل: تزايد عن كل شيء وتعالى عنه في صفاته وأفعاله.

ومن هنا قيل معناه تعالى وتعاظم.

وقيل: تبارك وتقدس والقدس الطهارة.

وقيل: تبارك أي باسمه يبارك في كل شيء.

وقيل: تبارك ارتفع والمبارك المرتفع. ذكره البغوي.

وقيل: تبارك أي البركة تكتسب وتنال بذكره.

وقال ابن عباس جاء[1] بكل بركة.

وقيل: معناه ثبت ودام بما لم يزل ولا يزال. ذكره البغوي أيضًا.

وحقيقة اللفظة أن البركة كثرة الخير ودوامه، ولا أحد أحق بذلك وصفًا
مواضع من كتابه أو خمسة.

وتفسير السلف يدور على هذين المعنيين، وهما متلازمان، لكن الأليق باللفظة معنى الوصف لا الفعل؛ فإنه فعل لازم مثل تعالى وتقدس وتعاظم. ومثل هذه الألفاظ ليس معناها أنه جعل غيره عاليًا ولا قدوسًا ولا عظيمًا، هذا مما لا يحتمله اللفظ بوجه، وإنما معناها في نفس من نسبت إليه فهو المتعالي المتقدس. فكذلك تبارك لا يصح أن يكون معناها بارك في غيره، وأين أحدهما من الآخر لفظًا ومعنى، هذا لازم وهذا متعد، فعلمت أن من فسر تبارك بمعنى ألقى البركة وبارك في غيره لم يصب معناها، وإن كان هذا من لوازم كونه متباركًا. فتبارك من باب مجد، والمجد كثرة صفات الجلال والسعة والفضل، وبارك من باب أعطى وأنعم.

ولما كان المتعدي في ذلك يستلزم اللازم من غير عكس فسر من فسر من السلف اللفظة بالمتعدى لينتظم المعنيين فقال: مجيء البركة كلها من عنده، أو البركة كلها من قبله. وهذا فرع على تبارك في نفسه. وقد أشبعنا القول في هذا في كتاب الفتح المكي، وبينا هناك أن البركة كلها له تعالى ومنه، فهو المبارك، ومن ألقى عليه بركته فهو المبارك. ولهذا كان كتابه مباركًا، ورسوله مباركًا، وبيته مباركًا، والأزمنة والأمكنة التي شرفها واختصها عن غيرها مباركة. فليلة القدر مباركة، وما حول المسجد الأقصى مبارك، وأرض الشام وصفها بالبركة في أربعة
وفعلاً منه تبارك وتعالى.

---

(١) في نسخة حاز كل بركة.

وتدبر قول النبي، ﷺ، في حديث ثوبان الذي رواه مسلم في صحيحه عند انصرافه من الصلاة «**اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت يا ذا الجلال والإكرام**».

فتأمل هذه الألفاظ الكريمة كيف جمعت نوعي الثناء ـ أعني ثناء التنزيه والتسبيح، وثناء الحمد والتمجيد ـ بأبلغ لفظ وأوجزه وأتمه معنى، فأخبر أنه السلام، ومنه السلام. فالسلام له وصفًا وملكًا.

وقد تقدم بيان هذا في وصفه تعالى بالسلام، وأن صفات كماله ونعوت جلاله وأفعاله وأسماءه كلها سلام. وكذا الحمد كله له وصفًا وملكًا فهو المحمود في ذاته، وهو الذي يجعل من يشاء من عباده محمودًا فيهبه حمدًا من عنده. وكذلك العزة كلها له وصفًا وملكًا، وهو العزيز الذي لا شيء أعز منه، ومن عز من عباده فبإعزازه له. وكذلك الرحمة كلها له وصفًا وملكًا. وكذلك البركة فهو المتبارك في ذاته الذي يبارك فيمن شاء من خلقه وعليه فيصير بذلك مباركًا ﴿**فَتَبَارَكَ الله ربُّ العالمين**﴾. [غافر: ٦٤]. ﴿**وتَبَارَكَ الذي لهُ مُلكُ السمواتِ والأرضِ وما بَينَهُما وعِندَهُ عِلْمُ السَّاعةِ وإليْهِ تُرْجَعُونَ**﴾. [الزخرف: ٨٥]. وهذا بساط وإنما غاية معارف العلماء الدنو من أول حواشيه وأطرافه. وأما ما وراء ذلك فكما قال أعلم الخلق بالله وأقربهم إلى الله وأعظمهم عنده جاهًا «**لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك**» وقال في حديث الشفاعة الطويل: «**فأخرّ ساجدًا لربي فيفتح عليّ من محامده بما لا أحسنه الآن**». وفي دعاء الهم والغم: «**أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلته في كتابك أو علمته أحدًا من خلقك أو استأثرت به في علم الغيب عندك**». فدل على أن الله سبحانه وتعالى أسماءًاوصفاتٍ استأثر بها في علم الغيب عنده دون خلقه لا يعلمها ملك مقرّب ولا نبي مرسل. وحسبنا الإقرار بالعجز والوقوف عند ما أذن لنا فيه من ذلك، فلا نغلوا فيه، ولا نجفوا عنه وبالله التوفيق.

[1]. . . **الصواب** هو الجواب الثالث وهو جواب صاحب الكشاف وغيره أن المسحور على بابه وهو من سحر حتى جن فقالوا: مسحور مثل مجنون زائل العقل

(١) ٢٢٦ بدائع جـ٤

لايعقل مايقول. فإن المسحور الذي لايتبع هو الذي فسد عقله بحيث لا يدري مايقول فهو كالمجنون، ولهذا قالوا فيه: ﴿مُعَلَّمٌ مَجنونٌ﴾ [الدخان: ١٤].

فأما من أصيب في بدنه بمرض من الأمراض يصاب به الناس فإنه لا يمنع ذلك من اتباعه، وأعداء الرسل لم يقذفوهم بأمراض الأبدان وإنما قذفوهم بما يحذرون به سفهاءهم من اتباعهم، وهو أنهم قد سحروا حتى صاروا لا يعلمون ما يقولون بمنزلة المجانين.

ولهذا قال تعالى: ﴿**انْظُر كيفَ ضَرَبُوا لكَ الأَمْثَالَ فضَلُّوا فلاَ يَسْتَطِيعُونَ سَبيلاً**﴾. [الفرقان: ٩]. مثلوك بالشاعر مرة، والساحر أخرى، والمجنون مرة، والمسحور أخرى، فضلوا في جميع ذلك ضلال من يطلب في تيهه وتحيره طريقًا يسلكه فلا يقدر عليه فإنه أي طريق أخذها فهي طريق ضلال وحيرة، فهو متحير في أمره لا يهتدي سبيلاً ولا يقدر على سلوكها.

فهكذا حال أعداء رسول الله، ﷺ، معه حتى ضربوا له أمثالاً برأه الله منها، وهو أبعد خلق الله منها، وقد علم كل عاقل أنها كذب وافتراء وبهتان.

وأما قولكم أن سحر الأنبياء ينافي حماية الله لهم، فإنه سبحانه كما يحميهم ويصونهم ويحفظهم ويتولاهم يبتليهم بما شاء من أذى الكفار لهم ليستوجبوا كمال كرامته، وليتسلى بهم من بعدهم من أممهم وخلفائهم إذا أوذوا من الناس فرأوا ما جرى على الرسل والأنبياء صبروا ورضوا وتأسوا بهم، ولتمتلىء صاع الكفار فيستوجبون ما أعد لهم من النكال العاجل والعقوبة الآجلة فيمحقهم بسبب بغيهم وعداوتهم فيعجل تطهير الأرض منهم.

فهذا من بعض حكمته تعالى في ابتلاء أنبيائه ورسله بإيذاء قومهم، وله الحكمة البالغة والنعمة السابغة لا إلـه غيره ولا رب سواه.

(١)**قوله** تعالى: ﴿**قُلْ أَذلِكَ خيرٌ أَمْ جنَّة الخُلْدِ التي وُعِدَ المُتَّقُونَ كانت لهُمْ جزاءً ومصيراً. لهُم فيهَا مايَشاءونَ خالدِينَ كانَ على ربِّكَ وعْدًا مسئولاً**﴾.

[الفرقان: ١٥-١٦] يسأله إياه عباده المؤمنون ويسأله إياه ملائكته لهم.

---

(١) ٦٩ حادي الأرواح.

فالجنة تسأل ربها أهلها، وأهلها يسألونه إياها، والملائكة تسألها لهم، والرسل يسألونه إياها لهم ولأتباعهم، ويوم القيامة يقيمهم سبحانه بين يديه يشفعون فيها لعباده المؤمنين.

وفي هذا من تمام ملكه وإظهار رحمته وإحسانه وجوده وكرمه وإعطائه ما سئل ما هو من لوازم أسمائه وصفاته واقتضائها لآثارها ومتعلقاتها، فلا يجوز تعطيلها عن آثارها وأحكامها، فالرب تعالى جواد له الجود كله يحب أن يسئل ويطلب منه ويرغب إليه، فخلق من يسأله، وألهمه سؤاله، وخلق له ما يسأله إياه. فهو خالق السائل وسؤاله ومسئوله، وذلك لمحبته سؤال عباده له ورغبتهم إليه وطلبهم منه، وهو يغضب إذا لم يسئل.

الله يغضب إن تركت سؤاله وبني آدم حين يسئل يغضب

وأحب خلقه إليه أكثرهم وأفضلهم له سؤالاً، وهو يحب الملحين في الدعاء، وكلما ألح العبد عليه في السؤال أحبه وقربه وأعطاه.

وفي الحديث: «من لم يسأل الله يغضب عليه». فلا إله إلا هو، أي جناية جنت القواعد الفاسدة على الإيمان وحالت بين القلوب وبين معرفة ربها وأسمائه وصفات كماله ونعوت جلاله!!! والحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله.

قال أبو نعيم الفضل حدثنا يونس هو ابن أبي إسحاق حدثنا يزيد بن أبي مرثد قال: قال أنس بن مالك، قال رسول الله، ﷺ: «**ما من مسلم يسأل الله الجنة ثلاثًا إلا قالت الجنة اللهم أدخله الجنة. ومن استجار من النار بالله ثلاثًا قالت النار: اللهم أجره من النار**». رواه الترمذي والنسائي وابن ماجه عن هناد بن السري عن أبي الأحوص عن أبي إسحاق عن يزيد به.

وقال الحسن بن سفيان حدثنا عثمان بن أبي شيبة حدثنا جرير عن ليث عن يونس بن حبان عن أبي حازم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله، ﷺ: «**ماسأل الله عبد الجنة في يوم سبع مرات إلا قالت الجنة يارب إن عبدك فلانًا يسألني فأدخلنيه**».

وقال أبو يعلى الموصلي حدثنا أبو خيثمة زهير بن حرب حدثنا جرير عن يونس عن أبي حازم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله، ﷺ: «**ما**

استجـار عبـد من النار سبع مرات إلا قالت النار إن عبدك فلانًا استجار مني فأجره، ولا يسأل عبد الجنة سبع مرات إلا قال الجنة يا رب إن عبدك فلانًا سألني فأدخله الجنة». وإسناده على شرط الصحيحين. . . .

(١)**فقوله** سبحـانـه: ﴿**وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ**﴾. [الفرقان: ١٧]. عام في كل عابد ومن عبده من دون الله.

وأما قوله: ﴿**فَيَقُولُ أَأَنْتُم أضللتُم عِبادي هؤلاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبيل**﴾. [الفرقـان: ١٧]. فقال مجاهد، فيما رواه ورقاء عن ابن أبي نَجيح عنه قال: «هذا خطاب لعيسى وعزير، والملائكة». وروى عنه ابن جُريج نحوه.

وأما عكرمة والضحاك والكلبي، فقالوا: هو عام في الأوثان وعبَدَتِها.

ثم يأذن سبحانه لها في الكلام فيقول: ﴿**أَأَنْتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبادِي هؤلاءِ**﴾. قال مقاتل: يقول سبحانه: «أأنتم أمرتموهم بعبادتكم، أم هم ضلوا السبيل؟ أي أم هم أخـطؤا الـطريق». فأجـاب المعبـودون بما حكى الله عنهم من قولهم: ﴿**سُبْحَانَكَ ما كانَ ينبَغِي لنا أَنْ نتَّخِذَ منْ دُونِكَ منْ أَولِيَاءَ**﴾. [الفرقان: ١٨].

وهذا الجواب إنما يحسن من الملائكة والمسيح وعُزير، ومن عبدهم المشركون من أولياء الله.

ولهذا قال ابن جرير: يقول تعالى ذكره: قالت الملائكة وعيسى الذين كان هؤلاء المشركون يعبدونهم من دون الله [تنزيهًا لك يا ربَّنا وتبرئة مما أضاف إليك هؤلاء المشركون] ﴿**ما كَانَ ينبَغِي لنَا أَنْ نتَّخِذَ منْ دُونِكَ مِنْ أَولِياءَ**﴾. نواليهم، بل أنت ولينا من دونهم.

وقال ابن عباس، ومقاتل: «نزِّهوا الله وعظموه أن يكون معه إلـه».

وفيها قراءتـان: أشهـرهـا: (نَتَّخِـذَ) بفتـح النون وكسر الخاء، على البناء للفاعل. وهي قراءة السبعة. والثانية: (نُتَّخذُ) بضم النون وفتح الخاء، على البناء للمفعول، وهي قراءة الحسن ويزيد بن القعقاع. وعلى كل واحدة من القراءتين إشكال.

فأما قراءة الجمهـور، فإنَّ الله سبحانه إنما سألهم: هل أضلوا المشركين

---

(١) ٢٣٩ إغاثة جـ٢.

بأمرهم إياهم بعبادتهم، أم هم ضلوا السبيل باختيارهم وأهوائهم؟ وكيف يكون هذا الجواب مطابقاً للسؤال؟ فإنه لم يسألهم: هل اتخذتم من دوني من أولياء؟ حتى يقولوا: ﴿مَا كَانَ يَنْبَغِي لنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أولياءَ﴾ وإنما سألهم: هل أمرتم عبادي هؤلاء بالشرك، أم هم أشركوا من قِبَل أنفسهم؟ فالجواب المطابق أن يقولوا: لم نأمرهم بالشرك، وإنما هم آثروه وارتضوه، أو لم نأمرهم بعبادتنا، كما في الآية الأخرى عنهم ﴿تبرَّأنَا إليْكَ ما كانُوا إيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾. [القصص: ٦٣].

فلما رأى أصحاب القراءة الأخرى ذلك فرُّوا إلى بناء الفعل للمفعول. وقالوا: الجواب يصحّ على ذلك، ويُطابق. إذ المعنى: ليس يصلح لنا أن نُعبد ونُتَّخذ آلهة. فكيف نأمرهم بما لا يصلح لنا، ولا يحسن منًّا؟

ولكن لزم هؤلاء من الإشكال أمر آخر. وهو قوله ﴿مِنْ أولياء﴾ فإنَّ زيادة «من» لا يحسن إلا مع قصد العموم، كما تقول: ما قام من رجل. وما ضربت من رجل. فأما إذا كان النفي واردًا على شيء مخصوص فإنه لا يحسن زيادة «من» فيه، وهم إنما نفوا عن أنفسهم ما نُسب إليهم من دَعوى المشركين: أنهم أمروهم بالشرك. فنفوا عن أنفسهم ذلك بأنه لا يحسنُ منهم، ولا يليقُ بهم أن يُعبدوا، فكيف ندعو عبادك إلى أن يعبدونا؟ فكان الواجب على هذا: أن تُقرأ (ما كانَ ينبَغِي لنا أن نَتَّخِذَ أولِيَاءَ مِنْ دُونِك). أو (من دُونِكَ أولِياء).

فأجاب أصحاب القراءة الأولى بوجوه:

أحدها: أن المعنى ما كان ينبغي لنا أن نعبدَ غيرك، ونتخذ غيرك وليًّا ومعبودًا. فكيف ندعو أحدًا إلى عبادتنا؟ أي إذا كنَّا نحن لا نعبد غيرك، فكيف ندعو أحدًا إلى أن يعبدنا؟ والمعنى: أنهم إذا كانوا لا يرون لأنفسهم عبادة غير الله تعالى، فكيف يدعون غيرهم إلى عبادتهم؟ وهذا جواب الفرَّاء.

وقال الجرجاني: هذا بالتدريج يصير جوابًا للسؤال الظاهر. وهو أن من عبد شيئًا فقد تولَّاه، وإذا تولاه العابد صار المعبود وليًّا للعابد. يدل على هذا قوله تعالى: ﴿ويومَ يَحْشُرُهُمْ جميعًا ثُمَّ يقولُ للملائِكَةِ أهؤلاءِ إيَّاكُم كَانُوا يَعْبُدون. قالُوا سُبحَانَكَ أنْتَ وليُّنا من دُونِهِمْ﴾ .[سبأ: ٤٠، ٤١]. فدل على أن العابد يصير وليًّا للمعبود.

ويصير المعنى كأنهم قالوا: ما كان ينبغي لنا أنْ نأمرَ غيرنا باتخاذنا أولياء،

وأن نتخذ من دونك وليًا يعبدنا. وهذا بسط لقول ابن عباس في هذه الآية.

قال: يقولون: ما توليناهم، ولا أحببنا عبادتهم. قال: ويحتمل أن يكون قولهم «ما كان ينبغي لنا أن نتخذ من دونك من أولياء» أن يريدوا معشر العبيد، لا أنفسهم. أي نحن وهم عبيدك. ولا ينبغي لعبيدك أن يتخذوا من دونك أولياء. ولكنهم أضافوا ذلك إلى أنفسهم تواضعًا منهم. كما يقول الرجل لمن أتى منكرًا: ما كان ينبغي لي أن أفعل مثل هذا، أي أنت مثلي عبد محاسب، فإذا لم يحسن من مثلي أن يفعل هذا لم يحسن منك أيضًا.

قال: ولهذا الإشكال قرأ من قرأ (نُتَّخذ) بضم النون. وهذه القراءة أقرب في التأويل. لكن قال الزَّجاج: هذه القراءة خطأ؛ لأنك تقول: ما اتخذتُ من أحد وليًا، ولا يجوز ما اتخذت أحدًا من ولي؛ لأن «من» إنما دخلت لأنها تنفي واحدًا من معنى جميع. تقول: ما من أحد قائمًا، وما من رجل محبًا لما يضره، ولا يجوز: ما رجل من محب لما يضره.

قال: ولا وجه عندنا لهذا البتة، ولو جاز هذا لجاز في ﴿فَمَا مِنكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾. [الحاقة: ٤٧]. ما أحد عنه من حاجزين. فلو لم تدخل «من» لصحَّت هذه القراءة.

قال صاحب النظم: العلة في سقوط هذه القراءة: أن «من» لا تدخل إلا على مفعول لا مفعول دونه، فإذا كان قبل المفعول مفعول سواه لم يحسن دخول «من» كقوله: ﴿ما كانَ لله أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ﴾. [مريم: ٣٥]. فقوله «من ولد» لا مفعول دونه سواه، ولو قال: ما كان الله أن يتخذ أحدًا من ولد، لم يحسن فيه دخول «من»؛ لأن فعل الاتخاذ مشغول بأحد.

وصحح آخرون هذه القراءة لفظًا ومعنى، وأجروها على قواعد العربية.

قالوا: وقد قرأ بها من لا يُرتاب في فصاحته. فقرأ بها زيد بن ثابت، وأبو الدرداء، وأبو جعفر، ومُجاهد، ونصر بن علقمة، ومكحول، وزيد بن علي، وأبو رجاء، والحسن، وحفص بن حميد، ومحمد بن علي، على خلاف عن بعض هؤلاء. ذكر ذلك أبو الفتح ابن جنّي. ثم وجَّهها بأن يكون «من أولياء» في موضع

الحال، أي ما كان ينبغي لنا أن نتخذ من دونك أولياء. ودخلت «من» زائدة لمكان النفي. كقولك: اتخذتُ زيدًا وكيلاً، فإذا نَفيْتَ قلت: ما اتخذتُ زيدًا من وكيل. وكذلك أعطيته درهمًا. وما أعطيته من درهم. وهذا في المفعول فيه.

قلت: يعني أن زيادتها مع الحال، كزيادتها مع المفعول. ونظير ذلك أن تقول: ماينبغي لي أن أخدمك متثاقلاً، فإذا أكدت، قلت: من متثاقل.

فإن قيل: فقد صحت القراءتان لفظًا ومعنى، فأيهما أحسن؟

قلت: قراءة الجمهور أحسن وأبلغ في المعنى المقصود، والبراءة مما لا يليق بهم، فإنهم على قراءة الضم: يكونون قد نفوا حسن اتخاذ المشركين لهم أولياء، وعلى قراءة الجمهور: يكونون قد أخبروا أنهم لا يليق بهم، ولا يحسن منهم أن يتخذوا وليًا من دونه، بل أنت وحدك ولينا ومعبودنا، فإذا لم يحسن بنا أن نشرك بك شيئًا، فكيف يليق بنا أن ندعو عبادك إلى أن يعبدونا من دونك؟ وهذا المعنى أجلّ من الأول وأكبر، فتأمله.

والمقصود: أنه على القراءتين: فهذا الجواب من الملائكة، ومن عبد من دون الله من أوليائه. وأما كونه من الأصنام فليس بظاهر.

وقد يقال: إن الله سبحانه أنطقها بذلك، تكذيبًا لهم، وردًا عليهم، وبراءة منهم. كقوله: **﴿إذْ تبرَّأ الذينَ اتُّبعُوا مِنَ الذينَ اتَّبَعُوا﴾**. [البقرة: ١٦٦]. وفي الآية الأخرى: **﴿تبَرَّأْنَا إليْكَ ما كانُوا إيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾**. [القصص: ٦٣].

ثم ذكر المعبودون سبب ترك العابدين الإيمانَ بالله تعالى بقولهم: **﴿ولكنْ مَتَّعْتَهُمْ وآباءهُمْ حتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وكَانُوا قومًا بُورًا﴾**. [الفرقان: ١٨]. قال ابن عباس: «أطلت لهم العمر، وأفضلت عليهم، ووسعت لهم في الرزق».

وقال الفرَّاء: ولكنك متعتهم بالأموال والأولاد، حتى نسوا ذكرك، وكانوا قومًا بورًا، أي هلكى فاسدين. قد غلب عليهم الشقاء والخذلان. والبوار: الهلاك والفساد، يقال: بارت السِّلعة، وبارت المرأة، إذا كسدت ولم يحصل لها من يتزوجها.

قال قتادة: والله ما نسي قوم ذكر الله عز وجل إلا باروا وفسدوا.

والمعنى: ما أضللناهم ولكنهم ضلوا.

قال الله تعالى: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بِمَا تَقُولُونَ﴾. [الفرقان: ١٩]. أي كذبكم المعبودون، بقولكم فيهم: إنهم آلهة، وإنهم شركاء، أو بما تقولون إنهم أمروكم بعبادتهم، ودعوكم إليها.

وقيل: الخطاب للمؤمنين في الدنيا، أي فقد كذَّبكم أيها المؤمنون هؤلاء المشركون بما تقولونه، مما جاء به محمد، صلى الله تعالى عليه وآله وسلم عن الله من التوحيد والإيمان. والأول أظهر. وعليه يدل السياق.

ومن قرأها بالياء ـ آخر الحروف ـ فالمعنى، فقد كذبوكم بقولهم، ثم قال: ﴿فَمَا تستَطِيعُونَ صَرْفًا ولا نَصْرًا﴾. [الفرقان: ١٩]. إخباراً عن حالهم يومئذ، وأنهم لا يستطيعون صرف العذاب عن أنفسهم، ولا نصرها من الله.

قال ابن زيد: ينادي منادٍ يوم القيامة، حين يجتمع جميع الخلائق: ﴿ما لكم لا تَنَاصَرُونَ﴾ [الصافات: ٢٥]. يقول: من عُبد من دون الله، لا ينصر اليوم من عبده، والعابد لا ينصر إلـهه ﴿بَلْ هُمُ اليومَ مُسْتَسلِمُونَ﴾ـ [الصافات: ٢٦]. فهـذا حال عباد الشيطان يوم لقاء الرحمن، فواسوء حالهم حين امتيازهم عن المؤمنين، إذا سمعوا النداء ﴿وامْتَازُوا اليَومَ أَيُّهَا المُجْرِمُونَ. أَلَمْ أَعْهَدْ إليكُمْ يا بَنِي آدَمَ أَنْ لا تَعْبُدُوا الشَّيطَانَ إنَّهُ لكُمْ عَدوٌّ مُبِينٌ. وأَنِ اعْبُدُوني هَذا صِراطٌ مُستَقيمٌ. ولَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثيراً أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ﴾. [يس: ٥٩ ـ ٦٢].

. . .[1]**وقوله** تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لبَعْضٍ فِتْنَةً﴾[2]. [الفرقان: ٢٠]. وهذا عام في جميع الخلق، امتحن بعضهم ببعض:

فامتحن الرسل بالمرسل إليهم ودعوتهم إلى الحق والصبر على أذاهم.

---

(١) ١٦٠ إغاثة جـ٢.

(٢) قال الحافظ ابن كثير: أي اختبرنا بعضكم ببعض، وبلونا بعضكم ببعض، لنعلم من يطيع ممن يعصي. ولهذا قال ﴿أتصبرون وكان ربك بصيراً﴾. وقال محمد بن إسحاق في الآية: يقول الله: لو شئت أن أجعل الدنيا مع رسلي فلا يخالفون لفعلت، ولكني قد أردت أن أبتلي العباد بهم وأبتليكم بهم. اهـ. ببعض تصرف. وقد مضى قريبًا بهامش صفحة حديث عياض بن حمار الذي رواه أحمد ومسلم «إني مبتليك ومبتل بك».

وتحمل المشاق في تبليغهم رسالات ربهم.

وامتحن المرسل إليهم بالرسل، وهل يطيعونهم، وينصرونهم، ويصدقونهم، أم يكفرون بهم، ويردون عليهم، ويقاتلونهم؟

وامتحن العلماء بالجهال، هل يعلمونهم، وينصحونهم، ويصبرون على تعليمهم ونصحهم، وإرشادهم، ولوازم ذلك؟

وامتحن الجهال بالعلماء، هل يطيعونهم، ويهتدون بهم؟

وامتحن الملوك بالرعية، والرعية بالملوك.

وامتحن الأغنياء بالفقراء، والفقراء بالأغنياء.

وامتحن الضعفاء بالأقوياء، والأقوياء بالضعفاء، والسادة بالأتباع، والأتباع بالسادة.

وامتحن المالك بمملوكه، ومملوكه به.

وامتحن الرجل بامرأته، وامرأته به.

وامتحن الرجال بالنساء، والنساء بالرجال، والمؤمنين بالكفار، والكفار بالمؤمنين.

وامتحن الآمرين بالمعروف بمن يأمرونهم، وامتحن المأمورين بهم. ولذلك كان فقراء المؤمنين وضعفاؤهم من أتباع الرسل، فتنة لأغنيائهم ورؤسائهم، امتنعوا من الإيمان بعد معرفتهم بصدق الرسل، وقالوا: ﴿**لَوْ كَانَ خيراً مَا سَبَقُونَا إليْهِ**﴾. [الأحقاف: ١١]. هؤلاء.

وقالوا لنوح عليه السلام: ﴿**أَنُؤمِنُ لكَ واتَّبَعَكَ الأَرْذَلُونَ**﴾ [الشعراء: ١١١].

قال تعالى: ﴿**وكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهؤلَاءِ مَنَّ اللهُ عليْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا**﴾. [الأنعام: ٥٣]. فإذا رأى الشريفُ الرئيسُ المسكينَ الذليلَ قد سبقه إلى الإيمان ومتابعة الرسول حمى وأنف أن يسلم، فيكون مثله، وقال: أسلم فأكون أنا وهذا الوضيع على حد سواء؟

[١]... **قال** تعالى: ﴿**وجَعَلنَا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون**﴾. فهو سبحانه جعل أولياءه فتنة لأعدائه، وأعداءه فتنة لأوليائه، والملوك فتنة للرعية، والرعية فتنة

---

(١) ٢٤٤ شفاء.

لهم، والرجال فتنة للنساء، وهن فتنة لهم، والأغنياء فتنة للفقراء، والفقراء فتنة لهم، وابتلى كل أحد بضد جعله متقابلاً، فما استقرت أقدام الأبوين على الأرض إلا وضدهما مقابلهما، واستمر الأمر في الذرية كذلك إلى أن يطوي الله الدنيا ومن عليها.

وكم له سبحانه في مثل هذا الابتلاء والامتحان من حكمة بالغة، ونعمة سابغة، وحكم نافذ، وأمر ونهي، وتصريف دال على ربوبيته وإلهيته وملكه وحمده.

وكذلك ابتلاء عباده بالخير والشر في هذه الدار هو من كمال حكمته ومقتضى حمده التام.

الوجه الثالث والثلاثون أنه لولا هذا الابتلاء والامتحان لما ظهر فضل الصبر والرضا، والتوكل والجهاد، والعفة والشجاعة، والحلم والعفو والصفح.

والله سبحانه يحب أن يكرم أولياءه بهذه الكمالات ويحب ظهورها عليهم ليثني بها عليهم هو وملائكته، وينالوا باتصافهم بها غاية الكرامة واللذة والسرور، وإن كانت مُرة المبادى فلا أحلى من عواقبها، ووجود الملزوم بدون لازمه ممتنع.

وقد أجرى الله سبحانه حكمته بأن كمال الغايات تابعة لقوة أسبابها وكمالها، ونقصانها لنقصانها، فمن كمل أسباب النعيم واللذة كملت له غاياتها، ومن حرمها حرمها، ومن نقصها نقص له من غاياتها. وعلى هذا قام الجزاء بالقسط والثواب والعقاب، وكفى بهذا العالم شاهدًا لذلك، فرب الدنيا والآخرة واحد، وحكمته مطردة فيهما، وله الحمد في الأولى والآخرة، وله الحكم وإليه ترجعون.

(١)... **والمقصود** أن الله سبحانه يقطع يوم القيامة الأسباب والعلق والوصلات التي كانت بين الخلق في الدنيا كلها، ولا يبقى إلا السبب والوصلة التي بين العبد وبين الله فقط، وهو سبب العبودية المحضة التي لا وجود لها ولا تحقيق إلا بتجريد متابعة الرسل صلوات الله وسلامه عليهم، إذ هذه العبودية إنما جاءت على ألسنتهم، وما عرفت إلا بهم، ولا سبيل إليها إلا بمتابعتهم. وقد قال تعالى: ﴿**وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاه هَبَاءً مَنْثُورًا**﴾ [الفرقان: ٢٣]. فهذه هي أعماله التي كانت في الدنيا على غير سنة رسله وطريقتهم ولغير وجهه، يجعلها الله هباء منثورًا، لا ينتفع منها صاحبها بشيء أصلاً. وهذا من أعظم الحسرات على العبد يوم القيامة: أن يرى سعيه كله ضائعًا لم ينتفع منه بشيء، وهو أحوج ما كان

---

(١) ٤١ الرسالة التبوكية.

العامل إلى عمله، وقد سعد أهل السعي النافع بسعيهم. اهـ.

(١)**وأعظم** الحظوظ وأجداها ما نفع العبد ودام نفعه له، وليس هذا إلا حظه من العلم والدين، فهو الحظ الدائم النافع الذي إذا انقطعت الحظوظ لأربابها فهو موصول له أبد الآبدين، وذلك لأنه موصول بالحي الذي لا يموت، فلذلك لا ينقطع ولا يفوت، وسائر الحظوظ تعدم وتتلاشى بتلاشي متعلقاتها كما قال تعالى: ﴿**وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباءً منثورًا**﴾. فإن الغاية لما كانت منقطعة زائلة تبعتها أعمالهم فانقطعت عنهم أحوج ما يكون العامل إلى عمله، وهذه هي المصيبة التي لا تجبر، عياذًا بالله واستعانة به وافتقارًا وتوكلاً عليه ولا حول ولا قوة إلا بالله.

(٢)**وقال** تعالى: ﴿**ويومَ يَعضُّ الظَّالمُ على يَديهِ يَقُولُ يا ليتَني اتَّخَذْتُ معَ الرَّسولِ سبيلاً. يا وَيْلتَى ليتَني لَمْ اتَّخِذْ فُلانًا خليلاً. لقد أَضَلَّني عنِ الذِّكْرِ بعدَ إذْ جَاءَني وكانَ الشَّيطانُ للإنْسانِ خذُولاً**﴾. [الفرقان: ٢٧ - ٢٩]. فكل من اتخذ غير الرسول يترك لأقواله وآرائه ما جاء به الرسول، ﷺ، فإنه قائل هذه المقالة لا محالة. ولهذا هذا الخليل كنى عنه باسم فلان؛ إذ لكل متبع أولياء من دون الله فلان وفلان. فهذا حال الخليلين المتخالين على خلاف طاعة الرسول، ﷺ. ومآل تلك الخلة إلى العداوة واللعنة. كما قال تعالى: ﴿**الأخِلاَّءُ يومئذ بعضهم لبعض عدو إلاَّ المُتَّقين**﴾. [الزخرف: ٦٧]. وقد ذكر حال هؤلاء الأتباع وحال من تبعوهم في غير موضع من كتابه، كقوله تعالى: ﴿**يومَ تُقَلَّبُ وجوهُهُمْ في النَّار يَقُولُونَ يا لَيتَنَا أَطَعْنا اللهَ وأَطَعْنَا الرَّسُولا. وقالُوا ربَّنَا إنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فأَضَلُّونَا السَّبيلا. ربَّنا آتِهِمْ ضِعْفَينِ مِنَ العَذابِ والعَنْهُمْ لَعْنًا كَبيراً**﴾. [الأحزاب: ٦٦ - ٦٨]. تمنى القوم طاعة الله ورسوله حين لا ينفعهم ذلك، واعتذروا بأنهم أطاعوا كبراءهم ورؤساءهم، واعترفوا بأنهم لا عذر لهم في ذلك، وأنهم أطاعوا السادات والكبراء وعصوا الرسول، وآلت تلك الطاعة والموالاة إلى قولهم: ﴿**ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعنًا كبيراً**﴾. وفي بعض هذا عبرة للعاقل وموعظة شافية. وبالله التوفيق.

---

(١) ٦٧ مفتاح جـ١. (٢) ٣٥ تبوكية.

(١) . . . **قال** تعالى: ﴿ويومَ يعضُّ الظَّالمُ على يديه يقولُ يا ليتني اتَّخذتُ مع الرسولِ سبيلاً. يا ويلتى ليتني لم أتَّخِذ فُلانًا خليلاً. لقد أضَلَّني عن الذِّكر بعدَ إذْ جاءَني﴾. [الفرقان: ٢٧ ـ ٢٩].

وقال تعالى: ﴿الأَخِلَّاءُ يومئذٍ بَعضُهُمْ لبعضٍ عَدُوٌّ إلَّا المتَّقين﴾.

وقال خليله إبراهيم لقومه: ﴿إنَّما اتَّخذتُم مِنْ دونِ الله أوثانًا مَوَدَّةَ بينكُمْ في الحياةِ الدُّنيا ثمَّ يومَ القيامَةِ يَكْفُرُ بعضُكُم ببعضٍ ويَلْعَنُ بعضُكم بعضًا ومأْوَاكُم النَّارُ وما لَكُمْ مِنْ نَاصرينَ﴾. [العنكبوت: ٢٥].

وهذا شأن كل مشتركين في غرض، يتوادون ماداموا متساعدين على حصوله، فإذا انقطع ذلك الغرض أعقب ندامة وحزنًا وألمًا. وانقلبت تلك المودة بغضًا ولعنة، وذمًّا من بعضهم لبعض، لما انقلب ذلك الغرض حزنًا وعذابًا، كما يشاهد في هذه الدار من أحوال المشتركين في خزيٍ، إذا أُخذوا وعوقبوا. فكل متساعدين على باطل، متوادِّين عليه: لابد أن تنقلب مودتهما بغضًا وعداوة.

والضابط النافع في أمر الخلطة: أن يخالط الناس في الخير ـ كالجمعة والجماعة، والأعياد والحج، وتعلم العلم، والجهاد، والنصيحة ـ ويعتزلهم في الشر، وفضول المباحات. فإن دعت الحاجة إلى خلطتهم في الشر، ولم يمكنه اعتزالهم: فالحذر الحذر أن يوافقهم. وليصبر على أذاهم، فإنهم لابد أن يؤذوه إن لم يكن له قوة ولا ناصر، ولكن أذى يعقبه عز ومحبة له وتعظيم، وثناء عليه منهم ومن المؤمنين ومن رب العالمين. وموافقتهم يعقبها ذلٌّ وبغض له، ومقت، وذم منهم، ومن المؤمنين، ومن رب العالمين.

فالصبر على أذاهم خير وأحسن عاقبة، وأحمد مآلاً. وإن دعت الحاجة إلى خلطتهم في فضول المباحات فليجتهد أن يقلب ذلك المجلس طاعة لله، إن أمكنه، ويشجع نفسه ويقوي قلبه، ولا يلتفت إلى الوارد الشيطاني القاطع له عن ذلك، بأن هذا رياء ومحبة لإظهار علمك وحالك، ونحو ذلك، فليحاربه، وليستعن بالله، ويؤثر فيهم من الخير ما أمكنه.

فإن أعجزته المقادير عن ذلك، فَلْيُسِلَّ قلبه من بينهم كسلّ الشعرة من

(١) ٤٤٥ مدارج جـ١.

العجين، وليكن فيهم حاضرًا غائبًا، قريبًا بعيدًا، نائمًا يقظانًا، ينظر إليهم ولا يبصرهم، ويسمع كلامهم ولا يعيه، لأنه قد أخذ قلبه من بينهم، ورقى به إلى الملأ الأعلى، يسبح حول العرش مع الأرواح العلوية الزكية. وما أصعب هذا وأشقه على النفوس، وإنه ليسير على من يسره الله عليه. فبين العبد وبينه أن يصدق الله تبارك وتعالى، ويديم اللجأ إليه، ويلقي نفسه على بابه طريحًا ذليلاً، ولا يعين على هذا إلا محبة صادقة، والذكر الدائم بالقلب واللسان، وتجنب المفسدات الأربع الباقية الآتي ذكرها. ولا ينال هذا إلا بعدة صالحة ومادة قوة من الله عز وجل، وعزيمة صادقة، وفراغ من التعلق بغير الله تعالى. والله تعالى أعلم(١).

فائدة(٢)

هجر القرآن أنواع، أحدها: هجر سماعه والإيمان به والإصغاء إليه.

والثاني: هجر العمل به والوقوف عند حلاله وحرامه وإن قرأه وآمن به.

والثالث: هجر تحكيمه، والتحاكم إليه في أصول الدين وفروعه، واعتقاد أنه لا يفيد اليقين، وأن أدلته لفظية لا تحصل العلم.

والرابع: هجر تدبره وتفهمه، ومعرفة ما أراد المتكلم به منه.

والخامس: هجر الاستشفاء والتداوي به في جميع أمراض القلوب وأدوائها، فيطلب شفاء دائه من غيره ويهجر التداوي به، وكل هذا داخل في قوله: **﴿وقالَ الرَّسولُ يا رَبِّ إنَّ قومِي اتَّخَذُوا هذَا القُرآنَ مَهْجُورًا﴾**. [الفرقان: ٣٠]. وإن كان بعض الهجر أهون من بعض(٣).

فصل(٤)

وأما التأمل في القرآن: فهو تحديق ناظر القلب إلى معانيه. وجمع الفكر على تدبره وتعقله. وهو المقصود بإنزاله، لا مجرد تلاوته بلا فهم ولا تدبر.

قال الله تعالى: **﴿كِتابٌ أَنْزَلْناهُ إلَيْكَ مُبارَكٌ ليدَّبَّرُوا آياتِهِ وليَتَذَكَّرَ أُولُو الألباب﴾** [ص: ٢٩]. وقال تعالى: **﴿أَفَلا يَتدبَّرونَ القرآنَ أَمْ على قُلُوبٍ أقفالها﴾**. .

---

(١) شرح المؤلف بقية مفسدات القلب تركناها اختصارًا. (ج).

(٢) ٨١ فوائد.

(٣) تقدم بقية البحث في سورة الأعراف (ج).

(٤) ٤٥١ مدارج جـ١.

وقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ﴾. [المؤمنون: ٦٨]. وقال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾. [الزخرف: ٣].

وقال الحسن: نزل القرآن لِيُتدبر ويعمل به، فاتخذوا تلاوته عملاً.

فليس شيء أنفع للعبد في معاشه ومعاده وأقرب إلى نجاته: من تدبر القرآن، وإطالة التأمل، وجمع الفكر على معاني آياته. فإنها تُطلع العبد على معالم الخير والشر بحذافيرهما. وعلى طرقاتهما، وأسبابهما، وغاياتهما، وثمراتهما، ومآل أهلهما، وتَتُلّ في يده[1] مفاتيح كنوز السعادة والعلوم النافعة، وتثبت قواعد الإيمان في قلبه، وتشيد بنيانه، وتوطد أركانه، وتريه صورة الدنيا والآخرة، والجنة والنار في قلبه، وتُحضره بين الأمم، وتريه أيام الله فيهم، وتبصره مواقع العبر، وتشهده عدل الله وفضله، وتعرفه ذاته، وأسماءه وصفاته وأفعاله، وما يحبه وما يبغضه، وصراطه الموصل إليه، وما لسالكيه بعد الوصول والقدوم عليه، وقواطع الطريق وآفاتها. وتعرفه النفس وصفاتها، ومفسدات الأعمال ومصححاتها، وتعرفه طريق أهل الجنة وأهل النار وأعمالهم، وأحوالهم وسيماهم، ومراتب أهل السعادة وأهل الشقاوة، وأقسام الخلق واجتماعهم فيما يجتمعون فيه، وافتراقهم فيما يفترقون فيه.

وبالجملة تعرفه الرب المدعو إليه، وطريق الوصول إليه، وما له من الكرامة إذا قدم عليه.

وتعرفه في مقابل ذلك ثلاثة أخرى: ما يدعو إليه الشيطان، والطريق الموصلة إليه، وما للمستجيب لدعوته من الإهانة والعذاب بعد الوصول إليه.

فهذه ستة أمور ضروري للعبد معرفتها، ومشاهدتها ومطالعتها. فتشهده الآخرة حتى كأنه فيها، وتغيبه عن الدنيا حتى كأنه ليس فيها، وتميِّز له بين الحق والباطل في كل ما اختلف فيه العالم، فتريه الحق حقًّا، والباطل باطلاً، وتعطيه فرقانًا ونورًا يفرق به بين الهدى والضلال، والغي والرشاد. وتعطيه قوة في قلبه، وحياة وسعة وانشراحًا وبهجة وسرورًا. فيصير في شأن والناس في شأن آخر.

فإن معاني القرآن دائرة على التوحيد وبراهينه، والعلم بالله وما له من أوصاف الكمال، وما ينزه عنه من سمات النقص، وعلى الإيمان بالرسل، وذكر

(١) تل الشيء في يده ـ بالمثناه الفوقية المفتوحة ـ وضعه فيها.

براهين صدقهم، وأدلة صحة نبوتهم، والتعريف بحقوقهم، وحقوق مرسلهم. وعلى الإيمان بملائكته، وهم رسله في خلقه وأمره، وتدبيرهم الأمور بإذنه ومشيئته، وما جعلوا عليه من أمر العالم العلوي والسفلي، وما يختص بالنوع الإنساني منهم، من حين يستقر في رحم أمه إلى يوم يوافي ربه ويقدم عليه. وعلى الإيمان باليوم الآخر وما أعد الله فيه لأوليائه من دار النعيم المطلق، التي لا يشعرون فيها بألم ولا نكد وتنغيص. وما أعد لأعدائه من دار العقاب الوبيل، التي لا يخالطها سرور ولا رخاء ولا راحة ولا فرح، وتفاصيل ذلك أتم تفصيل وأبينه. وعلى تفاصيل الأمر والنهي، والشرع والقدر، والحلال والحرام، والمواعظ والعبر، والقصص والأمثال، والأسباب والحكم، والمبادىء والغايات، في خلقه وأمره.

فلا تزال معانيه تنهض العبد إلى ربه بالوعد الجميل، وتحذره وتخوفه بوعيده من العذاب الوبيل، وتحثه على التضمر والتخفف للقاء اليوم الثقيل، وتهديه في ظلم الآراء والمذاهب إلى سواء السبيل، وتصده عن اقتحام طرق البدع والأضاليل، وتبعثه على الازدياد من النعم بشكر ربه الجليل. وتبصره بحدود الحلال والحرام، وتوقفه عليها لئلا يتعداها فيقع في العناء الطويل. وتثبت قلبه عن الزيغ والميل عن الحق والتحويل. وتسهل عليه الأمور الصعاب والعقبات الشاقة غاية التسهيل. وتناديه كلما فترت عزماته، وونى في سيره: تقدم الركب وفاتك الدليل. فاللحاق اللحاق، والرحيل الرحيل. وتحدو به وتسير أمامه سير الدليل. وكلما خرج عليه كمين من كمائن العدو، أو قاطع من قطاع الطريق نادته: الحذر الحذر! فاعتصم بالله، واستعن به، وقل: حسبي الله ونعم الوكيل.

وفي تأمل القرآن وتدبره، وتفهمه، أضعاف أضعاف ماذكرنا من الحكم والفوائد. . .

فصل[1]

في بيان أن تيسر القرآن للذكر ينافي حمله على التأويل المخالف لحقيقته وظاهره

أنـزل الله الكتاب شفاء لما في الصدور، وهدى ورحمة للمؤمنين، ولذلك كانت معـانيه أشرف المعـاني، وألفـاظه أفصح الألفاظ وأبينها وأعظمها مطابقة لمعـانيها المرادة منها، كما وصفه الله تعالى بقوله: ﴿**وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا**﴾. [الفرقان: ٣٣]. فالحق هو المعنى والمدلول الذي تضمنه الكتاب، والتفسير الأحسن هو الألفاظ الدالة على ذلك الحق فهو تفسيره وبيانه.

والتفسير أصله من البيان والظهور، ويلاقيه في الاشتقاق الأكبر الإسفار. ومنه أسفر الفجر إذا أضاء ووضح. ومنه السفر لبروز المسافر من البيوت. ومنه السفـر الـذي يتضمن إظهار ما فيه من العلم. فلابد أن يكون التفسير مطابقًا للمفسر مفهمًا له. ولا تجد كلامًا أحسن تقديرًا ولا أتم بيانًا من كلام الله سبحانه، ولهذا سماه الله بيانًا وأخبر أنه يسره للذكر ويسر ألفاظه للحفظ، ومعانيه للفهم، وأوامره ونواهيه للامتثال.

ومعلوم أنه لو كان بألفاظ لا يفهمها المخاطب لم يكن ميسرًا له بل كان معسرًا عليه، وإذا أريد من المخاطب أن يفهم من ألفاظه ما لا يدل عليه من المعاني أو يدل على خلافه فهذا من أشد التعسير. . .

فصل[2]

قوله تعـالى: ﴿**أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا**﴾. [الفرقان: ٤٤]. فشبه أكثر الناس بالأنعام، والجامع بين النـوعين التساوي في عدم قبول الهدى والانقياد له، وجعل الأكثرين أضل سبيلًا من الأنعام، لأن البهيمة يهديها سائقها فتهتدي وتتبع الطريق، فلا تحيد عنها يمينًا ولا شمالًا، والأكثرون يدعوهم الرسل ويهدونهم السبيل فلا يستجيبون،

---

(١) ٥٩ مختصر الصواعق جـ١.
(٢) ١٥٩ إعلام جـ١.

ولا يهتدون، ولا يفرقون بين ما يضرهم وبين ما ينفعهم، والأنعام تُفرِّق بين ما يضرها من النبات والطريق فتجتنبه وما ينفعها فتؤثره.

والله تعالى لم يخلق للأنعام قلوبًا تعقل بها، ولا ألسنة تنطق بها، وأعطى ذلك لهؤلاء ثم لم ينتفعوا بما جعل لهم من العقول والقلوب والألسنة والأسماع والأبصار، فهم أضلُّ من البهائم، فإن من لا يهتدي إلى الرشد وإلى الطريق مع الدليل إليه أضلُّ وأسوأ حالاً ممن لا يهتدي حيث لا دليل معه.

(١) **إذا** عرف هذا. فهذه الحواس الخمس لها أشباح وأرواح، وأرواحها حظ القلب ونصيبه منها.

فمن الناس من ليس لقلبه منها نصيب إلا كنصيب الحيوانات البهيمية منها، فهو بمنزلتها، وبينه وبينها أول درجة الإنسانية. ولهذا شبه الله سبحانه أولئك بالأنعام، بل جعلهم أضل، فقال تعالى: ﴿**أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُم يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُم إِلَّا كَالأَنعَامِ بَلْ هُم أَضَلُّ سَبِيلاً**﴾. ولهذا نفى الله عن الكفار السمع والبصر والعقول، إما لعدم انتفاعهم بها، فنُزِّلت منزلة المعدوم. وإما لأن النفي توجه إلى أسماع قلوبهم وأبصارها، وإدراكها. ولهذا يظهر لهم ذلك عند انكشاف حقائق الأمور. كقول أصحاب السعير: ﴿**لو كنَّا نسمَعُ أَوْ نعقِلُ ما كُنَّا في أَصْحَابِ السَّعير**﴾. [الملك: ١٠].

ومنه في أحد التأويلين قوله تعالى: ﴿**وتَراهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وهُمْ لا يُبْصِرُونَ**﴾. [الأعراف: ١٩٨]. فإنهم كانوا ينظرون إلى صورة النبي، ﷺ، بالحواس الظاهرة، ولا يبصرون صورة نبوته ومعناها بالحاسة الباطنة، التي هي بصر القلب.

والقول الثاني: أن الضمير عائد على الأصنام. ثم فيه قولان:

أحدهما: أنه على التشبيه، أي كأنهم ينظرون إليك. ولا أبصار لهم يرونك بها.

والثاني: المراد به المقابلة. تقول العرب: داري تنظر دارك. أي تقابلها.

وكذلك السمع: ثابت لهم، وبه قامت الحجة عليهم. ومنتف عنهم، وهو سمع القلب. فإنهم كانوا يسمعون القرآن من حيث السمع الحسي المشترك، كالغنم التي لا تسمع إلا نعيق الراعي بها دعاء ونداء، ولم يسمعوه بالروح

---

(١) ٤١٠ مدارج جـ٢.

الحقيقي، الذي هو روح حاسة السمع، التي هي حظ القلب. فلو سمعوه من هذه الجهة: لحصلت لهم الحياة الطيبة، التي منشؤها من السماع المتصل أثره بالقلب، ولزال عنهم الصمم والبكم، ولأنقذوا نفوسهم من السعير بمفارقة مَن عُدم السمع والعقل.

فحصول السمع الحقيقي: مبدأ لظهور آثار الحياة الطيبة، التي هي أكمل أنواع الحياة في هذا العالم؛ فإن بها يحصل غذاء القلب ويعتدل، فتتم قوته وحياته، وسروره ونعيمه، وبهجته. وإذا فقد غذاءه الصالح: احتاج إلى أن يعتاض عنه بغذاء قبيح خبيث. وإذا فسد غذاؤه: خبث ونقص من حياته وقوته وسروره ونعيمه بحسب ما فسد من غذائه، كالبدن إذا فسد غذاؤه نقص. . .

(١)**قال** الله تعالى: ﴿**أَلَمْ تَرَ إلى رَبِّكَ كيفَ مَدَّ الظِّلَّ ولو شَاءَ لجعَلَهُ سَاكِنًا ثمَّ جَعَلنا الشَّمسَ عليهِ دليلاً. ثمَّ قَبَضْنَاهُ إلينا قَبضًا يسيراً**﴾. [الفرقان: ٤٥، ٤٦]. فأخبر تعالى: أنه بسط الظل ومدَّه، وأنه جعله متحركًا تبعاً لحركة الشمس. ولو شاء لجعله ساكنًا لا يتحرك: إما بسكون المظهر له، والدليل عليه، وإما بسبب آخر.

ثم أخبر: أنه قبضه ـ بعد بسطه ـ قبضًا يسيراً. وهو شيء بعد شيء، لم يقبضه جملة.

فهذا من أعظم آياته الدالة على عظيم قدرته، وكمال حكمته. فندب الرب سبحانه عباده إلى رؤية صنعته وقدرته، وحكمته في هذا الفرد من مخلوقاته. ولو شاء لجعله لاصقًا بأصل ما هو ظل له من جبل وبناء وشجر وغيره فلم ينتفع به أحد.

فإن كان الانتفاع به تابعًا لمده وبسطه، وتحوله من مكان إلى مكان. ففي مدِّه وبسطه، ثم قبضه شيئًا فشيئًا: من المصالح والمنافع ما لا يخفى ولا يحصى، فلو كان ساكنًا دائمًا، أو قبض دفعة واحدة: لتعطلت مرافق العالم ومصالحه به وبالشمس. فمد الظل وقبضه شيئًا فشيئًا لازم لحركة الشمس، على ما قدِّرت عليه من مصالح العالم.

وفي دلالة الشمس على الظلال ما تعرف به أوقات الصلوات، وما مضى

---

(١) ٢٩٣ مدارج جـ٣.

من اليوم، وما بقي منه. وفي تحركه وانتقاله ما يبرد به ما أصابه من حر الشمس، وينفع الحيوانات والشجر والنبات. فهو من آيات الله الدالة عليه.

وفي الآية وجه آخر، وهو: أنه سبحانه مدَّ الظل حين بنى السماء كالقبّة المضروبة. ودحى الأرض تحتها. فألقت القبة ظلها عليها. فلو شاء سبحانه لجعله ساكنًا مستقرًّا في تلك الحال. ثم خلق الشمس ونصبها دليلاً على ذلك الظل. فهو يتبعها في حركتها، يزيد بها وينقص، ويمتد ويتقلص. فهو تابع لها تبعية المدلول لدليله.

وفيها وجه آخر، وهو: أن يكون المراد قبضه عند قيام الساعة بقبض أسبابه، وهي الأجرام التي تلقي الظلال فيكون قد ذكر إعدامه بإعدام أسبابه كما ذكر إنشاءه بإنشاء أسبابه.

وقوله تعالى: ﴿**قبضناه إلينا**﴾. كأنه يشعر بذلك. وقوله: ﴿**قبضًا يسيراً**﴾ يشبه قوله: ﴿**ذلك حشر علينا يسير**﴾ [ق: ٤٤]. وقوله: ﴿**قبضناه**﴾ بصيغة الماضي لا ينافي ذلك كقوله: ﴿**أتى أمر الله**﴾ [النحل: ١] والوجه في الآية هو الأول.

(١)**ومعنى** الآية التنبيه على هذه الدلالة الباهرة على قدرة الرب سبحانه وعجائب مخلوقاته الدالة عليه، والمعنى: انظر كيف بسط ربك الظل، والظل ما قبل الزوال، والفيء بعده، فمده سبحانه وبسطه عند طلوع الشمس فإنه يكون مديدًا أطول ما يكون، وجعل الشمس دليلاً عليه فإنها هي التي تظهره وتبينه، ثم كلما ارتفعت الشمس شيئًا انقبض من الظل جزء، فلا يزال ينقص يسيراً حتى ينتهي إلى غايته، فإذا أخذت الشمس في الجانب الغربي انبسط بعد انقباضه شيئًا فشيئًا حتى يصير كهيئته عند طلوعها. ولهذا كان الزوال يعرف بانتهاء الظل في قصره، فإذا أخذ في الزيادة بعد تناهي قصره فقد تحقق الزوال، ولو شاء الله لجعله ساكنًا دائمًا على حالة واحدة فلا يتحرك بالزيادة والنقصان، فالظل أحد الأدلة الدالة على الخالق سبحانه.

---

(١) ٣٤٥ الهجرتين.

فصل[1]

في هديه في الجهاد والغزوات

لما كان الجهاد ذروة سنام الإسلام وقبته، ومنازل أهله أعلى المنازل في الجنة، كما لهم الرفعة في الدنيا، فهم الأعلون في الدنيا والآخرة، كان رسول الله، ﷺ، في الذروة العليا منه، واستولى على أنواعه كلها، فجاهد في الله حق جهاده، بالقلب والجنان والدعوة والبيان والسيف والسنان، وكانت ساعاته موقوفة على الجهاد بقلبه ولسانه ويده. ولهذا كان أرفع العالمين ذكرًا، وأعظمهم عند الله قدرًا وأمره الله تعالى بالجهاد من حين بعثه، فقال: **﴿ولو شِئْنَا لَبَعَثْنَا في كلِّ قريةٍ نَذيرًا فلا تُطِعِ الكَافِرينَ وجَاهِدْهُم بهِ جِهادًا كبيرًا﴾**. [الفرقان: ٥١- ٥٢]. فهذه سورة مكية، أمره فيها بجهاد الكفار بالحجة والبيان وتبليغ القرآن. وكذلك جهاد المنافقين إنما هو بتبليغ الحجة، وإلا فهم تحت قهر أهل الإسلام، قال تعالى: **﴿يا أيُّهَا النبيّ جَاهِدِ الكُفَّار والمنافقينَ واغْلُظْ عليهم ومأواهُم جهنَّم وبئسَ المَصير﴾**. [التوبة: ٧٣]. فجهاد المنافقين أصعب من جهاد الكفار، وهو جهاد خواص الأمة، وورثة الرسل. والقائمون به أفراد في العالم، والمشاركون فيه والمعاونون عليه ـ وإن كانوا هم الأقلّين عددًا ـ فهم الأعظمون عند الله قدرًا.

ولما كان من أفضل الجهاد قول الحق، مع شدة المعارض ـ مثل أن تتكلم به عند من تخاف سطوته وأذاه ـ كان للرسل صلوات الله عليهم وسلامه من ذلك الحظ الأوفر. وكان لنبينا صلوات الله وسلامه عليه من ذلك أكمل الجهاد وأتمه.

ولما كان جهاد أعداء الله في الخارج فرعًا على جهاد العبد نفسه في ذات الله، كما قال النبي، ﷺ: «**المجاهد من جاهد نفسه في الله، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه**»[2]. كان جهاد النفس مقدمًا على جهاد العدو في الخارج، وأصلاً له. فإنه مالم يجاهد نفسه أولاً، لتفعل ماأمرت به، وتترك مانهيت عنه ويحاربها في الله: لم يمكنه جهاد عدوه في الخارج. فكيف يمكنه جهاد عدوه، والانتصاف منه، وعدوه الذي بين جنبيه قاهر له متسلط عليه، لم يجاهده ولم يحاربه في الله؟ بل لا

---

(١) ١٠٢ زاد جـ٢.

(٢) أخرجه الترمذي من حديث فضالة بن عبيد.

يمكنه الخروج إلى عدوه حتى يجاهد نفسه على الخروج، فهذان عدوان قد امتحن العبد بجهادهما. وبينهما عدو ثالث لا يمكنه جهادهما إلا بجهاده. وهو واقف بينهما، يثبِّط العبد عن جهادهما، ويخذِّله ويرجف به، ولا يزال يخيل له ما في جهادهما من المشاق وترك الحظوظ، وفوت اللذات والمشتهيات، ولا يمكنه أن يجاهد ذينك العدوين إلا بجهاده. فكان جهاده هو الأصل لجهادهما، وهو الشيطان. قال تعالى: ﴿إنَّ الشيطان لكم عدوٌّ فاتَّخِذوه عدوًّا﴾. والأمر باتخاذه عدوًّا تنبيه على استفراغ الوسع في محاربته ومجاهدته، فإنه عدو لا يفتر، ولا يقصر عن محاربة العبد على عدد الأنفاس.

فهذه ثلاثة أعداء، أمر العبد بمحاربتها وجهادها. وقد بلي العبد بمحاربتها في هذه الدار، وسلِّطت عليه امتحانًا من الله له وابتلاء. فأعطى الله العبد مددًا وعدَّة، وأعوانًا وسلاحًا لهذا الجهاد. وأعطى أعداءه مددًا وعدة وأعوانًا وسلاحًا، وبلى أحد الفريقين بالآخر، وجعل بعضهم لبعض فتنة، ليبلو أخبارهم، ويمتحن من يتولاه ويتولى رسله ممن يتولى الشيطان وحزبه، كما قال تعالى: ﴿وجَعَلنا بعضَكُم لبعضٍ فِتنة أتَصْبِرُون وكَانَ ربُّك بصيرًا﴾. [الفرقان: ٢٠]. وقال تعالى: ﴿ذلِكَ ولوْ يَشاءُ الله لانْتَصَرَ مِنهم ولكن ليَبْلُوَ بعضَكُمْ بِبَعضٍ﴾. [محمد: ٤]. وقال تعالى: ﴿ولَنَبْلُوَنَّكم حتَّى نَعْلَم المُجَاهِدينَ مِنكُمْ والصَّابرِينَ ونَبْلُوَ أخْبارَكُم﴾. [محمد: ٣١]. فأعطى عباده الأسماع والأبصار، والعقول والقوى، وأنزل عليهم كتبه، وأرسل إليهم رسله، وأمدَّهم بملائكته وقال لهم: ﴿أنِّي معكُمْ فثَبِّتُوا الذينَ آمَنُوا﴾. [الأنفال: ١٢]. وأمرهم من أمره بما هو من أعظم العون لهم على حرب عدوهم. وأخبرهم: أنهم إن امتثلوا ما أمرهم به: لم يزالوا منصورين على عدوه وعدوهم، وأنه إن سلَّطه عليهم فلتركهم بعض ما أُمروا به ولمعصيتهم له. ثم لم يؤيسهم ولم يقنطهم، بل أمرهم أن يستقبلوا أمرهم، ويداووا جراحهم، ويعودوا إلى مناهضة عدوهم، فينصرهم عليه، ويظفرهم به فأخبرهم أنه ﴿مَعَ المُتَّقينَ﴾. [البقرة: ١٩٤]. و﴿مَعَ الذينَ اتَّقَوا والذينَ هُمْ مُحسِنُونَ﴾. [النحل: ١٢٨]. و﴿مَعَ الصابرِينَ﴾. [البقرة: ١٥٣]. و﴿مَعَ المُؤمِنينَ﴾. [الأنفال: ١٩]. وأنه يدافع عن عباده المؤمنين، ما لا يدافعون عن أنفسهم، بل

بدفاعه عنهم انتصروا على عدوهم، ولولا دفاعه عنهم لتخطَّفهم عدوهم واجتاحهم. وهذه المدافعة عنهم بحسب إيمانهم وعلى قدره. فإن قوى الإيمان قويت المدافعة. فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه(١).

(٢)**الوجه** الخمسون ما رواه الترمذي من حديث أبي جعفر الرازي عن الربيع بن أنس قال: قال رسول الله، ﷺ: «**من خرج في طلب العلم فهو في سبيل الله حتى يرجع**». قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب رواه بعضهم فلم يرفعه.

وإنما جعل طلب العلم من سبيل الله لأن به قوام الإسلام، كما أن قوامه بالجهاد، فقوام الدين بالعلم والجهاد، ولهذا كان الجهاد نوعين: جهاد باليد والسنان، وهذا المشارك فيه كثير. والثاني: الجهاد بالحجة والبيان، وهذا جهاد الخاصة من أتباع الرسل، وهو جهاد الأئمة، وهو أفضل الجهادين؛ لعظم منفعته وشدة مؤنته وكثرة أعدائه.

قال تعالى في سورة الفرقان وهي مكية: ﴿**ولو شِئنَا لبعَثْنَا في كُلِّ قَريةٍ نَذيرًا. فلاَ تُطِعِ الكَافِرينَ وجَاهِدْهُم بهِ جِهَادًا كبيرًا**﴾. [الفرقان: ٥١-٥٢]. فهذا جهاد لهم بالقرآن، وهو أكبر الجهادين، وهو جهاد المنافقين أيضًا، فإن المنافقين لم يكونوا يقاتلون المسلمين بل كانوا معهم في الظاهر، وربما كانوا يقاتلون عدوهم معهم، ومع هذا فقد قال تعالى: ﴿**يا أيُّهَا النَّبيُّ جَاهِدِ الكُفَّارَ والمُنَافِقينَ واغْلُظْ عليهِمْ**﴾. [التوبة: ٧٣]. ومعلوم أن جهاد المنافقين بالحجة والقرآن.

والمقصود أن سبيل الله هي الجهاد وطلب العلم ودعوة الخلق به إلى الله. ولهذا قال معاذ رضي الله عنه: عليكم بطلب العلم فإن تعلمه لله خشية، ومدارسته عبادة، ومذاكرته تسبيح، والبحث عنه جهاد.

ولهذا قرن سبحانه بين الكتاب المنزل والحديد الناصر. كما قال تعالى: ﴿**لقَدْ أَرْسَلنَا رُسُلنا بالبَيِّناتِ وأنْزَلنا مَعَهُمُ الكِتابَ والمِيزانَ ليقُومَ النَّاسُ بالقِسْطِ وأنزَلنَا الحديدَ فيه بأسٌ شديدٌ ومَنَافعُ للنَّاسِ وليعْلَمَ اللهُ مَنْ يَنصُرُهُ ورُسُلَهُ بالغَيْبِ إنَّ اللهَ قويٌّ عَزيزٌ**﴾. [الحديد: ٢٥].

فذكر الكتاب والحديد إذ بهما قوام الدين كما قيل:

---

(١) ذكر هنا بحثًا ممتعًا فمن أراده فليرجع إليه. (ج).

(٢) ٧٠ مفتاح جـ١.

فما هو إلا الـوحي أو حَدٌّ مرهف　　تميـل ظبـاه أخدعًـا كل مايـل
فهـذا شفـاء الداء من كل عاقل　　وهـذا دواء الـداء من كل جاهل

ولما كان كل من الجهاد بالسيف والحجة يسمى سبيل الله فسر الصحابة رضي الله عنهم قول الله تعالى: ﴿أطيعُوا الله وأَطِيعُوا الرَّسُولَ وأُولي الأَمْرِ منكُم﴾ [النساء: ٥٩]. بالأمراء والعلماء، فإنهم المجاهدون في سبيل الله، هؤلاء بأيديهم، وهؤلاء بألسنتهم، فطلب العلم من أعظم سبيل الله عز وجل.

(١)**قـوله** تعالى: ﴿وكانَ الكَافِرُ على ربِّهِ ظَهِيراً﴾. [الفرقان: ٥٥]. هذا من ألـطف خطاب القرآن وأشرف معانيه، وأن المؤمن دائمًا مع الله على نفسه وهواه وشيطانه وعدو ربه؛ وهذا معنى كونه من حزب الله وجنده وأوليائه، فهو مع الله على عدوه الداخل فيه والخارج عنه، يحاربهم ويعاديهم ويغضبهم له سبحانه، كما يكون خواص الملك معه على حرب أعدائه، والبعيدون منه فارغون من ذلك غير مهتمين به، والكافر مع شيطانه ونفسه وهواه على ربه. وعبارات السلف على هذا تدور.

ذكر ابن أبي حاتم، عن عطاء بن دينار، عن سعيد بن جبير، قال: عونًا للشيطان على ربه بالعداوة والشرك.

وقال ليث، عن مجاهد، قال: يظاهر الشيطان على معصية الله، يعينه عليها.

وقـال زيد بن أسلم: ظهـيراً، أي: مواليًا، والمعنى أنه يوالي عدوه على معصيته والشرك به، فيكون مع عدوه معينًا له على مساخط ربه.

فالمعية الخاصة التي للمؤمن مع ربه وإلـهه، قد صارت لهذا الكافر والفاجر مع الشيطان ومع نفسه وهواه وقرنائه، ولهذا صدر الآية بقوله: ﴿ويَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ الله ما لا يَنْفَعُهُمْ ولا يَضرُّهم﴾. [الفرقـان: ٥٥]. وهـذه العبادة هي الموالاة والمحبـة والرضا بمعبوديهم، المتضمنة لمعيتهم الخاصة، فظاهروا أعداء الله على معاداته ومخالفته ومساخطه، بخلاف وليه سبحانه، فإنه معه على نفسه وشيطانه وهواه. وهذا المعنى من كنوز القرآن، لمن فهمه وعقله، وبالله التوفيق.

(٢)**وقال** تعالى: ﴿تَبَارَكَ الذي جَعَلَ في السَّماءِ بُرُوجًا وجَعَلَ فيهَا سِرَاجًا وقَمَـرًا مُنـيراً وهُـوَ الـذي جَعَـل الليـلَ والنَّهار خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ

(١) ٧٨ فوائد.　　(٢) ٢٠٨ مفتاح جـ١.

شُكُورًا﴾. [الفرقان: ٦١، ٦٢]. **فذكر** تعالى خلق الليل والنهار وأنهما خلفة، أي يخلف أحدهما الآخر لا يجتمع معه، ولو اجتمع معه لفاتت المصلحة بتعاقبهما واختلافهما.

وهذا هو المراد باختلاف الليل والنهار كون كل واحد منهما يخلف الآخر، لا يجامعه، ولا يحاذيه، بل يغشى أحدهما صاحبه فيطلبه حثيثًا حتى يزيله عن سلطانه، ثم يجيء الآخر عقيبه فيطلبه حثيثًا حتى يهزمه ويزيله عن سلطانه، فهما دائمًا يتطالبان ولا يدرك أحدهما صاحبه.

(١)**قال** تعالى: **﴿وهُوَ الذي جَعَلَ الليلَ والنَّهارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرادَ أنْ يذَّكَّرَ أَوْ أرادَ شُكُورًا﴾**. قال ابن عباس والحسن وقتادة: عوضًا وخلفًا، يقوم أحدهما مقام صاحبه، فمن فاته عمل في أحدهما قضاه في الآخر. وقال قتادة: فأدوا لله من أعمالكم خيرًا في هذا الليل والنهار، فإنهما مطيتان يقحمان الناس إلى آجالهم، ويقربان كل بعيد، ويبليان كل جديد، ويجيئان بكل موعود إلى يوم القيامة.

وقال شقيق: جاء رجل إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال: فاتتني الصلاة الليلة، فقال «أدرك ما فاتك من ليلتك في نهارك، فإن الله عز وجل جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكَّر أو أراد شكورًا».

(٢)**وأما** الخطوات فحفظها بأن لا ينقل قدمه إلا فيما يرجو ثوابه عند الله تعالى، فإن لم يكن في خطاه مزيد ثواب فالقعود عنه خير له، ويمكنه أن يستخرج من كل مباح يخطو إليه قربة يتقرب بها وينويها لله، فتقع خطاه قربة، وتنقلب عادته عبادة ومباحاته طاعات.

ولما كانت العثرة عثرتين: عثرة الرجل، وعثرة اللسان جاءت إحداهما قرينة الأخرى في قوله تعالى: **﴿وعِبَادُ الرَّحمنِ الذينَ يَمْشُونَ على الأَرْضِ هَوْنًا وإذا خاطَبَهُمُ الجَاهِلونَ قالُوا سَلامًا﴾**. [الفرقان: ٦٣].

فوصفهم بالاستقامة في لفظاتهم وخطواتهم، كما جمع بين اللحظات والخطرات في قوله تعالى: **﴿يَعلمُ خائِنَةَ الأَعْيُنِ وما تُخْفِي الصُّدور﴾**. [غافر: ١٩].

---

(١) ١٩٤ زاد جـ١.		(٢) ٢١٧ الجواب.

[(١)] **قال** الله تعالى: ﴿وعِبَادُ الرَّحمنِ الذينَ يَمْشُونَ على الأَرْضِ هَوْنًا﴾.
أي سكينة ووقارًا متواضعين، غير أشرين، ولا مرحين، ولا متكبرين. قال الحسن: علماء حلماء. وقال محمد بن الحنفية: أصحاب وقار وعفة لا يسفهون. وإن سُفه عليهم حلموا.

و«**الهون**» بالفتح في اللغة: الرفق واللين. و«الهون» بالضم: الهوان. فالمفتوح منه: صفة أهل الإيمان. والمضموم: صفة أهل الكفران. وجزاؤهم من الله النيران.

[(٢)] فصل في هديه ﷺ في مشيه وحده، ومع أصحابه

كان إذا مشى تكفَّأ تكفؤًا. وكان أسرع الناس مِشية، وأحسنها وأسكنها، قال أبو هريرة: «ما رأيت شيئًا أحسن من رسول الله، ﷺ، كأن الشمس تجري في وجهه، وما رأيت أحدًا أسرع في مشيته من رسول الله، ﷺ، كأنما الأرض تطوى له، وإنا لنجهد أنفسنا، وإنه لغير مكترث». وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «كان رسول الله، ﷺ، إذا مشى تكفَّأ تكفؤًا، كأنما ينحَط من صبب». وقال مرة: «إذا مشى تقلَّع».

قلت: والتقلع: الارتفاع من الأرض بجملته، كحال المنحط من الصبب. وهي مشية أولي العزم والهمة والشجاعة، وهي أعدل المشيات وأروحها للأعضاء، وأبعدها من مشية الهرج والمهانة والتماوت، فإن الماشي إما أن يتماوت في مشيه، ويمشي قطعة واحدة، كأنه خشبة محمولة، وهي مشية مذمومة قبيحة، وإما أن يمشي بانزعاج واضطراب مشي الجمل الأهوج، وهي مشية مذمومة أيضًا، وهي دالة على خفة عقل صاحبها، ولا سيما إن كان يكثر الالتفات حال مشيه يمينًا وشمالًا، وإما أن يمشي هَوْنًا وهي مشية عباد الرحمن، كما وصفهم بها في كتابه فقال: ﴿وعِبَادُ الرَّحمنِ الذينَ يَمْشُونَ على الأَرْضِ هَوْنًا﴾. [الفرقان: ٦٣].

قال غير واحد من السلف: بسكينة ووقار، من غير تكبر ولا تماوت، وهي مشية رسول الله، ﷺ، فإنه مع هذه المشية كان كأنما ينحط من صبب، وكأنما

---

(١) ٣٢٧ مدارج جـ٢.		(٢) ٨٧ زاد جـ١.

الأرض تطوى له حتى كان الماشي معه يجهد نفسه ورسول الله، ﷺ، غير مكترث.

وهذا يدل على أمرين: أن مشيته لم تكن مشية بتماوت، ولا بمهانة، بل مشية أعدل المشيات.

والمشيات عشرة أنواع، هذه الثلاثة منها. والرابع: السعي. والخامس: الرمل، وهو أسرع المشي مع تقارب الخطى، ويسمى الخبب.

وفي الصحيح من حديث ابن عمر «أن النبي، ﷺ، خبَّ في طوافه ثلاثًا، ومشى أربعًا».

والسادس: النَّسلان، وهو العَدْو الخفيف الذي لا يزعج الماشي ويُكربه. وفي بعض المسانيد «أن المشاة شكوا إلى رسول الله، ﷺ، من المشي في حجة الوداع، فقال: «**استعينوا بالنسلان**».

والسابع: الخَوْزَلى، وهي مشية التمايل، وهي مشية يقال: إن فيها تكسرًا وتخنثًا.

والثامن: القهقرى، وهي المشية إلى وراء.

والتاسع: الجَمزى، وهي مشية يثب فيها الماشي وثبًا.

والعاشر: مشية التبختر، وهي مشية أولي العجب والتكبر، وهي التي خسف الله سبحانه بصاحبها لما نظر في عطفيه، وأعجبته نفسه، فهو يتجلجل في الأرض إلى يوم القيامة، وأعدل هذه المشيات: مشية الهون والتكفؤ.

وأما مشيه، ﷺ، مع أصحابه: فكانوا يمشون بين يديه وهو خلفهم ويقول «**دعوا ظهري للملائكة**» ولهذا جاء في الحديث «**وكان يسوق أصحابه**» وكان يمشي حافيًا ومنتعلًا. وكان يماشي أصحابه فُرادى وجماعة. ومشى في بعض غزواته مرة فانقطعت إصبعه وسال منها الدم فقال:

هل أنت إلا أصبع دميت　　وفي سبيل الله ما لقيت

وكان في السفر ساقة أصحابه: يزجي الضعيف ويردفه، ويدعو لهم. ذكره أبو داود.

فصل[١]

وأما السؤال العاشر: وهو السر في نصب سلام ضيف إبراهيم الملائكة ورفع سلامه: فالجواب أنك قد عرفت قول النحاة فيه أن سلام الملائكة تضمن

(١) ١٥٨ بدائع جـ٢.

جملة فعلية لأن نصب السلام يدل على سلمنا عليك سلامًا. وسلام إبراهيم تضمن جملة اسمية لأن رفعه يدل على أن المعنى سلام عليكم، والجملة الاسمية تدل على الثبوت والتقرر، والفعلية تدل على الحدوث والتجدد، فكان سلامه عليهم أكمل من سلامهم عليه، وكان له من مقامات الرد ما يليق بمنصبه، ﷺ، وهو مقام الفضل إذ حياهم بأحسن من تحيتهم، هذا تقرير ما قالوه.

وعندي فيه جواب أحسن من هذا وهو أنه لم يقصد حكاية سلام الملائكة فنصب قوله سلامًا انتصاب مفعول القول المفرد، كأنه قيل: قالوا قولاً سلامًا وقالوا سدادًا وصوابًا ونحو ذلك، فإن القول إنما تحكي به الجمل، وأما المفرد فلا يكون محكيًا به بل منصوب به انتصاب المفعول به، ومن هذا قوله تعالى: ﴿**وإذا خاطَبَهم الجَاهِلُونَ قَالُوا سلامًا**﴾. [الفرقان: ٦٣]. ليس المراد أنهم قالوا هذا اللفظ المفرد المنصوب، وإنما معناه قالوا قولاً سلامًا، مثل: سدادًا وصوابًا. وسمي القول سلامًا لأنه يؤدي معنى السلام ويتضمنه من رفع الوحشة وحصول الاستيناس. وحكي عن إبراهيم لفظ سلامه، فأتى به على لفظه مرفوعًا بالابتداء محكيًا بالقول، ولولا قصد الحكاية لقال سلامًا بالنصب؛ لأن ما بعد القول إذا كان مرفوعًا فعلى الحكاية ليس إلا. فحصل من الفرق بين الكلامين في حكاية سلام إبراهيم ورفعه ونصب ذلك إشارة إلى معنى لطيف جدًا وهو أن قوله سلام عليكم من دين الإسلام المتلقى عن إمام الحنفاء وأبي الأنبياء، وأنه من ملة إبراهيم التي أمر الله بها وباتباعها. فحكى لنا قوله ليحصل الاقتداء به والاتباع له، ولم يحك قول أضيافه وإنما أخبر به على الجملة دون التفصيل. والله أعلم. فزن هذا الجواب والذي قبله بميزان غير جائر يظهر لك أقواهما وبالله التوفيق.

فصل

وأما السؤال الحادي عشر وهو نصب السلام من قوله تعالى: ﴿**وإذَا خَاطَبَهُمُ الجَاهِلونَ قالُوا سَلامًا**﴾. ورفعه في قوله حكاية عن مؤمني أهل الكتاب ﴿**سَلامٌ عليكُمْ لا نَبْتَغِي الجَاهِلِينَ**﴾. [القصص: ٥٥]. فالجواب عنه أن الله سبحانه مدح عباده الذين ذكرهم في هذه الآيات بأحسن أوصافهم وأعمالهم فقال: ﴿**وعِبادُ الرَّحمن الذيْنَ يَمْشُونَ على الأَرْضِ هَوْنًا وإذَا خَاطَبَهُمُ الجَاهِلونَ قَالُوا**

سَلَامًا﴾. فسلاَماً هنا صفة لمصدر محذوف هو القول نفسه، أي قالوا قولاً سلامًا، أي سدادًا وصوابًا وسليمًا من الفحش والخنا، ليس مثل قول الجاهلين الذين يخاطبونهم بالجهل. فلو رفع السلام هنا لم يكن فيه المدح المذكور، بل كان يتضمن أنهم إذا خاطبهم الجاهلون سلموا عليهم. وليس هذا معنى الآية، ولا مدح فيه، وإنما المدح في الإخبار عنهم بأنهم لا يقابلون الجهل بجهل مثله، بل يقابلونه بالقول السلام، فهو من باب دفع السيئة بالتي هي أحسن التي لا يلقاها إلا ذو حظ عظيم. وتفسير السلف وألفاظهم صريحة بهذا المعنى.

وتأمل كيف جمعت الآية وصفهم في حركتي الأرجل والألسن بأحسنها وألطفها، وأحكمها وأوقرها فقال: **﴿الذين يمشون على الأرض هونًا﴾** أي بسكينة ووقار. والهون بفتح الهاء من الشيء الهين، وهو مصدر هان هونًا أي سهل، ومنه قولهم: يمشي على هينته ولا أحسبها إلا مولدة، ومع هذا فهي قياس اللفظة فإنها على بناء الحالة والهيئة، فهي فعلة من الهون، وأصلها هونة فقلبت واوها ياء لانكسار ما قبلها فاللفظة صحيحة المادة والتصريف.

وأما الهون بالضم فهو الهوان، فأعطوا حركة الضم القوية للمعنى الشديد وهو الهوان، وأعطوا حركة الفتح السهلة للمعنى السهل وهو الهون. فوصف مشيهم بأنه مشي حلم ووقار وسكينة لا مشي جهل وعنف وتبختر، ووصف نطقهم بأنه سلام فهو نطق حلم وسكينة ووقار لا نطق جهل وفحش وخناء وغلظة، فلهذا جمع بين المشي والنطق في الآية، فلا يليق بهذا المعنى الشريف العظيم الخطير أن يكون المراد منه سلام عليكم فتأمله.

وأما قوله تعالى: **﴿وإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنا أَعْمالُنَا ولَكُمْ أَعْمالُكُم سَلاَمٌ عليكُمْ لا نَبْتَغِي الجَاهِلِينَ﴾**. [القصص: ٥٥]. فإنها وصف لطائفة من مؤمني أهل الكتاب قدموا على رسول الله، ﷺ، مكة فآمنوا به، فعيرهم المشركون وقالوا: قبحتم من وفد، بعثكم قومكم لتعلموا خبر الرجل ففارقتم دينكم وتبعتموه ورغبتم عن دين قومكم، فأخبر عنهم بأنهم خاطبوهم خطاب متاركة وإعراض وهجر جميل، فقالوا: لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين. وكان رفع السلام متعينًا لأنه حكاية ما وقع، ونصب السلام في آية الفرقان متعينًا

لأنه تعليم وإرشاد لما هو الأكمل والأولى للمؤمن أن يعتمده إذا خاطبه الجاهل. فتأمل هذه الأسرار التي أدناها يساوي رحلة. والله المحمود وحده على مامن به وأنعم.

وهي المــواهب من رب العباد فما يقــال لولا ولا هلا ولا فلما

[(١)]**قال** في الصحاح والغرام الوَلوع، وقد أغرم بالشيء أي أُولع به، والغريم الذي عليه الدين، يقال: خذ من غريم السوء ما سنح، ويكون الغريم أيضًا الذي له الدين. قال كُثيِّر عزَّة:

قضى كل ذي دينٍ فوفّى غريمـه وعــزَّةُ ممطولٌ مُعنًّـى غريمهـا

ومن المادة قوله تعالى في جهنم: ﴿إِنَّ عذابَهَا كانَ غَرَامًا﴾. [الفرقان: ٦٥].
والغرام الشر الدائم اللازم والعذاب. قال بشر:

ويــوم الـنِسّــار ويــوم الجِفــا رِكــانــا عذابًــا وكــانــا غرامـا

وقال الأعشى:

إن يعــاقِــبْ يكــن غرامًــا يُعـ طِ جزيــلاً فإنــه لا يبــالي

وقال أبوعبيدة: ﴿إِنَّ عَذابَهَا كانَ غرامًا﴾. كان هلاكًا ولزامًا لهم. وللطف المحبة عندهم واستعذابهم لها لم يكادوا يطلقون عليها لفظ الغرام، وإن لهج به المتأخرون.

[(٢)]**ومنه** سمي عذاب النار غرامًا للزومه لأهله. وعدم مفارقته لهم، قال تعالى: ﴿إِنَّ عذابَهَا كانَ غَرامًا﴾.

[(٣)]**وقوله**: ﴿والذينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا ولَمْ يَقْتُرُوا وكَانَ بَيْنَ ذَلكَ قَوامًا﴾ [الفرقان: ٦٧]. وقوله: ﴿وكُلُوا واشْرَبُوا ولَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾. [الأعراف: ٣١]. فدين الله بين الغالي فيه والجافي عنه. وخير الناس النَّمط الأوسط، الـذين ارتفعـوا عن تقصـير المفرطين، ولم يلحقوا بغلوّ المعتدين. وقد جعل الله سبحانه هذه الأمة وسطًا، وهي الخيار العدل، لتوسطها بين الطرفين المذمومين، والعدل هو الوسط بين طرفي الجور والتفريط. والآفات إنما تتطرق إلى الأطراف، والأوساط محمية بأطرافها. فخيار الأمور أوساطها. قال الشاعر:

كانت هي الـوسط المحميّ فاكتنفَتْ بها الحــوادثُ حتى أصبحت طرفًــا

---

(١) ٥٧ روضة. (٢) ٢٨ مدارج جـ٣. (٣) ١٨٢ إغاثة جـ١.

فصل (١)

وأما الفرق بين الاقتصاد والشح أن الاقتصاد خلق محمود يتولد من خلقين عدل وحكمة، فبالعدل يعتدل في المنع والبذل، وبالحكمة يضع كل واحد منهما موضعه الذي يليق به، فيتولد من بينهما الاقتصاد، وهو وسط بين طرفين مذمومين كما قال تعالى: ﴿ولا تَجْعَل يَدَكَ مَغْلُولَةً إلى عُنُقِك ولا تَبْسُطْهَا كلَّ البَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا﴾. [الإسراء: ٢٩]. وقال تعالى: ﴿والذينَ إذا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا ولَمْ يَقْتُرُوا وكَانَ بَيْنَ ذلك قَوَامًا﴾. وقال تعالى: ﴿وكُلُوا واشْرَبُوا ولاَ تُسْرِفُوا﴾. [الأعراف: ٣١].

وأما الشح فهو خلق ذميم يتولد من سوء الظن وضعف النفس، ويمده وعد الشيطان حتى يصير هلعًا، والهلع شدة الحرص على الشيء والشره به، فيتولد عنه المنع لبذله، والجزع لفقده كما قال تعالى: ﴿إنَّ الإنسانَ خُلِقَ هَلُوعًا. إذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا. وإذَا مَسَّهُ الخيرُ مَنُوعًا﴾. [المعارج ١٩ - ٢١].

فصل (٢)

والفرق بين الاقتصاد والتقصير أن الاقتصاد هو التوسط بين طرفي الإفراط والتفريط، وله طرفان هما ضدان له: تقصير ومجاوزة. فالمقتصد قد أخذ بالوسط وعدل عن الطرفين. قال تعالى: ﴿والذينَ إذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسرفُوا ولَمْ يَقْتُرُوا وكَانَ بينَ ذلكَ قَوَامًا﴾. وقال تعالى: ﴿ولا تجعَلْ يَدَكَ مَغلُولَةً إلى عُنُقِكَ ولا تَبْسُطْهَا كُلَّ البَسْطِ﴾. وقال تعالى: ﴿وكُلُوا واشْرَبُوا ولا تُسْرِفُوا﴾.

والدين كله بين هذين الطرفين، بل الإسلام قصد بين الملل، والسنة قصد بين البدع، ودين الله بين الغالي فيه والجافي عنه، وكذلك الاجتهاد هو بذل الجهد في موافقة الأمر، والغلو مجاوزته وتعديه.

وما أمر الله بأمر إلا وللشيطان فيه نزغتان، فإما إلى غلو ومجاوزة، وإما إلى تفريط وتقصير. وهما آفتان لا يخلص منهما في الاعتقاد والقصد والعمل إلا من مشى خلف رسول الله، ﷺ، وترك أقوال الناس وآراءهم لما جاء به، لا من ترك ما جاء

---

(١) ٢٨٩ الروح.

(٢) ٣١٣ الروح.

به لأقوالهم وآرائهم.

وهذان المرضان الخطران قد استوليا على أكثر بني آدم، ولهذا حذر السلف منهما أشد التحذير، وخوفوا من بُلي بأحدهما بالهلاك. وقد يجتمعان في الشخص الواحد كما هو حال أكثر الخلق، يكون مقصرًا مفرطًا في بعض دينه غاليًا متجاوزًا في بعضه. والمهدي من هداه الله.

(١)**أصول** المعاصي كلها كبارها وصغارها ثلاثة: تعليق القلب بغير الله، وطاعة القوة الغضبية، والقوة الشهوانية؛ وهي: الشرك، والظلم، والفواحش.

فغاية التعلق بغير الله شرك، وأن يدعي معه إلـه آخر.

وغاية طاعة القوة الغضبية القتل، وغاية طاعة القوة الشهوانية الزنا.

ولهذا جمع الله سبحانه بين الثلاثة في قوله: ﴿**والذينَ لا يَدْعُونَ مَعَ الله إلـهًا آخَرَ ولا يَقتُلونَ النَّفْسَ التي حرَّم الله إلَّا بالحقِّ ولا يَزْنُونَ**﴾. [الفرقان: ٦٨].

وهـذه الثـلاثـة يدعـو بعضهـا إلى بعض، فالشرك يدعـو إلى الـظلم والفـواحش، كما أن الإخـلاص والتـوحيد يصرفهـما عن صاحبـه. قال تعالى: ﴿**كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ والفَحْشَاءَ إنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِين**﴾. [يوسف: ٢٤]. فالسوء: العشق، والفحشاء: الزنا.

وكذلك الظلم يدعو إلى الشرك والفاحشة، فإن الشرك أظلم الظلم، كما أن أعدل العدل التوحيد؛ فالعدل قرين التوحيد، والظلم قرين الشرك، ولهذا يجمع سبحانه بينهما.

أما الأول ففي قوله: ﴿**شَهِدَ الله أنَّه لا إلـه إلَّا هُوَ والمَلائِكَةُ وأُولو العِلْمِ قَائِـمًا بالقِسْطِ**﴾. [آل عمران: ١٨]. وأمـا الثاني فكقوله تعالى: ﴿**إنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ**﴾. لقمان: ١٣]. والفاحشة تدعو إلى الشرك، والظلم - ولا سيما - إذا قويت إرادتها، ولم تحصل إلا بنوع من الظلم، والاستعانة بالسحر والشيطان. , وقد جمع سبحانه بين الزنا والشرك في قوله: ﴿**الزَّاني لا يَنْكِحُ إلَّا زَانيةً أَوْ مُشْرِكَةً والزَّانيةُ لا يَنْكِحُها إلَّا زَانٍ أَوْ مُشرِكٌ وحُرِّمَ ذلكَ علَى المُؤمِنين**﴾. [النور: ٣]. فهذه الثلاثة يجر

---

(١) ٨٠ فوائد.

بعضها إلى بعض، ويأمر بعضها ببعض، ولهذا كلما كان القلب أضعف توحيدًا، وأعظم شركًا، كان أكثر فاحشة، وأعظم تعلقًا بالصور وعشقًا لها[1].

[2] وروي في الصحيح عنه، ﷺ: «**اجتنبوا السبع الموبقات** قالوا: وما هي يا رسول الله؟ قال: **الإشراك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل مال اليتيم، وأكل الربا، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات**». وفي الصحيح عنه، ﷺ، أنه سئل: أي الذنب أكبر عند الله؟ قال: «**أن تجعل لله ندًا وهو خلقك** قيل: ثم أي؟ قال: **أن تقتل ولدك مخافة أن يُطعم معك** قيل: ثم أي؟ قال: **أن تزني بحليلة جارك**» فأنزل الله تعالى تصديقها ﴿**والذينَ لا يَدْعُونَ مَعَ الله إلـهًا آخَرَ ولاَ يَقْتُلُونَ النَّفْسَ التي حَرَّمَ الله إلَّا بالحَقِّ ولا يَزْنُونَ**﴾ الآية [الفرقان: ٦٨]. واختلف الناس في الكبائر، هل لها عدد يحصرها؟ على قولين. ثم الذين قالوا بحصرها اختلفوا في عددها فقال عبدالله بن مسعود: هي أربعة. وقال عبدالله بن عمر: هي سبعة. وقال عبدالله بن عمرو بن العاص: هي تسعة. وقال غيره: هي إحدى عشرة. وقال آخر: هي سبعون.

وقال أبو طالب المكي: جمعتها من أقوال الصحابة فوجدتها أربعة في القلب: وهي الشرك بالله، والإصرار على المعصية، والقنوط من رحمة الله، والأمن من مكر الله. وأربعة في اللسان: وهي شهادة الزور، وقذف المحصنات، واليمين الغموس، والسحر. وثلاثة في البطن: شرب الخمر، وأكل مال اليتيم، وأكل الربا. واثنتان في الفرج: وهما الزنا، واللواطة. واثنتان في اليدين وهما: القتل، والسرقة. وواحدة في الرجلين: وهي الفرار من الزحف. وواحدة تتعلق بجميع الجسد: وهي عقوق الوالدين. والذين لم يحصروها بعدد منهم من قال: كل ما نهى الله عنه في القرآن فهو كبيرة، وما نهى عنه الرسول، ﷺ، فهو صغيرة. وقالت طائفة: ما اقترن بالنهي عنه وعيد من لعن أو غضب أو عقوبة فهو كبيرة. وما لم يقرن به من ذلك شيء فهو صغيرة.

وقيل: كل ما رتب عليه حد في الدنيا أو وعيد في الآخرة فهو كبيرة، وما لم

---

(١) تكملة البحث في سورة الشورى. (ج).　　(٢) ١٦٨ الجواب.

يرتب عليه لا هذا ولا هذا فهو صغيرة.

وقيل: كل ما اتفقت الشرائع على تحريمه فهو من الكبائر، وما كان تحريمه في شريعة دون شريعة فهو صغيرة.

وقيل: كل ما لعن الله أو رسوله فاعله فهو كبيرة.

وقيل: كل ما ذكر من أول سورة النساء إلى قوله: ﴿**إِنْ تَجْتَنِبوا كَبَائِرَ ما تُنْهَوْنَ عنْهُ نُكَفِّرْ عنكُمْ سيِّئَاتِكم**﴾. [النساء: ٣١].

والذين لم يقسموها إلى كبائر وصغائر قالوا: الذنوب كلها بالنسبة إلى الجراءة على الله سبحانه معصية ومخالفة أمره كبائر، فانظر إلى من عصي أمره وانتهكت محارمه فوجب أن تكون الذنوب كلها كبائر وهي مستوية في هذه المفسدة.

قالوا: ويوضح هذا أن الله سبحانه لا تضره الذنوب ولا يتأثر بها فلا يكون بعضها بالنسبة إليه أكبر من بعض، فلم يبق إلا مجرد معصيته ومخالفته. ولا فرق في ذلك بين ذنب وذنب.

قالوا: ويدل عليه أن مفسدة الذنب تابعة للجراءة والتوثب على حق الرب تبارك وتعالى، ولهذا لو شرب رجل خمرًا أو وطىء فرجًا حرامًا وهو لا يعتقد تحريمه لكان قد جمع بين الجهل وبين مفسدة ارتكاب الحرام. ولو فعل ذلك من يعتقد تحريمه لكان أتى بإحدى المفسدتين. وهو الذي يستحق العقوبة دون الأول. فدل على أن مفسدة الذنب تابعة للجراءة والتوثب.

قالوا: ويدل على هذا أن المعصية تتضمن الاستهانة بأمره المطاع ونهيه وانتهاك حرمته. وهذا لا فرق فيه بين ذنب وذنب. . .

(١)**وفي** جامع الترمذي عن نافع قال: نظر عبدالله بن عمر يومًا إلى الكعبة فقال: ما أعظمك وأعظم حرمتك، والمؤمن عند الله أعظم حرمة منك. قال الترمذي هذا حديث حسن.

وفي صحيح البخاري أيضًا عن ابن عمر قال: قال رسول الله، ﷺ: «**لا يزال المؤمن في فسحة من دينه ما لم يصب دمًا حرامًا**».

---

(١) ٢٠١ الجواب.

وذكر البخاري أيضًا عن عمر قال: «من ورطات الأمور التي لا مخرج لمن أوقع نفسه فيها سفك الدم الحرام بغير حله».

وفي الصحيحين عن أبي هريرة يرفعه: «**سباب المؤمن فسوق وقتاله كفر**».

وفيهما أيضًا عنه، ﷺ: «**لا ترجعوا بعدي كفارًا يضرب بعضكم رقاب بعض**». وفي صحيح البخاري عنه، ﷺ: «**من قتل معاهدًا لم يرح رائحة الجنة، وإن ريحها يوجد من مسيرة أربعين عامًا**». هذه عقوبة قاتل عدو الله إذا كان معاهدًا في عهده وأمانه، فكيف بعقوبة قاتل عبده المؤمن؟ وإذا كانت امرأة قد دخلت النار في هرة حبستها حتى ماتت جوعًا وعطشًا فرآها النبي، ﷺ، في النار والهرة تخدشها في وجهها وصدرها، فكيف عقوبة من حبس مؤمنا حتى مات بغير جرم، وفي بعض السنن عنه، ﷺ: «**لزوال الدنيا أهون على الله من قتل مؤمن بغير حق**».

فصل

ولما كانت مفسدة الزنا من أعظم المفاسد وهي منافية لمصلحة نظام العالم في حفظ الأنساب، وحماية الفروج، وصيانة الحرمات، وتوقي ما يوقع أعظم العداوة والبغضاء بين الناس من إفساد كل منهم امرأة صاحبه وبنته وأخته وأمه، وفي ذلك خراب العالم، كانت تلي مفسدة القتل في الكبر. ولهذا قرنها الله سبحانه بها في كتابه ورسوله، ﷺ، في سنته كما تقدم.

قال الإمام أحمد: ولا أعلم بعد قتل النفس شيئًا أعظم من الزنى. وقد أكد سبحانه حرمته بقوله: ﴿**والذينَ لا يَدْعُونَ مَعَ الله إلـهًا آخَرَ ولا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ التي حَرَّمَ الله إلَّا بالحقِّ ولا يَزْنُـونَ**﴾. [الفرقان: ٦٨]. فقرن الزنا بالشرك وقتل النفس، وجعل جزاء ذلك الخلود في النار في العذاب المضاعف المهين، ما لم يرفع العبد موجب ذلك بالتوبة والإيمان والعمل الصالح.

(١)**قوله** تعالى: ﴿**إلَّا مَنْ تَابَ وآمَنَ وعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فأولئِكَ يُبَدِّلُ الله سيِّئاتِهِم حَسَنات وكانَ الله غَفُورًا رَحِيمًا**﴾. [الفرقان: ٧٠]. وهذا من أعظم البشارة للتائبين إذا اقترن بتوبتهم إيمان وعمل صالح. وهو حقيقة التوبة. قال ابن عباس

---

(١) ٣٠١ مدارج جـ١.

رضي الله عنهما: «ما رأيت النبي، ﷺ، فرح بشيء قط فرحه بهذه الآية لما أنزلت. وفرحه بنزول ﴿إِنَّا فتحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا لِيَغْفِرَ لكَ اللهُ ما تَقَدَّمَ منْ ذَنْبِكَ وما تَأَخَّرَ﴾. [الفتح: ١]».

واختلفوا في صفة هذا التبديل، وهل هو في الدنيا، أو في الآخرة؟ على قولين:

فقال ابن عباس وأصحابه: هو تبديلهم بقبائح أعمالهم محاسنها. فبدلهم بالشرك إيمانًا، وبالزنا عفَّة وإحصانًا، وبالكذب صدقًا، وبالخيانة أمانة.

فعلى هذا معنى الآية: أن صفاتهم القبيحة، وأعمالهم السيئة، بُدلوا عوضها صفات جميلة، وأعمالاً صالحة، كما يبدل المريض بالمرض صحة، والمبتلى ببلائه عافية.

وقال سعيد بن المسيب، وغيره من التابعين: هو تبديل الله سيئاتهم التي عملوها بحسنات يوم القيامة، فيعطيهم مكان كل سيئة حسنة.

واحتج أصحاب هذا القول بما روى الترمذي في جامعه: حدثنا الحسين بن حريث قال: حدثنا وكيع قال: حدثنا الأعمش عن المعرور بن سويد عن أبي ذر قال: قال رسول الله، ﷺ: «**إني لأعلم آخر رجل يخرج من النار: يؤتى بالرجل يوم القيامة، فيقال: اعرضوا عليه صغار ذنوبه. ويخبأ عنه كبارها، فيقال: عملت يوم كذا كذا وكذا. وهو مقر لا ينكر، وهو مشفق من كبارها. فيقال: أعطوه مكان كل سيئة عملها حسنة. فيقول: إن لي ذنوبًا ما أراها ههنا**» قال أبو ذر: فلقد رأيت رسول الله، ﷺ، ضحك حتى بدت نواجذه».

فهذا حديث صحيح. ولكن في الاستدلال به على صحة هذا القول نظر. فإن هذا قد عذب بسيئاته ودخل بها النار. ثم بعد ذلك أخرج منها، وأعطي مكان كل سيئة حسنة، صدقة تصدق الله بها عليه ابتداء بعدد ذنوبه. وليس في هذا تبديل تلك الذنوب بحسنات؛ إذ لو كان كذلك لما عوقب عليها كما لم يعاقب التائب. والكلام إنما هو في تائب أثبت له مكان كل سيئة حسنة، فزادت حسناته. فأين في هذا الحديث ما يدل على ذلك؟

والناس استقبلوا هذا الحديث مستدلين به في تفسير هذه الآية على هذا القول، وقد علمت ما فيه. لكن للسلف غور ودقة فهم لا يدركها كثير من المتأخرين.

فالاستدلال به صحيح، بعد تمهيد قاعدة، إذا عُرفت عُرف لطف الاستدلال به ودقته. وهي أن الذنب لابد له من أثر، وأثره يرتفع بالتوبة تارة، وبالحسنات الماحية تارة، وبالمصائب المكفرة تارة، وبدخول النار ليتخلص من أثره تارة. وكذلك إذا اشتد أثره، ولم تقو تلك الأمور على محوه، فلابد إذًا من دخول النار؛ لأن الجنة لا يكون فيها ذرة من الخبيث. ولا يدخلها إلا من طاب من كل وجه. فإذا بقي عليه شيء من خبث الذنوب أدخل كِيْرَ الامتحان، ليخلص ذهب إيمانه من خبثه. فيصلح حينئذ لدار الملك.

إذا علم هذا فزوال موجب الذنب وأثره تارة يكون بالتوبة النصوح، وهي أقوى الأسباب. وتارة يكون باستيفاء الحق منه وتطهيره في النار. فإذا تطهر بالنار، وزال أثر الوسخ والخبث عنه، أعطي مكان كل سيئة حسنة. فإذا تطهر بالتوبة النصوح، وزال عنه بها أثر وسخ الذنوب وخبثها، كان أولى بأن يعطى مكان كل سيئة حسنة؛ لأن إزالة التوبة لهذا الوسخ والخبث أعظم من إزالة النار، وأحب إلى الله، وإزالة النار بدل منها. وهي الأصل. فهي أولى بالتبديل مما بعد الدخول. يوضحه:

الوجه التاسع: وهو أن التائب قد بدَّل كل سيئة بندمه عليها حسنة؛ إذ هو توبة تلك السيئة، والندم توبة. والتوبة من كل ذنب حسنة. فصار كل ذنب عمله زائلاً بالتوبة التي حلت محله وهي حسنة. فصار له مكان كل سيئة حسنة بهذا الاعتبار. فتأمله فإنه من ألطف الوجوه.

وعلى هذا فقد تكون هذه الحسنة مساوية في القدر لتلك السيئة. وقد تكون دونها. وقد تكون فوقها. وهذا بحسب نصح هذه التوبة، وصدق التائب فيها، وما يقترن بها من عمل القلب الذي تزيد مصلحته ونفعه على مفسدة تلك السيئة. وهذا من أسرار مسائل التوبة ولطائفها. يوضحه:

الوجه العاشر: أن ذنب العارف بالله وبأمره قد يترتب عليه حسنات أكبر منه وأكثر، وأعظم نفعًا، وأحب إلى الله من عصمته من ذلك الذنب: من ذل وانكسار وخشية، وإنابة وندم، وتدارك بمراغمة العدو بحسنة أو حسنات أعظم منه، حتى يقول الشيطان: يا ليتني لم أوقعه فيما أوقعته فيه، ويندم الشيطان على

إيقاعه في الذنب، كندامة فاعله على ارتكابه. لكن شتان ما بين الندمين. والله تعالى يحب من عبده مراغمة عدوه وغيظه. كما تقدم أن هذا من العبودية من أسرار التوبة. فيحصل من العبد مراغمة العدو بالتوبة والتدارك، وحصول محبوب الله من التوبة، وما يتبعها من زيادة الأعمال هنا، ما يوجب جعل مكان السيئة حسنة بل حسنات.

وتأمل قوله: ﴿يُبدِّل الله سيِّئَاتِهِم حسَنَاتٍ﴾ [الفرقان: ٧٠]. ولم يقل مكان كل واحدة واحدة فهذا يجوز أن يبدل السيئة الواحدة بعدة حسنات بحسب حال المبدل.

وأما في الحديث: فإن الذي عُذّب على ذنوبه لم يبدلها في الدنيا بحسنات، من التوبة النصوح وتوابعها. فلم يكن له ما يجعل مكان السيئة حسنات. فأعطي مكان كل سيئة حسنة واحدة. وسكت النبي، ﷺ، عن كبار ذنوبه. ولما انتهى إليها ضحك، ولم يبين ما يفعل الله بها. وأخبر أن الله يبدل مكان كل صغيرة حسنة. ولكن في الحديث إشارة إلى أن هذا التبديل يعم كبارها وصغارها من وجهين:

أحدهما: قوله «اخبئوا عنه كبارها» فهذا إشعار بأنه إذا رأى تبديل الصغائر ذكرها، وطمع في تبديلها. فيكون تبديلها أعظم موقعًا عنده من تبديل الصغائر. وهو به أشد فرحًا واغتباطًا.

والثاني: ضحك النبي، ﷺ، عند ذكر ذلك. وهذا الضحك مشعر بالتعجب مما يفعل به من الإحسان، وما يقرُّ به على نفسه من الذنوب، من غير أن يقرَّر عليها ولا يسأل عنها، وإنما عرضت عليه الصغائر.

فتبارك الله رب العالمين، وأجود الأجودين، وأكرم الأكرمين، البر اللطيف، المتودد إلى عباده بأنواع الإحسان، وإيصاله إليهم من كل طريق بكل نوع. لا إله إلا هو الرحمن الرحيم.

فصل[1]

و«التوبة» لها مبدأ ومنتهى. فمبدؤها: الرجوع إلى الله بسلوك صراطه المستقيم، الذي نصبه لعباده، موصلاً إلى رضوانه. وأمرهم بسلوكه بقوله تعالى:

---

(١) ٣١٤ مدارج جـ١.

﴿وأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فاتَّبِعُوهُ ولا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ﴾. [الأنعام: ١٣٥]. وبقوله: ﴿وإنَّكَ لَتَهْدِي إلى صِراطٍ مُسْتَقيمٍ . صِرَاطِ الله الذي لَهُ مَا فِي السَّموات ومَا في الأَرْضِ﴾. [الشورى: ٥٢، ٥٣]. وبقوله: ﴿وهُدُوا إلى الطَّيِّبِ مِنَ القَوْلِ وهُدُوا إلى صِرَاطِ الحَمِيدِ﴾. [الحج: ٢٤].

ونهايتها: الرجوع إليه في المعاد، وسلوك صراطه الذي نصبه موصلاً إلى جنته. فمن رجع إلى الله في هذه الدار بالتوبة: رجع إليه في المعاد بالثواب. وهذا هو أحد التأويلات في قوله تعالى: ﴿ومَنْ تَابَ وعَمِلَ صالِحًا فإنَّهُ يَتُوبُ إلى الله مَتَابًا﴾. [الفرقان: ٧١]. قال البغوي وغيره: «يتوب إلى الله متابًا: يعود إليه بعد الموت، متابًا حسنًا يفضل على غيره» فالتوبة الأولى وهي قوله: «ومن تاب» ـ رجوع عن الشرك. والثانية: رجوع إلى الله للجزاء والمكافأة.

والتأويل الثاني: أن الجزاء متضمن معنى الأوامر. والمعنى: ومن عزم على التوبة وأرادها، فليجعل توبته إلى الله وحده، ولوجهه خالصًا، لا لغيره.

التأويل الثالث: أن المراد لازم هذا المعنى، وهو إشعار التائب وإعلامه بمن تاب إليه، ورجع إليه. والمعنى: فليعلم توبته إلى من؟ ورجوعه إلى من؟ فإنها إلى الله لا إلى غيره.

ونظير هذا ـ على أحد التأويلين ـ قوله تعالى: ﴿يا أَيُّهَا الرَّسُولُ بلِّغْ ما أُنْزِلَ إليكَ مِنْ رَبِّكَ وإنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بلَّغْتَ رسالَتَهُ﴾. [المائدة: ٦٧]. أي اعلم ما يترتب على من عصى أوامره ولم يبلغ رسالته.

والتأويل الرابع: أن التوبة تكون أولاً بالقصد والعزم على فعلها. ثم إذا قوي العزم وصار جازمًا: وُجد به فعل التوبة. فالتوبة الأولى: بالعزم والقصد لفعلها. والثانية: بنفس إيقاع التوبة وإيجادها. والمعنى: فمن تاب إلى الله قصدًا ونية وعزمًا، فتوبته إلى الله عملاً وفعلاً. وهذا نظير قوله، ﷺ: **«فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله، فهجرته إلى الله ورسوله. ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها، أو امرأة يتزوجها، فهجرته إلى ما هاجر إليه»**. فالتوبة الصحيحة لها علامات:

---

(١) ١٨٥ مدارج جـ١.

منها: أن يكون بعد التوبة خيراً مما كان قبلها.

ومنها: أنه لا يزال الخوف مصاحبًا له لا يأمن مكر الله طرفة عين. فخوفه مستمر إلى أن يسمع قول الرسل لقبض روحه ﴿**أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ**﴾. [فصلت: ٣٠]. فهناك يزول الخوف.

ومنها: انخداع قلبه، وتقطعه ندمًا وخوفًا. وهذا على قدر عظم الجناية وصغرها. وهذا تأويل ابن عيينة لقوله تعالى: ﴿**لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ**﴾. [التوبة: ١١٠]. قال: تقطعها بالتوبة. ولا ريب أن الخوف الشديد من العقوبة العظيمة يوجب انصداع القلب وانخلاعه. وهذا هو تقطعه. وهذا حقيقة التوبة؛ لأنه يتقطع قلبه حسرة على ما فرط منه، وخوفًا من سوء عاقبته، فمن لم يتقطع قلبه في الدنيا على ما فرَّط حسرة وخوفًا، تقطع في الآخرة إذا حقَّت الحقائق، وعاين ثواب المطيعين، وعقاب العاصين. فلابد من تقطع القلب إما في الدنيا وإما في الآخرة.

ومن موجبات التوبة الصحيحة أيضًا: كسرة خاصة تحصل للقلب لا يشبهها شيء، ولا تكون لغير المذنب، لا تحصل بجوع، ولا رياضة، ولا حب مجرد. وإنما هي أمر وراء هذا كله. تكسر القلب بين يدي الرب كسرة تامة. قد أحاطت به من جميع جهاته، وألقته بين يدي ربه طريحًا ذليلاً خاشعًا، كحال عبد جانٍ آبقٍ من سيده، فأخِذ فأحضر بين يديه، ولم يجد من ينجيه من سطوته، ولم يجد منه بدًّا ولا عنه غناء، ولا منه مهربًا، وعلم أن حياته وسعادته وفلاحه ونجاحه في رضاه عنه، وقد علم إحاطة سيده بتفاصيل جناياته. هذا مع حبه لسيده، وشدة حاجته إليه، وعلمه بضعفه وعجزه وقوة سيده، وذله وعز سيده.

فيجتمع من هذه الأحوال كسرة وذلة وخضوع، ما أنفعها للعبد، وما أجدى عائدتها عليه! وما أعظم جَبْره بها. وما أقربه بها من سيده! فليس شيء أحبَّ إلى سيده من هذه الكسرة، والخضوع والتذلل، والإخبات، والانطراح بين يديه والاستسلام له...

(١)... **وجرت** هذه المسألة بحضرة شيخ الإسلام ابن تيمية، فسمعته

---

(١) ٢٤٥ المجرتين.

يحكي هذه الأقوال الثلاثة حكاية مجردة، فإما سألته وإما سئل عن الصواب منها، فقال: الصواب أن من التائبين من يعود إلى مثل حاله، ومنهم من يعود إلى أكمل منها، ومنهم من يعود إلى أنقص مما كان. فإن كان بعد التوبة خيرًا مما كان قبل الخطيئة، وأشد حذرًا، وأعظم تشميرًا، وأعظم ذلًّا وخشية وإنابة، عاد إلى أرفع مما كان. وإن كان قبل الخطيئة أكمل في هذه الأمور ولم يعد بعد التوبة إليها عاد إلى أنقص مما كان عليه. وإن كان بعد التوبة مثل ما كان قبل الخطيئة رجع إلى مثل منزلته. هذا معنى كلامه.

قلت: وههنا مسألة هذا الموضع أخص المواضع ببيانها، وهي أن التائب إذا تاب إلى الله توبة نصوحًا فهل تمحى تلك السيئات ويذهب لا له ولا عليه، أو إذا محيت أثبت له مكان كل سيئة حسنة؟ هذا مما اختلف الناس فيه من المفسرين وغيرهم قديمًا وحديثًا.

فقال الزجاج: ليس يجعل مكان السيئة الحسنة، لكن يجعل مكان السيئة التوبة، والحسنة مع التوبة.

قال ابن عطية: يجعل أعمالهم بدل معاصيهم الأولى طاعة، فيكون ذلك سببًا لرحمة الله إياهم. قاله ابن عباس وابن جبير وابن زيد والحسن، ورد على من قال هو في يوم القيامة. قال: وقد ورد حديث في كتاب مسلم من طريق أبي ذر يقتضي أن الله سبحانه يوم القيامة يجعل لمن يريد المغفرة له من الموحدين بدل سيئاته حسنات، وذكره الترمذي والطبري. وهذا تأويل سعيد بن المسيب في هذه الآية. قال ابن عطية: وهو معنى كرم العفو. هذا آخر كلامه. قلت: سيأتي إن شاءالله ذكر الحديث بلفظه والكلام عليه. قال المهدوي: وروي معنى هذا القول عن سلمان الفارسي وسعيد بن جبير وغيرهما. وقال الثعلبي: قال ابن عباس وابن جريج والضحاك وابن زيد ﴿يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾. [الفرقان: ٧٠]. يبدلهم الله بقبيح أعمالهم في الشرك محاسن الأعمال في الإسلام، فيبدلهم بالشرك إيمانًا، وبقتل المؤمنين قتل المشركين، وبالزنا عفة وإحصانًا. وقال آخرون: يعني يبدل الله سيئاتهم التي عملوها في حال إسلامهم حسنات يوم القيامة.

وأصل القولين أن هذا التبديل هل هو في الدنيا أو يوم القيامة؟ فمن قال

إنه في الدنيا قال: هو تبديل الأعمال القبيحة والإرادات الفاسدة بأضدادها، وهي حسنات، وهذا تبديل حقيقة. . . .

. . . **واحتجت** الطائفة الأخرى التي قالت: هو تبديل السيئة بالحسنة حقيقة يوم القيامة بأن قالت: حقيقة التبديل إثبات الحسنة مكان السيئة. وهذا إنما يكون في السيئة المحققة، وهي التي قد فعلت ووقعت، فإذا بدلت حسنة كان معناه أنها محيت وأثبت مكانها حسنة.[1]

قالوا: ولهذا قال تعالى: ﴿**سيِّئَاتِهِم حَسَنات**﴾. فأضاف السيئات إليهم لكونهم باشروها واكتسبوها، ونكر الحسنات ولم يضفها إليهم لأنها من غير صنعهم وكسبهم، بل هي مجرد فضل الله وكرمه.

قالوا: وأيضًا فالتبديل في الآية إنما هو فعل الله لا فعلهم. فإنه أخبر أنه هو يبدل سيئاتهم حسنات. ولو كان المراد ما ذكرتم لأضاف التبديل إليهم فإنهم هم الذين يبدلون سيئاتهم حسنات، والأعمال إنما تضاف إلى فاعلها وكاسبها كما قال الله تعالى: ﴿**فَبَدَّلَ الذينَ ظَلَمُوا قَوْلاً غيْرَ الذي قِيلَ لَهُمْ**﴾. [البقرة: ٥٩]. وأما ما كان من غير الفاعل فإنه يجعله من تبديله هو كما قال الله تعالى: ﴿**وبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيهِمْ جَنَّتَيْنِ**﴾. [سبأ: ١٦]. فلما أخبر سبحانه أنه هو الذي يبدل سيئاتهم حسنات دل على أنه شيء فعله هو سبحانه بسيئاتهم، لا أنهم فعلوه من تلقاء أنفسهم، وإن كان سببه منهم، وهو التوبة والإيمان والعمل الصالح.

قالوا: ويدل عليه ما رواه مسلم في صحيحه من حديث الأعمش عن المعرور بن سويد عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله، ﷺ: «**إني لأعلم آخر أهل الجنة دخولاً الجنة، وآخر أهل النار خروجًا منها: رجل يؤتى به يوم القيامة فيقال: اعرضوا عليه صغار ذنوبه، وارفعوا عنه كبارها. فتعرض عليه صغار ذنوبه فيقال: عملت يوم كذا وكذا كذا وكذا، وعملت يوم كذا وكذا كذا وكذا؟ فيقول: نعم. لا يستطيع أن ينكر، وهو مشفق من كبار ذنوبه أن تعرض عليه، فيقال له: فإن لك مكان كل سيئة حسنة. فيقول: رب، قد عملت أشياء لا أراها ههنا، فلقد رأيت رسول الله، ﷺ، ضحك حتى بدت نواجذه**».

---

(١) ٢٤٧ المجرتين.

وقال الإمام أحمد: حدثنا وكيع حدثنا الأعمش عن المعرور بن سويد عن أبي ذر قال: قال رسول الله، ﷺ: «**يؤتى بالرجل يوم القيامة فيقال: اعرضوا عليه صغار ذنوبه. قال: فتعرض عليه، ويخبأ عنه كبارها. فيقال: عملت يوم كذا وكذا كذا وكذا؟ وهو مقر لا ينكر وهو مشفق من الكبار. فيقال: أعطوه مكان كل سيئة عملها حسنة. قال فيقول: إن لي ذنوبًا ما أراها**» فلقد رأيت رسول الله، ﷺ، ضحك حتى بدت نواجذه.

قالوا: وأيضًا فروى أبو حفص المستملي عن محمد بن عبدالعزيز بن أبي رِزمة حدثنا الفضل بن موسى القطيعي عن أبي العنبس عن أبيه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله، ﷺ: «**ليتمنين أقوام أنهم أكثروا من السيئات**». قيل: من هم؟ قال: «**الذين بدل سيئاتهم حسنات**». قالوا: وهؤلاء هم الأبدال في الحقيقة، فإنهم إنما سموا أبدالًا لأنهم بدلوا أعمالهم السيئة بالأعمال الحسنة، فبدل الله سيئاتهم التي عملوها حسنات.

قالوا: وأيضًا فالجزاء من جنس العمل، فكما بدلوا هم أعمالهم السيئة بالحسنة بدلها الله من صحف الحفظة حسنات جزاء وفاقًا...

فصل(1)

الاسم الثاني والثالث: الزُّور، واللغو.

قال تعالى: ﴿**والذينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وإِذَا مَرُّوا باللّغوِ مَرُّوا كِرَامًا**﴾. [الفرقان: ٧٢]. قال محمد بن الحنفية: «الزور ههنا الغناء» وقاله ليث عن مجاهد. وقال الكلبي: لا يحضرون مجالس الباطل.

واللغو في اللغة: كل ما يُلغَى ويُطرَح، والمعنى: لا يحضرون مجالس الباطل. وإذا مروا بكل ما يُلغى من قول وعمل أكرموا أنفسهم أن يقفوا عليه، أو يميلوا إليه. ويدخل في هذا: أعياد المشركين، كما فسرها به السلف، والغناء، وأنواع الباطل كلها.

---

(١) ٢٤١ إغاثة جـ ١.

قال الزجاج: «لا يجالسون أهل المعاصي، ولا يمالئونهم عليها، ومروا مر الكرام الذين لا يرضون باللغو، لأنهم يكرمون أنفسهم عن الدخول فيه، والاختلاط بأهله».

وقد رُوي أن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه: مر بلهو فأعرض عنه. فقال رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم: «إنْ أصْبحَ ابنُ مسعودٍ لكريمًا»(١).

وقد أثنى الله سبحانه على من أعرض عن اللغو إذا سمعه بقوله: ﴿وإذا سَمِعُوا اللغْوَ أعْرَضُوا عنْهُ وقالُوا لنَا أَعْمَالُنَا ولَكُمْ أعْمالُكُمْ﴾. [القصص: ٥٥].

وهذه الآية، وإن كان سبب نزولها خاصًا، فمعناها عامٌّ(٢)، متناول لكل من سمع لغوًا فأعرض عنه، وقال بلسانه أو بقلبه لأصحابه ﴿لنَا أعْمالُنَا ولَكُم أعْمالُكُم﴾.

وتأمل كيف قال سبحانه ﴿لا يَشْهَدُونَ الزُّورَ﴾. ولم يقل: بالزور؛ لأن «يشهدون» بمعنى: يحضُرون. فمدحهم على ترك حضور مجالس الزور، فكيف بالتكلُّم به، وفعله؟. والغناء من أعظم الزور.

والزور: يقال على الكلام الباطل، وعلى العمل الباطل، وعلى العين نفسها. كما في حديث معاوية لما أخذ قُصَّة من شعر يُوصَل به، فقال: «هذا الزور»(٣) فالزور: القول، والفعل، والمحلُّ.

---

(١) بهامش الأصل: قوله «إن أصبح يعني» «قد» لأن «إن» المكسورة المسكنة من فوائدها أن تأتي بمعنى «قد» قاله ابن هشام في مغني اللبيب اهـ. والحديث ذكره ابن كثير في تفسير الآية، من طريق ابن أبي حاتم. وفيه «لقد أصبح ابن مسعود وأمسى كريمًا».

(٢) ذكر ابن كثير عن ابن إسحاق أنها نزلت في عشرين من نصارى الحبشة وفدوا إلى مكة فسمعوا القرآن من رسول الله، ﷺ، ففاضت أعينهم وأسلموا. فوبخهم أبو جهل في نفر من قريش. فقالوا: سلام عليكم، لا نجاهلكم لنا ما نحن عليه ولكم ما أنتم عليه. لم نأل أنفسنا خيرًا.

(٣) روى مالك والبخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي عن حميد بن عبدالرحمن بن عوف أنه «سمع معاوية عام حج على المنبر ـ وتناول قصة من شعر كانت في يد حرسي ـ فقال: يا أهل المدينة أين علماؤكم؟ سمعت رسول الله، ﷺ، ينهى عن مثل هذا. ويقول: إنما هلكت بنو إسرائيل حين اتخذها نساؤهم». وفي رواية للبخاري ومسلم عن ابن المسيب قال: «قدم معاوية المدينة فخطبنا، وأخرج كبة من شعر فقال: ما كنت أرى أن أحدًا يفعله إلا اليهود، إن رسول الله، ﷺ، بلغه، فسماه الزور». وفي أخرى للبخاري: أن معاوية قال ذات يوم: «إنكم قد أحدثتم زي سوء، وإن نبي الله، ﷺ، نهى عن الزور».

وأصل اللفظة من الميل. ومنه الزَّوَر، بالفتح. ومنه: زُرت فلانًا، إذا مِلْتُ إليه، وعدلتُ إليه. فالزور: مَيلٌ عن الحق الثابت إلى الباطل الذي لا حقيقة له قولًا وفعلًا. اهـ.

(١). . . **وأما** الشعانين فهي أعياد لهم أيضًا، والفرق بينها وبين الباعوث أنه اليوم والوقت الذي ينبعثون فيه على الاجتماع والاحتشاد. وقولهم: «ولا نرفع أصواتنا مع موتانا» لما فيه من إظهار شعار الكفر، فهذا يعم رفع أصواتهم بقراءتهم وبالنوح وغيره، وكذلك إظهار النيران معهم، إما بالشمع، أو السرج، أو المشاعل ونحوها(٢). فأما إذا أوقدوا النار في منازلهم وكنائسهم ولم يظهروها لم يتعرض لهم فيها. وقد سمى الله سبحانه أعياهم زورًا، والزور لا يجوز إظهاره، فقال تعالى: ﴿**والـذينَ لا يَشْهَدُونَ الزُّورَ**﴾. قال عبدالرحمن بن أبي حاتم في «تفسيره»(٣): حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا أحمد بن عبدالرحمن بن سعيد الخرار(٤) حدثنا حسين بن عقيل، عن الضحاك: ﴿**والذينَ لا يشهَدونَ الزُّور**﴾: عيد المشركين.

وقال سعيد بن جبير: الشعانين، وكذلك قال ابن عباس: «الزور عيد المشركين».

فصل

وكما أنهم لا يجوز لهم إظهاره فلا يجوز للمسلمين ممالأتهم عليه، ولا مساعدتهم، ولا الحضور معهم باتفاق أهل العلم الذين هم أهله. وقد صرح به الفقهاء من أتباع الأئمة الأربعة في كتبهم، فقال أبو القاسم هبة الله بن الحسين بن منصور الطبري الفقيه الشافعي: ولا يجوز للمسلمين أن يحضروا أعيادهم؛ لأنهم على منكر وزور، وإذا خالط أهل المعروف أهل المنكر بغير الإنكار عليهم كانوا كالراضين به المؤثرين له، فنخشى من نزول سخط الله على جماعتهم، فيعم الجميع، نعوذ بالله من سخطه. . .

---

(١) ٧٢١ أحكام جـ٢.

(٢) ولقد كان الخليفة المتوكل صارمًا في هذا كله، فقد أصدر سنة ٢٣٥ أوامره ألا يظهر النصارى في شعانينهم صليبًا، وألا يقرؤوا الصلوات في الشوارع (الطبري ٣/١٣٨٩)، ونهاهم عن إشعال النار في الطرق (المقريزي ٢/٤٩٤).

(٣) قارن بتفسير الطبري ١٩/٣١.

(٤) كذا بالأصل (الخرار) ولعله (الخزاز).

(١) **قوله** تعالى: ﴿والذين إذا ذُكِّروا بآياتِ ربِّهِمْ لمْ يَخِرُّوا عليهَا صُمًّا وعُمْيانًا﴾ [الفرقان: ٧٣]. قال مقاتل: إذا وعظوا بالقرآن لم يقعوا عليه صمًّا لم يسمعوه، وعميانًا لم يبصروه، ولكنهم سمعوا وأبصروا وأيقنوا به. وقال ابن عباس: لم يكونوا عليها صمًّا وعميانًا، بل كانوا خائفين خاشعين. وقال الكلبي: يخرون عليها سمعًا وبصرًا. وقال الفراء: وإذا تلي عليهم القرآن لم يقعدوا على حالهم الأولى، كأنهم لم يسمعوه فذلك الخرور(٢).

وسمعت العرب تقول: قعد يشتمني، كقولك: قام يشتمني، وأقبل يشتمني. والمعنى على ما ذكر: لم يصيروا عندها صمًّا وعميانًا.

وقال الزجاج: المعني إذا تليت عليهم خرُّوا سجدًا وبكيًا، سامعين مبصرين، كما أمروا به. وقال ابن قتيبة: أي لم يتغافلوا عنها، كأنهم صم لم يسمعوها وعمي لم يروها.

قلت: ههنا أمران، ذكر الخرور، وتسليط النفي عليه. وهل هو خرور القلب، أو خرور البدن للسجود، وهل لمعنى خرورهم عن صمم وعمه، فلهم عليها خرور بالقلب خضوعًا أو بالبدن سجودًا، أو ليس هناك خرور، وعبر به عن القعود.

(٣) **وقال** سعيد بن منصور حدثنا حزم قال: سمعت الحسن وسأله كثير بن زياد عن قوله تعالى: ﴿ربَّنَا هَبْ لنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾. [الفرقان: ٧٤]. فقال: يا أبا سعيد ما هذه القرة الأعين، أفي الدنيا أم في الآخرة؛ قال: لا، بل والله في الدنيا، قال: وما هي؟ قال: والله أن يُري الله العبد من زوجته من أخيه من حميمه طاعة الله، لا والله ما شيء أحب إلى المرء المسلم من أن يرى ولدًا أو والدًا أو حميمًا أو أخًا مطيعًا لله عز وجل.

وقد روى البخاري في صحيحه من حديث نافع عن ابن عمر قال: قال رسول الله، عليه الصلاة والسلام: «**كلكم مسئول عن رعيته، فالأمير راع على الناس وهو مسئول عن رعيته، والرجل راع على أهل بيته، وامرأة الرجل راعية على بيت بعلها وولده، وهي مسئولة عنهم، وعبد الرجل راع على مال سيده وهو**

---

(١) ٧٩ فوائد.　　(٢) الخرور: مصدر خرّ أي:سقط.　　(٣) ١٣٤ تحفة.

مسئول عنه ألا فكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته».

(١)**الوجه** الثالث عشر: قوله تعالى: ﴿والذينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ واجْعَلْنَا للمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾. وإمام بمعنى قُدوة، وهو يصلح للواحد والجمع، كالأمة والأسوة. وقد قيل: هو جمع آمم، كصاحب وصِحاب، ورَاجِل ورِجال، وتاجر وتِجار. وقيل: هو مصدر كقِتال وضِراب، أي ذَوي إمام. والصواب الوجه الأول، فكل من كان من المتقين وَجب عليه أن يأتم بهم، والتقوى واجبة، والائتمام بهم واجب، ومخالفتهم فيما أفْتَوْا به مخالف للائتمام بهم، وإن قيل «نحن نأتم بهم في الاستدلال وأصول الدين» فقد تقدم من جواب هذا ما فيه كفاية.

فصل(٢)

والفرق بين حب الرياسة وحب الإمارة للدعوة إلى الله هو الفرق بين تعظيم أمر الله والنصح له وتعظيم النفس والسعي في حظها؛ فإن الناصح لله المعظم له المحب له يحب أن يطاع ربه فلا يعصى، وأن تكون كلمته هي العليا، وأن يكون الدين كله لله، وأن يكون العباد ممتثلين أوامره مجتنبين نواهيه. فقد ناصح الله في عبوديته، وناصح خلقه في الدعوة إلى الله. فهو يحب الإمامة في الدين، بل يسأل ربه أن يجعله للمتقين إمامًا يقتدي به المتقون كما اقتدى هو بالمتقين.

فإذا أحب هذا العبد الداعي إلى الله أن يكون في أعينهم جليلاً، وفي قلوبهم مهيبًا، وإليهم حبيبًا، وأن يكون فيهم مطاعًا لكي يأتموا به ويقتفوا أثر الرسول على يده لم يضره ذلك، بل يحمد عليه؛ لأنه داع إلى الله يحب أن يطاع ويعبد ويوحد، فهو يحب ما يكون عونًا على ذلك موصلاً إليه.

ولهذا ذكر سبحانه عباده الذين اختصهم لنفسه وأثنى عليهم في تنزيله وأحسن جزاءهم يوم لقائه فذكرهم بأحسن أعمالهم وأوصافهم ثم قال: ﴿والذينَ يقولُونَ ربَّنَا هَبْ لنَا من أَزْوَاجِنَا وذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ واجْعَلنَا للمُتَّقينَ إمامًا﴾. فسألوه أن يقرّ أعينهم بطاعة أزواجهم وذرياتهم له سبحانه، وأن يسر قلوبهم باتباع المتقين لهم على طاعته وعبوديته؛ فإن الإمام والمؤتم متعاونان على الطاعة، فإنما

---

(١) ١٣٥ إعلام جـ٤. (٢) ٣٠٧ الروح.

سألوه ما يعاونون به المتقين على مرضاته وطاعته وهو دعوتهم إلى الله بالإمامة في الدين التي أساسها الصبر واليقين كما قال تعالى: ﴿وجَعَلنَا منهُم أئمَّةً يَهْدُونَ بأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وكَانُوا بآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾. [السجدة: ٣٢].

وسؤالهم أن يجعلهم أئمة للمتقين هو سؤال أن يهديهم ويوفقهم ويمنّ عليهم بالعلوم النافعة والأعمال الصالحة ظاهرًا و باطنًا التي لا تتم الإمامة إلا بها.

وتأمل كيف نسبهم في هذه الآيات إلى اسمه الرحمن جل جلاله؛ ليعلم خلقه أن هذا إنما نالوه بفضل رحمته ومحض جوده ومنته.

وتأمل كيف جعل جزاءهم في هذه السورة الغرف وهي المنازل العالية في الجنة. لما كانت الإمامة في الدين من الرتب العالية بل من أعلى مرتبة يعطاها العبد في الدين كان جزاؤه عليها الغرفة العالية في الجنة.

وهذا بخلاف طلب الرياسة فإن طلابها يسعون في تحصيلها لينالوا بها أغراضهم من العلو في الأرض، وتعبد القلوب لهم، وميلها إليهم، ومساعدتهم لهم على جميع أغراضهم، مع كونهم عالين عليهم قاهرين لهم. فترتب على هذا المطلب من المفاسد ما لا يعلمه إلا الله من البغي والحسد والطغيان، والحقد والظلم والفتنة، والحمية للنفس دون حق الله، وتعظيم من حقره الله، واحتقار من أكرمه الله. ولا تتم الرياسة الدنيوية إلا بذلك، ولا تنال إلا به وبأضعافه من المفاسد. والرؤساء في عمى عن هذا، فإذا كشف الغطاء تبين لهم فساد ما كانوا عليه، ولاسيما إذا حشروا في صور الذر يطؤهم أهل الموقف بأرجلهم إهانة لهم وتحقيراً وتصغيراً كما صغروا أمر الله وحقروا عباده.

(١)**قال تعالى**: ﴿لكنِ الذينَ اتَّقَوْا ربَّهُم لَهُمْ غُرَفٌ مِنْ فَوْقِهَا غُرَفٌ مبنيَّةٌ﴾. [الزمر: ٢٠]. فأخبر أنها غرف فوق غرف، وأنها مبنية بناء حقيقة؛ لئلا تتوهم النفوس أن ذلك تمثيل وأنه ليس هناك بناء، بل تتصور النفوس غرفًا مبنية كالعلالي بعضها فوق بعض حتى كأنها ينظر إليها عيانًا. ومبنية صفة للغرف الأولى والثانية، أي لهم منازل مرتفعة، وفوقها منازل أرفع منها.

---

(١) ١٠٢ حادي.

وقال تعالى: ﴿**أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا**﴾. [الفرقان: ٧٥]. والغرفة جنس كالجنة. وتأمل كيف جعل جزاءهم على هذه الأقوال المتضمنة للخضوع والذل والاستكانة لله، الغرفة والتحية والسلام في مقابلة صبرهم على سوء خطاب الجاهلين لهم، فبدلوا بذلك سلام الله وملائكته عليهم.

وقال تعالى: ﴿**وما أَمْوَالُكُم ولا أَوْلَادُكُم بالتي تُقَرِّبُكُم عِنْدَنَا زُلْفَى إلَّا مَنْ آمَنَ وعَمِلَ صَالِحًا فأُولَئِكَ لَهُمْ جَزاءُ الضِّعْفِ بما عَمِلُوا وهُمْ فِي الغُرُفَاتِ آمِنُونَ**﴾. [سبأ:٣٧]. وقال تعالى: ﴿**يَغْفِر لكُمْ ذُنُوبَكُمْ ويُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ومَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ**﴾. [الصف: ١٢].

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة الفرقان

والحمد لله رب العالمين



بسم الله الرحمن الرحيم

(١)**وهو** سبحانه يذكر في سورة الشعراء ما أوقع بالمشركين من أنواع العقوبات، ويذكر إنجاءه لأهل التوحيد. ثم يقول: ﴿**إنَّ في ذَلِكَ لآيةً ومَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُؤمنينَ. وإنَّ ربَّكَ لَهُوَ العزيزُ الرَّحيمُ**﴾. [الشعراء: ٨، ٩]. فيذكر شرك هؤلاء الذين استحقوا به الهلاك، وتوحيد هؤلاء الذين استحقوا به النجاة. ثم يخبر أن في ذلك آية وبرهانًا للمؤمنين، ثم يذكر مصدر ذلك كله، وأنه عن أسمائه وصفاته. فصدور هذا الإهلاك عن عزته. وذلك الإنجاء عن رحمته. ثم يقرر في آخر السورة نبوة رسوله بالأدلة العقلية أحسن تقرير. ويجيب عن شبه المكذبين له أحسن جواب. وكذلك تقريره للمعاد بالأدلة العقلية والحسية. فضرب الأمثال والأقيسة، فدلالة القرآن: سمعية وعقلية.

(٢)**وإذا** كان الحب أصل كل عمل من حق وباطل، فأصل الأعمال الدينية حب الله ورسوله، كما أن أصل الأقوال الدينية تصديق الله ورسوله، وكل إرادة تمنع كمال حب الله ورسوله وتزاحم هذه المحبة فإنها تمنع كمال التصديق فهي معارضة لأصل الإيمان أو مضعفة له، فإن قويت حتى عارضت أصل الحب والتصديق كانت كفرًا أو شركًا أكبر، وإن لم تعارضه قدحت في كماله وأثرت فيه ضعفًا وفتورًا في العزيمة والطلب، وهي تحجب الواصل، وتقطع الطالب، وتنكي الراغب. فلا تصلح الموالاة إلا بالمعاداة، كما قال ـ تعالى ـ عن إمام الحنفاء المحبين أنه قال لقومه: ﴿**أَفرأَيتُم ما كُنْتُم تَعْبُدُونَ. أَنْتُم وآباؤكُم الأَقْدَمُون. فإنَّهُمْ عَدُوٌّ لي إلَّا رَبَّ العَالمين**﴾ [الشعراء: ٧٥ـ ٧٧]. فلم تصلح لخليل الله هذه الموالاة والخلة إلا بتحقيق هذه المعاداة، فإن ولاية الله لا تصح إلا بالبراءة من كل معبود سواه.

قال تعالى: ﴿**قَدْ كَانَت لكُمْ أُسْوةٌ حَسنةٌ في إبراهِيمَ والذينَ مَعَهُ إذْ قَالوا لقومِهِم إنَّا بُرَآءُ مِنكُم ومِمَّا تَعْبُدونَ منْ دُونِ الله كفرْنَا بكُم وبَدا بَيْنَنَا وبَيْنَكُمُ العَداوةُ والبَغْضاءُ أبدًا حتَّى تُؤمِنُوا بالله وحْدَهُ**﴾. [الممتحنة: ٤].

---

(١) ٤٩٢ مدارج جـ٣. (٢) ٢٦٤ الجواب.

وقال تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ . إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ . وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الزخرف: ٢٦-٢٨]. أي جعل هذه الموالاة لله والبراءة من كل معبود سواه كلمة باقية في عقبه يتوارثها الأنبياء وأتباعهم بعضهم عن بعض وهي كلمة : لا إلـه إلا الله .

وهي التي ورثها إمام الحنفاء لأتباعه إلى يوم القيامة .

وهي الكلمة التي قامت بها الأرض والسموات، وفطر الله عليها جميع المخلوقات، وعليها أسست الملة ونصبت القبلة، وجردت سيوف الجهاد .

وهي محض حق الله على جميع العباد، وهي الكلمة العاصمة للدم والمال والذرية في هذه الدار، والمنجية من عذاب القبر وعذاب النار .

وهي المنشور الذي لا يدخل أحد الجنة إلا به، والحبل الذي لا يصل إلى الله من لم يتعلق بسببه .

وهي كلمة الإسلام ومفتاح دار السلام، وبها انقسم الناس إلى شقي وسعيد ومقبول وطريد، وبها انفصلت دار الكفر من دار السلام، وتميزت دار النعيم من دار الشقاء والهوان .

وهي العمود الحامل للفرض والسنة «ومن كان آخر كلامه لا إلـه إلا الله دخل الجنة» .

وروح هذه الكلمة وسرها : إفراد الرب ـ جل ثناؤه وتقدست أسماؤه وتبارك اسمه وتعالى جده ولا إلـه غيره ـ بالمحبة، والإجلال، والتعظيم، والخوف، والرجاء، وتوابع ذلك، من التوكل والإنابة والرغبة والرهبة، فلا يحب سواه، بل كل ما كان يحب غيره، فإنما هو تبعًا لمحبته وكونه وسيلة إلى زيادة محبته، ولا يخاف سواه ولا يرجو سواه، ولا يتوكل إلا عليه، ولا يرغب إلا إليه، ولا يرهب إلا منه، ولا يحلف إلا باسمه، ولا ينذر إلا له، ولا يتاب إلا إليه، ولا يطاع إلا أمره، ولا يحتسب إلا به، ولا يستعان في الشدائد إلا به، ولا يلتجأ إلا إليه، ولا يسجد إلا له، ولا يذبح إلا له وباسمه. يجتمع ذلك في حرف واحد وهو: أن لا يعبد بجميع أنواع العبادة إلا هو. فهذا هو تحقيق شهادة أن لا إلـه إلا الله . . . . .

(١)... **قول** الخليل ﷺ: ﴿الذي خَلَقَني فَهُوَ يَهْدين. والذي هو يُطْعِمُني ويَسْقِين. وإذَا مَرِضتُ فهوَ يَشفينِ. والذي يُمَيتُني ثمَّ يُحيِينِ. والذي أَطْمَعُ أنْ يغفِرَ لي خَطيئَتي يَومَ الدِّين﴾. [الشعراء: ٧٨-٨٢]. فنَسب إلى ربه كل كمال من هذه الأفعـال، ونسَب إلى نفسه النقص منها وهو: المرض، والخطيئة، وهذا كثير في القـرآن ذكرنا منه أمثلة كثيرة في كتاب الفوائد المكية، وبينا هناك السر في مجيء ﴿الذينَ آتينَاهُمُ الكِتابَ﴾ [البقرة: ١٢١]. و﴿الذينَ أُوتُوا الكِتابَ﴾. [البقرة: ١٤٥]. والفرق بين الموضعين، وأنه حيث ذكر الفعل كان من آتاه الكتاب واقعًا في سياق المدح. وحيث حذفه كان من أوتيه واقعًا في سياق الذم أو منقسمًا، وذلك من أسرار القـرآن. ومثله ﴿ثمَّ أورَثْنَـا الكِتَابَ الذينَ اصْطَفَينَا مِنْ عِبَادنَا﴾. [فاطر: ٣٢]. وقـال: ﴿وإنَّ الـذينَ أُورِثُـوا الكِتَـابَ مِنْ بَعْـدِهم لَفِي شَكٍّ مِنْـهُ مُريب﴾. [الشورى: ١٤]. وقوله: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعدِهِم خَلْفٌ ورِثُوا الكِتَابَ يأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الأَدْنَى﴾. [الأعراف: ١٦٩]. وبالجملة فالذي يضاف إلى الله ـ تعالى ـ كله خير وحكمة ومصلحة وعدل، والشر ليس إليه.

(٢)... **أثنى** الله على خليله عليه السلام بسلامة القلب فقال تعالى: ﴿وإن من شيعته لإبراهيم إذ جاءَ ربَّه بقلبٍ سليم﴾. وقال حاكيًا عنه: ﴿يومَ لا ينفَعُ مالٌ ولا بَنُونَ إلاَّ مَنْ أَتَى الله بقلبٍ سَليم﴾. والقلب السليم هو الذي سلم من الشرك والغل والحقد والحسد والشح والكبر وحب الدنيا والرياسة فسلم من كل آفة تبعده من الله، وسلم من كل شبهة تعارض خبره، ومن كل شهوة تعارض أمره، وسلم من كل إرادة تزاحم مراده، وسلم من كل قاطع يقطعه عن الله. فهذا القلب السليم في جنة معجلة في الدنيا وفي جنة في البرزخ وفي جنة يوم المعاد.

ولا يتم له سلامته مطلقًا حتى يسلم من خمسة أشياء: من شرك يناقض التوحيد. وبدعة تخالف السنة. وشهوة تخالف الأمر. وغفلة تناقض الذكر. وهوى يناقض التجريد. والإخلاص يعم.

وهذه الخمسة حجب عن الله. وتحت كل واحد منها أنواع كثيرة تتضمن أفـرادًا لأشخـاص لا تحصر، ولـذلك اشتدت حاجة العبد بل ضرورته إلى أن

---

(١) ٣١٥ بدائع جـ٣. (٢) ١٦٣ الجواب.

يسأل الله أن يهديه الصراط المستقيم. فليس العبد أحوج إلى شيء منه إلى هذه الدعوة، وليس شيء أنفع منها. فإن الصراط المستقيم يتضمن علومًا وإرادة وأعمالًا وتروكًا ظاهرة وباطنة تجري عليه كل وقت.

فتفاصيل الصراط المستقيم قد يعلمها العبد وقد لا يعلمها. وقد يكون ما لا يعلمه أكثر مما يعلمه. وما يعلمه قد يقدر عليه وقد لا يقدر عليه وهو من الصراط المستقيم وإن عجز عنه. وما يقدر عليه قد تريده نفسه وقد لا تريده كسلًا وتهاونًا أو لقيام مانع وغير ذلك. وما تريده قد يفعله وقد لا يفعله. وما يفعله قد يقوم بشروط الإخلاص فيه وقد لا يقوم. وما يقوم فيه بشروط الإخلاص قد يقوم فيه بكمال المتابعة وقد لا يقوم. وما يقوم فيه بالمتابعة قد يثبت عليه وقد يصرف قلبه عنه. وهذا كله واقع سار في الخلق، فمستقل ومستكثر.

فصل[1]

والقلب السليم الذي ينجو من عذاب الله هو القلب الذي قد سلم من هذا وهذا، فهو القلب الذي قد سلم لربه وسلم لأمره، ولم تبق فيه منازعة لأمره ولا معارضة لخبره، فهو سليم مما سوى الله وأمره، لا يريد إلا الله، ولا يفعل إلا ما أمره الله، فالله وحده غايته، وأمره وشرعه وسيلته وطريقته، لا تعترضه شبهة تحول بينه وبين تصديق خبره، لكن لا تمر عليه إلا وهي مجتازة تعلم أنه لا قرار لها فيه، ولا شهوة تحول بينه وبين متابعة رضاه.

ومتى كان القلب كذلك فهو سليم من الشرك، وسليم من البدع، وسليم من الغي، وسليم من الباطل. وكل الأقوال التي قيلت في تفسيره فذلك يتضمنها.

وحقيقته: أنه القلب الذي قد سلم لعبودية ربه حبًا وخوفًا وطمعًا ورجاء ففني بحبه عن حب ما سواه وبخوفه عن خوف ما سواه، وبرجائه عن رجاء ما سواه، وسلم لأمره ولرسوله تصديقًا وطاعة كما تقدم، واستسلم لقضائه وقدره، فلم يتهمه، ولم ينازعه، ولم يتسخط لأقداره، فأسلم لربه انقيادًا وخضوعًا وذلًا وعبودية، وسلم جميع أحواله وأقواله وأعماله وأذواقه ومواجيده ظاهرًا وباطنًا من

---

(١) ٤١ مفتاح جـ١.

مشكاة رسوله وعرض ما جاء من سواها عليها فما وافقها قبله وما خالفها رده، وما لم يتبين له فيه موافقة ولا مخالفة وقف أمره وأرجأه إلى أن يتبين له، وسالم أولياءه وحزبه المفلحين الذابّين عن دينه وسنة نبيه، القائمين بها، وعادى أعداءه المخالفين لكتابه وسنة نبيه الخارجين عنها الداعين إلى خلافهما.

[(١)] . . . **لما** لكان القلب يوصف بالحياة وضدها. انقسم بحسب ذلك إلى هذه الأحوال الثلاثة. فالقلب الصحيح: هو القلب السليم الذي لا ينجو يوم القيامة إلا من أتى الله به، كما قال تعالى: ﴿**يَوْمَ لا يَنفَعُ مالٌ ولا بَنُونَ * إلاَّ مَنْ أَتَى الله بقلبٍ سَليمٍ**﴾. [الشعراء: ٨٨- ٨٩]. والسليم هو السالم، وجاء على هذا المثال لأنه للصفات، كالطويل والقصير والظريف، فالسليم القلب الذي قد صارت السلامة صفة ثابتة له، كالعليم والقدير، وأيضًا فإنه ضد المريض، والسقيم، والعليل.

وقد اختلفت عبارات الناس في معنى القلب السليم، والأمر الجامع لذلك: أنه الذي قد سلم من كل شهوة تخالف أمر الله ونهيه، ومن كل شبهة تعارض خبره. فسلم من عبودية ما سواه، وسلم من تحكيم غير رسوله. فسلم في محبة الله مع تحكيمه لرسوله، في خوفه ورجائه[(١)] والتوكل عليه، والإنابة إليه، والذل له، وإيثار مرضاته في كل حال، والتباعد من سخطه بكل طريق. وهذا هو حقيقة العبودية التي لا تصلح إلا لله وحده.

فالقلب السليم: هو الذي سلم من أن يكون لغير الله فيه شرك بوجه ما، بل قد خلصت عبوديته لله تعالى: إرادة ومحبة، وتوكلاً، وإنابة، وإخباتًا، وخشية، ورجاء، وخلص عمله لله. فإن أحب أحب في الله، وإن أبغض أبغض في الله، وإن أعطى أعطى لله، وإن منع منع لله، ولا يكفيه هذا حتى يسلم من الانقياد والتحكيم لكل من عدا رسوله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم، فيعقد قلبه معه عقداً محكما على الانتمام والاقتداء به وحده، دون كل أحد في الأقوال والأعمال، من أقوال القلب، وهي العقائد، وأقوال اللسان. وهي الخبر عما في القلب. وأعمال القلب. وهي الإرادة والمحبة والكراهة وتوابعها، وأعمال الجوارح، فيكون الحاكم عليه في ذلك كله دِقِّه وجِلِّه، هو ما جاء به الرسول صلى الله تعالى عليه

(١) ٧ إغاثة جـ١.

وآله وسلم، فلا يتقدم بين يديه بعقيدة ولا قول ولا عمل.

فصل في القلب الميت[1]

والقلب الثاني ضد هذا، وهو القلب الميت الذي لا حياة به، فهو لا يعرف ربه، ولا يعبده بأمره وما يحبه ويرضاه، بل هو واقف مع شهواته ولذاته، ولو كان فيها سخط ربه وغضبه، فهو لا يبالي إذا فاز بشهوته وحظه، رضي ربه أم سخط، فهو متعبد لغير الله: حبًّا وخوفًا، ورجاء، ورضا وسخطًا، وتعظيمًا، وذلًّا. إن أحب أحب لهواه، وإن أبغض أبغض لهواه، وإن أعطى أعطى لهواه، وإن منع منع لهواه. فهواه آثر عنده وأحب إليه من رضا مولاه. فالهوى إمامه. والشهوة قائده، والجهل سائقه، والغفلة مركبه. فهو بالفكر في تحصيل أغراضه الدنيوية مغمور، وبسكرة الهوى وحب العاجلة مخمور. ينادَى إلى الله وإلى الدار الآخرة من مكان بعيد، ولا يستجيب للناصح، ويتبع كل شيطان مريد. الدنيا تسخطه وترضيه. والهوى يصمّه عما سوى الباطل ويُعميه. فهو في الدنيا كما قيل في ليلى:

عدو لمن عادت، وسلم لأهلها ومن قَرَّبت ليلى أحبّ وأقربا

فمخالطة صاحب هذا القلب سَقَم. ومعاشرته سُمٌّ. ومجالسته هلاك.

فصل في القلب المريض

والقلب الثالث: قلب له حياة وبه علة. فله مادتان، تمده هذه مرة، وهذه أخرى. وهو لما غلب عليه منهما، ففيه من محبة الله تعالى والإيمان به والإخلاص له، والتوكل عليه: ما هو مادة حياته، وفيه من محبة الشهوات وإيثارها والحرص على تحصيلها، والحسد والكبر والعجب، وحب العلو والفساد في الأرض بالرياسة: ما هو مادة هلاكه وعطبه، وهو ممتحن بين داعيين: داع يدعوه إلى الله ورسوله والدار الآخرة، وداع يدعوه إلى العاجلة. وهو إنما يجيب أقربهما منه بابًا، وأدناهما إليه جوارًا.

فالقلب الأول، حي مخبت لين واع، والثاني يابس ميت، والثالث مريض، فإما إلى السلامة أدنى، وإما إلى العطب أدنى.

---

(١) ٩ إغاثة جـ١.

وقد جمع الله سبحانه بين هذه القلوب الثلاثة في قوله: ﴿وَمَا أَرْسَلنا مِنْ قبلِكَ مِنْ رَسول ولا نبيّ إلَّا إذا تَمَنَّى ألقَى الشيطانُ في أُمنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ الله ما يُلقي الشَّيطانُ﴾. [الحج: ٥٢].

(١)**والفرق** بين سلامة القلب والبله والتغفل: أن سلامة القلب تكون من عدم إرادة الشر بعد معرفته، فيسلم قلبه من إرادته وقصده لا من معرفته والعلم به، وهـذا بخـلاف البله والغفلة فإنها جهل وقلة معرفة، وهذا لا يحمد إذ هو نقص، وإنما يحمد الناس من هو كذلك لسلامتهم منه. والكمال أن يكون القلب عارفًا بتفاصيل الشر سليمًا من إرادته. قال عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ: لست بخب ولا يخدعني الخب. وكان عمر أعقل من أن يُخْدَعَ، وأورع من أن يَخْدَعَ.

وقال تعالى: ﴿يومَ لا يَنْفَعُ مالٌ ولا بَنُونَ * إلاَّ مَنْ أَتَى الله بقلبٍ سليمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨-٨٩]. فهذا هو السليم من الآفات التي تعتري القلوب المريضة من مرض الشبهـة التي توجب اتبـاع الـظن، ومـرض الشهـوة التي توجب اتباع ما تهوى الأنفس، فالقلب السليم الذي سلم من هذا وهذا.

(٢)**وأما** الشرك، فهو نوعان: أكبر وأصغر. فالأكبر: لا يغفره الله إلا بالتوبة منه. وهو أن يتخذ من دون الله ندًّا، يحبه كما يحب الله. وهو الشرك الذي تضمن تسوية آلهة المشركين برب العالمين. ولهذا قالوا لآلهتهم في النار: ﴿تالله إنْ كُنَّا لفِي ضَلالٍ مُبينٍ. إذْ نُسَوِّيكُم بربِّ العَالمينَ﴾ [الشعراء: ٩٧-٩٨]. مع إقرارهم بأن الله وحده خالق كل شيء، وربه ومليكه، وأن آلهتهم لا تخلق ولا ترزق، ولا تحيي ولا تميت. وإنـما كانت هذه التسـوية في المحبة والتعظيم والعبادة كما هو حال أكثر مشركي العالم، بل كلهم. يحبون معبوداتهم ويعظمونها ويوالونها من دون الله. وكثير منهم ـ بل أكثرهم ـ يحبون آلهتهم أعظم من محبة الله. ويستبشرون بذكرهم أعظم من استبشارهم إذا ذكر الله وحده. ويغضبون لمنتقص معبوديهم وآلهتهم ـ من المشايخ ـ أعظم مما يغضبون إذا انتقص أحد رب العالمين. وإذا انتهكت حرمـة من حرمـات آلهتهم ومعبـوداتهم غضبـوا غضب الليث. إذا حَرِد. وإذا انتهكت حرمات الله لم يغضبوا لها، بل إذا قام المنتهك لها بإطعامهم شيئًا رضوا

(١) ٢٩٧ الروح. (٢) ٣٣٩ مدارج جـ١.

عنه. ولم تتنكر له قلوبهم. وقد شاهدنا هذا نحن وغيرنا منهم جَهرة. وترى أحدهم قد اتخذ ذكر إلـهه ومعبوده من دون الله على لسانه دَيْدَنًا له إن قام وإن قعد. وإن عثر وإن مرض وإن استوحش. فذكر إلـهه ومعبوده من دون الله هو الغالب على قلبه ولسانه. وهو لا ينكر ذلك. ويزعم أنه باب حاجته إلى الله، وشفيعه عنده. ووسيلته إليه....

(١) **ولما** كانت كثرة ذكر الشيء موجبة لدوام محبته، ونسيانه سببًا لزوال محبته أو ضعفها، وكان الله سبحانه هو المستحق من عباده نهاية الحب مع نهاية التعظيم.

بل الشرك الذي لا يغفره الله تعالى هو أن يشرك به في الحب والتعظيم. فيحب غيره ويعظم من المخلوقات غيره. كما يحب الله تعالى ويعظمه قال تعالى: **﴿ومن النَّاسِ مَنْ يتَّخذُ من دونِ الله أَنْدَادًا يُحِبُّونَهم كَحُبِّ الله والذينَ آمَنُوا أَشَدُّ حبًّا لله﴾**. [البقرة: ١٦٥]. فأخبر سبحانه أن المشرك يحب الند كما يحب الله تعالى وأن المؤمن أشد حبًّا لله من كل شيء.

وقال أهل النار في النار: **﴿تالله إنْ كنَّا لفِي ضلالٍ مُبين. إذْ نُسَوِّيكُم بربِّ العالمين﴾**. [الشعراء: ٩٧، ٩٨]. ومن المعلوم أنهم إنما سووهم به - سبحانه - في الحب والتألة والعبادة، وإلا فلم يقل أحد قط: إن الصنم أو غيره من الأنداد مساوٍ لرب العالمين في صفاته، وفي أفعاله، وفي خلق السموات والأرض، وفي خلق عابده أيضًا. وإنما كانت التسوية في المحبة والعبادة.

وأضل من هؤلاء وأسوأ حالاً من سوى كل شيء بالله - سبحانه - في الوجود، وجعله وجود كل موجود كامل أو ناقص. فإذا كان الله قد حكم بالضلال والشقاء لمن سوى بينه وبين الأصنام في الحب، مع اعتقاد تفاوت ما بين الله وبين خلقه في الذات والأوصاف والأفعال فكيف بمن سوى الله بالموجودات في جميع ذلك، وزعم أنه ما عبد غير الله في كل معبود.

(٢) فصل

قال: «وإنما تجتنى ثمرة الفكرة بثلاثة أشياء: بقصر الأمل. والتأمل في

---

(١) ٢٦٦ جلاء. (٢) ٤٤٩ مدارج جـ١.

القرآن. وقلة الخلطة، والتمني. والتعلق بغير الله. والشبع والمنام».

يعني: أن في منزل «التذكر» تجتنى ثمرة «الفكرة» لأنه أعلى منها. وكل مقام تجتنى ثمرته في الذي هو أعلى منه. ولاسيما على ما قرره في خطبة كتابه «أن كل مقام يصحح ما قبله».

ثم ذكر أن هذه الثمرة تجتنى بثلاثة أشياء. أحدها: قصر الأمل، والثاني: تدبر القرآن(١)، والثالث: تجنب مفسدات القلب الخمسة.

فأما قصر الأمل: فهو العلم بقرب الرحيل، وسرعة انقضاء مدة الحياة. وهو من أنفع الأمور للقلب. فإنه يبعثه على معافصة الأيام، وانتهاز الفرص التي تمر مرَّ السحاب، ومبادرة طيِّ صحائف الأعمال. ويثير ساكن عزماته إلى دار البقاء، ويحثه على قضاء جهاز سفره، وتدارك الفارط. ويزهده في الدنيا. ويرغبه في الآخرة. فيقوم بقلبه - إذا داوم مطالعة قصر الأمل - شاهدٌ من شواهد اليقين. يريه فناء الدنيا. وسرعة انقضائها. وقلة ما بقي منها. وأنها قد ترحلت مدبرة. ولم يبق منها إلا صُبابة كصبابة الإناء يتصابُّها صاحبها. وأنها لم يبق منها إلا كما بقي من يوم صارت شمسه على رؤوس الجبال. ويريه بقاء الآخرة ودوامها، وأنها قد ترحلت مقبلة. وقد جاء أشراطها وعلاماتها، وأنه من لقائها كمسافر خرج صاحبه يتلقاه، فكل منهما يسير إلى الآخر، فيوشك أن يلتقيا سريعًا.

ويكفي في قصر الأمل قوله تعالى: ﴿**أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ثُمَّ جَاءَهُم مَا كَانُوا يُوعَدُونَ. مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ**﴾. [الشعراء: ٢٠٥ - ٢٠٧]. وقوله تعالى: ﴿**وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ**﴾. [يونس: ٤٥]. وقوله تعالى: ﴿**كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا**﴾. [النازعات: ٤٦]. وقوله تعالى: ﴿**قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ. فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ. قَالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ**﴾. [المؤمنون: ١١٣، ١١٤]. وقوله تعالى: ﴿**كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ**﴾. [الأحقاف: ٣٥]. وقوله تعالى: ﴿**يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا. نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا**﴾.

(١) تقدم في سورة الفرقان.

[طه: ١٠٣، ١٠٤]. وخطب النبي، ﷺ، أصحابه يومًا والشمس على رؤوس الجبال فقال: «**إنه لم يبق من الدنيا فيما مضى منها إلا كما بقي من يومكم هذا فيما مضى منه**». ومرَّ رسول الله، ﷺ، ببعض أصحابه. وهم يعالجون خُصًّا لهم قد وهَى. فهم يصلحونه، فقال: «**ما هذا؟**» قالوا: خصٌّ لنا قد وهَى فنحن نعالجه. فقال: «**ما أرى الأمر إلا أعجل من هذا**».

وقصر الأمل بناؤه على أمرين: تيقن زوال الدنيا ومفارقتها، وتيقن لقاء الآخرة وبقائها ودوامها. ثم يقايس بين الأمرين ويؤثر أولاهما بالإيثار.

(١)**قال** تعالى: ﴿**وما تَنَزَّلت بِهِ الشَّياطين وما يَنبَغِي لَهُمْ ومَا يَسْتَطِيعُونَ**﴾. [الشعراء: ٢١٠، ٢١١]. فنفى فعله وابتغاءه منهم، وقدرتهم عليه. وكل من له أدنى خبرة بأحوال الشياطين والمجانين والمتهمين، وأحوال الرسل يعلم علمًا لا يماري فيه ولا يشك، بل علمًا ضروريًّا، كسائر الضروريات منافاة أحدهما للآخر، ومضادته له. كمنافاة أحد الضدين لصاحبه، بل ظهور المنافاة بين الأمرين للعقل أبين من ظهور المنافاة بين النور والظلمة للبصر. ولهذا وبخ ـ سبحانه ـ من كفر بعد ظهور هذا الفـرق المبين بين دعوة الرسل ودعوة الشياطين. فقال: ﴿**فأَيْن تَذْهَبُونَ**﴾؟ [التكوير: ٢٦]. قال أبو إسحاق: فأي طريق تسلكون أبين من هذه الطريقة التي بينت لكم؟

قلت: هذا من أحسن الكلام وأبينه أن تبين للسامع الحق ثم تقول له: إيش تقول خلاف هذا؟ وأين تذهب خلاف هذا؟ قال تعالى: ﴿**فبأيِّ حديثٍ بعدَهُ يُؤمِنُونَ**﴾. [المرسلات: ٥٠]. وقال: ﴿**فَبِأَيِّ حديثٍ بعدَ الله وآياتِهِ يُؤمِنُونَ**﴾. [الجاثية: ٦]. فالأمر منحصر في الحق والباطل، والهدى والضلال، فإذا عدلتم عن الهدى والحق، فأين العدول، وأين المذهب؟

ونظير هذا قوله: ﴿**فَهَلْ عَسيتُمْ إنْ تَولَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وتُقَطِّعُوا أَرحَـامَكُمْ**﴾. [محمد: ٢٢]. أي إن أعرضتم عن الإيمان بالقرآن والرسول وطاعته فليس إلا الفساد في الأرض، والشرك والمعاصي وقطيعة الرحم. ونظيره قوله تعالى:

---

(١) ٧٩ تبيان.

﴿بَلْ كَذَّبُوا بالحقِّ لَمَّا جَاءَهُم فهُمْ في أَمْرٍ مَرِيجٍ﴾. [ق: ٥]. لما تركوا الحق وعدلوا عنه مرج عليهم أمرهم والتبس، فلا يدرون ما يقولون وما يفعلون، بل لا يقولون شيئًا إلا كان باطلًا، ولا يفعلون شيئًا إلا كان ضائعًا غير نافع لهم، وهذا شأن كل من خرج عن الطريق الموصل إلى المقصود، ونظيره قوله تعالى: ﴿فإنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فاعْلَمْ أنَّما يتَّبِعُونَ أهْوَاءَهُم﴾. [القصص: ٥٠]. وقد كشف هذا المعنى كل الشكف بقوله عز وجل: ﴿فَذَلِكُمْ الله ربُّكُم الحقُّ فماذا بعدَ الحقِّ إلاَّ الضَّلالُ فأنَّى تُصرَفُونَ﴾. [يونس: ٣٢].

(١) . . . **وأنت** إذا تأملت قوله تعالى: ﴿إنَّه لقرآنٌ كريم * في كتَابٍ مَكنُونٍ * لا يَمَسُّهُ إلاَّ المُطَهَّرونَ﴾. [الواقعة: ٧٧ - ٧٩]. وجدت الآية من أظهر الأدلة على نبوة النبي، ﷺ، وأن هذا القرآن جاء من عند الله وأن الذي جاء به روح مطهر فما للأرواح الخبيثة عليه سبيل، ووجدت الآية أخت قوله: ﴿وما تنزلت به الشياطين وما ينبَغِي لهم وما يَسْتَطِيعُونَ﴾. [الشعراء: ٢١٠، ٢١١]. ووجدتها دالة بأحسن الدلالة على أنه لا يمس المصحف إلا طاهر، ووجدتها دالة أيضًا بألطف الدلالة على أنه لا يجد حلاوته وطعمه إلا من آمن به وعمل به، كما فهمه البخاري من الآية فقال في صحيحه في باب ﴿قُلْ فأْتُوا بالتَّوراةِ فاتْلُوهَا﴾. [آل عمران: ٩٣]. «لا يمسه» لا يجد طعمه ونفعه إلا من آمن بالقرآن ولا يحمله بحقه إلا المؤمن؛ لقوله تعالى: ﴿مَثَلُ الذين حُمِّلوا التَّوراةَ ثمَّ لمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الحِمَارِ يَحْمِلُ أسْفَارًا﴾. [الجمعة: ٥]. وتجد تحته أيضًا أنه لا ينال معانيه ويفهمه كما ينبغي إلا القلوب الطاهرة، وأن القلوب النجسة ممنوعة من فهمه مصروفة عنه، فتأمل هذا النسب القريب وعقد هذه الأخوة بين هذه المعاني وبين المعنى الظاهر من الآية واستنباط هذه المعاني كلها من الآية بأحسن وجه وأبينه. فهذا من الفهم الذي أشار إليه علي رضي الله عنه. . . . .

(٢) **لما** أعرض الناس عن تحكيم الكتاب والسنة والمحاكمة إليهما، واعتقدوا عدم الاكتفاء بهما، وعدلوا إلى الآراء والقياس والاستحسان وأقوال الشيوخ، عرض لهم من ذلك فساد في فطرهم، وظلمة في قلوبهم، وكدر في أفهامهم، ومحق

---

(١) ٢٦٦ إعلام جـ١. (٢) ٤٨ فوائد.

في عقولهم، وعمتهم هذه الأمور، وغلبت عليهم؛ حتى ربى فيها الصغير وهرم عليها الكبير، فلم يروها منكرًا، فجاءتهم دولة أخرى قامت فيها البدع مقام السنن والنفس مقام العقل، والهوى مقام الرشد، والضلال مقام الهدى، والمنكر مقام المعروف، والجهل مقام العلم، والرياء مقام الإخلاص، والباطل مقام الحق، والكذب مقام الصدق، والمداهنة مقام النصيحة، والظلم مقام العدل. فصارت الدولة والغلبة لهذه الأمور، وأهلها هم المشار إليهم، وكانت قبل ذلك لأضدادها، وكان أهلها هم المشار إليهم.

فإذا رأيت دولة هذه الأمور قد أقبلت، وراياتها قد نصبت، وجيوشها قد ركبت، فبطن الأرض والله خير من ظهرها؛ وقلل الجبال خير من السهول، ومخالطة الوحش أسلم من مخالطة الناس.

اقشعرت الأرض وأظلمت السماء، وظهر الفساد في البر والبحر من ظلم الفجرة، وذهبت البركات وقلت الخيرات، وهزلت الوحوش وتكدرت الحياة من فسق الظلمة، وبكى ضوء النهار وظلمة الليل من الأعمال الخبيثة والأفعال الفظيعة، وشكا الكرام الكاتبون والمعقبات إلى ربهم كثرة الفواحش وغلبة المنكرات والقبائح، وهذا والله منذر بسيل عذاب قد انعقد غمامه، ومؤذن بليل بلاء قد ادلهم ظلامه، فاعزلوا عن طريق هذا السبيل بتوبة نصوح، ما دامت التوبة ممكنة وبابها مفتوح، وكأنكم بالباب وقد أغلق، وبالرهن وقد غلق، وبالجناح وقد علق ﴿وَسَيَعْلَمُ الذينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾. [الشعراء: ٢٢٧].

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة الشعراء

والحمد لله رب العالمين

سورة النمل

ترتيبها ٢٧ آياتها ٩٣

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) **قال** تعالى: ﴿وإنَّك لتلقى القرآن من لدن حكيمٍ عليمٍ﴾ [النمل:٦] فأخبر أن مصدر التلقي عن علم المتكلم وحكمته، وماكان كذلك كان صدقًا وعدلاً، وهدى وإرشادًا.

(٢) **النوع** الرابع عشر: إخباره عن صدور الخلق والأمر عن حكمته وعلمه، فذكر هذين الاسمين عند ذكر مصدر خلقه وشرعه، تنبيهًا على أنهما إنما صدرا عن حكمة مقصودة مقارنة للعلم المحيط التام كقوله: ﴿وإنَّك لتلقَّى القرآنَ مِنْ لدُنْ حكيمٍ عليمٍ﴾. وقوله: ﴿تنزيلُ الكتابِ من الله العزيزِ الحكيم﴾. [الزمر: ١]. فذكره العزة المتضمنة لكمال القدرة والتصرف، والحكمة المتضمنة لكمال الحمد والعلم.

وقوله: ﴿والسَّارقُ والسَّارِقَةُ فاقْطَعُوا أيديَهُما جزاءً بِما كَسَبا نكالاً من الله والله عزيزٌ حكيمٌ﴾. [المائدة:٣٨].

وسمع بعض الأعراب قارئًا يقرأها والله غفور رحيم فقال: ليس هذا كلام الله فقال: أتكذب بالقرآن؟ فقال لا، ولكن لا يحسن هذا فرجع القارىء إلى خطئه فقال عزيز حكيم فقال: صدقت.

وإذا تأملت ختم الآيات بالأسماء والصفات وجدت كلامه مختتمًا بذكر الصفة التي يقتضيها ذلك المقام، حتى كأنها ذكرت دليلاً عليه وموجبة له، وهذا كقوله: ﴿إنْ تُعذِّبهم فإنَّهم عِبادكَ وإنْ تغْفِرْ لهُمْ فإنَّكَ أنْتَ العزيزُ الحكيم﴾. [المائدة:١١٨]. أي فإن مغفرتك لهم مصدر عن عزة هي كمال القدرة لا عن عجز وجهل.

وقوله: ﴿ذلِكَ تقديرُ العزيزِ العَليم﴾. [يس: ٣٨]. في عدة مواضع من القرآن يذكر ذلك عقيب ذكره الأجرام العلوية وما تضمنه من فلق الإصباح، وجعل الليل سكنًا، وإجراء الشمس والقمر بحساب لا يعدوانه، وتزيين السماء الدنيا بالنجوم وحراستها، وأخبر أن هذا التقدير المحكم المتقن صادر عن عزته

(١) ١٦٢ بدائع جـ٤. (٢) ٢٠٠ شفاء.

وعلمه ليس أمرًا اتفاقيًا لا يمدح به فاعله ولا يثنى عليه به كسائر الأمور الاتفاقية.

ومن هذا ختمه سبحانه قصص الأنبياء وأممهم في سورة الشعراء عقيب كل قصة ﴿**وإنَّ ربَّكَ لهوَ العَزيزُ الرَّحيم**﴾. فإن ما حكم به لرسله وأتباعهم ولأعدائهم صادر عن عزة ورحمة، فوضع الرحمة في محلها، وانتقم من أعدائه بعزته، ونجى رسله وأتباعهم برحمته. والحكمة الحاصلة من ذلك بأمر مطلوب مقصود وهي غاية الفعل، لا أنها أمر اتفاقي.

... (١) **لا** يكون الجحد إلا بعد الاعتراف بالقلب واللسان.

ومنه قوله تعالى: ﴿**وجَحَدوا بها واستَيْقنَتْها أنفُسُهم**﴾. [النمل: ١٤].

ومنه: ﴿**ولكنَّ الظَّالمينَ بآياتِ الله يَجْحَدُون**﴾. [الأنعام: ٣٣]. عقيب قوله: ﴿**فإنَّهُم لا يُكذِّبُونكَ**﴾.

ومنه: ﴿**وما يجحد بآياتِنا إلاَّ الظَّالمون**﴾. [العنكبوت: ٤٩]. ﴿**وما يجحَدُ بآياتنا إلاَّ الكَافِرُون**﴾. [العنكبوت: ٤٧].

وعلى هذا لا يحسن استعمال الفقهاء لفظ الجحود في مطلق الإنكار في باب الدعاوى وغيرها لأن المنكر قد يكون محقًا فلا يسمى جاحدًا.

(٢) ... **قوله** تعالى: ﴿**فلمَّا جاءَتْهُمْ آياتُنَا مُبْصِرَة قالوا هَذا سِحْرٌ مُبِينٌ وجَحَدُوا بها واستَيْقَنَتْهَا أنفُسُهمْ ظُلمًا وعلوًّا فانْظُر كيْفَ كانَ عَاقِبَةُ المُفْسِدينَ**﴾.

[النمل: ١٤].

فأخبر سبحانه أن تكذيبهم وكفرهم كان عن يقين - وهو أقوى العلم - ظلمًا منهم وعلوًّا لا جهلاً.

(٣)**قوله** تعالى: ﴿**وَوَرِثَ سُليمانُ داودَ**﴾. [النمل: ١٦]. فهو ميراث العلم والنبوة لا غير. وهذا باتفاق أهل العلم من المفسرين وغيرهم، وهذا لأن داود عليه السلام كان له أولاد كثيرة سوى سليمان، فلو كان الموروث هو المال لم يكن سليمان مختصًا به.

وأيضا: فإن كلام الله يصان عن الإخبار بمثل هذا؛ فإنه بمنزلة أن يقال: مات فلان وورثه ابنه. ومن المعلوم أن كل أحد يرثه ابنه، وليس في الإخبار بمثل هذا فائدة.

---

(١) ١١٨ بدائع جـ٤. (٢) ٩١ مفتاح جـ١. (٣) ٦٧ مفتاح جـ١.

وأيضا فإن ما قبل الآية وما بعدها يبين أن المراد بهذه الوراثة وراثة العلم والنبوة لا وراثة المال. قال تعالى: ﴿**وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ للهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ. وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ**﴾ [النمل: ١٥-١٦]. وإنما سيق هذا لبيان فضل سليمان وما خصه الله به من كرامته وميراثه ما كان لأبيه من أعلى المواهب وهو العلم والنبوة. ﴿**إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ**﴾ [النمل: ١٦].

فصل[١]

وهذه النمل من أهدى الحيوانات، وهدايتها من أعجب شيء، فإن النملة الصغيرة تخرج من بيتها وتطلب قوتها وإن بعدت عليها الطريق، فإذا ظفرت به حملته وساقته في طرق معوجة بعيدة ذات صعود وهبوط في غاية من التوعر حتى تصل إلى بيوتها فتخزن فيها أقواتها في وقت الإمكان، فإذا خزنتها عمدت إلى ما ينبت منها ففلقته فلقتين لئلا ينبت، فإن كان ينبت مع فلقه باثنتين فلقته بأربعة، فإذا أصابه بلل وخافت عليه العفن والفساد انتظرت به يومًا ذا شمس فخرجت به فنشرته على أبواب بيوتها ثم أعادته إليها، ولا تتغذى منها نملة مما جمعه غيرها.

ويكفي في هداية النمل ما حكاه الله سبحانه في القرآن عن النملة التي سمع سليمان كلامها وخطابها لأصحابها بقولها: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ**﴾. [النمل: ١٨].

فاستفتحت خطابها بالنداء الذي يسمعه من خاطبته، ثم أتت بالاسم المبهم، ثم اتبعته بما يثبته من اسم الجنس - إرادة للعموم - ثم أمرتهم بأن يدخلوا مساكنهم فيتحصنون من العسكر، ثم أخبرت عن سبب هذا الدخول وهو خشية أن يصيبهم معرة الجيش فيحطمهم سليمان وجنوده، ثم اعتذرت عن نبي الله وجنوده بأنهم لا يشعرون بذلك. وهذا من أعجب الهداية.

وتأمل كيف عظم الله سبحانه شأن النمل بقوله: ﴿**وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ**﴾. [النمل: ١٧]. ثم قال: ﴿**حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ**﴾. [النمل: ١٨] فأخبر أنهم بأجمعهم مروا على ذلك الوادي، ودلَّ على

---

(١) ٦٨ شفاء.

أن ذلك الوادي معروفًا بالنمل كوادي السباع ونحوه.

ثم أخبر بما دل على شدة فطنة هذه النملة ودقة معرفتها حيث أمرتهم أن يدخلوا مساكنهم المختصة بهم، فقد عرفت هي والنمل أن لكل طائفة منها مسكنًا لا يدخل عليهم فيه سواهم، ثم قالت لا يحطمنكم سليمان وجنوده فجمعت بين اسمه وعينه، وعرَّفته بهما، وعرفت جنوده وقائدها، ثم قالت: وهم لا يشعرون، فكأنها جمعت بين الاعتذار عن مضرة الجيش بكونهم لا يشعرون وبين لوم أمة النمل حيث لم يأخذوا حذرهم ويدخلوا مساكنهم، ولذلك تبسم نبي الله ضاحكًا من قولها، وإنه لموضع تعجب وتبسم.

وقد روى الزهري عن عبدالله بن عبدالله بن عيينة عن ابن عباس أن رسول الله، ﷺ، نهى عن قتل النمل والنحلة والهدهد والصرد.

وفي الصحيح عن أبي هريرة عن النبي، ﷺ، قال: «**نزل نبي من الأنبياء تحت شجرة فقرصته نملة فأمر بجهازه فأخرج وأمر بقرية النمل فأحرقت فأوحى الله إليه أمن أجل أن قرصتك نملة أحرقت أمة من الأمم تسبح فهلا نملة واحدة**».

وذكر هشام بن حسان أن أهل الأحنف بن قيس لقوا من النمل شدة، فأمر الأحنف بكرسي فوضع عند تنورين فجلس عليه ثم تشهد ثم قال: لتنتهن أو ليحرقن عليكن ونفعل ونفعل، قال: فذهبن.

وروى عوف بن أبي جميلة عن قسامة بن زهير قال: قال أبو موسى الأشعري: إن لكل شيء سادة حتى للنمل سادة.

ومن عجيب هدايتها أنها تعرف ربها بأنه فوق سمواته على عرشه كما رواه الإمام أحمد في كتاب الزهد من حديث أبي هريرة يرفعه قال: «خرج نبي من الأنبياء بالناس يستسقون فإذا هم بنملة رافعة قوائمها إلى السماء تدعو مستلقية على ظهرها فقال: ارجعوا فقد كفيتم أو سقيتم بغيركم» ولهذا الأثر عدة طرق، ورواه الطحاوي في التهذيب وغيره، وقال الإمام أحمد: حدثنا[1] قال: خرج سليمان بن داود يستسقي فرأى نملة مستلقية على ظهرها رافعة قوائمها إلى السماء وهي تقول: اللهم إنا خلق من خلقك ليس بنا غنا عن سقياك ورزقك، فإما أن تسقينا

---

(١) بياض في الأصل.

وترزقنا، وإما أن تهلكنا فقال: ارجعوا فقد سقيتم بدعوة غيركم. ولقد حدثني أن نملة خرجت من بيتها فصادفت شق جرادة فحاولت أن تحمله فلم تطق، فذهبت وجاءت معها بأعوان يحملنه معها قال: فرفعتُ ذلك من الأرض، فطافت في مكانه فلم تجده، فانصرفوا وتركوها قال: فوضعته، فعادت تحاول حمله فلم تقدر فذهبت وجاءت بهم، فرفعته، فطافت فلم تجده فانصرفوا، قال: فعلت ذلك مرارًا فلما كان في المرة الأخرى استدار النمل حلقة ووضعوها في وسطها وقطعوها عضوًا عضوًا.

قال شيخنا وقد حكيت له هذه الحكاية فقال: هذه النمل فطرها الله سبحانه على قبح الكذب وعقوبة الكذاب، والنمل من أحرص الحيوان ويضرب بحرصه المثل.

ويذكر أن سليمان صلوات الله وسلامه عليه لما رأى حرص النملة وشدة ادخارها للغذاء استحضر نملة وسألها كم تأكل النملة من الطعام كل سنة؟ **قالت: ثلاث حبات من الحنطة، فأمر بإلقائها في قارورة، وسد فم القارورة، وجعل معها ثلاث حبات حنطة وتركها سنة بعدما قالت، ثم أمر بفتح القارورة عند فراغ** السنة فوجد حبة ونصف حبة فقال: أين زعمك؟ أنت زعمت أن قُوتَك كل سنة ثلاث حبات فقالت: نعم، ولكن لما رأيتك مشغولاً بمصالح أبناء جنسك حسبت الذي بقي من عمري فوجدته أكثر من المدة المضروبة، فاقتصرت على نصف القوت واستبقيت نصفه استبقاء لنفسي، فعجب سليمان من شدة حرصها. وهذا من أعجب الهداية والفطنة.

ومن حرصها أنها تكد طول الصيف وتجمع للشتاء علمًا منها بإعواز الطلب في الشتاء وتعذر الكسب فيه. وهي على ضعفها شديدة القوى فإنها تحمل أضعاف أضعاف وزنها وتجره إلى بيتها.

ومن عجيب أمرها أنك إذا أخذت عضو كزبرة يابس فادنيته إلى أنفك لم تشم له رائحة، فإذا وضعته على الأرض أقبلت النملة من مكان بعيد إليه، فإن عجزت عن حمله ذهبت وأتت معها بصف من النمل يحتملونه. فكيف وجدت

رائحة ذلك من جوف بيتها حتى أقبلت بسرعة إليه؟! فهي تدرك بالشم من البعد ما يدركه غيرها بالبصر أو بالسمع، فتأتي من مكان بعيد إلى موضع أكل فيه الإنسان وبقي فيه فتات من الخبز أو غيره فتحمله وتذهب به وإن كان أكبر منها، فإن عجزت عن حمله ذهبت إلى جحرها وجاءت معها بطائفة من أصحابها فجاءوا كخيط أسود يتبع بعضهم بعضًا حتى يتساعدوا على حمله ونقله. وهي تأتي إلى السنبلة فتشمها فإن وجدتها حنطة قطعتها ومزقتها وحملتها، وإن وجدتها شعيراً فلا. ولها صدق الشم، وبعد الهمة، وشدة الحرص، والجرأة على محاولة نقل ما هو أضعاف أضعاف وزنها، وليس للنمل قائد ورئيس يدبرها كما يكون للنحل، إلا أن لها رائدًا يطلب الرزق، فإذا وقف عليه أخبر أصحابه فيخرجن مجتمعات، وكل نملة تجتهد في صلاح العامة منها غير مختلسة من الحب شيئًا لنفسها دون صواحباتها.

ومن عجيب أمرها أن الرجل إذا أراد أن يحترز من النمل لا يسقط في عسل أو نحوه فإنه يحفر حفيرة ويجعل حولها ماء، أو يتخذ إناء كبيراً ويملؤه ماء ثم يضع فيه ذلك الشيء فيأتي الذي يطيف به فلا يقدر عليه، فيتسلق في الحائط ويمشي على السقف إلى أن يحاذي ذلك الشيء فتلقي نفسها عليه، وجربنا نحن ذلك.

وأحمى صانع مرة طوقًا بالنار ورماه على الأرض ليبرد، واتفق أن اشتمل الطوق على نمل فتوجه في الجهات ليخرج فلحقه وهج النار فلزم المركز ووسط الطوق وكان ذلك مركزًا له وهو أبعد مكان من المحيط.

فصل

وهذا الهدهد من أهدى الحيوان وأبصره بمواضع الماء تحت الأرض لا يراه غيره.

ومن هدايته ما حكاه الله عنه في كتابه أن قال لنبي الله سليمان وقد فقده وتوعده فلما جاءه بدره بالعذر قبل أن ينذره سليمان بالعقوبة وخاطبه خطابًا هيجه به على الإصغاء إليه والقبول منه. فقال ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ﴾. [النمل: ٢٢].

وفي ضمن هذا أنى أتيتك بأمر قد عرفته حق المعرفة بحيث أحطت به وهو خبر عظيم له شأن فلذلك قال: ﴿وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾. [النمل: ٢٢]. والنبأ هو الخبر الذي له شأن والنفوس متطلعة إلى معرفته، ثم وصفه بأنه نبأ يقين لا شك فيه ولا ريب. فهذه مقدمة بين يدي إخباره لنبي الله بذلك النبأ استفرغت قلب

المخبر لتلقي الخبر وأوجبت له التشوف التام إلى سماعه ومعرفته، وهذا نوع من براعة الاستهلال وخطاب التهييج.

ثم كشف عن حقيقة الخبر كشفًا مؤكدًا بأدلة التأكيد فقال: ﴿**إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ**﴾. [النمل: ٢٣]. ثم أخبر عن شأن تلك الملكة وأنها من أجل الملوك بحيث ﴿**أُوتيت من كلِّ شيء**﴾ يصلح أن تؤتاه الملوك، ثم زاد في تعظيم شأنها بذكر عرشها التي تجلس عليه، وأنه عرش عظيم، ثم أخبره بما يدعوهم إلى قصدهم وغزوهم في عقر دارهم بعد دعوتهم إلى الله، فقال: ﴿**وجدتُها وقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ الله**﴾. [النمل: ٢٤]. وحذف أداة العطف من هذه الجملة وأتى بها مستقلة غير معطوفة على ما قبلها إيذانًا بأنها هي المقصودة وما قبلها توطئة لها.

ثم أخبر عن المغوي لهم الحامل لهم على ذلك وهو تزيين الشيطان لهم أعمالهم حتى صدهم عن السبيل المستقيم وهو السجود لله وحده. ثم أخبر أن ذلك الصد حال بينهم وبين الهداية والسجود لله الذي لا ينبغي السجود إلا له.

ثم ذكر من أفعاله سبحانه إخراج الخبءَ في السموات والأرض، وهو المخبوء فيهما من المطر والنبات والمعادن وأنواع ما ينزل من السماء وما يخرج من الأرض، وفي ذكر الهدهد هذا الشأن من أفعال الرب تعالى بخصوصه إشعار بما خصه الله به من إخراج الماء المخبوء تحت الأرض.

قال صاحب الكشاف: وفي إخراج الخبء أمارة على أنه من كلام الهدهد لهندسته ومعرفته الماء تحت الأرض، وذلك بإلهام من يخرج الخبء في السموات والأرض جلت قدرته ولطف علمه. ولا يكاد يخفى على ذي الفراسة الناظر بنور الله مخايل كل شخص بصناعة أو فن من العلم في روائه ومنطقه وشمائله، فما عمل آدمي عمل إلا ألقى الله عليه رداء عمله.

(١)... (**الوجه** الخامس والأربعون بعد المائة) أن سليمان لما توعد الهدهد بأن يعذبه عذابًا شديدًا أو يذبحه، إنما نجا منه بالعلم وأقدم عليه في خطابه له بقوله: أحطت بما لم تحط به.

وهذا الخطاب إنما جرأه عليه العلم، وإلا فالهدهد مع ضعفه لا يتمكن من

---

(١) ١٧٣ مفتاح جـ١.

خطابه لسليمان مع قوته بمثل هذا الخطاب لولا سلطان العلم.

ومن هذا الحكاية المشهورة أن بعض أهل العلم سئل عن مسألة فقال لا أعلمها، فقال أحد تلامذته: أنا أعلم هذه المسألة، فغضب الأستاذ وهم به، فقال له أيها الأستاذ لست أعلم من سليمان بن داود، ولو بلغت في العلم ما بلغت، ولست أنا أجهل من الهدهد، وقد قال لسليمان أحطت بما لم تحط به، فلم يعتب عليه ولم يعنفه.

(١)... **من** لوازم ربوبيته تعالى وإلهيته إخراج الخبأ في السموات والأرض من النبات والأقوات والحيوان والمعادن وغيرها. وخبأ السموات ما أودعها من أمره الذي يخرجه كل وقت بفعله وأمره، وهذا من تدبيره لملائكته وتصرفه في العالم العلوي والسفلي. فبإخراج هذا الخبأ تظهر قدرته ومشيئته وعلمه وحكمته.

وكذلك النفوس فيها خبأ كامن يعلمه سبحانه منها فلابد أن يقيم أسبابًا يظهر بها خبأ النفوس الذي كان كامنًا فيها. فإذا صار ظاهرًا عيانًا ترتب عليه أثره إذ لم يكن يترتب على نفس العلم به دون أن يكون معلومًا واقعًا في الوجود.

قال تعالى: **﴿ما كَانَ الله لِيَذَرَ المؤمِنينَ على ما أَنْتُم عليهِ حتَّى يَمِيزَ الخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾**. [آل عمران: ١٧٩].

وقال تعالى: **﴿وهوَ الذي خَلَقَ السموات والأَرضَ في ستَّةِ أَيَّامٍ وكانَ عرشُهُ على الماءِ لِيَبْلُوكُم أَيُّكُم أَحْسَنُ عَمَلاً﴾**. [هود: ٧]. فأخبر أنه خلق العالم العلوي والسفلي ليبلو عباده فيظهر من يطيعه ويحبه ويجله ويعظمه ممن يعصيه ويخالفه.

وهذا الابتلاء والامتحان يستلزم أسبابًا يحصل بها، فلابد من خلق أسبابه، ولهذا لما كان من أسبابه خلق الشهوات وما يدعو إليها وتزيينها فَعَلَ ذلك.

وقال تعالى: **﴿إنَّا جَعَلْنَا ما عَلَى الأَرْضِ زينَةً لَهَا لِنَبْلُوهُم أيُّهم أَحْسَنُ عَمَلاً﴾**. [الكهف: ٧]. فهذه ثلاثة مواضع في القرآن تبين حكمته في خلق أسباب الابتلاء والاختبار.

فظهر أن من بعض الحكم في خلق عدو الله إخراج خبأ النفوس الخبيثة

---

(١) ٣٤٠ مختصر الصواعق جـ١.

التي شرها وخبثها كامن فيها، فأخرج خبأها بزناد دعوته كما يخرج خبأ النار بقدح الزناد، وكما يخرج خبأ الأرض بإنزال الماء عليها، وكما يخرج خبأ الأنثى بلقاح الذكر لها، وكما يخرج خبأ القلوب الزاكية بإنزال وحيه وكلامه عليها.

فكم له سبحانه من حكمة بالغة، وآية ظاهرة في خلق عدوه إبليس؟ فإن من كمال الحكمة والقدرة إظهار شرف الأشياء الفاضلة بأضدادها.

فلولا الليل لم يظهر فضل النهار ونوره وقدره، ولولا الألم لم يعرف فضل اللذة وشرفها وقدرها. ولولا المرض لم يعرف فضل العافية. ولولا وجود قبح الصورة لم يظهر فضل الحسن والجمال.

ولهذا كان خلق النار وعذاب أهلها فيها أعظم لنعيم أهل الجنة وأبلغ في معرفة قدرها وخطرها، فكان خلق هذا القبيح الشنيع المنظر والمخبر الذي صورته أشنع من باطنه وباطنه أقبح من صورته مكملاً لحسن تلك الروح الزكية الفاضلة التي كمل الله تعالى بصورتها جمال الظاهر والباطن. فلو كان الخلق كلهم على حسن يوسف مثلاً فأي فضيلة وتمييز يكون له؟ ولو كانت الكواكب كلها شموسًا وأقمارًا فأي مزية كانت تكون للنيرين؟

فصل[1]

وسبب الخذلان عدم صلاحية المحل وأهليته وقبوله للنعمة بحيث لو وافته النعم لقال هذا لي، وإنما أوتيته لأني أهله ومستحقه، كما قال تعالى: **﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي﴾**. [القصص: ٧٨]. أي: على علم علمه الله عندي أستحق به ذلك وأستوجبه وأستأهله. قال الفراء: أي على فضل عندي، إني كنت أهله ومستحقًا له إذ أعطيته. وقال مقاتل: يقول على خير علمه الله عندي. وذكر عبدالله بن الحارث بن نوفل سليمان بن داود، فيما أوتي من الملك، ثم قرأ قوله تعالى: **﴿هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾**. [النمل: ٣٩]. ولم يقل هذا من كرامتي، ثم ذكر قارون، وقوله: **﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي﴾**. يعني أن سليمان رأى ما أوتيه من فضل الله عليه ومنته، وأنه ابتلى به شكره، وقارون رأى

---

(١) ٢٠٥ فوائد.

ذلك من نفسه واستحقاقه، وكذلك قوله سبحانه: ﴿ولَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعدِ ضَرَّاء مَسَّتهُ لَيَقُولَنَّ هذا لي﴾. [فصلت: ٥٠]. أي: أنا أهله، وحقيق به، فاختصاصي به كاختصاص المالك بملكه، والمؤمن يرى ذلك ملكًا لربه وفضلاً منه، منَّ به على عبده من غير استحقاق منه، بل صدقة تصدق بها على عبده، وله أن لا يتصدق بها، فلو منعه إياها، لم يكن قد منعه شيئًا هو له يستحقه عليه، فإذا لم يشهد ذلك، رأى فيه أهلاً ومستحقًا، فأعجبته نفسه وطغت بالنعمة، وعلت بها واستطالت على غيرها، فكان حظها منها الفرح والفخر. كما قال تعالى: ﴿ولَئِنْ أَذَقْنَا الإنْسانَ مَنَّا رَحمةً ثمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إنَّه لَيَؤُوسٌ كَفُورٌ. ولِئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيئات عنِّي إنَّهُ لَفرحٌ فَخُورٌ﴾. [هود: ٩ـ ١٠].

فذمه باليأس والكفر عند الامتحان بالبلاء، وبالفرح والفخر عند الابتلاء بالنعماء، واستبدل بحمد الله وشكره والثناء عليه إذ كشف عنه البلاء ـ قوله ذهب السيئات عني ـ ولو أنه قال: قد أذهب الله السيئات عني برحمته، ومنّه، لما ذم على ذلك، بل كان محمودًا عليه، ولكنه غفل عن المنعم بكشفها ونسب الذهاب إليها وفرح وافتخر. فإذا علم الله سبحانه هذا من قلب عبد، فذلك من أعظم أسباب خذلانه وتخليه عنه، فإن محله لا تناسبه النعمة المطلقة التامة؛ كما قال تعالى: ﴿إنَّ شرَّ الدَّوابِّ عندَ الله الصُّمُّ البُكْم الذينَ لاَ يَعْقِلُونَ. ولوْ عَلِمَ الله فِيهِمْ خيْراً لأَسْمَعَهم ولَو أسْمَعَهُم لتَوَلَّوا وهُمْ مُعْرِضُونَ﴾. [الأنفال: ٢٢ـ ٢٣]. فأخبر سبحانه أن محلهم غير قابل لنعمته، ومع عدم القبول ففيهم مانع آخر يمنع وصولها إليهم؛ وهو توليهم وإعراضهم إذا عرفوها وتحققوها.

ومما ينبغي أن يعلم أن أسباب الخذلان من بقاء النفس على ما خلقت عليه في الأصل وإهمالها وتخليتها. فأسباب الخذلان منها وفيها، وأسباب التوفيق من جعل الله سبحانه لها قابلة للنعمة. فأسباب التوفيق منه ومن فضله، وهو الخالق لهذه وهذه. كما خلق أجزاء الأرض هذه قابلة للنبات وهذه غير قابلة له، وخلق الشجر هذه تقبل الثمرة وهذه لا تقبلها، وخلق النحلة قابلة لأن يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه والزنبور غير قابل لذلك، وخلق الأرواح الطيبة قابلة لذكره وشكره وحجته وإجلاله وتعظيمه وتوحيده ونصيحة عبادة، وخلق الأرواح الخبيثة غير قابلة لذلك، بل لضده؛ وهو الحكيم العليم.

فصل[1]

من علامات السعادة والفلاح أن العبد كلما زيد في علمه زيد في تواضعه ورحمته، وكلما زيد في عمله زيد في خوفه وحذره، وكلما زيد في عمره نقص من حرصه، وكلما زيد في ماله، زيد في سخائه وبذله، وكلما زيد في قدره وجاهه، زيد في قربه من الناس وقضاء حوائجهم والتواضع لهم.

وعلامات الشقاوة: أنه كلما زيد في علمه، زيد في كبره وتيهه، وكلما زيد في عمله؛ زيد في فخره واحتقاره للناس وحسن ظنه بنفسه، وكلما زيد في عمره، زيد في حرصه، وكلما زيد في ماله، زيد في بخله وإمساكه، وكلما زيد في قدره وجاهه؛ زيد في كبره وتيهه.

وهذه الأمور ابتلاء من الله وامتحان يبتلي بها عباده؛ فيسعد بها أقوام ويشقى بها أقوام.

وكذلك الكرامات امتحان وابتلاء: كالملك، والسلطان، والمال.

قال تعالى عن نبيه سليمان لما رأى عرش بلقيس عنده: ﴿**هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُونِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ**﴾. [النمل: ٤٠].

فالنعم ابتلاء من الله وامتحان يظهر بها شكر الشكور وكفر الكفور.

كما أن المحن بلوى منه سبحانه، فهو يبتلي بالنعم كما يبتلي بالمصائب، قال تعالى: ﴿**فَأَمَّا الإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ ونَعَّمَهُ فيقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ. وأَمَّا إِذَا ما ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عليهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ. كلاَّ**﴾. [الفجر: ١٥-١٧]. أي ليس كل من وسعت عليه وأكرمته ونعمته، يكون ذلك إكرامًا مني له، ولا كل من ضيقت عليه رزقه وابتليته، يكون ذلك إهانة له مني.

[2]**وأما** السؤال السابع عشر وهو أن قوله: ﴿**قُلْ الحمدُ لله وسَلاَمٌ على عِبَادِهِ الذينَ اصْطَفَى**﴾. [النمل: ٥٩]. هل السلام من الله فيكون المأمور به الحمد والوقف التام عليه، أو هو داخل في القول والأمر بهما جميعًا.

فالجواب: عنه أن الكلام يحتمل الأمرين ويشهد لكل منهما ضرب من

---

(١) ١٥٣ فوائد. (٢) ١٧٠ بدائع جـ٢.

الترجيح فيرجح كونه داخلاً في جملة القول بأمور:

منها اتصاله به وعطفه عليه من غير فاصل، وهذا يقتضي أن يكون فعل القول واقعًا على كل واحد منهما، هذا هو الأصل ما لم يمنع منه مانع، ولهذا إذا قلت: الحمد لله وسبحان الله فإن التسبيح هنا داخل في المقول.

ومنها أنه إذا كان معطوفًا على المقول كان عطف خبر على خبر وهو الأصل، ولو كان منقطعًا عنه كان عطفًا على جملة الطلب، وليس بالحسن عطف الخبر على الطلب.

ومنها أن قوله ﴿**قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى**﴾ ظاهر في أن المسلم هو القائل الحمد لله، ولهذا أتى بالضمير بلفظ الغيبة، ولم يقل: سلام على عبادي.

ويشهد لكون السلام من الله تعالى أمور:

أحدها مطابقته لنظائره في القرآن من سلامه تعالى بنفسه على عباده الذين اصطفى كقوله: ﴿**سلام على نوح في العالمين**﴾ ﴿**سلام على إبراهيم**﴾ ﴿**سلام على موسى وهارون**﴾ ﴿**سلام على الياسين**﴾.

ومنها أن عباده الذين اصطفى هم المرسلون، والله سبحانه يقرن بين تسبيحه لنفسه وسلامه عليهم، وبين حمده لنفسه وسلامه عليهم.

أما الأول فقال تعالى: ﴿**سُبْحَانَ رَبِّك ربِّ العِزَّةِ عمَّا يَصِفُونَ. وسَلامٌ على المُرْسَلينَ**﴾. [الصافات: ١٨٠- ١٨١]. وقد ذكر تنزيهه لنفسه عما لا يليق بجلاله ثم سلامه على رسله.

وفي اقتران السلام عليهم بتسبيحه لنفسه سر عظيم من أسرار القرآن يتضمن الرد على كل مبطل ومبتدع، فإنه نزه نفسه تنزيهًا مطلقًا، كما نزه نفسه عما يقول خلقه فيه، ثم سلم على المرسلين، وهذا يقتضي سلامتهم من كل ما يقول المكذبون لهم المخالفون لهم. وإذا سلموا من كل ما رماهم به أعداؤهم لزم سلامة كل ما جاؤا به من الكذب والفساد، وأعظم ما جاؤا به التوحيد ومعرفة الله ووصفه بما يليق بجلاله مما وصف به نفسه على ألسنتهم. وإذا سلم ذلك من الكذب والمحال والفساد فهو الحق المحض، وما خالفه هو الباطل والكذب المحال. وهذا المعنى بعينه في قوله ﴿**قل الحمدُ لله وسلام على عبادِهِ الذينَ اصطفى**﴾. فإنه

يتضمن حمده بما له من نعوت الكمال وأوصاف الجلال والأفعال الحميدة والأسماء الحسنى، وسلامة رسله من كل عيب ونقص وكذب، وذلك يتضمن سلامة ما جاؤا به من كل باطل. فتأمل هذا السر في اقتران السلام على رسله بحمده وتسبيحه. فهذا يشهد لكون السلام هنا من الله تعالى كما هو في آخر الصافات.

وأما عطف الخبر على الطلب فما أكثره، فمنه قوله تعالى: **﴿قالَ ربِّ احكُمْ بالحَقِّ وربُّنَا الرَّحمن المُسْتَعان﴾**. [الأنبياء: ١١٢]. وقوله: **﴿وقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وارْحَمْ وأَنْتَ خيرُ الرَّاحِمِينَ﴾**. [المؤمنون: ١١٨] وقوله: **﴿رَبَّنَا افتحْ بينَنَا وبَيْنَ قَوْمِنا بالحَقِّ وأَنْتَ خيرُ الفاتحينَ﴾**. [الأعراف: ٨٩]. ونظائره كثيرة جدًّا. وفصل الخطاب في ذلك أن يقال: الآية تتضمن الأمرين جميعًا وتنتظمهما انتظامًا واحدًا؛ فإن الرسول هو المبلغ عن الله كلامه، وليس منه إلا البلاغ، والكلام كلام الرب تبارك وتعالى، فهو الذي حمد نفسه، وسلم على عباده، وأمر رسوله بتبليغ ذلك. فإذا قال الرسول: الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى كان قد حمد الله وسلم على عباده بما حمد به نفسه وسلم به هو على عباده. فهو سلام من الله ابتداء، ومن المبلغ بلاغًا، ومن العباد اقتداء وطاعة. فنحن نقول كما أمرنا ربنا تعالى: الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى.

(١)**الوجه** الثامن والعشرون: أن تفضيل الرب تعالى على شيء من خلقه لا يذكر في شيء من القرآن إلا ردًّا على من اتخذ ذلك الشيء ندًّا لله تعالى، فبين سبحانه أنه خير من ذلك الند، كقوله تعالى: **﴿قُلِ الحمدُ لله وسَلاَمٌ على عِبادِهِ الذينَ اصْطَفى آلله خَيْرٌ أَمْ مَا يُشرِكُونَ﴾**.

وقوله تعالى حاكيًا عن السحرة: **﴿لَنْ نُؤثِرَكَ على ما جَاءنا مِنَ البيِّنَاتِ والذي فَطَرَنا فَاقْضِ ما أَنْتَ قَاضٍ إنَّما تقضي هذه الحياة الدُّنيا * إنّا آمنّا بربنا لِيَغْفِرَ لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر والله خير وأبقى﴾** [طه: ٧٢-٧٣] وقوله تعالى: **﴿أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون﴾**.

فأما أن يفضل نفسه على شيء معين من خلقه ابتداء، فهذا لم يقع في كلام الله. ولا هو مما يقصد بالإخبار؛ لأن قول القائل ابتداءً: الله خير من ابن

(١) ١٤١ مختصر الصواعق جـ٢.

آدم، وخير من السماء، وخير من العرش، من جنس قول: السماء فوق الأرض، والثلج بارد والنار حارة، وليس في ذلك تمجيد ولا تعظيم ولا مدح...

(١)... **قوله** تعالى: ﴿قُلِ الحمدُ لله وسلامٌ على عبادِهِ الذينَ اصْطفى آلله خير أمّـا يُشْرِكُـونَ. أمّنْ خلَقَ السموات والأرض وأنْزَلَ لكُمْ من السَّماء ماء فأنبَتْنَا بِهِ حدائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ ما كانَ لكُمْ أن تنبتُوا شَجَرها أإلـه مَع الله بلْ هُمْ قومٌ يعْدِلونَ﴾. إلى آخر الآيات. [النمل: ٥٩-٦٠].

يحتج عليهم بأن من فعل لهم هذا وحده، فهو الإلـه لهم وحده. فإن كان معه رب فعل هذا فينبغي أن تعبدوه. وإن لم يكن معه رب فعل هذا فكيف تجعلون معه إلـهًا آخر؟

ولهذا كان الصحيح من القولين في تقدير الآية «أإلـهٌ مَعَ الله فعل هذا»؟ حتى يتم الدليل. فلابد من الجواب بلا. فإذا لم يكن معه إلـه فعل كفعله فكيف تعبدون آلهة أخرى سواه؟ فعلم أن إلـهية ما سواه باطلة، كما أن ربوبية ما سواه باطلة بإقراركم وشهادتكم.

ومن قال: المعنى «هل مع الله إلـه آخر»؟ من غير أن يكون المعنى «فعل هذا» فقوله ضعيف لوجهين:

أحدهما: أنهم كانوا يقولون: مع الله آلهة أخرى. ولا ينكرون ذلك.

الثاني: أنه لا يتم الدليل، ولا يحصل إفحامهم وإقامة الحجة عليهم إلا بهذا التقدير. أي فإذا كنتم تقولون: إنه ليس معه إلـه آخر فعل مثل فعله، فكيف تجعلون معه إلـهًا آخر لا يخلق شيئًا وهو عاجز؟ وهذا كقوله: ﴿أَمْ جَعَلُوا لله شُركَاءَ خلَقُوا كَخَلْقِهِ فتَشَابَه الخَلْقُ عليهم قُل الله خَالِقُ كلِّ شيْءٍ وهُوَ الوَاحِدُ القَهَّار﴾. [الرعد: ١٦]. وقوله: ﴿هَذَا خَلْقُ الله فأَرُونِي ماذَا خَلَق الذينَ مِنْ دُونِه﴾.

(٢)**الوجه** الخامس: قوله تعالى: ﴿قل الحَمدُ لله وسلامٌ على عِبادِهِ الذينَ

---

(١) ٤١٢ مدارج جـ١.

(٢) ١٣١ أعلام جـ٤.

اصْطَفَى﴾. [النمل: ٥٩]. قال ابن عباس في رواية أبي مالك: هم أصحاب محمد، ﷺ، والدليل عليه قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أورَثْنَا الكِتابَ الذينَ اصْطَفَينا مِنْ عِبادِنَا﴾. [فاطر: ٣٢]. وحقيقة الاصطفاء: افتعال من التصفية، فيكون قد صفَّاهم من الأكدار، والخطأ من الأكدار، فيكونون مُصفَّين منه، ولا ينتقض هذا بما إذا اختلفوا؛ لأن الحق لم يَعْدُهم، فلا يكون قول بعضهم كدرًا؛ لأن مخالفته الكدر، وبيانه يزيل كونه كدرًا. بخلاف ما إذا قال بعضهم قولاً ولم يخالف فيه فلو كان قولاً باطلاً ولم يرده راد لكان حقيقة الكدر، وهذا لأن خلاف بعضهم لبعض بمنزلة متابعة النبي، ﷺ، في بعض أموره، فإنها لا تخرجه عن حقيقة الاصطفاء.

[1]...**والله** تعالى يجمع بين التوكل والعبادة، وبين التوكل والإيمان، وبين التوكل والإسلام، وبين التوكل والتقوى، وبين التوكل والهداية.

فأما التوكل والعبادة فقد جمع بينهما في سبعة مواضع من كتابه[2] أحدها في سورة أم القرآن فقال: ﴿إيَّاكَ نَعبُدُ وإيَّاكَ نَستعين﴾. [الفاتحة: ٥]. الثاني: قوله حكاية عن شعيب أنه قال: ﴿وما تَوفِيقِي إلاَّ بالله عليْهِ تَوَكَّلتُ وإليْهِ أُنيب﴾. [هود: ٨٨]. الثالث: قوله حكاية عن أوليائه وعباده المؤمنين أنهم قالوا: ﴿ربَّنَا عليكَ توكَّلنَا وإليكَ أَنبنَا وإليْكَ المَصير﴾. [الممتحنة: ٤]. الرابع قوله تعالى لنبيه محمد، ﷺ: ﴿واذْكُر اسمَ ربِّكَ وتبتَّل إليه تَبتيلاً. ربُّ المشرقِ والمَغْرب لا إلـهَ إلاَّ هُوَ فاتَّخِذْهُ وَكِيلاً﴾. [المزمل: ٨، ٩]. الخامس قوله: ﴿ولله غيبُ السَّموات والأَرْضِ وإليْـهِ يُرْجَـعُ الأَمـرُ كلُّهُ فاعْبُدْهُ وتوكَّلْ عليهِ وما رَبُّكَ بغافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾. [هود: ١٢٣]. السادس قوله: ﴿فأَقِيمُوا الصَّلاةَ وآتُوا الزَّكاةَ واعْتَصِمُوا بالله هُوَ مَولاكُمْ فَنِعْمَ المَوْلى ونِعمَ النَّصير﴾. [الحج: ٧٨]. السابع قوله: ﴿قُلْ هُوَ ربِّي لا إلـه إلاَّ هوَ عليهِ تَوَكَّلتُ وإليهِ مَتاب﴾. [الرعد: ٣٠]. فهذه السبعة المواضع جمعت الأصلين: التوكل وهو الوسيلة، والإنابة وهي الغاية. فإن العبد لابد له من غاية مطلوبة، ووسيلة موصلة إلى تلك الغاية، فأشرف غاياته التي لا غاية له أجل منها

---

(١) ٢٥٥ طريق الهجرتين.

(٢) ذكرها في طريق الهجرتين ص٥٦ سبعة، وكذا في إغاثة اللهفان ١/٢٧ وعدها سبعة وزاد فيها قول الله تعالى: ﴿وتوكل على الحي الذي لا يموت﴾ فيكون العدد تقريبًا لا حصرًا. (ج).

عبادة ربه، والإنابة إليه. وأعظم وسائله التي لا وسيلة له غيرها البتة التوكل على الله والاستعانة به، ولا سبيل له إلى هذه الغاية إلا بهذه الوسيلة. فهذه أشرف الغايات، وتلك أشرف الوسائل.

وأما الجمع بين الإيمان والتوكل ففي مثل قوله تعالى: **﴿قُلْ هُوَ الرَّحمنُ آمَنَّا بِهِ وعليْـهِ تَوَكَّلنـا﴾**. [الملك: ٢٩]. ونـظيره قولـه: **﴿وعـلى الله فتـوكَّلُوا إنْ كُنتُم مُؤمنينَ﴾** [المائدة:٢٣]. وقوله تعالى: **﴿وعَلى الله فَلْيَتَوَكَّلَ المُؤمنُونَ﴾** [آل‌عمران: ١٢١].

وأما الجمع بين التوكل والإسلام ففي قوله تعالى: **﴿وقالَ موسَى ياقَوْمَ إنْ كُنتُم آمَنْتم بالله فَعَلَيهِ تَوكَّلوا إنْ كُنتُم مُسلمينَ﴾** [يونس: ٨٤].

وأما الجمع بين التقوى والتوكل ففي مثل قوله تعالى: **﴿يا أيُّهَا النَّبي اتَّقِ الله ولا تُطعِ الكافِرينَ والمُنافِقينَ - إلى قوله تعالى - وتَوكَّل على الله وكَفَى بالله وكيلاً﴾**. [الأحزاب: ١ - ٣]. وقـوله: **﴿ومَنْ يَتَّقِ الله يَجْعَل لهُ مَخْرجًا. ويَرْزُقهُ مِنْ حَيثُ لا يَحْتَسِب ومَنْ يتوكَّل على الله فَهُوَ حَسْبُهُ﴾**. [الطلاق: ٢، ٣].

وأما الجمع بين التوكل والهداية ففي مثل قول الرسل لقومهم: **﴿وما لَنا ألاَّ نتـوكَّـلَ على الله وقَدْ هَدَانَا سُبُلَنا﴾**. [إبراهيم: ١٢]. وقال الله تعالى لنبيه، ﷺ: **﴿فَتوكَّلْ على الله إنَّكَ على الحَقِّ المُبين﴾**. [النمل: ٧٩]. فأمر سبحانه بالتوكل عليه، وعقب هذا الأمر بما هو موجب للتوكل مصحح له مستدع لثبوته وتحققه، وهو قوله تعالى: **﴿إنَّك على الحَقِّ المُبين﴾**. فإن كون العبد على الحق يقتضي تحقيق مقام التوكل على الله، والاكتفاء به، والإيواء إلى ركنه الشديد. فإن الله هو الحق، وهو ولي الحق وناصره ومؤيده، وكافي من قام به. فما لصاحب الحق أن لا يتوكل عليه؟ وكيف يخاف وهو على الحق؟ كما قالت الرسل لقومهم: **﴿وَمَا لَنَا ألاَّ نتوكَّل على الله وقَدْ هَدَانَا سُبُلَنا﴾**. فعجبوا من تركهم التوكل على الله وقد هداهم، وأخبروا أن ذلك لا يكون أبدًا. وهذا دليل على أن الهداية والتوكل متلازمان: فصاحب الحق - لعلمه بالحق، ولثقته بأن الله ولي الحق وناصره - مضطر إلى توكله على الله، لا يجد بدًا من توكله. فإن التوكل يجمع أصلين: علم القلب، وعمله. أما علمه: فيقينه بكفاية وكيله، وكمال قيامه بما وكله إليه، وأن غيره لا يقوم مقامه في ذلك. وأمـا عمله: فسكـونه إلى وكيله، وطمأنينته إليه، وتفويضه وتسليمه أمره إليه،

ورضاه بتصرفه له فوق رضاه بتصرفه هو لنفسه. فبهذين الأصلين يتحقق التوكل، وهما جماعه، وإن كان التوكل دخل في عمل القلب من علمه، كما قال الإمام أحمد: التوكل عمل القلب، ولكن لابد فيه من العلم. وهو إما شرط فيه، وإما جزء من ماهيته. والمقصود أن القلب متى كان على الحق كان أعظم لطمأنينته ووثوقه بأن الله وليه وناصره وسكونه إليه، فما له أن لا يتوكل على ربه؛ وإذا كان على الباطل علمًا وعملاً أو أحدهما لم يكن مطمئنًا واثقًا بربه فإنه لا ضمان له عليه، ولا عهد له عنده؛ فإن الله لا يتولى الباطل ولا ينصره، ولا ينسب إليه بوجه، فهو منقطع النسب إليه بالكلية؛ فإنه سبحانه هو الموفق، وقوله الحق، ودينه الحق، ووعده حق، ولقاؤه حق، وفعله كله حق. ليس في أفعاله شيء باطل، بل أفعاله سبحانه بريئة من الباطل، كما أقواله كذلك. فلما كان الباطل لا يتعلق به، بل هو مقطوع البتة كان صاحبه كذلك. ومن لم يكن له تعلق بالله العظيم، وكان منقطعًا عن ربه، لم يكن الله وليه ولا ناصره ولا وكيله. فتدبر هذا السر العظيم في اقتران التوكل والكفاية بالحق والهدى وارتباط أحدهما بالآخر. ولو لم يكن في هذه الرسالة إلا هذه الفائدة السرية إلخ(١).

(٢)**وقد** أطلق سبحانه على فعله اسم الصنع فقال: **﴿صُنْعَ الله الذي أتْقَنَ كلَّ شيءٍ﴾**. [النمل: ٨٨]. وهو منصوب على المصدر لأن قوله تعالى: **﴿وتَرى الجِبالَ تَحْسَبُها جامِدَةً وهي تَمرُّ مرَّ السَّحاب﴾**. [النمل: ٨٨]. يدل على الصنعة وقيل هو نصب على المفعولية أي انظروا صنع الله. فعلى الأول يكون صنع الله مصدرًا بمعنى الفعل. وعلى الثاني يكون بمعنى المصنوع المفعول؛ فإنه الذي يمكن وقوع النظر والرؤية عليه . . .

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة النمل

والحمد لله رب العالمين

---

(١) البقية موجودة في سورة إبراهيم.

(٢) ١٣٢ شفاء.



بسم الله الرحمن الرحيم

. . .(١)**قال** تعالى: ﴿وأصبح فؤاد أم موسى فارغًا إن كادتْ لَتُبدي به﴾ [القصص: ١٠] أي فارغًا من كل شيء إلا من موسى لفرط محبتها له، وتعلق قلبها به.

. . .(٢)**فتأمل** قصة موسى وما لطف له من إخراجه في وقت ذبح فرعون للأطفال،ووحيه إلى أمه أن تلقيه في اليم، وسوقه بلطفه إلى دار عدوه الذي قدر هلاكه على يديه، وهو يذبح الأطفال في طلبه، فرباه في بيته، وحجره على فراشه ثم قدر له سببًا أخرجه من مصر وأوصله به إلى موضع لا حكم لفرعون عليه، ثم قدر له سببًا أوصله به إلى النكاح والغنى بعد العزوبة والعيلة. ثم ساقه إلى بلد عدوه فأقام عليه به حجته، ثم أخرجه وقومه في صورة الهاربين الفارين منه، وكان ذلك عين نصرتهم على أعدائهم وإهلاكهم وهم ينظرون. وهذا كله مما يبين أنه سبحانه يفعل ما يفعله لما يريده من العواقب الحميدة والحكم العظيمة، التي لا تدركها عقول الخلق، مع ما في ضمنها من الرحمة التامة والنعمة السابغة، والتعرف إلى عباده بأسمائه وصفاته.

فكم في أكل آدم من الشجرة التي نهى عنها وإخراجه بسببها من الجنة من حكمة بالغة لا تهتدي العقول إلى تفاصيلها. وكذلك ما قدره لسيد ولده من الأمور التي أوصله بها إلى أشرف غاياته، وأوصله بالطرق الخفية فيها إلى أحمد العواقب. وكذلك فعله بعباده وأوليائه، يوصل إليهم نعمه، ويسوقهم إلى كمالهم وسعادتهم في الطرق الخفية التي لا يهتدون إلى معرفتها إلا إذا لاحت لهم عواقبها. وهذا أمر يضيق الجنان عن معرفة تفاصيله، ويحصر اللسان عن التعبير عنه.

وأعرف خلق الله به أنبياؤه ورسله، وأعرفهم به خاتمهم وأفضلهم، وأمته في العلم به على مراتبهم ودرجاتهم ومنازلهم من العلم بالله وبأسمائه وصفاته. وهو سبحانه قد أحاط علمًا بذلك كله قبل خلق السموات والأرض،وقدره وكتبه عنده،ثم

---

(١) ٣١٩ الزاد جـ٣.		(٢) ٣٥ شفاء.

يأمر ملائكته بكتابة ذلك من الكتاب الأول قبل خلق العبد، فيطابق حاله وشانه لما كتب في الكتاب، ولما كتبته الملائكة، لا يزيد شيئًا ولا ينقص مما كتبه سبحانه وأثبته عنده، كان في علمه قبل أن يكتبه، ثم كتبه كما في علمه، ثم وجد كما كتبه، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلم أنَّ الله يَعْلم مَا فِي السَّماء والأرضِ إنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إنَّ ذلِكَ عَلَى الله يَسِيرُ﴾ [الحج: ٧٠].

والله سبحانه قد علم قبل أن يوجد عباده أحوالهم وما هم عاملون وما هم إليه صائرون، ثم أخرجهم إلى هذه الدار ليظهر معلومه الذي علمه فيهم كما علمه، وابتلاهم من الأمر والنهي والخير والشر بما أظهر معلومه، فاستحقوا المدح والذم والثواب والعقاب بما قام بهم من الأفعال والصفات المطابقة للعلم السابق، ولم يكونوا يستحقون ذلك وهي في علمه قبل أن يعملوها، فأرسل رسله وأنزل كتبه وشرع شرائعه إعذارًا إليهم وإقامة للحجة عليهم لئلا يقولوا كيف تعاقبنا على علمك فينا؟ وهذا لا يدخل تحت كسبنا وقدرتنا؟ فلما ظهر علمه فيهم بأفعالهم حصل العقاب على معلومه الذي أظهره الابتلاء والاختبار. وكما ابتلاهم بأمره ونهيه ابتلاهم بما زين لهم من الدنيا. وبما ركب فيهم من الشهوات. فذلك ابتلاء بشرعه وأمره، وهذا ابتلاء بقضائه وقدره.

[1]**أما قوله**: ﴿فالتقطه آل فِرْعَون لِيَكُونَ لَهُم عَدُوًا وحَزَنًا﴾ [القصص: ٨] فهو تعليل لقضاء الله سبحانه بالتقاطه وتقديره له؛ فإن التقاطهم له إنما كان بقضائه وقدره، فهو سبحانه قدر ذلك وقضى به ليكون لهم عدوًا وحزنًا، وذكر فعلهم دون قضائه لأنه أبلغ في كونه حزنًا لهم وحسرة عليهم؛ فإن من اختار أخذ ما يكون هلاكه على يديه إذا أصيب به كان أعظم لحزنه وغمه وحسرته من أن لا يكون فيه صنع ولا اختيار، فإنه سبحانه أراد أن يظهر لفرعون وقومه ولغيرهم من خلقه كمال قدرته وعلمه وحكمته الباهرة، وأن هذا الذي يذبح فرعون الأبناء في طلبه هو الذي يتولى تربيته في حجره وبيته باختياره وإرادته، ويكون في قبضته وتحت تصرفه، فذكر فعلهم به في هذا أبلغ وأعجب من أن يذكر القضاء والقدر، وقد

---

(١) ١٩١ شفاء.

أعلمنا سبحانه أن أفعال عباده كلها واقعة بقضائه وقدره.

...[1]**وهذا** الجراد نثرة حُوت من حيتان البحر، ينثره من منخريه. وهو جند من جنود الله ضعيف الخلقة، عجيب التركيب، فيه خلق سبع حيوانات. فإذا رأيت عساكره قد أقبلت أبصرت جندًا لا مرد له، ولا يحصى منه عدد ولا عدة. فلو جمع الملك خيله ورجله ودوابه وسلاحه ليصده عن بلاده لما أمكنه ذلك.

فانظر كيف ينساب على الأرض كالسيل، فيغشى السهل والجبل، والبدو والحضر، حتى يستر نور الشمس بكثرته، ويسد وجه السماء بأجنحته، ويبلغ من الجو إلى حيث لا يبلغ طائر أكبر جناحين منه. فسل المعطل من الذي بعث هذا الجند الضعيف الذي لا يستطيع أن يرد عن نفسه حيوانًا رام أخذه بلية على العسكر أهل القوة والكثرة والعدد والحيلة، فلا يقدرون بأجمعهم على دفعه، بل ينظرون إليه يستبد بأقواتهم دونهم، ويمزقها كل ممزق، ويذر الأرض قفرًا منها، وهم لا يستطيعون أن يردوه ولا يحولوا بينه وبينها.

وهذا من حكمته سبحانه أن يسلط الضعيف من خلقه الذي لا مؤنة له على القوى فينتقم به منه، وينزل به ما كان يحذره منه، حتى لا يستطيع لذلك ردًا ولا صرفًا. قال الله تعالى: ﴿**وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهم أئِمة وَنجعَلَهم الوَارِثِينَ وَنُمكِّن لهم فِي الأرضِ وَنُرِيَ فِرْعَونَ وَهَامَان وَجُنودهُمَا مِنْهم مَا كَانوا يَحْذَرُونَ**﴾ [القصص: ٦]. فواحسرتاه على استقامة مع الله وإيثار لمرضاته في كل حال يمكن به الضعيف المستضعف حتى يرى من استضعفه أنه أولى بالله ورسوله منه، ولكن اقتضت حكمة الله العزيز الحكيم أن يأكل الظالم الباغي ويتمتع في خفارة ذنوب المظلوم المبغي عليه، فذنوبه من أعظم أسباب الرحمة في حق ظالمه، كما أن المسؤول إذا رد السائل فهو في خفارة كذبه، ولو صدق السائل لما أفلح من رده، وكذلك السارق وقاطع الطريق في خفارة منع أصحاب الأموال حقوق الله فيها، ولو أدوا ما لله عليهم فيها لحفظها الله عليهم.

وهذا أيضًا باب عظيم من حكمة الله يطلع الناظر فيه على أسرار من أسرار

---

(١) ٢٥٢ المفتاح جـ١.

ثم التقدير، وتسليط العالم بعضهم على بعض، وتمكين الجناة والبغاة. فسبحان من له في كل شيء حكمة بالغة وآية باهرة، حتى أن الحيوانات العادية على الناس في أموالهم وأرزاقهم وأبدانهم تعيش في خفارة ما كسبت أيديهم، ولولا ذلك لم يسلط عليهم منها شيء.

ولعل هذا الفصل الاستطرادي أنفع لمتأمله من كثير من الفصول المتقدمة، فإنه إذا أعطاه حقه من النظر والفكر عظم انتفاعه به جدا والله الموفق. ويحكى أن بعض أصحاب الماشية كان يشوب اللبن ويبيعه على أنه خالص، فأرسل الله عليه سيلاً فذهب بالغنم، فجعل يعجب، فأتي في منامه فقيل له أتعجب من أخذ السيل غنمك إنه تلك القطرات التي شبت بها اللبن اجتمعت وصارت سيلاً. فقس على هذه الحكاية ما تراه في نفسك وفي غيرك تعلم حينئذ أن الله قائم بالقسط، وأنه قائم على كل نفس بما كسبت، وأنه لا يظلم مثقال ذرة.

والأثر الإسرائيلي معروف أن رجلاً كان يشوب الخمر ويبيعه على أنه خالص، فجمع من ذلك كيس ذهب وسافر به، فركب البحر ومعه قرد له، فلما نام أخذ القرد الكيس وصعد به إلى أعلى المركب، ثم فتحه فجعل يلقيه دينارًا في الماء ودينارًا في المركب، كأنه يقول له بلسان الحال ثمن الماء صار إلى الماء ولم يظلمك.

وتأمل حكمة الله عز وجل في حبس الغيث عن عباده وابتلائهم بالقحط إذا منعوا الزكاة وحرموا المساكين، كيف جُوزوا على منع ما للمساكين قبلهم من القوت بمنع الله مادة القوت والرزق وحبسها عنهم، فقال لهم بلسان الحال: منعتم الحق فمنعتم الغيث، فهلا استنزلتموه ببذل مالله قبلكم.

وتأمل حكمة الله تعالى في صرفه الهدى والإيمان عن قلوب الذين يصرفون الناس عنه، فصدهم عنه كما صدوا عباده، صدًّا بصد ومنعًا بمنع.

وتأمل حكمته تعالى في محق أموال المرابين وتسليط المتلفات عليها كما فعلوا بأموال الناس ومحقوها عليهم وأتلفوها بالربا، جوزوا إتلافًا بإتلاف، فقل أن ترى مرابيًا إلا وآخرته إلى محق وقلة وحاجة.

وتأمل حكمته تعالى في تسليط العدو على العباد إذا جار قويهم على ضعيفهم، ولم يؤخذ للمظلوم حقه من ظالمه، كيف يسلط عليهم من يفعل بهم كفعلهم

برعاياهم وضعفائهم سواء. وهذه سنة الله تعالى منذ قامت الدنيا إلى أن تطوى الأرض ويعيدها كما بدأها.

وتأمل حكمته تعالى في أن جعل ملوك العباد وأمراءهم وولاتهم من جنس أعمالهم، بل كأن أعمالهم ظهرت في صور ولاتهم وملوكهم، فإن استقاموا استقامت ملوكهم، وإن عدلوا عدلت عليهم، وإن جاروا جارت ملوكهم وولاتهم، وإن ظهر فيهم المكر والخديعة فولاتهم كذلك، وإن منعوا حقوق الله لديهم وبخلوا بها منعت ملوكهم وولاتهم ما لهم عندهم من الحق وبخلوا بها عليهم، وإن أخذوا ممن يستضعفونه ما لا يستحقونه في معاملتهم أخذت منهم الملوك ما لا يستحقونه، وضربت عليهم المكوس والوظائف، وكلما يستخرجونه من الضعيف يستخرجه الملوك منهم بالقوة، فعمالهم ظهرت في صور أعمالهم، وليس في الحكمة الإلهية أن يولى على الأشرار الفجار إلا من يكون من جنسهم.

ولما كان الصدر الأول خيار القرون وأبرها كانت ولاتهم كذلك، فلما شابوا شيب لهم الولاة. فحكمة الله تأبى أن يولى علينا في مثل هذه الأزمان مثل معاوية وعمر بن عبدالعزيز، فضلاً عن مثل أبي بكر وعمر، بل ولاتنا على قدرنا، وولاة من قبلنا على قدرهم، وكل من الأمرين موجب الحكمة ومقتضاها. ومن له فطنة إذا سافر بفكره في هذا الباب رأى الحكمة الإلهية سائرة في القضاء والقدر ظاهرة وباطنة فيه كما صيرهم في الخلق والأمر سواء. فإياك أن تظن بظنك الفاسد أن شيئًا من أقضيته وأقداره عار عن الحكمة البالغة، بل جميع أقضيته تعالى وأقداره واقعة على أتم وجوه الحكمة والصواب، ولكن العقول الضعيفة محجوبة بضعفها عن إدراكها، كما أن الأبصار الخفاشية محجوبة بضعفها عن ضوء الشمس، وهذه العقول الضعاف إذا صادفها الباطل جالت فيه وصالت ونطقت وقالت، كما أن الخفاش إذا صادفه ظلام الليل طار وسار.

خفافيش أعشاها النهار بضوئه　　ولازمها قطع من الليل مظلم

وتأمل حكمته تبارك وتعالى في عقوبات الأمم الخالية، وتنويعها عليهم بحسب تنوع جرائمهم كما قال تعالى: ﴿**وعادًا وثمودَ وقَدْ تَبيَّنَ لَكم مِنْ مَسَاكِنِهم** إلى قوله **يَظلمُون**﴾ [العنكبوت: ٣٨-٤٠]

وتأمل حكمته تعالى في مسخ من مسخ من الأمم في صور مختلفة مناسبة لتلك الجرائم، فإنها لما مسخت قلوبهم وصارت على قلوب تلك الحيوانات وطباعها، اقتضت الحكمة البالغة أن جعلت صورهم على صورها؛ لتتم المناسبة ويكمل الشبه، وهذا غاية الحكمة. واعتبر هذا بمن مسخوا قردة وخنازير، وكيف غلبت عليهم صفات هذه الحيوانات وأخلاقها وأعمالها، ثم إن كنت من المتوسمين فاقرأ هذه النسخة من وجوه أشباههم ونظرائهم، كيف تراها بادية عليها، وإن كانت مستورة بصورة الإنسانية. فاقرأ نسخة القردة من صور أهل المكر والخديعة والفسق الذين لا عقول لهم، بل هم أخف الناس عقولاً وأعظمهم مكرًا وخداعًا وفسقًا، فإن لم تقرأ نسخة القردة من وجوههم فلست من المتوسمين. واقرأ نسخة الخنازير من صور أشباههم ولا سيما أعداء خيار خلق الله بعد الرسل وهم أصحاب رسول الله ﷺ، فإن هذه النسخة ظاهرة على وجوه الرافضة يقرؤها كل مؤمن كاتب وغير كاتب، وهي تظهر وتخفى بحسب خنزيرية القلب وخبثه، فإن الخنزير أخبث الحيوانات وأردؤها طباعًا، ومن خاصيته أنه يدع الطيبات فلا يأكلها، ويقوم الإنسان عن رجيعه فيبادر إليه. فتأمل مطابقة هذا الوصف لأعداء الصحابة كيف تجده منطبقًا عليهم، فإنهم عمدوا إلى أطيب خلق الله وأطهرهم فعادوهم وتبرؤوا منهم، ثم والوا كل عدو لهم من النصارى واليهود والمشركين، فاستعانوا في كل زمان على حرب المؤمنين الموالين لأصحاب رسول الله ﷺ بالمشركين والكفار، وصرحوا بأنهم خير منهم، فأي شبه ومناسبة أولى بهذا الضرب من الخنازير، فإن لم تقرأ هذه النسخة من وجوههم فلست من المتوسمين.

وأما الأخبار التي تكاد تبلغ حد التواتر بمسخ من مسخ منهم عند الموت خنزيرًا فأكثر من أن تذكر هاهنا، وقد أفرد لها الحافظ ابن عبدالواحد المقدسي كتابًا. وتأمل حكمته تعالى في عذاب الأمم السالفة بعذاب الاستئصال لما كانوا أطول أعمارًا وأعظم قوى وأعتى على الله وعلى رسله. فلما تقاصرت الأعمار وضعفت القوى رفع عذاب الاستئصال وجعل عذابهم بأيدي المؤمنين. فكانت الحكمة في كل واحد من الأمرين ما اقتضته في وقته.

وتأمل حكمته تبارك وتعالى **في إرسال الرسل في الأمم** واحدًا بعد واحد، كلما

مات واحد خلفه آخر لحاجتها إلى تتابع الرسل والأنبياء لضعف عقولها وعدم اكتفائها بآثار شريعة الرسول السابق. فلما انتهت النبوة إلى محمد بن عبدالله رسول الله ونبيه أرسله إلى أكمل الأمم عقولاً ومعارف، وأصحها أذهانًا، وأغزرها علومًا، وبعثه بأكمل شريعة ظهرت في الأرض منذ قامت الدنيا إلى حين مبعثه، فأغنى الله الأمة بكمال رسولها وكمال شريعته، ووكلهم بها حتى يؤدوها إلى نظرائهم، ويزرعوها في قلوب أشباههم، فلم يحتاجوا معه إلى رسول آخر ولا نبي ولا محدث. ولهذا قال ﷺ: «**إنه قد كان قبلكم في الأمم محدثون فإن يكن في أمتي أحد فعمر**» فجزم بوجود المحدثين في الأمم، وعلق وجوده في أمته بحرف الشرط، وليس هذا بنقصان في الأمة على من قبلهم، بل هذا من كمال أمته على من قبلها، فإنها لكمالها وكمال نبيها وكمال شريعته لا تحتاج إلى محدث، بل إن وجد فهو صالح للمتابعة والاستشهاد، لا أنه عمدة؛ لأنها في غنية بما بعث الله به نبيها عن كل منام أو مكاشفة أو إلهام أو تحديث، وأما من قبلها فللحاجة إلى ذلك جعل فيهم المحدثون.

ولا تظن أن تخصيص عمر رضى الله عنه بهذا تفضيل له على أبي بكر الصديق، بل هذا من أقوى مناقب الصديق، فإنه لكمال مشربه من حوض النبوة، وتمام رضاعه من ثدي الرسالة استغنى بذلك عما يلقاه من تحديث أو غيره، فالذي يتلقاه من مشكاة النبوة أتم من الذي يتلقاه عمر من التحديث. فتأمل هذا الموضع وأعطه حقه من المعرفة، وتأمل ما فيه من الحكمة البالغة الشاهدة لله بأنه الحكيم الخبير، وأن رسول الله ﷺ أكمل خلقه وأكملهم شريعة، وأن أمته أكمل الأمم. وهذا فصل معترض وهو أنفع فصول الكتاب، ولولا الإطالة لوسعنا فيه المقال وأكثرنا فيه من الشواهد والأمثال، ولقد فتح الله الكريم فيه الباب، وأرشد فيه إلى الصواب، وهو المرجو لتمام نعمته ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

(١)**وقد** أخبر سبحانه أنه هو الذي جعل أئمة الخير يدعون إلى الهدى وأئمة الشر يدعون إلى النار. فتلك الإمامة والدعوة بجعله، فهي مجعولة له وفعل لهم. قال تعالى عن آل فرعون: ﴿**وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ**﴾ [القصص: ٤١] وقال عن أئمة الهدى: ﴿**وجعلناهم أئِمة يَهْدون بِأمرنَا**﴾ [الأنبياء: ٧٣] فأخبر أن هذا وهذا

---

(١) ٥٥ شفاء.

بجعله مع كونه كسباً وفعلاً للأئمة. ونظير ذلك قول الخليل: ﴿رَبَّنا واجْعَلنا مُسلِمَين لَك﴾ [البقرة: ١٢٨] فأخبر الخليل أنه سبحانه هو الذي يجعل المسلم مسلمًا.

وعند القدرية هو الذي يجعل نفسه مسلمًا لا أن الله جعله مسلمًا ولا جعله إمامًا يهدي بأمره ولا جعل الآخر إمامًا يدعو إلى النار على الحقيقة، بل هم الجاعلون لأنفسهم كذلك حقيقة، ونسبة هذا الجعل إلى الله مجاز بمعنى التسمية، أي سمنا مسلمين لك، وكذلك جعلناهم أئمة أي سميناهم كذلك وهم جعلوا أنفسهم أئمة رشد وضلال، فمنهم الحقيقة ومنه المجاز والتعبير.

[1]**ومن** ذلك قوله تعالى: ﴿ولَولاَ أنْ تُصيبهم مُصيبة بِما قدَّمت أيديهم فيقولُوا رَبَّنا لَولا أرْسلت إلينا رسولاً فنتبع آياتِك ونَكونَ مِنَ المؤمِنِينَ﴾ [القصص: ٤٧]. فأخبر تعالى أن ما قدمت أيديهم قبل البعثة سبب لإصابتهم بالمصيبة، وأنه سبحانه لو أصابهم بما يستحقون من ذلك لاحتجوا عليه بأنه لم يرسل إليهم رسولاً ولم ينزل عليهم كتابًا، فقطع هذه الحجة بإرسال الرسول وإنزال الكتاب لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل. وهذا صريح في أن أعمالهم قبل البعثة كانت قبيحة بحيث استحقوا أن يصابوا بها المصيبة، ولكنه سبحانه لا يعذب إلا بعد إرسال الرسل وهذا هو فصل الخطاب.

وتحقيق القول في هذا الأصل العظيم أن القبح ثابت للفعل في نفسه، وأنه لا يعذب الله عليه إلا بعد إقامة الحجة بالرسالة. وهذه النكتة هي التي فاتت المعتزلة والكلابية كليهما، فاستطالت كل طائفة منهما على الأخرى لعدم جمعهما بين هذين الأمرين، فاستطالت الكلابية على المعتزلة بإثباتهم العذاب قبل إرسال الرسل، وترتيبهم العقاب على مجرد القبح العقلي، وأحسنوا في رد ذلك عليهم. واستطالت المعتزلة عليهم في إنكارهم الحسن والقبح العقليين جملة، وجعلهم انتفاء العذاب قبل البعثة دليلاً على انتفاء القبح واستواء الأفعال في أنفسها، وأحسنوا في رد هذا عليهم. فكل طائفة استطالت على الأخرى بسبب إنكارها الصواب، وأما من سلك هذا المسلك الذي سلكناه فلا سبيل لواحدة من الطائفتين إلى رد قوله ولا الظفر عليه أصلاً، فإنه موافق لكل طائفة على ما معها

(١) ٧ المفتاح جـ٢.

من الحق مقرر له، مخالف لها في باطلها منكر له. وليس مع النفاة قط دليل واحد صحيح على نفي الحسن والقبح العقليين، وأن الأفعال المتضادة كلها في نفس الأمر سواء لا فرق بينها إلا بالأمر والنهي، وكل أدلتهم على هذا باطلة كما سنذكرها ونذكر بطلانها إن شاء الله تعالى. وليس مع المعتزلة دليل واحد صحيح قط يدل على إثبات العذاب على مجرد القبح العقلي قبل بعثة الرسل وأدلتهم على ذلك كلها باطلة كما سنذكرها ونذكر بطلانها إن شاء الله تعالى. ومما يدل على ذلك أيضًا أنه سبحانه يحتج على فساد مذهب من عبد غيره بالأدلة العقلية التي تقبلها الفطر والعقول، ويجعل ما ركبه في العقول من حسن عبادة الخالق وحده وقبح عبادة غيره من أعظم الأدلة على ذلك. وهذا في القرآن أكثر من أن يذكر ههنا، ولولا أنه مستقر في العقول والفطر حسن عبادته وشكره، وقبح عبادة غيره، وترك شكره لما احتج عليهم بذلك أصلاً، وإنما كانت الحجة في مجرد الأمر، وطريقة القرآن صريحة في هذا.

...(١)**وقد** قال تعالى: **﴿وَلَولاَ أنْ تُصِيبهم مُصيبة بِما قَدَّمت أيديهم فيقولُوا رَبَّنا لولاَ أرسَلتَ إلينَا رَسُولاً فنتبع آياتِك ونَكُون من المؤمنين﴾** [القصص: ٤٧].

فأخبر تعالى أن ما قدمت أيديهم سبب لإصابة المصيبة إياهم، وأنه سبحانه أرسل رسوله وأنزل كتابه لئلا يقولوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولاً فنتبع آياتك، فدلت الآية على بطلان قول الطائفتين جميعًا الذين يقولون إن أعمالهم قبل البعثة ليست قبيحة لذاتها بل إنما قبحت بالنهي فقط.

والذين يقولون إنها قبيحة ويستحقون عليها العقوبة عقلاً بدون البعثة. فنظمت الآية بطلان قول الطائفتين ودلت على القول الوسط الذي اخترناه ونصرناه أنها قبيحة في نفسها ولا يستحقون العقاب إلا بعد إقامة الحجة بالرسالة، فلا تلازم بين ثبوت الحسن والقبح العقليين وبين استحقاق الثواب والعقاب، فالأدلة إنما اقتضت ارتباط الثواب والعقاب بالرسالة وتوقفهما عليها، ولم تقتض توقف الحسن والقبح بكل اعتبار عليها، وفرق بين الأمرين.

...(٢)**فصل** في تحريم الإفتاء في دين الله بالرأي المتضمن لمخالفة النصوص، والرأي الذي لم تشهد له النصوص بالقبول.

---

(١) ١١٣ المفتاح جـ٢.   (٢) ٤٧ الإعلام جـ١.

قال الله: ﴿**فإن لَمْ يَستجيبوا لك فاعلَم أنما يتبعون أهواءهم ومَنْ أضَلُّ مِمَّن اتَّبع هَواه بِغير هُدًى مِن الله إنَّ الله لا يهدي القومَ الظالمين**﴾ [القصص: ٥٠] فقسم الأمر إلى أمرين لا ثالث لهما، إما الاستجابة لله والرسول وما جاء به، وإما اتباع الهوى، فكُلُّ ما لم يَأتِ به الرسولُ فهو من الهوى.

وقال تعالى: ﴿**يا داود إنَّا جَعلنَاك خَليفَةً في الأرْضِ فاحكُم بين النَّاس بالحق ولا تتبعِ الهَوى فيُضِلك عن سبيل الله إن الذين يضِلون عن سبيل الله لهم عذابٌ شديد بِما نَسُوا يَومَ الحِساب**﴾ [ص: ٢٦] فقسَّم سبحانه طريق الحكم بين الناس إلى الحقِّ وهو الوحي الذي أنزله الله على رسوله، وإلى الهوى وهو ما خالفه.

وقال تعالى لنبيه ﷺ: ﴿**ثُم جَعلنَاكَ عَلى شريعَةٍ مِن الأمْرِ فاتَّبعها ولا تتبع أهواءَ الذِينَ لا يعْلَمُون * إنهم لَنْ يُغنوا عنك مِن الله شيئًا وإنَ الظالِمِين بعضُهم أولِيَاء بعضٍ والله ولي المتقين**﴾ [الجاثية: ١٨، ١٩] فقسم الأمر بين الشريعة التي جعله هو سبحانه عليها وأوحى إليه العملَ بها وأمر الأمة بها وبين اتِّباع أهواء الذين لا يعلمون، فأمر بالأول، ونهى عن الثاني.

...[(١)]**وقد** حكم الله تعالى لتابع هواه بغير هدى من الله أنه أظلم الظالمين، فقال الله عز وجل: ﴿**فَإن لَمْ يَسْتجيبوا لَكَ فاعْلم أنَّما يَتَّبعون أهْواءهُم ومَن أضَلُّ مِمَّن اتَّبع هواهُ بِغير هُدًى من الله إنَّ الله لا يهدي القوم الظَّالِمِينَ**﴾ [القصص: ٥٠] وأنت تجد تحت هذا الخطاب أن الله لا يهدي من اتَّبع هواه، وجعل سبحانه وتعالى المتّبع قسمين لا ثالث لهما: إمّا ما جاء به الرسول ﷺ وإما الهوى، فمن اتبع أحدهما لم يمكنه اتباعُ الآخر، والشيطان يُطيف بالعبد من أين يدخل عليه فلا يجد عليه مدخلًا ولا إليه طريقًا إلَّا من هواه. فلذلك كان الذي يخالف هواه يفرق الشيطان من ظله، وإنما تطاق مخالفةُ الهوى بالرغبة في الله وثوابه، والخشية من حجابه وعذابه. ووجد حلاوة الشفاء في مخالفة الهوى، فإن متابعته الداء الأكبر، ومخالفته الشفاء الأعظم. وقيل لأبي القاسم الجُنَيدِ: متى تنال النفوس مُناها؟ فقال: إذا صار داؤها دواها. فقيل له: ومتى يصير داؤها دواها؟ فقال: إذا خالفت هواها، ومعنى قوله يصير داؤها دواها أن داءها هو الهوى، فإذا خالفته تداوت منه بمخالفته.

---

(١) ٤٣٠ الروضة.

وقيل: إنما سمي هوى لأنه يهوي بصاحبه إلى أسفل السافلين. والهوى ثلاثة أرباع الهوان، وهو شارع النار الأكبر، كما أن مخالفتَه شارع الجنة الأعظم.

...[1]**الخامس** عشر أن يأنف لنفسه من ذل طاعة الهوى، فإنه ما أطاع أحد هواه قط إلَّا وجد في نفسه ذُلًّا، ولا يغتر بصولة أتباع الهوى وكِبْرهم فهم أذلُّ الناس بواطن قد جمعوا بين فضيلتي الكبر والذل.

السادس عشر أن يوازن بين سلامة الدين والعِرض والمال والجاه ونيل اللذّة المطلوبة، فإنه لا يجد بينها نسبة البتَّة فليعلم أنه من أسفه الناس ببيعه هذا بهذا.

السابع عشر أن يأنف لنفسه أن يكون تحت قهر عدوه، فإن الشيطان إذا رأى من العبد ضعف عزيمة وهمة وميلاً إلى هواه طمع فيه وصرعه وألجمه بلجام الهوى وساقه حيث أراد، ومتى أحسّ منه بقوة عزمٍ وشرف نفسٍ وعلو همةٍ لم يطمع فيه إلَّا اختلاسًا وسَرِقة. . .

الثامن عشر أن يعلم أن الهوى ما خالط شيئًا إلَّا أفسده، فإن وقع في العلم أخرجه إلى البدعة والضلالة وصار صاحبه من جملة أهل الأهواء، وإن وقع في الزهد أخرج صاحبه إلى الرياء ومخالفة السنة، وإن وقع في الحكم أخرج صاحبه إلى الظلم وصدّه عن الحق، وإن وقع في القِسمة خرجت عن قسمة العدل إلى قسمة الجور، وإن وقع في الولاية والعزل أخرج صاحبه إلى خيانة الله والمسلمين حيث يُوَلي بهواه ويعزل بهواه، وإن وقع في العبادة خرجت عن أن تكون طاعةً وقربةً، فما قارن شيئًا إلا أفسده.

التاسع عشر أن يعلم أن الشيطان ليس له مدخلٌ على ابن آدم إلا من باب هواه، فإنه يُطيف به من أين يدخل عليه حتى يفسد عليه قلبه وأعمالَه فلا يجد مدخلاً إلَّا من باب الهوى، فيسري معه سريَان السم في الأعضاء.

العشرون أن الله سبحانه وتعالى جعل الهوى مضادًّا لما أنزله على رسوله، وجعل اتباعه مقابلاً لمتابعة رسله، وقسم الناس [إلى] قسمين: أتباع الوحي، وأتباع الهوى، وهذا كثيرٌ في القرآن كقوله تعالى: ﴿**فَإِن لم يستَجيبُوا لك فاعلَم أنَّما**

---

(١) ٥٠٦ الروضة.

يتَّبعون أهواءَهم ﴾ [القصص: ٥٠] وقولِه تعالى: ﴿وَلئن اتَّبعت أهواءهم بعدَ الذِي جَاءَكَ مِنَ العلم﴾ [البقرة: ١٢٠] ونظائره.

الحادي والعشرون أن الله سبحانه وتعالى شبّه أتباع الهوى بأخس الحيوانات صورة ومعنى، فشبّهم بالكلب تارة كقوله تعالى: ﴿وَلَكِنه أخْلد إلى الأرض واتَّبع هواه فمثلُه كَمَثل الكَلْب﴾ [الأعراف: ١٧٦] وبالحمر تارة كقوله تعالى: ﴿كأنهم حمر مستنفرة فَرَّت مِن قسوَرة﴾ وقلب صورهم إلى صورة القردة والخنازير تارة[1].

...[2]**قوله:** ﴿الذِين آتينَاهم الكِتاب يعرِفونه كما يعرِفون أبنَاءهم﴾ [البقرة: ١٤٦] ونظائرها نظر فإن الله تعالى حيث قال: ﴿الذين آتيناهم الكتاب﴾ لم يكونوا إلا ممدوحين مؤمنين، وإذا أراد ذمهم والإخبار عنهم بالعناد وإيثار الضلال أتى بلفظ الذين أوتوا الكتاب مبنيا للمفعول، فالأول كقوله تعالى: ﴿الذِين آتيناهم الكتَابَ مِن قَبْله هم بِه يؤمِنون وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربِّنا إنَّا كنا من قبله مسلمين أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا﴾ [القصص: ٥٢]. وكقوله تعالى: ﴿أفغير الله أبتغِي حكما وهو الذي أنزل إليكم الكِتاب مفصَّلا والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق فلا تكونن من الممترين﴾ [الأنعام: ١١٤] فهذا في سياق مدحهم والاستشهاد بهم ليس في سياق ذمهم والإخبار بعنادهم وجحودهم كما استشهدهم في قوله تعالى: ﴿قُل كَفى بالله شهيدًا بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب﴾ [الرعد: ٤٣] وفي قوله: ﴿فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون﴾ [النحل: ٤٣]. وقال تعالى: ﴿الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته أولئك يؤمنون به ومن يكفر به فأولئك هم الخاسرون﴾ [البقرة: ١٢١] واختلف في الضمير في يتلونه حق تلاوته، فقيل: هو ضمير الكتاب الذي أوتوه، قال ابن مسعود: يحلون حلاله ويحرمون حرامه ويقرؤونه كما أنزل ولا يحرفونه عن مواضعه، قالوا: وأنزلت في مؤمني أهل الكتاب.

وقيل هذا وصف للمسلمين، والضمير في يتلونه للكتاب الذي هو القرآن. وهذا بعيد إذا عرف أن القرآن يأباه، ولا يرد على ما ذكرنا قوله تعالى: ﴿الذين

---

(١) أوصلها المؤلف ـ رحمه الله ـ إلى خمسين وبها ختم الكتاب (ج).

(٢) ١٠٢ المفتاح جـ١.

آتيناهم الكِتاب يعرِفونه كما يعرفون أبناءهم وإن فريقًا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمـون﴾ [البقرة: ١٤٦] بل هذا حجة لنا أيضا لما ذكرنا فإنه أخبر في الأول عن معرفتهم برسوله ﷺ ودينه وقبلته كما يعرفون أبناءهم استشهادًا بهم على من كفر وثناء عليهم، ولهذا ذكر المفسرون أنهم عبدالله بن سلام وأصحابه، وخص في آخر الآية بالذم طائفة منهم، فدل على أن الأولين غير مذمومين. وكونهم دخلوا في جملة الأولـين بلفظ المضمر لا يوجب أن يقال آتيناهم الكتاب عند الإطلاق؛ فإنهم دخلوا في هذا اللفظ ضمنًا وتبعًا فلا يلزم تناوله لهم قصدًا واختيارًا. وقال تعالى في سورة الأنعام: **﴿أئنكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى قُل لا أشهد قل إنما هو إله واحد وإنني بريء مما تشركون * الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم﴾** [الأنعام: ١٩، ٢٠].

قيل: الرسول وصدقه، وقيل: المذكور هو التوحيد، والقولان متلازمان؛ إذ ذلك في معرض الاستشهاد والاحتجاج على المشركين لا في معرض ذم الذين آتاهم الكتاب؛ فإن السورة مكية والحجاج كان فيها مع أهل الشرك، والسياق يدل على الاحتجاج لا ذم المذكورين من أهل الكتاب. وأما الثاني فكقوله: **﴿وإن الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم وما الله بغافل عما يعملون * ولئن أتيتَ الـذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك﴾** [البقرة: ١٤٥-١٤٦] فهذا شهادته سبحانه للذين أوتوا الكتاب. والأول شهادته للذين آتاهم الكتاب بأنهم يؤمنون.

وقال تعالى: **﴿يا أيُها الذين أوتوا الكِتاب آمنوا بما نزَّلنا مُصدِّقا لما معكم من قبل أن نطمس وجوهًا فنردها على أدبارِها﴾** [النساء: ٤٧] وقال تعالى: **﴿وقُل للذين أوتُوا الكِتاب والأميين أأسلمتُم﴾** [آل عمران: ٢٠] وهذا خطاب لمن لم يسلم منهم وإلا فلم يؤمر ﷺ أن يقول هذا لمن أسلم منهم وصدق به، ولهذا لا يذكر سبحانه الذين أوتوا نصيبًا من الكتاب إلا بالذم أيضًا كقوله: **﴿ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبًا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطّاغوت﴾** [النساء: ٥١]. وقال تعالى: **﴿ألم تر إلى الذين أتوا نصيبا من الكتاب يشترون الضلالة ويريدون أن تضلوا السبيل﴾**

وقال: ﴿ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبًا من الكتاب يدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم ثم يتـولى فريق منهم وهم معـرضون﴾ [آل عمران: ٢٣]. فالأقسام أربعة:

الذين آتيناهم الكتاب، وهذا لا يذكره سبحانه إلا في معرض المدح، والذين أوتوا نصيبًا من الكتاب، لا يكون قط إلا في معرض الذم، والذين أوتوا الكتاب: أعم منه؛ فإنه قد يتناولهما، ولكن لا يفرد به الممدوحون قط، ويا أهل الكتاب: يعم الجنس كله، ويتناول الممدوح منه والمذموم كقوله: ﴿من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون يؤمنون بالله واليوم الآخر﴾

وقال في الذم ﴿لم يكن الذين كفرُوا من أهل الكِتاب والمشركِين مُنفكَين﴾ [البينة: ١] وهذا الفصل ينتفع به جدًا في أكبر مسائل أصول الإسلام وهي مسألة الإيمان واختلاف أهل القبلة فيه، وقد ذكرنا فيه نكتًا حسانًا يتضح بها الحق في المسألة والله أعلم.

. . .[1]**قال** ابن إسحاق: وقدم على رسول الله ﷺ وهو بمكة عشرون رجلًا أو قريبًا من ذلك من النصارى حين بلغهم خبره من الحبشة فوجدوه في المسجد، فجلسوا إليه وكلموه، وقبالتهم رجال من قريش في أنديتهم حول الكعبة، فلما فرغوا من مسألة رسول الله ﷺ عما أرادوا دعاهم رسول الله ﷺ إلى الله، وتلا عليهم القرآن فلما سمعوه فاضت أعينهم من الدمع، ثم استجابوا له وآمنوا به وصدقوه، وعرفوا منه ما كان يوصف لهم في كتابهم من أمره، فلما قاموا عنه اعترضهم أبوجهل ابن هشام في نفر من قريش، فقالوا لهم: خيبكم الله من ركب؟! بعثكم من وراءكم من أهل دينكم ترتادون لهم لتأتوهم بخبر الرجل فلم تطمئن مجالسكم عنده حتى فارقتم دينكم وصدقتموه بما قال؟! ما نعلم ركبًا أحمق منكم أو كما قالوا. فقالوا لهم: سلام عليكم، لا نجاهلكم، لنا ما نحن عليه ولكم ماأنتم عليه، لم نأل من أنفسنا خيرًا. ويقال إن النفر من النصارى من أهل نجران، ويقال فيهم نزلت ﴿الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون * وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا ـ إلى قوله ـ سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين﴾ [القصص: ٥٢ ـ ٥٥] وقال الزهري: مازلت أسمع من علمائنا أنهن نزلن في النجاشي وأصحابه.

---

(١) ٢٦ هداية الحيارى.

...(١)**قال** تعالى: ﴿**إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يَشاء**﴾ [العنكبوت: ٥٦] مع قوله: ﴿**وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم**﴾ [الزخرف: ٥٢] فأثبت هداية الدعوة والبيان، ونفى هداية التوفيق والإلهام. وقال النبي ﷺ في تشهد الحاجة: «**من يهد الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له**». وقال تعالى: ﴿**إن تحرص على هداهم فإن الله لا يهدي من يُضِل**﴾ [النحل: ٣٧] أي من يضله الله لا يهتدى أبدًا. وهذه الهداية الثالثة هي الهداية الموجبة المستلزمة للاهتداء. وأما الثانية فشرط لا موجب، فلا يستحيل تخلف الهدى عنها، بخلاف الثالثة فإن تخلف الهدى عنها مستحيل. المرتبة الرابعة الهداية في الآخرة إلى طريق الجنة والنار.

قال تعالى: ﴿**احشروا الذين ظلموا وأزواجهم وما كانوا يعبدون * من دون الله فاهدوهم إلى صراط الجحيم**﴾ [الصافات: ٢٢، ٢٣]. وأما قول أهل الجنة: ﴿**الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله**﴾ [الأعراف: ٤٣] فيحتمل أن يكونوا أرادوا الهداية إلى طريق الجنة، وأن يكونوا أرادوا الهداية في الدنيا التي أوصلتهم إلى دار النعيم. ولو قيل إن كلا الأمرين مراد لهم، وأنهم حمدوا الله على هدايته لهم في الدنيا وهدايتهم إلى طريق الجنة كان أحسن وأبلغ. وقد ضرب الله تعالى لمن لم يحصل له العلم بالحق واتباعه مثلاً مطابقًا لحاله: فقال تعالى: ﴿**قُل أندعوا من دون الله ما لا ينفعنا ولا يضرنا ونرد على أعقابنا بعد إذ هدانا الله كالذي استهوته الشياطين في الأرض حيران له أصحاب يدعونه إلى الهدى ائتنا قُل إن هُدى الله هو الهُدى وأمرنا لنسلم لرب العالمين**﴾ [الأنعام: ٧١].

...(٢)**اعلم** أن القلب إذا خلى من الاهتمام بالدنيا والتعلق بما فيها من مال، أو رياسة أوصورة. وتعلق بالآخرة، والاهتمام بها من تحصيل العُدَّة، والتأهب للقدوم على الله عز وجل: فذلك أول فتوحه، وتباشير فجره. فعند ذلك يتحرك قلبه لمعرفة ما يرضى به ربه منه، فيفعله ويتقرب به إليه، وما يسخطه منه، فيجتنبه. وهذا عنوان صدق إرادته، فإن كل من أيقن بلقاء الله، وأنه سائله عن كلمتين ـ يُسأل عنهما الأولون والآخرون ـ ماذا كنتم تعبدون؟ وماذا أجبتم المرسلين؟ لابد أن يتنبه

---

(١) ٨٥ المفتاح جـ١. (٢) ٣٧٩ المدارج جـ٣.

لطلب معرفة معبوده، والطريق الموصلة إليه. فإذا تمكن في ذلك: فتح له باب الأنس بالخلوة والوحدة والأماكن الخالية التي تهدأ فيها الأصوات والحركات، فلاشيء أشوق إليه من ذلك؛ فإنها تجمع عليه قوى قلبه وإرادته، وتسد عليه الأبواب التي تفرق همَّه وتشت قلبه، فيأنس بها ويستوحش من الخلق.

ثم يفتح له باب حلاوة العبادة بحيث لا يكاد يشبع منها. ويجد فيها من اللذة والراحة أضعاف ما كان يجده في لذة اللهو واللعب، ونيل الشهوات. بحيث إنه إذا دخل في الصلاة ودَّ أن لا يخرج منها. ثم يفتح له باب حلاوة استماع كلام الله، فلا يشبع منه، وإذا سمعه هدأ قلبه به كما يهدأ الصبي إذا أعطى ما هو شديد المحبة له. ثم يفتح له باب شهود عظمة الله المتكلم به وجلاله، وكمال نعوته وصفاته وحكمته، ومعاني خطابه، بحيث يستغرق قلبه في ذلك حتى يغيب فيه، ويحس بقلبه وقد دخل في عالم آخر غير ما الناس فيه.

ثم يفتح له باب الحياء من الله، وهو أول شواهد المعرفة، وهو نور يقع في القلب، يُريه ذلك النور: أنه واقف بين يدي ربه عز وجل، فيستحي منه في خلواته، وجلواته، ويرزق عند ذلك: دوام المراقبة للرقيب، ودوام التطلع إلى حضرة العلي الأعلى، حتى كأنه يراه ويشاهده فوق سمواته، مستويًا على عرشه، ناظرًا إلى خلقه، سامعًا لأصواتهم، مشاهدًا لبواطنهم. فإذا استولى عليه هذا الشاهد غطى عليه كثيراً من الهموم بالدنيا وما فيها، فهو في وجود والناس في وجود آخر، هو في وجود بين يدي ربه ووليه، ناظرًا إليه بقلبه، والناس في حجاب عالم الشهادة في الدنيا، فهو يراهم وهم لا يرونه، ولا يرون منه إلا ما يناسب عالمهم ووجودهم.

ثم يفتح له باب الشعور بمشهد القيومية، فيرى سائر التقلبات الكونية وتصاريف الوجود بيده سبحانه وحده، فيشهده مالك الضر والنفع، والخلق والرزق، والإحياء والإماتة، فيتخذه وحده وكيلاً، ويرضى به ربًّا ومدبراً وكافياً. وعند ذلك إذا وقع نظره على شيء من المخلوقات دله على خالقه وبارئه، وصفات كماله ونعوت جلاله، فلا يحجبه خلقه عنه سبحانه، بل يناديه كل من المخلوقات بلسان حاله: اسمع شهادتي لمن أحسن كل شيء خلقه، فأنا صنع الله الذي أتقن كل شيء . . .

...[1]**وقوله: ﴿وربك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة سبحان الله وتعالى عما يشركون * وربك يعلم ما تُكن صدورهم وما يعلنون﴾** [القصص: ٦٨ - ٦٩] أي سبحانه المتفرد بالخلق والاختيار مما خلق، وهو الاصطفاء والاجتباء. ولهذا كان الوقف التام عند قوله ويختار، ثم نفى عنهم الاختيار الذي اقترحوه بإرادتهم، وأن ذلك ليس إليهم، بل إلى الخلاق العليم الذي هو أعلم بمحال الاختيار ومواضعه لا من قال: **﴿لولا نزِّل هذا القرآن على رجلٍ من القريتين عظيم﴾** [الزخرف: ٣٠] فأخبر سبحانه أنه لا يبعث الرسل باختيارهم، وأن البشر ليس لهم أن يختاروا على الله، بل هو الذي يخلق ما يشاء ويختار، ثم نفى سبحانه أن تكون لهم الخيرة كما ليس لهم الخلق.

ومن زعم أن ما مفعول يختار فقد غلط؛ إذ لو كان هذا هو المراد لكانت الخيرة منصوبة على أنها خبر كان، ولا يصح المعنى ما كان لهم الخيرة فيه وحذف العائد؛ فإن العائد ههنا مجرور بحرف لم يجر الموصول بمثله، فلو حذف مع الحرف لم يكن عليه دليل فلا يجوز حذفه. وكذلك لم يفهم معنى الآية من قال إن الاختيار ههنا هو الإرادة، كما يقوله المتكلمون أنه سبحانه فاعل بالاختيار؛ فإن هذا الاصطلاح حادث منهم لا يحمل عليه كلام الله، بل لفظ الاختيار في القرآن مطابق لمعناه في اللغة، وهو اختيار الشيء على غيره، وهو يقتضي ترجيح ذلك المختار وتخصيصه وتقديمه على غيره، وهذا أمر أخص من مطلق الإرادة والمشيئة.

قال في الصحاح: الخيرة الاسم من قولك: خار الله لك في هذا الأمر والخيرة أيضًا، يقول: محمد خيرة الله من خلقه، وخيرة الله أيضًا بالتسكين. والاختيار الاصطفاء وكذلك التخيير، والاستخارة طلب الخيرة، يقال: استخر الله يخر لك، وخيرته بين الشيئين فوّضت إليه الاختيار. انتهى. فهذا هو الاختيار في اللغة وهو أخص مما اصطلح عليه أهل الكلام، ومن هذا قوله: **﴿وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله وَرَسُوله أمرًا أن يكونَ لهُم الخِيرة مِن أمرِهم﴾** [الأحزاب: ٣٦] وقوله تعالى: **﴿واختار موسى قومَه سَبعين رجُلاً لميقاتِنا﴾** [الأعراف: ١٥٥] أي اختار منهم.

---

(١) ٣١ شفاء.

وبهذا يحصل جواب السؤال الذي تورده القدرية يقولون في الكفر والمعاصي: هل هي واقعة باختيار الله أم بغير اختياره. فإن قلتم: باختياره فكل مختار مرضي مصطفى محبوب، فتكون مرضية محبوبه له. وإن قلتم: بغير اختياره لم يكن بمشيئته واختياره.

وجوابه أن يقال: ما تعنون بالاختيار [أهو] العام في اصطلاح المتكلمين وهو المشيئة والإرادة أم تعنون به الاختيار الخاص الواقع في القرآن والسنة وكلام العرب؟ وإن أردتم بالاختيار الأول فهي واقعة باختياره ـ بهذا الاعتبار ـ لكن لا يجوز أن يطلق ذلك عليها لما في لفظ الاختيار من معنى الاصطفاء والمحبة، بل يقال واقعة بمشيئته وقدرته. وإن أردتم بالاختيار معناه في القرآن ولغة العرب فهي غير واقعة باختياره بهذا المعنى وإن كانت واقعة بمشيئته. فإن قيل فهل تقولون إنها واقعة بإرادته أم لا تطلقون ذلك؟ قيل: لفظ الإرادة في كتاب الله نوعان: إرادة كونية شاملة لجميع المخلوقات كقوله: ﴿**فعّال لما يريد**﴾ [البروج: ١٦] وقوله: ﴿**وإذا أردنا أن نهلك قرْيَة**﴾ [الإسراء: ١٦] وقوله: ﴿**إن كان الله يُريد أن يُغويكم**﴾ [هود: ٣٤] ونظائر ذلك. وإرادة دينية أمرية لا يجب وقوع مرادها كقوله: ﴿**يُريد الله بِكم اليُسر**﴾ [البقرة: ١٨٥] وقوله: ﴿**والله يريد أن يتوب عليكم**﴾ [النساء: ٢٧] فهي مرادة بالمعنى الأول غير مرادة بالمعنى الثاني.

وكذلك إن قيل هل هي واقعة بإذنه أم لا؟ والإذن أيضًا نوعان: كوني كقوله: ﴿**وَمَا هم بِضَارِّين به من أحد إلا بإذن الله**﴾ [البقرة: ١٠٢]، وديني أمري كقوله: ﴿**ءَالله أذِن لكُم**﴾ [يونس: ٥٩] وقوله: ﴿**أُذِن للذين يقاتلون بأنهم ظُلِموا**﴾ [الحج: ٣٩] ولفظ الاختيار مشتق من الخير المخالف للشر، ولما كان الأصل في الحي أنه يريد ما ينفعه وما هو خير سميت الإرادة اختيارًا. وهذا يتضمن أن الإرادة لا ترجح نوعًا على نوع إلا لمرجح رجح ذلك النوع عند الفاعل. والمقصود أنه يذكر العلم عند التخصيصات كقوله تعالى: ﴿**وَلَقد اخترناهم على عِلم على العَالَمين**﴾ [الدخان: ٣٢] لا خلاف بين الناس أن المعنى على علم منا بأنهم أهل الاختيار، فالجملة في موضع نصب على الحال، أي اخترناهم عالمين بهم وبأحوالهم وما يقتضي اختيارهم من قبل خلقهم، ذكر سبحانه اختيارهم وحكمته في اختياره

إياهم، وذكر علمه الدال على مواضع حكمته واختياره.

...[(١)] **الله** سبحانه وتعالى هو المنفرد بالخلق والاختيار من المخلوقات، قال الله تعالى: ﴿**وَرَبُّكَ يَخْلُقُ ما يَشاء ويَختار**﴾ [القصص: ٦٨] وليس المراد ههنا بالاختيار الإرادة، التي يشير إليها المتكلمون، بأنه الفاعل المختار، وهو سبحانه كذلك، ولكن ليس المراد بالاختيار ههنا هذا المعنى، وهذا الاختيار داخل في قوله: ﴿**يخلق ما يشاء**﴾ فإنه لا يخلق إلا باختياره، وداخل في قوله تعالى ﴿**ما يشاء**﴾ فإن المشيئة هي الاختيار.

وإنما المراد بالاختيار ههنا: الاجتباء والاصطفاء، فهو اختيار بعد الخلق، والاختيار العام اختيار قبل الخلق، فهو أعم وأسبق، وهذا أخص وهو متأخر، فهو اختيار من الخلق، والأول اختيار للخلق. وأصح القولين: أن الوقف التام على قوله تعالى: ﴿**ويَخْتَار**﴾ ويكون ﴿**مَا كَانَ لَهُم الخِيرَة**﴾ نفيًا، أي: ليس هذا الاختيار إليهم، بل هو إلى الخالق وحده، فكما أنه المنفرد بالخلق فهو المنفرد بالاختيار منه، فليس لأحد أن يخلق ولا أن يختار سواه، فإنه سبحانه أعلم بمواقع اختياره، ومحال رضاه، وما يصلح للاختيار مما لا يصلح له، وغيره لا يشاركه في ذلك بوجه.

وذهب بعض من لا تحقيق عنده ولا تحصيل إلى أن «ما» من قوله تعالى: ﴿**مَا كَانَ لَهُم الخِيرَة**﴾ موصولة، وهي مفعول (ويختار) أي: ويختار الذي لهم الخيرة، وهذا باطل من وجوه.

أحدها: أن الصلة حينئذ تخلو من العائد؛ لأن (الخيرة) مرفوع؛ لأنه اسم «كان» والخبر «لهم» فيصير المعنى: ويختار الأمر الذي كان الخيرة لهم، وهذا التركيب محال من القول.

فإن قيل: يمكن تصحيحه بأن يكون العائد محذوفًا، ويكون التقدير: ويختار الذي كان لهم الخير فيه، أي: ويختار الأمر الذي كان لهم الخيرة في اختياره. قيل: هذا يفسد من وجه آخر، وهو أن هذا ليس من المواضع التي يجوز فيها حذف العائد، فإنه إنما يحذف مجرورًا إذا جُرَّ بحرفٍ جُرَّ الموصول بمثله، مع اتحاد

---

(١) ٥ الزاد جـ١.

المعنى، نحو قوله تعالى: ﴿**يأكُل مما تأكُلون مِنه ويَشْربُ مِما تَشْرَبون**﴾ [المؤمنون: ٣٣] ونظائره. ولا يجوز أن يقال: جاءني الذي مررت، ورأيت الذي رغبت، ونحوه.

الثاني: أنه لو أريد هذا المعنى لنصب (الخيرة) وشغل فعل الصلة بضمير يعود على الموصول، فكان يقول: ويختار ما كان لهم الخيرة، أي: الذي كان هو عين الخيرة لهم، وهذا لم يقرأ به أحد البتة، مع أنه كان وجه الكلام على هذا التقدير.

الثالث: أن الله سبحانه يحكي عن الكفار اقتراحهم في الاختيار وإرادتهم أن تكون الخيرة لهم، ثم ينفي هذا سبحانه عنهم، ويبين تفرده هو بالاختيار، كما قال تعالى: ﴿**وَقالوا لولاَ نُزل هذا القُرآن على رجُلٍ من القريتين عظيم * أهم يقسِمون رحمة ربِّك نحن قسَمنا بينهم معيشَتهم في الحَياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوقَ بعضٍ درجاتٍ ليتخذ بعضُهم بعضًا سُخْرِيًا ورحمة ربِّك خير مما يجمَعون**﴾ [الزخرف: ٣١، ٣٢]. فأنكر عليهم سبحانه تخيُّرهم عليه، وأخبر أن ذلك ليس إليهم، بل إلى الذي قسم بينهم معايشهم المتضمنة لأرزاقهم، ومدد آجالهم، وكذلك هو الذي يقسم فضله بين أهل الفضل على حسب علمه بمواقع الاختيار، ومن يصلح له ممن لا يصلح، وهو الذي رفع بعضهم فوق بعض درجات، وقسم بينهم معايشهم ودرجات التفضيل، فهو القاسم ذلك وحده لا غيره، وهكذا هذه الآية بيَّن فيها انفراده بالخلق والاختيار، وأنه سبحانه أعلم بمواقع اختياره، كما قال تعالى: ﴿**وإذا جاءَتهم آية قَالوا لَن نُؤْمن حَتَّى نُؤتَي مثل ما أوتي رُسل الله أعلم حيث يجعل رِسالَته**﴾ [الأنعام: ١٢٤] أي: الله أعلم بالمحلَ الذي يصلح لاصطفائه وكرامته، وتخصيصه بالرسالة والنبوة، دون غيره.

الرابع: أنه نزه نفسه سبحانه عما اقتضاه شركهم: من اقتراحهم واختيارهم، فقال: ﴿**مَا كَان لَهم الخِيرة، سُبحان الله وتَعالى عَمَّا يشركون**﴾ [القصص: ٦٨] ولم يكن شركهم مقتضيًا لإثبات خالق سواه حتى نَزَّه نفسه عنه، فتأمله. فإنه في غاية اللطف.

الخامس: أن هذا نظير قوله تعالى في الحج ﴿**إنَّ الذين تَدعون من دون الله لَن يَخلُقوا ذُبابًا ولو اجتمعوا له وإن يَسْلبهم الذُّباب شيئًا لا يستنقذُوه مِنه ضَعف الطالب والمطلوب * ماقَدروا الله حقَّ قدره إن الله لقوي عزيز**﴾ ثم قال: ﴿**الله يصطفي من الملائكة رُسُلاً ومِن الناس إن الله سميع بَصير * يعلم ما بين أيديهم**

وما خلفهم وإلى الله تُرجع الأمور﴾ [الحج: ٧٣، ٧٦]وهذا نظير قوله: ﴿وَرَبك يعلم ما تُكِن صُدورهم وما يعلنون﴾ [القصص: ٦٩] ونظير قوله: ﴿الله أعلم حيثُ يجعَل رِسَالته﴾ [الأنعام: ١٢٤] فأخبر في ذلك كله عن علمه المتضمن لتخصيصه محالَّ اختياره بما خصصها به، لعلمه بأنها تصلح له دون غيرها. فتدبر السياق في هذه الآيات تجده متضمنًا لهذا المعنى زائدًا عليه. والله أعلم.

السادس: أن هذه الآية مذكورة عقيب قوله تعالى: ﴿وَيَوم يُنادِيهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين * فعَمِيَت عليهم الأنباء يومئذٍ فهم لا يتساءلون * فأما من تاب وآمن وعمل صالِحًا فعسى أن يكون من المفلحين * وربُّك يخلق ما يشاء ويختار﴾ [القصص: ٦٥-٦٧] فكما خلقهم وحده سبحانه، اختار منهم من تاب وآمن وعمل صالحًا، فكانوا صفوته من عباده، وخيرته من خلقه، وكان هذا الاختيار راجعًا إلى حكمته وعلمه سبحانه لمن هو أهل له، لا إلى اختيار هؤلاء المشركين واقتراحهم. فسبحان الله وتعالى عما يشركون.

فصل وإذا تأملت أحوال هذا الخلق رأيت هذا الاختيار والتخصيص فيه دالاً على ربوبيته تعالى ووحدانيته، وكمال حكمته وعلمه وقدرته، وأنه الله الذي لا إله إلا هو، فلا شريك له يخلق كخلقه، ويختار كاختياره، ويدبر كتدبيره. فهذا الاختيار والتخصيص المشهود أثره في هذا العالم من أعظم آيات ربوبيته، وأكبر شواهد وحدانيته، وصفات كماله، وصدق رسله.

فنشير منه إلى شيء يسير يكون منبهًا على ما وراءه، دالاً على ما سواه. فخلق الله السموات سبعًا، فاختار العليا منها، فجعلها مستقر المقربين من ملائكته، واختصها بالقرب من كرسيه ومن عرشه، وأسكنها من شاء من خلقه، فلها مزية وفضل على سائر السموات، ولو لم يكن إلا قربها منه تبارك وتعالى. وهذا التفضيل والتخصيص مع تساوي مادة السموات: من أبين الأدلة على كمال قدرته وحكمته، وأنه يخلق ما يشاء ويختار.

ومن هذا: تفضيله سبحانه جنة الفردوس على سائر الجنان، وتخصيصها بأن جعل عرشه سقفها، وفي بعض الآثار: «أن الله سبحانه غرسها بيده، واختارها لخيرته من خلقه».

ومن هذا: اختياره من الملائكة المصطفين منهم على سائرهم، كجبريل وميكائيل وإسرافيل، وكان النبي ﷺ يقول: «**اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم**»(١).

فذكر هؤلاء الثلاثة من الملائكة لكمال اختصاصهم واصطفائهم، وقربهم من الله، وكم من ملك غيرهم في السموات، فلم يسم إلا هؤلاء الثلاثة. فجبريل: صاحب الوحي، الذي به حياة القلوب والأرواح. وميكائيل: صاحب القَطر، الذي به حياة الأرض والحيوان والنبات، وإسرافيل: صاحب الصور، الذي إذا نفخ فيه أحيت نفخته بإذن الله الأموات، وأخرجتهم من قبورهم.

وكذلك اختياره سبحانه الأنبياء من ولد آدم عليه وعليهم الصلاة والسلام ـ وهم مائة ألف وأربعة وعشرون ألفا ـ واختياره سبحانه الرسل منهم، وهم ثلاثمائة وثلاثة عشر ـ على ما في حديث أبي ذر الذي رواه أحمد وابن حبان في صحيحه ـ واختياره أولي العزم منهم، وهم خمسة: المذكورون في سورة الأحزاب والشورى في قوله تعالى: ﴿**وإذْ أخذْنَا مِن النبيين ميثَاقهم ومنك ومن نُوح وإبراهيم ومُوسى وعِيسى ابن مريَم**﴾ [الأحزاب: ٧] وقال تعالى: ﴿**شرعَ لكم من الدِّين ما وصّى به نوحاً والذي أوحينا إليك، وما وصينا به إبراهيم ومُوسى وعِيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه**﴾ [الشورى: ١٣] واختار منهم الخليلين: إبراهيم ومحمدًا صلى الله عليهما وسلم.

ومن هذا: اختياره سبحانه ولد إسماعيل من أجناس بني آدم، ثم اختار منهم بني كنانة من خزيمة، ثم اختار من ولد كنانة قريشًا، ثم اختار من قريش بني هاشم، ثم اختار من بني هاشم سيد ولد آدم محمدًا ﷺ(٢). وكذلك اختار أصحابه من جملة العالمين، واختار منهم السابقين الأولين، واختار منهم أهل بدر وأهل بيعة الرضوان، واختار لهم من الدين أكمله، ومن الشرائع أفضلها، ومن الأخلاق أزكاها وأطيبها وأطهرها. واختار أمته ﷺ على سائر الأمم، كما في مسند الإمام أحمد وغيره من حديث بَهْز بن حكيم بن معاوية بن حَيْدة عن أبيه عن جده قال: قال

---

(١) رواه مسلم عن عائشة والإمام أحمد عن ابن عمر

(٢) يشير إلى حديث واثلة بن الأسقع الذي رواه مسلم.

رسول الله ﷺ: «أنتم توفون سبعين أمة أنتم خيرها وأكرمها على الله»قال علي بن المديني وأحمد: حديث بهز بن حكيم عن أبيه عن جده صحيح.

وظهر أثر هذا الاختيار في أعمالهم وأخلاقهم، وتوحيدهم، ومنازلهم في الجنة، ومقاماتهم في الموقف، فإنهم أعلى من الناس على تَلٍّ فوقهم يشرفون عليهم. وفي الترمذي من حديث بريدة بن الحُصَيب الأسلمي قال: قال رسول الله ﷺ: «**أهل الجنة عشرون ومائة صف: ثمانون منها من هذه الأمة، وأربعون من سائر الأمم**» قال الترمذي: هذا حديث حسن. والذي في الصحيح من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ في حديث بَعْث النار: «**والذي نفسي بيده إني لأطمع أن تكونوا شطْر أهل الجنة**» ولم يزد على ذلك، فإما أن تكون أمته شطر أهل الجنة، فأعلمه ربه، فقال: ﴿**إنهم ثمانون صفًا من مائة وعشرين صفًا**﴾ فلا تنافي بين الحديثين، والله أعلم.

(١)الباب الثالث والعشرون
(في خلق الرب تبارك وتعالى بعض الجنان وغرسها بيده تفضيلاً لها على سائر الجنان)

وقد اتخذ الرب تعالى من الجنان دارًا اصطفاها لنفسه وخصها بالقرب من عرشه، وغرسها بيده، فهي سيدة الجنان. والله سبحانه وتعالى يختار من كل نوع أعلاه وأفضله، كما اختار من الملائكة جبريل، ومن البشر محمدًا ﷺ، ومن السموات العليا، ومن البلاد مكة، ومن الأشهر المحرم، ومن الليالي ليلة القدر، ومن الأيام يوم الجمعة، ومن الليل وسطه، ومن الأوقات أوقات الصلاة إلى غير ذلك، فهو سبحانه وتعالى: ﴿**يخلق ما يشاء ويختار**﴾.

وقال الطبراني في معجمه: حدثنا مطلب بن شعيب الأزدي حدثنا عبدالله بن صالح حدثني الليث. قال الطبراني في معجمه وحدثنا أبو الزنباع روح بن الفرج حدثنا يحيى بن بكير حدثنا الليث عن زيادة بن محمد الأنصاري عن محمد بن كعب القرظي عن فضالة بن عبيد عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: «**ينزل الله تعالى في آخر ثلاث ساعات يبقين من الليل فينظر الله في الساعة الأولى**

(١) ٧٩ حادي.

منهن في الكتاب الذي لا ينظر فيه غيره فيمحو ما يشاء ويثبت، ثم ينظر في الساعة الثانية إلى جنة عدن وهي مسكنه الذي يسكن فيه، ولا يكون معه فيها أحد إلا الأنبياء والشهداء والصديقون وفيها ما لم تره عين أحد، ولا خطر على قلب بشر، ثم يهبط آخر ساعة من الليل فيقول ألا مستغفر يستغفرني فأغفر له؟ ألا سائل يسألني فأعطيه؟ ألا داع يدعوني فأستجيب له حتى يطلع الفجر» قال تعالى: **﴿وقرآن الفجر إنَّ قُرآن الفجر كان مشهودًا﴾** [الإسراء:٧٨] فيشهده تعالى وملائكته. قال الحسن بن سفيان حدثنا أبوالطاهر أحمد بن عمرو بن السرح قال حدثني خالي عبدالرحمن بن عبدالحميد بن سالم حدثنا يحيى بن أيوب عن داود بن أبي هند عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: «**إن الله بنى الفردوس بيده وحظرها على كل مشرك وكل مدمن خمر ومتكبر**»...

...[1]**فصل** ثم تأمل حال الشمس والقمر في طلوعهما وغروبهما لإقامة دولتي الليل والنهار، ولولا طلوعهما لبطل أمر العالم، وكيف كان الناس يسعون في معائشهم، ويتصرفون في أمورهم والدنيا مظلمة عليهم، وكيف كانوا يتهنون بالعيش مع فقد النور. ثم تأمل الحكمة في غروبهما فإنه لولا غروبهما لم يكن للناس هدوء ولا قرار، مع فرط الحاجة إلى السبات وجموم الحواس، وانبعاث القوى الباطنة، وظهور سلطانها في النوم المعين على هضم الطعام وتنفيذ الغذاء إلى الأعضاء. ثم لولا الغروب لكانت الأرض تحمى بدوام شروق الشمس، واتصال طلوعها حتى يحترق كل ما عليها من حيوان ونبات، فصارت تطلع وقتًا بمنزلة السراج يرفع لأهل البيت ليقضوا حوائجهم، ثم تغيب عنه مثل ذلك ليقروا ويهدؤا، وصار ضياء النهار مع ظلام الليل، وحر هذا مع برد هذا مع تضادهما متعاونين متظاهرين، بهما تمام مصالح العالم. وقد أشار تعالى إلى هذا المعنى ونبه عباده عليه بقوله عز وجل: **﴿قُل أرأيتُم إن جعل الله عليكم الليل سرمَدًا إلى يومِ القيامة من إله غير الله يأتِيكم بضِياء أفلا تسمعون * قُل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمَدًا إلى يومِ القيامة من إله غير الله يأتيكم بليل تسكُنون فيه أفلا**

---

(١) ٢٠٧ المفتاح جـ١.

تُبصِرون﴾ [القصص: ٧١، ٧٢] خص سبحانه النهار بذكر البصر لأنه محله وفيه سلطان البصر وتصرفه، وخص الليل بذكر السمع لأن سلطان السمع يكون بالليل، وتسمع فيه الحيوانات مالا تسمع في النهار؛ لأنه وقت هدوء الأصوات وخمود الحركات، وقوة سلطان السمع وضعف سلطان البصر، والنهار بالعكس فيه قوة سلطان البصر وضعف سلطان السمع. فقوله: **﴿أفلا تسمعون﴾** راجع إلى قوله: **﴿قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمدًا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء﴾** وقوله: **﴿أفلا تبصرون﴾** راجع إلى قوله: **﴿قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمدًا إلى يوم القيامة﴾**.

. . .[1]**ومما** يدل على أن الفرح من أسباب المكر ما لم يقارنه خوف قوله تعالى: **﴿فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتَّى إذا فرحُوا بما أوتوا أخذنَاهم بغتة فإذا هم مُبلِسون﴾** [الأنعام: ٤٤] وقال قوم قارون له: **﴿لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين﴾** [القصص: ٧٦] فالفرح متى كان بالله، وبما مَنَّ الله به، مقارنًا للخوف والحذر: لم يضر صاحبه، ومتى خلا عن ذلك: ضره ولابد.

...[2]**وليحذر** كل الحذر من طغيان «أنا» و«لي» و«عندي» فإن هذه الألفاظ الثلاثة ابتلي بها إبليس وفرعون وقارون، فـ**﴿أنا خير منه﴾** [الأعراف: ١٢] لإبليس و**﴿لي مُلكُ مصر﴾** [الزخرف: ٥١] لفرعون، و**﴿إنما أوتيته على علم عندي﴾** [القصص: ٧٨] لقارون.

وأحسن ما وضعت «أنا» في قول العبد، أنا العبد المذنب المخطيء، المستغفر المعترف ونحوه، و«لي» في قوله: لي الذنب، ولي الجرم، ولي المسكنة، ولي الفقر والذل، و«عندي» في قوله: «اغفر لي جِدي وهزلي، وخطئي وعمدي، وكل ذلك عندي».

...[3]**الوجه** السابع أنه سبحانه ذم متمنى الدنيا والغنى والسعة فيها ومدح من أنكر عليهم وخالفهم، فقال تعالى عن أغنى أهل زمانه: **﴿فخرج على قومه في زينته قَال الذين يُريدون الحياة الدنيا ياليت لنا مِثل ما أوتي قارون إنه لذو حظ عظيم * وقال الذين أوتوا العِلم ويْلَكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحًا ولا يلقاها إلا الصابرون﴾** [القصص: ٧٩ ـ ٨٠] فأخبروا أن ما عند الله خير من الدنيا لمن

---

(١) ١٠٨ المدارج جـ٣.　　(٢) ١٠٢ الفوائد.　　(٣) ١٩٥ عدة الصابرين.

آمن وعمل صالحًا، ولا يلقى هذه الوصية وهي الكلمة التي تكلم بها الذين أوتوا العلم، أو المثوبة والجنة التي دل عليها قوله: ﴿ثواب الله خير﴾ أو السيرة والطريقة التي دل عليها قوله: ﴿لمن آمن وعمل صالحًا﴾ وعلى كل حال لا يلقى ذلك إلا الصابرون على الفقر وعن الدنيا وشهواتها وما أترف فيه الأغنياء.

وقد شهد الله سبحانه لهم أنهم من أهل العلم دون الذين تمنوا الدنيا وزينتها.

الوجه الثامن أنه سبحانه أنكر على من ظن أن التفضيل يكون بالمال الذي يحتاج إليه لإقامة الملك، فكيف بما هو زيادة وفضلة فقال تعالى: ﴿**وقال لهم نبيهُم إن الله قَد بَعث لَكم طَالُوت مَلِكًا قالوا أنى يكون له الملك علينا ونحنُ أحقُّ بالملك منه ولم يُؤت سَعَةً من المال قال إن الله اصْطفاه عليكم وَزَاده بسْطَة فِي العلم والجِسْم**﴾ [البقرة: ٢٤٧] فرد الله سبحانه قولهم، وأخبر سبحانه أن الفضل ليس بالمال كما توهموه، وأن الفضل بالعلم لا بالمال. وقال سبحانه: ﴿**قُل بِفَضْلِ الله وبرحمته فَبذَلك فَلْيفرحُوا هُوَ خَيرٌ مما يجْمَعُونَ**﴾ [يونس: ٥٨] ففضله ورحمته العلم والإيمان والقرآن، والذي يجمعونه هو المال وأسبابه، ومثله قوله تعالى: ﴿**أهُم يَقْسِمون رحمة ربك - إلى قوله - ورحمَةُ ربك خيرٌ مما يجْمَعُون**﴾ [الزخرف: ٣٢].

...[1]**النفوس** ثلاثة: نفس سماوية علوية، فمحبتها منصرفة إلى المعارف واكتساب الفضائل والكمالات الممكنة للإنسان واجتناب الرذائل، وهي مشغوفة بما يقرّبها من الرفيق الأعلى، وذلك قوتُها وغذاؤها ودواؤها، فاشتغالها بغيره هو داؤها.

ونفس سبعية غضبية، فمحبتها منصرفة إلى القهر والبغي والعُلو في الأرض والتكبر والرِّئاسة على الناس بالباطل، فلذتها في ذلك وشغفها به. ونفسٌ حيوانية شهوانية، فمحبتها منصرفة إلى المأكل والمشرب والمنكح، وربما جمعت الأمرين فانصرفت محبتها إلى العلو في الأرض والفساد كما قال الله تعالى: ﴿**إنَّ فِرعون علا في الأرض وجَعل أهْلها شيعًا يستضعِف طائِفة منهم يُذبِّح أبناءهُم ويستحيي نساءَهم إنَّه كان من المفسدين**﴾ [القصص: ٤] وقال في آخر السورة: ﴿**تِلك الدَّار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون عُلُوًّا في الأرض ولا فسادًا والعاقبة للمتَّقين**﴾

---

(١) ٢٧٨ الروضة.

[القصص: ٨٢] والحبُّ في هذا العالم دائرٌ بين هذه النفوس الثلاثة، فأيّ نفسٍ منها صادفت ما يلائم طبعها استحسنته ومالت إليه، ولم تصغ فيه لعاذل، ولم تأخذها فيه لومة لائم. . .

(1)**وأما** احتجاجكم بقوله تعالى: ﴿**كل شيء هالك إلا وجهه**﴾، فإنما أتيتم من عدم فهمكم معنى الآية، واحتجاجكم بها على عدم وجود الجنة والنار الآن نظير احتجاج إخوانكم بها على فنائها وخرابها وموت أهلها، فلا أنتم وفقتم لفهم معناها ولا إخوانكم، وإنما وفق لفهم معناها السلف وأئمة الإسلام. ونحن نذكر بعض كلامهم في الآية: قال البخاري في صحيحه يقال: ﴿**كل شيء هالك إلا وجهه**﴾ إلا ملكه، ويقال إلا ما أريد به وجهه. وقال الإمام أحمد في رواية ابنه عبد الله: فأما السماء والأرض فقد زالتا لأن أهلهما صاروا إلى الجنة وإلى النار، وأما العرش فلا يبيد ولا يذهب؛ إنه سقف الجنة، والله سبحانه وتعالى عليه فلا يهلك ولا يبيد، وأما قوله تعالى: ﴿**كل شيء هالك إلا وجهه**﴾ فذلك أن الله سبحانه وتعالى أنزل ﴿**كلٌّ من عليها فان**﴾ [الرحمن: ٢٦] فقالت الملائكة: هلك أهل الأرض وطمعوا في البقاء، فأخبر الله تعالى عن أهل السموات وأهل الأرض أنهم يموتون فقال: ﴿**كل شيء هالك**﴾ يعني ميت ﴿**إلا وجهه**﴾ لأنه حي لا يموت، فأيقنت الملائكة عند ذلك بالموت. انتهى كلامه.

وقال في رواية أبي العباس أحمد بن جعفر بن يعقوب الاصطخري ذكره أبوالحسين في كتاب الطبقات قال: قال أبوعبد الله أحمد بن حنبل: هذه مذاهب أهل العلم، وأصحاب الأثر، وأهل السنة المتمسكين بعروتها، المعروفين بها، المقتدى بهم فيها من لدن أصحاب نبينا ﷺ إلى يومنا هذا، وأدركت من أدركت من علماء أهل الحجاز والشام وغيرهم عليها، فمن خالف شيئًا من هذه المذاهب أو طعن فيها أو عاب قائلها فهو مخالف مبتدع، خارج عن الجماعة، زائل عن منهج السنة وسبيل الحق. وساق أقوالهم إلى أن قال: وقد خلقت الجنة وما فيها، وخلقت النار ومافيها، خلقهما الله عز وجل وخلق الخلق لهما، ولا يفنيان ولا يفنى ما فيهما أبدًا.

---

(١) ٤١ حادي.

فإن احتج مبتدع أو زنديق بقول الله عز وجل: **﴿كلُّ شيءٍ هالكٌ إلا وجهَه﴾** [القصص: ٨٨] وبنحو هذا من متشابه القرآن. قيل له: كل شيء مما كتب الله عليه الفناء والهلاك هالك، والجنة والنار خلقتا للبقاء لا للفناء ولا للهلاك، وهما من الآخرة لا من الدنيا، والحور العين لا يمتن عند قيام الساعة، ولا عند النفخة، ولا أبدًا، لأن الله عز وجل خلقهن للبقاء لا للفناء ولم يكتب عليهم الموت. فمن قال خلاف هذا فهو مبتدع وقد ضل عن سواء السبيل. وخلق سبع سموات بعضها فوق بعض، وسبع أرضين بعضها أسفل من بعض، وبين الأرض العليا والسماء الدنيا مسيرة خمسمائة عام، وبين كل سماء إلى سماء مسيرة خمسمائة عام، والماء فوق السماء العليا السابعة، وعرش الرحمن عز وجل فوق الماء، وإن الله عز وجل على العرش، والكرسي موضع قدميه، وهو يعلم ما في السموات والأرضين السبع وما بينهما، وما تحت الثرى، وما في قعر البحر، ومنبت كل شعرة وشجرة، وكل زرع وكل نبات، ومسقط كل ورقة، وعدد كل كلمة، وعدد الحصا والتراب والرمل ومثاقيل الجبال، وأعمال العباد وأثارهم، وكلامهم وأنفاسهم، ويعلم كل شيء لا يخفى عليه من ذلك شيء، وهو على العرش فوق السماء السابعة، ودونه حجب من نار ونور وظلمة وما هو أعلم بها.

فإن احتج مبتدع ومخالف بقول الله عز وجل **﴿ونَحن أقْرب إليه من حَبْلِ الوَريدِ﴾** [ق: ١٦] وقوله: **﴿وهو مَعكم أينما كُنتم﴾** وقوله: **﴿إلا هو معهم أينما كانوا﴾** وقوله: **﴿ما يكون من نجْوى ثَلاثة إلا هو رابعهم ولا خَمسَة إلا هو سادِسهم﴾** [المجادلة: ٧] ونحو هذا من متشابه القرآن.

فقل إنما يعني بذلك العلم؛ لأن الله عز وجل على العرش فوق السماء السابعة العليا يعلم ذلك كله وهو بائن من خلقه، لا يخلو من علمه مكان. وقال في رواية أبي جعفر الطائي محمد بن عوف بن سفيان الحمصي قال الخلال حافظ إمام في زمانه معروف بالتقدم في العلم والمعرفة، كان أحمد بن حنبل يعرف له ذلك ويقبل منه ويسأله عن الرجال من أهل بلده، قال: أملي على أحمد بن حنبل فذكر رسالة في السنة، ثم قال في أثنائها: وأن الجنة والنار مخلوقتان قد خلقتا كما جاء الخبر قال النبي ﷺ: **«دخلت الجنة فرأيت فيها قصرًا ورأيت الكوثر، واطلعت في النار**

فرأيت أكثر أهلها كذا كذا» فمن زعم أنهما لم يخلقا فهو مكذب برسول الله ﷺ وبالقرآن، كافر بالجنة والنار، يستتاب فإن تاب وإلا قتل. وقال في رواية عبدوس بن مالك العطار وذكر رسالة في السنة قال فيها: والجنة والنار مخلوقتان، قد خلقتا كما جاء عن رسول الله ﷺ: **«اطلعت في الجنة فرأيت أكثر أهلها كذا وكذا واطلعت في النار فرأيت أكثر أهلها كذا وكذا»** فمن زعم أنهما لم يخلقا فهو مكذب بالقرآن وأحاديث رسول الله ﷺ، ولا أحسبه يؤمن بالجنة والنار. فتأمل هذه الأبواب وما تضمنته من النقول والمباحث والنكت والفوائد التي لا تظفر بها في غير هذا الكتاب البتة، ونحن اختصرنا الكلام في ذلك، ولو بسطناه لقام منه سفر ضخم والله المستعان وعليه التكلان وهو الموفق للصواب.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة القصص

والحمد لله رب العالمين



بسم الله الرحمن الرحيم

. . .(١)**وقوله** تعالى: ﴿الم أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ـ إلى قوله ـ أَوَ ليس الله بأعلم بما في صدور العالمين﴾ [العنكبوت: ١ ـ ١٠] فليتأمل العبد سياق هذه الآيات وما تضمنته من العِبَر، وكنوز الحِكم، فإن الناس إذا أرسل الله إليهم الرسل بين أمرين: إما أن يقول أحدهم: آمنا، وإما أن لا يقول ذلك، بل يستمر على السيئات والكفر. فمن قال «آمنا» امتحنه ربه وابتلاه وفَتنه، والفتنة: الابتلاء والاختبار، ليتبين الصادق من الكاذب. ومن لم يقل «آمنا» فلا يَحسب أنه يُعجز الله ويفوته ويسبقه، فإنه إنما يطوي المراحل في يديه.

وكيف يَفِر المرء عنه بذنبه إذا كان يطوي في يديه المراحل

فمن آمن بالرسل وأطاعهم: عاداه أعداؤهم وآذوه، فابتُلي بما يؤلمه، وإن لم يؤمن بهم ولم يطعهم: عُوقب في الدنيا والآخرة، فحصل له ما يؤلمه. وكان هذا المؤلم له أعظم ألمًا، وأدوم من ألم اتِّباعهم. فلابد من حصول الألم لكل نفس: آمنت، أو رغبت عن الإيمان، لكن المؤمن يحصل له الألم في الدنيا ابتداء، ثم تكون له العاقبة في الدنيا والآخرة. والمعرض عن الإيمان يحصل له اللذة ابتداء، ثم يصير إلى الألم الدائم.

وسئل الشافعي رحمه الله «أيما أفضل للرجل: أن يُمكَّن، أو يُبتلى؟ فقال: لا يمكن له حتى يبتلى». والله تعالى ابتلى أولي العزم من الرسل، فلما صبروا مكَّنهم، فلا يظن أحد أنه يخلص من الألم البتة. وإنما يتفاوت أهل الآلام في العقول. فأعقلُهم: من باع ألمًا مستمرًا عظيمًا بألم منقطع يسير. وأسفههم: من باع الألم المنقطع اليسير بالألم العظيم المستمر.

فإن قيل: كيف يختار العاقل هذا؟ قيل: الحامل له على هذا: النقد والنسيئة. والنفس موكَّلة بالعاجل: ﴿كَلَّا بل تُحِبون العاجِلة وتَذَرون الآخرة﴾ [القيامة:

---

(١) ١١٠ الزاد جـ٢.

٢٠، ٢١] ﴿إنَّ هؤلاء يُحبون العاجِلة ويذَرون وراءهم يومًا ثقيلًا﴾ [الإنسان: ٢٧]
وهذا يحصل لكل أحد؛ فإن الإنسان مدني بالطبع، لابد له أن يعيش مع الناس. والناس لهم إرادات وتصورات، فيطلبونَ منه أن يوافقهم عليها، فإن لم يوافقهم آذوه وعذبوه، وإن وافقهم حصل له الأذى والعذاب: تارة منهم، وتارة من غيرهم. كمن عنده دين وتُقى حَلَّ بين قوم فُجَّار ظَلمة، ولا يتمكنون من فجورهم وظلمهم إلا بموافقته لهم، أو سكوته عنهم. فإن وافقهم أو سكت عنهم: سلم من شرهم في الابتداء، ثم يتسلطون عليه بالإهانة والأذى، أضعاف ما كان يخافه ابتداء لو أنكر عليهم وخالفهم، وإن سلم منهم فلابد أن يُهان ويعاقب على يد غيرهم. فالحزم كل الحزم في الأخذ بما قالت عائشة أم المؤمنين لمعاوية: «**من أرضَى الله بسَخَط الناس: كفاه الله مُؤنة الناس، ومن أرضى الناس بسخط الله: لم يُغنوا عنه من الله شيئًا**». ومن تأمَّل أحوال العالم رأى هذا كثيراً فيمن يعين الرؤساء على أغراضهم الفاسدة، وفيمن يعين أهل البدع على بدعهم، هربًا من عقوبتهم. فمن هداه الله وألهمه رُشده، ووقاه شَرَّ نفسه: امتنع من الموافقة على فعل المحرم، وصبر على عدوانهم، ثم تكون له العاقبة في الدنيا والآخرة، كما كانت للرسل وأتباعهم، كالمهاجرين والأنصار، ومن ابتُلي من العلماء والعباد وصالحي الولاة والتجار وغيرهم.

ولما كان الألم لا محيص منه البتة: عزَّى الله سبحانه من اختار الألم اليسير المنقطع على الألم العظيم المستمر بقوله: ﴿**مَن كان يرجُو لِقاء الله فإنَّ أجل الله لآت وهو السميع العَليم**﴾ [العنكبوت: ٥] فضرب لمدة هذا الألم أجلًا، لابد أن يأتي، وهو يوم لقائه. فيلتَذ العبد أعظم لذة بما تحمل من الألم من أجله، وفي مرضاته، وتكون لذته وسروره وابتهاجه: بقدر ما تحمل من الألم في الله، ولله. وأكد هذا العزاء والتسلية برجاء لقائه، ليحمل العبد اشتياقه إلى لقاء ربه ووليه على تحمل مشقة الألم العاجل، بل ربما غيَّبه الشوق إلى لقائه عن شهود الألم والإحساس به. ولهذا سأل النبي ﷺ ربَّه الشوقَ إلى لقائه، فقال في الدعاء الذي رواه أحمد وابن حبان: «**اللهم إني أسألك بعلمك الغيب، وقدرتك على الخلق: أحيني إذا كانت الحياة خيراً لي، وتوفَّني إذا كانت الوفاة خيراً لي. وأسألك خشيتك في الغيب والشهادة.**

وأسألك كلمة الحق في الغضب والرضا. وأسألك القصد في الفقر والغنى. وأسألك نعيمًا لا ينفد. وأسألك قُرّة عين لا تنقطع. وأسألك الرضا بعد القضاء. وأسألك بَرْد العيش بعد الموت. وأسألك لذة النظر إلى وجهك. وأسألك الشوق إلى لقائك، في غير ضَرَّاء مُضِرة، ولا فتنة مُضِلة. اللهم زيِّنا بزينة الإيمان، واجعلنا هُدَاةً مُهتدين».

فالشوق يحمل المشتاق على الجدِّ في السير إلى محبوبه، ويَطْوي له الطريق، ويُقَرِّب عليه البعيد، ويُهوِّن عليه الآلام والمشاقَّ، وهو من أعظم نعمةٍ أنعم الله بها على عبده ولكن لهذه النعمة أقوال وأعمال، هما السبب الذي تنال به. والله سبحانه سميع لتلك الأقوال، عليم بتلك الأفعال، وهو عليم بمن يصلح لهذه النعمة ويشكرها، ويعرف قدرها، ويحب المنعم عليه بها، فتصلح عنده هذه النعمة ويصلح بها، كما قال تعالى: ﴿**وكَذلك فَتَنَّا بعضهم بِبعض لِيَقُولوا أهؤلاء مَنَّ الله عليهم من بينِنا أليس الله بِأعلم بالشاكرين**﴾ [الأنعام: ٥٣] فإذا فاتت العبد نعمة من نعم ربه فليقرأ على نفسه ﴿**أَلَيْس الله بِأعلم بالشَّاكِرين**﴾.

ثم عزاهم تعالى بعزاء آخر، وهو أن جهادهم فيه إنما هو لأنفسهم، وثمرته عائدة عليهم، وأنه غني عن العالمين، ومصلحة هذا الجهاد ترجع إليهم، لا إليه سبحانه وتعالى. ثم أخبر أنه يدخلهم بجهادهم وإيمانهم في زُمْرة الصالحين. ثم أخبر عن حال الداخل في الإيمان بلا بصيرة، وأنه إذا أوذِي في الله جعل فتنة الناس له كعذاب الله، وهي أذاهم له، ونَيلهم إياه بالمكروه والألم الذي لابد أن يناله الرسل وأتباعهم ممن خالفهم، جعل ذلك في فراره منهم، وتركه السبب الذي ناله كعذاب الله الذي فرَّ منه المؤمنون بالإيمان. فالمؤمنون لكمال بصيرتهم فرُّوا من ألم عذاب الله إلى الإيمان، وتحملوا ما فيه من الألم الزائل المفارق عن قريب. وهذا لضعف بصيرته فرَّ من ألم عذاب أعداء الرسل إلى موافقتهم ومتابعتهم، ففرَّ من ألم عذابهم إلى ألم عذاب الله، فجعل ألم فتنة الناس في الفرار منه بمنزلة ألم عذاب الله، فغُبِن كل الغبن، إذ استجار من الرَّمضاء بالنار، وفرَّ من ألم ساعة إلى ألم الأبد وإذا نصر الله جنده وأولياءه قال: إني كنت معكم، والله عليم بما انطوى عليه صدره من النفاق.

والمقصود أن الله سبحانه اقتضت حكمته : أنه لابد أن يمتحن النفوس ويبتليها ، فيظهر بالامتحان طيبها من خبيثها ، ومن يصلح لموالاته وكراماته ومن لايصلح ، وليمحص النفوس التي تصلح له ويُخلِّصها بكِير الامتحان ، كالذهب الذي لا يخلص ولا يصفو من غِشه إلا بالامتحان ، إذ النفس في الأصل جاهلة ظالمة ، وقد حصل لها بالجهل والظلم من الخبث ما يحتاج خروجه إلى السَّبك والتصفية ، فإن خرج في هذه الدار ، وإلا ففي كِير جهنم ، فإذا هُذِّب العبد ونُقي أذن له في دخول الجنة .

ولما دعا ﷺ إلى الله عز وجل : استجاب له عباد الله من كل قبيلة ، فكان حائز قصب سَبقهم : صِدِّيق الأمة ، وأسبقها إلى الإسلام ، أبوبكر رضي الله عنه ، فآزره في دين الله ، ودعا معه إلى الله على بصيرة . فاستجاب لأبي بكر : عثمان بن عفان ، وطلحة بن عبيدالله ، وسعد بن أبي وقاص . وبادر إلى الاستجابة له ﷺ صِدِّيقة النساء خديجة بنت خويلد ، وقامت بأعباء الصديقية ، وقال لها : «**لقد خشيت على عقلي ، فقالت له : أبْشِر ، فوالله لا يُخْزِيك الله أبدًا**» ثم استدلت بما فيه من الصفات الفاضلة ، والأخلاق الكريمة والشِّيم الشريفة : على أن من كان كذلك لا يخزى أبدًا . فعلمت بكمال عقلها وسلامة فطرتها أن الأعمال الصالحة والأخلاق الفاضلة ، والشيم الشريفة : تناسب أشكالها ، من كرامة الله ، وتأييده وإحسانه . ولا تناسب الخِزي والخذلان ، وإنما يناسبه أضدادها . فمن ركّبه الله على أحسن الصفات وأحسن الأخلاق والأعمال : إنما يليق به كرامته ، وإتمام نعمته عليه . ومن ركبه على أقبح الصفات وأسوأ الأخلاق والأعمال : إنما يليق به مايناسبها . وبهذا العقل والصديقية : استحقَّت أن يرسل إليها ربُّها بالسلام منه مع رسوليه : جبريل ، ومحمد ﷺ .

. . .[1]**كمال** العبودية والمحبة والطاعة إنما يظهر عند المعارضة والدواعي إلى الشهوات والإرادات المخالفة للعبودية ، وكذلك الإيمان إنما تتبين حقيقته عند المعارضة والامتحان . وحينئذ يتبين الصادق من الكاذب . قال الله تعالى : **﴿الٓمٓ * أَحَسِبَ النَّاس أن يُتْركوا أن يقُولوا آمَنَّا وهُم لا يفتنون * ولقد فتنَّا الذين مِن قَبلِهم**

---

(١) ٣٤٢ الصواعق جـ١ .

فليَعلَمَنَّ الله الذين صَدقُوا وليَعْلَمَنَّ الكَاذِبينَ﴾ [العنكبوت: ١ ـ ٣] وقال تعالى: **﴿أم حَسِبتُم أن تدخلوا الجَنة ولما يعلَم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصَّابرين﴾** [آل عمران: ١٤٢]. وقال تعالى: **﴿أم حَسِبتُم أن تَدخُلوا الجَنَّة ولما يأتِكم مَثَل الذين خَلوا من قبلِكم مَسَّتهُم البأساءُ والضراء وزُلْزلوا﴾** [البقرة: ٢٦٤].

فالجنة لا ينالها المكلفون إلا بالجهاد والصبر، فخلق الشياطين وأوليائهم وجندهم من أعظم النعم في حق المؤمنين؛ فإنهم بسبب وجودهم صاروا مجاهدين في سبيل الله، يحبون لله ويبغضون لله ويوالون فيه، ويعادون فيه. ولا تكمل نفس العبد ولا يصلح لها الزكاء والفلاح إلا بذلك.

. . .[1]**قال** الله تعالى: **﴿فَمن كَان يَرجُو لِقاء ربه فليعمل عملاً صالحًا ولا يُشْرِك بعِبادة ربه أحدًا﴾** [الكهف: ١١١] وقال تعالى: **﴿مَن كَان يرجُو لِقاء الله فإن أجل الله لآت﴾** [العنكبوت: ٥].

وهذا الرجاء هو محض الإيمان وزبدته، وإليه شخصت أبصار المشتاقين. ولذلك سلاهم الله تعالى بإتيان أجل لقائه، وضرب لهم أجلاً يُسَكِّن نفوسهم ويطمئنها.

. . .[2]**وفي** أثر آخر «طال شوق الأبرار إلى وجهك وأنا إلى لقائهم أشد شوقا» وهذا في المعنى الذي عبر عنه ﷺ بقوله: «**من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه**» وقال بعض أهل البصائر في قوله تعالى: **﴿مَن كان يرجو لقاء الله فإن أجل الله لآت﴾** لما علم الله سبحانه شدة شوق أوليائه إلى لقائه وأن قلوبهم لا تهدأ دون لقائه ضرب لهم أجلاً: موعدًا للقائه تسكن نفوسهم به. وأطيب العيش وألذه على الإطلاق عيش المشتاقين المستأنسين، فحياتهم هي الحياة الطيبة في الحقيقة، ولا حياة للعبد أطيب ولا أنعم ولا أهنأ منها، فهي الحياة الطيبة المذكورة في قوله تعالى: **﴿مَن عَمل صَالِحًا مِن ذكر أو أنثى وهو مُؤمن فلنحيينَه حَياةً طَيبة﴾** [النحل: ٩٧].

وليس المراد منها الحياة المشتركة بين المؤمنين والكفار، والأبرار والفجار، من طيب المأكل والملبس والمشرب والمنكح، بل ربما زاد أعداء الله على أوليائه في ذلك أضعافًا مضاعفة. وقد ضمن الله سبحانه لكل من عمل صالحًا أن يحييه حياة

---

(١) ٥٤ مدارج جـ٢.		(٢) ٢٤٨ الجواب.

طيبة، فهو صادق الوعد الذي لا يخلف وعده. وأي حياة أطيب من حياة من اجتمعت همومه كلها وصارت واحدة في مرضات الله، ولم يتشعب قلبه، بل أقبل على الله واجتمعت إرادته وأفكاره التي كانت منقسمة بكل واد منها شعبة، على الله. فصار ذكره محبوبه الأعلى، وحبه، والشوق إلى لقائه، والأنس بقربه، هو المتولى عليه، وعليه تدور همومه وإرادته وتصوره، بل وخطرات قلبه. فإن سكت سكت بالله، وإن نطق نطق بالله، وإن سمع فبه يسمع، وإن أبصر فبه يبصر، وبه يبطش، وبه يمشي، وبه يتحرك، وبه يسكن، وبه يحيى، وبه يموت، وبه يبعث كما في صحيح البخاري عنه ﷺ فيما روي عن ربه تبارك وتعالى أنه قال: «**ما تقرب إليَّ عبدي بمثل أداء ما افترضت عليه**. . . . الحديث» .

(١)**الوجه** الرابع والثلاثون وهو أن أفضل العطاء وأجله على الإطلاق الإيمان وجزاؤه، وهو لا يتحقق إلا بالامتحان والاختبار قال تعالى: ﴿**الم * أحسب الناس أن يُتركُوا أن يقولُوا آمنا وهو لا يفتنون * ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين * أم حسب الذين يعملون السيئات أن يسبِقونَا سَاء ما يحكمون * من كان يرجُو لِقاء الله فإن أجل الله لآت وهو السميع العليم * ومَن جَاهَد فإنَّما يُجاهد لنفسه إن الله لغني عن العالمين**﴾ [العنكبوت: ١-٦].

فذكر سبحانه في هذه السورة أنه لابد أن يمتحن خلقه ويفتنهم ليتبين الصادق من الكاذب والمؤمن من الكافر، ومن يشكره ويعبده ممن يكفره ويعرض عنه ويعبد غيره، وذكر أحوال الممتحنين في العاجل والآجل. وذكر أئمة الممتحنين في الدنيا وهم الرسل وأتباعهم، وعاقبة أمرهم وما صاروا إليه. وافتتح بالإنكار على من يحسب أنه يتخلص من الامتحان والفتنة في هذه الدار إذا ادعى الإيمان، وأن حكمته سبحانه وشأنه في خلقه يأبى ذلك. وأخبر عن سر هذه الفتنة والمحنة وهو تبيين الصادق من الكاذب والمؤمن من الكافر. وهو سبحانه كان يعلم ذلك قبل وقوعه، ولكن اقتضى عدله وحمده أنه لا يجزى العباد بمجرد علمه فيهم، بل بمعلومه إذا وجد وتحقق، والفتنة هي التي أظهرته وأخرجته إلى الوجود، فحينئذ حسن وقوع الجزاء عليه.

---

(١) ٢٤٥ شفاء.

ثم أنكر سبحانه على من لم يلتزم الإيمان به ومتابعة رسله خوف الفتنة والمحنة التي يمتحن بها رسله وأتباعهم ظنه وحسبانه أنه بإعراضه عن الإيمان وتصديق رسله يتخلص من الفتنة والمحنة، فإن بين يديه من الفتنة والمحنة والعذاب أعظم وأشق مما فر منه. فإن المكلفين بعد إرسال الرسل إليهم بين أمرين: إما أن يقول أحدهم آمنت، وإما أن لا يقول، بل يستمر على السيئات. فمن قال آمنا امتحنه الرب تعالى وابتلاه لتتحقق بالإيمان حجة إيمانه وثباته عليه، وأنه ليس بإيمان عافية ورخاء فقط، بل إيمان ثابت في حالتي النعماء والبلاء. ومن لم يؤمن فلا يحسب أنه يعجز ربه تعالى ويفوته، بل هو في قبضته وناصيتُه بيده، فله من البلاء أعظم مما ابتلي به من قال آمنت، فمن آمن به وبرسله فلابد أن يبتلى من أعدائه وأعداء رسله بما يؤلمه ويشق عليه، ومن لم يؤمن به وبرسله فلابد أن يعاقبه فيحصل له من الألم والمشقة أضعاف ألم المؤمنين، فلابد من حصول الألم لكل نفس مؤمنة أو كافرة، لكن المؤمن يحصل له الألم في الدنيا أشد ثم ينقطع ويعقبه أعظم اللذة، والكافر يحصل له اللذة والسرور ابتداء ثم ينقطع ويعقبه أعظم الألم والمشقة. وهكذا حال الذين يتبعون الشهوات فيلتذون بها ابتداء ثم تعقبها الآلام بحسب ما نالوه منها، والذين يصبرون عنها يألمون بفقدها ابتداء، ثم يعقب ذلك الألم من اللذة والسرور بحسب ما صبروا عنه وتركوه منها، فالألم واللذة أمر ضروري لكل إنسان، لكن الفرق بين العاجل المنقطع اليسير والآجل الدائم العظيم بون. ولهذا كان خاصة العقل النظر في العواقب والغايات، فمن ظن أنه يتخلص من الألم بحيث لا يصيبه البتة فظنه أكذب الحديث.

فإن الإنسان خلق عرضة للذة والألم، والسرور والحزن، والفرح والغم، وذلك من جهتين: من جهة تركبه وطبيعته وهيئته، فإنه مركب من أخلاط متفاوتة متضادة يمتنع أو يعز اعتدالها من كل وجهٍ، بل لابد أن يبغي بعضها على بعض فيخرج عن حد الاعتدال، فيحصل الألم. ومن جهة بني جنسه فإنه مدني بالطبع لا يمكنه أن يعيش وحده، بل لا يعيش إلا معهم، وله ولهم لذاذات ومطالب متضادة ومتعارضة لا يمكن الجمع بينها، بل إذا حصل منها شيء فات منها أشياء، فهو يريد

منهم أن يوافقوه على مطالبه وإرادته، وهم يريدون منه ذلك، فإن وافقهم حصل له من الألم والمشقة بحسب مافاته من إراداته، وإن لم يوافقهم آذوه وعذبوه وسعوا في تعطيل مراداته كما لم يوافقهم على مراداتهم، فيحصل له من الألم والتعذيب بحسب ذلك. فهو في ألم ومشقة وعناء وافقهم أو خالفهم، ولا سيما إذا كانت موافقتهم على أمور يعلم أنها عقائد باطلة، وإرادات فاسدة، وأعمال تضره في عواقبها، ففي موافقتهم أعظم الألم، وفي مخالفتهم حصول الألم.

فالعقل والدين، والمروءة والعلم، تأمره باحتمال أخف الألمين تخلصا من أشدهما، وبإيثار المنقطع منهما لينجو من الدائم المستمر، فمن كان ظهيراً للمجرمين من الظلمة على ظلمهم، ومن أهل الأهواء والبدع على أهوائهم وبدعهم، ومن أهل الفجور والشهوات على فجورهم وشهواتهم ليتخلص بمظاهرتهم من ألم أذاهم أصابه من ألم الموافقة لهم عاجلاً وآجلاً أضعاف أضعاف ما فر منه، وسنة الله في خلقه أن يعذبهم بإنذار من إيمانهم وظاهرهم. وإن صبر على ألم مخالفتهم ومجانبتهم أعقبه ذلك لذة عاجلة وآجلة تزيد على لذة الموافقة بأضعاف مضاعفة، وسنة الله في خلقه أن يرفعه عليهم ويذلهم له بحسب صبره وتقواه وتوكله وإخلاصه، وإذا كان لابد من الألم والعذاب فذلك في الله وفي مرضاته ومتابعة رسله أولى وأنفع منه في الناس ورضائهم وتحصيل مراداتهم.

ولما كان زمن التألم والعذاب قصيره[1] طويل فأنفاسه ساعات وساعاته أيام وأيامه شهور وأعوام بلىٰ سبحانه الممتحنين فيه بأن ذلك الابتلاء آجلاً ثم ينقطع وضرب لأهله أجلاً للقائه يسليهم به ويشكر نفوسهم ويهون عليهم أثقاله فقال: ﴿**مَن كان يرجو لِقاء الله فإن أجل الله لآتٍ وهو السميع العليم**﴾ [العنكبوت: ٥] فإذا تصور العبد أجل ذلك البلاء وانقطاعه وأجل لقاء المبتلى سبحانه وإثباته هان عليه ما هو فيه وخف عليه حمله.

ثم لما كان ذلك لا يحصل إلا بمجاهدة للنفس وللشيطان ولبني جنسه، وكان العامل إذا علم أن ثمرة عمله وتعبه يعود عليه وحده لا يشركه فيه غيره كان أتم اجتهادًا وأوفر سعيًا فقال تعالى: ﴿**وَمَن جَاهد فإنما يُجاهَد لِنفسه إن الله لغني عن العالمين**﴾ [العنكبوت: ٦].

(١) في النسخ المطبوعة: فصبره وهو تصحيف: قصيره وهو الصواب لدلالة الكلام بعده. المراجع.

وأيضًا فلا يتوهم متوهم أن منفعة هذه المجاهدة والصبر والاحتمال يعود على الله سبحانه؛ فإنه غني عن العالمين، لم يأمرهم بما أمرهم به حاجة منه إليهم، ولا نهاهم عما نهاهم عنه بخلًا منه عليهم، بل أمرهم بما يعود نفعه ومصلحته عليهم في معاشهم ومعادهم، ونهاهم عما يعود مضرته عليهم في معاشهم ومعادهم فكانت ثمرة هذا الابتلاء والامتحان مختصة بهم. واقتضت حكمته أن نصب ذلك سببًا مفضيًا إلى تميز الخبيث من الطيب والشقي من الغوي ومن يصلح له ممن لا يصلح. قال تعالى: **﴿مَا كَانَ اللهُ لِيذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيثَ من الطِّيب﴾** [آل عمران: ١٧٩] فابتلاهم سبحانه بإرسال الرسل إليهم بأوامره ونواهيه واختياره، فامتاز برسله طيبهم من خبيثهم وجيدهم من رديئهم فوقع الثواب والعقاب على معلوم أظهره ذلك الابتلاء والامتحان.

ثم لما كان الممتحن لابد أن ينحرف عن طريق الصبر والمجاهدة لدواعي طبيعته وهواه وضعفه عن مقاومة ما ابتلي به وعده سبحانه أن يتجاوز له عن ذلك ويكفره عنه؛ لأنه لما أمر به والتزم طاعته اقتضت رحمته أن كفر عنه سيئاته وجازاه بأحسن أعماله. ثم ذكر سبحانه ابتلاء العبد بأبويه وما أمر به من طاعتهما وصبره على مجاهدتهما له على أن يشرك به فيصبر على هذه المحنة والفتنة، ولا يطيعهما، بل يصاحبهما على هذه الحال معروفًا، ويعرض عنهما إلى متابعة سبيل رسله، وفي الإعراض عنهما وعن سبيلهما والإقبال على من خالفهما وعلى سبيله من الامتحان والابتلاء ما فيه. ثم ذكر سبحانه حال من دخل في الإيمان على ضعف عزم وقلة صبر وعدم ثبات على المحنة والابتلاء، وأنه إذا أوذي في الله كما جرت به سنة الله، واقتضت حكمته من ابتلاء أوليائه بأعدائه وتسليطهم عليهم بأنواع المكاره والأذى لم يصبر على ذلك وجزع منه، وفر منه ومن أسبابه كما يفر من عذاب الله، فجعل فتنة الناس له على الإيمان وطاعة رسله كعذاب الله لمن يعذبه على الشرك ومخالفة رسله.

وهذا يدل على عدم البصيرة وأن الإيمان لم يدخل قلبه ولا ذاق حلاوته حتى سوى بين عذاب الناس له على الإيمان بالله ورسوله وبين عذاب الله لمن لم يؤمن به وبرسله وهذا حال من يعبد الله على حرف واحد لم ترسخ قدمه في الإيمان وعبادة الله، فهو من المفتونين المعذبين وإن فر من عذاب الناس له على الإيمان.

ثم ذكر حال هذا عند نصرة المؤمنين، وأنهم إذا نصروا لجأ إليهم وقال كنت معكم والله سبحانه يعلم من قلبه خلاف قوله.

ثم ذكر سبحانه ابتلاء نوح بقومه ألف سنة إلا خمسين عامًا، وابتلاء قومه بطاعته فكذبوه فابتلاهم بالغرق، ثم بعده بالحرق. ثم ذكر ابتلاء إبراهيم بقومه وما ردوا عليه، وابتلاهم بطاعته ومتابعته. ثم ذكر ابتلاء لوط بقومه وابتلاءهم به وما صار إليه أمره و أمرهم. ثم ذكر ابتلاء شعيب بقومه وابتلاءهم به وما انتهت إليه حالهم وحاله. ثم ذكر ما ابتلي به عادًا وثمودًا وقارون وفرعون وهامان وجنودهم من الإيمان به وعبادته وحده، ثم ما ابتلاهم به من أنواع العقوبات.

ثم ذكر ابتلاء رسوله محمد ﷺ بأنواع الكفار من المشركين وأهل الكتاب، وأمره أن يجادل أهل الكتاب بالتي هي أحسن. ثم أمر عباده المبتلين بأعدائه أن يهاجروا من أرضهم إلى أرضه الواسعة فيعبدونه فيها، ثم نبههم بالنقلة الكبرى من دار الدنيا إلى دار الآخرة على نقلتهم الصغرى من أرض إلى أرض، وأخبرهم أن مرجعهم إليه، فلا قرار لهم في هذه الدار دون لقائه. ثم بين لهم حال الصابرين على الابتلاء فيه بأنه يبوؤهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها، فسلاهم عن أرضهم ودارهم التي تركوها لأجله وكانت مباء لهم بأن بوأهم دارًا أحسن منها وأجمع لكل خير ولذة ونعيم مع خلود الأبد، وأن ذلك بصبرهم على الابتلاء وتوكلهم على ربهم. ثم أخبرهم بأنه ضامن لرزقهم في غير أرضهم كما كان يرزقهم في أرضهم، فلا يهتموا بحمل الرزق، فكم من دابة سافرت من مكان إلى مكان لا تحمل رزقها.

ثم أخبرهم أن مدة الابتلاء والامتحان في هذه الدار قصيرة جدًّا بالنسبة إلى دار الحيوان والبقاء. ثم ذكر سبحانه عاقبة أهل الابتلاء ممن لم يؤمن به وأن مقامهم في هذه الدار تمتع، وسوف يعلمون عند النقلة منها ما فاتهم من النعيم المقيم، وما حصلوا عليه من العذاب الأليم. وذكر عاقبة أهل الابتلاء ممن آمن به وأطاع رسله وجاهد نفسه وعدوه في دار الابتلاء ما به هاديه وناصره، فأخبر سبحانه أن أجل عطاء وأفضله في الدنيا والآخرة هو لأهل الابتلاء الذين صبروا على ابتلائه وتوكلوا عليه، وأخبر أن أعظم عذابه وأشقه هو للذين لم يصبروا على ابتلائه وفروا منه، وآثروا النعيم العاجل عليه.

فمضمون هذه السورة هو سر الخلق والأمر، فإنها سورة الابتلاء والامتحان، وبيان حال أهل البلوى في الدنيا والآخرة. ومن تأمل فاتحتها ووسطها وخاتمتها وجد في ضمنها أن أول الأمر ابتلاء وامتحان، ووسطه صبر وتوكل، وآخره هداية ونصر والله المستعان .

. . .[1]**ومنه** قوله تعالى: **﴿قُل سِيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثُم الله يُنشيء النشأة الآخِرة﴾** [العنكبوت: ٢٠] يقول تعالى: انظروا كيف بدأت الخلق؛ فاعتبروا الإعادة بالابتداء.

. . .[2]**وقال** عن إمام الحنفاء أنه قال للمشركين **﴿إنَّما اتَّخذتم مِن دُون الله أوثانًا مودَّة بَينكم في الحياة الدُّنيا ثمَّ يَومَ القيامة يكفُر بعضُكم بِبعض ويَلْعَن بعضُكم بَعضًا﴾** [العنكبوت: ٢٥] ولما كان غاية صلاح العبد في عبادة الله وحده واستعانته وحده كان في عبادة غيره والاستعانة بغيره غاية مضرته.

ومما يوضح الأمر في ذلك ويبينه أن الله سبحانه غني حميد كريم رحيم، فهو محسن إلى عبده مع غناه عنه، يريد به الخير ويكشف عنه الضر، لا لجلب منفعة إليه سبحانه ولا لدفع مضرة، بل رحمة وإحسانًا وجودًا محضًا، فإنه رحيم لذاته، محسن لذاته، جواد لذاته، كريم لذاته، كما أنه غني لذاته، قادر لذاته، حي لذاته، فإحسانه وجوده وبره ورحمته من لوازم ذاته لا يكون إلا كذلك، كما أن قدرته وغناه من لوازم ذاته فلا يكون إلا كذلك، وأما العباد فلا يتصور أن يحسنوا إلا لحظوظهم . . .

. . . [3]**وأهل** المعاصي والفسوق وإن كان بينهم نوع مودَّة وتحابٍّ، فإنها تنقلِب عداوة وبغضًا، وفي الغالب يتعجل لهم ذلك في الدنيا قبل الآخرة، وأما في الآخرة فـ**﴿الأخِلاء يومئِذٍ بعضهم لِبعض عدوٌّ إلا المتقين﴾** [الزخرف: ٦٧].

وقال إمام الحنفاء **﴿إنَّما اتخذتُم مِن دُون الله أوثانًا مودَّة بَيْنكم في الحَياة الدُّنيا ثُمَّ يَومَ القِيامة يَكفُر بَعْضُكُم بِبعض ويَلْعَن بعضُكم بعضًا﴾** [العنكبوت: ٢٥]. فالمعاصي كلها توجب ذلك، وتَصُدُّ عن ذكر الله وعن الصلاة، وذِكر ذلك في الخمر والميسر ـ اللذين هما من أواخِر المحرَّمات ـ تنبيهٌ على ما في غيرهما من ذلك،

---

(١) ١٤٧ الإعلام جـ١. (٢) ٦١ الهجرتين. (٣) ١٥٥ الإغاثة جـ٢.

مما حُرِّم قبلها، وهو أشد تحريمًا منها، فإن ما يوقعه قتلُ النفس، وسَرِقة الأموال، وارتكاب الفواحِش من ذلك، وما يَصُد به عن ذكر الله وعن الصلاة أضعاف أضعاف ما يقتضيه الخمر والميسر، والواقع شاهد بذلك.

وكم وقع وهو واقع بين الناس ـ بسبب عشق الصور ـ من العداوة والبغضاء، وزوال الألفة والمحبة، وانقلابها عداوةً.

وأما صده عن ذكر الله، فقلبُ العاشق ليس فيه موضعٌ لغير معشوقه، كما قيل:

ما في الفؤاد لغير حُبك موضعٌ　　　كَلَّا ولا أحدٌ سواك يَحُلُّه

وأما صده عن الصلاة، فهو إن لم يَصُدَّ عن صورتها وأعمالها الظاهرة، فإنه يَصُدُّ عن حقيقتها ومقاصدها الباطنة.

. . .(١)**وسئل** ﷺ عن قوله تعالى: ﴿**وتأتون في ناديكم المنكر**﴾ [العنكبوت: ٢٩] قال: «**كانوا يخذفون أهل الطريق، ويسخرون منهم، وذلك المنكر الذي كانوا يأتونه**» ذكره أحمد.

. . .(٢)**ثبت** عنه ﷺ أنه قال: «**لعن الله من عمل عمل قوم لوط لعن الله من عمل عمل قوم لوط لعن الله من عمل عمل قوم لوط**» ولم تجئ عنه لعنة الزاني ثلاث مرات في حديث واحد. وقد لعن جماعة من أهل الكبائر فلم يتجاوز بهم في اللعن مرة واحدة، وكرر لعن اللوطية فأكده ثلاث مرات.

وأطبق أصحاب رسول الله ﷺ على قتله، لم يختلف منهم فيه رجلان، وإنما اختلفت أقوالهم في صفة قتله. فظن بعض الناس أن ذلك اختلافًا منهم في قتله فحكاها مسألة نزاع بين الصحابة، وهي بينهم مسألة إجماع، قالوا: ومن تأمل قوله سبحانه ﴿**وَلَا تقْرَبوا الزِنى إنه كَان فَاحِشة وسَاء سبيلًا**﴾ [الإسراء: ٣٢] وقوله في اللواط: ﴿**أتأتون الفاحِشة ماسبقكم بها من أحد من العالمين**﴾ [الأعراف: ٨٠] تبين له تفاوت ما بينهما، فإنه سبحانه نكر الفاحشة في الزنى أي هو فاحشة من الفواحش، وعرفها في اللواط، وذلك يفيد أنه جامع لمعاني اسم الفاحشة كما تقول: زيد الرجل، ونعم الرجل زيد، أي تأتون الخصلة التي استقر فحشها عند

---

(١) ٣٩٩ الإعلام جـ٤.　　(٢) ٢٣٠ الجواب.

كل أحد، فهي لظهور فحشها وكماله غنية عن ذكرها بحيث لا ينصرف الاسم إلى غيرها، وهذا نظير قول فرعون لموسى: ﴿وَفَعلت فعلتك التي فَعلت﴾ [الشعراء: ١٩] أي الفعلة الشنعاء الظاهرة المعلومة لكل أحد.

ثم أكد سبحانه شأن فحشها بأنها لم يعملها أحد من العالمين قبلهم فقال: ﴿**ما سبقكم بها من أحد من العالمين**﴾ثم زاد في التأكيد بأن صرح بها تشمئز منه القلوب وتنبو عنه الأسماع وتنفر منه أشد النفور، وهو إتيان الرجل رجلاً مثله ينكحه كما ينكح الأنثى فقال: ﴿**إنَّكم لَتأتُون الرِّجال**﴾ [الأعراف: ٨١] ثم نبه على استغنائهم عن ذلك وأن الحامل لهم عليه ليس إلا مجرد الشهوة لا الحاجة التي لأجلها مال الذكر إلى الأنثى من قضاء الوطر، ولذة الاستمتاع، وحصول المودة والرحمة التي تَنسي المرأة لها أبويها وتذكر بعلها، وحصول النسل الذي هو حفظ هذا النوع الذي هو أشرف المخلوقات،وتحصين المرأة، وحصول علاقة المصاهرة التي هي أخت النسب، وقيام الرجال على النساء، وخروج أحب الخلق إلى الله من جماعهن كالأنبياء والأولياء والمؤمنين، ومكاثرة النبي ﷺ الأنبياء بأمته إلى غير ذلك من مصالح النكاح. والمفسدة التي في اللواط تقاوم ذلك كله وتربو عليه بما لا يمكن حصره وفساده ولا يعلم تفصيله إلا الله عز وجل.

ثم أكد سبحانه قبح ذلك بأن اللوطية عكسوا فطرة الله التي فطر عليها الرجال، وقلبوا الطبيعة التي ركبها الله في الذكور وهي شهوة النساء دون الذكور، فقلبوا الأمر وعكسوا الفطرة والطبيعة فأتوا الرجال شهوة من دون النساء، ولهذا قلب الله سبحانه عليهم ديارهم فجعل عاليها سافلها، وكذلك قلبوا هم ونكسوا في العذاب على رؤوسهم.

ثم أكد سبحانه قبح ذلك بأن حكم عليهم بالإسراف وهو مجاوزة الحد فقال: ﴿**بَل أنْتُم قَومٌ مُسرِفونَ**﴾ [الأعراف: ٨١] فتأمل، هل جاء مثل ذلك أو قريب منه في الزنى، وأكد سبحانه ذلك عليهم بقوله: ﴿**ونجَّيناه من القَريَة التي كانت تَعْمَل الخَبَائِث**﴾ ثم أكد سبحانه عليهم الذم بوصفين في غاية القبح فقال: ﴿**إنَّهم كانُوا قَومَ سَوءٍ فاسقين**﴾ [الأنبياء: ٧٤] وسماهم مفسدين في قول نبيهم فقال: ﴿**رب انصرني على القوم المفسدين**﴾ وسماهم ظالمين في قول الملائكة لإبراهيم عليه

السلام ﴿**إنا مهلكوا أهل هذه القرية إن أهلها كانوا ظالمين**﴾ [العنكبوت: ٣١]. . . .

. . .(١)**وتأمل** حكمته تبارك وتعالى في عقوبات الأمم الخالية وتنويعها عليهم بحسب تنوع جرائمهم كما قال تعالى: ﴿**وعادًا وثمود وقد تبين لكم من مساكنهم** ـ إلى قوله ـ **يظلمون**﴾ [العنكبوت: ٣٨] وتأمل حكمته تعالى في مسخ من مسخ من الأمم في صور مختلفة مناسبة لتلك الجرائم: فإنها لما مسخت قلوبهم وصارت على قلوب تلك الحيوانات وطباعها اقتضت الحكمة البالغة أن جعلت صورهم على صورها لتتم المناسبة ويكمل الشبة، وهذا غاية الحكمة. واعتبر هذا بمن مسخوا قردة وخنازير كيف غلبت عليهم صفات هذه الحيوانات وأخلاقها وأعمالها. ثم إن كنت من المتوسمين فاقرأ هذه النسخة من وجوه أشباههم ونظرائهم كيف تراها بادية عليها وإن كانت مستورة بصورة الإنسانية، فاقرأ نسخة القردة من صور أهل المكر والخديعة والفسق الذين لا عقول لهم، بل هم أخف الناس عقولاً وأعظمهم مكرًا وخداعًا وفسقًا، فإن لم تقرأ نسخة القردة من وجوههم فلست من المتوسمين. واقرأ نسخة الخنازير من صور أشباههم ولاسيما أعداء خيار خلق الله بعد الرسل وهم أصحاب رسول الله ﷺ؛ فإن هذه النسخة ظاهرة على وجوه الرافضة يقرؤها كل مؤمن كاتب وغير كاتب، وهي تظهر وتخفى بحسب خنزيرية القلب وخبثه؛ فإن الخنزير أخبث الحيوانات وأردؤها طباعًا، ومن خاصيته أنه يدع الطيبات فلا يأكلها، ويقوم الإنسان عن رجيعه فيبادر إليه. فتأمل مطابقة هذا الوصف لأعداء الصحابة كيف تجده منطبقًا عليهم؛ فإنهم عمدوا إلى أطيب خلق الله وأطهرهم فعادوهم وتبرؤا منهم ثم والوا كل عدو لهم من النصارى واليهود والمشركين، فاستعانوا في كل زمان على حرب المؤمنين الموالين لأصحاب رسول الله ﷺ بالمشركين والكفار، وصرحوا بأنهم خير منهم فأي شبه ومناسبة أولى بهذا الضرب من الخنازير. فإن لم تقرأ هذه النسخة من وجوههم فلست من المتوسمين.

. . .(٢)**وقال** تعالى: ﴿**وعادًا وثمود وقد تبين لكم من مساكنهم وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل وكانوا مستبصرين**﴾ [العنكبوت: ٣٨] وهذا

---

(١) ٢٥٤ المفتاح جـ١. (٢) ٩٢ المفتاح جـ١.

يدل على أن قولهم: ﴿**ياهُود ما جئتنا ببينة وما نحن بتاركي آلهتنا عن قولك وما نحن لك بمؤمنين**﴾ إما بهت منهم وجحود، وإما نفي لآيات الاقتراح والعنت ولا يجب الإتيان بها.

وقد وصف سبحانه ثمود بأنها كفرت عن علم وبصيرة بالحق ولهذا قال: ﴿**وآتينَا ثمودَ الناقة مُبصرة فَظَلمُوا بهَا**﴾ [الإسراء: ٥٩] يعني بينة مضيئة. وهذا كقوله تعالى: ﴿**وجَعلنا آية النهار مبصرة**﴾ أي مضيئة، وحقيقة اللفظ أنها تجعل من رآها مبصرًا فهي توجب له البصر فتبصره، أي تجعله ذا بصر، فهي موضحة مبينة، يقال: بصر به إذا رآه كقوله تعالى: ﴿**فَبَصرُت به عن جُنُب**﴾ [القصص: ١١] وقوله: ﴿**بَصرُت بما لم يَبصروا به**﴾ [طه: ٩٦] وأما أبصره فله معنيان:

أحدهما جعله باصرًا بالشيء أي ذا بصر به كآية النهار وآية ثمود.

والثاني بمعنى رآه كقولك أبصرت زيدًا، وفي حديث أبي شريح العدوي أحدثك قولا قال به رسول الله ﷺ يوم الفتح فسمعته أذناي ووعاه قلبي وأبصرته عيناي حين تكلم به. ومنه قوله تعالى: ﴿**فَتول عَنهُم حتى حِين * وأبْصِرهم فسوف يُبصِرُونَ**﴾ [الصافات: ١٧٤، ١٧٥] قيل المعنى أبصرهم وما يقضي عليهم من الأسر والقتل والعذاب في الآخرة فسوف يبصرونك وما يقضي لك من النصر والتأييد وحسن العاقبة والمراد تقريب المبصر من المخاطب حتى كأنه نصب عينيه ورأى ناظريه.

والمقصود أن الآية أوجبت لهم البصيرة فآثروا الضلال والكفر عن علم ويقين. ولهذا والله أعلم ذكر قصتهم من بين قصص سائر الأمم في سورة والشمس وضحاها؛ لأنه ذكر فيها انقسام النفوس إلى الزكية الراشدة المهتدية وإلى الفاجرة الضالة الغاوية، وذكر فيها الأصلين القدر والشرع، فقال: ﴿**فألهمها فُجورَها وتَقواها**﴾ [الشمس: ٧] فهذا قدره وقضاؤه ثم قال: ﴿**قَد أفْلح مَن زَكَّاها وقد خاب مَن دسَّاها**﴾ [الشمس: ٩، ١٠] فهذا أمره ودينه، وثمود هداهم فاستحبوا العمى على الهدى. فذكر قصتهم ليبين سوء عاقبة من آثر الفجور على التقوى والتدسية على التزكية والله أعلم بما أراد.

قالوا ويكفي في هذا إخباره تعالى عن الكفار أنهم يقولون بعد ما عاينوا العذاب

ووردوا القيامة ورأوا ما أخبرت به الرسل ﴿يَالَيْتنا نُرَد ولا نُكذب بآيات ربِّنا ونَكون من المؤمنين * بل بدا لهم ما كانوا يخفُون مِن قَبْل ولَو رُدوا لَعادوا لِما نُهوا عنه وإنهم لَكاذِبون﴾ [الأنعام: ٢٦، ٢٧] فأي علم أبين من علم من ورد القيامة ورأى ما فيها، وذاق عذاب الآخرة، ثم لو رد إلى الدنيا لاختار الضلال على الهدى ولم ينفعه ما قد عاينه ورآه.

وقال تعالى: ﴿وَلَو أنَّنا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتَى وحَشَرنا عَليهم كل شيء قُبلًا ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله ولكن أكثرهم يجهلون﴾ [الأنعام: ١١١] فهل بعد نزول الملائكة عيانًا، وتكليم الموتى لهم، وشهادتهم للرسول بالصدق، وحشر كل شيء في الدنيا عليهم من بيان وإيضاح للحق وهدى، ومع هذا فلا يؤمنون ولا ينقادون للحق ولا يصدقون الرسول. . .

. . . [(١)] **قوله** تعالى: ﴿مَثَل الذين اتخذُوا من دُون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخَذت بَيْتًا وإن أوهَن البيوت لبيتُ العنكبوت لو كانوا يعلمون﴾ [العنكبوت: ٤١] فذكر سبحانه أنهم ضعفاء، وأن الذين اتخذوهم أولياء أضعف منهم، فهم في ضعفهم وما قصدوه من اتخاذ الأولياء كالعنكبوت اتخذت بيتًا، وهو أوهن البيوت وأضعفها، وتحت هذا المثل أن هؤلاء المشركين أضْعف ما كانوا حين اتخذوا من دون الله أولياء فلم يستفيدوا بمن اتخذوهم أولياء إلا ضعفًا.

كما قال تعالى: ﴿واتخذوا من دُون الله آلِهة ليكُونوا لَهم عِزًا * كلا سَيكفُرون بِعبادتهم ويكُونون عليهم ضِدًا﴾ [مريم: ٨١، ٨٢] وقال تعالى: ﴿واتخذوا من دون الله آلهة لعلهم يُنصرون * لايستطيعون نصرهم وهُم لَهم جُندٌ مُحضَرون﴾ [يس: ٧٤، ٧٥]. وقال بعد أن ذكر إهلاك الأمم المشركين: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُم ولَكِن ظلموا أنفُسهم فما أغنَت عنهم آلهتهم التي يدعون من دون الله من شيء لما جاء أمر ربك وما زادوهم غيرَ تَتْبيب﴾ [هود: ١٠١].

فهذه أربعة مواضع في القرآن تدل على أن مَن اتخذ من دون الله وليا يتعزز به ويتكبر به ويستنصر به لم يحصل له به إلا ضد مقصوده، وفي القرآن أكثر من ذلك،

---

(١) ١٥٤ الإعلام جـ١.

وهذا من أحسن الأمثال وأدلها على بطلان الشرك وخَسارة صاحبه وحصوله على ضد مقصوده.

فإن قيل: فهم يعلمون أن أوهَن البيوت بيتُ العنكبوت، فكيف نفى عنهم ذلك بقوله: ﴿**لو كانوا يعلمون**﴾.

فالجواب أنه سبحانه لم يَنْفِ عنهم علمهم بوهَن بيتِ العَنْكبوت، وإنما نفى عنهم علمهم بأن اتخاذهم أولياء من دونه كالعنكبوت اتخذت بيتًا فلو علموا ذلك لما فعلوه، ولكن ظنوا أن اتخاذهم الأولياء من دونه يُفيدهم عزًّا وقدرة، فكان الأمر بخلاف ما ظنوه.

. . .[1]**ضرب** الأمثال في القرآن يستفاد منه أمور: التذكير والوعظ، والحث والزجر، والاعتبار والتقرير، وتقريب المراد للعقل، وتصويره في صورة المحسوس بحيث يكـون نسبته للعقل كنسبة المحسوس إلى الحس. وقد تأتي أمثال القرآن مشتملة على بيان تفاوت الأجر على المدح والذم، وعلى الثواب والعقاب، وعلى تفخيم الأمر أو تحقيره، وعلى تحقيق أمر وإبطال أمر والله أعلم.

. . .[2]**الوجه** الثاني والعشرون أنه سبحانه أخبر عن أمثاله التي يضربها لعباده يدلهم على صحة ما أخبر به أن أهل العلم هم المنتفعون بها المختصون بعلمها فقال تعالى: ﴿**وَتِلك الأمثَال نَضرِبُها للنَّاس ومَا يَعقِلها إلا العالِمون**﴾ [العنكبوت: ٤٣] وفي القـرآن بضعة وأربعون مثلاً، وكان بعض السلف إذا مر بمثل لا يفهمه يبكي ويقول لست من العالمين.

. . .[3]**وقال** تعالى: ﴿**وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون**﴾ أخبر تعالى أنه لا يعقل أمثاله إلا العالمون، والكفار لا يدخلون في مسمى العالمين فهم لا يعقلونها. وقال تعالى: ﴿**بل اتبع الذين ظلموا أهواءهم بغير علم فمن يهدي مَن أضل الله**﴾ [الروم: ٢٩].

وقـال تعـالى: ﴿**وقـال الـذين لا يعلمـون لولا يكلمنـا الله أو تأتينـا آيـة**﴾

---

(١) ٩ البدائع جـ٤.
(٢) ٥١ المفتاح جـ١.
(٣) ٨٨ المفتاح جـ١.

[البقرة: ١١٨]. وقال تعالى: ﴿**قُل هَل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون**﴾ [الزمر: ٩]. ولو كان الضلال بجامع العلم لكان الذين لا يعلمون أحسن حالاً من الذين يعلمون والنص بخلافه، والقرآن مملوء بسلب العلم والمعرفة عن الكفار، فتارة يصفهم بأنهم لا يعلمون، وتارة بأنهم لا يعقلون، وتارة بأنهم لا يشعرون، وتارة بأنهم لا يفقهون، وتارة بأنهم لا يسمعون. والمراد بالسمع المنفي سمع الفهم وهو سمع القلب لا إدراك الصوت، وتارة بأنهم لا يبصرون، فدل ذلك كله على أن الكفر مستلزم للجهل مناف للعلم لا يجامعه، ولهذا يصف سبحانه الكفار بأنهم جاهلون. كقوله تعالى: ﴿**وَعِباد الرحمن الذين يمشُون على الأرضِ هونًا وإذا خاطبهم الجاهِلون قَالوا سَلامًا**﴾ [الفرقان: ٦٣] وقوله تعالى: ﴿**وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلامٌ عليكم لا نبتغي الجاهلين**﴾ [القصص: ٥٥]. وقوله تعالى: ﴿**خذِ العفو وأمر بالعُرف وأعْرض عن الجاهلين**﴾ [الأعراف: ١٩٩].

. . .[1]**زين** الله به[2] ألسنة الذاكرين، كما زين بالنور أبصار الناظرين. فاللسان الغافل كالعين العمياء ، والأذن الصماء، واليد الشلاء. وهو باب الله الأعظم المفتوح بينه وبين عبده، ما لم يغلقه العبد بغفلته.

قال الحسن البصري رحمه الله: تفقدوا الحلاوة في ثلاثة أشياء: في الصلاة، وفي الذكر، وقراءة القرآن، فإن وجدتم . . وإلا فاعلموا أن الباب مغلق.

وبالذكر: يصرع العبد الشيطان كما يصرع الشيطان أهل الغفلة والنسيان. قال بعض السلف: إذا تمكن الذكر من القلب، فإن دنا منه الشيطان صرعه كما يُصرع الإنسان إذا دنا منه الشيطان. فيجتمع عليه الشياطين، فيقولون: ماهذا؟ **فيقال**: قد مسه الإنسي.

وهو روح الأعمال الصالحة. فإذا خلا العمل عن الذكر كان كالجسد الذي لا روح فيه. والله أعلم.

فصل وهو في القرآن على عشرة أوجه. الأول: الأمر به مطلقًا ومقيدًا. الثاني:

---

(١) ٤٢٤ المدارج جـ٢. (٢) أي الذكر.

النهي عن ضده من الغفلة والنسيان. الثالث: تعليق الفلاح باستدامته وكثرته. الرابع: الثناء على أهله، والإخبار بما أعدَّ الله لهم من الجنة والمغفرة. الخامس: الإخبار عن خسران من لها عنه بغيره. السادس: أنه سبحانه جعل ذكره لهم جزاء لذكرهم له. السابع: الإخبار أنه أكبر من كل شيء. الثامن: أنه جعله خاتمة الأعمال الصالحة، كما كان مفتاحها. التاسع: الإخبار عن أهله بأنهم هم أهل الانتفاع بآياته. وأنهم أولو الألباب دون غيرهم. العاشر: أنه جعله قرين جميع الأعمال الصالحة وروحها. فمتى عدمته كانت كالجسد بلا روح.

فصل في تفصيل ذلك

أما الأول: فكقوله تعالى: **﴿يا أيها الذين آمنوا اذكُروا الله ذكرًا كثيراً * وسَبِّحوه بكرة وأصيلا * هو الذي يُصلي عليهم وملائكته ليُخرجَكم من الظُّلمات إلى النور وكان بالمؤمنين رحيما﴾** [الأحزاب: ٤١ - ٤٣]. وقوله تعالى: **﴿واذْكُر ربَّك فِي نَفسِك تَضَرُّعًا وخِيفة﴾** [الأعراف: ٢٠].

وفيه قولان: أحدهما: في سرك وقلبك. والثاني: بلسانك بحيث تسمع نفسك وأما النهي عن ضده: فكقوله: **﴿وَلاَ تَكُن مِنَ الغافلين﴾** [الأعراف: ٢٠٥] وقوله: **﴿ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم﴾** [الحشر: ١٩].

وأما تعليق الفلاح بالإكثار منه: فكقوله: **﴿واذْكروا الله كَثِيراً لعلكم تُفلِحون﴾** [الجمعة: ١٠]. وأما الثناء على أهله، وحسن جزائهم: فكقوله: **﴿إنَّ المسلمين والمُسلمات - إلى قوله - والذاكرين الله كثيراً والذاكرات أعد الله لهم مغْفِرة وأجرًا عظيمًا﴾** [الأحزاب: ٣٥].

وأما خسران من لها عنه، فكقوله تعالى: **﴿ياأيُّها الذين آمنوا لا تُلْهِكم أموالُكم ولا أولاَدُكم عن ذِكر الله ومَن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسِرون﴾** [المنافقون: ٩]. وأما جعل ذكره لهم جزاء لذكرهم له، فكقوله: **﴿فاذْكروني أذكُركُم واشكروا لِي ولا تَكْفُرون﴾** [البقرة: ١٥٢].

. . .(١)**وأما الإخبار** عنه بأنه أكبر من كل شيء فكقوله تعالى: **﴿اتْلُ ما أوحِي**

---

(١) ٤٢٦ مدارج جـ٢.

إليكَ من الكتاب وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمُنكر ولَذِكرُ الله أكبر﴾ [العنكبوت: ٤٥]. وفيها أربعة أقوال:

أحدها: أن ذكر الله أكبر من كل شيء. فهو أفضل الطاعات؛ لأن المقصود بالطاعات كلها: إقامة ذكره، فهو سر الطاعات وروحها.

الثاني: أن المعنى: أنكم إذا ذكرتموه ذكركم، فكان ذكره لكم أكبر من ذكركم له. فعلى هذا: المصدر مضاف إلى الفاعل. وعلى الأول: مضاف إلى المذكور.

الثالث: أن المعنى: ولذكر الله أكبر من أن يبقى معه فاحشة ومنكر، بل إذا تَمَّ الذكر: مَحق كل خطيئة ومعصية. هذا ما ذكره المفسرون.

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ يقول: معنى الآية: أن في الصلاة فائدتين عظيمتين، إحداهما: نهيها عن الفحشاء والمنكر. والثانية: اشتمالها على ذكر الله وتضمنها له. ولما تضمنته من ذكر الله أعظم من نهيها عن الفحشاء والمنكر.

وأما ختم الأعمال الصالحة به: فكما ختم به عمل الصيام بقوله: **﴿وَلِتُكمِلوا العِدة ولِتكبروا الله على ما هداكم ولعلكم تَشْكُرون﴾** [البقرة: ١٨٥].

وختم به الحج في قوله: **﴿فإذَا قَضيتم مناسِككم فاذكروا الله كذِكركم آباءكم أو أشد ذِكرًا﴾** [البقرة: ٢٠٠].

وختم به الصلاة كقوله: **﴿فإذَا قضيتم الصلاة فاذكروا الله قيامًا وقُعودًا وعلى جنوبكم﴾** [النساء: ١٠٣].

...[1]**الوجه** السابع عشر أنه سبحانه مدح أهل العلم وأثنى عليهم، وشرفهم بأن جعل كتابه آيات بينات في صدورهم، وهذه خاصة ومنقبة لهم دون غيرهم. فقال تعالى: **﴿وكَذلك أنزَلنا إليكَ الكِتاب فالذين آتيناهُم الكِتاب يُؤمنون به ومن هؤلاء مَن يؤمن به وما يجحد بآياتنا إلا الكافرون * وما كُنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذًا لارتاب المبطلون * بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتُوا العلم وما يجحد بآياتنا إلا الظالمون﴾** [العنكبوت: ٤٧ ـ ٤٩].

وسواء كان المعنى أن القرآن مستقر في صدور الذين أوتوا العلم ثابت فيها

(١) ٢٠٥ المفتاح جـ١.

محفوظ، وهو في نفسه آيات بينات فيكون أخبر عنه بخبرين. أحدهما: أنه ايات بينات. الثاني: أنه محفوظ مستقر ثابت في صدور الذين أوتوا العلم. أو كان المعنى أنه آيات بينات في صدورهم، أي كونه آيات بينات معلوم لهم ثابت في صدورهم. والقولان متلازمان ليسا بمختلفين. وعلى التقديرين فهو مدح لهم وثناء عليهم في ضمنه الاستشهاد بهم فتأمله.

. . . (١)**روى** أبوداود في مراسيله عن النبي ﷺ أنه رأى بيد بعض أصحابه قطعة من التوراة فقال: «**كفى بقوم ضلالة أن يتبعوا كتابًا غير كتابهم أنزل على غير نبيهم**» فأنزل الله عز وجل تصديق ذلك: ﴿**أوَلَم يَكفِهم أنا أنزلنا عليك الكِتاب يُتلَى عليهم إن في ذلك لرحمةً وذِكرى لقَوم يؤمنون**﴾ [العنكبوت: ٥١] فهذا حال من أخذ دينه عن كتاب منزل على غير النبي ﷺ فكيف بمن أخذه عن عقل فلان وفلان، وقدمه على كلام الله ورسوله؟.

وعرفهم الطريق الموصل لهم إلى ربهم ورضوانه ودار كرامته، ولم يدع حسنًا إلا أمرهم به، ولا قبيحًا إلا نهى عنه كما قال ﷺ: «**ما تركت من شيء يقربكم إلى الجنة إلا وقد أمرتكم به، ولا من شيء يقربكم إلى النار إلا وقد نهيتكم عنه**» قال أبوذر: «**لقد توفي رسول الله ﷺ وما طائر يقلب جناحيه في السماء إلا ذكر لنا منه علمًا**».

وعرفهم حالهم بعد القدوم على ربهم أتم تعريف، فكشف الأمر وأوضحه، ولم يدع بابًا من العلم النافع للعباد المقرب لهم إلى ربهم إلا فتحه، ولا مشكلاً إلا بينه وشرحه، حتى هدى الله به القلوب من ضلالها، وشفاها به من أسقامها، وأغاثها به من جهلها، فأي بشر أحق بأن يحمد منه ﷺ وجزاه عن أمته أفضل الجزاء.

. . . (٢)**وتقسيم** بعضهم طرق الحكم إلى شريعة وسياسة كتقسيم غيرهم الدين إلى شريعة وحقيقة، وكتقسيم آخرين الدين إلى عقل ونقل، وكل ذلك تقسيم باطل، بل السياسة والحقيقة والطريقة والعقل كل ذلك ينقسم إلى قسمين: صحيح، وفاسد، فالصحيح قسم من أقسام الشريعة لا قسيم لها، والباطل ضدها ومنافيها. وهذا الأصل من أهم الأصول وأنفعها، وهو مبني على حرف واحد، وهو عموم رسالته ﷺ بالنسبة إلى كل ما يحتاج إليه العبادُ في معارفهم

---

(١) ٩٨ جلاء الأفهام. (٢) ٣٧٥ الإعلام جـ٤.

وعلومهم وأعمالهم، وأنه لم يحوج أمته إلى أحدٍ بعده، وإنما حاجتهم إلى مَن يبلغهم عنـه ما جاء به، فلرسـالتـه عمومان محفوظان لا يتطرق إليهما تخصيص، عموم بالنسبة إلى المرسَل إليهم، وعموم بالنسبة إلى كل ما يحتاج إليه مَن بُعث إليه في أصول الدين وفروعه، فرسالته كافية شافية عامة، لا تحوج إلى سواها، ولا يتم الإيمان به إلا بإثبات عموم رسالته في هذا وهذا، فلا يخرج أحد من المكلَّفين عن رسالته، ولا يخرج نوع من أنواع الحق الذي تحتاج إليه الأمة في علومها وأعمالها عما جاء به.

وقد توفي رسول الله ﷺ وما طائر يقلب جناحيه في السماء إلا ذكر للأمة منه علمًا، وعلمهم كل شيء حتى آداب التخـلِّي، وآداب الجـماع، والنـوم والقيام والقعـود، والأكـل والشرب، والـركـوب والنزول، والسفر والإقامة، والصَّمت والكلام، والعُزلة والخلطة، والغِنى والفقر، والصحة والمرض، وجميع أحكام الحياة والمـوت. ووصف لهم العـرش والكرسي، والملائكة والجن، والنار والجنة، ويوم القيامة وما فيه حتى كأنه رأي عين، وعرفهم معبودهم وإلههم أتم تعريف حتى كأنهم يرونه ويشاهدونه بأوصاف كماله ونعوت جلاله، وعرفهم الأنبياء وأممهم وما جرى لهم وما جرى عليهم معهم حتى كأنهم كانوا بينهم، وعرفهم من طرق الخير والشر دقيقَها وجليلها مالم يعرفه نبي لأمته قبله، وعرفهم ﷺ من أحوال الموت وما يكون بعده في البرزخ، وما يحصل فيه من النعيم والعذاب للروح والبدن مالم يعرف به نبي غيره، وكذلك عرفهم ﷺ من أدلة التوحيد والنبوة والمَعاد والرد على جميع فرق أهل الكفر والضلال ما ليس لمن عرفه حاجة من بعده، اللهم إلا إلى مَن يبلغه إياه ويبينه ويوضح منه ما خفي عليه. وكذلك عرفهم ﷺ من مكايد الحروب ولقاء العدو وطرق النصر والظفر مالو علموه وعَقَلوه ورَعَوه حق رعايته لم يقم لهم عدو أبدًا.

وكذلك عرفهم ﷺ من مكايد إبليس وطرقه التي يأتيهم منها، وما يتحرزون به من كيده ومكره، وما يدفعون به شره ما لا مزيد عليه، وكذلك عرفهم ﷺ من أحوال نفوسهم وأوصافها ودسائسها وكمائنها ما لا حاجة لهم معه إلى سواه، وكذلك عرفهم ﷺ من أمور معايشهم مالو علموه وعملوه لاستقامت لهم دنياهم أعظَمَ استقامة.

وبالجملة فجاءهم بخير الدنيا والآخرة برُمَّته، ولم يحوجهم الله إلى أحد سواه، فكيف يُظن أن شريعته الكاملة التي ما طرق العالم شريعةٌ أكمل منها ناقصةٌ تحتاج

إلى سياسة خارجة عنها تكملها، أو إلى قياس، أو حقيقة، أو معقول خارج عنها؟ ومن ظن ذلك فهو كمن ظن أن بالناس حاجة إلى رسول آخر بعده، وسبب هذا كله خفاء ما جاء به على من ظن ذلك، وقلة نصيبه من الفهم الذي وفّق الله له أصحابَ نبيه الذين اكتفوا بما جاء به، واستغنوا به عما سواه، وفتحوا به القلوب والبلاد، وقالوا: هذا عهد نبينا إلينا وهو عهدنا إليكم. وقد كان عمر رضي الله عنه يمنع من الحديث عن رسول الله ﷺ خشية أن يشتغل الناسُ به عن القرآن، فكيف لو رأى اشتغال الناس بآرائهم وزَبد أفكارهم وزُبالة أذهانهم عن القرآن والحديث؟ فالله المستعان.

وقد قال الله تعالى: ﴿**أوَ لَم يكفِهم أنا أنزَلنا عليك الكِتاب يُتْلَى عَليهم إن في ذلك لَرحمةً وَذِكرى لِقَومٍ يُؤمنون**﴾ [العنكبوت: ٥١]، وقال تعالى: ﴿**وأنزلنا عَليكَ الكِتـاب تبيانًا لِكُل شيء وهُدى ورحمة وبُشرى للمسلمين**﴾ [النحل: ٨٩]، وقال تعالى: ﴿**يَا أيُّها الناس قد جاءتكم موعِظة من ربِّكم وشِفاء لما في الصدور وهُدى ورحمة للمؤمنين**﴾ [يونس: ٥٧].

وكيف يَشفي ما في الصدور كتابٌ لا يفي هو وما تبينه السنة بعُشر مِعشار الشريعة؟ أم كيف يشفي ما في الصدور كتابٌ لا يستفاد منه اليقين في مسألة واحدة من مسائل معرفة الله وأسمائه وصفاته وأفعاله؟ أو عامَّتها ظواهر لفظية دلالتها موقوفة على انتفاء عشرة أمور لا يعلم انتفاؤها، سبحانك هذا بهتان عظيم!.

ويالله العجب! كيف كان الصحابة والتابعون قبل وضع هذه القوانين التي أتى الله بنيانها من القواعد، وقبل استخراج هذه الآراء والمقاييس والأوضاع؟ أهل كانوا مهتدين مكتفين بالنصوص أم كانوا على خلاف ذلك؟ حتى جاء المتأخرون فكانوا أعلم منهم وأهدى وأضبط للشريعة منهم، وأعلم بالله وأسمائه وصفاته وما يجب له و[ما] يمتنع عليه منهم؟ فوالله لأن يلقى الله [عبدُه] بكل ذنب ما خلا الإشراك خير من أن يلقاه بهذا الظن الفاسد والاعتقاد الباطل. ا.هـ.

...[1]**فائدة** قال ابن عقيل: الجري في جواز العمل في السلطنة الشرعية

(١) ١٥٢ البدائع جـ٣.

بالسياسة هو الحزم فلا يخلو منه إمام. قال الشافعي: لا سياسة إلا ما وافق الشرع. قال ابن عقيل: السياسة ما كان فعلاً يكون معه الناس أقرب إلى الصلاح وأبعد عن الفساد وإن لم يضعه الرسول ولا نزل به وحي. فإن أردت بقولك إلا ما وافق الشرع أي لم يخالف ما نطق به الشرع فصحيح، وإن أردت ما نطق به الشرع فغلط وتغليط للصحابة، فقد جرى من الخلفاء الراشدين من القتل والمثل مالا يجحده عالم بالسنن، ولو لم يكن إلا تحريق المصاحف كان رأيًا اعتمدوا فيه على مصلحة وتحريق علي في الأخاديد. وقال:

إني إذا شاهدت أمرًا منكرًا أججت ناري ودعوت قنبراً

ونفى عمر نصر بن حجاج. (قلت) هذا موضع مزلة أقدام وهو مقام ضنك ومعترك صعب، فرط فيه طائفة فعطلوا الحدود وضيعوا الحقوق وجرءوا أهل الفجور على الفساد، وجعلوا الشريعة قاصرة لا تقوم بها مصالح العباد، وسدوا على نفوسهم طرقًا عديدة من طرق معرفة الحق من الباطل، بل عطلوها مع علمهم قطعًا وعلم غيرهم بأنها أدلة حق ظنًا منهم منافاتها لقواعد الشرع. والذي أوجب لهم ذلك نوع تقصير في معرفة الشريعة، فلما رأى ولاة الأمر ذلك وأن الناس لا يستقيم أمرهم إلا بشيء زائد على مافهمه هؤلاء من الشريعة أحدثوا لهم قوانين سياسية ينتظم بها أمر العالم، فتولد من تقصير أولئك في الشريعة وإحداث هؤلاء ماأحدثوه من أوضاع سياستهم شر طويل، وفساد عريض، وتفاقم الأمر وتعذر استدراكه.

وأفرطت طائفة أخرى فسوغت منه ما ينافي حكم الله ورسوله وكلا الطائفتين أُتِيَتْ من تقصيرها في معرفة ما بعث الله به رسوله، فإن الله أرسل رسله وأنزل كتبه ليقوم الناس بالقسط وهو العدل الذي به قامت السموات والأرض، فإذا ظهرت أمارات العدل وتبين وجهه بأي طريق كان فثم شرع الله ودينه. والله تعالى لم يحصر طرق العدل وأدلته وعلاماته في شيء ونفى غيرها من الطرق التي هي مثلها أو أقوى منها، بل بين بما شرعه من الطرق أن مقصوده إقامة العدل وقيام الناس بالقسط، فأي طريق استخرج بها العدل والقسط فهي من الدين (لا يقال) إنها

مخالفة له، فلا تقول إن السياسة العادلة مخالفة لما نطق به الشرع، بل موافقة لما جاء به، بل هي جزء من أجزائه. ونحن نسميها سياسة تبعًا لمصطلحكم، وإنما هي شرع حق، فقد حبس رسول الله ﷺ في نميمة(١)، وعاقب في تهمة لما ظهر أمارات الريبة على المتهم. فمن أطلق كل متهم وخلى سبيله مع علمه باشتهاره بالفساد في الأرض ونقبه البيوت وكثرة سرقاته وقال لا آخذه إلا بشاهدي عدل فقوله مخالف للسياسة الشرعية، وكذلك منع النبي ﷺ الغال من سهمه من الغنيمة، وتحريق الخلفاء الراشدين متاعه كله، وكذلك أخذه شطر مال مانع الزكاة، وكذلك إضعافه الغرم على سارق ما لا يقطع فيه وعقوبته بالجلد.

وكذلك إضعافه بالغرم على كاتم الضالة. وكذلك تحريق عمر حانوت الخمار، وتحريقه قربة خمر، وتحريقه قصر سعد بن أبي وقاص لما احتجب فيه عن الرعية. وكذلك حلقه رأس نصر بن حجاج ونفيه، وكذلك ضربه صبيغًا، وكذلك مصادرته عماله، وكذلك إلزامه الصحابة أن يقلوا الحديث عن رسول الله ﷺ ليشتغل الناس بالقرآن فلا يضيعوه، إلى غير ذلك من السياسة التي ساس بها الأمة فصارت سنة إلى يوم القيامة وإن خالفها من خالفها.

ومن هذا تحريق الصديق رضي الله عنه للوطي. ومن هذا تحريق عثمان رضي الله عنه للصحف المخالفة للسان قريش. ومن هذا اختيار عمر رضي الله عنه للناس الإفراد بالحج ليعتمروا في غير أشهره فلا يزال البيت الحرام مقصودًا، إلى أضعاف أضعاف ذلك من سياساتهم التي ساسوا بها الأمة، وهي بتأويل القرآن وسنته. وتقسيم الناس الحكم إلى شريعة وسياسية كتقسيم من قسم الطريقة إلى شريعة وحقيقة. وذلك تقسيم باطل فالحقيقة نوعان: حقيقة هي حق صحيح فهي لب الشريعة لا قسيمتها، وحقيقة باطلة فهي مضادة للشريعة كمضادة الضلال للهدى.

وكذلك السياسة نوعان: سياسة عادلة فهي جزء من الشريعة وقسم من أقسامها لا قسيمتها، وسياسة باطلة فهي مضادة للشريعة مضادة الظلم للعدل. ونظير **هذا** تقسيم بعض الناس الكلام في الدين إلى الشرع والعقل هو تقسيم باطل، بل المعقول قسمان: قسم يوافق ما جاء به الرسول ﷺ فهو معقول كلامه

(١) كذا بالأصل ولعلها: تهمة. (ج).

ونصوصه لا قسيم ما جاء به، وقسم يخالفه فذلك ليس بمعقول وإنما هي خيالات وشبه باطلة لظن صاحبها أنها معقولات وإنما هي خيالات وشبهات. وكذلك القياس والشرع فالقياس الصحيح هو معقول النصوص، والقياس الباطل المخالف للنصوص مضاد للشرع.

فهذا الفصل هو فرق ما بين ورثة الأنبياء وغيرهم، وأصله مبني على حرف واحد وهو عموم رسالته ﷺ بالنسبة إلى كل ما يحتاج إليه العباد في معارفهم وعلومهم وأعمالهم التي بها صلاحهم في معاشهم ومعادهم، وأنه لا حاجة إلى أحد سواه البتة، وإنما حاجتنا إلى من يبلغنا عنه ما جاء به. فمن لم يستقر هذا في قلبه لم يرسخ قدمه في الإيمان بالرسول.

بل يجب الإيمان بعموم رسالته في ذلك كما يجب الإيمان بعموم رسالته بالنسبة إلى المكلفين، فكما لا يخرج أحد من الناس عن رسالته البتة، فكذلك لا يخرج حق من العلم به والعمل عما جاء به، فما جاء به هو الكافي الذي لا حاجة بالأمة إلى سواه. وإنما يحتاج إلى غيره من قل نصيبه من معرفته وفهمه، فبحسب قلة نصيبه من ذلك تكون حاجته، وإلا فقد توفي رسول الله ﷺ وما من طائر يقلب جناحيه في السماء إلا وقد ذكر للأمة منه علمًا، وعلمهم كل شيء حتى آداب التخلي، وآداب الجماع والنوم، والقيام والقعود، والأكل والشرب، والركوب والنزول، ووصف لهم العرش والكرسي، والملائكة، والجنة والنار، ويوم القيامة وما فيه حتى كأنه رأي عين، وعرفهم بربهم ومعبودهم أتم تعريف حتى كأنهم يرونه بما وصفه لهم به من صفات كماله ونعوت جلاله، وعرفهم الأنبياء وأممهم وما جرى لهم معهم حتى كأنهم كانوا بينهم.

وعرفهم من طرق الخير والشر دقيقها وجليلها مالم يعرفه نبي لأمته قبله. وعرفهم من أحوال الموت وما يكون بعده في البرزخ وما يحصل فيه من النعيم والعذاب للروح والبدن ما جلى لهم ذلك حتى كأنهم يعاينوه. وكذلك عرفهم من أدلة التوحيد والنبوة والمعاد والرد على جميع طوائف أهل الكفر والضلال ما ليس لمن عرفه حاجة إلى كلام أحد من الناس البتة.

وكذلك عرفهم من مكايد الحروب ولقاء العدو وطرق الظفر به مالو علموه

وفعلوه لم يقم لهم عدو أبدًا. وكذلك عرفهم من مكائد إبليس وطرقه التي يأتيهم منها ويحترزون به من كيده ومكره وما يدفعون به شره مالا مزيد عليه. وبذلك أرشدهم في معاشهم إلى ما لو فعلوه لاستقامت لهم دنياهم أعظم استقامة. وبالجملة فقد جاءهم رسول الله ﷺ بخير الدنيا والآخرة بحذافيره، ولم يجعل الله بهم حاجة إلى أحد سواه. ولهذا ختم الله به ديوان النبوة فلم يجعل بعده رسولاً؛ لاستغناء الأمة به عمن سواه، فكيف يظن أن شريعته الكاملة المكملة محتاجة إلى سياسة خارجة عنها، أو إلى حقيقة خارجة عنها، أو إلي قياس خارج عنها، أو إلى معقول خارج عنها. فمن ظن ذلك فهو كمن ظن أن بالناس حاجة إلى رسول آخر بعده. وسبب هذا كله خفاء ما جاء به على من ظن ذلك.

قال تعالى: ﴿**أوَ لَم يَكفِهِم أنا أنزلنا عليك الكِتاب يُتلى عليهم إن في ذلك لَرَحمة وذِكرى لِقَومٍ يُؤمنون**﴾ [العنكبوت: ٥١] وقال تعالى: ﴿**ونَزلنا عليك الكِتاب تبيانًا لكل شيء وهُدى ورَحمة وبُشرى للمُسلمين**﴾ [النحل: ٨٩] وقال تعالى: ﴿**إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم**﴾ وقال تعالى: ﴿**يا أيُّها الناسُ قد جاءتكُم موعِظة مِن رَبِّكم وشِفاء لِما في الصدور وهُدى ورَحمة للمؤمنين**﴾ [يونس: ٥٧] وكيف يشفى ما في الصدور كتاب لا يفي بعشر معشار ما الناس محتاجون إليه على زعمهم الباطل. ويالله العجب كيف كان الصحابة والتابعون قبل وضع هذه القوانين واستخراج هذه الآراء والمقاييس والأقوال، أهل كانوا مهتدين بالنصوص أم كانوا على خلاف ذلك حتى جاء المتأخرون أعلم منهم وأهدى منهم؟! هذا مالا يظنه من به رمق من عقل أو حياء، نعوذ بالله من الخذلان، ولكن من أوتي فهمًا في الكتاب وأحاديث الرسول ﷺ استغنى بهما عن غيرهما بحسب ما أوتيه من الفهم، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم. وهذا الفصل لو بسط كما ينبغي لقام منه عدة أسفار ولكن هذه لفظات تشير إلى ما ورائها.

(١)**الاسم** السابع دار الحيوان، قال تعالى: ﴿**وإن الدار الآخرة لَهِي الحَيوان**﴾ [العنكبوت: ٦٤] والمراد الجنة عند أهل التفسير، قالوا: وإن الآخرة يعني الجنة لهي

(١) ٧٤ حادي الأرواح.

الحيوان لهي دار الحياة التي لاموت فيها، فقال الكلبي: هي حياة لا موت فيها، وقال الزجاج: هي دار الحياة الدائمة، وأهل اللغة على أن الحيوان بمعنى الحياة، قال أبوعبيدة وابن قتيبة الحياة الحيوان، قال أبوعبيدة الحياة والحيوان والحي بكسر الحاء واحد. قال أبوعلي يعني أنها مصادر، فالحياة فعلة كالجلبة، والحيوان كالنزوان والغليان، والحي كالعي قال العجاج: كنا بها إذا الحياة حي، أي إذا الحياة حياة.

وأما أبوزيد فخالفهم وقال: الحيوان ما فيه روح. والموتان والموات ما لا روح فيه. والصواب أن الحيوان يقع على ضربين (أحدهما) مصدر كما حكاه أبوعبيدة. (والثاني) وصف كما حكاه أبوزيد. وعلى قول أبي زيد: الحيوان مثل الحي خلاف الميت، ورجح القول الأول بأن الفعلان بابه المصادر كالنزوان والغليان، بخلاف الصفات فإن بابها فعلان كسكران وغضبان، وأجاب من رجح القول الثاني بأن فعلان قد جاء في الصفات أيضًا قالوا رجل ضميان للسريع الخفيف وزفيان قال في الصحاح: ناقة زفيان سريعة وقوس زفيان سريعة الإرسال للسهم، فيحتمل قوله تعالى: ﴿**وإن الدار الآخرة لهي الحيوان**﴾ معنيين (أحدهما) أن حياة الآخرة هي الحياة لأنها لا تنغيص فيها ولا نفاد لها، أي لا يشوبها ما يشوب الحياة في هذه الدار، فيكون الحيوان مصدرًا على هذا. (الثاني) أن يكون المعنى أنها الدار التي لا تفنى ولا تنقطع ولا تبيد كما يفنى الأحياء في هذه الدنيا فهي أحق بهذا الاسم من الحيوان الذي يفنى ويموت.

. . .[1]**التوحيد** مفزع أعدائه وأوليائه، فأما أعداؤه فينجيهم من كرب الدنيا وشدائدها ﴿**فإذا رَكِبوا في الفلك دَعوا الله مخلصين له الدِّين فلما نجَّاهم إلى البر إذا هم يُشرِكـون**﴾ [العنكبوت: ٦٥]. وأمـا أولياؤه فينجيهم به من كربـات الدنيا والآخرة وشدائدها. ولذلك فزع إليه يونس فنجاه الله من تلك الظلمات، وفزع إليه أتباع الرسل فنجوا به مما عُذب به المشركون في الدنيا وما أُعد لهم في الآخرة. ولما فزع إليه فرعون عند معاينة الهلاك وإدراك الغرق له لم ينفعه؛ لأن الإيمان عند المعاينة لا يقبل. هذه سنة الله في عباده، فما دفعت شدائد الدنيا بمثل التوحيد، ولذلك كان دعاء الكرب بالتوحيد، ودعوة ذي النون التي ما دعا بها مكروب إلا

(١) ٥٢ فوائد.

فرج الله كربه بالتوحيد، فلا يلقى في الكرب العظام إلا الشرك، ولا ينجي منها إلا التوحيد، فهو مفزع الخليقة وملجؤها وحصنها وغياثها، وبالله التوفيق.

. . .(١)**قال** تعالى: ﴿**والذِين جَاهَدوا فِينا لنَهْدينهم سُبُلنا**﴾ [العنكبوت: ٦٩].

علق سبحانه الهداية بالجهاد، فأكمل الناس هداية أعظمهم جهادًا، وأفرض الجهاد جهاد النفس، وجهاد الهوى، وجهاد الشيطان، وجهاد الدنيا. فمن جاهد هذه الأربعة في الله، هداه الله سبل رضاه الموصلة إلى جنته، ومن ترك الجهاد، فاته من الهدى بحسب ما عطل من الجهاد. قال الجنيد: والذين جاهدوا أهواءهم فينا بالتوبة لنهدينهم سبل الإخلاص، ولا يتمكن من جهاد عدوه في الظاهر إلا من جاهد هذه الأعداء باطنا، فمن نصر عليها نصر على عدوه، ومن نصرت عليه نصر عليه عدوه.

. . .(٢)**ولترجيح** المصالح رتب متفاوتة فتارة تترجح بعموم النفع، وتارة تترجح بزيادة الإيمان، وتارة تترجح بمخالفة النفس، وتارة تترجح باستجلاب مصلحة أخرى لا تحصل من غيرها، وتارة تترجح بأمنها من الخوف من مفسدة لا تؤمن في غيرها. فهذه خمس جهات من الترجيح قل أن يعدم واحدة منها. فإن أعوزه ذلك كان تخلى عن الخواطر جملة، وانتظر ما يحركه به محرك القدر، وافتقر إلى ربه افتقار مستنزل ما يرضيه ويحبه. فإذا جاءته الحركة استخار الله؛ وافتقر إليه افتقارًا ثانيا خشية أن تكون الحركة نفسية أو شيطانية؛ لعدم العصمة في حقه، واستمرار المحنة بعدوه مادام في عالم الابتلاء والامتحان، ثم أقدم على الفعل. فهذا نهاية ما في مقدور الصادقين.

ولأهل الجهاد في هذا من الهداية والكشف ماليس لأهل المجاهدة. ولهذا قال الأوزاعي وابن المبارك: «إذا اختلف الناس في شيء فانظروا ما عليه أهل الثغر» يعني أهل الجهاد. فإن الله تعالى يقول: ﴿**والذين جاهَدوا فينا لَنهدينَّهم سُبلَنا وإن الله لَمع المحسنين**﴾ [العنكبوت: ٦٩].

هذا مايسر الله جمعه من تفسير سورة العنكبوت

والحمد لله رب العالمين

---

(١) ٥٩ فوائد. (٢) ٥١٠ مدارج جـ١.



بسم الله الرحمن الرحيم

. . .(١)**فصل:** وأما مراهنة الصديق للمشركين بعلمه وإذنه فروى الترمذي في جامعه من حديث سفيان الثوري، عن حبيب بن أبي عمرة، عن سعيد بن جبير عن ابن عبّاس في قول الله تعالى: ﴿**الم * غُلبت الروم * في أدنى الأرضِ وهُم من بعد غلبهم سَيغلبون**﴾ [الروم: ١ - ٣] كان المشركون يحبون أن يظهر أهل فارس على الروم لأنهم أولياؤهم أهل الأوثان، وكان المسلمون يحبون أن يظهر الروم على فارس لأنهم أهل كتاب، فذكروه لأبي بكر، رضي الله عنه، فذكره أبوبكر لرسول الله، ﷺ، فقال: «**أما إنهم سيغلبون**» فذكروه لهم فقالوا: اجعلوا بيننا وبينكم أجلاً فإن ظهرنا كان لنا كذا وكذا، وإن ظهرتم كان لكم كذا وكذا. فجعل أجل خمس سنين فلم يظهروا فذكروا ذلك للنبي، ﷺ، فقال: «**ألا جعلت إلى دون العشر**» قال سعيد: والبضع ما دون العشر. قال: ثم ظهرت الروم بعد. قال فذلك قوله: ﴿**الم * غلبت الروم * في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون * في بضع سنين لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون * بنصر الله**﴾ [الروم: ١ - ٤] قال سفيان: سمعت أنهم ظهروا عليهم. قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

وفي جامعه أيضاً عن نيار بن مكرم الأسلمي قال: لما نزلت ﴿**الم * غلبت الروم في أدنى الأرض**﴾ إلى قوله: ﴿**بضع سنين**﴾ وكانت فارس يوم نزلت هذه الآية قاهرين للروم وكان المسلمون يحبون ظهور الروم عليهم لأنهم وإياهم أهل كتاب وذلك قوله تعالى: ﴿**ويومئذ يفرح المؤمنون * بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم**﴾. وكانت قريش تحب ظهور فارس لأنهم وإياهم ليسوا بأهل كتاب ولا إيمان ببعث. فلما أنزل الله هذه الآية خرج أبوبكر الصديق يصيح في نواحي مكة: ﴿**الم * غُلبت الرُّوم * في أدنى الأرضِ وهم من بعد غلبهم سيغلبون * في بضع**

(١) ٤ الفروسية.

سنين﴾. فقال ناس من قريش: فذلك بيننا وبينكم بزعم صاحبك أن الروم ستغلب فارس في بضع سنين أفلا نراهنك على ذلك؟ قال: بلى. قال: وذلك قبل تحريم الرهان. فارتهن أبوبكر والمشركون وتواضعوا الرهان وقالوا لأبي بكر كم نجعل البضع؟ وهو ثلاث سنين إلى سبع سنين فسم بيننا وبينك وسطًا ننتهي إليه. قال: فسموا بينهم ست سنين. قال: فمضت الست سنين قبل أن يظهروا فأخذ المشركون رهن أبي بكر فلما دخلت السنة السابعة ظهرت الروم على فارس فعاب المسلمون على أبي بكر تسميته ست سنين لأن الله قال: ﴿في بضع سنين﴾ قال: أسلم عند ذلك كثير قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

وفي الجامع أيضًا من حديث ابن عباس أن رسول الله، ﷺ، قال لأبي بكر في مناحبته: «**ألا أخفضت - وفي لفظ ألا احتطت - فإن البضع من الثلاث إلى التسع**» من حديث الزهري عن عبيد الله بن عبدالله عن ابن عباس. وقوله في الحديث «مناحبته» فالمناحبة المخاطرة وهي المراهنة، من النحب وهو النذر، وكلاهما مناحب، هذا بالعقد وهذا بالنذر.

وقوله: «**ألا أخفضت**» يجوز أن يكون من الخفض وهو الدعة. والمعنى هلا نفست المدة فكنت في خفض من أمرك ودعة. ويجوز أن يكون من الخفض الذي هو من الانخفاض أي هلا استنزلتم إلى أكثر مما اتفقتم عليه. وقوله في اللفظ الآخر هلا «**احتطت**» هو من الاحتياط، أي هلا أخذت بالأحوط وجعلت الأجل أقصى ما ينتهي إليه البضع؛ فإن النص لا يتعداه. وقوله: وذلك قبل تحريم الرهان، من كلام بعض الرواة ليس من كلام أبي بكر ولا النبي، ﷺ.

وقد اختلف أهل العلم في إحكام هذا الحديث ونسخه على قولين، فادعت طائفة نسخه بنهي النبي، ﷺ، عن الغرر والقمار قالوا: ففي الحديث دلالة على ذلك، وهو قوله: وذلك قبل تحريم الرهان. قالوا: ويدل على نسخه ما رواه الإمام أحمد وأهل السنن من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله، ﷺ: «**لاسبق إلا في خف أو حافر أو نصل**» والسبق بفتح السين والباء، وهو الحظ الذي وقع عليه الرهان. وإلى هذا القول ذهب أصحاب مالك والشافعي وأحمد.

وادعت طائفة أنه محكم غير منسوخ، وأنه ليس مع مدعي نسخه حجة يتعين

المصير إليها. قالوا: والرهان لم يحرم جملة فإن النبي ﷺ راهن في تسبيق الخيل كما تقدم، وإنما الرهان المحرم الرهان على الباطل الذي لا منفعة فيه في الدين. وأما الرهان على ما فيه ظهور أعلام الإسلام وأدلته وبراهينه كما راهن عليه الصديق فهو من أحق الحق، وهو أولى بالجواز من الرهان على النضال. وسباق الخيل والإبل أدنى من هذا في الدين وأقوى لأن الدين قام بالحجة، والبرهان، وبالسيف. والقصد الأول إقامته بالحجة والسيف منفذ.

قالوا: وإذا كان الشارع قد أباح الرهان في الرمي، والمسابقة بالخيل والإبل لما في ذلك من التحريض على تعلم الفروسية وإعداد القوة للجهاد فجواز ذلك في المسابقة والمبادرة إلى العلم والحجة الذي به تفتح القلوب ويعز الإسلام وتظهر أعلامه أولى وأحرى. وإلى هذا ذهب أصحاب أبي حنيفة، وشيخ الإسلام ابن تيمية. قال أرباب هذا القول: والقمار المحرم هو أكل المال بالباطل، فكيف يلحق به أكله بالحق. قالوا: والصديق لم يقامر قط في جاهلية ولا إسلام، ولا أقر رسول الله ﷺ على قمار فضلاً عن أن يأذن فيه وهذا تقرير قول الفريقين(١)...

...(٢)**ذكر** سماع الجنة وغِناء الحور العين وما فيه من الطرب واللذة. قال تعالى: ﴿**ويَوم تَقوم الساعة يومئِذ يتفرقون * فأما الذين آمنوا وعمِلوا الصَّالحات فهم في روضَة يُحبرون**﴾ [الروم: ١٤، ١٥]. قال محمد بن جرير حدثني محمد بن موسى الحرشي قال حدثنا عامر بن نساف قال سألت يحيى بن أبي كثير عن قوله عز وجل: ﴿**فهم فِي روضَة يحْبرون**﴾ قال الحبرة اللذة والسماع، حدثنا عبدالله بن محمد الفريابي حدثنا ضمرة بن ربيعة عن الأوزاعي عن يحيى بن أبي كثير في قوله يحبرون قال السماع في الجنة.

ولايخالف هذا قول ابن عباس يكرمون، وقال مجاهد وقتادة: ينعمون، فلذة الأذن بالسماع من الحبرة والنعيم. وقال الترمذي حدثنا هناد وأحمد بن منيع قالا حدثنا عبدالرحمن بن إسحاق عن النعمان بن سعد عن علي قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن في الجنة لمجتمعًا للحور العين يرفعن بأصوات لم تسمع الخلائق بمثلها**

(١) تقدم في سورة المائدة بحث يحسن الرجوع إليه لزيادة الفائدة (ج).

(٢) ١٧٩ حادي الأرواح.

يقلن: نحن الخالدات فلا نبيد، ونحن الناعمات فلا نبأس، ونحن الراضيات فلا نسخط، طوبى لمن كان لنا وكنا له»...

...[(١)] **فصل** فإن أردت سماع غنائهن فاسمع خبره الآن. ففي معجم الطبراني من حديث ابن عمر، رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ أزواج أهل الجَنَّة ليغنين أزواجَهن بأحسن أصواتٍ ما سمِعها أحدٌ قطُّ إن مما يغَنين به: نحن الخيرات الحسان، أزواج قوم كِرام، ينظرونَ بقُرة أعْيان، وإنَّ مما يُغنين به: نحن الخَالدات فلا نَمُتنه، نحن الآمنات فلا نخفْنه، نحن المُقيمات فلا نظْعَنَّه**» وقد قيل في قوله تعالى: ﴿**فهُم فِي روضَةٍ يُحبَرون**﴾ إنه السماع الطيب ولا ريب أنه من الحَبرة.

...[(٢)] **فصل** فمنَ المحبة النافعة: محبة الزوجة وما ملكت يمينُ الرجل، فإنها مُعينة على ما شرع الله سبحانه له من النكاح وملك اليمين، من إعفاف الرجل نفسه وأهله، فلا تطمح نفسه إلى سواها من الحرام، ويُعِفُّها، فلا تطمح نفسها إلى غيره، وكلما كانت المحبة بين الزوجين أتمَّ وأقوى كان هذا المقصود أتم وأكمل، قال تعالى: ﴿**هُو الذين خلقكم مِن نفس واحدة وجعل منها زوجَها ليسكُن إليها**﴾ [الأعراف: ١٨٩].

...[(٣)] **وأما** محبة النسوان فلا لوم على المحب فيها بل هي من كماله، وقد من الله سبحانه بها على عباده فقال: ﴿**وَمِن آياته أن خَلق لَكم من أنفسِكم أزواجًا لِتسكُنوا إليها وجَعل بَينَكم مودة ورحمة**﴾ [الروم: ٢١] الآية فجعل المرأة سكنًا للرجل يسكن إليها قلبه، وجعل بينهما خالص الحب وهو المودة المقترنة بالرحمة. وقد قال تعالى، عقيب ذكره ما أحل لنا من النساء وما حرم منهن ﴿**يُريد الله لِيُبين لَكم ويَهديكم سُنن الذين مِن قبلكم وَيَتوب عليكم والله عليمٌ حَكِيمٌ ـ إلى قوله ـ وخُلق الإنسان ضَعيفًا**﴾ [النساء: ٢٦ ـ ٢٨]. وذكر سفيان الثوري في تفسيره عن ابن طاوس عن أبيه: كان إذا نظر إلى النساء لم يصبر عنهن.

...[(٤)] **قال** تعالى: ﴿**ومن آياته أن خلقكم من تُراب ثم إذا أنتم بشر**

---

(١) ٢٦٥ الروضة.
(٢) ١٣٩ الإغاثة جـ٢.
(٣) ٣٢٤ الجواب.
(٤) ١٨٦ المفتاح جـ١.

تنتشرون * ومن آياته أن خَلق لَكم من أنفُسكم أزواجًا لِتسكُنوا إليها وجَعل بينَكم مودة وَرَحْمَةً إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون ـ إلى قوله ـ ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره﴾ [الروم: ٢٠، ٢٥]. ونوع سبحانه الآيات في هذه السورة فجعل خلق السموات والأرض واختلاف لغات الأمم وألوانهم آيات للعالمين كلهم لاشتراكهم في العلم بذلك وظهوره ووضوح دلالته.

وجعل خلق الأزواج التي تسكن إليها الرجال وإلقاء المودة والرحمة بينهم آيات لقوم يتفكرون، فإن سكون الرجل إلى امرأته وما يكون بينهما من المودة والتعاطف والتراحم أمر باطن مشهود بعين الفكرة والبصيرة. فمتى نظر بهذه العين إلى الحكمة والرحمة والقدرة التي صدر عنها ذلك دله فكره على أنه الإله الحق المبين الذي أقرت الفطر بربوبيته وإلاهيته وحكمته ورحمته.

وجعل المنام بالليل والنهار للتصرف في المعاش وابتغاء فضله آيات لقوم يسمعون، وهو سمع الفهم وتدبر هذه الآيات وارتباطها بما جعلت آية له مما أخبرت به الرسل من حياة العباد بعد موتهم وقيامهم من قبورهم كما أحياهم سبحانه بعد موتهم وأقامهم للتصرف في معاشهم. فهذه الآية إنما ينتفع بها من سمع ما جاءت به الرسل وأصغى إليه واستدل بهذه الآية عليه.

وجعل إراءتهم البرق وإنزال الماء من السماء وإحياء الأرض به آيات لقوم يعقلون؛ فإن هذه أمور مرئية بالأبصار مشاهدة بالحس، فإذا نظر فيها ببصر قلبه وهو عقله استدل بها على وجود الرب تعالى وقدرته وعلمه ورحمته وحكمته، وإمكان ما أخبر به من حياة الخلائق بعد موتهم كما أحيا هذه الأرض بعد موتها. وهذه أمور لا تدرك إلا ببصر القلب وهو العقل، فإن الحس دل على الآية، والعقل دل على ما جعلت له، آية فذكر سبحانه الآية المشهودة بالبصر والمدلول عليه المشهود بالعقل فقال: ﴿ومن آياته يُريكم البَرق خوفًا وطَمَعًا ويُنزل من السماء ماءً فيحيي به الأرض بعد موتِها إن في ذلك لآيات لقوم ٍ يعقِلون﴾ [الروم: ٢٤] فتبارك الذي جعل كلامه حياة للقلوب وشفاء لما في الصدور. . .

. . .[1]**قال** تعالى: ﴿ضرب لَكم مثلاً من أنفسِكم هل لكم من ما مَلكت

---

(١) ١٨٦ الجواب.

أيمانكم من شُركاء فيما رزقناكم﴾ [الروم: ٢٨]. أي إذا كان أحدكم يأنف أن يكون مملوكه شريكًا له في رزقه، فكيف تجعلون لي من عبيدي شركاء فيما أنا به متفرد وهو الآلهية التي لا تنبغي لغيري ولا تصح لسواي، فمن زعم ذلك فما قدرني حق قدري، ولا عظمني حق عظمتي، ولا أفردني بما أنا متفرد به وحدي دون خلقي، فما قدر الله حق قدره من عبد معه غيره كما قال تعالى: **﴿يا أيّها الناس ضُرب مثَل فاستَمِعوا لَه إن الذين تَدعون مِن دون الله لَن يخلقوا ذُبابًا ولو اجتمعوا له - إلى قوله - لقوي عزيز﴾** [الحج: ٧٣ - ٧٤] فما قدر الله حق قدره من عبد معه غيره ممن لا يقدر على خلق أضعف حيوان وأصغره، وإن يسلبه الذباب شيئًا مما عليه لم يقدر على إنقاذه منه قال تعالى: **﴿ومَا قَدرُوا الله حق قدره والأرضُ جَميعًا قبضَته يومَ القيامَة والسماوات مطوِيات بيمينه سُبحانه وتَعالى عما يُشرِكون﴾** [الزمر: ٦٧]. فما قدر من هذا شأنه وعظمته حق قدره من أشرك معه في عبادته من ليس له شيء من ذلك البته، بل هو أعجز شيء وأضعفه، فما قدر القوي العزيز حق قدره من أشرك معه الضعيف الذليل.

. . .[1]**قال** الله تعالى حاكيًا عنهم: **﴿وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير﴾** [الملك: ١٠] وكم يقول لهم في كتابه: **﴿أفلا تعقلون﴾ ﴿لعلكم تعقلون﴾** فينبههم على ما في عقولهم وفطرهم من الحسن والقبح ويحتج عليهم بها ويخبر أنه أعطاهموها لينتفعوا بها، ويميزوا بها بين الحسن والقبيح والحق والباطل.

وكم في القرآن من مَثل عقلي وحسيّ ينبه به العقول على حسن ما أمر به، وقبح ما نهى عنه. فلو لم يكن في نفسه كذلك لم يكن لضرب الأمثال للعقول معنى، ولكان إثبات ذلك بمجرد الأمر والنهي، دون ضرب الأمثال، وتبيين جهة القبح المشهودة بالحس والعقل.

والقرآن مملوء بهذا لمن تدبره. كقوله تعالى: **﴿ضَرب لَكم مَثلاً من أنفُسكم هل لكم من ماملكت أيمانكم من شُركاء فيما رزقناكُم فأنتم فيه سواءٌ تخافونهم كخِيفتكم أنفسكم كذلك نفصل الآيات لقوم يعقلون﴾** [الروم: ٢٨]. يحتج سبحانه عليهم

---

(٢) ٢٣٩ المدارج جـ١.

بما في عقولهم من قبح كون مملوك أحدهم شريكًا له. فإذا كان أحدكم يستقبح أن يكون مملوكه شريكه، ولا يرضى بذلك. فكيف تجعلون لي من عبيدي شركاء تعبدونهم كعبادتي؟ وهذا يبين أن قبح عبادة غير الله تعالى مستقر في العقول والفطر. والسمع نَبَّه العقول وأرشدها إلى معرفة ما أودع فيها من قبح ذلك. . .

(١)**قوله** تعالى: **﴿ضَرَبَ لَكم مثلا مِن أنفسكم هل لَكم من ما مَلكت أيمانُكم من شُركاء فيما رزقناكُم فأنتم فيه سواءٌ تَخافونهم كخِيفتكم أنفُسكم كذلك نفصل الآيات لِقوم يعقلون﴾** [الروم: ٢٨] وهذا دليل قياس احْتَجَّ الله سبحانه به على المشركين حيث جعلوا له من عبيده وملكه شركاءَ، فأقام عليهم حجة يعرفون صحتها من نفوسهم، لا يحتاجون فيها إلى غيرهم، ومِن أبلغ الحِجَاج أن يأخذ الإنسان من نفسه، ويحتج عليه بما هو في نفسه مقرر عندها، معلوم لها، فقال: هل لكم مما ملكت أيمانكم من عبيدكم وإمائكم شركاء في المال والأهل؟ أي هل يشارككم عبيدُكم في أموالكم وأهليكم فأنتم وهم في ذلك سواء، تخافون أن يقاسموكم أموالكم ويشاطروكم إياها، ويستأثرون ببعضها عليكم، كما يخاف الشريك شريكه. وقال ابن عباس: تخافونهم أن يرثوكم كما يرثُ بعضكم بعضًا، والمعنى هل يرضى أحد منكم أن يكون عبده شريكه في ماله وأهله حتى يساويه في التصرف في ذلك فهو يخاف أن ينفرد في ماله بأمر يتصرف فيه كما يخاف غيره من الشركاء والأحرار؟ فإذا لم ترضوا ذلك لأنفسكم فلم عَدَلتُم بي من خلقي مَن هو مملوك لي؟ فإن كان هذا الحكم باطلاً في فِطركم وعقولكم ـ مع أنه جائز عليكم ممكن في حقكم؛ إذ ليس عبيدُكم ملكًا لكم حقيقة، وإنما هم إخوانكم جَعَلهم الله تحت أيديكم، وأنتم وهم عبيد لي ـ فكيف تستجيزون مثلَ هذا الحكم في حقي، مع أن مَن جعلتموهم لي شركاء عبيدي وملكي وخلقي؟ فهكذا يكون تفصيل الآيات لأولي العقول.

---

(١) ١٥٩ الإعلام جـ١.

(١)الباب الموفي ثلاثين

في ذكر الفطرة الأولى ومعناها واختلاف الناس في المراد بها وأنها لا تنافي القضاء والقدر بالشقاوة والضلال

قال تعالى: ﴿فأقِم وجْهَك للدين حنيفًا فِطرت الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون * مُنيبين إليه واتَّقوه وأقيموا الصلاة ولا تكُونوا مِن المُشرِكين﴾ [الروم: ٣٠ - ٣١] وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء حتى تكونوا أنتم تجدعونها» ثم قرأ أبوهريرة: ﴿فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله﴾.

وفي لفظ آخر: «ما من مولود إلا يولد على هذه الملة». وقد اختلف في معنى هذه الفطرة والمراد بها، فقال القاضي أبو يعلى: في معنى الفطرة هاهنا روايتان عن أحمد، إحداهما: الإقرار بمعرفة الله تعالى وهو العهد الذي أخذه الله عليهم في أصلاب آبائهم حتى مسح ظهر آدم فأخرج من ذريته إلى يوم القيامة أمثال الذر وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى. فليس أحد إلا وهو يقر بأن له صانعًا ومدبرًا وإن سماه بغير اسمه. قال تعالى: ﴿ولئِن سألتهم من خلقهم ليقولُن الله﴾ [الزخرف: ٨٧] فكل مولود يولد على ذلك الإقرار الأول، قال: وليس الفطرة هنا الإسلام لوجهين: أحدهما: أن معنى الفطرة ابتداء الخلقة، ومنه قوله تعالى: ﴿فاطِر السَّموات والأرضِ﴾ [فاطر: ١] أي مبتدئها، وإذا كانت الفطرة هي الابتداء وجب أن تكون تلك هي التي وقعت لأول الخليقة وجرت في فطرة المعقول وهو استخراجهم ذرية؛ لأن تلك حالة ابتدائهم؛ ولأنها لو كانت الفطرة هنا الإسلام لوجب إذا ولد بين أبوين كافرين أن لا يرثهما ولا يرثانه مادام طفلاً لأنه مسلم، واختلاف الدين يمنع الإرث، ولوجب أن لا يصح استرقاقه، ولا يحكم بإسلامه بإسلام أبيه لأنه مسلم. قال وهذا تأويل ابن قتيبة، وذكره ابن بطة في

(١) ٢٨٣ شفاء.

الإبانة، قال وليس كل من تثبت له المعرفة حكم بإسلامه كالبالغين من الكفار، فإن المعرفة حاصلة وليسوا بمسلمين، قال وقد أومأ أحمد إلى هذا التأويل في رواية الميموني فقال: الفطرة الأولى التي فطر الناس عليها. فقال له الميموني: الفطرة الدين: قال: نعم. قال القاضي: وأراد أحمد بالدين المعرفة التي ذكرناها(١). . .

. . .(٢)**وأما** احتجاج أحمد بقول أبي هريرة: اقرءوا إن شئتم ﴿**فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله**﴾ فهذه الآية فيها قولان: أحدهما أن معناها النهي كما تقدم عن ابن جرير أنه فسرها فقال: أي لا تبدلوا دين الله الذي فطر عليه عباده، وهذا قول غير واحد من المفسرين لم يذكروا غيره. والثاني ما قاله إسحاق وهو أنها خبر على ظاهرها، وأن خلق الله لا يبدله أحد. وظاهر اللفظ خبر فلا يجعل نهيًا بغير حجة، وهذا أصح. وحينئذ فيكون المراد أن ما جبلهم عليه من الفطرة لا يبدل، فلا يجبلون على غير الفطرة، لا يقع هذا أصلاً. والمعنى أن الخلق لا يتبدل فيخلقون على غير الفطرة، ولم يرد بذلك أن الفطرة لا تتغير بعد الخلق، بل نفس الحديث يبين أنها تتغير، ولهذا شبهها بالبهيمة التي تولد جمعاء ثم تجدع، ولا تولد بهيمة مخصية ولا مجدوعة، وقد قال تعالى عن الشيطان: ﴿**ولآمرنهم فليغيرن خلق الله**﴾ [النساء: ١١٩]. فالله أقدر الخلق على أن يغيروا ما خلقهم عليه بقدرته ومشيئته، وإنما تبديل الخلق بأن يخلقوا على غير تلك الفطرة، فهذا لا يقدر عليه إلا الله والله لا يفعله. كما قال: ﴿**لا تبديل لخلق الله**﴾ ولم يقل: لا تغيير؛ فإن تبديل الشيء يكون بذهابه وحصول بدله، ولكن إذا غير بعد وجوده لم يكن الخلق الموجود عند الولادة.

وأما قول القائل لا تبديل للخلقة التي جبل عليها بنو آدم كلهم من كفر وإيمان، فإن عني به ما سبق به القدر من الكفر والإيمان لا يقع خلافه فهذا حق، ولكن ذلك لا يقتضي أن تبديل الكفر بالإيمان وبالعكس ممتنع، ولا أنه غير مقدور، بل العبد قادر على ما أمره الله به من الإيمان، وعلى ترك ما نهاه عنه من الكفر،

---

(١) تعرض المؤلف للخلاف مطولاً هنا وطرق البحث بعضها في أحكام أهل الذمة. ونص كلامه: وقد استوفيناها في كتابنا في أحكام أهل الملل بأدلتها. إلخ والتسمية غير مطابقة لما ذكرنا من اسم الكتاب (ج).

(٢) ٢٩٤ شفاء.

وعلى أن يبدل حسناته بالسيئات، وسيئاته بالحسنات، كما قال الله: ﴿**إلّا من ظلم ثم بدَّل حسنًا بعد سُوء**﴾ [النمل: ١١].

وهذا التبديل كله بقضاء الله وقدره. ، وهذا بخلاف مافطروا عليه حين الولادة، فإن ذلك خلق الله الذي لا يقدر على تبديله غيره وهو سبحانه لا يبدله، بخلاف تبديل الكفر بالإيمان وبالعكس فإنه يبدله كثيرًا، والعبد قادر على تبديله بإقدار الرب له على ذلك.

ومما يوضح ذلك قوله تعالى: ﴿**فأقم وجهك للدين حنيفًا فِطرت الله التي فطر الناس عليها لا تبدِيل لخلقِ الله**﴾ [الروم: ٣٠] فهذه فطرة محمودة أمر الله بها نبيه فكيف تنقسم إلى كفر وإيمان مع أمر الله تعالى بها. وقد تقدم تفسير السلف ﴿**لا تبديل لخلق الله**﴾ أي لدين الله، أو النهي عن الخصا ونحوه. ولم يقل أحد منهم أن المعنى لا تبديل لأحوال العباد من كفر إلى إيمان وعكسه، فإن تبديل ذلك موجود، ومهما وقع كان هو الذي سبق به القدر. والرب تعالى عالم بما سيكون لا يقع خلاف معلومه، فإذا وقع التبديل كان هو الذي علمه.

... [(١)] **فصل** وأما تفسير قول النبي ﷺ: «**فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه**» أنه أراد به مجرد الإلحاق في أحكام الدنيا دون أن يكون أراد أنهما يغيران الفطرة فهذا خلاف ما يدل عليه الحديث؛ فإنه شبه تكفير الأطفال بجدع البهائم تشبيهًا للتغيير بالتغيير. وأيضًا فإنه ذكر هذا الحديث لما قتل أولاد المشركين، فنهاهم عن قتلهم وقال: «**أليس خياركم أولاد المشركين؟ كل مولود يولد على الفطرة**»، فلو أراد أنه تابع لأبويه في الدنيا لكان هذا حجة لهم يقولون هم كفار كآبائهم. وكون الصغير يتبع أبواه في أحكام الدنيا هو لضرورة بقائه في الدنيا؛ فإنه لابد له من مرب يربيه، وإنما يربيه أبواه، فكان تابعًا لهما ضرورة. ولهذا من سبى منفردًا عنهما صار تابعًا لسابيه عند جمهور العلماء كأبي حنيفة، والشافعي، وأحمد، والأوزاعي، وغيرهم؛ لكونه هو الذي يربيه. وإذا سبى منفردًا عن أحدهما أو معهما ففيه نزاع بين العلماء، واحتجاج الفقهاء كأحمد وغيره بهذا الحديث على أنه

---

(١) ٢٩٦ شفاء

متى سبي منفردًا عن أبويه يصير مسلمًا إذ يستلزم أن يكون المراد بتكفير الأبوين له مجرد لحاقه لهما في الدين.

ولكن وجه الحجة أنه إذا ولد ولد على الملة فإنما ينقله عنه الأبوان اللذان يغيرانه عن الفطرة، فمتى سباه المسلمون منفردًا عنهما لم يكن هناك من يغير دينه، وهو مولود على الملة الحنيفية، فيصير مسلمًا بالمقتضى السالم عن المعارض. ولو كان الأبوان يجعلانه كافرًا في نفس الأمر بدون تعليم وتلقين لكان الصبي المسبي بمنزلة البالغ الكافر، ومعلوم أن البالغ الكافر إذا سباه المسلمون لم يصر مسلمًا، لأنه صار كافرًا حقيقة. فلو كان الصبي التابع لأبويه كافرًا حقيقة لم ينتقل عن الكفر بالسباء، فعلم أنه كان يجرى عليه حكم الكفر في الدنيا تبعًا لأبويه، لا أنه صار كافرًا في نفس الأمر. تبين ذلك أنه لو سباه كفار ولم يكن معه أبواه لم يصر مسلمًا فهو هنا كافر في حكم الدنيا، وإن لم يكن أبواه هوداه ونصراه، فعلم أن المراد بالحديث أن الأبوين يلقناه الكفر ويعلمانه إياه. وذكر النبي ﷺ الأبوين لأنهما الأصل العام الغالب في تربية الأطفال؛ فإن كل طفل فلابد له من أبوين، وهما اللذان يربيانه مع بقائهما وقدرتهما. ومما يبين ذلك قوله في الحديث الآخر: «**كل مولود يولد على الفطرة حتى يعرب عنه لسانه فإما شاكرًا وإما كفورًا**» فجعله على الفطرة إلى أن يعقل ويميز، فحينئذ يتبين له أحد الأمرين، ولو كان كافراً في الباطن بكفر الأبوين لكان ذلك من حين يولد قبل أن يعرب عنه لسانه. وكذلك قوله في الحديث الصحيح: «**إني خلقت عبادي حنفاء فاجتالتهم الشياطين وحرمت عليهم ما أحللت لهم وأمرتهم أن يشركوا بي مالم أنزل به سلطانًا**» صريح في أنهم خلقوا على الحنيفية، وأن الشياطين اجتالتهم وحرمت عليهم الحلال، وأمرتهم بالشرك. فلو كان الطفل يصير كافرًا في نفس الأمر من حين يولد لكونه يتبع أبويه في الدين قبل أن يعلمه أحد الكفر ويلقنه إياه لم تكن الشياطين هم الذين غيروهم عن الحنيفية وأمروهم بالشرك. . .

. . .(١)**قال تعالى: ﴿فَأَقِم وَجهَك للدّين حَنِيفًا فِطرت الله التي فطر الناسَ عليها﴾** [الروم: ٣٠]. فبين سبحانه أن إقامة الوجه وهو إخلاص القصد، وبذل

(١) ٨٧ الروح.

الوسع لدينه، المتضمن محبته وعبادته، حنيفًا مقبلاً عليه، معرضًا عما سواه، هو فطرته التي فطر عليها عباده. فلو خلوا ودواعي فطرهم لما رغبوا عن ذلك ولا اختاروا سواه، ولكن غيرت الفطر وأفسدت كما قال النبي ﷺ «**ما من مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء حتى تكونوا أنتم تجدعونها** ثم يقول أبو هريرة: اقرأوا إن شئتم ﴿**فِطرت الله التي فَطر الناس عليها لا تَبدِيل لِخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر النـاسِ لا يعْلمون * مُنيبين إليه واتقُوه**﴾» [الروم: ٣٠، ٣١]. منيبين نصب على الحال من المفعول أي فطرهم منيبين إليه، والإنابة إليه تتضمن الإقبال عليه بمحبته وحده والإعراض عما سواه.

وفي صحيح مسلم عن عياض بن حمار عن النبي ﷺ قال: «**إن الله أمرني أن أعلمكم ما جهلتم مما علمني في مقامي هذا أنه قال كل مال نحلته عبدًا فهو له حلال، وإني خلقت عبادي حنفاء فأتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وأمرتهم أن يشركوا بي مالم أنـزل به سلطانًـا، وحرمت عليهم ما أحللت لهم**». فأخبر سبحانه أنه إنما فطر عباده على الحنيفية المتضمنة لكمال حبه والخضوع له والذل له وكمال طاعته وحده دون غيره، وهذا من الحق الذي خلقت له، وبه قامت السموات والأرض وما بينهما، وعليه قام العالم ولأجله خلقت الجنة والنار، ولأجله أرسل رسله وأنزل كتبه، ولأجله أهلك القرون التي خرجت عنه وآثرت غيره، فكونه سبحانه أهلاً أن يعبد ويحب ويحمد ويثني عليه أمر ثابت له لذاته فلا يكون إلا كذلك . . .

. . .[1]**فصل** قد علمت أن من نزل في منزل «التوبة» وقام في مقامها نزل في جميع منـازل الإسـلام. فإن «التوبة» الكاملة متضمنة لها، وهي مندرجة فيها. ولكن لابد من إفرادها بالذكر والتفصيل، تبيينًا لحقائقها وخواصها وشروطها.

فإذا استقرت قدمه في منزل «التوبة» نزل بعده منزل «الإنابة»، وقد أمر الله تعالى بها في كتابه، وأثنى على خليله بها، فقال: ﴿**وأنِيبوا إلى ربِكم**﴾ [الزمر: ٥٤]

---

(٢) ٤٣٣ المدارج جـ١.

وقال: ﴿إن إبراهيم لحليمٌ أواه منيب﴾ [هود: ٧٥]. وأخبر أن آياته إنما يتبصر بها ويتذكر أهل الإنابة. فقال: ﴿أفلم ينظروا إلى السماء فوقهُم كَيف بنيناها وزَيناها - إلى أن قال - تبصرة وذِكرى لِكُل عبدٍ مُنيب﴾ [ق: ٦ - ٨]. وقال تعالى: ﴿هُو الذي يُريكم آياته ويُنزل لكم من السماء رزْقًا وما يتذكر إلا من يُنيب﴾ [غافر: ١٣] وقال تعالى: ﴿مُنيبين إليه واتقوه وأقيموا الصلاة﴾ [الروم: ٣١].

«**فمنيبين**» منصوب على الحال من الضمير المستكن في قوله: ﴿فأقم وجهك﴾؛ لأن هذا الخطاب له ولأمته، أي أقم وجهك أنت وأمتك منيبين إليه. نظيره قوله: ﴿يا أيُّها النبي إذا طَلقتم النساء﴾ [الطلاق: ١] ويجوز أن يكون حالاً من المفعول في قوله: ﴿فطر الناس عليها﴾ أي فطرهم منيبين إليه. فلو خلُّوا وفِطرهم لما عدلت عن الإنابة إليه، ولكنها تتحوّل وتتغير عما فُطرت عليه، كما قال ﷺ: «**ما من مولود إلا يولد على الفطرة** - وفي رواية: **على الملة - حتى يعرب عنه لسانه**» وقال عن نبيه داود: ﴿فاستغفر ربه وخر راكِعًا وأنَاب﴾ [ص: ٢٤] وأخبر أن ثوابه وجنته لأهل الخشية والإنابة. فقال: ﴿وأزْلفت الجنة للمتقين غير بعيد هذا ما توعدون لكل أواب حفيظ مَن خَشي الرحمن بالغيب وجاء بقلب مُنيب ادخلوها بسلام﴾ [ق: ٣١- ٣٤]. وأخبر سبحانه أن البشرى منه إنما هي لأهل الإنابة، فقال: ﴿والذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها وأنابُوا إلى الله لهم البُشرى﴾ [الزمر: ١٧].

والانابة إنابتان: إنابة لربوبيته، وهي إنابة المخلوقات كلها، يشترك فيها المؤمن والكافر، والبر والفاجر. قال الله تعالى: ﴿وإذا مَسَّ الناس ضُرٌّ دعوا ربهم مُنيبين إليه﴾ [الروم: ٣٣]. فهذا عام في حق كل داع أصابه ضر، كما هو الواقع. وهذه «الإنابة» لا تستلزم الإسلام، بل تجامع الشرك والكفر، كما قال تعالى في حق هؤلاء: ﴿ثُم إذا أذاقهم منه رحمة إذا فريقٌ منهم بربهم يُشركُون ليكفروا بما آتيناهم﴾ [الروم: ٣٣، ٣٤] فهذا حالهم بعد إنابتهم.

والانابة الثانية إنابة أوليائه، وهي إنابة لإلهيته، إنابة عبودية ومحبة. وهي تتضمن أربعة أمور: محبته، والخضوع له، والإقبال عليه، والإعراض عما سواه. فلا يستحق اسم «المنيب» إلا من اجتمعت فيه هذه الأربع. وتفسير السلف لهذه اللفظة يدور على ذلك.

وفي اللفظة معنى الإسراع والرجوع والتقدم. و«المنيب» إلى الله: المسرع إلى مرضاته، الراجع إليه كل وقت، المتقدم إلى محابه. قال صاحب المنازل: «الإنابة في اللغة: الرجوع وهي ههنا الرجوع إلى الحق. وهي ثلاثة أشياء: الرجوع إلى الحق إصلاحًا، كما رجع إليه اعتذارًا. والرجوع إليه وفاء، كما رجع إليه عهدًا. والرجوع إليه حالاً، كما رجعت إليه إجابة».

لما كان التائب قد رجع إلى الله بالاعتذار والإقلاع عن معصيته، كان من تتمة ذلك: رجوعه إليه بالاجتهاد، والنصح في طاعته. كما قال: ﴿**إلا من تاب وآمن وعَمِل عَملاً صالحًا**﴾ [الفرقان: ٧٠] وقال: ﴿**إلا الذين تابوا وأصلحوا**﴾ [البقرة: ١٦٠] فلا تنفع توبة وبطالة. فلابد من توبة وعمل صالح: تركٍ لما يكره، وفعل لما يحب، تخل عن معصيته، وتحل بطاعته.

وكذلك الرجوع إليه بالوفاء بعهده، كما رجعت إليه عند أخذ العهد عليك. فرجعت إليه بالدخول تحت عهده أولاً، فعليك بالرجوع بالوفاء بما عاهدته عليه ثانيًا. والدين كله: عهد ووفاء. فإن الله أخذ عهده على جميع المكلفين بطاعته: فأخذ عهده على أنبيائه ورسله على لسان ملائكته، أو منه إلى الرسول بلا واسطة كما كَلَّم موسى. وأخذ عهده على الأمم بواسطة الرسل. وأخذ عهده على الجهال بواسطة العلماء. فأخذ عهده على هؤلاء بالتعليم، وعلى هؤلاء بالتعلم. ومدح الموفين بعهده، وأخبر بما لهم عنده من الأجر، فقال: ﴿**ومَن أوفَى بما عاهد عَليه الله فسيؤتيه أجْرًا عظِيمًا**﴾ [الفتح: ١٠] وقال: ﴿**وأوفُوا بالعهد إن العهد كان مسئولاً**﴾ [الإسراء: ٣٤] وقال: ﴿**وأوْفوا بعَهد الله إذا عاهدتم**﴾ [النحل: ٩١] وقال: ﴿**والمُوفون بعهْدهِم إذا عَاهدوا**﴾ [البقرة: ١٧٧].

وهذا يتناول عهودهم مع الله بالوفاء له بالإخلاص والإيمان والطاعة، وعهودهم مع الخلق.

وأخبر النبي ﷺ: أن من علامات النفاق «الغدر بعد العهد». فما أناب إلى الله من خان عهده وغدر به. كما أنه لم يُنِب إليه من لم يدخل تحت عهده. فالإنابة لا تتحقق إلا بالتزام العهد والوفاء به.

وقوله: «والرجوع إليه حالاً كما رجعت إليه إجابة» أي هو سبحانه قد دعاك

فأجبته بلبيك وسعديك قولاً. فلابد من الإجابة حالاً تُصَدِّق به المقال؛ فإن الأحوال تصدق الأقوال أو تكذبها. وكل قول فلصدقه وكذبه شاهد من حال قائله. فكما رجعت إليه إجابة بالمقال، فارجع إليه إجابة بالحال. . .

. . .[1]**اعلم**: أن الله سبحانه أتقن كل شيء صنعه، وأحسن كل شيء خلقه. فهو عند مبدأ خلقه بريء من الآفات والعلل، تام المنفعة لما هيء وخلق له، وإنما تعرض له الآفات بعد ذلك بأمور أخر من مجاورة أو امتزاج أو اختلاط، أو أسباب أخر تقتضي فساده. فلو ترك على خلقته الأصلية من غير تعلق أسباب الفساد به لم يفسد. ومن له معرفة بأحوال العالم ومبدئه يعرف أن جميع الفساد في جَوِّه ونباته وحيوانه وأحوال أهله: حادث بعد خلقه، بأسباب اقتضت حدوثه، ولم تزل أعمال بني آدم ومخالفتهم للرسل تحدث لهم من الفساد العام والخاص ما يجلب عليهم من الآلام والأمراض والأسقام، والطواعين والقحوط والجدوب، وسلب بركات الأرض وثمارها ونباتها، وسلب منافعها أو نقصانها: أموراً متتابعة، يتلو بعضها بعضاً. فإن لم يتسع علمك لهذا فاكتف بقوله تعالى: ﴿**ظَهر الفَساد فِي البر والبحر بما كسبت أيدِي الناس**﴾ [الروم: ٤١] ونَزِّل هذه الآية على أحوال العالم، وطابق بين الواقع وبينها. وأنت ترى كيف تحدث الآفات والعلل كل وقت في الثمار والزروع، والحيوان، وكيف يحدث من تلك الآفات آفات أخر متلازمة، بعضها آخذ برقاب بعض، وكلما أحدث الناسُ ظلماً وفجوراً أحدث لهم ربهم تبارك وتعالى من الآفات والعلل في أغذيتهم وفواكههم، وأهويتهم ومياههم، وأبدانهم وخلقهم وصورهم، وأشكالهم وأخلاقهم، من النقص والآفات: ما هو من موجب أعمالهم وظلمهم وفجورهم. ولقد كانت الحبوب من الحنطة وغيرها أكبر مما هي اليوم، كما كانت البركة فيها أعظم. وقد روى الإمام أحمد بإسناده أنه وجد في خزائن بعض بني أمية صُرَّة فيها حنطة أمثال نوى التمر مكتوب عليها هذا كان ينبت أيام العدل. وهذه القصة ذكرها في مسنده على إثر حديث رواه. وأكثر هذه الأمراض والآفات العامة: بقية عذاب عذبت به الأمم السالفة، ثم بقيت منها بقية مُرصدة لمن بقيت

---

(١) ٣٨٥ الزاد جـ٣.

عليه بقية من أعمالهم، حكمًا قسطًا وقضاء عدلاً. وقد أشار النبي ﷺ إلى هذا بقوله في الطاعون «إنه بقية رجز أو عذاب أرسل على بني إسرائيل».

وكذلك سلط الله سبحانه وتعالى الريح على قوم سبع ليال وثمانية أيام. ثم أبقى في العالم منها بقية في تلك الأيام، وفي نظيرها عظة وعبرة. وقد جعل الله سبحانه أعمال البر والفاجر مقتضيات لآثارها في هذا العالم اقتضاء لابد منه. فجعل منع الإحسان والزكاة والصدقة سببًا لمنع الغيث من السماء، والقحط والجدب. وجعل ظلم المساكين والبخس في المكاييل والموازين، وتعدي القوى على الضعيف سببًا لجور الملوك والولاة، الذين لا يرحمون إن استُرحموا، ولا يعطفون إن استُعْطفوا، وهم في الحقيقة أعمال الرعايا، ظهرت في صور ولاتهم[1]. فإن الله سبحانه بحكمته وعدله يظهر للناس أعمالهم في قوالب وصور تناسبها: فتارة بقحط وجدب، وتارة بعدو، وتارة بولاة جائرين، وتارة بأمراض عامة، وتارة بهموم وآلام وغموم تحضرها نفوسهم لا ينفكون منها، وتارة بمنع بركات السماء والأرض عنهم، وتارة بتسلط الشياطين عليهم تؤزهم إلى أسباب العذاب أزًّا؛ لتحق عليهم الكلمة، وليصير كل منهم إلى ما خلق له.

والعاقل يسير ببصيرته بين أقطار العالم فيشاهده، وينظر مواقع عدل الله وحكمته. وحينئذ يتبين له: أن الرسل وأتباعهم خاصة على سبيل النجاة، وسائر الخلق على سبيل الهلاك سائرون، وإلى دار البوار صائرون، والله بالغ أمره، لا معقب لحكمه، ولا راد لأمره، وبالله التوفيق.

. . . [2]**وقوله تعالى: ﴿ولا تُفسِدوا في الأرضِ بعد إصلاحِها﴾** [الأعراف: ٥٦]

قال أكثر المفسرين: لا تفسدوا فيها بالمعاصي والدعاء إلى غير طاعة الله بعد إصلاح الله إياها ببعث الرسل وبيان الشريعة والدعاء إلى طاعة الله، فإن عبادة غير الله والدعوة إلى غيره، والشرك به هو أعظم فساد في الأرض، بل فساد الأرض في الحقيقة إنما هو بالشرك به ومخالفة أمره. قال تعالى: **﴿ظَهر الفَساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس﴾**. وقال عطية في الآية: ولا تعصوا في الأرض فيمسك الله

---

(١) تقدم في أول سورة القصص ما هو أبسط من هنا نقلاً عن الشفاء (ج).　　(٢) ١٤ البدائع جـ٣.

المطر ويهلك الحرث بمعاصيكم، وقال غير واحد من السلف: إذا قحط المطر فإن الدواب تلعن عصاة بني آدم وتقول: اللهم العنهم فبسببهم أجدبت الأرض وقحط المطر. وبالجملة فالشرك والدعوة إلى غير الله، وإقامة معبود غيره. ومطاع متبع غير رسول الله ﷺ هو أعظم الفساد في الأرض، ولا صلاح لها ولا لأهلها إلا أن يكون الله وحده هو المعبود والدعوة له لا لغيره، والطاعة والاتباع لرسوله ليس إلا، وغيره إنما تجب طاعته إذا أمر بطاعة الرسول، فإذا أمر بمعصيته وخلاف شريعته فلا سمع له ولا طاعة؛ فإن الله أصلح الأرض برسوله ودينه، وبالأمر بتوحيده، ونهى عن إفسادها بالشرك به وبمخالفة رسوله.

ومن تدبر أحوال العالم وجد كل صلاح في الأرض فسببه توحيد الله وعبادته وطاعة رسوله، وكل شر في العالم وفتنة وبلاء وقحط وتسليط عدو وغير ذلك فسببه مخالفة رسوله والدعوة إلى غير الله ورسوله. ومن تدبر هذا حق التدبر وتأمل أحوال العالم منذ قام إلى الآن وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين وجد هذا الأمر كذلك في خاصة نفسه، وفي حق غيره، عمومًا وخصوصًا. ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

. . .[1]**فصل** ومن آثار الذنوب والمعاصي أنها تحدث في الأرض أنواعًا من الفساد في المياه والهواء والزرع والثمار والمساكن قال تعالى: **﴿ظَهر الفَساد في البر والبحر بما كسبت أيدِي الناسِ لِيُذيقَهم بَعض الذي عَمِلوا لعلهم يرجِعون﴾** [الروم: ٤١]. قال مجاهد: إذا ولي الظالم سعى بالظلم والفساد، فيحبس بذلك القطر، فيهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد. ثم قرأ **﴿ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون﴾** ثم قال: أما والله ما هو بحركم هذا ولكن كل قرية على ماء جار فهو بحر. وقال عكرمة: ظهر الفساد في البر والبحر، أما إني لا أقول لكم بحركم هذا، ولكن كل قرية على ماء. وقال قتادة: أما البر فأهل العمود[2]، وأما البحر فأهل القرى والريف. قلت: وقد سمى الله تعالى الماء العذب بحرًا فقال: **﴿وَمَا يستَوي**

---

(١) ٨٣ الجواب.

(٢) أي أهل الخيام التي يرفعونها على العمود.

البَحرانِ هذا عَذْبٌ فراتٌ سائغٌ شَرابُه وهذا مِلحٌ أجاجٌ﴾ [فاطر: ١٢] وليس في العالم بحر حلو واقفًا، وإنما هي الأنهار الجارية، والبحر المالح هو الساكن؛ فتسمي القرى التي على المياه الجارية باسم تلك المياه. وقال ابن زيد: **﴿ظَهر الفَسادُ في البَرِّ والبحر﴾** قال: الذنوب. قلت: أراد أن الذنب سبب الفساد الذي ظهر، وإن أراد أن الفساد الذي ظهر هو الذنوب نفسها فيكون قوله: **﴿ليذيقهم بعض الذي عملوا﴾** لام العاقبة والتعليل. أو على الأول فالمراد بالفساد النقص والشر والآلام التي يحدثها الله في الأرض بمعاصي العباد، فكلما أحدثوا ذنبًا أحدث الله لهم. كما قال بعض السلف كلما أحدثتم ذنبًا أحدث الله لكم من سلطانه عقوبة. والظاهر والله أعلم أن الفساد المراد به الذنوب وموجباتها، ويدل عليه قوله تعالى: **﴿ليُذيقهم بعضَ الذي عَمِلوا﴾** فهذا حالنا، وإنما أذاقنا الشيء اليسير من أعمالنا، فلو أذاقنا كل أعمالنا لما ترك على ظهرها من دابة. ومن تأثير معاصي الله في الأرض ما يحل بها من الخسف والزلازل ويمحق بركتها. وقد مر رسول الله ﷺ على ديار ثمود فمنعهم من دخول ديارهم إلا وهم باكون، ومن شرب مياههم، ومن الاستسقاء من آبارهم، حتى أمر أن لا يعلف العجين الذي عجن بمياههم لنواضح الإبل[1] لتأثير شؤم المعصية في الماء. وكذلك شؤم تأثير الذنوب في نقص الثمار وما ترى به من الآفات. وقد ذكر الإمام أحمد في مسنده في ضمن حديث قال: «وجدت في خزائن بعض بني أمية حنطة، الحبة بقدر نواة التمرة وهي في صرة مكتوب عليها: كان هذا ينبت في زمن العدل» وكثير من هذه الآفات أحدثها الله سبحانه وتعالى بما أحدث العباد من الذنوب.

وأخبرني جماعة من شيوخ الصحراء أنهم كانوا يعهدون الثمار أكبر مما هي الآن. وكثير من هذه الآفات التي تصيبها لم يكونوا يعرفونها وإنما حدثت من قرب. وأما تأثير الذنوب في الصور والخلق فقد روى الترمذي في جامعه عن النبي ﷺ أنه قال: **«خلق الله آدم وطوله في السماء ستون ذراعًا ولم يزل الخلق ينقص حتى الآن فإذا أراد الله أن يطهر الأرض من الظلمة والخونة والفجرة**[2] **يخرج عبدًا من عباده**

---

(١) النواضح: هي الإبل التي يستقي عليها.		(٢) جمع ظالم وخائن وفاجر.

من أهل بيت نبيه ﷺ فيملأ الأرض قسطًا كما ملئت جورًا ويقتل المسيح اليهود والنصارى، ويقيم الدين الذي بعث الله به رسوله، وتخرج الأرض بركاتها وتعود كما كانت حتى أن العصابة من الناس ليأكلون الرمانة ويستظلون بقحفها، ويكون العنقود من العنب وقر بعير ولبن اللقحة الواحدة يكفي الفئام من الناس» وهذا لأن الأرض لما طهرت من المعاصي ظهرت فيها آثار البركة من الله تعالى التي محقتها الذنوب والكفر. ولا ريب أن العقوبات التي أنزلها الله في الأرض بقيت آثارًا سارية في الأرض تطلب ما يشاكلها من الذنوب التي هي آثار تلك الجرائم التي عذبت بها الأمم، فهذه الآثار في الأرض من آثار العقوبات، كما أن هذه المعاصي من آثار الجرائم. فتناسبت كلمة الله وحكمه الكوني أولاً وآخرًا، وكان العظيم من العقوبة للعظيم من الجناية، والأخف للأخف، وهكذا يحكم سبحانه بين خلقه في دار البرزخ ودار الجزاء.

وتأمل مقارنة الشيطان ومحله وداره فإنه لما قارن العبد واستولى عليه نزعت البركة عن عمره وعمله وقوله ورزقه، ولما أثرت طاعته في الأرض ما أثرت نزعت البركة من كل محل ظهرت فيه طاعته. وكذلك مسكنه لما كان الجحيم لم يكن هناك شيء من الروح والرحمة والبركة.

...[1] **الوجه** العشرون أنه سبحانه استشهد بأهل العلم والإيمان يوم القيامة على بطلان قول الكفار. فقال تعالى: **﴿ويوم تقوم الساعة يُقسم المجرمون ما لَبثوا غير ساعة كذلك كانوا يؤفكُون * وقال الذين أوتوا العلم والإيمان لقد لَبثُم في كتاب الله إلى يوم البعث فهذا يومُ البعث ولكِنَّكم كنتم لا تعلمون﴾** [الروم: ٥٥، ٥٦].

[2]فائـدة عظيمـة

أفضل ما اكتسبته النفوس، وحصلته القلوب، ونال به العبد الرفعة في الدنيا والآخرة، هو العلم والإيمان. ولهذا قرن بينهما سبحانه في قوله: **﴿وقَال الذِين أوتُوا العِلم والإيـمان لقـد لَبثتم في كتـاب الله إلى يوم البعثِ﴾** [الروم: ٥٦]، وقـوله:

---

(١) ٥٩ المفتاح جـ١.	(٢) ١٠٢ فوائد.

﴿يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتُوا العِلم درجَاتٍ﴾ [المجادلة: ١١] وهؤلاء هم خلاصة الوجود، ولبه، والمؤهلون للمراتب العالية، ولكن أكثر الناس غالطون في حقيقة مسمى العلم والإيمان، اللذين بهما السعادة والرفعة، وفي حقيقتهما، حتى إن كل طائفة تظن أن ما معها من العلم والإيمان هو هذا الذي به تنال السعادة، وليس كذلك، بل أكثرهم ليس معهم إيمان ينجي، ولا علم يرفع، بل قد سدوا على نفوسهم طرق العلم والإيمان اللذين جاء بهما الرسول ﷺ ودعا إليهما الأمة، وكان عليهما هو وأصحابه من بعده وتابعوهم على منهاجهم وآثارهم.

فكل طائفة اعتقدت أن العلم ما معها، وفرحت به وتقطعوا أمرهم بينهم زبرًا، كل حزب بما لديهم فرحون، وأكثر ما عندهم كلام وآراء وخرص، والعلم وراء الكلام، كما قال حماد بن زيد، قلت لأيوب: العلم اليوم أكثر أو فيما تقدم؟ فقال: الكلام اليوم أكثر، والعلم فيما تقدم أكثر.

ففرق هذا الراسخ بين العلم والكلام، فالكتب كثيرة جدًّا، والكلام والجدال والمقدرات الذهنية كثيرة، والعلم بمعزل عن أكثرها، وهو ما جاء به الرسول عن الله، قال تعالى: ﴿فمن حاجَّك فيه من بعدِ ما جاءك من العلم﴾ [آل عمران: ٦١]، وقال: ﴿ولَئِن اتبعت أهواءهم بعد الذي جاءك مِن العلم﴾ [البقرة: ١٢٠] وقال في القرآن: ﴿أنزله بعلمه﴾ [النساء: ١٦٦]؛ أي وفيه علمه.

ولما بعد العهد بهذا العلم آل الأمر بكثير من الناس إلى أن اتخذوا هواجس الأفكار وسوانح الخواطر والآراء علمًا، ووضعوا فيها الكتب وأنفقوا فيها الأنفاس، فضيعوا فيها الزمان. وملأوا بها الصحف مدادًا، والقلوب سوادًا.

...[٢] **قال الله تعالى:** ﴿ولا يستخِفَّنك الذين لا يوقِنون﴾ [الروم: ٦٠] وجه استدلاله بالآية في غاية الظهور. وهو أن المتمكن لا يبالي بكثرة الشواغل، ولا بمخالطة أصحاب الغفلات، ولا بمعاشرة أهل البطالات. بل قد تمكن بصبره ويقينه عن استفزازهم إياه، واستخفافهم له. ولهذا قال تعالى: ﴿فاصْبِر إن وَعْد الله حق﴾ [الروم: ٦٠] فمن وفى الصبر حقه، وتيقن أن وعد الله حق: لم يستفزه المبطلون، ولم يستخفه الذين لا يوقنون. ومتى ضعف صبره ويقينه ـ أو كلاهما ـ

---

(١) ١٠٢ الفوائد. (٢) ٢١٥ المدارج جـ٣.

استفزه هؤلاء، واستخفه هؤلاء، فجذبوه إليهم بحسب ضعف قوة صبره ويقينه. فكلما ضعف ذلك منه: قوى جذبهم له. وكلما قوى صبره ويقينه: قوى انجذابه منهم وجذبه لهم.

. . . [1]**وقال** تعالى: ﴿**فاصْبِرِ إن وعد الله حق ولا يستخفنك الذين لا يوقِنون**﴾ [الروم: ٦٠] فأمره أن يصبر ولا يتشبه بالذين لا يقين عندهم في عدم الصبر؛ فإنهم لعدم يقينهم عدم صبرهم وخفوا واستخفوا قومهم، ولو حصل لهم اليقين والحق لصبروا، وما خفوا ولا استخفوا. فمن قل يقينه قل صبره، ومن قل صبره خف واستخف، فالموقن الصابر رزين؛ لأنه ذو لب وعقل. ومن لا يقين له ولا صبر عنده خفيف طائش تلعب به الأهواء والشهوات، كما تلعب الرياح بالشيء الخفيف، والله المستعان.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة الروم
والحمد لله رب العالمين

---

(١) ٥٥ التبيان.



بسم الله الرحمن الرحيم

. . . [(١)] **قال** تعالى: ﴿ومن النَّاس مَن يشتري لهو الحديث ليضِل عن سبيل الله بغير عِلم ويتَّخِـذها هزوًا أولئك لهم عذابٌ مُهين * وإذا تتلى عليه آياتُنا ولَّى مُستكبِرا كأن لم يسمعها كأن في أذنيه وَقْرًا فبشرهُ بعذاب أَلِيم﴾ [لقمان: ٦، ٧].

قال الواحدي وغيره: أكثر المفسرين على أن المراد بلهو الحديث: الغناء، قاله ابن عباس في رواية سعيد بن جُبير ومِقسم عنه، وقاله عبدالله بن مسعود، في رواية أبي الصَّهباء عنه، وهو قول مُجاهد وعِكرمة.

وروى ثَور بن أبي فاختة عن أبيه عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿ومن الناس مَن يشتري لهو الحديث﴾ قال: «هو الرجل يشتري الجارية تُغنيه ليلاً ونهارًا».

وقال ابن أبي نجيح عن مجاهد: «هو اشتراء المغني والمغنية بالمال الكثير، والاستماع إليه، وإلى مثله من الباطل» وهذا قول مَكحول. وهذا اختيار أبي إسحاق أيضًا.

وقال: أكثر ما جاء في التفسير: أن لهو الحديث ههنا هو الغناء. لأنه يُلهِي عن ذكر الله تعالى .

قال الواحدي: قال أهل المعاني: ويدخل في هذا كلُّ من اختار اللهو، والغناء والمزامير والمعازف على القرآن، وإن كان اللفظ قد ورد بالشراء، فلفظ الشراء يُذكر في الاستبدال، والاختيار، وهو كثير في القرآن. قال: ويدل على هذا ما قاله قتادة في هذه الآية: «لعله أن لا يكون أنفق مالاً»، قال: «وبحسب المرء من الضلالة أن يختار حديث الباطل على حديث الحق».

قال الواحدي: وهذه الآية على هذا التفسير تدل على تحريم الغناء، ثم ذكر كلام الشافعي في ردِّ الشهادة بإعلان الغناء. قال: وأما غِناء القِينات: فذلك أشدُّ ما في الباب، وذلك لكثرة الوعيد الوارد فيه، وهو ما روي أن النبي ﷺ قال: «من استمع إلى قِينة صُبَّ في أذنيه الآنُك يوم القيامة» الآنك: الرَّصاص المذاب.

---

(١) ٢٣٨ الإغاثة جـ١.

وقد جاء تفسير لهو الحديث بالغناء مرفوعًا إلى النبي ﷺ. ففي مسند الإمام أحمد، ومسند عبدالله بن الزبير الحُميدي، وجامع الترمذي من حديث أبي أمامة، والسياق للترمذي: أن النبي ﷺ قال: «**لا تبيعوا القينات ولا تشتروهن، ولا تُعلِّموهن، ولا خيرَ في تجارة فيهن، وثَمنهن حرام، في مثل هذا نزلت الآية: ﴿وَمِن الناس مَن يشتري لهو الحديث ليُضِل عن سبيل الله﴾**» وهذا الحديث وإن كان مداره على عبيدالله بن زَحر عن علي بن يزيد الإلهاني عن القاسم، فعبيد الله بن زحر ثقة، والقاسم ثقة، وعلي ضعيف، إلا أن للحديث شواهد ومتابعات، سنذكرها إن شاء الله تعالى، ويكفي تفسير الصحابة والتابعين للهو الحديث بأنه الغناء، فقد صح ذلك عن ابن عباس، وابن مسعود.

قال أبو الصهباء: «سألت ابن مسعود عن قوله تعالى: **﴿ومن الناس من يشتري لهو الحديث﴾** فقال: والله الذي لا إلـه غيره، هو الغناء-يرددها ثلاث مرات».

وصح عن ابن عمر رضي الله عنهما أيضًا «أنه الغناء». قال الحاكم أبوعبدالله في التفسير، من كتاب المستدرك «لِيعلم طالب هذا العلم أن تفسير الصحابي الذي شهد الوحْي والتنزيل عند الشيخين: حديثٌ مسند». وقال في موضع آخر من كتابه: «هو عندنا في حكم المرفوع».

وهذا، وإن كان فيه نظر، فلا ريب أنه أولى بالقبول من تفسير مَن بعدهم؛ فهم أعلم الأمة بمراد الله عز وجل من كتابه؛ فعليهم نزل، وهم أولُ من خُوطب به من الأمة، وقد شاهدوا تفسيره من الرسول ﷺ علمًا وعملاً، وهم العرب الفُصحاء على الحقيقة. فلا يُعدل عن تفسيرهم ما وُجِد إليه سبيل.

ولا تعارضَ بين تفسير «لهو الحديث» بالغناء، وتفسيره: بأخبار الأعاجم وملوكها، وملوك الروم، ونحو ذلك مما كان النَّضْر بن الحارث يُحدث به أهل مكة، يشغَلهم به عن القرآن؛ فكلاهما لهو الحديث، ولهذا قال ابن عباس: «لهو الحديث: الباطل والغناء». فمن الصحابة من ذكر هذا، ومنهم من ذكر الآخر، ومنهم من جمعهما.

والغناء أشد لهوًا، وأعظم ضررًا من أحاديث الملوك وأخبارهم، فإنه رُقْية الزِّنا، ومُنبتُ النِّفاق، وشَرَك الشيطان، وخَمرة العقل. وصَدّه عن القرآن أعظم من صد

غيره من الكلام الباطل، لشِدة مَيْلِ النفوس إليه، ورغبتها فيه.

إذا عرف هذا فأهل الغناء، ومُستمعوه لهم نصيب من هذا الذم، بحسب اشتغالهم بالغناء عن القرآن، وإن لم ينالوا جميعه؛ فإن الآيات تضمنت ذمَّ من استبدل لهو الحديث بالقرآن لِيُضِل عن سبيل الله بغير علمٍ ويتخذها هزوًا. وإذا يُتلى عليه القرآن ولَّى مُستكبِراً كأن لم يسمعه، كأن في أذنيه وقرًا، وهو الثقل والصمم. وإذا علم منه شيئًا استهزأ به. فمجموع هذا لا يقع إلا من أعظم الناس كفرًا، وإن وقع بعضه للمغنين ومُستمعيهم، فلهم حِصَّة ونصيب من هذا الذم.

يوضحه: أنك لا تجد أحدًا عُنِيَ بالغناء وسماع آلاته، إلا وفيه ضلال عن طريق الهدى، علمًا وعملاً، وفيه رغبةٌ عن استماع القرآن إلى استماع الغناء، بحيث إذا عرض له سماع الغناء وسماع القرآن عدل عن هذا إلى ذاك، وثَقل عليه سماع القرآن، وربما حمله الحالُ على أن يُسكِت القارىء ويستطيل قراءته، ويستزيد المغني ويستقصر نوبته، وأقل ما في هذا: أن يناله نصيبٌ وافر من هذا الذم، إن لم يحظ به جميعه.

والكلام في هذا مع مَن في قلبه بعض حياة يُحسُّ بها. فأما من مات قلبه، وعظُمت فتنته، فقد سدَّ على نفسه طريق النصيحة: ﴿**وَمَن يُرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئًا أولئك الذين لم يُرد الله أن يطَهِّر قلوبهم لهم في الدُّنيا خزْي ولهم في الآخرة عذاب عظيم**﴾ [المائدة: ٤١].

...[1]**قال** ابن أبي الدنيا: حدثنا هارون بن عبيدالله، حدثنا يزيد بن هارون، حدثنا أشرس أبو شيبان الهذلي قال: قلت لفرقد السَّبخي: أخبرني ياأبايعقوب من تلك الغرائب التي قرأت في التوراة. فقال: «ياأباشيبان، والله ماأكذب على ربي - مرتين أو ثلاثًا - لقد قرأت في التوراة: ليكونن مسخ وخسف وقذف في أمة محمد ﷺ في أهل القِبلة، قال: قلت، يا أبا يعقوب ما أعمالهم؟ قال: باتخاذهم القينات، وضَربهم بالدفوف، ولباسهم الحرير والذهب، ولئن بقيتَ حتى ترى أعمالاً ثلاثة، فاستيقِن واستَعِد واحذَر. قال: قلت: ما هي؟ قال: إذا تكافأ

---

(١) ٢٦٥ الإغاثة جـ١.

الرجال بالرجال، والنساء بالنساء[1]، ورغبت العربُ في آنية العجم، فعند ذلك قلت له: العرب خاصة؟ قال: لا؛ بل أهل القبلة، ثم قال: والله ليقذفن رجال من السماء بحجارة يُشْدَخون بها في طُرقهم وقبائلهم، كما فُعل بقوم لوط، وليمسخن آخرون قردة وخنازير، كما فُعل ببني إسرائيل، وليخسفن بقوم كما خُسف بقارون».

وقد تظاهرت الأخبار بوقوع المسخ في هذه الأمة، وهو مقيد في أكثر الأحاديث بأصحاب الغناء، وشاربي الخمر، وفي بعضها مطلق.

قال سالم بن أبي الجَعد: «ليأتينَّ على الناس زمان يجتمعون فيه على باب رجل ينتظرون أن يخرج إليهم، فيطلبون إليه حاجة، فيخرج إليهم وقد مُسخ قردًا أو خنزيرًا، وليمرَّنَّ الرجل على الرجل في حانوته يبيع، فيرجع إليه وقد مسخ قردًا أو خنزيرًا».

وقال أبو هريرة رضي الله عنه: «لا تقوم الساعة حتى يمشي الرجلان إلى الأمر يعملانه، فيمسخ أحدهما قردًا أو خنزيرًا. فلا يمنع الذي نجا منهما ما رأى بصاحبه أن يمضي إلى شأنه ذلك حتى يقضي شهوته، وحتى يمشي الرجلان إلى الأمر يعملانه، فيخسف بأحدهما، فلا يمنع الذي نجا منهما ما رأى بصاحبه أن يمشي لشأنه ذلك، حتى يقضي شهوته منه».

وقال عبدالرحمن بن غَنم: «سيكون حَيَّان متجاورين، فيشقُّ بينهما نهر، فيستقيان منه، قبسهم واحد، يقبِس بعضه من بعض، فيُصبحان يومًا من الأيام قد خُسف بأحدهما والآخر حي». وقال عبدالرحمن بن غنم أيضًا: «يوشك أن يقعد اثنان على رحًا يطحنان، فيمسخ أحدهما والآخر ينظر».

وقال مالك بن دينار: «بلغني أن ريحًا تكون في آخر الزمان وظُلَم، فيفزع الناس إلى علمائهم، فيجدونهم قد مسخوا».

قال بعض أهل العلم: إذا اتَّصف القلب بالمكر والخديعة والفسق، وانصبغ بذلك صبغًا تامًّا، صار صاحبه على خُلق الحيوان الموصوف بذلك: من القردة، والخنازير، وغيرهما، ثم لا يزال يتزايد ذلك الوصف فيه حتى يبدو على صفحات

وجهه بدوًا خفيًا. ثم يقوى ويتزايد حتى يصير ظاهرًا على الوجه، ثم يقوى حتى يقلب الصورة الظاهرة، كما قلب الهيئة الباطنة. ومَن له فِراسة تامة يرى على صور الناس مَسخًا من صور الحيوانات التي تخلقوا بأخلاقها في الباطن، فقل أن ترى مُحتالاً مكّارًا مخادعًا خَتّارًا إلا وعلى وجهه مَسخة قرد، وقلَّ أن ترى رافضيًا إلا وعلى وجهه مَسخة خنزير، وقل أن ترى شرها نَهمًا، نفسه نفس كَلبية إلا وعلى وجهه مَسخة كلب، فالظاهر مرتبط بالباطن أتمَّ ارتباطٍ، فإذا استحكمت الصفات المذمومة في النفس قويت على قلب الصورة الظاهرة، ولهذا خوّف النبيُّ ﷺ مَن سابق الإمام في الصلاة بأن يجعل الله صورته صورة حمار ، لمشابهته للحمار في الباطن، فإنه لم يستفد بمسابقة الإمام إلا فساد صلاته، وبطلان أجره، فإنه لا يسلم قبله، فهو شبيه بالحمار في البلادة، وعدم الفِطنة.

إذا عرف هذا فأحق الناس بالمسخ هؤلاء الذين ذُكِروا في هذه الأحاديث، فهم أسرع الناس مسخًا قردة وخنازير، لمشابهتهم لهم في الباطن، وعقوبات الرب تعالى ـ نعوذ بالله منها ـ جاريةٌ على وَفق حكمته وعدله.

وقد ذكرنا شُبه المغنين والمفتونين بالسماع الشيطاني، ونقضناها نقضًا وإبطالاً في كتابنا الكبير في السماع ، وذكرنا الفرق بين ما يحركه سماع الأبيات وما يحركه سماع الآيات، وذكرنا الشبه التي دخلت على كثير من العباد في حضوره، حتى عدُّوه من القُرب. فمن أحب الوقوف على ذلك فهو مستوفىً في ذلك الكتاب، وإنما أشرنا هنا إلى نبذة يسيرة في كونه من مكايد الشيطان وبالله التوفيق.

. . .[1]**فصل** ومن مكايد عدو الله ومصايده، التي كاد بها من قَلَّ نصيبه من العلم والعقل والدِّين، وصاد بها قلوب الجاهلين والمبطلين: سماعَ المُكاءِ، والتَّصْدِية، والغناء بالآلات المحرَّمة، الذي يَصُد القلوب عن القرآن، ويجعلها عاكفة على الفسوق والعصيان. فهو قرآن الشيطان، والحجاب الكثيف عن الرحمن، وهو رُقية اللواط والزِّنا، وبه يَنالُ العاشق الفاسق من معشوقه غاية المنى. كاد به الشيطان النفوس المبطلة، وحسَّنه لها مكرًا منه وغرورًا، وأوحى إليها الشُّبه

---

(١) ٢٢٤ الإغاثة جـ١.

الباطلة على حُسنه فقبلت وحيه واتخذت لأجله القرآن مهجورًا.

فلو رأيتهم عند ذيَّاك السماع وقد خَشَعَت منهم الأصوات، وهدأت منهم الحركات، وعكفت قلوبهم بكليتها عليه، وانصبَّت انصبابة واحدة إليه. فتمايلوا له ولا كتمايل النَّشوان، وتكسَّروا في حركاتهم ورَقصِهم، أرأيت تكسُّر المخانيث والنسوان؟ ويحقُّ لهم ذلك، وقد خالط خُمارُه النفوس، ففعل فيها أعظم ما يفعل حُمَيَّا الكؤوس. فلغير الله، بل للشيطان، قلوبٌ هناكَ تمزَّق، وأثوابٌ تُشقق، وأموال في غير طاعة الله تُنفق. حتى إذا عمل السكر فيهم عمله، وبلغ الشيطان منهم أمنيته وأمَله، واستفزَّهم بصوته وحيله، وأجلَب عليهم برجله وخيله، وخز في صدورهم وخزًا، وأزَّهم إلى ضرب الأرض بالأقدام أزًّا. فطورًا يجعلهم كالحمير حول المَدَار. وتارة كالذِّباب ترقص وسيط الديار. فيا رحمتا للسقوف والأرض من دك تلك الأقدام. ويا سوأتا من أشباه الحمير والأنعام. ويا شماتة أعداء الإسلام. الذين يزعمون أنهم خواصُّ الإسلام[1]. قضوا حياتهم لذة وطربًا. واتخذوا دينهم لهوًا ولعبًا. مزامير الشيطان أحبُّ إليهم من استماع سُور القرآن. لو سمع أحدهم القرآن من أوله إلى آخره لما حرَّك له ساكنًا. ولا أزعج له قاطنًا. ولا أثار فيه وَجدًا. ولا قدم فيه من لواعِج الشوق إلى الله زَندًا، حتى إذا يُتلىَ عليه قرآن الشيطان، ووَلج مزموره سمعه، تفجَّرت ينابيعُ الوَجد من قلبه عَلى عينيه فجرَت، وعلى أقدامه فرقَصت، وعلى يديه فصفَّقت، وعلى سائر أعضائه فاهتزت وطَربت، وعلى أنفاسِه فتصاعدت، وعلى زَفَراته فتزايدت، وعلى نيران أشواقه فاشتعلت.

فيا أيها الفاتن المفتون، البائع حَظَّه من الله بنصيبه من الشيطان صفقة خاسرٍ مَغبون، هلَّا كانت هذه الأشجان، عند سماع القرآن؟ وهذه الأذواق والمواجيد، عند قراءة القرآن المجيد؟ وهذه الأحوال السَّنيَّات، عند تلاوة السور والآيات؟ ولكن كل امرىء يَصبوا إلى ما يناسبه، ويميل إلى ما يشاكله، والجنسية عِلَّة الضم قدرًا وشرطًا، والمشاكلة سبب الميل عقلاً وطبعًا، فمن أين هذا الإخاء والنسب؟ لولا التعلق من الشيطان بأقوى سبب. ومن أين هذه المصالحة التي أوقعت في عَقد

(١) يقصد الشيخ ـ رحمه الله ـ المتصوفة الذين يتحلقون حلقًا ويقومون فيها يرقصون يتمايلون على أنغام الغناء والآلات.

الإيمان وعهد الرحمن خَلَلاً؟ ﴿أَفَتتخِذونه وذُريته أولِياء من دوني وهُم لكم عدو بئس للظالمين بدلاً﴾ [الكهف: ٥٠].

. . . (١)**فصل** في بيان تحريم رسول الله ﷺ الصريح لآلات اللهو المعازف، وسياق الأحاديث في ذلك.

عن عبدالرحمن بن غَنم قال: حدثني أبوعامر، أو أبومالك الأشعري رضي الله عنهما أنه سمع النبي ﷺ يقول: «**لَيكوننَّ من أمَّتي قوم يَستحِلُّون الحر والحرير والخمر والمعازف**» هذا حديث صحيح، أخرجه البخاري في صحيحه محتجًا به، وعلَّقه تعليقًا مجزومًا به، فقال: «باب ما جاء فيمن يستحل الخمر ويسميه بغير اسمه، وقال هشام بن عمَّار : حدثنا صدقة بن خالد حدثنا عبدالرحمن بن يزيد بن جابر حدثنا عطية بن قيس الكِلابي حدثني عبدالرحمن بن غنم الأشعري قال حدثني أبوعامر، أو أبومالك الأشعري ـ والله ما كذبني ـ أنه سمع النبي ﷺ يقول: «**ليكونن من أمتي أقوام يَستحِلُّون الحر والحرير والخمر والمعازف، ولينزلنَّ** أقوام إلى جنب علم، يروح عليهم بسارحة لهم، يأتيهم لحاجة. فيقولوا: ارجع إلينا غدًا، فيُبَيتهم الله تعالى ويَضع العلم، ويمسخ آخرين قِردة وخنازير إلى يوم القيامة».

ولم يصنع من قَدح في صحة هذا الحديث شيئًا، كابن حَزْم، نُصْرةً لمذهبه الباطل في إباحة الملاهي، وزعم أنه منقطع، لأن البخاري لم يصل سنده به.

وجواب هذا الوهم من وجوه: . . .

(٢)**ومن** منازل «إياك نعبد وإياك نستعين» منزلة «السماع».

وهو اسم مصدر كالنبات. وقد أمر الله به في كتابه، وأثنى على أهله، وأخبر أن البشرى لهم، فقال تعالى: ﴿**واتَّقوا الله واسمعوا**﴾ [المائدة: ١٠٨] وقال: ﴿**واسمعوا وأطيعوا**﴾ [التغابن: ١٦] وقال: ﴿**وَلَو أَنَّهم قالوا سمِعنا وأطعنا واسمع وانظرنا لكان خيراً لهم وأقْوم**﴾ [النساء: ٤٦] وقال: ﴿**فَبشِّر عباد * الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الألباب**﴾ [الزمر:

---

(١) ٢٥٨ الإغاثة جـ١.		(١) ٤٨١ المدارج جـ١.

١٧، ١٨] وقال: ﴿وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا﴾ [الأعراف: ٢٠٤]. وقال: ﴿وإذا سمِعوا ما أُنزِل إلى الرَّسول ترى أعينهم تفيض من الدَّمع مما عرفوا من الحق﴾ [المائدة: ٨٣].

وجعل الإسماع منه والسماع منهم دليلاً على علم الخير فيهم، وعدم ذلك دليلاً على عدم الخير فيهم. فقال: ﴿وَلَو عَلم الله فيهم خيراً لأسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم مُعرِضُون﴾ [الأنفال: ٢٣].

وأخبر عن أعدائه: أنهم هجروا السماع ونهوا عنه. فقال: ﴿وَقَال الذين كَفروا لا تسمعوا لِهذا القرآن والْغَوا فيه﴾ [فصلت: ٢٦].

فالسماع رسول الإيمان إلى القلب وداعيه ومعلمه. وكم في القرآن من قوله ﴿أفلا يسمعون﴾ وقال: ﴿أفَلم يَسيروا في الأرض فتكون لهم قلوبٌ يعقِلون بها أو آذانٌ يسمعون بها﴾ [الحج: ٤٦].

فالسماع أصل العقل، وأساس الإيمان الذي انبنى عليه. وهو رائده وجليسه ووزيره. ولكن الشأن كل الشأن في المسموع. وفيه وقع خبط الناس واختلافهم. وغلط منهم من غلط.

وحقيقة «السماع» تنبيه القلب على معاني المسموع، وتحريكه عنها: طلبًا وهربًا وحبًّا وبغضًا. فهو حادٍ يحدو بكل أحد إلى وطنه ومألفه.

وأصحاب السماع، منهم: من يسمع بطبعه ونفسه وهواه. فهذا حظه من مسموعه: ما وافق طبعه.

ومنهم: من يسمع بحاله وإيمانه ومعرفته وعقله. فهذا يفتح له من المسموع بحسب استعداده وقوته ومادته.

ومنهم: من يسمع بالله، لا يسمع بغيره. كما في الحديث الإلهي الصحيح «فبي يسمع وبي يبصر» وهذا أعلى سماعًا، وأصح من كل أحد.

والكلام في «السماع» ـ مدحًا وذمًّا ـ يحتاج فيه إلى معرفة صورة المسموع، وحقيقته وسببه، والباعث عليه، وثمرته وغايته. فبهذه الفصول الثلاثة يتحرر أمر «السماع» ويتميز النافع منه والضار، والحق والباطل، والممدوح والمذموم. فأما «المسموع» فعلى ثلاثة أضرب:

أحدها: مسموع يحبه الله ويرضاه، وأمر به عباده، وأثنى على أهله، ورضي عنه به.

الثاني: مسموع يبغضه ويكرهه، ونهى عنه، ومدح المعرضين عنه.

الثالث: مسموع مباح مأذون فيه، لا يحبه ولا يبغضه، ولا مدح صاحبه ولا ذمه. فحكمه حكم سائر المباحات: من المناظر، والمشام، والمطعومات، والملبوسات المباحة. فمن حرم هذا النوع الثالث فقد قال على الله مالا يعلم، وحرم ما أحل الله. ومن جعله دينًا وقُربة يتقرب به إلى الله، فقد كذب على الله، وشرع دينًا لم يأذن به الله، وضاهأ بذلك المشركين.

فأما النوع الأول: فهو السماع الذي مدحه الله في كتابه، وأمر به وأثنى على أصحابه، وذم المعرضين عنه ولعنهم. وجعلهم أضل من الأنعام سبيلاً. وهم القائلون في النار: ﴿**لَو كُنَّا نسمع أو نعقل ما كُنَّا في أصحاب السَّعير**﴾ [الملك: ١٠] وهو سماع آياته المتلوة التي أنزلها على رسوله. فهذا السماع أساس الإيمان الذي يقوم عليه بناؤه. وهو على ثلاثة أنواع: سماع إدراك: بحاسة الأذن. وسماع فهم وعقل. وسماع فهم وإجابة وقبول. والثلاثة في القرآن.

فأما سماع الإدراك: ففي قوله تعالى حكاية عن مؤمني الجن قولهم ﴿**إنّا سمعنا قُرآنا عجبًا يهدي إلى الرُّشد فآمنا به**﴾ [الأحقاف: ٣٠] فهذا سماع إدراك اتصل به الإيمان والإجابة.

وأما سماع الفهم: فهو المنفي عن أهل الإعراض والغفلة. بقوله تعالى: ﴿**فإنَّك لا تُسمع الموتى ولا تسمع الصُّم الدُّعاء**﴾ [الروم: ٥٢] وقوله: ﴿**إن الله يُسمع من يشاءُ وما أنت بمسمعٍ من في القبور**﴾ [فاطر: ٢٢].

فالتخصيص ههنا لإسماع الفهم والعقل. وإلا فالسمع العام الذي قامت به الحجة لا تخصيص فيه. ومنه قوله تعالى: ﴿**وَلَو عَلم الله فيهم خيراً لأسمعهم ولَو أسمعهم لتولوا وهم مُعرضون**﴾ [الأنفال: ٢٣] أي لو علم الله في هؤلاء الكفار قبولاً وانقيادًا لأفهمهم، وإلا فهم قد سمعوا سَمْع الإدراك: ﴿**وَلَو أسْمعَهم لتولَّوا وهُم مُعرضُون**﴾ أي ولو أفهمهم لما انقادوا ولا انتفعوا بما فهموا، لأن في قلوبهم من

داعي التولي والإعراض ما يمنعهم عن الانتفاع بما سمعوه.

وأما سماع القبول والإجابة: ففي قوله تعالى حكاية عن عباده المؤمنين: أنهم قالوا: ﴿**سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا**﴾ [النور: ٥١] فإن هذا سمع قبول وإجابة مثمر للطاعة.

والتحقيق: أنه متضمن للأنواع الثلاثة، وأنهم أخبروا بأنهم أدركوا المسموع وفهموه، واستجابوا له.

ومن سمع القبول: قوله تعالى: ﴿**وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ**﴾ [التوبة: ٤٧] أي قابلون منهم مستجيبون لهم. هذا أصح القولين في الآية.

وأما قول من قال: عيون لهم وجواسيس، فضعيف. فإنه سبحانه أخبر عن حكمته في تثبيطهم عن الخروج: بأن خروجهم يوجب الخبال والفساد، والسعي بين العسكر بالفتنة، وفي العسكر من يقبل منهم، ويستجيب لهم. فكان في إقعادهم عنهم لطفًا بهم ورحمة، حتى لا يقعوا في عَنت القبول منهم.

أما اشتمال العسكر على جواسيس وعيون لهم: فلا تعلق له بحكمة التثبيط والإقعاد. ومعلوم أن جواسيسهم وعيونهم منهم. وهو سبحانه قد أخبر أنه أقعدهم لئلا يسعوا بالفساد في العسكر، ولئلا يبغوهم الفتنة. وهذه الفتنة إنما تندفع بإقعادهم، وإقعاد جواسيسهم وعيونهم.

وأيضا فإن الجواسيس إنما تسمى «عيونًا» هذا المعروف في الاستعمال لا تسمى سماعين.

وأيضًا فإن هذا نظير قوله تعالى في إخوانهم اليهود: ﴿**سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ**﴾ [المائدة: ٤٢] أي قابلون له.

والمقصود: أن سماع خاص خاصة المقربين: هو سماع القرآن بالاعتبارات الثلاثة: إدراكًا وفهمًا، وتدبرًا، وإجابة. وكل سماع في القرآن مدحَ الله أصحابه وأثنى عليهم، وأمر به أولياءه: فهو هذا السماع.

وهو سماع الآيات، لا سماع الأبيات. وسماع القرآن، لا سماع مزامير الشيطان، وسماع كلام رب الأرض والسماء لا سماع قصائد الشعراء، وسماع المراشد، لا سماع القصائد، وسماع الأنبياء والمرسلين، لا سماع المغنين والمطربين.

فهذا السماع حادٍ يحدو القلوب، إلى جوار علام الغيوب، وسائق يسوق الأرواح

إلى ديار الأفراح، ومحرك يثير ساكن العزمات، إلى أعلى المقامات وأرفع الدرجات، ومنادٍ ينادي للإيمان، ودليل يسير بالركب في طريق الجنان، وداع يدعو القلوب بالمساء والصباح من قِبل فالق الإصباح «حَي على الفلاح، حيَّ على الفلاح».

فلم يعدم من اختار هذا السماع إرشادًا لحجة، وتبصرة لعبرة، وتذكرة لمعرفة، وفكرة في آية، ودلالة على رشد، وردًا على ضلالة، وإرشادًا من غَي، وبصيرة من عمى، وأمرًا بمصلحة، ونهيًا عن مضرة ومفسدة، وهداية إلى نور، وإخراجًا من ظلمة، وزجرًا عن هوى، وحثًا على تقى، وجلاء لبصيرة، وحياة لقلب، وغذاء ودواء وشفاء، وعصمة ونجاة، وكشف شبهة، وإيضاح برهان، وتحقيق حق، وإبطال باطل.

ونحن نرضى بحكم أهل الذوق في سماع الأبيات والقصائد، ونناشدهم بالذي أنزل القرآن هدى وشفاء ونورًا وحياة: هل وجدوا ذلك ـ أو شيئًا منه ـ في الدف والمزمار؟ ونغمة الشادن ومطربات الألحان؟ والغناء المشتمل على تهييج الحب المطلق الذي يشترك فيه محب الرحمن، ومحب الأوطان، ومحب الإخوان، ومحب العلم والعرفان، ومحب الأموال والأثمان، ومحب النسوان والمردان، ومحب الصلبان؟ فهو يثير من قلب كل مشتاق ومحب لشيء ساكنه، ويزعج قاطنه، فيثور وجده، ويبدو شوقه، فيتحرك على حسب ما في قلبه من الحب والشوق والوجد بذلك المحبوب كائنًا ما كان. ولهذا تجد لهؤلاء كلهم ذوقًا في السماع، وحالاً ووجداً وبكاء.

ويالله العجب! أي إيمان ونور وبصيرة وهدى ومعرفة تحصل باستماع أبيات بألحان وتوقيعات. لعل أكثرها قيلت فيما هو محرم يبغضه الله ورسوله، ويعاقب عليه: من غزل وتشبيب بمن لا يحل له من ذَكر أو أنثى؟ فإن غالب التغزل والتشبيب: إنما هو في الصور المحرمة. ومن أندر النادر تغزل الشاعر وتشبيبه في امرأته، وأمته وأم ولده، مع أن هذا واقع، لكنه كالشعرة البيضاء في جلد الثور الأسود. فكيف يقع لمن له أدنى بصيرة وحياة قلب: أن يتقرب إلى الله، ويزداد إيمانًا وقربًا منه وكرامة عليه، بالتذاذه بما هو بغيض إليه، مقيت عنده، يمقت قائله والراضي به؟ وتترقى به الحال حتى يزعم أن ذلك أنفع لقلبه من سماع القرآن والعلم النافع، وسنة نبيه ﷺ؟!

يالله! إن هذا القلب مخسوف به، ممكور به منكوس، لم يصلح لحقائق القرآن وأذواق معـانيه، ومطالعة أسراره، فبلاه بقرآن الشيطان، كما في معجم الطبراني وغيره ـ مرفوعًا وموقوفًا ـ «إن الشيطان قال: يارب، اجعل لي قرآنًا. قال قرآنك الشعر. قال: اجعل لي كتابًا. قال: كتابك الوشم. قال: اجعل لي مؤذنًا. قال مؤذنك المزمار. قال: اجعل لي بيتًا. قال: بيتك الحمام. قال: اجعل لي مصائد. قال: مصـائدك النساء. قال: اجعل لي طعامًا. قال: طعامك مالم يذكر عليه اسمي» والله سبحانه وتعالى أعلم.

فصل القسم الثاني من السماع ما يبغضه الله ويكرهه، ويمدح المعرض عنه. وهو سماع كل ما يضر العبد في قلبه ودينه. كسماع الباطل كله، إلا إذا تضمن رده وإبـطالـه والاعتبـار به وقَصَدَ أن يَعْلَمَ به حُسْنَ ضِدِّه؛ فإنَّ الضَّدَّ يُظْهِرُ حُسْنَهُ الضِّدُّ. كما قيل:

وإذا سمعتُ إلى حديثـك زادني حبـا له سمعي حديث سواكـا

وكسماع اللغو الذي مدح التاركين لسماعه، والمعرضين عنه بقوله: **﴿وإذا سَمِعـوا اللَّغـو أعـرَضُوا عَنه﴾** [القصص: ٥٥]. وقوله: **﴿وإذا مَرُّوا باللغو مروا كِرامـا﴾** [الفرقـان: ٧٢] قال محمد بن الحنفية: هو الغناء. وقال الحسن أو غيره: أكرموا نفوسهم عن سماعه.

قال ابن مسعود: «الغناء ينبت النفاق في القلب كما ينبت الماء البقل» وهذا كلام عارف بأثر الغناء وثمرته؛ فإنه ما اعتاده أحد إلا نافق قلبه وهو ولا يشعر. ولو عرف حقيقة النفاق وغايته لأبصره في قلبه؛ فإنه ما اجتمع في قلب عبد قط محبة الغنـاء ومحبة القرآن إلا طردت إحداهما الأخرى. وقد شاهدنا نحن وغيرنا ثقل القـرآن على أهـل الغنـاء وسـماعه، وتبرُّمهم به، وصياحهم بالقارىء إذا طول عليهم، وعدم انتفاع قلوبهم بما يقرؤه، فلا تتحرك ولا تطرب ولا تهيج منها بواعث الطلب. فإذا جاء قرآن الشيطان فلا إله إلا الله. كيف تخشع منهم الأصوات، وتهدأ الحركات، وتسكن القلوب وتطمئن، ويقع البكاء والوجد، والحركة الظاهرة والباطنة، والسماحة بالأثمان والثياب، وطيب السهر، وتمنى طول الليل. فإن لم يكن هذا نفاقًا فهو آخِيَّة النفاق وأساسه.

تُلي الكتاب فأطرقوا لا خِيفة لكنه إطراق ساه لاهي
وأتى الغناء فكالذباب تراقصوا والله ما رقصوا من أجل الله
دُفٌّ ومزمار ونغمة شاهد فمتى شهدتَ عبادة بملاهي؟
ثقل الكتاب عليهم لما رأوا تقييده بأوامر ونواهي
وعليهم خفَّ الغناء لما رأوا إطلاقه في اللهو دون مناهي
يافِرقةً ما ضَرَّ دينَ محمد وَجنى عليه ومَلَّه إلا هي
سمعوا له رعْدًا وبرقاً إذ حوى زجرًا وتخويفًا بفعل مناهي
ورأوه أعظم قاطعٍ للنفس عن شهواتها ياويحها المتناهي
وأتى السماع موافقًا أغراضها فلأجل ذاك غدا عظيم الجاه...[1]

...[2]**الاسم التاسع جنات النعيم قال تعالى: ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جَنَّات النعيم﴾** [لقمان: ٨] وهذا أيضًا اسم جامع لجميع الجنات لما تضمنته من الأنواع التي يتنعم بها من المأكول والمشروب والملبوس، والصور والرائحة الطيبة والمنظر البهيج، والمساكن الواسعة، وغير ذلك من النعيم الظاهرِ والباطن.

...[3]**ومن ذلك قوله تعالى: ﴿هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه﴾** [لقمان: ١١] فلله ما أحلى هذا اللفظ وأوجزه وأدله علَى بطلان الشرك: فإنهم إن زعموا أن آلهتهم خلقت من شيء مع الله طولبوا بأن يُرُوه إياه، وإن اعترفت أنها أعجز وأضعف وأقل من ذلك كانت آلهتها باطلاً ومحالاً.

...[4]**فصل** ثم تأمل خلق الأرض على ما هي عليه حين خلقها واقفة ساكنة لتكون مهادًا ومستقرًّا للحيوان والنبات والأمتعة، ويتمكن الحيوان والناس من السعي عليها في مآربهم، والجلوس لراحاتهم، والنوم لهدوئهم، والتمكن من أعمالهم، ولو كانت رجراجة متكفئة لم يستطيعوا على ظهرها قرارًا ولا هدوءًا، ولا ثبت لهم عليها بناء ولا أمكنهم عليها صناعة ولا تجارة ولا حراثة ولا مصلحة، وكيف كانوا يتهنون بالعيش والأرض ترتج من تحتهم، واعتبر ذلك بما يصيبهم من الزلازل على قلة مكثها، كيف تصيرهم إلى ترك منازلهم والهرب عنها، وقد

(١) بقية البحث مع بقية هذه الأبيات في الأصل لمن أرادها. ٤٨٧ مدارج جـ١ (ج).
(٢) ٧٥ حادي الأرواح. (٣) ٩٦ مختصر الصواعق جـ١. (٤) ٢١٧ مفتاح جـ١.

نبه الله تعالى على ذلك بقوله: ﴿وألْقَى في الأرض رواسِيَ أن تَميد بِكم﴾ [النحل: ١٥] وقوله تعالى: ﴿الله الذي جعل لكم الأرض قَرارًا﴾ [غافر: ٦٤] وقوله: ﴿الله الذي جعل لكم الأرض مَهْدًا﴾ [الزخرف: ١٠] وفي القراءة الأخرى مهادًا.

وفي جامع الترمذي وغيره من حديث أنس بن مالك عن النبي ﷺ قال: «**لما خلق الله الأرض جعلت تميد، فخلق الجبال عليها فاستقرت، فعجبت الملائكة من شدة الجبال فقالوا: يارب هل من خلقك شيء أشد من الجبال قال: نعم الحديد. قالوا: يارب هل من خلقك شيء أشد من الحديد قال: نعم النار قالوا: يارب فهل من خلقك شيء أشد من النار قال: نعم الريح قالوا: يارب فهل من خلقك شيء أشد من الريح قال: نعم ابن آدم يتصدق صدقة بيمينه يخفيها عن شماله**».

ثم تأمل الحكمة البالغة في ليونة الأرض مع يبسها، فإنها لو أفرطت في اللين كالطين، لم يستقر عليها بناء ولا حيوان، ولا تمكنا من الانتفاع بها، ولو أفرطت في اليبس كالحجر لم يمكن حرثها ولا زرعها ولا شقها وفلحها، ولا حفر عيونها ولا البناء عليها، فنقصت عن يبس الحجارة وزادت على ليونة الطين، فجاءت بتقدير فاطرها على أحسن ما جاء عليه، مهاد للحيوان من الاعتدال بين اللين واليبوسة فتهيأ عليها جميع المصالح.

فصل ثم تأمل الحكمة البالغة في أن جعل مهب الشمال عليها أرفع من مهب الجنوب. وحكمة ذلك أن تتحدر المياه على وجه الأرض فتسقيها وترويها، ثم تفيض فتصب في البحر، فكما أن الباني إذا رفع سطحًا رفع أحد جانبيه وخفض الآخر ليكون مصبًا للماء، ولو جعله مستويًا لقام عليه الماء فأفسده، كذلك جعل مهب الشمال في كل بلد أرفع من مهب الجنوب، ولولا ذلك لبقي الماء واقفًا على وجه الأرض، فمنع الناس من العمل والانتفاع، وقطع الطرق والمسالك، وأضر بالخلق. أفيحسن عند من له مسكة من عقل أن يقول هذا كله اتفاق من غير تدبير العزيز الحكيم الذي أتقن كل شيء.

. . .[1]**الشأن** هو الانشغال بطاعة الله لا بالصوت الأحمق الفاجر، الذي هو

---

(١) ٥٠٠ المدارج جـ١.

للشيطان. وكذلك النوح ضد الصبر، كما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه في النائحة ـ وقد ضربها حتى بدا شعرها ـ وقال: «لا حرمة لها. إنها تأمر بالجزع، وقد نهى الله عنه. وتنهى عن الصبر، وقد أمر الله به. وتفتن الحي وتؤذي الميت. وتبيع عبرتها. وتبكي شَجو غيرها».

ومعلوم عند الخاصة والعامة: أن فتنة سماع الغناء والمعازف أعظم من فتنة النوح بكثير. والذي شاهدناه ـ نحن وغيرنا ـ وعرفناه بالتجارب: أنه ماظهرت المعازف وآلات اللهو في قوم وفشت فيهم، واشتغلوا بها، إلا سلط الله عليهم العدو، وبلوا بالقَحط والجَدْب وولاة السوء. والعاقل يتأمل أحوال العالم وينظر والله المستعان.

. . .[1]**وأما** إنعام الرب على عبده: فإحسان إليه، وتفضل عليه، ومجرد امتنان. لا لحاجة منه إليه، ولا المعاوضة، ولا لاستعانة به، ولا ليتكثر به من قلة، ولا ليتعزز به من ذلة، ولا ليقوى به من ضعف. سبحانه وبحمده.

وأمره له بالشكر أيضًا: إنعام آخر عليه، وإحسان منه إليه؛ إذ منفعة الشكر ترجع إلى العبد دنيا وآخرة، لا إلى الله. والعبد هو الذي ينتفع بشكره كما قال تعالى: **﴿وَمَن شكر فإنما يشكر لنفسه﴾** [النمل: ٤٠]. فشكر العبد إحسان منه إلى نفسه دنيا وأخرى. فلا يذم ما أتى به من ذلك، وإن كان لا يحسن مقابلة المنعم به، ولا يستطيع شكره، فإنه إنما هو محسن إلى نفسه بالشكر، لا أنه مكافىء به لنعم الرب.

فالرب تعالى لا يستطيع أحد أن يكافىء نعمه أبدًا، ولا أقلها، ، ولا أدنى نعمة من نعمه. فإنه تعالى هو المنعم المتفضل، الخالق للشكر والشاكر، وما يُشكر عليه. فلا يستطيع أحد أن يحصي ثناء عليه، فإنه هو المحسن إلى عبده بنعمه، وأحسن إليه بأن أوزعه شكرها. فشكره نعمة من الله أنعم بها عليه تحتاج إلى شكر آخر. وهلم جرًّا .

ومن تمام نعمته سبحانه، وعظيم بره وكرمه وجوده: محبته له على هذا الشكر، ورضاه منه به، وثناؤه عليه به، ومنفعته وفائدته مختصة بالعبد، لا تعود منفعته على الله. وهذا غاية الكرم الذي لا كرم فوقه، ينعم عليك ثم يوزعك شكر

---

(١) ٢٥١ المدارج جـ٢.

النعمة، ويرضى عنك. ثم يعيد إليك منفعة شكرك. ويجعله سببًا لتوالي نعمه واتصالها إليك، والزيادة على ذلك منها.

. . .(١)**ومن** الاعتراض الذي هو في أعلى درجات الحسن قوله تعالى: **﴿ووصَّينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهنًا على وهْن وفصاله في عامين أنِ اشكر لي ولوالديك﴾** [لقمان: ١٤] فاعترض بذكر شأن حمله ووضعه بين الوصية والموصى به، توكيدًا لأمر الوصية بالوالدة التي هذا شأنها، وتذكيرًا لولدها بحقها، وما قاسته من حمله ووضعه مما لم يتكلفه الأب.

. . .(٢)**الرابع** عشر أنه سبحانه جعل الصبر على المصائب من عزم الأمور أي مما يعزم من الأمور التي إنما يعزم على أجلها وأشرفها فقال: **﴿ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور﴾** [الشورى: ٤٣]. وقال لقمان لابنه: **﴿وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبِر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور﴾** [لقمان: ١٧]. الخامس عشر أنه سبحانه وعد المؤمنين بالنصر والظفر وهي كلمته التي سبقت لهم وهي الكلمة الحسنى، وأخبر أنه إنما أنالهم ذلك بالصبر فقال تعالى: **﴿وتمت كلمة ربك الحسنى على بني إسرائيل بما صبروا﴾** [الأعراف: ١٣٧]. السادس عشر أنه سبحانه علق محبته بالصبر وجعلها لأهله فقال: **﴿وكأين من نبي قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا ومَا استكانوا والله يحب الصابرين﴾** [آل عمران: ١٤٦]. السابع عشر أنه سبحانه أخبر عن خصال الخير أنه لا يلقاها إلا الصابرون في موضعين من كتابه: في سورة القصص في قصة قارون، وأن الذين أوتو العلم قالوا للذين تمنوا مثل ما أوتي: **﴿ويلَكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحا ولا يلقاها إلا الصابرون﴾** [القصص: ٨٠]. وفي سورة حم السجدة حيث أمر العبد أن يدفع بالتي هي أحسن، فإذا فعل ذلك، صار الذي بينه وبينه عداوة كأنه حبيب قريب ثم قال: **﴿وما يلقاها إلاَّ الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم﴾** [فصلت: ٣٥]. الثامن عشر أنه سبحانه أخبر أنه إنما ينتفع بآياته ويتعظ بها الصبار الشكور. فقال تعالى: **﴿ولَقد أرْسلنا موسى بآياتنا أن أخرج قومك من**

---

(١) ١٤٠ التبيان. (٢) ٧٦ عدة الصابرين.

الـظلمات إلى النـور وذكـرهم بأيام الله إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور﴾ [إبراهيم: ٥]. وقال تعالى في لقمان: **﴿ألم تر أن الفُلك تجرِي في البحر بنعمة الله ليريكم من آياته إنَّ في ذلك لآيات لكل صبَّار شكورٍ﴾** [لقمان: ٣١]. وقال تعالى: **﴿ومِن آياته الجوار في البحر كالأعلام * إن يشأ يُسكن الريح فيظللن رواكد على ظهـره إن في ذلـك لآيـات لكل صبَّار شكور﴾** [الشورى: ٣٢، ٣٣]. فهذه أربعة مواضع في القرآن تدل على أن آيات الرب إنما ينتفع بها أهل الصبر والشكر.

. . . (١)**الصبر** منصور أبدًا، فإن كان صاحبه محقًا كان منصورًا له العاقبة، وإن كان مبطلاً لم يكن له عاقبة. وإذا قام العبد في الحق لله ولكن قام بنفسه وقوته ولم يقم بالله مستعينًا به متوكلاً عليه مفوضًا إليه بريًّا من الحول والقوة إلا به فله من الخِـذلان وضعف النصرة بحسب ما قام به من ذلـك. ونكتة المسألة أن تجريد التوحيد في أمر الله لا يقوم له شيء البتة، وصاحبه مؤيد منصور ولو توالت عليه زُمـر الأعداء.

قال الامام أحمد: حدثنا داود أنبأنا شعبة عن واقد بن محمد بن زيد عن ابن أبي مُليكة عن القاسم بن محمد عن عائشة قالت: مَن أسخَط الناس برضاء الله عز وجل كفاه الله الناس، ومن أرضى الناس بسخط الله وكله إلى الناس.

. . . (٢)**المشهد** الثامن: مشهد «الجهاد» وهو أن يشهد تولد أذى الناس له من جهـاده في سبيل الله، وأمـرهم بالمعروف، ونهيهم عن المنكر، وإقامة دين الله، وإعلاء كلماته. وصاحب هذا المقام: قد اشترى الله منه نفسه وماله وعرضه بأعظم الثمن. فإن أراد أن يُسَلَّم إليه الثمن فليسلم هو السلعة ليستحق ثمنها. فلا حق له على من آذاه، ولا شيء له قِبله، إن كان قد رضي بعقد هذا التبايع؛ فإنه قد وجب أجره على الله.

وهـذا ثابت بالنص وإجمـاع الصحابة رضي الله عنهم. ولهذا منع النبي ﷺ المهاجرين من سكنى مكة ـ أعزها الله ـ ولم يَرُد على أحد منهم داره ولا ماله الذي أخذه الكفار، ولم يضمنهم دية من قتلوه في سبيل الله.

---

(١) ١٥٩ الإعلام جـ٢.	(٢) ٣٢١ المدارج جـ٢.

ولما عزم الصديق رضي الله عنه على تضمين أهل الردة ما أتلفوه من نفوس المسلمين وأموالهم قال له عمر بن الخطاب رضي الله عنه ـ بمشهد من الصحابة رضي الله عنهم ـ: «تلك دماء وأموال ذهبت في الله، وأجورها على الله، ولا دية لشهيد» فأتفق الصحابة على قول عمر، ووافقه عليه الصديق.

فمن قام لله حتى أوذي في الله: حرم الله عليه الانتقام. كما قال لقمان لابنه: ﴿**وأمُر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور**﴾ [لقمان: ١٧].

... (١)**ومن** قرأ (بموقع النجوم) على الإفراد، فلدلالة الواحد المضاف إلى الجمع على التعدد، والمواقع اسم جنس، والمصادر إذا اختلفت جمعت، وإذا كان النوع واحدا أفردت، قال تعالى: ﴿**إن أنكر الأصوات لصوت الحمير**﴾ [لقمان: ١٩] فجمع الأصوات لتعدد النوع، وأفرد صوت الحمير لوحدته. فإفراد موقع النجوم لوحدة المضاف إليه. وتعدد المواقع لتعدده، إذ لكل نجم موقع.

... (٢)**الله** سبحانه خلق عباده المؤمنين وخلق كل شيء لأجلهم، كما قال تعالى: ﴿**ألم تروا أن الله سخَّر لكم ما في السموات وما في الأرض وأسبغ عليكم نِعمه ظاهرة وباطنة**﴾ [لقمان: ٢٠]. وكرمهم وفضلهم على كثير ممن خلق.

... (٣)**كتب** ابن السماك إلى محمد بن الحسن حين ولي القضاء بالرقة: أما بعد، فلتكن التقوى من بالك على كل حال، وخف الله من كل نعمة أنعم بها عليك من قلة الشكر عليها مع المعصية بها، فإن في النعم حجة، وفيها تبعة. فأما الحجة بها فالمعصية بها، وأما التبعة فيها فقلة الشكر عليها. فعفى الله عنك كلما ضيعت من شكر، أو ركبت من ذنب، أو قصرت من حق. ومر الربيع بن أبي راشد برجل به زَمَانَةٌ فجلس يحمد الله ويبكي، قيل له: ما يبكيك؟ قال: ذكرت أهل الجنة وأهل النار، فشبهت أهل الجنة بأهل العافية، وأهل النار بأهل البلاء، فذلك الذي أبكاني.

وقد روى أبوهريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ «**إذا أحب أحدكم أن يرى قدر نعمة الله عليه فلينظر إلى من تحته ولا ينظر إلى من هو فوقه**». قال عبدالله بن

---

(١) ١٣٨ التبيان. (٢) ٢٤٠ الهجرتين. (٣) ١٣٦ عدة الصابرين.

المبارك: أخبرني يحيى بن عبيد الله قال: سمعت أبي قال: سمعت أبا هريرة فذكره. وقال ابن المبارك: حدثنا يزيد بن إبراهيم عن الحسن قال: قال أبو الدرداء: من لم يعرف نعمة الله عليه إلا في مطعمه ومشربه فقد قل عمله وحضر عذابه. قال ابن المبارك: أخبرنا مالك بن أنس عن إسحاق بن عبدالله بن أبي طلحة عن أنس رضي الله عنه قال سمعت عمر بن الخطاب رضي الله عنه سلم على رجل فرد عليه السلام فقال عمر للرجل: كيف أنت؟ قال الرجل: أحمد إليك الله قال عمر: هذا أردت منك. قال ابن المبارك: وأخبرنا مسعود عن علقمة بن مرثد عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: لعلنا نلتقي في اليوم مرارًا يسأل بعضنا عن بعض ولم يرد بذلك إلا ليحمد الله عز وجل. وقال مجاهد في قوله تعالى: ﴿وأسبغ عليكم نِعمه ظاهرة وباطنة﴾ [لقمان: ٢٠] قال: لا إله إلا الله. وقال ابن عيينة: ما أنعم الله على العباد نعمة أفضل من أن عرفهم لا إله إلا الله، وأن لا إله إلا الله لهم في الآخرة كالماء في الدنيا.

. . .[1]**وقد** دل القرآن والسنة والعقل الصريح على أن كلمات الله وأفعاله لا تتناهى ولا تنقطع بآخر، ولا تحد بأول قال تعالى: **﴿قُل لو كان البحر مِدادًا لِكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جِئنا بمثله مددًا﴾** [الكهف: ١٠٩]. وقال تعالى: **﴿ولو أن ما في الأرضِ من شجرة أقلامٌ والبحر يمده من بعده سبعة أبحر مانفدت كلمات الله إن الله عزيز حكيم﴾** [لقمان: ٢٧] فأخبر عن عدم نفاد كلماته لعزته وحكمته، وهذان وصفان ذاتيان له سبحانه وتعالى لا يكون إلا كذلك. وذكر ابن أبي حاتم في تفسيره عن سليمان بن عامر قال: سمعت الربيع بن أنس يقول: إن مثل علم العباد كلهم في علم الله عز وجل كقطرة من هذه البحور كلها.

وقد أنزل الله سبحانه وتعالى في ذلك: **﴿ولَو أن ما في الأرضِ من شجرة أقلام. . الآية﴾** وقوله: **﴿قل لو كان البحر مِدادًا. . الآية﴾** يقول سبحانه وتعالى: قل لو كان البحر مدادًا لكلمات الله، والشجر كلها أقلام لانكسرت الأقلام وفني ماء البحر وكلمات الله تعالى باقية لا يفنيها شيء؛ لأن أحداً لا يستطيع أن يقدر

(١) ٢٥٣ حادي الأرواح.

قدره ولا يثني عليه كما ينبغي، بل هو كما أثنى على نفسه، إن ربنا كما يقول وفوق ما يقول، ثم إن مثل نعيم الدنيا أوله وآخره في نعيم الآخرة كحبةٍ من خردل في خلال الأرض كلها.

. . .[1]**وأما قوله تعالى: ﴿ولَو أن ما في الأرضِ من شجرة أقلام﴾** فإن الآية سيقت لبيان أن أشجار الأرض لو كانت أقلامًا والبحار مدادًا فكتبت بها كلمات الله لنفدت البحار والأقلام ولم تنفد كلمات الله. فالآية سيقت لبيان الملازمة بين عدم نفاد كلماته وبين كون الأشجار أقلامًا والبحار مدادًا يكتب بها. فإذا كانت الملازمة ثابتة على هذا التقدير الذي هو أبلغ تقدير يكون في نفاد المكتوب، فثبوتها على غيره من التقادير أولى. ونوضح هذا بضرب مثل يرتقي منه إلى فهم مقصود الآية. إذا قلت لرجل لا يعطي أحدًا شيئًا: لو أن لك الدنيا بأسرها ما أعطيت أحدًا منها شيئًا، فإنك إذا قصدت أن عدم إعطائه ثابت على أعظم التقادير التي تقتضي الإعطاء، فلازمت بين عدم إعطائه وبين أعظم أسباب الإعطاء وهو كثرة ما يملكه، فدل هذا على أن عدم إعطائه ثابت على ما هو دون هذا التقدير، وأن عدم الإعطاء لازم لكل تقدير. فافهم نظير هذا المعنى في الآية وهو عدم نفاد كلمات الله تعالى على تقدير أن الأشجار أقلام والبحار مداد يكتب بها. فإذا لم تنفد على هذا التقدير كان عدم نفادها لازمًا له، فكيف بما دونه من التقديرات؟ فافهم هذه النكتة التي لا يسمح بمثلها كل وقت، ولا تكاد تجدها في الكتب، وإنما هي من فتح الله وفضله، فله الحمد والمنة، ونسأله المزيد من فضله. فانظر كيف اتفقت القاعدة العقلية مع القاعدة النحوية، وجاءت النصوص بمقتضاهما معًا من غير خروج عن موجب عقل ولا لغة، ولا تحريف لنص. ولو لم يكن في هذا التعليق إلا هذه الفائدة لساوت رحلة، فكيف وقد تضمن من غرر الفوائد ما لاينفق إلا على تجارة، وأما من ليس هناك فإنه يظن الجوهرة زجاجة، والزجاجة المستديرة المثقوبة جوهرة، ويزري على الجوهري ويزعم أنه لا يفرق بينهما والله المعين.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة **لقمان**

والحمد لله رب العالمين

---

(١) ٥٧ البدائع جـ١.



بسم الله الرحمن الرحيم

. . . [(١)]**وقال** ﴿الله الذي خلق السَّموات والأرضَ وما بينهما في ستَّة أيامٍ ثُم استوى على العرش مالَكم مِن دونه من وَلي ولا شفِيع أفلا تتذَكرونَ * يدبِّر الأَمر من السَّماء إلى الأرض ثم يعرج إليه في يوم كان مِقداره ألف سنة مما تَعُدون * ذلك عالِم الغَيب والشَّهادة العزيز الرَّحيم * الذي أحْسن كُلَّ شيَء خلقه وبدأ خلق الإنسان مِن طين * ثُمَّ جَعل نسلَه من سُلالة من ماء مهين * ثم سَوَّاه ونفخ فيه مِن روحه وجعل لَكُم السَّمع والأبصار والأفئدة قَليلاً ما تَشْكُرون﴾ [السجدة: ٤-٩].

فقد تعرف سبحانه إلى عباده بكلامه معرفة لا يجحدها إلا من أنكره سبحانه، وإن زعم أنه مقر به. والمقصود أن التعبد باسمه الظاهر يجمع القلب على المعبود، ويجعل له ربًّا يقصده، وصمدًا يصمد إليه في حوائجه، وملجأ يلجأ إليه. فإذا استقر ذلك في قلبه وعرف ربه باسمه الظاهر استقامت له عبوديته، وصار له معقل وموئل يلجأ إليه ويهرب إليه ويفر كل وقت إليه.

وأما تعبده باسمه الباطن فأمر يضيق نطاق التعبير عن حقيقته، ويكل اللسان عن وصفه، وتصطلم الإشارة إليه، وتجفو العبارة عنه، فإنه يستلزم معرفة بريئة من شوائب التعطيل، مخلَّصة من فرث التشبيه، منزهة عن رجس الحلول والاتحاد، وعبارة مؤدية للمعنى كاشفة عنه، وذوقًا صحيحا سليمًا من أذواق أهل الانحراف. فمن رزق هذا فهم معنى اسمه الباطن وصح له التعبد به.

وسبحان الله كم زلت في هذا المقام أقدام، وضلت فيه أفهام، وتكلم فيه الزنديق بلسان الصدّيق، واشتبه فيه إخوان النصارى بالحنفاء المخلصين، لنبوّ الافهام عنه، وعزة تخلص الحق من الباطل فيه، والتباس ما في الذهن بما في الخارج إلا على من رزقه الله بصيرة في الحق، ونورًا يميز بين الهدى والضلال، وفرقانًا يفرق بين الحق والباطل، ورُزق مع ذلك اطلاعًا على أسباب الخطأ، وتفرق الطرق،

---

(١) ٢١ الهجرتين.

ومثار الغلط، وكان له بصيرة في الحق والباطل، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

. . .[(١)] **وفيها** قوله تعالى: ﴿**الله الذي خَلق السَّموات والأرضَ وما بينهما في ستَّة أيام ثم استوى على العرش ما لكم من دونه من وَلي ولا شفيع أفلا تتذكرون * يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرجُ إليه في يوم كان مقداره ألف سَنة مما تعُدون * ذلك عالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم**﴾ [السجدة: ٤-٦].

وتأمل ما في هذه الآيات من الرد على طوائف المعطلين والمشركين فقوله: ﴿**خَلق السموات والأرض وما بينهما في سِتَّة أيام**﴾ يتضمن إبطال قول الملاحدة القائلين بقدم العالم وأنه لم يزل، وأن الله سبحانه لم يخلقه بقدرته ومشيئته، ومن أثبت منهم وجود الرب جعله لازمًا لذاته أزلاً وأبدًا غير مخلوق، كما هو قول ابن سينا والنصير الطوسي وأتباعهما من الملاحدة الجاحدين لما اتفقت عليه الرسل عليهم الصلاة والسلام والكتب، وشهدت به العقول والفطر.

وقوله تعالى: ﴿**ثم استوى على العَرش**﴾ [السجدة: ٤] يتضمن إبطال قول المعطلة والجهمية الذين يقولون: ليس على العرش شيء سوى العدم، وأن الله ليس مستويًا على عرشه، ولا ترفع إليه الأيدي، ولا يصعد إليه الكلم الطيب، ولا رفع المسيح عليه السلام إليه، ولا عرج برسوله محمد ﷺ، ولا تعرج الملائكة والروح إليه، ولا ينزل من عنده جبريل عليه الصلاة والسلام ولا غيره، ولا ينزل هو كل ليلة إلى السماء الدنيا، ولا يخافه عباده من الملائكة وغيرهم من فوقهم، ولا يراه المؤمنون في الدار الآخرة عيانًا بأبصارهم من فوقهم، ولا تجوز الإشارة إليه بالأصابع إلى فوق كما أشار إليه النبي ﷺ في أعظم مجامعه في حجة الوداع وجعل يرفع إصبعه إلى السماء وينكسها إلى الناس ويقول: «**اللهم اشهد**».

قال شيخ الإسلام: وهذا كتاب الله من أوله إلى آخره، وسنة رسوله ﷺ، وكلام الصحابة والتابعين، وكلام سائر الأئمة مملوء مما هو نص أو ظاهر في أن الله سبحانه وتعالى فوق كل شيء، وأنه فوق العرش فوق السموات مستوٍ على عرشه، مثل قوله تعالى: ﴿**إليه يَصعد الكلم الطَّيب والعمل الصَّالح يرفَعه**﴾ [فاطر: ١٠]

(١) ٤٨ اجتماع الجيوش.

وقوله تعالى: ﴿إذ قال الله ياعيسى إني متوفِّيك ورافِعك إليَّ﴾ [آل عمران: ٥٥] وقوله تعالى: ﴿بل رفعه الله إليه﴾ [النساء: ١٥٨]وقوله تعالى: ﴿ذي المعارج * تعرج الملائكة والرُّوح إليه﴾ [المعارج: ٣-٤]وقوله تعالى: ﴿يخافون ربَّهم مِن فوقِهم﴾ [النحل: ٥٠]وقوله تعالى: ﴿هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعًا ثم استوى إلى السَّماء فسوَّاهن سبع سموات﴾ [البقرة: ٢٩]وقوله تعالى: ﴿إن ربَّكم الله الذي خَلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يُغشِي الليل النهار يطلبه حثيثًا والشمسَ والقمر والنجوم مُسخَّرات بأمره ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين * ادعوا ربَّكم تضرعًا وخفية إنه لا يحب المعتدين﴾ [الأعراف: ٥٤-٥٥].

. . .[1]**الثامن** والتسعون ما تقدم من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، ونحن نسوقه ليتبين كم فيه من دليل على بطلان قول الملاحدة وأهل البدع في الروح، وقد ذكرنا إسناده فيما تقدم، قال بينما رسول الله ﷺ ذات يوم قاعد تلا هذه الآية: ﴿وَلو تَرى إذ الظَّالمون في غمرات المَوت﴾ [الأنعام: ٩٣] الآية. ثم قال: «والذي نفس محمد بيده ما من نفس تفارق الدنيا حتى ترى مقعدها من الجنة أو النار، فإذا كان عند ذلك صف له سماطان من الملائكة ينتظمان ما بين الخافقين كأن وجوههم الشمس، فينظر إليهم ما يرى غيرهم - وإن كنتم ترون أنه ينظر إليكم - مع كل ملك منهم أكفان وحنوط، فإن كان مؤمنًا بشروه بالجنة وقالوا: اخرجي أيتها النفس المطمئنة إلى رضوان الله وجنته فقد أعد الله لك من الكرامة ما هو خير لك من الدنيا وما فيها - فلا يزالون يبشرونه كلهم ألطف به وأرأف من الوالدة بولدها - ثم يسلون روحه من تحت كل ظفر ومفصل يموت الأول فالأول، ويبرد كل عضو الأول فالأول، ويهون عليه - وإن كنتم ترونه شديدًا - حتى تبلغ ذقنه، فلهي أشد كراهية للخروج من الجسد من الولد حين يخرج من الرحم، فيبتدرونها كل ملك منهم أيهم يقبضها، فيتولى قبضها ملك الموت، ثم تلا رسول الله ﷺ: ﴿قل يَتوفاكم مَلك الموتِ الذي وُكِّل بكم ثم إلى ربِّكم ترجَعون﴾ [السجدة: ١١] فيتلقاها بأكفان بيض، ثم يحتضنها إليه، فلهو أشد لزومًا من المرأة لولدها، ثم يفوح منها ريح أطيب من المسك فينشقون ريحًا طيبًا،

(١) ٢٢٨ الروح.

ويتباشرون بها، ويقولون: مرحبًا بالريح الطيبة والروح الطيب، اللهم صل عليه روحًا، وصل على جسد خرجت منه. قال: فيصعدون بها، فتفوح لهم ريح أطيب من المسك، فيصلون عليها ويتباشرون بها، وتفتح لهم أبواب السماء، ويصلي عليها كل ملك في كل سماء تمر بهم، حتى تنتهي بين يدي الجبار جل جلاله فيقول الجبار عز وجل: مرحبًا بالنفس الطيبة، أدخلوها الجنة، وأروها مقعدها من الجنة، واعرضوا عليها ما أعددت لها من الكرامة والنعيم، ثم اذهبوا بها إلى الأرض؛ فإني قضيت أني منها خلقتهم وفيها أعيدهم ومنها أخرجهم تارة أخرى. فوالذي نفس محمد بيده لهي أشد كراهية للخروج منها حين كانت تخرج من الجسد وتقول: أين تذهبون بي؟ إلى ذلك الجسد الذي كنت فيه؟ فيقولون: إنا مأمورون بهذا فلابد لك منه، فيهبطون به على قدر فراغهم من غسله وأكفانه، فيدخلون ذلك الروح بين الجسد وأكفانه». فتأمل كم في هذا الحديث من موضع يشهد ببطلان قول المبطلين في الروح.

... (١)الباب الرابع والستون

في أن الجنة فوق ما يخطر بالبال أو يدور في الخيال وأن موضع سوط منها خير من الدنيا وما فيها

قال تعالى: ﴿تتجافى جنوبهم عن المضاجِع يدعون ربَّهم خوفًا وطمعًا ومما رزقناهم يُنفِقون * فلا تعلم نفس ما أُخْفِي لهم من قُرة أعين جزاء بما كانوا يعمَلون﴾ [السجدة: ١٦، ١٧] وتأمل كيف قابل ما أخفوه من قيام الليل بالجزاء الذي أخفاه لهم مما لا تعلمه نفس، وكيف قابل قلقهم وخوفهم واضطرابهم على مضاجعهم حين يقوموا إلى صلاة الليل بقرة الأعين في الجنة.

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله عز وجل أعددت لعبادي الصالحين مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، مصداق ذلك في كتاب الله: ﴿فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قُرة أعين جزاء بما كانوا يعملون﴾». وفي لفظ آخر فيهما: «يقول الله عز وجل أعددت

(١) ١٩٧ حادي.

لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ذخرًا بله ما أطلعتكم عليه، ثم قرأ ﴿فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين﴾».

وفي صحيح مسلم من حديث سهل بن سعد الساعدي قال: «شهدت مع النبي ﷺ مجلسًا وصف فيه الجنة حتى انتهى ثم قال في آخر حديثه: «فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر» ثم قرأ هذه الآية: ﴿تتجافَى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربَّهم خوفًا وطمعًا ومما رزقناهم ينفقون * فلا تعلم نفسٌ ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون﴾.

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لقاب قوس أحدكم في الجنة خير مما طلعت عليه الشمس أو تغرب». وقد تقدم حديث أبي أمامة عن النبي ﷺ: «ألا مشمر للجنة فإن الجنة لا خطر لها هي ورب الكعبة نور يتلألأ، وريحانة تهتز، وقصر مشيد، ونهر مطرد، وثمرة نضيجة، وزوجة حسناء جميلة، وحلل كثيرة، ومقام في أبد في دار سليمة، وفاكهة وخضرة، وحبرة ونعمة، ومحلة عالية بهية». ولو لم يكن من خطر الجنة وشرفها إلا أنه لا يسأل بوجه الله غيرها لكفاها شرفًا وفضلاً...

...(١)**وقال** ابن أبي الدنيا حدثنا محمد بن أبي المثنى البزار حدثنا محمد بن زياد الكلبي حدثنا بشر بن حسين عن سعيد بن أبي عروبة عن قتادة عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «خلق الله جنة عدن بيده لبنة من درة بيضاء ولبنة من ياقوتة حمراء ولبنة من زبرجدة خضراء بلاطها المسك وحصباؤها اللؤلؤ وحشيشها الزعفران» ثم قال لها: انطقي قالت: قد أفلح المؤمنون فقال الله عز وجل: وعزتي وجلالي لا يجاورني فيك بخيل، ثم تلا رسول الله ﷺ: ﴿ومن يوقَ شُح نفسه فأولئك هم المفلحون﴾ [التغابن: ١٦].

وتأمل هذه العناية كيف جعل هذه الجنة التي غرسها بيده لمن خلقه بيده، ولأفضل ذريته، اعتناءً وتشريفًا، وإظهارًا لفضل ما خلقه بيده وشرفه، وميزه بذلك عن غيره وبالله التوفيق. فهذه الجنة في الجنان كآدم في نوع الحيوان.

وقد روى مسلم في صحيحه عن المغيرة بن شعبة عن سعيد عن النبي ﷺ

---

(١) ٨٠ حادي.

قال: «سأل موسى عليه السلام ربه ما أدنى أهل الجنة منزلة؟ قال: رجل يجيء بعد ما دخل أهل الجنة الجنة فيقال له: ادخل الجنة فيقول: رب كيف وقد نزل الناس منازلهم وأخذوا أخذاتهم؟!! فيقال له: أترضى أن يكون لك مثل ملك من ملوك الدنيا؟ فيقول: رضيت رب، فيقول له: لك ذلك ومثله ومثله ومثله ومثله، فقال في الخامسة: رضيت رب. قال: رب فأعلاهم منزلة؟ قال أولئك الذين أردتُ، غرستُ كرامتَهم بيدي، وختمت عليها، فلم تر عين، ولم تسمع أذن، ولم يخطر على قلب بشر» ومصداقه من كتاب الله ﴿فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين﴾.

وفي صحيح مسلم من حديث المغيرة بن شعبة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «سأل موسى ربه من أدنى أهل الجنة منزلة؟ فقال هو رجل يجيء بعد ما دخل أهل الجنة الجنة فيقال له: ادخل الجنة فيقول: أي رب كيف وقد نزل الناس منازلهم وأخذوا أخذاتهم؟ فيقال له: أترضى أن يكون لك مثل ملك من ملوك الدنيا؟ فيقول: رضيت رب. فيقال: ذلك لك ومثله ومثله ومثله ومثله، فيقول في الخامسة: رضيت رب. فيقول: لك هذا وعشرة أمثاله، ولك ما اشتهت نفسك ولذت عينك، فيقول: رضيت رب. قال فأعلاهم منزلة، قال: ذلك الذي أردت غرس كرامتهم بيدي، وختمت عليها، فلم تر عين، ولم تسمع أذن، ولم يخطر على قلب بشر، ومصداقه في كتاب الله ﴿فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين﴾».

...[1]**ولما** كان الكفار في سجن الكفر والشرك وضيقه، وكانوا كلما هموا بالخروج منه إلى فضاء الإيمان وسعته وروحه رجعوا على حوافرهم، كان عقوبتهم في الآخرة كذلك، قال الله تعالى: ﴿كُلَّما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فِيها﴾ [السجدة: ٢٠]. وقال في موضع آخر: ﴿كُلَّما أرادوا أن يخرجوا مِنها من غَم أعِيدوا فِيها﴾ [الحج: ٢٢]. فالكفر والمعاصي والفسوق كله غموم، وكلما عزم العبد أن يخرج منه أبت عليه نفسه وشيطانه ومألفه، فلا يزال في غم ذلك حتى يموت، فإن لم يخرج من غم ذلك في الدُّنيا بقي في غمه في البرزخ وفي القيامة، وإن خرج من غمه وضيقه هاهنا خرج منه هناك. فما حبس العبد عن الله في هذه الدار حبسه عنه بعد

(١) ٢٨٣ حادي. (٢) ٤٧٣ الروضة.

الموت، وكان معذَّبا به هناك كما كان قلبه معذبا [به] في الدُّنيا. فليس العشاق والفجرة والظَّلمة في لذة في هذه الدار، وإنما هم يعذَّبون فيها، وفي البرزخ، وفي القيامة، ولكن سكر الشهوة وموت القلب حال بينهم وبين الشعور بالألم. فإذا حِيل بينهم وبين ما يشتهون أحضِرت نفوسُهم الألم الشديد وصار يعمل فيها بعد الموت نظير ما يعمل الدُّود في لحومهم. فالآلام تأكل أرواحهم غير أنها لا تفنى، والدُّود يأكل أجسامهم . . .

. . .[1]**ومن** منازل ﴿**إيَّاكَ نعبد وإيَّاكَ نستعين**﴾ [الفاتحة: ٥] منزلة «اليقين». وهو من الإيمان بمنزلة الروح من الجسد. وبه تفاضل العارفون. وفيه تنافس المتنافسون. وإليه شمر العاملون. وعملُ القوم إنما كان عليه. وإشاراتهم كلها إليه. وإذا تزوج الصبر باليقين: ولد بينهما حصول الإمامة في الدين. قال الله تعالى، وبقوله يهتدي المهتدون: ﴿**وجَعلنا مِنهم أئِمة يهدون بأمرِنا لما صَبَروا وكانوا بآياتنا يُوقِنون**﴾ [السجدة: ٢٤].

وخص سبحانه أهل اليقين بالانتفاع بالآيات والبراهين. فقال، وهو أصدق القائلين: ﴿**وفي الأرض آيات للمُوقِنين**﴾ [الذاريات: ٢٠].

وخص أهلَ اليقين بالهدى والفلاح من بين العالمين، فقال: ﴿**والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلِك وبالآخرة هم يوقنون * أولئك على هدىً من ربِّهم وأولئك هم المفلِحون**﴾ [البقرة: ٤، ٥].

وأخبر عن أهل النار: بأنهم لم يكونوا من أهل اليقين، فقال تعالى: ﴿**وإذا قيل إنَّ وعد الله حق والساعة لا ريب فيها قلتم ما ندري ما الساعة إن نظن إلا ظنًّا وما نحن بمستيقنين**﴾ [الجاثية: ٣٢]. فـ«اليقين» روح أعمال القلوب التي هي أرواح أعمال الجوارح. وهو حقيقة الصديقية. وهو قطب هذا الشأن الذي عليه مداره.

وروى خالد بن يزيد عن السفيانين عن التيمي عن خيثمة عن عبدالله بن مسعود عن النبي ﷺ قال: «**لا تُرضين أحدًا بسخط الله، ولا تحمدنَّ أحدًا على فضل الله، ولا تَذُمنَّ أحدًا على ما لم يؤتك الله؛ فإن رزق الله لا يسوقه إليك حرص حريص، ولايرده عنك كراهية كاره. وإن الله بعدلِه وقسطه جعل الروح**

(١) ٣٩٧ المدارج جـ٣.

والفرح في الرضى واليقين، وجعل الهم والحزن في الشك والسخط». و«اليقين» قرين التوكل. ولهذا فسر التوكل بقوة اليقين.

(١)**والصواب**: أن التوكل ثمرته ونتيجته. ولهذا حسن اقتران الهدى به. قال الله تعالى: ﴿**فتوكَّل على الله إنك على الحق المبين**﴾ [النمل: ٧٩] فالحق: هو اليقين وقالت رسل الله: ﴿**ومَا لنا ألا نتوكَّل على الله وقد هَدانا سُبُلنا**﴾ [إبراهيم: ١٢].

ومتى وصل «اليقين» إلى القلب امتلأ نورًا وإشراقًا، وانتفى عنه كل ريب وشك وسخط وهم وغم. فامتلأ محبة لله، وخوفًا منه ورضى به، وشكرًا له، وتوكلاً عليه، وإنابة إليه...

...(٢)**قوله** تعالى عن أصحاب موسى: ﴿**وجعلنا منهم أئِمة يَهدون بأمرنا لما صَبروا وكانوا بِآياتنا يُوقِنون**﴾ [السجدة: ٢٤] فأخبر تعالى أنه جعلهم أئمة يأتم بهم مَن بعدهم لصبرهم ويقينهم؛ إذ بالصبر واليقين تُنال الإمامة في الدين؛ فإن الداعي إلى الله تعالى لا يتم له أمره إلا بيقينه للحق الذي يدعو إليه، وبصيرته به، وصبره على تنفيذ الدعوة إلى الله باحتمال مشاق الدعوة وكف النفس عما يُوهِن عزمه ويضعف إرادته، فمن كان بهذه المثابَة كان من الأئمة الذين يَهدون بأمره تعالى، ومن المعلوم أن أصحاب محمد ﷺ أحقُّ وأولى بهذا الوصف من أصحاب موسى؛ فهم أكمل يقينًا وأعظم صبرًا من جميع الأمم، فهم أولى بمنصب هذه الإمامة. وهذا أمر ثابت بلا شك بشهادة الله لهم وثنائه عليهم، وشهادة الرسول لهم بأنهم خيرُ القرون، وأنهم خيرة الله وصفوته، ومن المحال على مَن هذا شأنُهم أن يخطئوا كلهم الحقَّ، ويظفر به المتأخرون، ولو كان هذا ممكنًا لانقلبت الحقائق، وكان المتأخرون أئمة لهم يجب عليهم الرجوع إلى فتاويهم وأقوالهم، وهذا كما أنه محال حسًّا وعقلاً فهو محال شرعًا، وبالله التوفيق.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة السجدة وبها تم الجزء الرابع
والحمد لله رب العالمين

---

(١) ٣٩٨ المدارج جـ٢.　　(٢) ١٣٥ الإعلام جـ٤.

فهـرس المجلـد الرابـع

فـهــرس سورة الحجـر

رقـم الموضــــــــوع
الصحيفة

٣ بحث حول قوله تعالى: ﴿كذلك نسلكه في قلوب المجرمين﴾
٤ بحث حول قوله تعالى: ﴿وإن من شيء إلا عندنا خزائنه﴾
٤ بحث حول سر من أسرار التوحيد
٥ الحكمة من خلق الهواء والرياح والفوائد العظيمة من وجودها
٦ بحث حول قول الله تعالى: ﴿إن عبادي ليس لك عليهم سلطان﴾
٧ بحث حول قول الله تعالى: ﴿ونزعنا ما في صدورهم من غِلٍّ﴾
٨ بحث في عشق الصور وحول قوله تعالى: ﴿إنهم لفي سكرتهم يعمهون﴾
٩ الآيات التي أوقعها الله سبحانه بالأمم المكذبين.
١٠ فصل في منزلة الفراسة
١١ بحث في البصيرة وقوله تعالى: ﴿إن في ذلك لآيات للمتوسمين﴾
١٢ بحث في الفرق بين الفراسة والظن
١٣ بحث حول قوله تعالى: ﴿فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون﴾
١٤ بحث في قوله تعالى: ﴿فاصدع بما تؤمر﴾ والحث على الصبر على الأذى
١٥ بحث حول قوله تعالى: ﴿واعبد ربك حتى يأتيك اليقين﴾ ولزوم ذلك حتى الموت

فهرس سورة النحـــل

١٧ بحث حول قوله تعالى: ﴿هو الذي أنزل من السماء ماء لكم منه شراب﴾
١٧ بحث حول قوله تعالى: ﴿إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون﴾
١٨ بحث في التفكر والتذكر وفضلهما ومنزلتهما
١٩ فصل في الحكمة من خلق السمك
٢٠ بحث في إطلاق الروح على القرآن
٢١ الفرق بين النفس والروح
٢١ بحث حول قوله تعالى: ﴿ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة﴾

٢٢ بحث في أن دخول الجنة ليس متوقفًا على الأعمال وإن كانت الأعمال سببًا في الدخول
٢٣ بحث حول قوله تعالى: ﴿الذين تتوفاهم الملائكة طيبين﴾
٢٤ بحث في أن الخطايا والذنوب توجب للقلب حرارة ونجاسة وضعفًا
٢٥ بحث في بيان الدلالة من كلام النبي ﷺ بالحسوس على المعنوي
٢٦ بحث حول قوله تعالى: ﴿وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نُزِّل إليهم﴾
٢٧ ما وجه خوف الملائكة وهم معصومون وكذلك خوف النبي ﷺ وقد غفر له؟
٢٨ بحث حول قوله تعالى: ﴿يخافون ربهم من فوقهم﴾
٢٨ بحث في فوقية الرب تعالى من ثمانية عشر وجهًا
٣٢ بحث حول تفسير قوله تعالى: ﴿وما بكم من نعمة فمن الله﴾
٣٤ قاعدة جليلة في أن النعم كلها من الله وحده
٣٥ بحث جيد في: هل للتوفيق والخذلان سبب، أم هما بمجرد مشيئة الرب تعالى؟
٣٧ بحث حول قوله تعالى: ﴿ويعبدون من دون الله ما لا يملك لهم رزقًا﴾
٣٨ بحث حول قوله تعالى: ﴿للذين لا يؤمنون بالآخرة مثل السوء ولله المثل الأعلى﴾
٤١ بحث في قيام حقائق الأسماء والصفات في قلوب المؤمنين مع انتفاء التمثيل والتشبيه
٤٣ بحث حول قوله تعالى: ﴿إن لكم في الأنعام لعبرة﴾
٤٤ فصل في بيان العبرة التي ذكرها الله ـ عز وجل ـ في الأنعام وما سقانا من بطونها
٤٥ فصل في أحوال النحل ومافيها من العبر والآيات
٤٦ فصل في أعجب مايكون من نتاج النحل وكيف يتكون؟!
٤٧ أنواع العسل ومنافعه
٤٩ فصل في اختلاف الناس في قوله: ﴿يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه﴾
٤٩ بحث حول قوله تعالى: ﴿ضرب الله مثلاً عبدًا مملوكًا﴾ إلى قوله: ﴿وهو على صراط مستقيم﴾
٥١ المراد من قوله تعالى: ﴿إن ربي على صراط مستقيم﴾
٥٣ بحث فيمن فقد نعمة البصر وبيان حاله
٥٤ غذاء القلب نوعان: حسيٌّ مادي وروحاني معنوي
٥٥ تعلق القلب بالسمع أشد من تعلقه بالبصر
٥٦ الإباحة تستفاد من لفظ الإحلال ورفع الجناح والإذن والعفو
٥٦ فصل في الحكم والغايات التي جعلها الله في خلقه وأمره
٥٧ فصل في إنعام الله على خلقه وإحسانه إليهم
٥٨ بحث في قوله تعالى: ﴿والله جعل لكم مما خلق ظلالاً وجعل لكم من الجبال أكنانًا﴾

٥٩ الطبقة السادسة عشرة رؤساء الكفر وأئمته ومضاعفة العذاب لهم
٦٠ فصل في غلظ الكفر الموجب لغلظ العذاب كيف يكون؟
٦١ بحث حول قوله تعالى: ﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان﴾ الآية
٦٣ فصل في الفحشاء والمنكر
٦٣ بحث في قوله تعالى: ﴿من عمل صالحًا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن﴾ الآية
٦٥ بحث في الحياة الطيبة وكيف تكون
٦٧ بحث في أن الوحي الذي يلقيه الله إلى أنبيائه روحًا
٦٨ بحث حول قوله تعالى: ﴿فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم﴾
٦٩ بحث في فوائد الاستعاذة من الشيطان
٧٢ فصل في كيفية دفع الأعداء
٧٣ بحث في قوله تعالى: ﴿إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا﴾
٧٤ بحث في سلطان الشيطان على الذين يتولونه
٧٦ بحث حول قوله تعالى: ﴿وإذا بدلنا آية مكان آية﴾
٧٧ بحث حول قوله تعالى: ﴿إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان﴾
٧٨ تحريم القول على الله بغير علم
٧٩ بحث حول قوله تعالى: ﴿ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام﴾
٧٩ بحث في قوله تعالى: ﴿إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا﴾
٨٠ بحث في قوله تعالى: ﴿ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة﴾
٨١ بحث حول قوله تعالى: ﴿وآتيناه في الدنيا حسنة وإنه في الآخرة لمن الصالحين﴾
٨٢ بحث في الثناء على إبراهيم عليه السلام
٨٢ بحث في قوله تعالى: ﴿شاكرًا لأنعمه﴾
٨٣ بحث في الصبر وقوله تعالى: ﴿واصبر وما صبرك إلا بالله﴾

فهرس سورة الإسراء

٨٤ بحث في أن كرامة رسول الله ﷺ كانت في الإسراء
٨٥ بحث في قوله تعالى: ﴿أسرى بعبده﴾
٨٦ بحث في قوله تعالى: ﴿إنه كان عبدًا شكورًا﴾
٨٦ بحث في قوله تعالى: ﴿وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه﴾
٨٨ بحث في قوله تعالى: ﴿وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة﴾
٨٨ بحث في قوله تعالى: ﴿لا تجعل مع الله إلها آخر﴾
٨٩ بحث في قوله تعالى: ﴿وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه﴾

٨٩ بحث في قوله تعالى: ﴿فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما﴾
٩١ بحث في أن دين الله وسط بين الغالي فيه والجافي عنه
٩٢ فصل في الفرق بين الجود والسرف
٩٣ بحث في قوله تعالى: ﴿ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلا﴾
٩٤ بحث في أن الزنا واللواط سبيلان هلاك الأولين والآخرين.
٩٥ بحث في بيان أعظم الذنوب عند الله
٩٧ فصل في أن الزنى يجمع خلال الشر كلها
٩٨ بحث في أن الله لم يخلق الخلق سدًى ولا هملاً
٩٨ بحث حول قوله تعالى: ﴿إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولاً﴾
٩٩ بحث حول قوله تعالى: ﴿قل لو كان معه آلهة كما يقولون﴾
١٠٠ بحث في أن الله سبحانه قرر برهان التوحيد أحسن تقرير وأبلغه وأوجزه
١٠١ بحث في تسبيح الكائنات لله عز وجل
١٠٢ بحث حول قوله تعالى: ﴿وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجابًا مستورًا﴾
١٠٣ بحث حول القلوب الغلف
١٠٤ بحث حول قوله تعالى: ﴿قل كونوا حجارة أو حديدًا أو خلقا مما يكبر في صدوركم﴾
١٠٥ بحث حول قوله تعالى: ﴿وقالوا أإذا كنا عظامًا ورفاتًا أئنا لمبعوثون خلقا جديدًا﴾
١٠٧ بحث حول قوله تعالى: ﴿أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب﴾
١٠٧ بحث في الرجاء أنه حادٍ يحدو القلوب إلى بلاد المحبوب
١٠٨ بحث في أن الخوف أحد أركان الإيمان والإحسان الثلاثة
١٠٩ بحث في أن الخوف من لوازم الإيمان وينتفي الإيمان بانتفائه
١١٠ بحث في أعلى درجات الجنة ولمن تكون
١١١ بحث في معنى الوسيلة
١١٢ بحث في إحاطة الرب بالعالم وهو باب معرفة الله وعبادته
١١٢ بحث في قرب الرب من عابديه وسائليه
١١٣ بحث في أن القرآن بصائر لجميع الناس
١١٤ بحث في خلق آدم عليه السلام وعدم سجود إبليس له
١١٥ بحث في قوله تعالى: ﴿اذهب فمن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم جزاءً موفورًا﴾
١١٦ بحث حول قوله تعالى: ﴿وأجلب عليهم بخيلك ورجلك﴾
١١٦ بحث في تكريم الله لبني آدم وتفضيلهم على كثير ممن خلق

١١٨ بحث حول قوله تعالى: ﴿ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات﴾
١١٩ بحث حول قوله تعالى: ﴿ولو لا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئًا قليلاً﴾
١٢٠ بحث حول قوله تعالى: ﴿أقم الصلاة لدلوك الشمس﴾
١٢١ بحث حول قوله تعالى: ﴿وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهودًا﴾
١٢٣ فصل في أنه ﷺ لم يعين في الصلاة سورة بعينها إلا في الجمعة والعيدين
١٢٤ فصل في أنه ﷺ كان يطيل الركعة الأولى على الثانية
١٢٤ بحث في الحكمة في اضطجاعه ﷺ على شقه الأيمن
١٢٥ فصل في هديه ﷺ في قيام الليل
١٢٦ بحث في قوله تعالى: ﴿وقل رب ادخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق﴾
١٢٧ حقيقة العلم اللدني
١٢٩ بحث حول قوله تعالى: ﴿وقل جاء الحق وزهق الباطل﴾
١٣٠ بحث حول قوله تعالى: ﴿وننزل من القرآن ماهو شفاء ورحمة للمؤمنين﴾
١٣١ بحث في طب النبوة
١٣٢ بحث حول قوله تعالى: ﴿قل كل يعمل على شاكلته﴾
١٣٤ بحث في نفخ الروح
١٣٥ فصل في هل الروح متقدمة على الجسد أم متأخرة عنه؟
١٣٦ بحث حول قوله تعالى: ﴿قل الروح من أمر ربي﴾
١٣٩ بحث في أن الروح وردت في القرآن على عدة أوجه
١٤٠ بحث في إضافة الروح إلى الله عز وجل
١٤١ بحث في قوله تعالى: ﴿وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا﴾
١٤١ بحث في وصف أهل الجهل
١٤٢ بحث حول قوله تعالى: ﴿ومن يهد الله فهو المهتد﴾
١٤٣ بحث حول قوله تعالى: ﴿أإذا كنا عظاما ورفاتًا أإنا لمبعوثون خلقًا جديدًا﴾
١٤٤ بحث حول قوله تعالى: ﴿وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث﴾
١٤٤ بحث حول قوله تعالى: ﴿قل آمنوا به أو لا تؤمنوا﴾ الآية
١٤٥ بحث حول قوله تعالى: ﴿قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن﴾ الآية .
١٤٧ بحث حول قوله تعالى: ﴿وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولدًا ولم يكن له شريك في الملك﴾ الآية

فهرس سورة الكهف

١٤٨ بحث حول قوله تعالى: ﴿إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها﴾ الآية

١٤٩ بحث في الفتوة والفرق بينها وبين المروءة

١٤٩ بحث في قوله تعالى: ﴿وربطنا على قلوبهم﴾ الآية.

١٥٠ بحث في عدد أصحاب الكهف

١٥١ بحث في الاستثناء بتفصيل

١٥٥ بحث في الإلحاد في أسماء الله الحسنى

١٥٥ بحث في الصبر على البلاء

١٥٦ بحث في قوله تعالى: ﴿ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه﴾

١٥٧ بحث في تزيين الخير والشر

١٥٨ بحث في الإغفال

١٥٩ بحث حول قوله تعالى: ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا﴾

١٦٠ بحث في هديه ﷺ فيما يقول من رأى ما يعجبه من أهله وماله

١٦٠ بحث حول قوله تعالى: ﴿وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم﴾ الآية.

١٦٢ بحث في ذم الله لمن نسي ماقدمت يداه

١٦٢ بحث في التمحيص يكون في الدور الثلاثة: الدنيا والبرزخ والآخرة

١٦٤ بحث حول قوله تعالى: ﴿وإذ قال موسى لفتاه لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين﴾

١٦٥ بحث في فضل الله ومنته على أنبيائه ورسله وأوليائه وعباده بما آتاهم من العلم

١٦٥ بحث حول قوله تعالى: ﴿آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا﴾

١٦٦ بحث حول قوله تعالى: ﴿فوجدا عبدًا من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا﴾

١٦٧ القول على الغلام: إنه طبع يوم طبع كافرًا، فما المراد بذلك؟

١٦٩ بحث حول قوله تعالى: ﴿وآتيناه من كل شيء سببًا﴾

١٧٠ بحث حول قوله تعالى: ﴿وعرضنا جهنم يومئذ للكافرين عرضا﴾

١٧٠ بحث حول قوله تعالى: ﴿قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالًا﴾

١٧١ بحث حول قوله تعالى: ﴿قل لو كان البحر مدادًا لكلمات ربي﴾

١٧١ بحث حول قوله تعالى: ﴿قل إنما أنا بشرٌ مثلكم يوحى إليَّ﴾

١٧٢ بحث في أن الشرك في العبادة يبطل ثواب العمل

١٧٢ بحث في أن العلم هو إمام العمل وقائد له

١٧٣ بحث في قوله تعالى: ﴿فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملًا صالحًا﴾

فهـــرس سورة مريـــم

١٧٥ بحث حول قوله تعالى: ﴿ولم أكن بدعائك ربِّ شقيًّا﴾
١٧٥ بحث في قوله تعالى: ﴿وإني خفت الموالي من ورائي وكانت امرأتي عاقرًا﴾
١٧٥ بحث في الحنين وقوله تعالى: ﴿وحنانًا من لدنا﴾
١٧٦ الحكمة ـ في كونه سلم عليهم بلفظ النكرة وشرع سبحانه لعباده أن يسلموا على رسوله بلفظ المعرفة
١٧٦ الحكمة في تسليم الله تعالى على يحيى بلفظ النكرة وتسليم المسيح على نفسه بلفظ المعرفة
١٧٧ الحكمة في تقييد السلام في قصتي يحيى والمسيح بيوم الميلاد ويوم المات ويوم البعث
١٧٨ بحث في قوله تعالى: ﴿وهزي إليك بجزع النخلة﴾ الآية
١٧٩ بحث في احتجاج المعتزلة على خلق القرآن والرد على ذلك
١٧٩ بحث حول قوله تعالى: ﴿يا أخت هارون﴾
١٧٩ بحث حول قوله تعالى: ﴿إني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبيًّا﴾
١٨٠ بحث حول مخاطبة الرؤساء والكبراء وكيف تكون؟
١٨٢ بحث حول قوله تعالى: ﴿وجعلنا لهم لسان صدق عليًّا﴾
١٨٤ بحث حول قوله تعالى: ﴿ورفعناه مكانًا عليًّا﴾
١٨٤ بحث حول قوله تعالى: ﴿فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة﴾
١٨٥ بحث حول قوله تعالى: ﴿رب السموات والأرض ومابينهما فاعبده واصطبر لعبادته﴾
١٨٧ بحث في قوله تعالى: ﴿ثم لننزعن من كل شيعة أيهم أشد على الرحمن عتيًّا﴾
١٨٨ بحث حول قوله تعالى: ﴿وإن منكم إلا واردها﴾ الآية
١٨٩ بحث حول قوله تعالى: ﴿واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عِزًّا﴾
١٩٠ بحث حول قوله تعالى: ﴿ألم تر أنا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزًّا﴾
١٩١ سلطان الشيطان على أوليائه وأهل الشرك
١٩٣ الحكمة من الاستعاذة من الشيطان
١٩٤ أصل المعاصي والبلاء هو من وسوسة الشيطان
١٩٥ بحث في العبودية وأنها نوعان
١٩٥ بحث حول قوله تعالى: ﴿وقالوا اتخذ الرحمن ولدًا﴾
١٩٥ بحث حول قوله تعالى: ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن وُدًّا﴾

فهـــرس سورة طـــه

١٩٧ بحث في أوقات الصلوات بالنسبة للمكلفين وغيرهم
١٩٨ هل تقبل صلاة الليل بالنهار وصلاة النهار بالليل؟
١٩٩ توعد الله من فوت الصلاة عن وقتها بوعيد التارك لها
٢٠١ بحث في هل تحبط الأعمال بترك الصلاة أم لا؟
٢٠٢ فصل في أن الحبوط نوعان: عام وخاص
٢٠٣ بحث في مجيء موسى عليه السلام على قدر
٢٠٤ بحث حول قوله تعالى: ﴿واصطنعتك لنفسي﴾
٢٠٥ بحث حول قوله تعالى: ﴿وفتناك فتونًا﴾
٢٠٦ بحث حول قوله تعالى: ﴿ولتصنع على عيني﴾
٢٠٧ بحث حول قوله تعالى: ﴿اذهبا إلى فرعون إنه طغى﴾
٢٠٧ الحكمة في تسليم النبي ﷺ في كتابه لهرقل بلفظ النكرة وتسليم موسى عليه السلام بلفظ المعرفة
٢٠٩ أنواع الهداية وبحث حول قوله تعالى: ﴿الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى﴾
٢١١ بحث في أن العبد لا يحصل له الهدى التام المطلوب إلا بستة أمور
٢١٣ بحث حول الهداية العامة التي هي قرينة الخلق في الدلالة على الرب سبحانه
٢١٤ بحث حول قوله تعالى: ﴿فما بال القرون الأولى﴾ الآية
٢١٥ فصل في أنه سبحانه كثيرًا ما يجمع بين الخلق والهداية
٢١٥ فصل في المرتبة الثانية من مراتب الهداية: هداية الإرشاد والبيان للمكلفين
٢١٧ المرتبة الثالثة هداية التوفيق والإلهام
٢٢٠ من تلاعب الشيطان ببني إسرائيل عبادتهم العجل
٢٢٠ اتهام بني إسرائيل نبيهم موسى عليه السلام بالخطأ والضلال وقولهم: ﴿فَنَسِيَ﴾
٢٢٢ بحث حول قوله تعالى: ﴿ما أعجلك عن قومك يا موسى﴾
٢٢٣ بحث عن السامري
٢٢٤ بحث حول قوله تعالى: ﴿يا قوم إنما فتنتم به وإن ربكم الرحمن﴾
٢٢٥ بحث في قيام الناس يوم القيامة مهطعين إلى الداعي
٢٢٥ بحث حول قوله تعالى: ﴿وخشعت الأصوات﴾
٢٢٥ بحث حول قوله تعالى: ﴿ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفًا﴾
٢٢٦ بحث حول قوله تعالى: ﴿ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلمًا ولا هضمًا﴾

٢٢٦ بحث حول قوله تعالى : ﴿ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسى ولم نجد له عزمًا﴾
٢٢٨ بحث عن الظلم
٢٢٩ بحث حوله قوله تعالى : ﴿فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى﴾
٢٢٩ بحث عن قوله تعالى : ﴿إن لك أن لا تجوع فيها ولا تعرى﴾
٢٢٩ بحث حول قوله تعالى : ﴿ثم اجتباه ربه﴾
٢٣٠ فصل في أن خلق بدن آدم من الأرض وروحه من ملكوت السماء
٢٣١ بحث في المعيشة الضنك
٢٣٢ بحث حول قوله تعالى : ﴿ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكًا﴾
٢٣٣ بحث حول قوله تعالى : ﴿ونحشره يوم القيامة أعمىٰ﴾
٢٣٦ بحث في قوله تعالى : ﴿ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجًا منهم زهرة الحياة الدنيا﴾
٢٣٦ بحث حول قوله تعالى : ﴿وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها﴾

فهــرس سورة الأنبياء

٢٣٨ بحث في أن الله سبحانه جعل العبودية وصف أكمل خلقه ﷺ
٢٣٨ بحث حول قوله تعالى : ﴿لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا﴾
٢٣٩ بحث حول قوله تعالى : ﴿لو أردنا أن نتخذ لهوًا لاتخذناه من لدنا إن كنا لفاعلين﴾
٢٤٠ عود على بحث قوله تعالى : ﴿لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا﴾
٢٤١ فصل في هديه - ﷺ - في الشرب وأنه أكمل هدي يحفظ به الصحة
٢٤٢ بحث حول قوله تعالى : ﴿وجعلنا من الماء كل شي حيٍّ﴾
٢٤٣ بحث حول قوله تعالى : ﴿وجعلنا السماء سقفًا محفوظًا﴾
٢٤٤ بحث حول قوله تعالى : ﴿وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد﴾
٢٤٥ بحث حول قوله تعالى : ﴿ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون﴾
٢٤٦ بحث حول قوله تعالى : ﴿قل من يكلؤكم بالليل والنهار من الرحمن﴾
٢٤٧ بحث حول قوله تعالى : ﴿ونضع الموازين القسط ليوم القيامة﴾
٢٤٧ بحث عن الإشفاق
٢٤٨ بحث عن اقتران التوراة بالقرآن
٢٤٨ بحث حول قوله تعالى : ﴿ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان وضياءً وذكرًا للمتقين﴾
٢٤٩ بحث حول قوله تعالى : ﴿ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين﴾
٢٥٠ بحث عن الإنابة وبيان أنها عكوف القلب على الله عز وجل
٢٥٠ بحث حول قوله تعالى : ﴿ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون﴾
٢٥١ بحث حول قوله تعالى : ﴿فجعلهم جذاذًا﴾

٢٥٢ بحث حول قوله تعالى: ﴿وداود وسليمان إذ يحكمان في الحرث﴾
٢٥٣ بحث حول قوله تعالى: ﴿وأيوب إذ نادى ربه أني مسني الضرُّ وأنت أرحم الراحمين﴾
٢٥٤ بحث حول قوله تعالى: ﴿وذا النون إذ ذهب مغاضبًا فظن أن لن نقدر عليه﴾
٢٥٤ اشتمال دعوة ذي النون على كمال التوحيد والتنزيه لله رب العالمين
٢٥٥ بحث حول قوله تعالى: ﴿وزكريا إذ نادى ربه﴾
٢٥٥ بحث عن الرغب والرهب
٢٥٦ بحث حول قوله تعالى: ﴿إنهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغبًا ورهبًا﴾
٢٥٦ بحث عن الحكم الكوني والشرعي
٢٥٧ فصل في الفرق بين الإخبار بالحال وبين الشكوى
٢٥٩ بحث حول قوله تعالى: ﴿إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون﴾
٢٦٢ الحكم التي من أجلها يعاد بنو آدم غرلا
٢٦٥ بحث حول قوله تعالى: ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾

فهـــرس سورة الحج

٢٦٦ بحث حول قوله تعالى: ﴿يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت﴾
٢٦٧ بحث حول قوله تعالى: ﴿يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب﴾
٢٦٨ بحث حول قوله تعالى: ﴿وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت﴾
٢٦٩ فصل في أن المجوس تعظم الأنوار والنيران والماء والأرض
٢٧٢ بحث حول قوله تعالى: ﴿فليمدد بسبب إلى السماء﴾
٢٧٣ بحث حول قوله تعالى: ﴿إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات﴾
٢٧٤ بحث حول قوله تعالى: ﴿إن الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام﴾
٢٧٥ عدم جواز بيع أراضي مكة وعدم إجارة بيوتها، ومن قال بالجواز
٢٧٦ تقديم الرجال على الركبان في الحج فيه فوائد جليلة
٢٧٧ بحث في اقتران الإشراك وقول الزور
٢٧٩ بحث حول قوله تعالى: ﴿فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور﴾
٢٨٠ بحث حول قوله تعالى: ﴿وبشر المخبتين﴾
٢٨٠ بحث في أن الذبيحة تجري مجرى العبادة
٢٨٠ بحث حول قوله تعالى: ﴿والبدن جعلناها لكم من شعائر الله لكم فيها خير﴾
٢٨٢ بحث حول قوله تعالى: ﴿أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا﴾ الآية
٢٨٣ بحث في جنس الجهاد وبيان أنه فرض عين

٢٨٥ بحث حول قوله تعالى: ﴿ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات﴾
٢٨٦ بحث في عقوبات الله للكافرين
٢٨٨ بحث حول قوله تعالى: ﴿فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور﴾
٢٨٩ بحث في أن الله عز وجل يغار على قلب عبده أن يكون معطلاً من حبه وخوفه ورجائه
٢٩٠ بحث في استحضار بعض العقوبات وتخيل العاقل أنها قد تصيبه
٢٩١ بحث حول قوله تعالى: ﴿ليجعل ما يلقي الشيطان فتنة للذين في قلوبهم مرض﴾
٢٩٤ بحث حول الإخبات وقوله تعالى: ﴿فتخبت له قلوبهم﴾
٢٩٥ فصل في الفرق بين الصبر والقسوة
٢٩٦ بحث في الفرق بين إلهام الملك وإلقاء الشيطان من وجوه
٢٩٦ بحث حول قوله تعالى: ﴿يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابًا ولو اجتمعوا له﴾
٢٩٩ بحث حول قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم﴾
٣٠٠ أفضل منازل الخلق عند الله منزلة الرسالة والنبوية
٣٠١ بحث حول قوله تعالى: ﴿وجاهدوا في الله حق جهاده﴾
٣٠٢ فصل في ذكر إبراهيم الخليل ﷺ
٣٠٢ بحث في قوله تعالى: ﴿هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج ملة أبيكم إبراهيم﴾
٣٠٣ بحث في قوله تعالى: ﴿واعتصموا بالله هو مولاكم﴾

فهـــرس سورة المؤمنون

٣٠٤ بحث حول قوله تعالى: ﴿قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون﴾ الآيات
٣٠٤ بحث في الخشوع وعلاماته وثمراته
٣٠٧ بحث في صلاة من عدم الخشوع هل يعتد بها أم لا؟
٣١٠ بحث حول قوله تعالى: ﴿أولئك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس﴾
٣١٢ بحث في مراحل خلق الإنسان والحكمة في ذلك
٣١٤ بحث حول قوله تعالى: ﴿وأنزلنا من السماء ماءً بقدر فأسكناه في الأرض﴾
٣١٤ بحث حول قوله: ﴿فأنشانا لكم به جنات﴾
٣١٤ بحث حول قوله: ﴿ثم أرسلنا رسلنا تترا كل ما جاء أمة رسولها كذبوه﴾
٣١٥ بحث حول قوله: ﴿يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحًا﴾
٣١٥ بحث في أن كل لذة أعقبت ألمًا أو منعت لذة أكمل منها فهي ليست لذة في الحقيقة
٣١٦ من منازل إياك نعبد وإياك نستعين منزلة الخوف

٣١٦　الخشية أخص من الخوف
٣١٧　بحث حول قوله تعالى: ﴿إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون﴾ الآيات
٣١٨　بحث حول قوله: ﴿أفلم يدبروا القول أم جاءهم ما لم يأت آباءهم الأولين﴾
٣١٨　فصل في الأدب مع الرسول ﷺ وأن القرآن مملوء به
٣١٩　بحث حول قوله تعالى: ﴿أم لم يعرفوا رسولهم فهم له منكرون﴾ الآيات
٣٢٠　بحث في أن العبد يتحقق له مقام إياك نعبد وإياك نستعين عندما يرتقى من مشهد توحيد الربوبية إلى توحيد الإلهية
٣٢١　بحث حول قوله تعالى: ﴿ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إلـه﴾
٣٢٢　بحث حول قوله تعالى: ﴿وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين﴾
٣٢٣　بحث حول قوله تعالى: ﴿ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون﴾
٣٢٤　بحث في أن الموت معاد وبعث، أول المعادين والبعثين
٣٢٥　بحث حول قوله تعالى: ﴿أفحسبتم أنما خلقناكم عبثًا وأنكم إلينا لا ترجعون﴾
٣٢٦　الحكمة في تكليف الثقلين وتعريضهم للعقوبة والمشاق

فهــرس سورة النور

٣٢٩　بحث في أنه سبحانه نهى عباده أن تأخذهم بالزناة رأفة في دينه
٣٣٠　بحث في أنه ليس في الذنوب أفسد للقلب والدين من الزنا واللواط
٣٣١　بحث حول قوله تعالى: ﴿الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة﴾
٣٣٤　فصل في بيان أن الله قد حرم نكاح الزانية
٣٣٥　بحث في أن توبة القاذف إكذابه نفسه
٣٣٦　حكم رسول الله ﷺ في اللعان
٣٣٩　فصل فيما استفيد من حكم رسول الله ـ ﷺ ـ عدة أحكام
٣٤٣　بحث في أنه قد جعل للقاذف إسقاط الحد باللعان في الزوجة دون الأجنبية
٣٤٣　بحث في جعل الله سبحانه أيمان اللعان من جانب الزوج أولاً
٣٤٤　بحث في أن نكول المرأة دون يمين الزوج ليس موجبًا للحد
٣٤٥　بحث في قصة الإفك
٣٤٧　بحث في قوله تعالى: ﴿الخبيثات للخبيثين والخبيثون للخبيثات﴾
٣٤٨　بحث في قوله تعالى: ﴿قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم﴾
٣٤٩　فوائد غض البصر
٣٥١　زكاة القلب موقوفة على طهارته وذلك موقوف على اجتناب المحرمات: الزنا وغيره
٣٥٢　فصل في أحكام النظر وغائلته وما يجني على صاحبه

٣٥٣ بحث هل يجوز تكرار النظر إلى امرأة لمن علق قلبه بها من أجل أن يسلو عنها؟
٣٥٥ فصل في أن النظر أقرب الوسائل إلى المحرم لذا اقتضت الشريعة تحريمه
٣٥٦ فصل في أن غض البصر فيه عدة فوائد
٣٥٧ فصل في أن تحريم النظر إلى الحرة العجوز وإباحته إلى الأمة الجميلة أن ذلك كذب على الشارع
٣٥٧ بحث حول قوله تعالى: ﴿ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن﴾
٣٥٧ بحث في التوبة وبيان ماتتضمنه وشروطها وحقيقتها
٣٥٩ بحث حول قوله تعالى: ﴿وأنكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم﴾
٣٦٠ بحث حول قوله تعالى: ﴿الله نور السموات والأرض﴾
٣٦١ بحث في أن الله سبحانه سمى نفسه نورًا وجعل كتابه نورًا ونبيه نورًا وحجابه نورًا
٣٦٢ بحث هل رأى رسول الله - ﷺ - ربه ليلة أسري به أم لا؟
٣٦٤ بحث في معنى نور على نور
٣٦٤ بحث في أن الناس قسمان: أهل الهدى والبصائر، وأهل الجهل والظلم
٣٦٥ بحث في أن أهل الجهل والظلم قسمان أيضًا
٣٦٧ بحث في قوله تعالى: ﴿يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية﴾
٣٦٨ بحث في قوله تعالى: ﴿والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماءً﴾
٣٦٩ فصل في الفرق بين الرجاء والتمني
٣٧٠ فصل في أصحاب مثل الظلمات المتراكمة
٣٧٤ بحث حول قوله تعالى: ﴿والله خلق كل دابة من ماء﴾
٣٧٥ بحث في أن التحقق بـ إياك نعبد وإياك نستعين علمًا وعملاً يتضمن الشفاء والفوز
٣٧٥ بحث في قوله تعالى ﴿وإذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم إذا فريق منهم معرضون﴾
٣٧٦ بحث في قوله تعالى ﴿قل أطيعوا الله وأطيعوا الرسول﴾ الآية
٣٧٧ بحث في قوله تعالى ﴿يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم﴾ الآية
٣٧٨ بحث في قوله تعالى ﴿وإذا بلغ الأطفال منكم الحلم﴾
٣٧٨ بحث في الأدب مع رسول الله ﷺ
٣٧٩ بحث في الأدب مع الخلق
٣٧٩ بحث في قوله تعالى ﴿فليحذر الذين يخالفون عن أمره﴾

فهــرس سورة الفرقان

٣٨٢ بحث في البركة وبيان أنها نوعان وأقوال أهل العلم فيها
٣٨٥ بحث في قوله: ﴿انظر كيف ضربوا لك الأمثال﴾
٣٨٥ بحث في قوله تعالى: ﴿قل أذلك خير أم جنة الخلد التي وعد المتقون﴾
٣٨٧ بحث في قوله تعالى: ﴿ويوم يحشرهم وما يعبدون من دون الله﴾
٣٩٠ بحث في قوله تعالى: ﴿ولكن متعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر وكانوا قومًا بورًا﴾
٣٩١ بحث في قوله تعالى: ﴿فقد كذبوكم بما تقولون﴾
٣٩١ بحث في قوله تعالى: ﴿وجعلنا بعضكم لبعض فتنة﴾
٣٩٣ بحث في أن الله يقطع يوم القيامة الأسباب والعلاقات التي كانت بين الخلق في الدنيا
٣٩٤ بحث في قوله: ﴿ويوم يعض الظالم على يديه يقول ياليتني اتخذت مع الرسول سبيلًا﴾
٣٩٥ بحث في أن الضابط النافع في أمر الخلطة هو أن يخالطهم في الخير ويصبر على أذاهم
٣٩٦ بحث في بيان كيف يُتّخذ القرآن مهجورًا
٣٩٦ بحث في كيفية التأمل في القرآن
٣٩٧ بحث في أن أنفع شيء للعبد أن يتدبر القرآن ويعمل به
٣٩٩ فصل في بيان أن تيسر القرآن للذكر ينافي حمله على التأويل المخالف لحقيقته وظاهره
٣٩٩ بحث في قوله تعالى: ﴿أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون﴾
٤٠١ بحث في قوله تعالى: ﴿ألم تر إلى ربك كيف مدّ الظل ولو شاء لجعله ساكنًا﴾
٤٠٣ فصل في هديه ﷺ في الجهاد والغزوات
٤٠٣ بحث في قوله تعالى: ﴿فلا تطع الكافرين وجاهدهم به جهادًا كبيراً﴾
٤٠٦ بحث في قوله تعالى: ﴿وكان الكافر على ربه ظهيراً﴾
٤٠٦ بحث في قوله تعالى: ﴿تبارك الذي جعل في السماء بروجًا﴾
٤٠٧ بحث في قوله: ﴿وهو الذي جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورًا﴾
٤٠٧ بحث في قوله تعالى: ﴿وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونًا﴾
٤٠٨ فصل في هديه ﷺ في مشيه وحده ومع أصحابه
٤٠٩ فصل في السر في نصب سلام الملائكة لإبراهيم ورفع سلام إبراهيم للملائكة
٤١٢ بحث في قوله تعالى: ﴿إن عذابها كان غرامًا﴾
٤١٢ بحث في قوله تعالى: ﴿والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا﴾
٤١٣ فصل في الفرق بين الاقتصاد والشح
٤١٣ فصل في الفرق بين الاقتصاد والتقصير

٤١٤ بحث في أصول المعاصي كلها كبارها وصغارها
٤١٤ بحث في قوله تعالى: ﴿والذين لا يدعون مع الله إلـهًا آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون﴾
٤١٧ بحث في قوله تعالى: ﴿إلا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحًا﴾
٤٢٠ فصل في التوبة: مبدؤها ومنتهاها
٤٢٢ من علامات وموجبات التوبة الصحيحة
٤٢٣ بحث في تبديل السيئات حسنات
٤٢٥ بحث في قوله تعالى: ﴿والذين لا يشهدون الزور وإذا مرُّوا باللغو مرُّوا كرامًا﴾
٤٢٨ بحث في قوله تعالى: ﴿والذين إذا ذُكِّروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صمًّا وعميانًا﴾
٤٢٨ بحث في قوله تعالى: ﴿ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين﴾
٤٢٩ فصل في الفرق بين حب الرياسة وحب الإمارة للدعوة إلى الله
٤٣١ بحث في قوله تعالى: ﴿أولئك يجزون الغرفة بما صبروا﴾

فهـــرس سورة الشعراء

٤٣٢ بحث في إنجاء أهل التوحيد وعقوبات أهل الشرك
٤٣٢ بحث في أن أصل الأعمال الدينية محبة الله ورسوله
٤٣٢ بحث في قوله تعالى: ﴿أفرأيتم ماكنتم تعبدون﴾
٤٣٤ بحث في قوله تعالى: ﴿الذي خلقني فهو يهدين والذي هو يطعمني ويسقين﴾
٤٣٤ بحث في ثناء الله سبحانه على خليله إبراهيم بسلامة القلب
٤٣٥ بحث في سلامة القلب
٤٣٦ بحث في قوله تعالى: ﴿يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم﴾
٤٣٧ فصل في القلب الميت
٤٣٧ فصل في القلب المريض
٤٣٨ بحث في بيان الشرك وأنه نوعان: أكبر وأصغر
٤٣٩ بحث في قوله تعالى: ﴿تالله إن كنا لفي ضلال مبين﴾
٤٣٩ فصل في بيان أن ثمرة الفكرة تحصل بثلاثة أشياء
٤٤٠ بحث في قصر الأمل
٤٤١ بحث في قوله تعالى: ﴿وما تنزلت به الشياطين وما ينبغي لهم وما يستطيعون﴾
٤٤٢ بحث في أحوال الناس والعالم عندما يعرضون عن تحكيم الكتاب والسنة

فهــرس سورة النمل

٤٤٤　بحث في قوله تعالى: ﴿وإنك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم﴾
٤٤٤　بحث في أن صدور الخلق والأمر منه سبحانه عن حكمته وعلمه
٤٤٥　بحث في قوله تعالى: ﴿وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم﴾
٤٤٥　بحث في قوله تعالى: ﴿وورث سليمان داود﴾
٤٤٦　فصل في أن النمل أهدى الحيوانات وهدايتها من أعجب الأشياء
٤٤٩　فصل في أن الهدهد من أهدى الحيوانات بمواضع الماء تحت الأرض
٤٤٩　بحث في حال الهدهد مع نبي الله سليمان عليه السلام
٤٥١　بحث في بيان أن من لوازم ربوبية الله تعالى إخراج الخبء من السماوات والأرض
٤٥٢　فصل في بيان أن سبب الخذلان عدم صلاحية المحل وعدم قبوله للنعمة
٤٥٤　فصل في بيان أن من علامات السعادة والفلاح أن العبد كلما زيد في علمه زيد في تواضعه
٤٥٤　بحث في قوله تعالى: ﴿قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى﴾
٤٥٥　بحث في بيان الحكمة من اقتران تسبيح الله لنفسه وحمده لنفسه بسلامه عليهم
٤٥٦　بحث في قوله تعالى: ﴿أإلـه مع الله﴾
٤٥٧　بحث في أن الله تعالى يجمع بين التوكل وبين كل من العبادة والإيمان والإسلام والتقوى والهداية
٤٦٠　بحث في قوله تعالى: ﴿صنع الله الذي أتقن كل شيء﴾

فهــرس سورة القصص

٤٦١　بحث في قوله تعالى: ﴿وأصبح فؤاد أم موسى فارغًا إن كادت لتبدي به﴾
٤٦١　العبر والحكم من قصة موسى عليه السلام مع فرعون
٤٦٢　بحث في قوله تعالى: ﴿فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوًا وحزنًا﴾
٤٦٣　الحكمة في أنه سبحانه يسلط الضعيف على القوي لينتقم منه
٤٦٥　الحكمة في أنه سبحانه جعل الملوك والأمراء والولاة من جنس أعمال الرعية
٤٦٦　الحكمة في المسخ
٤٦٦　الحكمة في إرسال الرسل واحدًا بعد واحد صلى الله عليهم وسلم
٤٦٧　بحث في قوله تعالى: ﴿وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار﴾
٤٦٨　بحث في قوله تعالى: ﴿ولولا أن تصيبهم مصيبة بما قدمت أيديهم﴾
٤٦٨　بحث في بيان أن قبح الفعل ثابت للفعل في نفسه وأن الله لا يعذب عليه إلا بعد قيام الحجة بالرسالة

٤٦٩ فصل في تحريم الإفتاء في دين الله بالرأي المتضمن لمخالفة النصوص أو الرأي الذي لم تشهد له النصوص بالقبول

٤٧٠ بحث في قوله تعالى: ﴿فإن لم يستجيبوا لك فاعلم أنما يتبعون أهواءهم﴾

٤٧١ بحث في أن متبع الهوى لا بد أن يجد في نفسه ذلاً

٤٧٢ بحث في قوله تعالى: ﴿ الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون﴾

٤٧٤ قدوم وفد من النصارى على رسول الله ﷺ وهو بمكة ودعوتهم للإسلام

٤٧٥ بحث في أن الهداية بيد الله وليست بيد أحد

٤٧٥ بحث في بيان أن خلو القلب من هموم الدنيا ومتعلقاتها وتعلقه بالآخرة أول مراحل سعادته

٤٧٧ بحث في قوله تعالى: ﴿وربك يخلق مايشاء ويختار﴾ بتوسع

٤٨٣ بحث في خلق الرب تبارك وتعالى بعض الجنان وغرسها بيده تفضيلاً لها على سائر الجنان

٤٨٤ بحث في حال الشمس والقمر في طلوعهما وغروبهما لإقامة دولتي الليل والنهار

٤٨٤ بحث في قوله تعالى: ﴿قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمدًا إلى يوم القيامة﴾

٤٨٥ بحث في قوله تعالى: ﴿لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين﴾

٤٨٥ بحث في ذم متمني الدنيا والغنى والسعة فيها ومدح من أنكر عليهم وخالفهم

٤٨٦ بحث في بيان أنواع النفوس

٤٨٧ بحث في قوله تعالى: ﴿كل شيء هالك إلا وجهه﴾

فهـــرس سورة العنكبوت

٤٩٠ بحث في قوله تعالى: ﴿الٓمٓ أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون﴾

٤٩١ بحث في بيان أن الألم لا محيص منه البتة

٤٩٢ بحث في بيان أن الشوق يحمل المشتاق على الجد في السير إلى محبوبه

٤٩٣ بحث في بيان كمال العبودية والمحبة والطاعة تظهر عند ظهور الدواعي المخالفة للعبودية

٤٩٤ بحث حول قوله تعالى: ﴿من كان يرجو لقاء الله فإن أجل الله لآت﴾

٤٩٥ بحث في بيان أن أفضل العطاء وأجله هو الإيمان وجزاؤه الجنة ولا يتم ذلك إلا بالاختبار

٤٩٦ بحث في إنكار الرب سبحانه على من لم يلتزم الإيمان ومتابعة الرسول خوف الفتنة والمحنة

٤٩٧ بحث في قوله: ﴿ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه إن الله لغني عن العالمين﴾

٤٩٩ صور من بعض ابتلاءات الرسل والأمم السابقين

٥٠٠ بحث في قوله تعالى: ﴿قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق﴾

٥٠٠ بحث في قوله تعالى: ﴿إنما اتخذتم من دون الله أوثانًا مودة بينكم في الحياة الدنيا﴾

٥٠٠ بحث في بيان أن مودة أهل المعاصي والفسوق تنقلب عليهم يوم القيامة إلى عداوة وبغضاء

٥٠١ بحث في قوله تعالى: ﴿وتأتون في ناديكم المنكر﴾
٥٠٣ بحث في حكمته تعالى في عقوبات الأمم الخالية وتنويعها عليهم بحسب تنوع جرائمهم
٥٠٣ بحث في قوله تعالى: ﴿وعادًا وثمود وقد تبين لكم من مساكنهم﴾
٥٠٥ بحث في قوله تعالى: ﴿مثل الذين اتخذوا من الله أولياء كمثل العنكبوت﴾
٥٠٦ الحكمة من ضرب الأمثال
٥٠٦ بحث في قوله تعالى: ﴿وتلك الأمثال نضربها للناس ومايعقلها إلا العالمون﴾
٥٠٧ بحث في فضل الذكر ومنزلته
٥٠٨ فصل في تفصيل منزلة الذكر ومكانته وفضله
٥٠٨ بحث في قوله تعالى: ﴿اتل ما أوحي من الكتاب وأقم الصلاة﴾
٥٠٩ بحث في مدح أهل العلم والثناء عليهم وشرفهم بأن جعل كتابه آيات بينات في صدورهم
٥١٠ بحث في قوله تعالى: ﴿أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم﴾
٥١٠ بحث في تقسيم طرق الحكم إلى شريعة وسياسة أو شريعة وحقيقة وبيان بطلانه
٥١٢ بحث في جواز العمل في السلطنة الشرعية بالسياسة
٥١٤ بحث في أنواع السياسة
٥١٥ بحث في بيان وجوب الإيمان بعموم الرسالة في شمولها على مصالح العباد الدينية والدنيوية
٥١٦ بحث في قوله تعالى: ﴿إن الدار الأخرة لهي الحيوان﴾
٥١٧ بحث في بيان أن التوحيد هو مفزع أعدائه وأوليائه يلجأون إليه
٥١٨ بحث في بيان أن الهداية معلقة بالجهاد لا تنفك عنه

فهـــرس سورة الروم

٥١٩ بحث في قوله تعالى: ﴿الٓمٓ غلبت الروم﴾ الآيات
٥٢١ بحث في قوله تعالى: ﴿ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون﴾
٥٢٢ بحث في سماع غناء أهل الجنة وأنهم في روضة يحبرون
٥٢٢ فصل في المحبة النافعة
٥٢٢ بحث في قوله تعالى: ﴿ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجًا لتسكنوا إليها﴾
٥٢٣ بحث في قوله: ﴿ضرب لكم مثلاً من أنفسكم هل لكم مما ملكت أيمانكم من شركاء﴾
٥٢٦ بحث في ذكر الفطرة الأولى ومعناها واختلاف الناس في المراد بها
٥٢٧ بحث في قوله تعالى: ﴿فطرة الله التي فطر الناس عليها﴾ بتوسع
٥٣٠ بحث في بيان منزلة التوبة وإنها كالمقدمة لمنزلة الإنابة
٥٣١ بحث في قوله تعالى: ﴿منيبين إليه واتقوه وأقيموا الصلاة﴾
٥٣٣ بحث في بيان أن الله اتقن كل شيء وأحسن خلقه ثم بما كسبت أيدي الناس أفسد الصالح

٥٣٤ بحث في قوله تعالى: ﴿ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس﴾
٥٣٥ فصل في بيان آثار الذنوب والمعاصي في الأرض
٥٣٧ بحث في بيان أن الله استشهد بأهل العلم والإيمان يوم القيامة على بطلان قول الكفار
٥٣٧ بحث في قوله: ﴿وقال الذين أوتوا العلم والإيمان لقد لبثتم في كتاب الله إلى يوم البعث﴾
٥٣٨ بحث في قوله تعالى: ﴿ولا يستخفنك الذين لا يوقنون﴾

فهـــرس سورة لقمان

٥٤٠ بحث في قوله تعالى: ﴿ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله﴾
٥٤١ بحث في بيان أن لهو الحديث هو الغناء
٥٤٤ بحث في بيان مكايد عدو الله ومصايده التي كاد بها قلوب الجاهلين والمبطلين
٥٤٦ فصل في بيان تحريم رسول الله ﷺ الصريح لآلات اللهو والمعازف
٥٤٦ بحث في بيان أن منزلة السماع من منازل إياك نعبد وإياك نستعين، بتوسع
٥٥٢ بحث حول قوله تعالى: ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات النعيم﴾
٥٥٢ بحث في قوله تعالى: ﴿هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه﴾
٥٥٢ بحث في الحكمة من خلق الأرض على هيئتها الحالية
٥٥٣ بحث في أن الشأن هو الانشغال بطاعة الله لا بسماع الصوت الأحمق الفاجر
٥٥٤ بحث في أن إنعام الرب على عبده فهو محض تفضله وإحسانه وامتنانه
٥٥٥ بحث في قوله تعالى: ﴿ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهنًا على وهن﴾
٥٥٥ بحث في قوله تعالى: ﴿وأمر بالمعروف وأنه عن المنكر واصبر على ما أصابك﴾
٥٥٦ بحث في بيان أن الجهاد في سبيل الله المتولد عن أذى الناس حين دعوتهم فضله عظيم
٥٥٧ بحث في قوله تعالى: ﴿إن أنكر الأصوات لصوت الحمير﴾
٥٥٧ بحث في قوله تعالى: ﴿ألم تروا أن الله سخر لكم ما في السموات وما في الأرض﴾
٥٥٨ بحث في قوله: ﴿ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر﴾

فهـــرس سورة السجدة

٥٦٠ بحث في قوله تعالى: ﴿الله الذي خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام﴾
٥٦١ بحث في الاستواء على العرش
٥٦٢ بحث في إبطال قول الملاحدة وأهل البدع في الروح
٥٦٣ بحث في أن الجنة فوق ما يخطر بالبال أو يدور في الخيال
٥٦٤ بحث في قوله تعالى: ﴿تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفًا وطمعًا﴾
٥٦٥ بحث في قوله تعالى: ﴿كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها﴾

٥٦٦ بحث في بيان أن اليقين من منازل إياك نعبد وإياك نستعين .
٥٦٧ بحث في قوله تعالى : **﴿وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون﴾**

بهذا تم المجلد الرابع من كتاب الضوء المنير على التفسير
ويليه إن شاء الله المجلد الخامس ويبدأ بسورة الأحزاب
والحمد لله رب العالمين